

الأخلاق

بِمَا فِي دِينِ النَّصَارَى مِنَ الْفُسَادِ وَالْأَوْهَامِ
وَأَظْهَرَ مُحَاسِنَ دِينِ الْإِسْلَامِ
وَأَثَبَتْ نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

تأليف

الإمام الفَرَطِيُّ

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أحمد مجازي السقا

الجزء الأول

دار التراث العربي

الإمام القرطبي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

صور هذا الكتاب بالميكروفيلم في معهد احياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بمصر . وطبعنا هذه عن صورة الميكروفيلم - لأنه لم يطبع من قبل - وقد كتب المعهد عنه في فهرس كتبه ما نصه :

« ٢٩ - الاعلام بما في دين النصارى من الفساد والاوهام . واهل محاسن دين الاسلام . واثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام . تأليف القرطبي (؟) وهو رد على كتاب ألفه أحد النصارى سماه : « تثليث الوجدانية » بعث به من « طليطلة » الى مدينة « قرطبة » فرغ منه سنة ٦٨٤ هـ بالكرك المحروس . نسخة كتبت سنة ٨٧٩ بخط نسخ جيد واضح (كوبريللى ٧٩٤ مكرر - ١٠٧ ورقة - ١٨ x ٢٦ سم) « ٥١ هـ

وقال الكاتب في نهاية كتاب الاعلام هذا : انه فرغ منه سنة سبعمائة وست وعشرون من الهجرة ومعنى هذا : أن القرطبي مؤلف كتاب الاعلام ليس هو القرطبي الامام الفقيه المفسر للقرآن الكريم ، لأن القرطبي الامام الفقيه المفسر توفي سنة ستمائة وواحد وسبعين من الهجرة ، ويؤيد هذا : أن أسلوب مؤلف الاعلام غير أسلوب مفسر القرآن ، وأن ابن فرحون - رحمه الله - في « الديباج المذهب » (١) لم يعد الاعلام من كتب القرطبي المفسر . وأن القرافي الفقيه المتوفى سنة ستمائة وأربعة وثمانين من الهجرة نقل منه عن « أوغسطين » وعن « حفص » .

ويقول « كارل بروكلمان » : ان مؤلف الاعلام هو القرطبي مؤلف تفسير القرآن الكريم لا غيره . ويقول : ان للاعلام نسختين خطيتين في « كوبريللى » الاولى رقمها : سبعمائة وأربعة وتسعين رمز « باء » والثانية رقمها : ثمانمائة وأربعة عشر ، ويعرف بالقرطبي مؤلف الاعلام والتفسير المسمى : « الجامع لأحكام القرآن » . والذين لما تضمن من السنة وآى الفرقان » فيقول : هو شمس الدين : محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح

الأنصارى القرطبي المتوفى سنة ستمائة وواحد وسبعين من الهجرة ، الموافق ألف ومائتين وثلاثة وسبعين من الميلاد • ويؤيده : أن القرافي مات في نفس السنة التي فرغ منها مؤلف الاعلام كما يقول فهرس معهد المخطوطات عن تاريخ الفراغ ومن المحتمل أن يكون قد نقل عن المؤلف قبل اظهار الكتاب في دور الكتب ، أو هما معا قد نقلتا عن غيرهما •

ويؤيد « كارل بروكلمان » : الدكتور « زلط » الحاصل على الدكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الأزهر في موضوع : « القرطبي ومنهجه في التفسير » ويؤيده أيضا : صاحب كتاب « هدية العارفين » •

وهذا الكتاب يشتمل على أربعة أجزاء • ويتضمن أربعة أبواب • ومقدمة (صدر) •

الباب الأول : في بيان مذاهب النصارى في الأتانيم الثلاثة وابطال قولهم فيها • وفي هذا الباب : بين المؤلف : أن أصل الأتنيوم (١) عند النصارى هو : « الشيء المستغنى بذاته عن أصل جوهره ، في اقامة خاصة جوهرية » وأن بعضهم يقول : « ان الأتانيم أسماء أفعال لله تعالى » ورد بقوله : ان أسماء الأفعال أكثر من ثلاثة ، وأن التوراة التي جاء المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام مصححا لها ومصدقا غير ناسخ : نصت على أن الله واحد ، وعلى أن الله منزّه عن المثل والشبه (٢) • وفي الانجيل - رغم تحريفه كالتوراة - مثل ما في التوراة عن الوحدانية وعن عدم مماثلة الله للبشر ، وأنه لا يرى ، ولا يقدر أحد أن يراه •

وذكر القرطبي - رحمه الله - قولهم في أتانيم الصفات الثلاثة وهي : القدرة والعلم والحياة • أو : الوجود والعلم والحياة • ونقد قولهم هذا •

(١) أصل الأتنيوم في اللغة السريانية : « شخص مستقل بنفسه » وهو هكذا عند الكاثوليك ، الذين يقولون بتميز الأتانيم وانفصال كل أتنيوم - أي اله - عن الآخر • ثم استعمل مجازا في « مرحلة » من مراحل ثلاثة لذات الله تعالى عند الأرثوذكس ، القائلين بتجسد الله في شخص المسيح ابن مريم ، أي أن عيسى هو الله الخالق الرازق المحيى المهيى - « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا » (الكهف : ٥) •

(٢) ففي التوراة : (ا) « الرب الهنا رب واحد » (ب) « ليس مثل الله » (انظر سفر تثنية الاشتراع) •

وذكر قولهم في تعليل التثليث ، ورد عليهم فيه • وذكر أدلتهم على التثليث ورد عليها ، وبين أنهم مختلفون في حقيقة الأقانيم اختلافا شديدا •

الباب الثاني : في بيان مذاهب النصارى في الاتحاد والحلول وإبطال قولهم فيها • وفي هذا الباب : بين المؤلف - رحمه الله - قولهم في كيفية اتحاد كلمة الله بجسد المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - وقولهم في معنى الاتحاد ، ورد عليهم • ورد أيضا على قولهم بالواسطة التي تجسدت بين الله - تعالى - وبين موسى - عليه السلام - وهى : كلام الله لموسى في طور سيناء • وقال : ان كلام الله لم يتجسد • ثم حكى من كلام المتقدمين منهم في المذهب النصرانى ما يدل على اختلافهم الشديد في « الاتحاد » •

وفي نهاية الباب : ذكر مذهب « أوغسطين » الذى وضحه في مصحف « العالم الكائن » ونقده نقدا شديدا - وبانتهاء الباب الثانى ينتهى **الجزء الأول -**

الباب الثالث : في النبوات وذكر كلام النصارى فيها • وهذا الباب ينقسم الى قسمين :

القسم الاول : حكى القرطبى - رحمه الله - فيه كلام مؤلف « تثليث الوجدانية في معرفة الله » في أمر « المسيح المنتظر » الذى هو « المسيا » الذى تشير اليه نبوءات : (١) التوراة (الأسفار الخمسة) (ب) وأسفار الأنبياء ، وبين أنه عيسى ابن مريم - عليه السلام - والحق : أنه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ثم نقل القرطبى - رحمه الله - قول مؤلف « تثليث الوجدانية في معرفة الله » للمسلمين : « وان كان فيها - أى في التوراة - محمد منتظرا • ثم وافقت علاماته ، علامات الكتب ، فقد أصاب المسلم ، ولزم النصرانى الخروج عن رضا معبوده » ورد القرطبى - رحمه الله - عليه : بأن التوراة والانجيل - رغم تحريفهما - فيهما ذكر لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبأن التوراة والانجيل فيهما تحريف لفظى ومعنوى ، ويحتمل مع هذا التحريف سقوط نبوءات عن محمد كانت واضحة عنه ، وحكى القرطبى أيضا سخرية مؤلف تثليث الوجدانية عن « هاجر » - رضى الله عنها - أم اسماعيل النبى - عليه السلام - ورد عليها بنصوص من التوراة تدل على أنها صديقة •

والقسم الثانى : ذكر فيه المؤلف معنى « النبوة » ومعنى « المعجزة » وبين أن معجزات عيسى - عليه السلام - لا تدل على ألوهيته ، بل على نبوته - وعند هذا الحد ، انتهى **الجزء الثانى -**

وذكر المؤلف في القسم الثاني أيضا أربعة أنواع لاثبات نبوة نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - .

النوع الأول : من الأدلة على ثبوت نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - أخبار الأنبياء به قبله .

النوع الثاني : الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله - صلى الله عليه وسلم - .

النوع الثالث : الاستدلال على نبوته - صلى الله عليه وسلم - بالكتاب العزيز الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (فصلت : ٤٢) أى باعجاز القرآن .

النوع الرابع : في الاستدلال على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بجملة من الآيات الخارقة للعادات - وبانتهاء هذا النوع ينتهى الجزء الثالث -

الباب الرابع : في بيان أن النصارى متحكمون في أديانهم ، وأنهم لا مستند لهم في أحكامهم الا محض أغراضهم وأهوائهم . وهذا الباب يشتمل على :

١ - مقدمة . بين فيها أن النصارى ليسوا على شيء ، وأنهم خرجوا على تعاليم التوراة وخرجوا على تعاليم الانجيل الذى قال فيه عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس » .

٢ - ويشتمل على فنيين :

الفن الأول : ذكر فيه من أسرار الكنيسة السبعة (١) ، وذكر فيه من الشعائر النصرانية والطقوس .

والفن الثانى : ذكر فيه عقائد الاسلام ، وأصول أحكامه ، ورد فيه على شبه النصارى على الاسلام - وبانتهاء الباب الرابع ينتهى الجزء الرابع - وهو الأخير - من هذا الكتاب المفيد - .

(١) أسرار الكنيسة السبعة هى : ١ - سر المعمودية ، وهى عند الأرثوذكس بالتغطيس فى الماء ، وعند الكاثوليك بالرش ٢ - سر المسحة ٣ - سر القربان ٤ - سر التوبة ٥ - سر مسحة المرضى ٦ - سر الزواج ٧ - سر الكهنوت .

وانه لكتاب مفيد في « علم مقارنة الأديان » لان مؤلفه رد فيه على كتب كثيرة ورسائل للنصارى ، نصارى الكاثوليك في الاندلس ، وما حولها من القرى . ومن الكتب والرسائل التى رد عليها : كتاب « المسائل » وكتاب « الحروف » وكتاب « تثليث الوجدانية في معرفة الله » ومصحف « العالم الكائن » (١) للقدّيس أوغسطين ، فيلسوف النصرانية ، وكتب من تأليف القسيس « حفص بن البر » (٢) ورسالة الاسقف « ليون » الى أساقفة « صقلية » وقوانين أساقفة « الاندلس » للرعية ، و « بليون الجاثليق » في رسالته لـ « ليون » الملك . . . الخ .

ومؤلفه من العلماء الأفكياء ، الذين لهم حظ من حفظ نثر وشعر ، وأمثال وحكم ، وقرآن وسنة ، فتحدث بأسلوب أدبى راقى ، ووضع الكلمة في موضعها المناسب ، وأحسن عرض الأفكار ، وأحكم الرد في كثير من المسائل .

وما كنت أنوى اخراج هذا الكتاب ، لاني أخرجت كتباً كثيرة في موضوعه . منها : « اظهار الحق » للشيخ رحمت الله الهندي (١٢٣٣ - ١٣٠٨ هـ) الذى اطلع على كتاب الاعلام هذا في « تركيا » أثناء مقامه في ضيافة الخليفة عبد العزيز خان - رحمه الله - ونقل منه حساب « الجمل » وضم القديس « بولس » وصاغ كتابه على مثاله (٣) . ومنها : « شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والانجيل من التبديل » للجوينى عبد الملك أبى المعالى ، امام الحرمين . ومنها : « منظومة الامام الأبوصيرى في الرد على النصارى واليهود » تأليف الأبوصيرى ناظم بردة المديح المباركة . ومنها كتاب : « على التوراة » للامام الباجى الشافعى ، وقد ألفه في « الكرك » بالأردن ، في نفس المكان الذى ألف فيه الاعلام . ومنها كتاب « الفصل . في الملل والأهواء والنحل » لابن حزم - الجزء الخاص بنقد التوراة والانجيل - ومنها كتاب « هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى » لابن قيم الجوزية .

-
- (١) يقال : ان هذا الكتاب مفقود الى اليوم .
(٢) حفص بن البر ، هكذا كتب . وكتب أيضا : حفص بن البرقى .
(٣) واطلع عليه ونقل منه أيضا الامام القرافى مؤلف كتاب : (الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة) ، نقل من كلام حفص ومن أوغسطين في مصحف العالم الكائن . والقرافى - رحمه الله - مات في سنة (٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م) وهو مصرى المولد والمنشأ والوفاة .

ولكنى أخرجته لحبى لأستاذى الجليل ، الأستاذ الدكتور الشيخ : عبد الغنى عوض الراجحى ، وتقديرى له . فانى لما رأيت أسلوب المؤلف كإسلوبه فى الحديث الشفهى ، وفى التأليف ، رأيت للذكرى أن أخرجها ليتجلى للناس مظهر من مظاهر قدرة الله فى خلقه وهو تشابه رجلين فى عصرين مختلفين فى العقل والنطق ، ولا يمكن أن يحدث هذا ومثل هذا من غير أن يكون وراء الكل مدبر حكيم ، وهو الله عز وجل .

يمتاز مؤلف الكتاب ، وأستاذنا مثله : بحبه للمعرفة ، وتأكدته منها ، ثم حماسه لنشرها ، حماس المتعقل الفطن ، الذى يجعل الكلام فى النظريات - كما يقول القديس « أوغسطين » فى مصحف العالم الكائن - « على منازل ودرجات ، ليكون من اجتمع معنا فى الدرجة الأولى ، تكلمنا معه فى الدرجة الثانية ، ومن اجتمع معنا فى الدرجة الثانية تكلمنا معه فى الدرجة الثالثة ، ثم نمضى كذلك الى أقصى نهايات الكلام . فانما يكون فساد الكلام وتناقضه واشتباهه من قبل النقص فى معرفة هذه الدرج . لانا متى ناظرنا فى الدرجة الثانية ، من لم يجتمع معنا فى الأولى ، لم يبلغ الكلام غاية ، ولم يقف على نهاية » ١٠ هـ .

وبهذا كان يقول الدكتور عبد الغنى (١) - أعزه الله - .

وقد رأيت أن أكتب فى هذا التقديم : مبحثين . المبحث الأول : (أصل الأتقانيم وتطورها) والمبحث الثانى : (المسيا المنتظر) (٢) الذى هو (المسيح) لأن مؤلف الاعلام ترك شيئاً وغابت عنه أشياء . وبذلك نكون معا قد وضعنا الرد التفصيلى ، المحكم بالأدلة : على النصارى .

(١) الدكتور عبد الغنى . لم يقتصر على فهم العلوم التى تدرس فى الأزهر وهى الفقه والنحو الخ بل درس الكيمياء والطبيعة وعلم الأحياء . . . الخ العلوم الحديثة . وكان يفهمها للزهريين بأسلوب واضح على نظرية « أوغسطين » فاستطاعوا أن يفهموها ، ولم يكن جامداً على القديم ، بل كان يجتهد ويخرج بآراء فى الفقه والتفسير وغيرها تجعله من الأئمة المجتهدين ، وما كان يذم عالماً للسمع عنه ، بل اذا سمع طلب الكتاب الذى فيه رأى ، الذى قيل فيه الذم من أجله ، وينظر فيه بنفسه ، ثم يقول ما يقول عن علم ، لا عن سماع . ولذلك هو أول أزهري أنصف الشيخ محمد عبده ومدرسته وأعطاهم حقهم من التقدير والاحترام والاحترام - جزاه الله خير الجزاء وأكثر من أمثاله - وقال للجامدين من الأزهريين : « موتوا بغيظكم » (آل عمران : ١١٩) .

(٢) بفتح الميم وكسر السين وتشديد الياء مفتوحة .

أصل الأتانيم وتطورها

الأتانيم عند النصارى ثلاثة : هي أقنوم «آب» - بصد الهمزة ، ونطق الباء نطقا خفيفا - وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس . وأصل «آب» عندهم : لقب لله عز وجل وهو يماوى الآب . وأصل «الابن» عندهم : لقب للنبي المنتظر في المزمور الثانى لداوود عليه السلام . ذلك لأنهم يقولون : « نحن أبناء الله وأحبأؤه » (المائدة : ١٨) كما حكى القرآن عنهم ، ولما أرادوا جعل النبي المنتظر الذى أخبر موسى عليه السلام أنه سيأتى من نسل اسماعيل عليه السلام : نبيا منهم أنفسهم لا من نسل اسماعيل ، وضعوا عليه لقب « ابن » كما يلتقبون أنفسهم ليوهبوا للعالم أنه سيكون منهم لا من نسل اسماعيل . وأصل « الروح القدس » عندهم : لقب للنبي المنتظر أيضا في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا ، فقد روى عن عيسى - عليه السلام - : « بيركليت(١) الروح القدس » وبيركليت : اسم أحمد - صلى الله عليه وسلم - والروح القدس : لقب لأحمد ، أى أحمد المصطفى نبيا من الله القدوس الطاهر . ولما أرادوا ختم النبوة بعيسى - عليه السلام - جعلوه هو « الابن » وجعلوه هو « الروح القدس » أى لقبوه بلقبى « الابن » و « الروح القدس » بعدما جعلوه هو الله « الآب » وغرضهم من ذلك : قفل باب النبوة في وجه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وبيان ذلك :

لقد كتبوا - ونحن نجادلهم بما كتبوا بغض النظر عن صحته أو عدم صحته ، لأنهم يعتقدون في صحة المكتوب - كتبوا في توراة موسى في سفر التثنية في الاصحاح الرابع عشر أن الله - تعالى - خاطب اليهود بقوله : « أنتم أولاد للرب الهكم » (تث ١٤ : ١) واليهود خاطبوا الله بقولهم : « أنت يا رب أبونا » (أشعيا ٦٣ : ١٦) واليهود يقولون : ان الأبوة والبنوة مجازية ، أى أن الله تعالى ولى النعم وصاحب الفضل وهم منتسبون إليه .

(١) بيركليت ، جاءت في الكتاب أيضا « فيرقليط » ثم حرفوها الى « فارقليط » (باركليت) ثم حذفوها الآن من بعض الطبعات وكتبوا بدلها « المعزى » بضم الميم وفتح العين وتشديد الزاي مكسورة .

يقول شيخ الاسلام الامام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ - يرحمه الله - في ذلك المعنى : « لفظ الابن يعبر به عن ولد الولادة المعروفة ، ويعبر به عن كان هو سببا في وجوده ، كما يقال : « ابن السبيل » لمن ولدته الطريق ، فانه لما جاء من جهة الطريق جعل كانه ولده ، ويقال لبعض الطير : « ابن الماء » لانه يجيء من جهة الماء . ويقال : « كونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا » فان الابن ينتسب الى أبيه ويحبه ويضاف اليه أى كونوا ممن ينتسب الى الآخرة ويحبها ويضاف اليها . وهذا اللفظ موجود في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب في حق « الصالحين » الذين يحبهم الله ويربهم ، كما ذكروا أن المسيح قال : « أبى وأبيكم ، والهى والهكم » (يوحنا ٢٠ : ١٧) وفي التوراة : أن الله قال ليعقوب : « أنت ابنى بكرى » (خروج ٤ : ٢٢) ونحو ذلك مما يراد به - اذا كان صحيحا له معنى صحيح - : المحبة له والاصطفاء والرحمة له ، وكان المعنى مفهوما عند الأنبياء - عليهم السلام - ومن يخاطبونه ، وهو من **الألفاظ التشابهية** ، فصار كثير من أتباعهم يريدون به المعنى الباطل « (١) » ٥١ هـ

يقول اليهود بذلك لأن الآيات المحكمة في التوراة تدل على أن الله واحد وليس كمثل شئ . ولم يره أحد ، ولن يقدر أحد على رؤيته . ففى الاصحاح السادس من سفر التثنية : « اسمع يا اسرائيل . الرب الهنا رب واحد » (٢) وفى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « ليس مثل الله » وفى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر الخروج قال الله لموسى : « لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الانسان لا يرانى ويعيش » وقال النصارى الأوائل - الذين كانوا فى الزمن من قبل التحريف بقول اليهود ، لأن عيسى نبيهم قال لهم : ما جئت لأنسخ التوراة . وفى الاناجيل المتداولة الى اليوم فى أيديهم رغم تحريفها دلائل على التوحيد والتنزيه . ففى الاصحاح الثانى عشر من انجيل مرقس : نجد كاتبا (عالما) من علماء اليهود يسأل عيسى - عليه السلام - عن الوجدانية فيجيبه بأن الله واحد كما قال فى التوراة موسى عليه السلام . يقول مرقس : « فجاء واحد من الكتبة ، وسمعهم يتحاورون . فلما رأى أنه أجابهم حسنا . سأل : أية وصية هى أول الكل ؟ فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا هى : اسمع يا اسرائيل : الرب الهنا رب واحد ، وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - ابن تيمية صفحة ٣٤٦

جزء ٢ .

(٢) وقد استدلل عيسى بهذه الآية على أن الله واحد كما جاء فى الاصحاح الثانى عشر من انجيل مرقس ، وورد أيضا عنه فى متى ولوقا .

فكرك • هذه هي الوصية الاولى « وقد ذكر يوحنا في الاصحاح الاول من انجيله أن : « الله لم يره أحد قط » كما جاء في التوراة •

وسبب تنبؤ داوود عليه السلام عن النبی المنتظر ، وهو متبع للتوراة ، غير خارج عنها :

أن الله تعالى وعد ابراهيم (١) النبی - عليه السلام - ببركة الأمم في ولديه : اسماعيل واسحاق - عليهما السلام - وأكد على ذلك في أكثر من آية • فعن اسماعيل - عليه السلام - قال الله لابراهيم : « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه • ها أنا أباركه » (تكوين ١٧ : ٢٠) وقال ملاك الله لهاجر - رضى الله عنها - : « ها أنت حبلى فتلدین ابنا ، وتدعین اسمه اسماعيل • لأن الرب قد سمع لذلک • وأنه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه » (تكوين ١٦ : ١١ - ١٢) وعن اسحاق - عليه السلام - قال الله له : « أنا اله ابراهيم أبيك • لا تخف • لأنى معك • وأبارکک • وأكثر نسلک • من أجل ابراهيم عبدى » (تكوين ٢٦ : ٢٤) ومعنى البركة : ١ - أن يكون من النسل ملوك على الشعوب • ليحكموا الناس بشريعة الله حتى يحكم الناس أنفسهم ٢ - وأن يكون من النسل نبی يصطفیه الله ويعطيه شريعة ليتحاكم بها الناس •

وبدأت البركة في نسل اسحاق أولا ، فقد اصطفى الله ولده يعقوب • عليه السلام لتحل البركة فيه ، واصطفى من آل يعقوب (اسرائيل) موسى ابن عمران وأعطاه : التوراة « موعظة وتفصيلا لكل شيء » (الأعراف : ١٤٥) وجعل من بنى اسرائيل : أنبياء ، لكن على شريعة موسى لا ينسخونها ولا يخرجون عنها ، وجعل منهم ملوكا على الشعوب كما قال تعالى : « واذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم مالم يوت أحدا من العالمين » (المائدة : ٢٠) • لقد جعل فيهم أنبياء وملوكا لتحقيق بهم بركة ابراهيم في الأمم •

(١) يلقب النصرانى ابراهيم عليه السلام بلقب « بطريك » لانه رئيس الباء ، وكلمة بطريك من أصل يونانى (PATRIARCHES) وهى تتكون من مقطعين (PATRIA) أى عائلة و (ARCHE) أى رئيس •

ثم نبه الله - على لسان موسى - على مجيء نبي من اسماعيل ،
تنتهي بمجيئه بركة ابراهيم في الامم بال اسحاق ، وتبدأ بمجيئه بركة
«ابراهيم في الامم بال اسماعيل ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كان
موسى عليه السلام في آل اسحاق . قال موسى - عليه السلام - : « يقيم لك
الرب الهك : نبيا ، من وسطك ، من اخوتك ، مثلي . له تسمعون حسب
كل ما طلبت من الرب الهك في حوريب يوم الاجتماع ، يوم قلت : لا أعود
أسمع صوت الرب الهى ، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت .
قال لى الله : قد أحسنوا فيما تكلموا . أقيم لهم : نبيا ، من وسط اخوتهم ،
مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به .

ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا اطلبه .
وأما النبى الذى يطفى ، فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى
يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى (١) . وإن قلت فى قلبك :
كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبى باسم
الرب ولم يحدث ولم يصير ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل
بطغيان تكلم به النبى ، فلا تخف منه » (تث ١٨ : ١٥ - ٢٢) .

ومعنى : « كالذى سألت الله ربك فى حوريب ، يوم الاجتماع ، يوم
قلت : لا أعود أسمع صوت الله ربى ، ولا أرى هذه النار العظيمة فأموت »
إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام - كما كتبوا - : « ها أنا آت إليك
فى ظلام السحاب ، لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك ، فيؤمنوا بك »
(خروج ١٩ : ٩) ولما جمع موسى الشعب نحو جبل حوريب ، أى جبل
طور سيناء « كان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق
والجبل يذخن ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد . وقالوا لموسى :
تتكلم أنت معنا فنسمع ، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » (خروج ٢٠ :
١٨ - ١٩) فقال الله لهم : حسنا قلتتم . وإذا أردت مخاطبتكم فسا رسل
الحكم نبيا مثل موسى له تسمعون وتطيعون .

وهذه النبوءة تنطبق على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهى المشار
إليها فى الآية السابعة والخمسين بعد المائة فى سورة الاعراف ، ووجه
دلالتها عليه : أنها تحدد تسعة أوصاف للنبى المنتظر كلهم فيه صلى الله
عليه وسلم :

(١) فى التوراة السامرية ، وفى ترجمة اليسوعيين : « فليقتل ذلك
النبى » .

- ١ - نبي « يقيم لك الرب الهك نبيا » .
- ٢ - من بنى اسماعيل « من اخوتك » لأن اسحاق أخ لاسماعيل .
ولاسماعيل بركة مثل بركة اسحاق .
- ٣ - مثل موسى « مثلى » وفي الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية « لن يقوم في اسرائيل نبي كموسى » اذن الاتى هو من اسماعيل .
- ٤ - ينسخ شريعة موسى « له تسمعون » .
- ٥ - أمى ، لا يقرأ ولا يكتب « وأجعل كلامى فى فمه » .
- ٦ - أمين على الوحي الالهى « فيكلمهم بكل ما أوصيه به » .
- ٧ - يزيل ملك بنى اسرائيل من العالم ، أى ينهى البركة فيهم :
« ويكون أن الانسان - من اليهود - الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى . أنا أطلبه » أى الله ينتقم من الذى لا يسمع على يحيه وأيدى أتباعه .
- ٨ - لا يقتل « وأما النبى الذى يطغى ، فيتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى ، فيموت ذلك النبى » .
- ٩ - يتحدث عن مغيبات ، وتحدث فى المستقبل ، كما قال : « وان قلت فى قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيات .
تكلم به النبى . فلا تخف منه » .



هذا النبى الذى تنبأ عنه موسى عليه السلام ووصفه بالافصاف التسعة :
كتب عنه اليهود نبوءة فى سفر الزامير (الزبور) ولقبوه بلقب « ابن الله » .
ليوهموا الناس أن النبى المنتظر الذى تنبأ عنه موسى فى التوراة سيكون من بنى اسرائيل لا من بنى اسماعيل . ونص النبوءة ، وهى فى الزبور الثانى : « لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل ؟ قام ملوك الأرض ، وتآمر الرؤساء معا ، على الرب ومسيحه . قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا ربطهما » .

السكان فى السموات يضحك . الرب يستهزئ بهم ، حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون ، جبل موسى .

انى أخبر من جهة قضاء الرب • قال لى : أنت ابنى ، أنا اليوم مولدتك • اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصى الأرض ملكا لك ، تحطمهم بقضيب من حديد • مثل اناء خزاف تكسرهم •

فالآن • يا أيها الملوك تعقلوا • تأدبوا يا قضاء الأرض • اعبدوا الرب • بخوف ، واهتموا برعدة ، قبلوا الابن لئلا يفضب ، فتبيحوا من الطريق ، لأنه عن قليل يتقد غضبه ، طوبى لجميع المتكلمين عليه « ١٠١ هـ (الزمور الثانى : ١٠ - ١٢) •

ومعنى النبوة : أن أمم الأرض سيفكرون فى القضاء على النبى المنتظر ودعوته • هذا النبى الملقب منهم بلقب « مسيح » وبلقب « ابن الله » لكن « الله يستهزئ بهم ، ويهدمهم فى طغيانهم يعمهون » (البقرة : ١٥) ، ثم ينصر نبيه ، ويملكه على البلاد ، خاصة البلاد التى فيها جبل « صهيون » فى أرض فلسطين •

ويقول داوود - ان كان هو القاتل - : انى أخبر بما قضى الله أزلا ووقدا ، انى أخبر : أن الله قال عن النبى المنتظر ، الملقب بلقب « مسيح » قال عنه : « أنت ابنى » أى « اصطفيك على الناس برسالاتى وبكلامى » (الاعراف : ١٤٤) « أنا اليوم ولدتك » أى قدرت وجودك فى العالم من قبل أن تخلق ، وسوف يمتد ملكك الى أقصى الأرض ، وسوف تنتشر أتباعك فى كل مكان •

انى أعظكم أيها الناس : أن تقبلوا دين هذا النبى ، وأن تعملوا به ، لئلا تهلكوا •

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية فى التعليق على هذه النبوة : « انه اذا كان الأب فى لغتهم هو الرب ، الذى يربى عبده ، أعظم مما يربى الأب ابنه ، كان معنى لفظ الولادة مما يناسب معنى هذه الأبوة ، فيكون المعنى : اليوم جعلتك مرحوما مصطفى مختارا » وقال شيخ الاسلام : « وحينئذ فلا يكون تسميته ابنا لكون الرب أو صفته اتحدت به ، بل كما سمي داوود : ابنا ، وكما سمي اسرائيل : ابنا • فقال : « أنت ابنى بكرى » وهذا فى كتبهم « (١) •

ولما ظهر المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - وقال انه آخر نبي في
 بنى اسرائيل ، وسيأتى من بعدى نبي اسمه أحمد • انقسم بنو اسرائيل
 على أنفسهم • ففريق آمن بعيسى عليه السلام ، وهم النصارى وفريق
 كفر به وهم اليهود • والفريق الذى كفر به • انقسم الى قسمين : قسم
 قال : لا نؤمن بعيسى ولا نطبق نبوءات التوراة عليه ، واذا ظهر محمد ،
 فنقول ليس هو النبي المنتظر المنبأ عنه في التوراة ، لأن نبوءات التوراة
 تشير الى آخر لم يأت بعد ، واذا أتى سيكون من اليهود • وقسم قال :
 نتظاهر بالايمان بعيسى ونطبق نبوءات التوراة عليه ظلاما وزورا ، حتى
 اذا ظهر محمد نقول : ليس هو النبي المنتظر المنبأ عنه في التوراة ، لأن
 نبوءات التوراة تشير الى عيسى ، وقد جاء •

وتحمل « بولس » عبء الدعوة الى تطبيق كل نبوءات التوراة على
 عيسى ابن مريم عليه السلام ، والترويج لها بين النصارى • وقد وجد
 في البدء صدا واعراضا ، ثم في مجمع نيقية بتركيا سنة ثلثمائة وخمسة
 وعشرين من الميلاد • أقر النصارى الضالون لأول مرة تطبيق نبوءة الابن
 على عيسى - عليه السلام - ففى الاصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل
 ما نصه : « وكان شاول - أى بولس - مع التلاميذ ، الذين في دمشق
 أياما ، وللوقت جعل يكرز - أى يبشر ويعظ - في المجمع بالمسيح : أن
 هذا هو ابن الله » (أع ٩ : ٢٠) وفي نص قانون ايمان النصارى هذه
 العبارة : « ونؤمن برب واحد : يسوع المسيح ، ابن الله » أى أن المسيح
 قد جعل « الابن » المشار اليه في الزبور الثانى ، ليقتلوا باب النبوة في
 وجه محمد - صلى الله عليه وسلم - الى الأبد •

وقد ألف الدكتور هانى رزق - وهو من نصارى الأرثوذكس - كتابا
 فى « النبوءات » سماه : « يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته » وطبعه
 فى مصر طبعتين اثنتين ، ربط فيه بين نبوءات الأسفار الخمسة وبين
 نبوءة داوود عن النبي المنتظر ، الملقب بلقب ابن الله ونبوءات أخرى ،
 وبين أن كل نبوءات تشير الى نبي واحد هو فى نظره ، ونظر جميع
 النصارى : عيسى ابن مريم • ويقول الدكتور هانى رزق فى تعليقه
 على نبوءة داوود : « القول القائل » قال لى : أنت ابنى • أنا اليوم
 ولدتك « يشير الى أن يسوع المسيح هو ابن الله الأب ، وأن ولادته من الأب
 هو منذ الأزل • اذ أن اليوم فى هذا القول : هو الأزل الخ » (١) •

هذا هو أصل أقنوم « الابن » عند النصارى • وأما « الأب » بمد
 الهمزة فهو لقب لله عز وجل عندهم يساوى الأب فى اللغة العربية •

(١) يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته ص ٩٤ .
 (٢ - الاعلام)

وأما أصل أقنوم « الروح القدس » : فهو نبوءة تنبأ بها النبي عيسى - عليه السلام - عن نبي الاسلام محمد - صلى الله عليه وسلم - في الاصحاح الرابع عشر وما بعده من انجيل يوحنا . قال عيسى - عليه السلام - لتلاميذه : « ان كنتم تحبوننى ، فاحفظوا وصاياى . وأنا اطلب من الآب فيعطىكم معزيا آخر ، ليمكث معكم الى الابد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله ، لأنه لا يراه ولا يعرفه . وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم ... »

والكلام الذى تسمعونه ليس لى ، بل للآب الذى أرسلنى . بهذا كلمتكم وأنا عندكم . وأما المعزى الروح القدس ، الذى سيرسله الآب باسمى ، فهو يعلمكم كل شئ ، ويذكركم بكل ما قلته لكم ... وقلت لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون ... »

ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا اليكم من الآب ، روح الحق ، الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء . قد كلمتكم بهذا لئلا تعثروا . سيخرجونكم من الجامع ، بل تأتي ساعة ، فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله . وسيفعلون هذا بكم ، لأنهم لم يعرفوا الآب ، ولا عرفونى . لكنى قد كلمتكم بهذا ، حتى اذا جاءت الساعة تذكرون أنى أنا قلته لكم .

ولم أقل لكم من البداية ، لأنى كنت معكم . وأما الآن فانا ماضى الى الذى أرسلنى ، وليس أحد منكم يسألنى : أين تمضى ؟ لكن لأنى قلت لكم هذا ، قد ملا الحزن قلوبكم . لكنى أقول لكم الحق : انه خير لكم أن أنطلق . لأنه ان لم أنطلق لا يأتىكم المعزى . ولكن ان ذهبت لأرسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى . وأما على بر فلانى ذاهب الى أبى ولا تروننى أيضا . وأما على دينونة فلان رئيس هذا العالم قد دىن .

ان لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية . ذاك يمجدىنى ، لأنه يأخذ بما لى ، ويخبركم » .

في هذا القول : نرى المعزى « الروح القدس » أو المعزى « روح الحق » فمن هو المعزى الملقب بلقب « الروح القدس » أو « روح الحق » ؟

اتفقت كلمة اليهود والنصارى على أن الكلمة العبرانية « بيركلييت »
التي تترجم في اليونانية : « بيركلييتوس » معناها : أحمد . ويقول
النصارى : ان عيسى لم ينطق « بيركلييت » بل نطق « باركلييت » وهي
صفة لا اسم ، ومعناها : الذى يأتى عوضا عن عيسى ليعزى بنى اسرائيل
في مقدمهم الملك والنبوة ، وفي بعض التراجم كتبوا : « باركلييت الروح
القدس » وفي بعض التراجم كتبوا : « المعزى الروح القدس » ثم قال
الارثوذكس : ان المعزى الروح القدس هو نفسه عيسى ابن مريم . لان
عيسى - في نظرهم - هو الله متجسدا ، وقبل تجسده يلقب بلقب « الأب »
وبعد تجسده يلقب بلقب « الابن » وبعد قتله وصلبه وصعوده الى السماء
يلقب بلقب « الروح القدس » ويقولون : ان عيسى الابن وهو يمشى بين
الناس ، وعد قبل اختفائه بناسوته من الدنيا أن يجيء اليهم بعد خمسين
يوما من الاختفاء في صورة أخرى ، ملقباً نفسه بلقب « الروح القدس »
لا بلقب الابن . وكتبوا هذا القول في الاصحاح الثانى من سفر أعمال
الرسلى .

وقال الكاثوليك : ان الالهة متعددة ، لا اله واحد متجسدا ، كما يقول
الارثوذكس ، الأب اله مستقل بنفسه ، والابن اله مستقل بنفسه ،
والروح القدس اله مستقل بنفسه ، ومع تعددهم هم واحد في درجة
اللاهوت ، ويقولون : ان عيسى الابن وهو يمشى بين الناس ، وعد قبل
اختفائه بناسوته من الدنيا ، أن يرسل اليهم الاله الأخير بعد خمسين
يوما من الاختفاء ، الاله الروح القدس . ومع هذا يقول الكاثوليك ان
« المعزى الروح القدس » هو نفسه عيسى ابن مريم ، وغرضهم كغرض
الارثوذكس واليهود وهو : جعل كل نبوءات التوراة والأنجيل الأربعة
تنطبق على عيسى لققول باب النبوة في وجه محمد صلى الله عليه وسلم .

في كتاب النبوءات الذى ألفه الدكتور هانى رزق : ربط بين نبوءات
التوراة ، وبين نبوة داود - عليه السلام - وبين تبشير عيسى عليه
السلام بنبى من بعده في قوله : « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى
وأنا أطلب من الأب فيعطىكم معزيا . . . الخ » وقال تحت نبوءة « المعزى » :
« ان عيسى يبشر بالاقنوم الثالث في الثالوث المقدس ، الذى هو نفسه عيسى
عند الارثوذكس ، وغير عيسى عند الكاثوليك ، وبين أن أشعيا قال في
سفره : ان الله تعالى قال لليهود : « كانسان تعزيه أمه ، هكذا أعزىكم
أنا » (أشعيا ٦٦ : ١٣) وأن عيسى لما نطق : « وأنا أطلب من الأب
فيعطىكم معزيا » كان ينطق استنادا على ما جاء في سفر أشعيا عن
« المعزى » . . . يقول الدكتور هانى :

« بذلك تحققت نبوءة أشعيا بتعزية يسوع المسيح أبناء اسرائيل »
المؤمنين باسمه ، أثناء وجوده معهم ، ثم وعدهم بارسال المعزى الحقيقي
الروح القدس اليهم ليمكث فيهم ويكون معهم • وقد أطلق السيد المسيح
— له المجد — كلمة المعزى والمرشد على « الروح القدس » اذ هو يعزى
المؤمنين على احتمال كافة الأوجاع والأحزان ، فى سبيل كلمة الرب ،
ويرشدهم الى الحق « (١) » •

ثم يبين الدكتور هانى : أن الروح القدس لقب للمعزى ، وأن المعزى
الملقب بالروح القدس هو نفسه عيسى — عليه السلام — على مذهب
الأرثوذكس يقول تحت عنوان : (الاله الواحد ذو الثلاثة أقانيم) :

« يعلن الكتاب المقدس فى العهد الجديد عن أن الاله الواحد ، قائم فى
ثلاثة أقانيم هم : الآب ، الأبنوم الأول ، والابن يسوع المسيح ، الأبنوم
الثانى • والروح القدس ، الأبنوم الثالث • وأن الثلاثة أقانيم فى وحدة
كاملة هى الاله الواحد ، الثالث المقدس » (٢) ١٠ هـ •

وفى مجمع القسطنطينية سنة ثلثمائة وواحد وثمانين من الميلاد اتفق
النصارى على أن يكون عيسى هو « الروح القدس » كما اتفقوا من قبل على
أنه الابن • وكتبوا هذه العبارة فى قانون ايمانهم وهى : « ونؤمن بالروح
القدس ، الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، المسجود له • مع الآب والابن •
الناطق فى الانبياء » ليقفوا باب النبوة فى وجه محمد — صلى الله عليه
وسلم — الى الأبد •

وقد رد عليهم كثير من علماء المسلمين ، ليدخلوا فى الاسلام فيسعدوا
فى الدنيا والآخرة • ومن العلماء الذين ردوا الامام الفقيه شهاب الدين
أحمد بن ادريس المالكى القرافى فقد كتب فى كتابه « الأجوبة الفاخرة فى
الرد على الأسئلة الفاخرة » عن « نبوءة الابن » نقل أولا من عبارات
الزبور الثانى لداود عليه السلام ، ثم بين أن النبوءة تشير الى محمد
— صلى الله عليه وسلم — ونص عبارته : « قال داود — عليه السلام —
فى المزامير : « أنت ابنى وأنا اليوم ولدتك ، سلتنى أعطيك الشعوب
ميراثك ، وسلطانك الى أقصى الأرض ، ترعاهم بقضيب من حديد ، وبلغ
آتية الفخار تسحقهم » ومحمد — عليه السلام — هو الذى ورث ، وبلغ

(١) يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته ص ٣٦

(٢) يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته ص ٢٢٢

سلطانه أقطار الأرض ، وحاط الأمم ، وسامهم بسيفه ، ولم يتفق هذا
لداود ، ولا لأحد من بعده ، فيكون هو المبشر به ، وسمى : ابنا على العادة
القديمة في تسمية المطيع والنبي : ابنا . كما قال في التوراة في اسرائيل
٠ عليه السلام - : « ابني بكرى » (١) ٠ هـ .

والامام الفقيه شيخ الاسلام ابن تيمية الحراني . فقد كتب في « الجواب
الصحيح لمن بدل دين المسيح » عن « الفارقليط ، الروح القدس » نقل أولا
كلام يوحنا ، ثم ذكر أقوال النصارى في معنى « الفارقليط » ثم ذكر وجهة
نظرهم ، ثم رد عليهم ردا حسنا . ومن عباراته : « ان معنى الفارقليط ،
ان كان هو الحامد أو الحماد ، أو الحمد ، أو المعز . فهذا الوصف ظاهر
في محمد - صلى الله عليه وسلم - فانه وأمته : الحمادون ، الذين يحمدون
الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد ، والحمد مفتاح خطبته ، ومفتاح
صلاته . ولما كان حمادا جوزى بوصفه ، فان الجزء من جنس العمل ،
فكان اسمه : محمدا ، وأحمدا . وأما محمد فهو على وزن مكرم ومعظم ،
وهو الذى يحمد حمدا كثيرا مبالغا فيه ، ويستحق ذلك ، فلما كان أحمد ، كان
محمدا . وفي شعر حسان بن ثابت :

وشق له من اسمه ، ليحمله فذو العرش : محمود ، وهذا : محمد .

وأما أحمد ، فهو أفعل التفضيل ، هو أحمد من غيره ، أى أحق بأن
يكون محمودا ، أكثر من غيره ، يقال : هذا أحمد من هذا ، أى هذا أحق
بأن يحمده من هذا ، فيكون فيه تفضيل له على غيره في كونه محمدا .
فلفظ محمد ، يقتضى فضله في الكمية ، ولفظ أحمد يقتضى فضله في الكيفية .
ومن الناس من يقول أحمد ، أى أكثر حمدا من غيره ، فعلى هذا يكون
بمعنى الحامد والحماد .

وقال من رجح أن معنى الفارقليط في لغتهم هو الحمد كما تقدم :
إذا كان كذلك فهو ما جاء في القرآن : « ومبشرا برسول يأتي من بعدى
إسمه أحمد » (الصف : ٦) قالوا : ولا شك عندهم أنه اسم مشتق
من الحمد . . . الخ » (٢) ٠ هـ .

وقد وضحنا ذلك كله في كتابنا : ألقائهم النصارى . وفي كتابنا :
الله وصفاته في اليهودية والنصرانية والاسلام .

(١) كتاب الأجوبة الفاخرة - على هامش الفارق بين المخلوق والخالق
لباجه جه زاده - مطبعة الموسوعات بمصر ص ٢٤٨ .
(٢) الجواب الصحيح ج ٤ ص ١٦ .

ولأنهم على باطل في أصل الأتانييم ، لأنهم أخذوا ما ليس لهم ، وبنوا عليه معتقدا ومذهبا : اختلفوا فيما بينهم اختلافا شديدا ، وتجادلوا جدالا عنيفا ، ولعن بعضهم بعضا ، وكفر بعضهم بعضا . وأذكر هنا اليسير مما في كتبهم عن هذا الموضوع ليكون شاهدا على ما نقول : جاء في كتاب « تاريخ الأقباط » لزكى شنودة في الجزء الأول ما يلي عن الاختلاف والجدال :

قال « نسطور » : « ان مريم لم تلد الها ، بل ما يولد من الجسد ، ليس الأجساد ، وما يولد من الروح هو روح . ان الخليقة لم تلد الخالق ، بل ولدت انسانا ، هو آله اللاهوت » وقال نسطور أيضا : « انه لما كان الجزء اللاهوتي من طبيعة المسيح لم يولد من العذراء ، فلا يحق أن تسمى والدة الاله ، بل والدة المسيح الانسان » يريد أن يقول : ان المسيح ليس هو باله كلي ، وليس هو بانسان كلي ، بل بعضه اله ، وبعضه انسان . وبذلك جعل للمسيح أثنومين . أحدهما : انساني . والآخر : الهى . واعتقد بأن الطبيعة الالهية لم تتحد بالانسان .

وقال « مكدونينوس » : « ان الروح القدس : عمل الهى منتشر في الكون ، وليس أثنوما متميزا عن الأب والابن » .

وقال « أوطلخى » : « ان طبيعة المسيح الناستوتية اندمجت في اللاهوتية ، اذ أن جسد المسيح بما أنه جسد آله ، لا يعتبر مساويا لجسدنا في الجوهر ، لأن طبيعته البشرية قد تلاشت في الطبيعة الالهية » .

وقال « آريوس » (١) : « نؤمن باله واحد متعال ، يفوق حد التصور ، منطو على نفسه ، وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتا بأى شئ له نهاية ، وهو فريد ، لا شبيه له . أزلى لا بداية له ، لا يموت ، صالح ، وهو وحده سبحانه ينفرد بهذه الصفات » .

وقال « كورنثيوس » : « ان روح المسيح حلت على يسوع الناصرى عند عماره من يوحنا بنهر الأردن حتى اذا قبض عليه اليهود ليصلبوه ظارت روح المسيح الى السماء تاركة يسوع يصلب وحده » .

(١) قال كثير من العلماء : في الخطاب الذى وجهه النبى صلى الله عليه وسلم الى قيصر الروم وحمله اثم الاريسيين فيه اذا لم يسلم : ان المراد بالاريسيين أتباع القديس آريوس الذى جهر ونادى بعقيدة التوحيد والتنزيه ، وهذا القول صحيح ، لأن أتباع آريوس ظلموا على دينهم من بعده ونادوا به .

وقال : « **أمونيوس السقاص** » : « اننا يجب أن نضم جميع الأديان بما فيها الدين المسيحي في دين واحد ليعتنقها الجميع ، وأن نجعل مبادئ هذا الدين الجديد مرضية لكل أصحاب الأديان » .

وقال « **باربيليوس** » : « ان يسوع المسيح قوة غير هيولية ، وأنه كان يتخذ لنفسه ما يشاء من الهيئات ولذلك فإنه حين أراد اليهود أن يصلبوه اتخذ صورة سمعان القروى وأعطاه صورته فصلب سمعان وأما يسوع فقد صعد الى السماء » .

وقال « **كربوكراتس** » : « ان المسيح انسان كسائر الناس ، وانما يمتاز عليهم بقوته » .

وقال « **فالفقيوس** » : « ان المسيح مركب من جوهر روحي ، وقد أخذ جسدا أثيريا من السماء ، ومرب به من جسد السيدة العذراء ، ثم اتحد بجسد يسوع عند العماد . فلما أراد اليهود صلب يسوع تركته روح المسيح الى السماء وعلق على الصليب جسد يسوع المادى » .

وقال « **سابيلوس** » : « ان الله أقنوم واحد ، وقد أعطى الناموس لبنى اسرائيل بصفته الآب ، وصار انسانا في العهد الجديد بصفته الابن ، وحل على الرسل في علية صهيون (١) . بصفته الروح القدس . وأن جزءا من الطبيعة الالهية انفصل عن الله الآب ، وكون الابن بالاتحاد مع الانسان يسوع المسيح . وأن جزءا آخر انفصل عنه فكون الروح القدس » .

وقال « **نيبيوس** » : « ان الوقت قد قرب ليملك المسيح على الأرض ألف سنة كأحد ملوك العالم » .

وقال « **بييرلس** » : « ان السيد المسيح قبل ولادته من العذراء لم يكن له لاهوت متميز ، وانما كان له لاهوت الآب . أى أن المسيح لم يكن له وجود قبل ولادته من مريم وأن النفس الانسانية التى أصلها من الله دخلت بالولادة واتحدت بالانسان ، وهى بلا ريب فائقة كل النفوس البشرية لأنها منبثقة من الطبيعة الالهية » .

وقال « **بولس السيمساطى** » : « ان ابن الله لم يكن من الأزل ، بل ولد انسانا حلت فيه كلمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء . وأن هذه الحكمة التى مكنته من أن يعلم ويعمل العجائب قد فارقته حين أمسكه

اليهود ليصلبوه . وبسبب هذا الذى حدث من اتحاد القوة الالهية بالانسان يسوع القول : ان المسيح هو الله ولكن مجازا ، لا حقيقة » وقد أدى هذا القول بالسيمساوى لأن يزعم بأنه كان فى المسيح أقنومان وابنان لله . أحدهما بالطبيعة والآخر بالتبني . وبذلك شايح « سابيولوس » فى انكار الثالوث الأقدس بقوله : انه يوجد اله واحد هو الذى تدعوه الكتب المقدسة بالآب . وأن كلمته وحكمته ليست أقنوما ، بل انها فى الكيان الالهى بمقام الفهم فى العقل الانسانى .

وقال « مانى » : « ان الكون يحكمه الهان ، هما اله النور ، واله الظلام ، وقد تمكن اله الظلام من مزج المادة المظلمة بقبس من النور . فكان هذا هو الانسان المكون من جسد مأخوذ من مادة الظلام . ومن روح مأخوذة من فيض النور . وقد أراد اله النور أن يخلص عنصر النور فى الانسان من عنصر الظلام ، فخلق من نفسه كائنين عظيمين هما : المسيح والروح القدس . وأرسل المسيح ليخلص أرواح الناس ، ويعيدها الى وطنها السماوى . وقد ظهر المسيح بين اليهود لابسا صورة جسد انسانى وليس جسدا حقيقيا . وأعلن لهم السبيل الوحيد لخلاص النفوس من أجسادها وبرهن على لاهوته بعجائبه . ولكن اله الظلمة أغوى اليهود فصلبوه . ولما لم يكن له جسد ، لم تؤثر فيه الآلام وقد عاد المسيح الى عالم النور بعد أن ترك تلاميذه ليعلموا الناس ديانته ووعدهم بارسال رسول أعظم يفصح عن حقائق أسمى ، وهو « البارقليط » .



وبعد ما قدمنا طرفا يسيرا من الخلافات والمجادلات فى العقائد الدينية ، تذكر أهم المجامع التى تقرر فى العقائد النصرانية ، فنقول عن الجزء الأول من تاريخ الأقباط :

١ — مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية

يسمى مجمع نيقية بالمجمع المسكونى الأول . وعقد فى نيقية عاصمة « بithنية » بآسيا الصغرى فى ٢٠ مايو سنة ٣٢٥ ميلادية . بأمر الامبراطور « قسطنطين » الكبير ، وقد حضره بنفسه وحضره ٣١٨ أسقفا غير القسوس والشمامسة من كل أنحاء العالم المسيحى .

وعند افتتاح جلسات المجمع دخل الامبراطور « قسطنطين » وتصدر للاجتماع . ثم ألقى خطابا حض فيه على فض المشاكل بالحكمة . ثم بدأ المجمع أعماله ، ونظر فى المسائل المعروضة عليه .

وكان السبب الرئيسي لعقد المجمع : النظر في بدعة « آريوس » الذى نادى بأن « يسوع المسيح ليس أزليا ، وانما هو مخلوق من الآب » •

وكان أبرز الذين جادلوه : القديس « أثناسيوس الاسكندرى » وقد قرر المجمع : حرم آريوس وتحريم بدعته ، وحرق كتبه ، ونفيه الى « الاليريكيون » بجوار بحر « الادرياتيك » ووضع المجمع الجزء من قانون الايمان ، الذى يبدأ بعبارة : « نؤمن بالله واحد » وينتهى بعبارة « ليس للكه انقضاء » ونصه :

« نؤمن بالله واحد • الآب ضابط الكل • خالق السماء والارض • ما يرى وما لا يرى • ونؤمن برب واحد يسوع المسيح ، ابن الله الواحد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، اله حق من اله حق مولود غير مخلوق • مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شيء ، الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس ، وصلب عنا ، على عهد بيلاطس النبطى وتآلم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث ، كما فى الكتب ، وصعد الى السموات وجلس عن يمين أبيه ، وأيضا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات ، الذى ليس للكه انقضاء » (١) ٥٠١ •

٢ — مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ميلادية

كان الغرض من عقد المجمع : محاكمة أصحاب البدع (٢) ، التى ظهرت فى ذلك الحين ، ومنهم « مكدونىوس » و « يوسابيوس » و « أبوليناريوس » وكان مكدونىوس أسقفا أقامه الآريوسيون على القسطنطينية سنة ٣٤٣ م ثم عزل فى سنة ٣٦٠ لمناداته ببدعة جديدة ، وهى انكار لاهوت الروح القدس • اذ قال : ان الروح القدس : مخلوق كسائر المخلوقات ، وقد ناقشه المجمع ثم حرمه ، وحرم بدعته ، وأسقطه من رتبة الأسقفية • وكان يوسابيوس ينكر وجود الثلاثة الأقانيم ، ويقول : ان الثالوث ذاتا واحدة ، وأقنوما واحدا ، فناقشه المجمع ثم قطعه وأسقطه من رتبته • وكان أبوليناريوس ، أسقفا على « اللاذقية » بالشام ، وقد أنكر وجود النفس البشرية فى المسيح ، واعتقد أن لاهوته قام مقام الروح الجسدية فى احتمال الآلام والموت ، أى أن الآلام والموت قد وقعا على جوهر اللاهوت ، كما اعتقد بوجود تفاوت فى العظمة بين الاقانيم الثلاثة • فالروح القدس عظيم والابن

(١) النص من خلاصة الاصول الايمانية فى معتقدات الكنيسة القبطية الاثروذكسية •

(٢) فى نظر النصارى •

أعظم والآب هو الأعظم • وقد حكم المجمع بحرمة أبوليناريوس ، وتحريم بدعته ، واسقاطه من رتبته •

ثم وضع المجمع تكملة لقانون الايمان الذى وضعه مجمع نيقية ، ونص التكملة :

« ونؤمن بالروح القدس ، الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، المسجود له مع الآب والابن ، الناطق فى الأنبياء ، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ، ونعترف بمعمودية واحدة لغفران الخطايا ونترجى قيامة الأموات ، وحياة الدهر الآتى • آمين » (١) •

٣ — مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ ميلادية

كان الغرض من هذا المجمع : محاكمة أصحاب البدع التى ظهرت فى ذلك الحين ، ومنهم « بيلاجيوس » و « نسطور » وكان بيلاجيوس يعتقد : أن خطيئة آدم قاصرة عليه ، ولم تنتسب منه الى نسله ، ولذلك فان الانسان حين يولد يكون كآدم قبل الخطيئة ، ومن ثم يمكنه بمحض ارادته وملكوته أن يبلغ أسمى درجات الكمال ، وكان نسطور ينادى بأن « طبيعة السيد المسيح اللاهوتية منفصلة عن طبيعته الناسوتية » ورتب على ذلك : أن اللاهوت لم يولد ولم يصلب ولم يقيم مع الناسوت • كما رتب على ذلك : عدم جواز تسمية السيدة العذراء بوالدة الاله ، وتسميتها « أم يسوع » فقط • فانعقد المجمع وحكم بتحريم بدعة نسطور ، وأثبت أن فى المسيح أقنوما واحدا وطبيعة واحدة بعد اليجاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة • ولذلك فان العذراء تدعى بحق والدة الاله ، وقد وضع المجمع مقدمة لقانون الايمان تبدأ بعبارة : « نعظمك يا أم النور الحقيقى » وتنتهى بعبارة « يا رب ارحم ، يا رب بارك • آمين » •

ونص المقدمة : « نعظمك يا أم النور الحقيقى ، ونمجذك أيتها العذراء المقدسة ، والدة الاله ، لأنك ولدت لنا مخلص العالم ، أتى وخلص نفوسنا • المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح ، فخر الرسل ، اكليل الشهداء ، قهليل الصديقين ، ثبات الكنائس ، غفران الخطايا • نبشر بالثالوث المقدس ، لاهوت واحد ، نسجد له ، ونمجده • يا رب ارحم ، يا رب ارحم ، يا رب بارك • آمين » (٢) •

(١) النص من خلاصة الأصول الايمانية •

(٢) النص من كتاب العذراء فى التاريخ الكنسى - انظر ص ٦٠ من كتابنا

أقانييم النصرارى •

٤ — مجمع أفسس الثانى سنة ٤٤٩ ميلادية

سبب انعقاد هذا المجمع : التماس تقدم به « أوطاخي » الذى كان قد اعترف بأن طبيعة المسيح الناسوتية ، اندمجت فى اللاهوتية ، وتاب من هذا الاعتراف ، وطلب براءته ، فانعقد المجمع وحكم ببراءته ، كما ناقش المجمع : الأسقف « فلابيوس » الذى اتهم بأنه من أتباع « نسطور » وحكم بعزله من وظيفته . ولما لم يرق فى عين أسقف (روما) قرارات هذا المجمع ، لم يعترف به ، وطلب عقد مجمع آخر ، هو مجمع « خلقيدونية » .

٥ — مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية

حضر هذا المجمع أساقفة روما ، كما حضره البابا « ديسقورس » بطريرك الاسكندرية ، ومعه أساقفته . وقد اشتد الخلاف فى اليوم الاول بين أساقفة روما وبين بطريرك الاسكندرية وأساقفته حتى اذا كان اليوم الثانى للمجمع منع البابا ديسقورس وأساقفته بالقوة من حضور الجلسة واجتمع أساقفة روما مع بعض أساقفة الشرق ، وحكموا بعزل ديسقورس ، ونفيه ، ونادوا بعقيدة الطبيعتين والمشيئتين . وقد أراد الامبراطور « مركيان » أن يلزم البابا ديسقورس بأن يعترف بهذه البدعة ، مهددا اياه بالقتل . فأجاب ديسقورس قائلا : « ان القيصر لا يلزمه البحث فى هذه الامور الحقيقية ، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتديبيرها ، ويدع الكهنة يبحثون عن الامانة المستقيمة ، فانهم يعرفون الكتب ، وخير له أن لا يميل مع الهوى ، ولا يتبع غير الحق » . فأصدر القيصر أمره بنفيه الى جزيرة « فلاغونيا » بآسيا الصغرى .

ولا تعترف الكنيسة القبطية (الارثوذكس) بمجمع خلقيدونية ولا بقراراته ، كما لا تعترف بالمجامع التى عقدت بالقسطنطينية بعد ذلك فى سنة ٥٥٣ وسنة ٦١٠ وسنة ٧٨٦ لمخالفة الذين اشتركوا فيها مع الكنيسة القبطية فى الاعتقاد بأن المسيح طبيعة واحدة ومشئنة واحدة » (انتهى من تاريخ الأقباط) .



لقد تم الانفصال التام بين الكنائس الغربية ، كنائس الكاثوليك (الملكانية) وبين الكنائس الشرقية كنائس الارثوذكس (اليعاقبة) من يومئذ أى من يوم مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية الى يومنا هذا ونحن فى سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وألف من الميلاد ، ونادى الكاثوليك : بعقيدة تعدد الآلهة ، ونادى الارثوذكس : بعقيدة تجسد الاله .

والمسيح ابن مريم اله ثان من الآلهة الثلاثة عند الكاثوليك ، اله مستقل بنفسه ، والمسيح ابن مريم هو الاله المتجسد عند الأرثوذكس .

يقول الكاثوليك : ان الآلهة ثلاثة : ١ - الآب (الله) ٢ - والابن (المسيح) ٣ - والروح القدس . ويقول الكاثوليك : ان المسيح فيه طبيعة الهية كاملة ، وطبيعة انسانية كاملة - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - ويقول الأرثوذكس : ان الله - وتعالى عما يقولون علوا كبيرا - حل في بطن العذراء مريم ، واتحد ، وخرج انسانا هو المسيح يسوع ، ثم كبر وقتل ودخل القبر ومكث في الجحيم ثلاثة أيام ، ثم خرج من الجحيم الى القبر ومن القبر قام وارتفع الى السماء ، وقبل التجسد يسمى أقنوم الآب ، وبعد التجسد يسمى أقنوم الابن ، وبعد القتل يسمى أقنوم الروح القدس . والأقنوم عندهم مرحلة من مراحل ثلاث لذات الله تعالى . ويقول الكاثوليك : انه لما ارتفع جلس بجوار أبيه . وهذا يعنى أنه اله مستقل عن الاله الآب . وأنه قبل قتله أوصى بقبول الروح القدس ، وقد نزل بعد ارتفاعه ، وهذا يعنى أن الروح القدس ثالث ثلاثة .

وقد رد الله تعالى عليهم في القرآن الكريم بقوله لاتباع الكاثوليك والأرثوذكس : « ولا تقولوا ثلاثة » (١) أى ثلاثة آلهة متعددين ، أو ثلاثة مراحل لاله الواحد المتجسد . ورد على الكاثوليك بقوله : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » (٢) ورد على الأرثوذكس بقوله : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم » (٣) .

(١) النساء : ١٧١

(٢) المائدة : ٧٣

(٣) المائدة : ١٧ ، ٧٢

المسيح المنتظر

كان من عادة الكهنة ، علماء بنى اسرائيل أن يمسحوا الملوك بزيت ، أو بدهن ، عند توليهم الرئاسة على الناس ، وكانوا يمسحون العلماء أيضا والأنبياء ، ويطلقون على الملك الممسوح ، أو العالم أو النبي لقب : « مسيح » أى أن الله هو الذى اختاره واصطفاه واجتباها .

ولقب « المسيح » هو فى اللغة العبرانية : « هاماشيح » و « ها » فى العبرانية تساوى الألف واللام فى العربية ، فلذلك نطقت : « ماشيح » والسريانية أى الآرامية تنطقها : « ماشيح » ونطقها اليونان : « مسيح » وعرفت فى اللغة العربية واشتهرت : « مسيا » بفتح الميم وكسر السين وتشديد الياء مفتوحة فى الاصحاح الاول من انجيل يوحنا : « مسيا ، الذى تفسيره المسيح » (يوحنا : ١ : ٤١) .

ودليل الكهنة على المسح : آيات فى التوراة ، منها قول الله لموسى : « وتلبس هرون الثياب المقدسة وتمسحه وتقده ليكهن لى ، وتقدم بنيه وتلبسهم أقمصه ، وتمسحهم كما مسحت أباهم ليكهنوا لى . ويكون ذلك لتصير لهم مسحتهم كهنوتنا أبديا فى أجيالهم » (خروج : ٤٠ : ١٣ - ١٥) وقد مسح صموئيل : طالوت لما اصطفاه الله ملكا على بنى اسرائيل - كما هو مبين فى سفره - ومسح داوود مرتين ، ومسح أيضا سليمان ابنه ، وكذلك مسح ايلياء واليسع .

ولما كان لقب « مسيح الله » لقبا معظما فى بنى اسرائيل ، يتفاخر بحمله الملوك والعلماء والأنبياء لقبوا النبي الذى تحدث عنه موسى - عليه السلام - بقوله : « يقيم لك الرب الهك نبيا ... الخ » لقبوه بلقب « المسيح » وقالوا : نحن فى انتظار المسيح . وهذا هو أصل ظهور فكرة « المسيح المنتظر » فى العالم .

وفى مدينة بابل أراد اليهود قصر شريعة التوراة عليهم ، وأرادوا أن يصحوا الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم اذا جاء . كرها فى العرب الذين خذلوه فى حربهم لنبوخذ ناصر ملك بابل . فأوهموا الناس أن المسيح الذى ينتظروه ليس من العرب أبناء اسماعيل ، بل سيظهر من اليهود ونشروا الاشاعة هذه فى كل مكان حلوا فيه . وهذا أول مكان ظهرت فيه فكرة المسيح المنتظر فى العالم على أنه سيظهر من اليهود .

ولما رجع اليهود من سبي بابل انقسموا الى سامريين وعبرانيين ، كما
كانوا قبل السبي بقليل وقال السامريون : ان المسيح سيظهر منا ، من
آل يوسف - عليه السلام - وقال العبرانيون : ان المسيح سيظهر منا -
من آل داود - عليه السلام - .

فقال المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - للعبرانيين : لن يظهر
المسيح من آل داود لأن داود نفسه قال نبوءة عنه ، وقال في النبوءة :
« ان النبي المنتظر سيدى » ولا يكون الابن سيد أبيه ، وبالتالي : يكون
النبي المنتظر ، الملقب بلقب المسيح لا يكون من آل داود أبدا . يقصد :
لا يكون البتة من اليهود .

وبعد رفع عيسى - عليه السلام - الى السماء قال « بولس » للذين
رضوا بتحريف دعوة عيسى - عليه السلام - : اجعلوا عيسى هو المسيح
المنتظر ، وقلوا : انه هو الذى تحدثت عنه التوراة ، وأسفار الانبياء ،
ولا نبى بعده . فجعلوه هو المسيح المنتظر ، مع أنه بين في حياته : أن
المسيح المنتظر سيأتى من بعده .

والآن . نسوق الأدلة من التوراة على أن المسيح المنتظر هو محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس هو عيسى ابن مريم كما يزعم
النصارى ، وليس هو الى الآن لم يظهر واذا ظهر سيكون من اليهود كما
يزعم اليهود . وقبلما نذكر الأدلة نقول : اننا بهذا لا نقول ان عيسى ابن مريم
- عليه السلام - ليس مسيحا ، بل نقول : هو « مسيح » ولكن لا نقول
انه هو « المسيح » هو مسيح كطالوت وكداود وسليمان والياس واليسع
- عليهم السلام - ولكن ليس هو المسيح الموعود به في النبوءات ، بحسب
اصطلاح اليهود والنصارى في النطق والتعبير . ولا قيمة لاختلاف الأسماء
والالفاظ اذا وضحت المسميات فان « العبرة بالمقاصد والمعانى ، لا بالالفاظ
واللبناتى » كما يقول أهل الأصول .

الحليل الأول : في التوراة نبوءة عن النبي المنتظر ، الذى يلقبونه
بلقب المسيا ، وقال علماء بنى اسرائيل : ان هذه النبوءة أصل فكرة المسيا
المنتظر ، ومن أوصافه في النبوءة يعرفونه اذا جاء ، ونص النبوءة :

« يقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى . له تسمعون .
... أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامى في فمه فيكلمهم
بكل ما أوصيه به . ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم

بمه باسمى أنا أطلبه • وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى • الخ • وقد سبق ذكرها • والدليل على أنها تدل على المسيا قول مفسرى التوراة فى شرحها : « يعلن موسى اعلانا نبويا مسيانيا ، عن النبى الذى سيأتى ، الذى سيخلفه فى وظيفته كنبى • الخ » (١) •

أى أن الذى سيخلف موسى فى الدعوة هو المسيا المنتظر الذى تشير إليه هذه النبوة • وإذا كانت هذه النبوة تدل على النبى المنتظر ، الذى يلقبونه بلقب مسيا ، - وهى تدل - فإن المسيا المنتظر هو محمد - صلى الله عليه وسلم - والدليل على ذلك : أن علماء بنى اسرائيل الذى أسلموا وكتبوا كتباً فى اثبات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأدلة من التوراة ، قالوا : ان هذه النبوة تشير إليه ، وأن علماء المسلمين الذين أثبتوا كما أثبت علماء بنى اسرائيل قالوا بقولهم • ومن علماء بنى اسرائيل : شموئيل بن يهوذا بن أيوب فى كتابه « بذل المجهود فى افحام اليهود » ومن علماء المسلمين : ابن قيم الجوزية فى كتابه « هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى » والقرافى فى « الأجوبة الفاخرة » وابن حزم فى « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » وكثيرون لا يحصون عدا • ومن كتاب الفصل ما نصه : « وأما اعجاز القرآن فانما يعرفه العلماء بلغة العرب ، ثم يعرفه سائر الناس باخبار العلماء لهم بذلك • مع ما فى التوراة من الانذار البين برسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قوله تعالى فيها : « سأقيم لبنى اسرائيل نبيا من اخوتهم ، أجعل على لسانه كلامى ، فمن عصاه انتقمته منه » ولم تكن هذه الصفة لغير محمد - صلى الله عليه وسلم - واخوة بنى اسرائيل هم بنو اسماعيل » (٢) •

الدليل الثانى : فى التوراة ، يقول يعقوب - عليه السلام - لبنيه : ان الملك لن يزول منكم ، وان الشريعة لن تزول منكم الا اذا أتى « شيلون » فانه اذا أتى يتسلم الملك ويتسلم الشريعة ، وتدين له أمم الأرض بالطاعة والولاء • قال يعقوب - عليه السلام - : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجلية ، حتى يأتى شيلون ، وله يكون خضوع شعوب » (تكوين ٤٩ : ١٠) ومعلوم أن الملك لم يزل من اليهود الا على يد عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - لما تسلم مدينة القدس (اورشليم) من البطريك « صفرنيوس » ومعلوم أن النصارى شيعة من اليهود وطائفة • وعيسى - عليه السلام - هو آخر نبي فى بنى اسرائيل ولم ينسُخْ

(١) تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين برئاسة الدكتور

غرنسيس دافيدسون - المجلد الأول ص ٤٠٣ •

(٢) الفصل لابن حزم الظاهرى الاندلسى ج ١ - ص ١١١ •

التوراة • وانما الذى صرح بنسخها نبي الاسلام - صلى الله عليه وسلم - فهو الذى حقا زالت شريعة اليهود على يديه • والدليل على أن قول يعقوب - عليه السلام - هذا نبوءة عن المسيا المنتظر : قول مفسرى التوراة فى شرحها : « حتى يأتى شيلون : هذه عبارة صعبة • لكن يبدو أن أفضل تفسير هو ذاك الذى يعتبرها نوعا من الحديث عن المسيا اذا تحرك الحرف الساكن - وهذا أمر مسموح به فى اللغة العبرية - فان الكلمة يمكن أن تترجم « الذى له » « الخ » (١) أى أن النبوءة تدل على المسيا فى أفضل تفسير •

واذا كانت هذه النبوءة تدل على النبي المنتظر الذى يلقبونه بلقب مسيا - وهى تدل - فان المسيا هو محمد - صلى الله عليه وسلم - والدليل على ذلك : هو الدليل الذى ذكرته فى النبوءة الأولى • ومن العبارات التى جاءت فى كتب تفسير القرآن الكريم عن هذه النبوءة قول الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسيره المسمى « تفسير المراغى » : « جاء فى سفر التكوين : « فلا يزول القضيبي من يهوذا ، والراسم من تحت أمره ، الى أن يجيء الذى هو له ، واليه تجتمع الشعوب » وفى هذا دلالة على مجيء محمد - عليه السلام - بعد تمام حكم موسى وعيسى » (٢) •

الدليل الثالث : فى التوراة يقول الكاتب « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رسول الله بنى اسرائيل قبل موته : فقال : جاء الله من طور سيناء ، ويشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبل فاران ، ومعه ربوة من أطهار الملائكة عن يمينه ، فوهب لهم وأحبهم ورحم شعبهم • وباركهم ، وبارك على أطهاره ، وهم يدركون آثار رجليك ويقبلون من كلمتك • أسلم لنا موسى مثله • وأعطاهم ميراثا لجماعة يعقوب « الخ » (٣٣ : ١ - ٤) هذا النص من الترجمة اليونانية ، وأما النص العبرانى فهو : « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى اسرائيل قبل موته : فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من ساعير ، وتلا من جبل فاران • وعن يمينه نار شريعة لهم • فأحب الشعب • جميع قديسيه فى يدك ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك بناموس أوصانا موسى ميراثا لجماعة يعقوب « الخ » •

ودلالة هذه النبوءة على محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه يقسم بركة الله التى وعد بها ابراهيم - عليه السلام - أن تتبارك الأمم فى نسله •

(١) تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين برئاسة الدكتور فرنسيس دافيدسون - المجلد الأول ص ٢١٠ •
(٢) تفسير المراغى فى سورة الاعراف الجزء التاسع ص ٨٢ • وانظر أيضا تفسير المنار للشيخ رشيد رضا •

ونسل ابراهيم القائم بالبركة هو في اسماعيل واسحاق - عليهما السلام - كما سبق ذكره وموسى الذى نزلت عليه التوراة في طور سيناء وعيسى الذى نزل عليه الانجيل في جبل ساعير ، هما من نسل اسحاق - عليه السلام - وقد أشار بفاران الى نبي يظهر من آل اسماعيل لتتبدأ من وجوده بركة الأمم في آل اسماعيل على يد واحد من نسله . والدليل على أنه يقصد بفاران نسل اسماعيل : يسوقه شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - هكذا : يقول في الجزء الثالث من كتابه : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » :

« وبعضهم يقول في الترجمة : « تجلى الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » قال كثير من العلماء - واللفظ لمحمد ابن قتيبة - ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض . لأن مجيء الله من طور سيناء : انزاله التوراة على موسى من طور سيناء - كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا - وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير : انزاله الانجيل على المسيح . وكما يجب أن يكون اشراقه من ساعير بالمسيح فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران : انزاله القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - وجبال فاران : هي جبال مكة . قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب : خلاف في أن « فاران » هي : مكة . فان ادعوا أنها غير مكة ، فليس ينكر ذلك من تحريفهم وافكهم . قلنا : أليس في التوراة : أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل فاران ؟ (تكوين ٢١ : ٢١) وقلنا : دلونا على الموضع الذى استعلن الله منه ، واسمه فاران ؟ والنبي الذى أنزل عليه كتابا بعد المسيح ؟ أوليس « استعلن » و « علن » هما بمعنى واحد ؟ وهو ما ظهر وانكشف . فهل تعلمون : ظهر دين ظهور الاسلام ، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه ؟ ... الخ (١) .

والدليل على أن بركة اسماعيل تعنى الملك والنبوة وأن بركة اسماعيل مرتبطة بنبوّة فاران يسوقه الامام الشهرستاني هكذا في الجزء الثاني من كتابه « الملل والنحل » : « واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة المصطفى - عليه السلام - حقا ، وكون صاحب الشريعة صادقا ، بله ما حرفوه وغيروا وبدلوه . اما تحريفنا من حيث الكتابة والصورة . واما تحريفنا من حيث التفسير والتأويل ، وأظهرها ذكره ابراهيم - عليه السلام - وابنه اسماعيل ، ودعاؤه في حقه وفي ذريته . واجابة الرب تعالى اياه : « انى باركت على اسماعيل وأولاده وجعلت فيهم

«الخير كله ، وسأظهرهم على الأمم كلها . وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتي » (تكوين ١٧ : ٢٠) .

واليهود معترفون بهذه القصة . الا أنهم يقولون : أجابه بالملك دون النبوة والرسالة .

وقد ألزمتهم : ان الملك الذي سلمتم . أهو ملك يعدل وحق ، أم لا ؟ فان لم يكن يعدل وحق ، فكيف يمن على ابراهيم بملك في أولاده هو جور وظلم ؟ وان سلمتم : العدل والصدق من حيث الملك . فالملك يجب أن يكون صادقا على الله تعالى فيما يدعيه ويقوله .

وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق ؟ اذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى ، ففي تكذيبه ، تجويزه ، وفي التجويز : رفع المنة بالنعمة ، وذلك خلف .

ومن العجب : أن في التوراة : أن الاسباط من بني اسرائيل ، كانوا يرجعون القبائل من بني اسماعيل ويعلمون أن في ذلك الشعب علما لدنيا ، لم يشتمل التوراة عليه ، وورد في التواريخ : أن أولاد اسماعيل كانوا يسمون : آل الله ، وأهل الله .

وأولاد اسرائيل : آل يعقوب ، وآل موسى ، وآل هرون . وذلك كسر عظيم .

وقد ورد في التوراة : « أن الله تعالى جاء من طور سيناء ، وظهر بساعير ، وعلن بفاران » (تثنية ٣٣ : ٢) وساعير : جبال بيت المقدس ، الذي كان مظهر عيسى - عليه السلام - وفاران : جبال مكة ، الذي كانت مظهر المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ولما كانت الأسرار الالهية ، والأنوار الربانية في الوحي والتنزيل والناجاة والتأويل : على مراتب ثلاث : مبدأ ووسط وكمال . والمجئ : أشبه بالمبدأ . والظهور : بالوسط . والاعلان : بالكمال . عبر التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل : بالمجئ على طور سيناء ، وعن طلوع الشمس : بالظهور على ساعير ، وعن البلوغ الى درجة الكمال والاستواء : بالاعلان على فاران . وفي هذه الكلمة : اثبات نبوة المسيح والمصطفى عليهما السلام « (١) ٥١ هـ .

وبعد ما عرفنا رأى أئمة المسلمين ، ومن يريد أن يعرف رأى علماء بنى اسرائيل فليقرأ ما كتبه سموئيل بن يهوذا في (بذل الجهود) نذكر

(١) الملل والنحل للشهرستاني - على هامش الفصل لابن حزم ج ٢ ،

من كلام مفسرى التوراة ما يدل على أن تلك النبوءة ، نبوءة فاران تدل على المسيا المنتظر . يقول مفسرو التوراة ، مانصه : « فى يدك : الانتقال الى ضمير المخاطب جعل البعض يعتقدون : أن هذه نبوءة عن المسيا الآتى ... الخ » (١) .

فأنت ترى مما تقدم : أن نبوءات التوراة (الأسفار الخمسة) أفصحت عن : ظهور نبي من بعد موسى ، مماثل له . وأن نبوءات التوراة هي التى حدثت أوصاف هذا النبي ، الذى يلقبونه بلقب « مسيا » أى « المسيح المنتظر » وأن أئمة المسلمين ، بينوا : أن نبوءات التوراة التى حدثت أوصاف المسيا تدل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وكذلك بين علماء بنى اسرائيل الذين هداهم الله الى الايمان ، وبناء على هذا : يكون المسيا هو محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس هو عيسى - عليه السلام - كما يزعم النصارى ، وليس هو نبي لم يظهر بعد واذا ظهر سيكون من اليهود كما يزعم اليهود .

وفى الاناجيل التى بايذى النصارى نصوص تدل على أن عيسى - عليه السلام - بين ووضح لليهود : أن المسيا سيأتى من بعده ، ولن يكون من آل داوود . فقد روى متى فى الاصحاح الثانى والعشرين من انجيله ما نصه : « وفيما كان الفريسيون (٢) مجتمعين ، سألهم يسوع قائلا : ماذا تظنون فى المسيح (٣) ؟ ابن من هو (٤) ؟ قالوا له : ابن داوود . فكيف يدعوه داوود بالروح : ربا ؟ قائلا : « قال الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أضع أعدائك موطئا لقدميك » فان كان داوود يدعوه ربا ، فكيف يكون ابنه ؟ فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة . ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله بته « (متى ٢٢ : ٤١ - ٤٦) ومعنى الكلام : أن داوود - عليه السلام - قال فى سفر الزبور : ان الله تعالى قال لسيدى : كن معى حتى أنصرك على أعدائك نصرا مؤزرا . فمن هو سيد داوود الذى قال الله له : كن معى حتى أنصرك كما حكى داوود عن الله ؟ يقول عيسى - عليه السلام - حيث قال داوود : ان الله قال لسيدى ، اذن النبي الآتى : سيد داوود . واذا ثبت أنه سيد لداوود يثبت أنه لا يكون من نسله ، لأن الابن لا يكون سيدا على أبيه ، واذا ثبت أنه لا يأتى من نسله ، فكيف يصح لليهود : أن يدعوا

(١) تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين - برئاسة للدكتور فرنسيس دافيسون - المجلد الأول ص ٤٧٠ .

(٢) الفريسيون طائفة من علماء اليهود العبرانيين كانت تدعى الغيرة على الشريعة الموسوية .

(٣) يقصد : المسيا المنتظر . (٤) أى من أى نسل يكون ؟

همع وضوح الحليل من كلام داوود نفسه : أن النبي المنتظر الذي لقبوه بلقب المسيح سيأتي منهم ؟

وكلام داوود من ترجمة البروتستانت هكذا : « قال الرب لربي : اجلس عن يميني ، حتى أضع أعدائك موطئا لتدميك ، يرسل الرب قضيب عودك من صهيون . تسلط في وسط أعدائك ، شعبك منتدب في يوم قوتك ، في زينة مقدسة . من رحم الفجر لك طل حداثتك . . . الخ » (المزمور المئة والعاشر) ومن ترجمة الآباء اليسوعيين هكذا : « قال الرب لسيدى . . . الخ » .

* * *

ومن هذا يتبين : أن عيسى نفسه لم يقل : اننى أنا المسيح المنتظر ، «ويتبين : أن أوصاف الزبور لا تدل عليه لأنه لم يحارب ولم ينتصر على أعدائه . صحيح أنه أمر أتباعه بحمل السيف للقتال ، ولكنه لم يحمل سيفاً . ولم يجرد جيشاً . ففي الإصحاح الثانى والعشرين من انجيل لوقا يقول لتلاميذه : « حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية . هل أعوزكم شيء ؟ فقالوا : لا . فقال لهم : لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك . ومن ليس له فليبيع ثوبه ، ويشتري سيفاً » (لو ٢٢ : ٣٥ - ٣٦) وفى الإصحاح العاشر من متى يقول : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض . ما جئت لألقى سلاماً ، بل سيفاً » (متى : ١٠ : ٣٤) .

وبعد رفع عيسى - عليه السلام - الى السماء . نادى « بولس » بأن عيسى هو المسيح ، لا مسيح ، وزعم أنه ينادى ، لا من تلقاء نفسه ، بل لأن المسيح ظهر له فى الرؤيا ، من بعد رفعه الى السماء بزمان ، وأمره فى الرؤيا : بأن ينادى فى الناس بأن عيسى كان هو المسيح وما كنا له بعارفين . ويقول العلماء : انه لم يخدع السذج والبسطاء والعامّة بهذه الحيلة الا بعد مساندة له من بعض اليهود الذين تظاهروا باعترافهم بدعوة عيسى - عليه السلام - ليحرفوها . وقولهم هذا قد استدلووا عليه بآيات فى رسالة بولس الى أهل غلاطية فى الإصحاح الثانى وهو قوله : « ثم بعد أربع عشرة سنة صعدت أيضاً الى اورشليم ، مع برنابا آخذاً معي تيطس أيضاً . وانما صعدت بموجب اعلان (١) وعرضت عليهم الانجيل الذى أكرز به بين الأمم ، ولكن بالانفراد على المعتبرين لئلا أكون أسعى أو قد سمعت باطلا . . . الخ » (غلا ٢ : ١ - ٢) لماذا عرض عليهم انجيلاً سرياً للغاية ؟ لماذا عرضه على الأعيان والوجهاء البارزين فى المذهب على انفراد ؟ أكانت دعوة عيسى

(١) يشير بالاعلان الى الرؤيا ، المذكورة فى الإصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل .

حسرية ؟ كيف ذلك ؟ وفي الاصحاح الثامن عشر من انجيل يوحنا : « فسأل
رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه ؟ أجابه يسوع : أنا كلمت
العالم علانية . أنا علمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود
دائما ، وفي الخفاء لم أتكلم بشيء . لماذا تسألني أنا ؟ أسأل الذين قد
سمعوا : ماذا كلمتهم . هو ذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا » ؟ (يوحنا
١٨ : ١٩ - ٢١) .

وهذا هو النص الذي فيه الرؤيا ، والذي فيه أنه جهر بعد الرؤيا
« بأن عيسى - عليه السلام - هو : ابن الله الذي تحدث عنه داوود - عليه
السلام - في الزمور الثاني ، وهو : المسيح ، الذي تدل عليه نبوءات التوراة
« وأسفار الأنبياء ، في الاصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل : « أما شاول
- بولس - فكان لم يزل ينفث تهديدا وقتلا على تلاميذ الرب . ففتقدم الى
رئيس الكهنة ، وطلب منه رسائل الى دمشق ، الى الجماعات حتى اذا
وجد أناسا من الطريق رجلا أو نساء يسوقهم موثقين الى اورشليم . وفي
ذهابه حدث أنه اقترب الى دمشق ، فبغطة أبرق حوله نور من السماء ،
فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له : شاول شاول لماذا تضطهدينى ؟
فقال : من أنت يا سيد ؟ فقال الرب : أنا يسوع الذى أنت تضطهده .
صعب عليك أن ترفض مناخس . فقال وهو مرتعد ومتحير : يا رب ماذا
تريد أن أفعل ؟ فقال له الرب : قم وادخل المدينة ، فيقال لك : ماذا ينبغي
أن تفعل ؟ وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت
ولا ينظرون أحدا . فنهض شاول عن الأرض ، وكان وهو مفتوح العينين
لا يبصر أحدا . فاقتادوه بيده وأدخلوه الى دمشق . وكان ثلاثة أيام
لا يبصر ، فلم يأكل ولم يشرب .

وكان في دمشق تلميذ اسمه حنانيا . فقال له الرب في رؤيا : يا حنانيا .
فقال : هاأنذا يا رب . فقال له الرب : قم واذهب الى الزقاق الذى يقال له :
المستقيم ، واطلب في بيت يهوذا رجلا طرسوسيا ، اسمه شاول ، لانه
هو ذا يصلى . وقد رأى في رؤيا رجلا اسمه حنانيا داخلا وواضعا يده عليه
لكى يبصر . فأجاب حنانيا : يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل ،
كم من الشرور فعل بقديسيك في اورشليم ، وههنا له سلطان من قبل
رؤساء الكهنة أن يوثق جميع الذين يدعون باسمك . فقال له الرب : اذهب .
لأن هذا لى أنا مختار ، ليحمل اسمى أمام أمم وملوك وبنى اسرائيل ،
لأنى سأريه كم ينبغي أن يتألم من أجل اسمى .

فمضى حنانيا ، ودخل البيت ووضع عليه يديه ، وقال : أيها الأخ
شاول ، قد أرسلنى الرب يسوع الذى ظهر لك في الطريق ، الذى جئت

فيه لكي تبصر وتمتلي من الروح القدس . فلوقت وقع من عينيه شيء
كانه قشور ، فأبصر في الحال ، وقام واعتمد ، وتناول طعاما فتقوى .

وكان شاول مع التلاميذ الذين في دمشق أياما . وللوقت جعل يكرز
في الجامع بالمسيح : أن هذا هو ابن الله . فبهت جميع الذين كانوا يسمعون ،
وقالوا : أليس هذا هو الذي أهلك في أورشليم الذين يدعون بهذا الاسم ،
وقد جاء الى هنا لهذا ، ليسوقهم موثقين الى رؤساء الكهنة .

وأما شاول فكان يزداد قوة ، ويحير اليهود الساكنين في دمشق محققا :
أن هذا هو المسيح . الخ (أع ٩ : ١ - ٢٢) .

وواضح من هذا النص : أن اليهود لما اضطهدوا عيسى ابن مريم
- عليه السلام - وأتباعه ، ولم تتوقف الدعوة عن الانتشار مع الاضطهاد ،
رأوا أن يتظاهر بعضهم باعتراف الدعوة ، ثم يكيدوا لها كيدا ، ومن اليهود
الذين اضطهدوا الأتباع علنا : بولس . الذي كان من سكان مدينة « طرسوس »
ولما لم يجد الاضطهاد : زعم أن عيسى نفسه ظهر له بعد قتله وصلبه .
- كما يزعمون - وأمره أن لا يضطهد أتباعه ، وأمره أيضا أن ينطلق
بالدعوة التي جاء بها في حياته ، - فانه لم يقل انه هو المسيح الذي تحل
عليه النبوءات - بل أمره بغير ما صرح به في الحياة الدنيا .

* * *

وقد قرأنا في كتاب « الاعلام » هذا : أن مؤلف « تثليث الوجدانية »
قال للمسلمين : « وإن كان فيها - أى في التوراة - محمد منتظرا . ثم وافقت
علاماته ، علامات الكتب ، فقد أصاب المسلم ، ولزم النصراني الخروج عن
رضا معبوده » أفيخرج الآن من دينه بعد هذا البيان ؟

أسأل الله تعالى توفيقا وسدادا . « وما توفيقى الا بالله ، عليه
توكلت واليه أنيب » (١) .

القاهرة في } ٢٦ شوال سنة ١٣٩٨ هـ
} ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٨ م

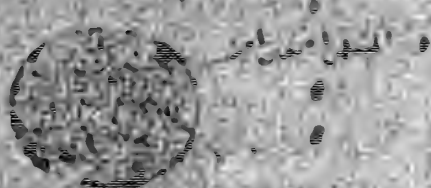
الدكتور الشيخ
أحمد حجازي أحمد المسقا

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والله اعلم
بما كنا نقول

والله اعلم
بما كنا نقول

والله اعلم
بما كنا نقول



الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والله اعلم
بما كنا نقول

(الصفحة الأخيرة من المخطوطة)

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر ، وأعن يا الله

الحمد لله الذي من علينا بتوحيده ، وجعلنا من أفضل عبيده ، الذي «جنبنا الأهواء المذلة ، والآراء المضلة . أَرَأَا الحق ، اذ هدانا لبرهانه ودليله ، وأظهر لنا الباطل ، وتفضل علينا بالعدول عن سبيله ، نحمد به محامده التي لا تحصى ، ونشكره على الآية التي لم تنزل تنزى ، ونسأله الصلاة على نبيه من كافة الورى ، أنبيائه ورسله ، أئمة الهدى . وخصوصا المبعوث الى الثقلين ، المفضل على العالمين ، المؤيد بالآيات الصادقة ، والبراهين القاطعة ، موضح الحق بواضحات الدلائل ، وممحق الكفر والباطل ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، ورضى الله عن خلفائه الراشدين ، وعن صحابته الأجمعين ، والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد

فقد وقفت — وفقك الله — على كتاب كتب به بعض المنتحطين لدين الملة النصرانية سماه كتاب (تثليث الوجدانية) بعث به من « طليطلة » — أعادها الله الى مدينة « قرطبة » جرسها الله .. متعرضا فيه لدين المسلمين ، نائلا فيه من عصابة الحق الموحدين ، سائلا عما لا يعنيه ، ومتمكلا بما لا يدره ، فأمنت النظر فيه ، فاذا بالمتكلم يهرف بما لا يعرف ، وينطق بما لا يحقق ، ناقض ولم يشعر ، وعمى من حيث يظن أنه يستبصر » أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل » () يلحن اذا كتب ، ويعجم متى أعرب . وذى خطه في القول تحسب أنه مصيب فما يلهم به ، فهو قائله

دله بقوله على ضعف عقله ، وبمكاتبته على سوء مطاولته . تعاطى درجة النظار ، وسود بأباطيله ذلك الظومار ، ليستزله به الأغبياء

الأغمار ، ويحصل بذلك على ما كله شنار « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »^(١) وليته اذا ادعى النظر سلك طريقه ، والتزم شروطه ، فاعترف بالبدييات ، ولم ينظر الضروريات ، التى هى أصول النظريات ، ولكن حل من عنقه ربة العقول ، فهو فى كل جهالة يجول ، واليها يدعو ، وبها يقول ، فليته لو دفن من عواره ما كان مسطورا • ولكن كان ذلك عليه فى الكتاب مسطورا •

وان لسان المرء — ما لم تكن له
حصاة — على عوراته : لدليل

فاستخرت الله تعالى فى جوابه على تخليط معانيه ، وتثبيج خطابه • بعد أن أقول له : اعلم يا هذا : ان البغاة بأرضنا لا تستتسر ، والتمييز عندنا بين الفضة والقصة متيسر ، وها أنا — ان شاء الله تعالى — أجابك على ما كتبت حرفا حرفا ، وأبين فساد الذى لا يكاد يخفى ، على أنهم لو فتح عليهم بابا من السماء « فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا انما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون »^(٢) فكيف لا ؟ وقد ركبوا من استحالة الاتحاد ، والتثليث ، وال حلول ، ما يدرك فساد بضرورة العقول • وقد قالوا فى الآب ، والابن ، والأقانيم ، ما تمجه بفطرته الأولى ، كل ذى فهم مستقيم ، ولا يتسع لقبوله قلب ذى عقل سليم •

ومن كان اللعين له لسانا فكل جداله زور ونكر
فكل مقالهم افك وزين ونص كتابهم شرك وكفر

ومن أعظم ما ظهر عليهم من الفساد ، فصرفوا لذلك عن التوفيق والرشاد : انكارهم ما يدل على نبوة نبينا من المعجزات ، وواضح الدلالات ، وقد قاربت الضرورات ، حتى أنكروا ما جاء فى كتبهم من الاعلام على نبوته ، وايجاب اتباع شريعته • فلقد كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم • وسأذكر ان شاء الله تعالى ما وقع فى أناجيلهم من وصفه ، وصحيح نعته ، ولما تبين للعقلاء عنادهم ، سقط لذلك ارشادهم ، ووجب حملهم على السيف ، وجهادهم • فقد يفعل الله بالسيف واللسان ، مالا يفعل بالبرهان • ومن كلام الحكماء : « يزغ الله بالسلطان ، مالا يزغ بالقرآن » فأعرض العقلاء عنهم •

واكتفوا من الرد عليهم بحكاية مذهبهم ، ووكلوا الناظر فيه ، لظهور تناقضه ، وفساد معانيه .

وقد كنت عزمت على الاقتداء بالعقلاء في الاعراض ، حتى أكثر هذا المتكلم من التعرض والاعتراض . فتعين لذلك الجواب . وأنا أسأل الله التوفيق للصواب ، ومجانبة الخطأ ، وما يوجب العقاب ، أنه ولى التوفيق ، وهو باجابة السائلين حقيق .

(فصل) لتعلم يا هذا المنتسب لدين المسيح : أنى أجابك — ان شاء الله تعالى — بمنطق عربى فصيح . أسلك فيه مسلك الانصاف ، وأترك طريق التعصب والاعتساف . على أن كلامك لا يستحق الانصاف اليه ، ولا الجواب عنه . لأنك لا تحسن السؤال ، ولا تعرف ترتيب المقال . بل تقول مالا تفهم ، وتكفى بأنك تتكلم . ولكون كلامك هذا كثير الغلط ، ظاهر التناقض والشطط . وأنت مع ذلك لا تعرف مذاهب النصرارى المتقدمين ، الذين كانوا بنوع نظر متمسكين ، وان كانوا عن مذهب الحق ناكبين ، حتى أنهم لو سمعوا كثيرا مما ذكرته لتبرأوا عنه ، ولأنفوا منه . اذ لا ينسب أكثر ذلك الى من تكايس منهم ، ولا يروى بحال عنهم . على أنهم في أصول عقائدهم مختلفون ، وفي ورطة الجهل مرتبكون . وسنبين لك ذلك كله — ان شاء الله تعالى —

ولما تبين ذلك منك ، أعرض المسلمون عن جوابك ، ونزهوا أنفسهم عن خطابك ، اذ الاعراض عن الجاهلين ، شرعة رب العالمين ، على لسان سيد المرسلين . وأيضا فمن لم يعرف شروط النظر ، ولم يسلك مسالك البحث والمعبر ، فالكلام معه ضرب في حديد بارد ، وعمل ليس له جدوى ، ولا عايد .

ولما أعرضوا عنك لجهالتك ، تبجحت بذلك عند عصابتك ، فظننت أن سكوتنا عنك ، انما هو لرغبة منك ، حتى لقد أبلغتنا عنك نكرا ، وقلت في كتابك هذا فحشا وهجرا . فنحن وإياك كما قال : —

سكت عن السفيه فظن أنى عييت عن الجواب . وما عييت

فعظم هذا الأمر حين نعى خبره الى . مع أنه رغب الى في ذلك جماعة من الاخوان ، فصار ذلك على كأنه من فروض الأعيان ، فاعتنمتها

فرصة ، وسررت بها قصة ، لعلمي : أن النكاية في العدو بالبرهان واللسان ،
أوقع من نكاية السيف والسنان •

والرجا من مالك الدارين ، الجمع بين الأمرين ، واحراز أجر
العملين • على أنى لا أتعرضهم بقزع السباب ، ولا أنزل معهم الى
اعتذار وعتاب ، وإنما هو اظهار جهلهم ، وتناقض مذهبهم وقولهم •

فأذكر كلام هذا السائل — كما بلغنى — وأبين من خطئه ، وتناقضه
ما شاء الله أن يفهمنى ، فأناقشه في لفظه ، وأظهر سوء نقله وحفظه •
ففتارة أسأله ، وأخرى أجابه • ليظلم أن الناقد بصير ، والباحث خبير ،
وليتبين عيه وجهه للكبير والصغير • ثم من بعد الفراغ من تتبع كلامه ،
أعطف بالمناظرة على أقسته ، ورهبانه • فأحكى مذاهبهم كما دونوها في
كتبهم • وعلى ما تلقفوها من أساقفتهم ، ثم أسبرها على مطك العرض ،
وأبين بعض ما فيها من الفساد ، والنقض • وما توفيقى الا بالله ، وهو
حسبى ونعم الوكيل •

وقد استخرت الله تعالى في أن أجعل هذا الكتاب على : صدر ،
وأربعة أبواب •

الباب الأول : في الكلام على الأتانيم •

الباب الثانى : في الاتحاد والخلول •

الباب الثالث : في الكلام على النبوات ، وإثبات نبوة نبيينا عليه
الصلاة والسلام •

الباب الرابع : في جملة من فروع أحكامهم ، أبين فيها : أن ليس لهم
في أحكامهم مستند ، الا محض الهوى والتحكم والمحدد •

وكل باب من هذه الأبواب يتضمن فصولا • وأنا أسأل الله تعالى
أن يطلق السنن بالحق والحكمة ، ويخرسها عن الباطل والفتنة • أنه
مذو الفضل والنعمة ، والعلو والرحمة •

صدر الكتاب

نذكر في هذا الصدر كلام هذا السائل في خطبة كتابه ، والجواب عليها ان شاء الله تعالى .

فصل

في حكاية كلام السائل في خطبة كتابه

قال : « كتاب : (تثليث الوجدانية) في معرفة الله » ثم قال : « الحمد لله بالغ القوى التي فطرنا عليها ، وأمرنا بحمده ، فنحن نحمده ونشكره ونعظمه بمثل تعارفنا في الحمد والشكر والتعظيم للوكتا ، وأهل الرهبة من ذوى السلطان منا ، فرضا له ، شاكرين حامدين معظمين ، غير واقفين على ذاته ، ولا مدركين لشيء منه ، وانما نقع على أسماء أفعاله ، في خليقته ، وتدييره في ربوبيته » ١٠٠ هـ .

الجواب عن ترجمته : أما قوله : « تثليث الوجدانية » فكلام متناقض لفظا ، وفاسد معنى . بيان ذلك : أن قوله : « تثليث الوجدانية » كلام مركب من مضاف ، ومضاف اليه ، ولا يفهم المضاف ما لم يفهم المضاف اليه . فأقول : لفظ الوجدانية مأخوذ من الوحدة ، ومعناها : راجع الى نفى التعدد والكثرة . فهي اذن من أسماء السلوب . فاذا وصفنا بها موجودا ، فقد نفينا عنه التعدد والكثرة . والتثليث معناه : تعدد وكثرة . فاذا أضاف هذا القائل التثليث للوحدة ، فكأنه قال : « تكثير ما لا يتكرر » وتكثير ما لا يتكرر باطل بالضرورة . فأول كلمة تكلم بها هذا السائل : متناقضة وباطلة بالضرورة .

وأما قوله « في معرفة الله » فقول لم يحط بمعناه ، ولا فهم مسماه ، والا فما حد المعرفة ؟ وكما أقسامها ؟ وهل يصح أن تكون مكتسبة لنا ؟ وهل يجوز عقلا أن يكلفنا بها الأنبياء ؟ وان جاز ذلك فما طريق تحصيلها ؟ ثم هول بهذا اللفظ ، وأوهم أنه حصل منها على حظ . فان كان دليلك يا هذا على معرفة الله تعالى ما ضمته كتابك ، فابك على مصابك ، واقرع

تأسفا على عقل نابك • فان الواقف على معناه ، المقتحم لفحواه ، علم على القطع والقط : أنك لم تعرف الله تعالى قط ، لأنك لم تذكر فيه دليلا صحيحا ، نعم • ولا قولاً فصيحاً ، وان كان لك دليل آخر على معرفة الله تعالى لم تذكره هنا ، فهذه ترجمة بلا معنى ، واسم يهول بلا مسمى • كلامك يا هذا ، كفارح حمص خلى من المعنى ، ولكن يججع

ثم نظم هذه الترجمة على ما أبديناه من التناقض أن يقال : تكثير ما لا يتكرر في معرفة الله ، وأى رابط بهذا الكلام ؟ وهل هذا الا مضحكة الخاص والعام ، وعار لم يصل اليه أحد من عقلاء الأنام •

ثم بعد ذلك شرع هذا القائل في الخطابة ، وصنعة الكتابة ، فسحب على « سبحان » ثوب النسيان ، وأنسى « ابان » كل ما أبان ، وصير فصيح « وأئل » أعيان « باقل » فقال : « الحمد لله بالغ القوى ، التي فطرنا عليها » فيا للعجب ، ويا لضیعة الدين والأدب •
دع المكارم ، لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الجائع العارى (١)

أما قوله « الحمد لله » فكلام حق • ومقال صدق ، عند من عرف معناه ، وفهم فحواه • وأما عندك فكلام سمعته ، وما وعيته • وكيف تعيه ، أو تطمع في أنك تدريه ؟ وأنت بمعزل عن اللسان ، عرى عن تحصيل شرائط البرهان •

دليل ذلك : أن « الحمد لله » يتوجه لأسئلة ، وأنت لا تهتدى لتفهمها ، فكيف لحظها ؟ منها لفظية ، ومنها معنوية • فأولها حده ، وإلى ماذا يرجع ؟ وما الفرق بينه ، وبين الشكر ؟ وهل هو في هذا الموضع عام ، أم لا ؟ وهل يصح أن يطلق على غير الله ؟ وان أطلق فهل بالحقيقة أم بالمجاز ؟ وعلى أى وجه يضاف الى الله تعالى ؟ أعلى جهة الملك ، أو على جهة الاستحقاق ، أو غيرهما من أنواع الاضافة ؟ ولأى شيء يوضع في أوائل الكتب ، ولا يكتفى عنه بالتسمية ؟

وأما قولك « بالغ القوى » فكلام مضلل صدر عن من لم يحصل تنزيل مفهومه على فائدة • لأن المتكلم به عمل (بالغ) موضع (مبلغ) ثم ذهب

(١) مشهور هذا البيت : فانك أنت الظالم الناسي •

يمبلغ الى معنى (خالق) والعرب الذين تكلم هذا السائل بكلامهم ، وتعاطى مفهوم خطابهم ، لا يتكلمون بالغ في معنى الخالق ، لقبين اللفظيين ، واختلاف المفهومين ، ومعنى (الخلق) المشهور عندهم : اختراع ما لم يكن ، والابلاغ هو أيضا ، له كائن ، الى غاية ما . فان أنكر هذا المتكلم أن يكون أراد هذا . فقد شهد على نفسه بالغلط ، واعترف بأن كلامه من أرذل ، أرذل السقط .

ثم أضاف بالغ الى القوى ، والقوى جمع قوة ، وهى : القدرة والشدة . فان كنت تريد هذا فأى فائدة للفظك ؟ وأى لطيفة لقولك التى فطرنا عليها ؟ وفى الثيران ، والأباعر ، والحمير ، من هو أشد منك وأقوى . فقد فضلها عليك ، حيث أبلغها من الشدة أكثر مما أبلغك . ولقد كان ينبغي لك يا هذا : أن تذكر من نعم الله عليك ، النعمة الخاصة بالانسان ، وهو المعنى الذى به تميز عن أصناف الحيوان . ثم من عجيب أمر هذا السائل ، وأدل دليل على بلادته وجهله ، أن هذه الخطبة التى صدر بها كتابه ، على ما هى عليه ، من تشبيح النظم ، وعدم الفصاحة انما نقلها من رسالة « عبد الرحمن بن غصن » ختن (شبيب) التى كان أساقفة النصارى كتبوا بها الى الامام الزاهد « أبى مروان بن ميسرة » ونسبوا لعبد الرحمن . وكانوا قد اجتمعوا على كتابتها بمطليظة — أعادها الله — فلما كتبوها بعثوا بها الى القاضى « أبى مروان ابن ميسرة » فبعد أن بذلوا جدهم ، وأجهدوا جهدهم ، كتبوا له رسالة مفتتحة هذه الخطبة ، فى بطاقة صغيرة عدد أسطورها نحو ثلاثين ، لحنوا فيها ، وصحفوا فى تسعة وعشرين موضعا منها ، ومع ذلك . فأظلو بالكلام ، ولم يتحصل لهم من سؤالهم مطلب ، ولا مرام ، فأجابهم الامام القاضى — رحمه الله — وأحسن فى الجواب ، وأظهر لهم جهلهم وتبلدهم فى ذلك الكتاب .

فلو كان هذا السائل عارفا بمصالحه ، مميذا بين محاسنه ومقابحه . لاكتفى بإفحام أساقفته المتقدمة ، وعثرته الجاهلة المضممة ، ولكان يستتر ظاهر خطاياهم ، وركيك كلامهم . ولكن أراد الله تجديد ما قدم لهم من الفضيحة بمقالة صابية صحيحة ، ثم ليته اذ نقل الى كتابه كلامهم ، لم يفسر المعنى ، ولم يغير اللفظ . بل غيره تغييرا يدل على عدم الهجاء ، وقلة الحفظ ، فقال : « الحمد لله بالغ القوى » وهى فى كتابهم المتقدم الذكر الذى نقل منه « الحمد لله ببلغ القوى » وبين مفهوم كلامه ،

وكلامهم ، ما بين القرن والقدم ، وما بين فصاحة العرب ، ورطابة
العجم .

وأما قولك « وأمرنا بحمده » فقول لا تعرف حقيقته ، ولا تسلك
طريقته ، حتى تعرف ان كان الله آمرا ، أم لا . وان كان آمرا فما حقيقة
أمره ؟ وإلى ماذا يرجع ؟ وهل هو قديم ، أو حادث ؟ إلى أسئلة كثيرة
لا تعرف أنك مأمون من جهة الله تعالى حتى تعرفها . فأعد للسائل
جوابا ، وللسائل خطابا .

وأما قوله : « فنحن نحمده ونشكوه ونعظمه ، بمثل تعارفنا في
الحمد والشكر » فكلام يدور على اللسان ، ولم يستقر لك شيء منه
بالجنان . وكيف يحمد الله من ينتقصه ؟ وكيف يشكوه من يكفره ؟
وهل الحمد والنقصان ، والشكر والكفران ، إلا أمران متناقضان .

بيان ذلك : أنكم تجعلون لله ، ما تكرهون لأنفسكم ، وتنتقصون
به أبناء جنسكم ، ها أنتم تكرهون لرهبانكم ، وأقستكم اتخاذ الزوجة
والولد ، لئلا يتلطح برذيلة مجرى البول ، ودم الحيض . أو تتشبه
نسبة الزوجة والولد . ثم انكم بجهالتكم تزعمون : أن اللاهوت تدرع
بفاسوت المسيح ، وسكن في ظلمة الرحم مدة ، ثم خرج على مجرى
البول ، ودم الحيض ، وتعلقت نسبة الولد والزوجة ، وأنتم تجعلون لله
ما تكرهون ، وتصف ألسنتكم الكذب . لا جرم أن لكم النار ، وأنكم
مفروطون . وكيف يعظمه من يعبد غيره ، ويعظم سواه ، ويخالفه في
أمره ، ويرتكب ما عصاه ؟ وها أنتم قد اتخذتم المسيح الها ، أو شطر
اله . وعبدتم من دون الله غيره ، وعظمت سواه ، وخالفتم في ذلك قول
المسيح عليه السلام ، وعصيت أمر خالقه ومرسله ذي الجلال والإكرام .
وأنتم تقرؤون في كتابكم عن أشعياء عليه السلام ، أنه قال عن الله مبشرا
بالمسيح عليه السلام : « هذا غلامي المصطفى ، وحببي الذي أوتضت
به نفسي » (١) وكذلك تقرؤون في انجيل « ماركس » (٢) أن المسيح قال

(١) ترجمتها الحديثة « هو ذا عبدي الذي أعصده ، مختارني الذي سرت

به نفسي » (أشعياء ٤٢ : ١) .

وهذه النبوة لا تشير إلى عيسى عليه السلام . فليس في النبوة ولا في
أسفار الأنبياء نبوءات عنه . بل النبوة تشير إلى « المسيح المنتظر » وهو
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) ماركس في الترجمة الحديثة « موقس » .

للعالم الذى سألته عن أول العهود : « ان السيد الهك ، اله واحد » وذكر كلاما . فقال له العالم « قلت الحق يا معلم . ان الله وحده ، ولا اله غيره » (١) فالله تعالى يقول عن المسيح : « هو غلامى » وأنتم تقولون : « هو ولدك » والمسيح يقول « لا اله الا الله » وأنتم تقولون « أنت اله آخر » فتعالى الله عما تقولون ، وسبحانه عما تصفون . — وسيأتى الكلام على هذا ان شاء الله تعالى — فما أنتم قد خالفتم أمر الله ، وعظمتكم سوى الله ، وهذا انجيل « متاؤوش » يشهد عليكم بخلاف ما اليه صرتم . فان فيه أن المسيح قال لابليس حين رام خديعته : « قد صار مكتوبا أن تعبد السيد الهك ، وتخدمه وحده » (٢) وأنتم تعبدون غير الله ، وتسجدون لسواه ، تتحكمون في ذلك بأهوائكم ، وتخالفون قول أنبيائكم « ومن أفضل ممن اتبع هواه ، بغير هدى من الله » (٣) وتقول بالعظائم على الله .

وأما قولك « بمثل تعارفنا في الحمد » فان كان وضع (تعارف) موضع (معرفة) فقد أخل بالمعنى ، وخالف اللغة ، ولو كان يشم رائحة من كلام الفصحاء ، لوبخ نفسه على القالة هذه الشنعاء . ولو نزلناه على أنه أراد ، ما تعارفه مخاطبوه فيما بينهم في معنى حمد الله ، لكان كلامه أيضا متناقضا وفاسدا ، وعن الصواب حايذا . فان حمد الله عندهم : ذم ، وشكرهم له ، كفر — كما تقدم — ومن كان حمده لله ذما ،

(١) النص بتمامه في الترجمة الحديثة : « فجاء واحد من الكتبة — عالم — وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أنه أجابهم حسنا ، سأل : أية وصية هي أول الكل ؟ فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا هي : اسمع يا اسرائيل : الرب الهنا رب واحد . وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكريك ومن كل قدرتك . هذه هي الوصية الأولى . وثانية مثلها : هي تحب قريبك كنفسك . ليس وصية أخرى أعظم من هاتين . فقال له الكتائب : جيدا يا معلم ، بالحق قلت . لانه : الله واحد ، وليس آخر سواه . ومحبة من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة . ومحبة القريب كالنفس ، هي أفضل من جميع الخرقات والذبايح ، فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل . قال له : لست بعيدا عن ملكوت الله » (مرقس ١٢ : ٢٨ - ٣٤) .

(٢) متاؤوش في التراجم الحديثة « متى » والنص في الترجمة الحديثة بتمامه : « حينئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان . لانه مكتوب : للرب الهك تسجد ، وإياه وحده تعبد » (متى ٤ : ١٠) .

(٣) القصص : ٥٠

وشكروه له كفرا • وكان معرفته مثل شكره وحمده • فقد حصل من العلم على ضده ، وخرج من الشكر عن حده •

وأما قولك « والتعظيم للوكتا ، وأهل الرهبة من ذوى السلطان منا » فقول لا يدل على زهدك فى الدنيا ، واقتدائك بورع المسيح عيسى ، وبخشية المعمد يحيى ، عظمت الملوك لملكهم ، طمعا فى نيل سحت ملكهم ، وأعرضت عن القسيسين ، ونسكهم • ولو هديت السبيل ، لكان الأنبياء والحواريون أحق وأولى ، بالثناء والتبجيل • لكن استهواك الطمع ، واستفرك الجشع ، فأثرت الدنيا عن الآخرة ، فصفقتك اذن خاسرة ، وتجارتك بائرة •

وأما قولك : « فرضا له شاكرين ، حامدين معظمين » فكلام غير مستظم ، وليس له مفهوم ملتئم • ذهب معناه ، لكثرة لحنه ، يمجحه المعقل ببديهة ذهنه • أتلفت معناه ، رضانة العجم ، فكأنه تبقى فى نفس قائله مكتتم •

وأما قولك « غير واقفين على ذاته ، ولا مدركين لشيء منه » فلعمري • لقد صدقت ، وبما أنت عليه من الجهل بمعبودك نطقت • فأين هذا من قولك « كتاب : تثليث الوجدانية فى معرفة الله » ؟ فقد جعلت هذا الكتاب بزعمك موصلا الى معرفة الله ، ثم لم ترجع النفس حتى شهدت على نفسك بالجهل بالله • فظهر تناقض اعتقادك على لسانك ، وفى تقييدك • وكذلك يفعل الله بكل جاهل مهذار • وكيف يعرف الله من لم يقف على معرفة ذاته ، ولا علم شيئا من صفاته ؟ وهل ذاته تعالى الا عبارة عن وجوده ؟ فان الموجودات : الموجود من غير مزيد ، على ما يعرف فى موضعه بالبرهان • فمن لم يعرف ذاته تعالى لم يعرف وجوده ، ومن لم يعرف وجوده : فاما شك ، واما جاهل •

وأما قوله : « وانما نقع على أسماء أفعاله ، فى خليقته ، وتدبيره فى ربوبيته » فكلام لم يورده فصيحاً ، ولا فهمه صحيحاً • دليل أنه لم يورده فصيحاً : أنه أراد بقوله « نقع » : « نعرف » والا لم يستقم كلامه • فكأنه قال : « وانما نعرف أسماء أفعاله » وأين : نعرف من نقع ؟ وأى جامع بينهما عند من عقل وسمع ؟ فان مفهوم وقع وحقيقته : سقط الشيء من أعلى الى أسفل ، وليس لهذا المعنى فى كلامه مدخل • وأما أنه لم يفهمه صحيحاً ، فيدل عليه : أنه لا يجيب اذا سئل عنه • فأصخ يا هذا

سمعت ، واستعن ملاك جمعك ، فاني أسألك ، واياهم عن : حد الاسم وحقيقته ؟ وهل هو المسمى أو غيره ؟ فان كان غيره . فما حد الاسم ؟ وما حد المسمى ؟ وما حد التسمية ؟ ثم هل ينقسم الاسم بالاضافة الى المسمى أم لا ينقسم ؟ فان انقسم فعلى كم قسم ؟ وانما أوردت عليه هذه الأسئلة : كيلا له بضاعة ، وليكون ذلك أبلغ في دفعه ، وأقطع لنزاعه . ثم انه أضاف (أسماء) الى (أفعال الله) ولا يشك عاقل فاهم : في أن أفعال الله تعالى ، انما يراد بها مخلوقاته ، ومخلوقاتة وخليقتة واحد في المعنى . فكأنه قال — على ما يقتضيه ظاهر كلامه — : « وانما نقع على أسماء مخلوقاتة في مخلوقاتة » فأبدل لفظ « مخلوقاتة » بأفعاله . وهذا كلام قليل العائدة ، بل عديم الفائدة . ثم أسماء أفعاله : انما هي عبارة عن الألفاظ الدالة على أفعاله ، وأفعاله — كما قلنا — مخلوقاتة ، كلفظ السماء والأرض ، وغير ذلك . فمن عرف الألفاظ الدالة على هذه المخلوقات . أى شئ يحصل له بسببها من معرفة الله تعالى ؟ وأى دلالة ؟ وأى نسبة ؟ بين معرفة اللفظ الذى يدل على « السماء » في التخاطب مثلا ، وبين معرفة الله تعالى ؟ وهل قوله هذا : الا هذان من القول ، وارتيك في ورطة الجهل ؟

وأما قوله « وتديبره في ربوبيته » : فالظاهر من لفظ التدبير السابق منه الى الفهم : أنه عبارة عن التفكير النفسى ، والتقدير الذهنى ، والبارى سبحانه متعال عن التدبير الذى هو التفكير والتقدير ، فانه لا يتصور الا في حق من جهل شيئا فأراد أن يستعمل فكره في تحصيل العلم به ، والجهل على الله محال . فالتدبير بمعنى الفكر عليه محال . فان أراد السائل بكلامه غير هذا ، فلا بد من بيانه ، وإيضاح برهانه .

وأما (الربوبية) فلفظ مشتق من لفظ (الرب) والرب في مستعمل كلام العرب له معنيان مستعملان . أحدهما : السيد . والثانى : المالك . فان أراد به المعنى الأول الذى يرجع الى السؤدد والشرف فهو : خطأ ، من حيث أن سؤدده واجب له فلا يحتاج في تحصيله الى سبب من تدبير ، ولا مقتضى تفكير . ومقتضى كلامه ومفهومه : أنه دبر في ربوبيته ، وأوجدها عن تدبيره لنفسه . وهذا جهل بواج ، وكفر صراح . وان أراد به المعنى الثانى الذى يرجع معناه الى الملك فلا يستقيم أيضا على ظاهر كلامه ، فانه يكون معنى كلامه : أنه دبر في ملكه ، وأوجده

عن التدبير ، الذى هو روية وتفكير ، ويتعالى عن ذلك الخالق القدير ،
المنزه عن خواطر النفس ، وهو اجس الضمير •

ثم لما فرغ هذا السائل من خطبته الغراء ، البديعة الانشاء ،
التي من وقف عليها علم أنه عن المعارف مصروف ، وأنه لا يفهم المعاني
ولا يحسن كتابة الحروف • شرع في طريقة الجدال ، وكيفية الاستدلال •
فكانه في نظم معقولاته « الطوسى » وفي آداب جدله « البروى »
ولعمر الله لو كان هذا السائل عاقلا لستر عواره ، ولم يبد غارة ،

ولكنه جهل فقال • وحيث وجب أن يسكن جال •
ولقد كان ينبغي لهذا السائل ألا يتكلم في شيء من علوم الاعتقاد ،
حتى يحسن شروط النظر ، ويحكم ما يحتاج اليه من المواد والفكر ، ولما
بادر الى الكلام في ذلك من غير تحصيل شيء مما هنالك ، تثبج عليه كلامه ،
وصعب عليه مرامه ، فربما كان المعنى الذى يقصده قريبا فيبيعه ، أو
مجتمعا فيبيده ، وسيتبين ذلك في كلامه •

ولما كان ذلك رأيت أنى ان تتبعت كلامه ، كما تتبعت خطبته خرج
الأمر عن الاعتدال ، وأدى ذلك الى الكسل والملال ، وضياح الزمن في
ضروب الهذيان ، هو غاية الخسران • فرأيت أن أعرض عن آحاد كلماته
وأناقشه في معانيها ومفهوماتها • ثم انى ربما لا أتكلم معه حتى أحكى
مذهبه ، وأبين له ما أراده بكلام حسن وجيز ، ليكون ذلك أبلغ في الفهم ،
وأمكن في التمييز • والى الله عز وجل أرغب ، وعليه أتوكل في أن يشرح
صدورنا ، وييسر علينا أمورنا ، ويستعطفنا فيما يقربنا منه ، وينفعنا
عنده • انه : ولى ذلك القادر عليه •

تم المصدر • والآن نشرع في الأبواب •



الباب الأول

في بيان مذاهبهم في الأقاليم، وإبطال قولهم فيها

- * الأقاليم أسماء وأفعال
- * أقاليم : القدرة والعلم والحياة
- * تعليل التثليث
- * دليل التثليث
- * في بيان اختلافهم في الأقاليم

الأفانيم أسماء أفعال

في حكاية كلام السائل ، والجواب عنه

قال السائل : « الآن وجب على أن أسألك في أمر التثليث عن خلق الله لجميع ما خلق . ان كان خلقهم بقدرة ، وعلم ، وإرادة ، أم خلقهم بغير هذا ؟ فإذا اضطرتك المسألة ، الى القول بها . فاني أسألك : ان كانت أسماء لذاته ؟ أو أسماء لأفعاله ؟ فان قلت : هي أسماء لذاته . فقد نقضت ، وجعلتها أسماء للذات ، ووقعت فيما أنكرت من الجسم ، وان قلت : من أسماء أفعاله التي منها ، سمي : قادر ، عالم ، مريد .. فهو التثليث ، الذي أمرنا بالقول به » ا.هـ .

الجواب عنه : سألت يا هذا المقدام بعد اعجام ، واستبهاهم : هل خلق الله تعالى الخلق بقدرة ، وعلم وإرادة أم بغيرهم ؟ وهذا السؤال كان ينبغي لك ألا تسأل عنه حتى تفرغ من معرفة المراتب التي قبله . وذلك أنك لا تصل الى ما سألت عنه ، حتى تعرف معنى (الخلق) وهل العالم مخلوق ؟ وان كان مخلوقا فهل يحتاج الى خالق أم لا ؟ فإذا بلغت الى هنا . وقطعت هذه المفاوز التي لا تقطع بالني ، ولا يتخلص منها بالهويني . ولا يكتفى في تحصيل العلم بذلك ، بالتقليد . بل بالنظر الشديد ، والبرهان العتيد .

حينئذ كان ينبغي أن تسأل عما سألت عنه ، لكنك بجهلك بطريقة النظر قدمت وأخرت « **وفعلت فعلتك التي فعلت** » (١) ولو كنت ممن له في النظر نصيب لضربت فيه بسهم مصيب ، ولاقتديت بمعلمكم الأزعم ، وأسقفكم الأعظم « **أغشتين** » (٢) فما هو يقول في (مصحف العالم

(١) الشعراء : ١٩

(٢) ولد القديس « أوغسطين » (ST. AUGUSTINE) في (طاجست) بالجزائر في نوفمبر عام ثلثمائة وأربع وخمسين من الميلاد لاب وثني ، وأم مسيحية هي القديسة « مونيكا » وقد أرسلته أمه في السابعة عشر من عمره ليقم دراسته العليا في « قرطاجنة » وقد اندفع في الشهوات النسائية اندفاعا شديدا ، ثم =

الكائن) في أول ورقة منه : « ينبغي أن يجعل الكلام في النظريات على منازل ودرجات • ليكون من اجتمع معنا في الدرجة الأولى ، تكلمنا معه في الدرجة الثانية ، ومن اجتمع معنا في الدرجة الثانية • تكلمنا معه في الدرجة الثالثة • ثم نمضي كذلك الى أقصى نهايات الكلام • فانما يكون فساد الكلام وتناقضه واشتباهه من قبل النقص في معرفة هذه الدرج ، لأننا متى ناظرنا في الدرجة الثانية من لم يجتمع معنا في الأولى ، لم يبلغ الكلام غاية ، ولم يقف على نهاية » ا. ه •

وعلى منواله نسج « حفص بن البر » في أقواله • ولقد كان لك فيهما أسوة ، لو كنت أهلا للقدوة ، فبينك وبين من سؤالك هذا : ثلاثة أدراج حارت فيها عقول كثير من النظار وفنيت أزمان ، ونفدت أعمار ، فكلامك يا هذا فاسد هجين ، بشهادة قسيسكم « أعشتين » •

وأما قولك : « فاذن اضطرتك المسألة الى القول بها » فقول غير صحيح ، والجهل على قائله يلوح ، وكيف تضطر المسألة مع نظر سقيم ، أخذت مقدماته بالتحكم والتسليم • وانما كان يلزم ذلك : لو تزلت في

= استقر على اتخاذ خلية وانقطع عن الاتصال الجنسي الطليق ، ووجد نفسه في عام ثلثمائة واثان وثمانين • وهو لا يزال في الثامنة عشر : أبا ، لولد ذكر ، كان يسميه « ابن خطيئتي » تارة • و « عطية الله » تارة أخرى • أما من حيث نموه العقلي فقد طاف بكثير من المذاهب الفلسفية كما فعل القديس « جوستين » من قبل • فاعتنق الأفلاطونية مرة ، والمانوية مرة أخرى ، والأفلاطونية الجديدة مرة ثالثة •

وقد ظل « أوغسطين » حوالي تسع سنوات ، معتنقا الثنائية المانوية ، لأنه رأى فيها وسيلة لفهم العالم المركب من الخير والشر ، فمن طبيعة الوجود عندهم أن توجد الظلمة الى جانب النور ، فالشر عنصر أساسي في طبيعة الحياة الإنسانية • وهكذا وجد « أوغسطين » ما يبرر وجود الشر في العالم • لكنه في الواقع ظل طوال هذه السنوات التسع « سماعا » والسماعون في المانوية ، هم الاتباع الذين يؤمنون بالمذهب ، ولا يعملون به • أما الاتباع الأوفياء فهم الصديقون أو المختارون • ومات « أوغسطين » في سنة أربعمائة وثلاثين من الميلاد • (صفحة ١٢ و ٤٨ و ١٦١ من كتاب : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط - تاليف « اتين جليسون » عرض وتعليق : الدكتور امام عبد الفتاح امام - دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٤) • انظر أيضا صفحة ١٢٦ من كتاب « فجر الاسلام » للدكتور أحمد أمين •

كلامك على شرط السبر والتقسيم ، ونهجت منهج النظر القويم .
والا فبم تنكر على الدهرى حيث يقول : « لا أسلم أن العالم مخلوق » ؟
وبم تنكر على الفلسفى ، حيث يقول : « أسلم أنه مخلوق ، لكن لا أسلم
أنه محتاج الى خالق ، مخترعه بعد العدم » ؟ وبم تنكر على الطبيعى
حيث يقول : « لا يحتاج عالم الطبائع الى خالق ذى قدرة ، وعلم ،
وارادة ، وحياة » ؟ ثم لاى شىء تحكمت ، وقلت : « انها ثلاثة » ؟
فلعلها أكثر ، أو أقل ، ولا بد لك من معرفة ابطال مذاهب هؤلاء
بالبرهان ، وحينئذ تحصل على مرتبة الايقان . وهذا ليس بغشك ،
فأصطجع على نمشك .

خلى الطريق ، لمن يبنى المنار به * واقعد ببرزة حيث اضطرك القدر

وأما قولك : « فانى أسألك ان كانت أسماء لذاته ، أو أسماء لأفعاله .
فان قلت : هى أسماء لذاته فقد نقضت ، وجعلتها أسماء للذات ، ووقعت
فيما أنكرت من الجسم » فسؤال لا يستحق أن يسمع ، ولا لصاحبه
فى العقل مطمع ، قسمت ، وسبرت ، وبقيت عليك أقسام وما شعرت .
اذ لقائل أن يقول : « ليست هذه الأسماء من أسماء الذات ، ولا من
أسماء الأفعال ، بل هى قسم آخر ، وهو أسماء الصفات » والتقسيم :
حتى لم يكن دائرا بين النفى والاثبات ، فهو معرض للنقض والآفات ،
ثم أطرف من العنقاء : شرعه فى أول كلامه فى المسميات ، ثم أخذه فى
الكلام فى الأسماء ، ولم يفرق بين الاسم والمسمى ، فهو جاهل أعمى .

ثم انظر به هذا السائل ، وعدم حسه ، فلقد خرج بجعله عن
أبناء جنسه . كيف قال : « فان قلت هى أسماء لذاته ، فقد نقضت ،
وجعلتها اسما للذات » وأى فرق بين قوله فى المقدم ، وبين قوله فى
التالى ؟ وهل هذا الا بمثابة من يقول : « ان قلت هذا اليوم نهارا ،
فقد نقضت ، وجعلته نهارا » ؟

فما أعرفك يا هذا بنتيجة الشرطى المتصل وحدوده ، وبحد النقيض
وشروطه . فلو استرزقت الله عقلا ، لكان الأخرى بك من الكلام فى
المعتقدات والأولى . ثم أعجب من ذلك كله : أنك لزمتم من قال :
« ان العلم والقدرة والارادة أسماء للذات » : القول بالتجسيم .
وهذا نتيجة الجهل الصميم ، والفهم المستقيم . وهذا من أين يلزم ؟

أمن نقيض التالي أو عين المقدم ؟ فوالذى خص الأذكىاء بالعقول •
لقد أربيت فى جهلك على كل جهول ، وأتيت بما ليس بمفهوم ولا معقول •

وأما قولك : « وان قلت من أسماء أفعاله التى سُمى قادر عالم مريد فهو التثليث الذى أمرنا بالقول به » • فيقتضى أن الأتانيين من أسماء الأفعال • فهذا قول لا يقول به المجانين ولا الأطفال فان معنى تسمية الله تعالى بأسماء الأفعال انما معناها عند العقلاء • أن يخلق الله فعلا يسمى ذلك الفعل باسم فيشتق لله تعالى من ذلك الفعل اسم • مثال ذلك : خالق ، ورازق • يقالان على الله تعالى ، باعتبار خلق الخلق ، ورزق الرزق • فان أردت هذا المعنى كان ذلك محالا على الصفات العلى ، فان صفاته سبحانه وتعالى ليست بمخلوقة ، على ما يعرف فى موضعه ، وأيضا فلو جاز أن يسمى بعلم يخلقه عالما ، وبارادة يخلقها مريدا ، وبقدرة يخلقها قادرا • جاز أن يسمى بحركة يخلقها متحركا ، وبصوت يخلقه مصوتا • وذلك مجرى الى جهالات ، لا يقول بها عاقل • فان أراد هذا السائل بأسماء الأفعال أمر آخر ، فهو انما اصطلاح مع نفسه ، فكان ينبغى له أن يفسر ما يقول اذ لم يتكلم بما اصطلاح عليه أرباب العقول •

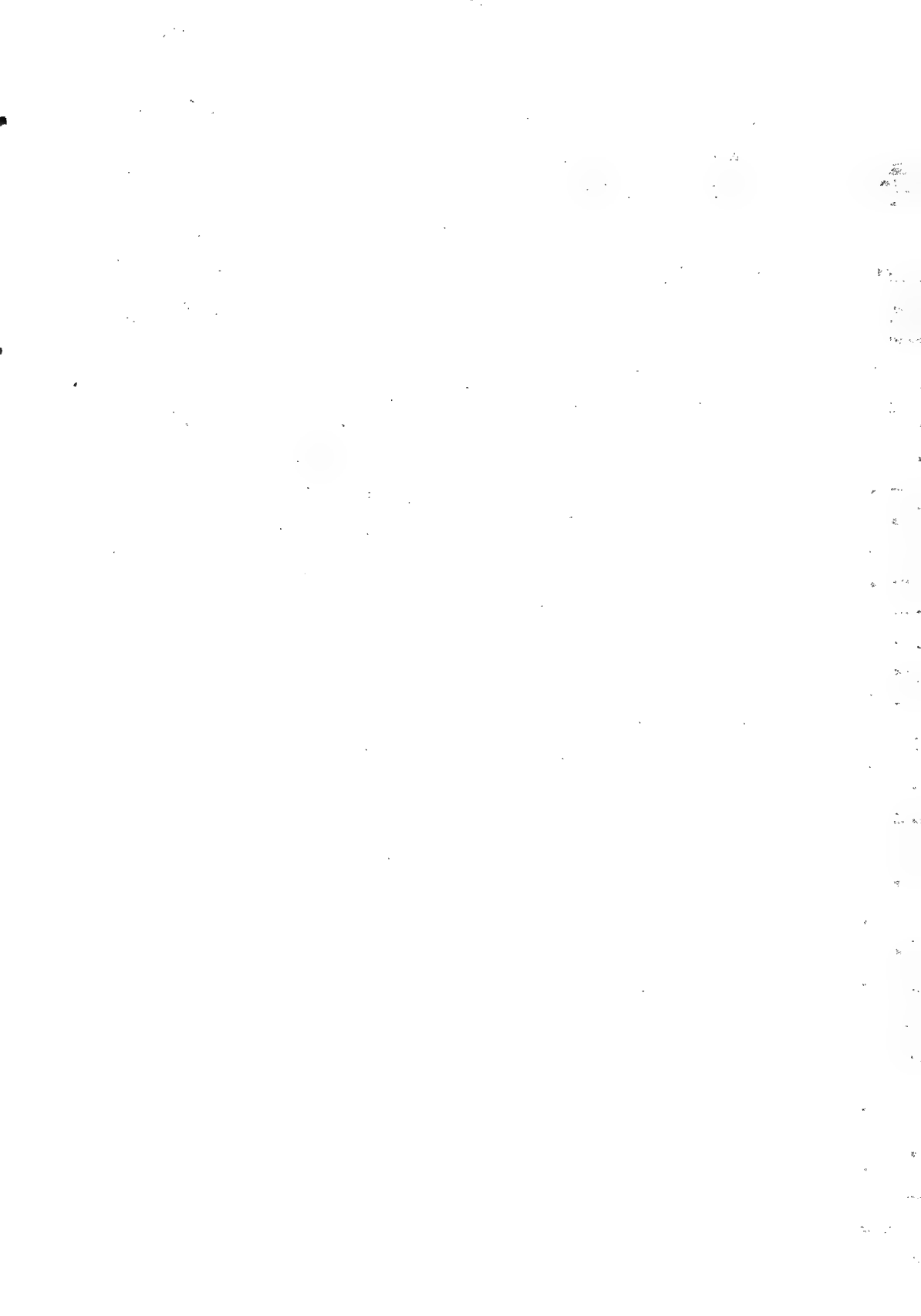
وأما قولك : « فهو التثليث الذى أمرنا بالقول به » فقول فيه كذبت ، وعلى الله ورسله افتريت • فان الرسل عليهم السلام لم تأمر باعتقاد التثليث لأحد من الأنام • بل قالت الانبياء عليهم السلام ، ما يعرفه الخاص والعام « **فَأَمْنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً** » (١) ولقد حصل للعقلاء بالتواتر ، وعلموا بالوراثة : أن الله تعالى قال : « **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ** » (٢) ثم قولك هذا تريد به : أنكم أمرتم باعتقاد آلهة ثلاثة • وانكم قيل لكم : اعتقدوا فى الله تعالى أنه آلهة ثلاثة ، اله واحد ، وقولوا به • وليس الأمر كذلك عند رهبانكم المتقدمين ، وأساقفتكم الماضين •

هذا « أغشتين » يقول بعد أن تكلم فى الأتانيين ، ما تثبت أنها صفات على ما يقتضيه كلامه • ذلك أنه قال : « وهذا قولنا فى الأتانيين الثلاثة التى لا يمكن جحدھا منه ، ولا وصفه بغيرھا » وهذا تصريح

هذه : بأنها صفات • ثم قال بعد ذلك : « فهذا قولنا في التثليث ، الذي وصفه الانجيل ، وأمرنا بالايمان به » وسيأتى نص كلامه • ولم يقل : أمرنا بأن نعتقد أن الله واحد ، ثلاثة • فان الواحد لا يكون ثلاثة والثلاثة لا تكون واحدا • كما قد تبين فسادہ ، بل مفهوم قوله : أن الانجيل وصف أن الله تعالى موصوف بهذه الصفات • وأمرنا بالتصديق بذلك • ولو أنكم عن ألسنتكم أمر التثليث ، واعتقدتم أن الله تعالى واحد لموصوف بصفات الكمال ، ونعوت الجلال ، لوفقتم في هذه المسألة للصواب ، ولحصلتم منها على الحق بلا ارتياب • ولكن من حرم التوفيق ، استدبر الطريق ، ونكل عن التحقيق •

على أن ما ذكرته في أمر التثليث لا يستقيم على رأى المتقدمين من أبحاركم • هذا صاحب كتاب : « المسائل السبع والخمسين » يقول فيها : « لا نقول : أن التثليث ممتزج في أقنوم واحد كقول « شباليش » ولا الهية متحدة ، أو متبعضة الذات ، كفرية « آريش » بل أن أقنوم الآب غير أقنوم الابن ، وأقنوم الابن غير الروح • لكن التثليث المقدس ذات واحدة ، فإذا لم تكن ممتزجة ، وكان كل أقنوم منها غير الآخر — والاقنوم معناه عندكم : الشيء المستغنى بذاته عن أصل جوهره في اقامة خاصة جوهرية — فكيف يتسع عقل ، لأن يقول : أن هذه الثلاثة المتغايرة التي هي على ما ذكر : واحد ؟ وهل قائله الا معتوه ، أو معاند ؟





أقائم: القدرة والعلم والحياة

في حكاية كلامه أيضا

قال : « فان قلت لم لا تقولون : بسم العالم القادر المريد ، اذا قلتم : باسم الآب والابن والروح القدس • فيتبين : آب ، وابن ، وروح القدس ، ثالثا •

اعلم أن المسيح لما بعث الحواريين الى جميع الأجناس قال لهم : « من آمن منهم فعمدوه على اسم الآب ، والابن ، والروح القدس » (١) وانما خاطبنا بمثل تعاقلنا • فجعل هذه الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال ، ثم واسط ، ثم آخر •

فأول القضايا : خلق الله الجميع بيد ، سماها : آبا ، وأضافها الى القدرة • وأضاف قضية وعظ المسيح للناس الى العلم ، وسماها : ابنا ، لأن العلم لا يوقع عليه ، حتى يتولد كلاما • وأضاف قضية فناء جميع الدنيا ، ومكافأة أهلها بأعمالهم الى الارادة ، وسماها : روح القدس ، الذى هو قادر ، عالم ، مريد ، اسما للواحد الذى لا يتكرر » ا. ه •

والجواب عن قوله : اعلم يا هذا • انك لم تحسن السؤال • ولا حصلت منه على صواب مقال ، بل حصل منه فى عنقك غل • وفى رجلبك عقال • قلبت السؤال ، ولم تشعر ، وجهلت من حيث ظننت أنك تستبصر • أردت أن تقول فى الاعتراض الذى وجهته على نفسك • لم لا تكثفون باسم القادر ، العالم ، المريد • ولا تقولون : باسم الآب ، والابن ، وروح القدس ؟ فقدمت وأخرت ، وباللفظ والمعنى أخللت ،

(١) النص : « فاذهبوا وتعلموا جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨ : ١٩) وفى انجيل مرقس : « وقال لهم : اذهبوا الى العالم أجمع ، واكرزوا بالانجيل ، للخليفة كلها • من آمن واعتمد خلص • ومن لم يؤمن يهلك » (مرقس ١٦ : ١٥) •

ثم أنتجت النتيجة ، قبل ذكر المقدمات ، فصار لذلك كلامك من أرك
الترهات • فقلت فيها : « فيتبين : آب ، وابن ، وروح القدس ثالثا »
وهذا كلام مختل ناقص ، مشوب بالفساد غير خالص • وإنما كان صوابه
أن يقول : فيتبين أنه آب وابن • ثم قلت : « ثالثا » بالنصب ، بخطك
ضبطه ، مشعرا بأنك أعربته ، بل بالاتفاق كتبته ، ولم تشعر بأنك قلبته •
وأما قولك : « أن المسيح لما بعث الحواريين الى جميع الأجناس »
فكلاما نقلته مدعيا أنك رويته ، ونحن يجب علينا : أن نتوقف في أخباركم ،
ولا نقطع بتصديقكم ، ولا باكذابكم ، بل نقول ما أمرنا به الرسول •
وبلغنا على السنة النقلة العدول : « آمنا بالله ورسله » (١) فان صدقتم
لم نكذبكم • وان كذبتكم لم نصدقكم • ومع تسليم ذك جدلا ، فلا يد
أن نباحثكم فيما نقلتم ، ونتفقه فيما حكيتكم •

فنقول : ظاهر قولك هذا ، يفهم منه : أن رسالة عيسى كانت عامة
لجميع الأجناس • وليس الأمر على ما زعمتم (٢) ، وسيأتى الكلام على
هذا في باب النبوات • وكذا الكلام على المعمودية ، وما يلزم عليها يأتى
في باب الكلام على أحكامهم ان شاء الله تعالى •

وأما استدلالاته على اعتقاد وجوب الآب والابن والروح القدس •
واطلاق القول بذلك بما قاله عيسى للحواريين ، فلا حجة لك فيه • اذ ليس
بنص قاطع • بل هو مما تقولون أنتم فيه متشابه • فانه يحتمل أن يكون
مراده به : عمدوهم على تركهم هذا القول • كما يقول القائل : كل
على اسم الله ، وامش على اسم الله • أى على بركة اسم الله ، ولم
يعين الآب والابن ، من هما ؟ ولا ما المعنى المراد بهما ؟ فلعله أراد
بالآب هنا : الملك الذى نفخ في مزيم أمه الروح • اذ نفخه سبب علوق
أمه وحبلها به • وأراد بالابن : نفسه ، اذ خلقه الله تعالى من نفخة
الملك ، فالنفخة له بمثابة النطفة في حق غيره •

(١) في صحيح البخارى « عن أبى هريرة قال : قال : كان أهل الكتاب
يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام • فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : لا تصحقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » وقولوا
« آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » الآية (العنكبوت : ٤٦) •
باب « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » الجزء التاسع صفحة ٣٦ •
(٢) سنعلق عليها في باب النبوات •

ثم لا يبعد أيضا في التأويل — ان صح ، عن عيسى عليه السلام ، أنه كان يطلق على الله لفظ الأب — أن يكون مراده به : أنه ذو حفظ له ، وذو رحمة وحنان عليه ، وعلى عبادته الصالحين ، فهو لهم بمنزلة الأب الشفيق الرحيم . وهم له في القيام بحقوقه وعبادته بمنزلة الولد البار . ويحتمل أن يكون تجوز باطلاق هذا اللفظ على الله تعالى ، لأنه معلمه ، وهاديه ومرشده . كما يقال : « المعلم ، أبو المتعلم » ومن هذا قوله تعالى في كتابنا : « ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل » (١) على أحد تأويلاته (٢) .

ومن هذين التأويلين : يصح حل ، ما وقع في أناجيلهم ، من هذا اللفظ . بل هذان التأويلان ظاهران ، وسائغان فيها ، ويشهد لهذين التأويلين : قول عيسى للحواريين ، على ما جاء في (سورة الوصية) حيث قال لهم :

« اذا صليتم ، فقولوا : يا أبانا السماوى ، تقدر اسمك ، وقرب ملكك » (٣) ثم قال بعد كلام ، ووصايا : « فاذا كنتم أنتم على شربكم تعرفون اعطاء الخيرات أولادكم . فكيف أبوكم السماوى » (٤) ؟ وكذلك وقع في انجيل يوحنا (يحيى) : أن عيسى قال لليهود : « أنا عالم أنكم من نسل ابراهيم . ولكن تريدون قتلى . لأنكم »

(١) الحج : ٧٨

(٢) في تفسير الكشاف للامام الزمخشري « فان قلت : لم يكن « ابراهيم » أبا للامة كلها . قلت : هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أبا لأمته . لأن أمة الرسول في حكم أولاده » ١٠ هـ .
في تفسير « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى : « و ابراهيم هو أبو العرب قاطبة . وقيل : الخطاب لجميع المسلمين . وان لم يكن الكل من ولده ، لأن حرمة ابراهيم على المسلمين ، كحرمة الوالد على الولد » ١٠ هـ .

(٣) النص : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك » (متى ٦ : ٩ - ١٠ ، ولوقا ١١ : ٢) .
(٤) النص : « فان كنتم ، وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة ، فكم بالحرى أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه » (متى ٧ : ١١) .

لا تعلق بكم وصيتي • فأعلمكم بما رأييت عند الآب • وأنتم انما تعملون ما رأيتم من أبيكم • فأجابوه • وقالوا : انما أبونا ابراهيم • فقال لهم : ان كنتم بنى ابراهيم ، فاقفوا أثره ، ولا تريدوا قتلى • على أنى رجل ، وذنبي اليكم : الحق ، الذى سمعت عن الله • ولم يفعل ابراهيم غير هذا • انكم تقفون آثار أبيكم • فقالوا له : لسنا أولاد زنا • وانما نحن بنو الله • فقال لهم : لو كان الله أباكم لحفظتمونى • لأننى منه « (١) » •

ثم نقول : لأنه عليه السلام ، وان كان يطلق هذه الأسماء ، فانما كان يطلقها متمثلا بها • وهكذا أكثر كلامه الذى يحكون فى انجيلهم •

ثم قد نهى عن اطلاقها فى الانجيل : الحواريين : قال فى انجيل لوقا للحواريين : « ما تقولون أنتم ؟ فأجابه سمعون بيطر وقال له : أنت المسيح ابن الله • فنهاهم « (٢) » وكذلك كان يقول : اذا كان يخرج الجنون عن المجانين ، فكانت تخرج ، وهى تقول : « أنت ابن الله » فكان ينتهرهم ويمنعهم من هذا القول « (٣) » •

(١) النص : « أنا عالم أنكم ذرية ابراهيم • لكنكم تطلبون أن تقتلونى • لأن كلامى ، لا موضع له فيكم • أنا أتكلّم بما رأييت عند أبى ، وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم • أجابوا وقالوا له : أبونا هو ابراهيم • قال لهم يسوع : لمو كنتم أولاد ابراهيم لكنكم تعملون أعمال ابراهيم • ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى • وأنا انسان قد كلمكم بالحق الذى سمعته من الله ، هذا لم يعمله ابراهيم • أنتم تعملون أعمال أبيكم • فقالوا له : اننا لم نولد من زنا • لنا أب واحد ، وهو الله • فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنكم تحبوننى ، لأنى خرجت من قبل الله » (يوحنا ٨ : ٣٧ - ٤٢) •

(٢) النص : « قال لهم : وأنتم من تقولون : انى أنا ؟ فأجاب بطرس ، وقال مسيح الله ، فانتهرهم وأوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد » (لوقا ٩ : ٢٠ - ٢١) •

(٣) فى انجيل لوقا : « وكانت شياطين أيضا تخرج من كثيرين ، وهى تصرخ وتقول : أنت المسيح ابن الله • فانتهرهم ، ولم يدعهم يتكلمون » (لوقا ٤ : ٤١) وجاء فى مرقس بجل « ابن الله » تعبير « قدوس الله » يقول : « وكان فى مجمعهم رجل به روح نجس • فصرخ قائلا : آه • ما لنا ولك يا يسوع الناصرى • أتيت لتهلكنا • أنا أعرفك • من أنت ؟ قدوس الله • فانتهره يسوع » (مرقس ١ : ٢٣ - ٢٥) وجاء فيه تعبير « ابن الله » هكذا : =

فهذا يدل دلالة بيّنة على : أن المسيح كان يطلق لفظ الآب على الله تعالى ، بالمعنى الذى يطلق على ابراهيم عليه السلام أنه : أب • وذلك بمعنى : المعلم الشفيق • وكذلك جاء اللفظ فى كتابنا : « ملة أبيكم ابراهيم » (١) وبذلك المعنى تقول اليهود ، والنصارى ، فى ابراهيم ، وليس على حقيقة الأبوة • ومع ذلك فـ « ما كان ابراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » (٢) •

وكذلك فى الانجيل فى غير ما موضع : « قال لكم أبوكم ، وقلت لأبى » (٣) ويلزم على مساق هذا ألا يخص المسيح باسم الابن ، ولا الله تعالى باسم الأب •

وما بالنّا نطول الأنفاس مع هؤلاء الجهال ، فانه اذا احتمل هذه التّأويلات ، كان من المتشابهات ، ولا ينبغي أن يصير اليه فى الاحتجاجات ، وخصوصا فى الاعتقادات • ثم نقول : لا يخلو المستدل بذلك ، أو ما يقاربه على المعنى المتقدم : اما أن يريد به حقيقة الأب والابن ، أو لا يريد ذلك • فان أراد الحقيقة كان محالا وباطلا • فان حقيقة الأب عند العقلاء : حيوان ولد من نطفة حيوان هو من نوعه • وبهذه النسبة والصفة تفهم حقيقة الابن • وهذان الوصفان محالان على القدرة والعلم • فان العلم ليس بحيوان مولود من نطفة حيوان ، ولا القدرة حيوان يخرج منها نطفة يتولد منها حيوان • وهذا معلوم البطلان بالضرورة •

= « والأرواح النجسة حينما نظرت له وصرخت قائلة : انك أنت ابن الله • وأوصاهم كثيرا أن لا يظهروه » (مرقس ٣ : ١١) وهذا يدل على أن « قدوس الله » تساوى « ابن الله » •

(٢) آل عمران : ٦٧

(١) الحج : ٧٨

(٣) فى الانجيل نصوص كثيرة بهذا المعنى منها : فى (يوحنا ١٢ : ٤٤ — ٤٩) « فنادى يسوع وقال : الذى يؤمن بى ليس يؤمن بى • بل بالذى أرسلنى • والذى يرانى يرى الذى أرسلنى • أنا قد جئت نورا الى العالم ، حتى كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلمة • وان سمع أحد كلامى ولم يؤمن • فانا لا أدينه • لأنى لم آت لأدين العالم ، بل لأخلص العالم • من رفلنى ولم يقبل كلامى فله من يدينه • الكلام الذى تكلمت به هو يدينه فى اليوم الاخير • لأنى لم أتكلم من نفسى • لكن الآب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول ؟ وبماذا أتكلم ؟ .. » الخ •

وان أراد بذلك المجاز فلا يصح له حمله على المجاز حتى يجتمع
 المجاز والحقيقة في أمر ما . فانك اذا قلت : (زيد أسد) انما تجوزت
 بلفظ الأسد ، وأطلقت على (زيد) لأجل الشجاعة الجامعة بين
 (الأسد) و (زيد) ولولا ذلك لما صح المجاز فاذن لا بد لهذا المتجوز
 من جامع بين الحقيقة والمجاز . فما الجامع الذي لأجله تجوز هذا
 المحتج ؟ فان قال : الأمر الجامع : أن القدرة أصل العلم — وقد قال
 ذلك في داخل كتابه — منعنا ذلك ، ولم نسأله . وقلنا : المفهوم من
 القدرة ، والمعقول منها عند العقلاء : صفة بها يوجد ما لم يكن موجودا ،
 والمعقول من العلم أنه صفة كاشفة نفسها ومعلومها . يصدر عنها
 الاحكام والانتقان . وهما في حق الله تعالى : أزليان عندنا وعندهم .
 واذا كانا كذلك فلا يتقدم أحدهما على الآخر في الوجود . واذا لم يصح
 ذلك فلا يكون أحدهما أصلا للآخر . فان أراد هذا القائل : التقدم
 في الذهن ، فالعلم هو المتقدم في الذهن لأنه لا يصح فعل اختياري من
 غير عالم . فان العلم شرط اليجاد ، والشرط متقدم في الذهن على
 العلم . ويتحقق هذا المعنى على القطع : عند من عرف الفرق بين العلم
 المشروط بالضرورة . وكذلك نقول : (علم زيد فقدر) ولا نقول (قدر
 الفعلي والانفعالي . ولو عكستم ما ذكرتم فسميتم العلم : أبا .
 والقدرة : ابنا . لكان أحق بذلك وأولى .

ثم نقول : لأي شيء صرتم الى الجامع بين الحقيقة والمجاز ؟
 هو : الذي ذكرتم ؟ وبم تتكرون على من يزعم : أن هنالك وجها آخر
 لم تطلعوا عليه ثم تحكمتم بتعيين هذا الوجه الذي ذكرتم ؟

ثم نقول : أنتم قاطعون بتعين هذا الوجه الذي أبديتم ، أو غير
 قاطعين ؟ فان زعموا : أنهم قاطعون ، فما مستند قطعهم ؟ فلا بد من
 إبدائه . ولا شك في أنهم يجدون في هذا المعنى نصا قاطعا ، فان
 زعموا : أنهم ليسوا بقاطعين ، فقد اعترفوا بأنهم شاكون في اعتقادهم
 وقد كفونا مؤنة الكلام معهم ، فانهم أسندوا اعتقاداتهم الى الشك ،
 وكفى بذلك زورا وافكا . ثم يلزمهم على تسليم ما ذكروه من الجامع
 الذي أبدعوه : أن يكون الباري — تعالى وتنزهه وتقدس — أبا لكل
 المخلوقات ، اذ هو أصل كل المحدثات ، أي موجدتها ومخترعها .

وأما قولك : « فجعل هذه الأسماء ثلاثا » فيفهم منه : أن هذه الثلاثة
 الألقاب التي تقدم ذكرها ، مجعولة ، وأن الله تعالى هو الذي جعلها .

وإذا كانت بجعل الله فهي بخلقه ، وما كان بخلقه فهو محدث فيلزمك على ظاهر قولك : أن هذه الأقانيم محدثة باختراعه تعالى ، وأنتم تقولون انها أزليات قديمة •

وأما قولك : « التي هي أسماء أفعاله » فقد أبطلناه فيما تقدم حيث بينا حقيقة أسماء الأفعال • ومن وقف على ذلك ، تبين بطلانه هناك • وأما قولك : « مختلفة الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال ، ثم واسط ، ثم آخر » فكلام لا يروقك منظره ، ولا يعيد فائدة ، مخبره يشهد على قائله بالجنون ، ويضحك من عدم فائدته وارتباطه بالعقلون • أراد هذا الجاهل أن يتكلم فخرس ، وكذلك يفعل الله بكل مبطل إذا نكس • وانما أراد هذا المبطل — ولم تطاوعه العبارة لما لم يحصل — : أن هذه الأقانيم الثلاثة انما سميت أبا ، وابنا ، وروح القدس باعتبار قضايا ثلاث • وذلك أن القدرة انما سميت أبا ، باعتبار أنها أصل الموجودات ، اذ بها وجدت • وانما سمي العلم ابنا باعتبار أنه اتحد بالابن ، الذي هو المسيح ، وصدر عنه • وانما سميت الارادة روح القدس باعتبار مكافأة الخلق في الدار الآخرة بالنعيم •

فان زعمت أنك لم ترد هذا فكلامك غير معقول ، وقولك ليس بمقبول وهذا الذي أبديته في هذا الكلام لم يقل به أحد — فيما علمت — من عقلاء نصارى الأنام ، وكفى بقولك عارا : مبين مخالفته لأسقفكم « أغستين » فها هو يقول في (مصحف العالم الكائن) : « انما سمي العلم ابنا باضافته الى القدرة • اذ القدرة أصله • وكما صار التعارف الأعجمي : أن تسمى القدرة التي هي الأصل : والدا • كذلك صار التعارف في ذلك اللسان أن يسمى العلم المنسوب اليها ابنا » فقلوه هذا مخالف لقولك ، ورأيه غير موافق لرأيك ، على أنه غلط في قوله : ان القدرة أصل العلم • ويتبين غلظه عند من وقف على ما قدمته قبل • ولكنه ، وان كان قد غلط • فالأمر عليه أقرب ، والخلاف معه أهون ، لأنه يرجع الخلاف معه الى اطلاق لفظ ، وليس وراء ذلك كثير حظ •

وأما قولك : « لأن العلم لا يوقع عليه ، حتى يتولد كلاما » فكلام حطيط ينبىء عن جهل وتخليط • فان العلم لا يتولد كلاما • اذ لو جاز ذلك لانقلبت حقيقة العلم ، ولو جاز انقلاب حقيقة واحدة ، لجاز انقلاب كل حقيقة ، فيقلب القديم حادثا ، والحادث قديما • والجسم عرضا ،

والسواد بياضا الى غير ذلك من أنواع انقلاب الحقائق • ثم قولك
فاسد وباطل بالضرورة فاننا نعلم أمورا من غير كلام موصل الى ذلك ،
فقولنا بوجود أنفسنا وبألهنا ، ولذاتنا ومحسوساتنا : بديهيات •

ثم قد صرحت بلفظ التولد ، وهو باطل من أصله ، فان المتولدات
ممكنت ، وكل ممكن مقدور بقدرة الله تعالى ، فكل المولدات مقدورة
بقدرة الله تعالى ، وانما ثبت أنها حدثت بقدرة الله تعالى ، فلا يقال :
انها متولدات •

أقول هذا ، والكلام شجون ، والعلم فنون • على أنى أعرف
أنك لا تفهم ما أقول • وانما أخاطب أهل الفهم والعقول •

وأما قولك : « الذى هو قادر ، عالم ، مريد ، اسما للواحد الذى
لا يتكرر » فقول يدل على تخبطك ، وسوء تناولك • نقضت به ما تقدم
من قولك ، حيث جعلت الأتانييم أسماء أفعال بزعمك • ثم قد صرحت
ها هنا بأنها أسماء للواحد الذى لا يتكرر ، ولو حكى مثل هذا الكلام عن
المستغرقين النوام ، لقليل : هذا أضغاث أحلام •

وبعد هذا • فلتعلم أنى تجاوزت عنك فى هذا الفصل ، ولم
أؤخذك ، بكل ما فيه من خلل القول خشية طول الكلام ، وتبدد المطلب ،
وبعد المرام • وأول ذلك : أنك لحتت ، وصحفت فى ثمانية مواضع
تتبيين للناشئين ، بل المراضع •

* * *

تعليق النشيث

في حكاية كلامه أيضا

ثم قال : « فان قلت بالتثليث لأنها أسماء أفعال الله ، فأسماء أفعاله أكثر من ثلاثة ، فقولوا بها كقولكم بالتثليث ، لأن عزيز وقوى وغلوب وسميع وقاهر وبصير وغفور وراضى وساخط ومعاقب ، وغيرها من أسماء أفعاله ، فقولوا بها أجمع كقولكم بالتثليث . قلت لك : هذه التي ذكرناها ، هي أصول جميع التسمية ، ومنها تنبثق ، وفيها تندغم . فعزيز وقوى وغلوب وقاهر ، وما أشبهها . أصلها القدرة ، ومنها تنبثق ، وفيها تندغم ، وغفور ورحيم وراضى وساخط ومعاقب أصلها الارادة ، منها تنبثق ، وفيها تندغم . فان قلت : فقديم ، وحى ليست منبثقة منها ، ولا مندغمة فيها . فقولوا بالتخميس . قلت لك : ان قديم وحى : أسماء ذات ، لا أسماء أفعال ، وكل اسم للذات انما يؤدي معنى واحدا لنفى ضده ، فقديم لنفى محدث ، وحى لنفى ميت ، ورب لنفى مربوب ، واله لنفى مألوه ، فكل اسم من هذه : القدرة والعلم والارادة التي هي أسماء أفعال : ثلاثة لذات واحدة ، لا يتكثر ، وكما أنا قد فهمنا أن نفس الانسان لا يقوم لها فعل الا عن ثلاثة . ان نقص منها واحد لم يتم له فعل . وان زاد فيها رابع لم يتفق . كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة . وذلك أن الانسان لا يقوم له فعل دون الثلاثة . وذلك : القدرة والعلم والارادة ، ولا رابع منها فان عجزت منها واحدة لم يتم له بالاثنين فعل . لأنه ان علم وأراد ولم يقدر فقد عجز ، وان قدر وعلم ولم يريد ، فلا يتم له شيء الا بالارادة . وان قدر ولم يعلم ، لم يتم له فعل بالجهل . فقرب لنا الكتاب : معرفة الخالق بخلقه لهم ، بمثل تعارفنا في أنفسنا ، أن القدرة والعلم والارادة خواص قائمة هي المتممة للفعل منا ، وانها لذات واحدة . وكذلك التثليث في الله واحد » ا.هـ .

الجواب عن ما ذكر : اعلم يا هذا أنك اعترضت على نفسك بما يدل على كلال ذهنك ، وعدم حدسك . لأنك أخللت بالسؤال ، وتحكمت في

الانفصال • أما اخلاكم بالسؤال ، فأول ذلك : أنك لحنيت في هذا الفصل في ثمانية عشر موضعا ، وذلك بين عند من تأمل مكتوبك ، وثانية : أنه كان ينبغي لك أن تقدم قبل هذا السؤال : لنظر في حد هذه الأقسام ، وحقيقتها • ثم في الدليل على وجودها • فان النظر في كون الشيء واحدا أو كثيرا ، انما يصار اليه بعد معرفة حقيقته ، ومعرفة وجوده • فاذا فرغت من ذلك ، نظرت فيها ، هل وجودها زائد على الذات — أعنى ذات الفاعل — أم هو عين الذات ؟ فاذا عرفت هذه المطالب كلها • حينئذ كان يمكنك أن تتظر • هل هي واحدة أم كثيرة ؟ أو هل ترجع الى شيء ، أو يرجع اليها شيء ؟ ولا بد لكل ناظر ينظر فيها • نظرت أنت فيه : أن تعرف قبله ما ذكرته بالبراهين القاطعة • والا فكيف تتكلم في فرع لم يثبت عندك أصله ؟ ولو كنت في نظرك من المتفطنين ، لنظرت على الطريقة التي علمها لكم « أغشئين » ؟

وأما تحكمك في الانفصال : فانما يتبين اذا حكيت كلامك ، وفهمت مرادك • وذلك أنك وجهت على نفسك ، كان قائلًا قال لك : لم جعلت الأقسام ثلاثة ، وأسماء الله تعالى أكثر من ذلك ؟ فانفصلت عن ذلك ، وقلت : أسماء الله تعالى ، وان كانت كثيرة فانما ترجع الى هذه الثلاثة ، فقاهر وقوى وغلوب وما أشبهها راجع الى القدرة ، وغفور ورحيم ، وما أشبههما راجع الى الارادة • هذا مقتضى كلامك بعد التكرار والاكثار ، وهذا كله منك تحكم بما لم يقيم لك عليه دليل ، ولا يشهد له من كلامك نظر ، ولا تعليل •

والا فما الذى يدل على أن أسماء مختلفة المفهومات والحقائق ، راجعة الى معنى واحد ؟ وان جاز أن ترد الأسماء المختلفة المفهومات الى معنى واحد بالتحكم ، جاز أن تقضى بعكس ذلك ، وهو أن ترد الأسماء المترادفة على معنى واحد الى معان مختلفة ، وذلك لا يقوله الغبى الجاهل ، بله الكيس الفاضل • تقول على جهة السؤال ، وبه يظهر تحكمك في الانفصال : بم تنكر على من يزعم أن جميع صفات الكمال مثل القدرة والعلم والارادة والسمع والبصر والكلام والحياة والقدم والبقاء ، وغير ذلك من صفات الكمال والاستغناء : هي أقانيم الموجودات وأصولها ؟ فان الممكنات انما يتبدل عدمها بوجودها بايجاد موجد متصف بصفات الكمال ، ومنزه عن صفات النقص والافتقار • وان انتصف بصفات النقص والافتقار ، كان محتاجا الى مزيل النقص

عنه ، ومن كان محتاجا كان ممكنا ، وكل ممكن فلا بد أن يستند وجوبه الى سبب واجب الوجود ، فحصل من هذا : أن صفات الكمال والاستغناء كلها لا يصح ايجاد موجود محدث الا ممن اتصف بمجموعها ، وأن من لم يتصف بها فلا يصح منه ايجاد موجود . فاذن هي أصول الموجودات الممكنة ، فاذن هي أقانيم . على قولك .

وسياتى مزيد كلام فى الأقانيم ، ثم نقول : ان قضيت برجع هذه الأسماء بعضها الى بعض مع تباين مفهوماتها ، واختلاف معانيها ، فلم لا تقضى برجع الارادة الى العلم ، وبرجع العلم الى التجرد عن المادة كما زعمت الفلاسفة ؟ ولم لا تقضى برجع القدرة الى الوجود كما قد ذهب اليه طوائف من النصارى المتقدمين ؟ فقد كان طوائف منهم لا يعدون القدرة أقنوما ، وكانوا يردونها الى الوجود ، وكانوا يردون الارادة للحياة . فالأقانيم عندهم : الوجود والعلم والحياة ، وسياتى حكاية مذهبهم ان شاء الله تعالى .

وهذا كله يدل على أنكم فى عقائدكم متحكمون ، لا ترجعون فيها الى أصل عليه تعولون .

وأما سؤالك الثانى الذى وجهت على نفسك ، فوارد عليك ، ولازم لك ، ولم تتفصل عنه . على أنك أخللت به . فان الذى يعترض به عليك : أكثر من قديم وحى . إذ قد يرد عليك الوجود ، فان أصل الأقانيم . والسمع والبصر ، فان لا يصح رجوعها بحال الى العلم ، فان العلم لا ينبوب عن الادراك . فانا بالضرورة نعلم الفرق بين العلم بالصوت ، وسماع الصوت ، وبين العلم بالمرئى ، ورؤية المرئى . مثال ذلك : انا نعلم معلوما على غاية ما يمكن من العلم . ثم اذا رأيناه حصل لنا بالضرورة مزيد وضوح ، ومزيد بينة على العلم به . وكذلك فى المسموع ، فذلك المزيد ، وتلك المزيد . أما أن نقول : ان الله تبارك وتعالى مدرك لها ، أو ليس مدركا لها ؟ فان لم يدركها ، فقد فاتته بعض المزايا ، ولم يحصل له ذلك الوضوح فيكون من يدركها ، وحصلت له : أكمل ممن لم تحصل له . فيؤدى الى أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والمصنوع أشرف وأتم من الصانع . وذلك محال . وان كان مدركا لها . فبذلك الادراك يسمى بصيرا سميعا ، وهو زائد على العلم ، فان العلم لا يغنى عنه كما تقدم . ولسنا نشترط فيها بنية مخصوصة ، ولا جارحة ولا

اتصال أشعة ، بل ننزه الله تعالى عن كل ما يوهم النقص والقصور في حقه • وهذا كما أنا لم نشترط في كونه تعالى عالماً : قلباً ، ولا دماغاً ، ولا في كونه ، قادراً : بنية ، ولا آلة ، بل السمع والبصر ادراكاً ، أعني صفتين متعلقتين بالمسموعات والمبصرات — على ما يعرف في موضعه — فاذا تبين أنهما لا يرجعان إلى العلم ، فعدوهما أقنومين زائدين على ما ذكرتم • وهذا ما لا محيص عنه ، ولا جواب عليه •

وأما قولك « وكل اسم للذات انما يؤدي معنى واحداً ، لنفى ضده » فكلام من لم يحسن الاعتبار ، ولا عرف اصطلاح النظار • وذلك أنك أطلقت صفات الذات ، وصفات الأفعال على ما لم يطلقه عليه النظار ، ولا استعمله في نظره أحد من علماء الأمصار •

ونحن نذكر اصطلاح النظار المعتبرين في صفة النظر ، والأفكار • في إطلاق هذه الأسماء ، ليتبين للواقف على هذا الكتاب ، أنك لم تعرف شيئاً من اصطلاحاتهم ، ولا حطت على شيء من مفهوماتهم •

قالوا : انما تطلق الأسماء بحسب المسميات • والمسميات اما ذات ، أو أمر زائد على الذات • فالذي يدل من الأسماء على الذات : هو الذي يقال عليه : اسم ذات ، مثل قولنا : انسان وملك • ومن أسمائه تبارك وتعالى : (الله والحق) وأما الذي يدل على أمر زائد على الذات • فذلك الأمر اما أن يكون نفى شيء عن الذات ، أو ثبوت شيء للذات • فالذي يدل على نفى شيء عن الذات : هو الذي يقال عليه اسم سلب • مثال ذلك : (فقير ، وسالم) ومن أسمائه تبارك وتعالى : (القدوس والسلام) فانها تدل على البراءة من العيوب ، وعلى نفيها • وأما الذي يدل على ثبوت شيء للذات • فذلك الثابت اما أن يقوم بالذات ، أو لا يقوم بها • فالذي يقوم بالذات : هو الذي يقال عليه : اسم صفة • ومثال ذلك : (عالم ، وقادر ، وسميع ، وبصير) فان هذه صفات زائدة على الذات ، وأما الزائد على الذات ، الذي لا يقوم بها ، فهو الذي يقال عليه : اسم الفعل • وقد يقال عليه : اسم الاضافة • مثل خالق ، ورازق ، وما أشبه ذلك •

فحصل من التقسيم : أن الأسماء على أربعة أضرب : أسماء ذات ، وأسماء صفات ، وأسماء سلوب • وأسماء أفعال • وقد يقال عليها :

المعتبرين • فان كنت اصطلحت مع نفسك على غير ما تعارفه النظار ،
فلمست على شيء مما كان عليه العلماء والأخبار ، فتكلم باصطلاحك مع
نفسك • ولا تخاطب به أحدا من أبناء جنسك ، ولا يظن ظان ، أن هذا
السائل ، أراد بأسماء الأفعال : الأسماء التي لا يوجد الفعل إلا بها •
مثل العلم ، والقدرة ، والارادة • فانه قد جعل من أسماء الأفعال
مالا يوجد به فعل كسميع وبصير وغيرها مما ذكر • وفيما أحسب :
أنه أراد هذا المعنى ، ولم تساعده العبارة فعنى ، وعنى •

وأما قولك « حى لنفى ميت ، ورب لنفى مربوب ، واله لنفى
مألوله » فكلام مجنون معتوه • فانه ان جاز أن يكون حيا من أسماء
السلوب والنفى ، فما المانع من أن يكون العلم من أسماء السلوب ؟ فانه
ممکن أن يقال : عالم لنفى جاهل ، ومريد لنفى كاره ، وقادر لنفى عاجز •
وهكذا يجرى في جميع الصفات والأسماء ، التي لها نقائص ، وذلك يؤدي
إلى جهالات ، وجحد المعقولات • وأيضا ، فان كانت الحياة سلبي ،
ففيستحيل أن تكون شرطا للعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وكونها شرطا
لهذه الصفات ، معلوم بالضرورة ، والنفى لا يكون شرطا ، ولا مشروطا
في مثل ما نحن فيه •

ثم نقول : قولك هذا مخالف لما تقول (أقستكم) هذا صاحب
كتاب (الحروف) يقول : « البارئ تعالى لم يزل حيا بروحه ، وناطقا
بكلماته ، فمهما قلت : لم يزل حيا ، ولم يزل ناطقا ، أوجبت في نطقك
لحياته ، ونطقه : الأزلية » وهذا منه تصريح : بأن الحياة ليست ترجع إلى
عفى الموت • ثم قال بعد ذلك بكلام : « وروحه — أعنى حياته — أقنوم
عناصر كامل ، لم يزل » وسيأتى الكلام معه في هذا أن شاء الله تعالى •

وأما قولك « رب لنفى مربوب » فقول مختلط عقله ، مغلوب •
فان الرب معناه : الملك • فهو من أسماء الاضافة والأفعال • وأما الاله
فهو من الآلهة ، وهى العبادة ، فهو مألوله ، أى معبود آلهة عبادة ، فهو
من أسماء الأفعال والاضافة •

وأما قولك « وكما أنا قد فهمنا أن نفس الانسان ، لا يقوم لها فعل
إلا عن ثلاثة » • • كذلك فهمنا عن خالقنا : أن تدبيره بنا عن ثلاثة » فقول
يبدل على سوء نظرك ، وقلة تشبكت • وذلك أن مفهوم ما ذكرته في هذا

الفصل على تشبيجه وسوء ترتيبه ، هو أنك قلت : ان الانسان لا يتأتى منه فعل حتى يكون قادرا عالما مريدا ، فان نقصه منها واحد ، لم يصح ايجاد الفعل منه . فكذلك خالقنا سبحانه وتعالى هو قادر عالم مريد ، ولو نقصه منها واحد لم يصح منه ايجاد فعل كالانسان . هذا مفهوم كلامك على كثرته .

وهذا كلام فاسد ، لأنه قياس الغائب على الشاهد ، اذ هو قياس خال عن الجامع . وأيضا فلو كان هنالك جامع لكان باطلا فانه قياس جزئى على جزئى . وذلك انما هو صالح للظنيات ، لا للعمليات ، ولو جاز قياس البارى سبحانه على خلقه ، للزم ألا يكون قادرا ، حتى يكون ذا آلة ، وعصب ، ويد الجارحة . فان الواحد منا لا يكون قادرا حتى يكون كذلك . وكذلك كان يلزم ألا يكون عالما حتى يكون ذا قلب ودماغ الى غير ذلك من المحالات . ويلزمك على مساق قولك ، أن يكون البارى تعالى جسما . فانك كما لم تر موجدا ، ولا فاعلا لفعل ، الا قادرا عالما مريدا . كذلك لم تر فاعلا ، ولا موجدا الا جسما . وهذه جهالات لازمة على قولك ، ومنتجة عن صمم جهلك ، فلا تنتفع بهذا الكلام حتى تسبره على محك النظر الأعلام . ولو تتبعنا خطاك في هذا الفصل ، لطل الكلام ، ولكثر عليك التوبيخ والملام . لكننا نكل الناظر فيه للوقوف على فساد معانيه .

الفصل الرابع

دليل التثليث

في حكاية كلامه أيضا

قال : « فان سأل سائل من المخالفين • فقال : فما الدليل على صدق ما تدعون من تثليث وحدانية الخالق • وكيف يمكن أن تكون الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة ، مع ما ابتدأتم به من القول ، وإثباتكم إياه فردا لم يزل ؟ »

قلنا لهم : اما أن تكون الثلاثة واحدا ، والواحد ثلاثة ، فلذلك لعمرى ما لا يمكن كونه • ولكن نقول : ان جوهر قديما لم يزل موجودا بثلاث خواص أزليات ، جوهرات غير متباينات ، ولا متفرقات في الجوهر القديم الأزلى ، الذى لا يتبعض ، ولا يتجزأ بعينه ، وكماله • فلا هو ثلاثة ، وجميع الثلاثة : خواص ، هى بمعنى ما هو واحد ، ولا هو واحد ، بمعنى ما هو ثلاثة ، أعنى ليس هو خاصة واحدة ، بل ثلاثة خواص • فهذا مذهبنا في تثليث وحدانية الخالق » أ • هـ

الجواب عنه : هذا السؤال الذى وجهت على نفسك ، واراد عليك ، ولازم لك • وأما انفصالك عنه فمخرجك عن ملة النصرانية ، ولا يبقى عليك منها بقية • وذلك أن مرادك من هذا الجواب : أنك قلت كلاما معناه : أن كون الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحدا ، غير جائز عقلا • ولكن معنى التثليث : أن الله تعالى جوهر قديم لم يزل موصوفا بثلاث خواص أوليات ، فهو واحد بمجموع الأقانيم ، وثلاثة بتفرق الأقانيم • وتلك الأقانيم لا تفارق وجوده ، ولا تباينه ، ولا يمكن أن يحمل كلامك الا على هذا • وان حمل على غيره فهو بعيد وغيره مفيد •

وهذا الذى ذكرته ، لا يسأله لك أكثر النصارى • بل يتبرأون عنه ، ولا يرضون بشيء منه • اذ نصارى قبلك ، أكثرهم متفقون على أن الأقانيم الثلاثة آلهة ، وأنها اله واحد • فأنت تقول : هى خواص ، وهم يقولون : آلهة • فأى شيء يجمع بين الخاصية والالهية ، وبينهما ما بين السماء

«والأرض ، والرفع والخفض ؟ وسيتضح ذلك اذا نقلنا مذاهبهم في ذلك
ان شاء الله تعالى .»

ثم نقول لهم : لأى شىء تحكمتم بتسمية خالقكم جوهرًا ؟ وفى أى
موضع كتب الأنبياء وجدتم الأمر بذلك ؟ أو على لسان من بلغكم الأمر به ،
ولا تجدون لاثبات الأمر بذلك سبيلا غير التحكم ؟ ولو كنتم ممن يستحى
من الله لما تحكمتم عليه بأن سميتوه بما لم يسم به نفسه ، ولو أن
واحدا منكم سمى له ولد بغير أمره ، لأنف من ذلك ، وعظم عليه ، ولوبخ
المسمى لأنه تصرف فيما لا ينبغى له . هذا اذا كان الاسم مما يفهم منه
المدح . فما ظنك لو سمى بلقب يفهم منه النقص والعيب . ولفظ «الجوهر»
فى المعارف عند النظائر وغيرهم يطلقونه على التحيز ، وهو الجرم
الشاغل قدرا من المساحة . ولا بد له من الحركة والسكون ، وهما
حليلا تغيره ، وحدوثه ، فان أردت به معنى آخر فلا بد من بيانه اذ لم
تتكلّم بما تكلم به أرباب النظر ، المذلون سبل العبر .

في بيان اختلافهم في الأقسام

نبين في هذا الفصل مذاهب أوائلهم ، ونتكلم معهم فيها ، ونوضح مسائلهم فيها ان شاء الله تعالى ، ونحكي مذاهبهم بألفاظهم كما وجدتها في كتبهم . ولم أعول في ذلك على نقل علمائنا عنهم فقط ، بل تتبعته ما أمكنني من كتبهم والله والموفق .

قالوا : « لما أفهمتنا الشواهد العقلية : أن الخالق لم يزل حيا ولم يزل ناطقا . قلنا : فهل يحق أن يكون هو بحياته ونطقه شخصا واحدا جامعا لأجزاء مختلفة ، كما يقال في حد الانسان : انه حيوان ناطق مائت . اذ تسمى أجزاء جوهره مع أعراضه المختلفة فيه : أقنوما واحدا ، شخصا واحدا ، ولا يسمى كل جزء ، وكل عرض منها أقنوما انسيا : وذلك لأن اسم الأقسام واجب للشيء المستغنى بذاته ، القائم بشخصه . لا لذي الاضطرار كالأجزاء ، ولا لذي الاشتباك كالأعراض . فان الأجزاء والأعراض لا تقوم مكتفية بذواتها ، كما أن حر النار الذي هو جزء من قوى النار لا يقوم بذاته أقنوما منفردا دون أصلية النار وضوئها . وكذلك الأعراض المشتبكة في الجوهر كالسواد والبياض ، وما أشبههما ، لا تقوم أشخاصا مكتفية بذواتها دون الجوهر اللازم لها . فالأقسام هو المستغنى بذاته عن أصل جوهريته كالانسان المستغنى بخاصية انسانيته عن الناس والشجرة عن الأشجار والدينار عن الدينار ، فامتناع أجزاء الانسان من القيام أشخاصا لا اضطرارها وعجزها عن القيام بذواتها كروحه العاجزة عن القيام بتحديد انسانيته دون جسمه ونطقه ، وكذلك نطقه وجسمه ، يعجز كل واحد منهما عن القيام بتحديد انسانيته دون روجه ، وذلك لا اضطرار كل جزء منها الى صاحبه في القيام بانسانيته .

فاذا تقرر هذا . فحياة الله ونطقه لا يخلو من أن يكونا جزأين من جوهره ، كما هو من الانسان ، أو غير جوهره . فان قلنا : هما جزءان من جوهره ألزمناه ما يلزم الانسان من الاضطرار والتأليف ، لأننا وجدنا

أجزاء الانسان لا اضطرار بعضها الى بعض تقصر عن احتمال أسماء الأتانييم ، وهذا يستحيل على الجوهر الأزلى ، اذ هو متعالى عن الأجزاء والتأليف والتركيب والأعراض . فأوجبوا أن تكون خواصه لغنائته وكمالها ، تسمى أتانييم قائمة بخواصها ، ومستحقة الذى توصف به بجوهرية قديمة كقدمه ، لا جزأين مركبين ، ولا عرضين منفصلين ، لأنه لم يزل حيا ، وناطقا بكلمته .

ومن زعم أن الحياة من الله ، والنطق منه : محدثان . وصف الله تعالى فى أزليته بالموت والجهل . وان قلنا : حياته ونطقه غير جوهره أزليان . فقد أشركنا مع الله فى أزليته غيره فلذلك يسمى كل واحد من الروح والكلمة جوهرية خاصة ، فوجب أن يكون جوهر الخالق ، تعالى : أقتنوما ، خاصا ، قائما كاملا بخاصية لم يزل . ونطقه الذى هو كلمته : أقتنوما ، خاصا كاملا قائما بخاصية لم تزل . وروحه أغنى حيلته : أقتنوما ، خاصا ، كاملا قائما بخاصية لم يزل . فهذه ثلاثة أتانييم معروفة بمعانيها ، لا متفصلة ، ولا متركة ، ولا متشابكة ، جوهر واحد ، ذات واحدة » ا. ه .

هذا كلام صاحب « الحروف » وهو عندهم القسيس المعروف . ولقد رام تحسين مذهبهم ، وتبيين مطلبهم . ولكن لا يستوى الظل ، والعود أعوج . ولا يصلح المذهب وقائله أهوج .

* وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر *

وهم مع ذلك فيما ذكرناه من الأتانييم مختلفون ، وبالحيرة عمهون . هذا صاحب كتاب « المسائل » يقول : « هذه الثلاثة الأتانييم متوحددة لأجل الآب ، متساوية لأجل الابن ، منتظمة لأجل الروح . فنؤمن : أن الآب : أب ، لأجل أنه ذو ابن . والابن : ابن . لأنه ذو أب . والروح القدس : منبثق لأنه من الآب والابن . فالأب أصلية الالهية لأنه كما لا يخلو قط أن يكون لها كذلك لم يخلو قط أن يكون أباً ، الذى الابن منه مولود ، والذى الروح القدس منه ليس مولودا ، لأنه ليس ابنا ، ولا غير مولود لأنه ليس مخلوقا ، لأنه ليس من شيء ، بل الله منبثق من الآب والابن الله .

وأقنوم الآب غير أقنوم الابن • وأقنوم الابن غير أقنوم الروح القدس • لكن التثليث المقدس ذات واحدة ، الهية واحدة • وهذا تصريح بأن الأقانيم : آلهة • وان كان واحد منها غير الآخر •

وقد ذهب « شباليش » الى أن الثلاثة الأقانيم ، ممتزجة في أقنوم واحد ، وهو عند كثير منهم مكفرا ، وكالمكفر • وقد ذهب « آريش » الى أن الهية الأقانيم منخلزة ومتبعضة الذات ، وهو عندهم مفتر خارجي « اوه •

وقال صاحب كتاب « المسائل » : « لسنا نؤمن أن في التثليث شيئا مخلوقا ، أو خادما كالذى أنشأه « دنونيشيش » أو غير معتزل كقول « أونوميش » ، أو ناقص الامتنان كقول « أوتفش » أو مقدما أو مؤخرا أو صغيرا كقول « آريش » ولا ذا جسد كقول « مالطه » و « ترتليان » ولا مصورا بالحيدية كقول « أربد » و « نمرشيش » أو محجوبا بعضه عن بعض كقول « أوريان » ولا مربيا من المخلوقات كقول « فرشاط » ولا متفرق الارادة والعوائد كقول « مرحيون » ولا منقلبا من ذات التثليث الى طبيعة المخلوقات كقول « فلاطون » و « ترتليان » ولا منفردا في رتبة مشتركا في أخرى كقول « أوريان » ولا ممتزجا كقول « شباليش » بدل كله كامل لأنه كله واحد • ومن واحد لا تعدد ، كزعم « شلبانش » اوه •

واذا وقفت على هذه الأقاويل الضعيفة ، والآراء السخيفة • لم تشك في تخبطهم في عقائدهم ، وحيرتهم في مقاصدهم • قالوا في الله تبارك وتعالى بأرائهم ، واتبعوا فيها ظاهر أهوائهم ، فهم في ربهم يترددون ، ولجهالهم مقلدون ، وبضلالهم مقتدرون •

ولما رأينا هذه المذاهب الركيكة لا تستحق أن تحكى ، بل يضحك من ذهاب عقول أربابها ويبكي ، أعرضت عنها اعراض المطلع على عوره ، أمام من يخاف جوره ، فعزمت على نقل مذهب كبيرهم « أغشتين » فان مذهبه في الأقانيم ، مقارب في الصفات مذهب المسلمين •

وذلك أنه قال بعد مقدمة كلام يرجع حاصله الى ما نذكره :
(٦ - الاعلام)

« لما أقر علماء المجوس بالقوة الماسكة لكل شيء ، وأراد بعضهم أن ينزلوها جوهرًا غير حي ، ولا مستغن بنفسه ، وجب علينا أن نحتج عليهم بما يضمنهم إلى الإقرار بأن تلك القدرة ذات علم وإرادة » ١٠٥ .

قال : « وقد رد علينا هذه المقالة » برفيريش « فقال : لا نقول انه شيء فيكون قد سميناه بالأشياء التي لا تسلم من عيب ، ولكننا نقول : « انه » . ولا نقول : « شيء » . ثم قال : « ألسنتم تقرؤون : أن الذي قدر هو الذي علم ، وأن الذي علم ، هو الذي أراد ، فهو واحد في جميع المعاني . وإنما القدرة والعلم والإرادة أسماء صارت فيما بين الخلق والمخلوق ، وليست لا خالقة ، ولا مخلوقة . لأنه لو لم يكن الشيء المقدور ، لم يسم ذا قدرة ، ولو لم يكن الشيء المعلوم لم يسم ذا علم . وكذلك القول في الإرادة . فهذه الأسماء ، إنما هي أعراض ، وأسماء فيما بينه ، وبين الخلق . مثل قولنا : ذو رحمة ، وذو حكم ، وذو عقاب . فلو لم يكن الخلق المرحوم لم يلزمه اسم الرحمة . وكذلك غيرها » ١٠٥ .

قال « أغشتين » في جوابه عن قوله : « لا نقول ان لكل شيء عقيب ، وما لم يكن له عقيب فليس بشيء . لأن عقيب شيء ، لا شيء . وإذا كان انما ينفي عنه اسم شيء . لأن الأشياء كلها له . فمثل ذلك يجب عليه في قوله : « ان » أو قوله : « كان » . مع أننا لا نعرف شيئاً نقول فيه : « ان » الا بعد معرفتنا اياه « شيئاً » ، وحسبنا في هذا قولنا : شيء ليس كشيء . من جميع الأشياء » ١٠٥ .

قال : « وأما قوله : ان القدرة والعلم انما هي أعراض لزمانه فيما بينه وبين الخلق ، وانها مثل الرحمة والحكم . فانا نحتج عليه في ذلك بأن نقول : لست تتكر أنه كان قبل الأشياء ، ودون الأشياء ، بلا ابتداء . فهل تقدر أن تجحد أنه كان أبداً قادراً ؟ فإذا أقررت أنه لم يزل قادراً . فقد أقررت أن القدرة صفة أزلية . فان قلت : انه لا يجوز أن يسمى قبل أن يكون الشيء المقدور عليه . وإنما يسمى قادراً بعد كون الشيء المقدور علينا . قلنا : أفكان يقدر على أن يقدر . أم لا ؟ فلا بد لك من أن تقول : كان يقدر . فيلزمك وصفه بالقدرة على كل حال .

وكذلك قولنا في العلم والارادة • وقولك : يرحم ، ويعفو ويحكم •
ليس مثل قولنا : يقدر ويعلم ويريد ، لأنك لا تقول : كان أبدا يرحم •
وكان أبدا يخلق • ولا بد من أن تقول : كان أبدا يقدر ، وكان أبدا
يعلم ، وكان أبدا يريد » ا.هـ •

ثم قال بعد كلامه مع الفلاسفة : « فنحن ما لم نصفه بالعلم
والارادة ، لم نصفه بمدير ، ولاحي » ا.هـ •

ثم قال : « ان قلنا عرفناه بوحديته ، وعلمناه بذاته من غير نظرنا
الى فعله ، الدال على قدرته وعلمه وارادته ، فقد كذبنا • لأنه لا يقدر
أحد أن يقول : انه وقع على معرفته الا بما نظر اليه من خلقه ، وتفكر
فيه من حكمه ، وبمعرفته بنفسه • وكل هذا اقرار بالثلاثة الأقانيم التي
ذكرنا ، لأننا لما وجدنا الخلق الذي لم يقدر أن يكون بنفسه وجب
الاقرار بالثي الذي قدر أن يكون ، وهي القدرة التي سماها علماء
المجوس : الهول • ثم لما نظرنا الى تدبير الخلق وجب الاقرار بالعلم
والارادة ، لأن التدبير لا يكون الا ممن يعلم ويريد ، فنلاتها اسم
لاله واحد ، ونعت لمدير فرد ، ولا تجد هي غيره ، ولا يجد هو غيرها •
فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الانجيل ، وأمر بالايمان به ، وسماه
باللسان العجمي : الآب والابن والروح القدس » ا.هـ •

فهذا كلام هذا القس • والنصارى يعترفون بأنه أعرفهم بدينهم
وأعلمهم بشرعهم ، ويقتنهم ينص على أن الأقانيم الثلاثة صفات
ونعوت للواحد الفرد • ولا يقال فيها : انها هو • ولا هي غيره ، وهو
لمعمرى من المسددين في هذا النظر اذ قد سلك مناهج البحث والعجز •
ولقد قارب الحنيفية ، وتباعد عن الملة النصرانية • الا أننا ننازعه
نزاعين أحدهما : في تسمية هذه الصفات : الآب والابن والروح القدس ،
على ما تقرر ، وهذا نزاع لفظي ليس بكبير ، ولا له حظ خطير • والنزاع
الثاني : في أنه قصر الأقانيم على هذه الثلاثة ، ولم يعد الحياة فيها
كما فعل غيره منهم ، وكذلك الوجود الموصوف بهذه الصفات لم يعبده
أقنوما • وقد صرح بأنها صفات • ولا بد للصفات من موصوف بها
بالضرورة •

وسنعتف عليه بالرد اذا تكلمنا مع غيره ان شاء الله تعالى • ومع هذا فقد سلك هذا الرجل مسلك ارباب العقول ، وتبرأ من جهالة كل جهول • واذا كان كذلك فسيبيلنا أن نتكلم مع الذى صدرنا هذا الفصل بذكر كلامه ، فانه كثير الفساد ، مضرب عن الرشاد ، ويتضمن الرد عليه ، الرد على غيره ممن يقول مثل قوله ، أو ما يقاربه ، مستعينين بالله ، متوكلين عليه •

الجواب عن ما ذكره المصدر كلامه :

لتعلم أيها الناظر فى كتابنا : أننا يمكننا أن نناقش هذا القائل ، كما ناقشنا السائل • فان كلامه كثير الغلط ، ظاهر التكلف والشطط • لكننا تركنا مناقشته اللفظية ، وصرقنا المناقشة للمباحثة المعنوية ، كراهة للاكثار وميلا للايجاز والاختصار • وأيضا • فان نفس الله فى العمر ، وصرف عنا عوائق الدهر ، فسندرد عليه فى كتاب مفرد ان شاء الله تعالى ، أبين فيه غلطاته ، وأوضح جهالاته ، وسقطاته • بهول الله وقوته •

فنقول له : لا يشك عاقل سليم الفطرة : أن خالق العالم موجود ليس بمعدوم وقد اعترفتم بأنه حى عالم • ومن لم يعترف بذلك أقيمت عليه البراهين القاطعة • فاذا تقرر ذلك • قلنا : فمفهوم أنه حى ، هو عين مفهوم أنه عالم ، أو غيره • فان كان عينه فقولكم : حى ، عالم كقولكم : حى ، حى • أو عالم عالم • والفرق ما بينهما معلوم ضرورة ، ولو كان عينه ، لاختلطت الحقائق فثبت أنهما متغايران متعددان • فاذا ثبت ذلك • فاما أن يرجعا الى الخالق سبحانه وتعالى فى قولكم : انه حى عالم • أو لا يرجعان • فان لم يرجعا لم يصح الاخبار عنه بهما ، ولم يكونا وصفين له ، فثبت أنهما يرجعان اليه ، واذا ثبت ذلك فاما أن يكونا من أوصافه تعالى النفسية أعنى الذاتية فان كانا من أوصافه النفسية أدى ذلك الى أن يكون ذاته وماهيته مترتبة متباعدة ، وذلك محال على ما قررتم فيما تقدم من كلامكم •

وأيضا لو عقل كون العلم والحياة من الأوصاف النفسية فى محل • عقل ذلك فى كل محل • ويلزم من ذلك كون العلم والحياة من صفات أنفسنا ، وذلك معلوم البطلان بالضرورة •

وأیضا فلو جاز ذلك للزم أن يكون العلم والحياة قائمین بأنفسهما ، أعنی موصوفین ، لأن جزء القائم بنفسه ، قائم بنفسه • وقد ثبت بالأدلة القاطعة : أن البارئ تعالى قائم بنفسه ، والمعقول من العلم والحياة أنهما صفتان ، لا موصوفان • فإذا تقرر ذلك ، وثبت • لزم منه أنهما زائدان على النفس • فإذا ثبت ذلك ، فاما أن یقوما به ، أو لا یقوما به • فان لم یقوما به لم یتصف بهما ، ولو جاز أن یتصف فیما لا یقوم به ، لجاز ذلك فی حقنا ، فكان یلزم علیه ، أن يكون علم زید ، یتصف به عمرو • وذلك محال ضرورة • فدل ذلك على أنهما قائمان به • فإذا قاما به وهما وجودان زائدان على الذات حصل من ذلك كله : أن ذاته واحدة لا ترکیب فیها ، ولا تعدد • وأن صفاته الزائدة هی المتعددة • وهذا لا إحالة فیه ، بل هو الحق ، الذى لا غبار علیه ، ولا بد لكل ناظر من الرجوع ، وأن تخبط الیه ، فهكذا ینبغى أن تفهم صفات البارئ تبارک وتعالى ، وتقدس وتنزه عما یقول الجاحدون ، والکافرون علوا کبیرا •

وهذه الطریقة البرهانية تجرى فی کل صفة يدعى ثبوتها للبارئ تعالى • وبعد الانتهاء الى هذا المحل ینظر • هل أوصافه أزلیة ، أم لیست أزلیة ؟ والحق أنها أزلیة ، ولا محرز أن يكون شیء منها حادثا ، اذ لو كان شیء من صفاته حادثا للزم علیه أن يكون محلا للحوادث ، ویلزم على ذلك حدوثه تعالى ، وهو محال ، على ما یعرف فی موضعه • فإذا تمهد هذا الأصل • قلنا بعده للمتکلم معه : الأقانیم عندکم لا تخلو من أن ترجع اما الى صفاته النفسیة ، أو الى صفاته المعنویة ، أعنی الزائدة على النفس ، ولا واسطة بین القسمین • فان رددتموها الى القسم الأول ، لزمکم ما تقدم من المحالات ، حذو النعل بالنعل ، وان رددتموها الى القسم الآخر ، فلائى معنى قلتم فی حد الأقنوم : انه الشیء المستغنى بذاته عن أصل جوهره فی اقامة خاصة جوهریته ؟ وهل المفهوم من هذا الا أنه صفة نفس ؟ لأن المستغنى بذاته عن أصل جوهره هو الذى نعبر نحن عنه بالقائم بنفسه ، ویعبر عنه غیرنا من النظار بالموجود ، لا فی موضوع •

وأیضا • ان كان أراد هذا القائل أن الأقنوم هو الصفة الزائدة على الذات فیلزمه أن یجعل الأعراس أقانیم • فانها زائدة على الذات •

ومن عجيب أمره أنه ألزم من قال ان العلم والحياة غير الجوهر :
الاشراك به . وأى اشراك يلزم من قال : ان صفات المعانى زائدة على
ذات الموصوف بها ؟ وكيف يمكن أن يقول عاقل : ان الصفة الزائدة
على الجوهر ، انها عين الجوهر ؟ وهل قائل هذا الا جاهل ، أو متجاهل ؟
ففتحصل من هذا كله : أن الأتانييم لا يصح عندهم أن تنقال على
الصفات النفسية ولا على الصفات المعنوية . ولا يعقل هنالك أمر آخر
متوسط بينهما . فقولهم في الأتانييم غير معقول ، فكأنه قول مجنون
مضبول .

ثم نقول لهذا القائل : لآى شىء لم تجعل القدرة من الأتانييم ،
كما ذهب اليه مقدمكم الأقدم ، وأسقفكم الأرعم « أغشتين » فتكون
الأتانييم أربعة ؟ فان قال : ان القدرة ترجع الى الوجود كما صرح بذلك
بعضهم ، فنقول لمن يقول ذلك : ولم ذلك ؟ وهل لا يرجع العلم والحياة
الى الوجود ؟ وما الفصل بينهما ؟ الا محض التحكم .

وكذلك القول في الارادة ترجع الى الحياة .

قليل له : ان صح ذلك فليرجع اليها العلم . وان جاز شىء من ذلك
فلنترجع كل واحدة من هذه الصفات الى الأخرى ، ويرجع الكل الى
الوجود ، والوجود هو نفس الذات ، فترجع الأتانييم الثلاثة الى واحد ،
وهو محال على ما تقدم لكم ، وعليكم . ويكون هذا أيضا قولاً بامتزاج
الثلاثة الأتانييم في أقنوم واحد كقول الخارجي للجاهل « شبالبش »
وأنتم لا ترضون شيئاً من قوله ، ولا بذهبه .

ثم نقوله : لآى شىء تحكمتم . بأن الأتانييم ثلاثة ؟ وهلا أضفت
اليها القدرة والعلم والسمع والبصر كما تقدم الكلام عليه ؟ أو فعلها
اثنان ، وعدم انتصارهم يدل على ضعف انتصارهم ، ولا حجة لهم في
هذه المواطن كلها أكثر من التحكم . فينبغى إذن أن يتكلم معهم على
جهة المناقضة والتهكم ، وغايتهم في ذلك : أن يرجعوا الى الاستقراء
والتمثيل . وهما في المعتقدات : طريقاً الخطأ ، والتضليل .

ثم نقوله : هذه الأتانييم الثلاثة قد قلتم : ان كل واحد منها مستغن
بذاته عن أصل جوهره . واذا كان ذلك . فلماذا أن يكون كل واحد منها

الها ، أو جزء اله ، أو يكون مجموعها : الها واحدا ، فان كان جزء اله ،
لزم عليه : أن يكون الاله متركبا متبعضا . ويلزمكم على ذلك : ابطال
التثليث الذى تقولون به ، ويلزمكم على ذلك : الامتزاج الذى ذهب
اليه « شباليش » وان كان كل واحد منها الها بانفراده ، لزمكم على
ذلك أمور كثيرة مشينة باطلة . منها أن يكون كل واحد من هذه الأقانيم
حيا عالما مريدا قادرا موصوفا بصفات الكمال . اذ الاله هو الموصوف
بصفات الكمال ، المتعالى عن صفات النقص . فاذا التزم ذلك ملتزم :
لزم عليه أن تقوم الصفة بالصفة . وان جاز ذلك جاز أن يقوم العلم
والقدرة بالارادة . والارادة والقدرة بالعلم . والقدرة والعلم
بالحركة . والحركة والقدرة والعلم باللون الى غير ذلك من أنواع
الجهالات التى لا يبيء بها عاقل ، ولا يرضى بسماعها فاضل . وان جاز
قيام الصفة بالصفة جاز أن يقوم بالصفة صفة . وبذلك الصفة صفة ،
ويتسلسل . وما يتسلسل لم يتحصل ، ويلزم عليه : أن تكون الأقانيم
لا نهاية لها . اذ العلم يقوم به حياة ، وتلك الحياة حية بحياة ، الى غير
آخر . ومنها : أن تكون القدرة قادرة بقدرة ، والعلم عالم بعلم ، والحياة
حية بحياة ، الى غير ذلك من الصفات . وهذا غير معقول . فان العلم
والقدرة ، وسائر صفات المعانى : انما توجب أحكامها للمحال التى تقوم
بها ، لا لأنفسها . بالعلم لا يكون عالما ، ولا قادرا ، وكذلك القدرة
لا تكون عالمة ولا قادرة ، وكذلك سائرهما . وانما العالم والقادر والمريد
والحى : هو الذات الذى تقوم به هذه الصفات . وهذا معلوم من غير
أسباب ، ولا أظناب .

ومنها : أن يكون الاله صفة لموصوف . فان المفهوم المعقول من
هذه الأقانيم أنها صفات لا موصوفات على ما تقدم الى أمور كثيرة
يطول الكلام بذكرها .

ثم نرجع الى بقية التقسيم فنقول : وان لم تكن هذه الأقانيم
حية ، ولا عالمة ، ولا قادرة ، فلا تكون الهية . وقد أطبق النصارى
على أنها آلهة . ويلزمهم ان لم تكن الأقانيم موصوفة بهذه الصفات
وصفها بأضدادها أو بالانفكاك عنها ان لم يوصف بحياة وصفت
بالانفكاك عنها . والانفكاك عن الحياة ميت . فيلزم عليه : أن يقولوا
بآلهة أموات . وكذلك يلزم فى سائر الصفات .

وقد كح المصدر بكلامه عن هذا الالزام ، وصعب عليه المرام ، فتكلم بما لا يعقل فليته سكت ، ولم يتقول ، وبعد الخط والتأوه ، قال : هذا ما لا يجوز لنا به التفوه . ومن أراد أن يقضى العجب العجاب ، فليقف على ذلك الكتاب .

وتلخيص ما ذكره في الانفصال : أن قال : ان قلنا ان الأب نيس يحيى ، كذبنا . وان قلنا هو الحياة أبطلنا . فاذا كان ليس حيا ، وليس بحياة ، وجب أن يكون حيا بلا محالة . وكذلك قال في العلم والحياة .

ومن أفضى به الى هذا الهذيان بحثه ونزاعه ، فقد تعين تركه وانقطاعه ، وحسبك في شر سماعه . وذلك كله يدل على أنهم ليسوا من العقلاء ، ولا معدودين من جملة الفضلاء ، بل قد انخرطوا في سلك الحمقاء ، الجهلة الأغبياء . فهم قد جعلوا الهمم هواهم ، فأضلهم لذلك وأرداهم . فهم كما قال الله العظيم ، في محكم كتابه الكريم : « أرأيت من اتخذ الهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » (١) .

وأما حكاية صاحب كتاب « المسائل » : فكلام يدل على أن القوم ليس فيهم مستحي ، ولا عاقل . كابرُوا الضرورات ، وجحدوا المعقولات ، تارة يتناقضون ، وأخرى يتوافقون ، افتراء على الله ، واستهانة بحرم الله . وحسبك دليلا على ذلك : اختلافهم في البديهيّات هناك . وقد وكلت الناظر فيه لظهور تناقضه ، وفساد معانيه . فان غاية الناظر في كلامه : أن يلزمه من المحال والتناقض مثل ما هرحح بالتزامه . ومن أنكر الضروريات ، وارتكب المحالات ، فدار المرضى والمجانين ، أولى به واليق ، من اشتغاله بالمعقولات .

* * *

في بيان مذهبهم في الاتحاد والحلول وإبطال قولهم فيها

- * اتحاد الكلمة
- * معنى الاتحاد
- * الواسطة بين الله وبين موسى
- * تجسد الواسطة
- * كلام المتقدمين
- * مذهب « أغستين » إذ هو زعيم القسيسين

الفصل الأول

اتحاد الكلمة

في حكاية كلام هذا السائل

قال السائل : « ثم نبدأ بالقول في الاتحاد • فان قلت : فاذا كان التثليث عندكم أسماء أفعال لخواص قائمة ، والذات واحد لا ينقسم ولا يتبعض • فلم بعضتموه دون الآب وروح القدس ؟ ولم سميتموه : آبا وروح القدس ؟ »

اعلم أنها لما تعارفت القضايا بالأفعال ، اختلفت أسماءها كما قدمنا ، فاختلفت قضية خلق الخليقة بيد ، الى القدرة ، وسميت آبا ، وأضيفت قضية الموعدة الى العلم المتولد كلاما ، وسمى ابنا ، وانفردت قضية الوعد باللحمة دون غيرها ، لأن المسيح انما اتخذ في الدنيا للموعدة ، لا لخلق الخليقة • لأن الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق بيد ، يسمى الجسم : آبا • وأضيفت اللحمة الى الآب ، ولكنه انما اتخذه لموعدة الخلق • والوعد مضاف الى العلم المتولد كلاما ، فسمى : ابنا • فلذلك قال الانجيل : « التحمت الكلمة ، وسكنت فينا » (١) فأفرد الكلمة بالالتحام ، لأنها الواعدة بالأمر ، والنهي دون القدرة والارادة • فهذا أخصر شرح الاتحاد • هـ •

الجواب عن كلامه : يا عجباً من بلادة صاحب هذا السؤال • كيف لم يحسن اذ تشبج عليه المقال ، وكثر عليه اللحن والاختلال ، حتى أخل بمفهومه ، وعدل عن السؤال • فصار كلامه لذلك كأنه كلام مجنون مخبول اذا تهبذب ، ولم يثبت فيما يقول • وذلك أنه وجد على نفسه في كلامه هذا : أسئلة انفصل بزعمه عن واحد منها ، وتغافل عن سائرهما ، جهلا منه بورودها ، وحيدا عن جوابها •

(١) النص في الترجمة الحديثة « والكلمة صار جسدا وحل بيننا » •
(يوحنا ١ : ١٤) •

أحد الأسئلة أنه أراد أن يقول : قد قلتم أن التثليث قد رددتموه الى ثلاثة خواص ، لواحد لا يتبعض . فلم بعضتم ما لم يتبعض ؟ وثانيها : لم اتحد الابن بالمسيح دون الآب ، وروح القدس ؟ وهذا تضمنه كلامه حيث قال : دون الآب ، وروح القدس . وثالثها : لم سميتم المسيح ابنا ؟ ورابعها : لم سميتم الله تعالى أبا ؟ وخامسها : لم سميتم ارادة الله تعالى روح القدس ؟

على أن ظاهر كلامه يدل على : أن السؤالين الأخيرين انما هما راجعان الى المسيح . ألا ترى أنه أعاد الضمير ، أغنى ضمير سميتموه عليه ، لكنه لم يرد هذا ، ويدل عليه . انه لم يسم أحد منهم المسيح أبا ، ولا روح القدس . وانما سموه ابنا ، فتارة يقولون عليه : « ابن الله » وتارة : « ابن الانسان » وأما روح القدس . فقد تقدم في اصطلاح هذا السائل ، أنه أراد به الارادة . ومن اصطلاح غيره أنه أراد به الحياة ، ولم يقل قط أحد منهم : أن المسيح اتحدت به ارادة الله وحياته . فلما وجه على نفسه هذه الأسئلة التي لم يشعر بوجه لزومها ، ولم ينفصل عن شيء منها أخذ بعد ذلك بزعمه يتفضل بكلام لا يلتزم ، ولا يتصل ، فأسهب في التكرار والترداد ، فصار كلامه لذلك أبرد من حديث معاد .

ثم قال في الجواب — ما كان قد فرغ منه ، ولقد كان يستغنى عنه — « قد قدمنا أن الأقانيم الثلاثة انما سميت بالابن والآب وروح القدس ، لاختلاف القضايا الثلاث ، فأضيف الخلق الى القدرة وسمى أبا ، وأضيفت الموعظة الى العلم وسمى ابنا » وهذا كلام مكرر مستغنى عنه في جواب ما سأل عنه ، اذ لا تعلق له به . وانما الكلام الذي يمكن أن يكون جوابا لبعض ما سأل عنه هو قوله : « انفردت قضية الوعظ باللحمة ، دون غيرها لأن المسيح انما اتخذ في الدنيا للموعظة ، وسكنت فينا ، لا لخلق الخليقة . ولذلك قال الانجيل : « التحمت الكلمة ، وسكنت فينا . » هذا مقتضى كلامه في الانفصال ، بعد تلفيق مبدد ، وتهذيب مشج المقال . ومع هذا فكلام هذا السائل لا يقبل التلفيق من صانع ، فان الفتق اتسع على المراقع . وبعد تقرير هذا نقول :

قد تقدم جوابك عن أكثر هذا الفصل فيما تقدم حيث تكلمنا في الأقانيم ، وعلى أسماء الأفعال وعلى التثليث ، وعلى القضايا الثلاث بما أغنى عن اعادته . فمن أراد أن يتحقق فساد هذا الكلام فليعد نظرا

ففيما تقدم • واتما الكلام معك هنا على قولك : « انما اتحدث بالمسيح الكلمة التي هي العلم ، لأن المسيح اتخذ للموعظة » كيف يتمكن عاقل من أن يقول هذا الذي ذكرته وعيسى عليه السلام قد اتخذ الله تعالى لإبراء الأكف والأبرص وأحياء الموتى ، وخلق الطير من الطين • وهذه الأمور كلها لا يمكن أن تقع الا بالقدرة والارادة • فقولوا : انهما اتحدتا به ولا فرق بينهما وبين العلم • لولا محض الجهل والتحكم ، لاسيما • وقد جاء في بعض كتبهم أن عيسى عليه السلام قال : « قدرته قدرتي • ومشيتته مشيئتي » أو قولوا : انه عليه السلام كان يفعل هذه الأمور الخارقة للعادة بغير قدرة فيلزمكم أن يفعلها بغير علم ، ثم يلزمك على مساق كلامك أن يكون كل من اتخذ للموعظة من الأنبياء والعلماء أن يتحد بلحمة الابن •

وأما قولك : « ان الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق لسمى ذلك الجسم أبا » فهو الزام مالا يلزم • فان الله تعالى قد اتخذ الأرض والماء والهواء والنار ليخلق بهم المخلوقات ، ولا يلزم من ذلك أن يكون أبا ، ولا أن يسمى أبا وهي أجسام •

وأما قولك : « فلذلك قال الانجيل : » التحدثت الكلمة وسكنت فينا « فلقد خالفت التنزيل ، وحرفت التأويل • فهلا عليك ، سترت على مكرك ، ولم تلبيس على نفسك وخصمك ؟ ولأى شيء لم تذكر الكلام من أوله ، وتسوقه على منازله ؟ أتظن أن المسلمين ليسوا بكتبكم عارفين ، ولا لتحريفكم وتليبسكم منتهين • تالله • لقد فيهم من تعرف منها الحق ، الذي لا تعرفون ، ويتحقق منها الحق الذي لا تعرفون ، ويتحقق منها ما أنتم فيه تشكون ، ويعلم منها ما أنتم به جاهلون •

ومن ذلك • أن هذا الكلام الذي حكيته عن الانجيل ، وسلكت به مسلك التجهيل ، هو في انجيل (يوحنا بن سبداى) المصور بزعمكم بصورة عقاب ، يقول عن عيسى عليه السلام : « من يقبله منهم ، وآمن باسمه ، أعطاهم سلطانا ليكونوا أولاد الله ، وهم الذين لم يتولوا من دم ولا شهوة لحوم ، ولا شهوة رجل ، لكن تولدوا من

الله ، فالتحمت الكلمة ، وسكنت فينا ، ورأينا عظمته كعظمة ولد الله
الفرد ، المحشور رضوانا ، وصدقا» (١) •

هذا مساق كلامه في الانجيل ، وهذا الكلام لا يستدل على
ما ذكرت ، ولا على غيره ، حتى يعلم أن عيسى عليه السلام هو الذي
قاله ، وليس هو في الانجيل مرفوعا الى عيسى ، ولا مسندا اليه ،
ولا مخبرا به عن الله تعالى وغايته — أن صح — أن يكون موقوفا
على (يوحنا) ومن قوله ، وحاشا ، عن قول مثله ، ثم لو سلمنا ذلك
فليس بمعصوم ، فان العصمة انما ثبتت للأنبياء ، أو لمن أخبر الأنبياء
عنهم : أنهم معصومون • وهذا ليس بنبي ، ولا بلغ عن الأنبياء بطريق
قاطع أنه معصوم ، وسيأتى الكلام على هذا في باب النبوات ان شاء
الله تعالى •

وبتقدير أنه معصوم • فكتابكم قابل للتحريف والتغيير ، فانه لم
تكمل فيه شروط التواتر فانه راجع الى أخبار آحاد ، لا تفيد علما ،
على ما نبينه ، وعلى التقريب : أن أناجيلكم انما هي أربعة عن أربعة (٢) ،
كل واحد منهم لا يفيد خبره العلم بأنه خبر واحد ، ومع ذلك فلو أنهم
تواردوا على نقل خبر واحد ، لكان نقلهم لا يفيد اليقين ، فان الخبر
الذي يحصل به العلم اليقين انما هو المتواتر حقيقة ، الخبر المفيد
للعلم بالخبر عنه ، الذي تحيل العادة على ناقله الغلط والتواطؤ على
الكذب على ما يأتى ان شاء الله •

وعلى تسليم أنه لا يقبل التغيير ، ولا التحريف فهذا الكلام ليس
بنص قاطع ، بل هو محتمل للتأويل ، وتأويله معضود بسياقة اللفظ •
وذلك أن مساق هذا الكلام يقتضى أن كل من آمن بعيسى عليه السلام

(١) في انجيل يوحنا بن زبدي هكذا : « وأما كل الذين قبلوه • فأعطاهم
سلطانا أن يصيروا أولاد الله ، أى المؤمنون باسمه ، الذين ولدوا ليس من
دم ، ولا من مشيئة جسد ، ولا من مشيئة رجل • بل من الله • والكلمة
صار جسدا • وحل بيننا • ورأينا مجده ، مجدا • كما لوحيد من الأب
مملوءا نعمة وحقا » (يوحنا ١ : ١٠ - ١٤) ويعنى بصورة عقاب ما جاء
في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي عنه •
(٢) متى ومرقس ولوقا ويوحنا •

فانه توالد من الله ، والتحمت الكلمة به ، وسكنت فيه • ولذلك قال :
« ولكن توالدوا من الله ، فالتحمت بالكلمة وسكنت فينا » •

فان كنت تريد أن تستدل بهذا اللفظ على أن الكلمة اتحدت بالمسيح خاصة ، فليس لك فيه دليل ، بل يدل ظاهره على أن كل من آمن به التحمت الكلمة به ، وسكنت فيه • وهذا شيء لا تقولون به ، ولا يذهب اليه أحد منكم ، فهلا عليكم ، فهتمم كتابه ، وتدبرتم خطابه ، ورددتم آخر الكلام على أوله ، حتى تعرفوا نصه من مؤوله • على أنه لو كان نصا قاطعا لا يحتمل التأويل لما كان ينبغي لعلقل أن يقول بمقتضاه • فان الاتحاد محال قطعا على ما يأتى ان شاء الله تعالى ، اذا تكلمنا على حقيقة الاتحاد والحدول •

وأما قوله : « فأفرد الكلمة بالالتحام ، لأنها الواعظة بالأمر والنهى » فقول لم يقله الانجيل ، ولا دل عليه ظاهر ولا تأويل ، وغاية ما فى الانجيل : أن الكلمة التحمت ، وليس فيه : لأنها الواعظة فمن عرفك أن الكلمة اتحدت لهذه العلة ، بل لعلها التحمت لعلة أخرى لم تعلمها أنت ولا غيرك • لعلها التحمت ، لا لعلة ، بل لنفسها • وانما نزلنا فى هذا المحل على تسليم الالتحام • وان كان باطلا بالبرهان • ليتبين : أن هذا المذهب هذيان •

وأما قوله : « لأنها الواعظة بالأمر والنهى » فقول من لا يعرف فرق ما بين الأمر والنهى والوعظ ، ولا حصل من الشرع ، ولا من العقل على حظ • فان الوعظ مخالف للأمر والنهى بحقيقته ومقصوده • اذ قد يعظ الواعظ من غير أمر ولا نهى • وينهى ويأمر ولا يعظ فهما أمران مفترقان ، غير متلازمين ، على ما يعرف فى موضعه •

وأما قوله : « فهذا أخصر شرح الاتحاد » فالسين موضع الصاد أليق ، اذ الخسران اليه أقرب ، وبه ألق ، لأنك أوهمت أنك شرحت وأوضححت واختصرت وأوجزت ، بل أخللت وطولت وبفائدة ما أتيت • وكيف تصح لك هذه الدعوى • وقد قلت كلاما لا فائدة له ، ولا جدوى • دليل ذلك : أنك اعترضت على نفسك باعتراضات كثيرة • ثم انك حدثت عن الجواب ، ولم تأت بفصل خطاب ، بل أتيت بكلام يشهد عليك عند العقلاء بالبلادة ، وقلة التحصيل ، وعدم الاجادة •

وقد كان ينبغي لك أن تبين حقيقة الاتحاد والحدول ، وتبين
فرق ما بين مذهب (الروم) فيه ، وبين ما به تقول • وتبين الفرق
بينه وبين الاختلاط والامتزاج • وبعد ذلك تستدل على صحة وقوعه ،
وعلى اختصاص عيسى عليه السلام به دون غيره من الأنبياء •
فلو فعلت ذلك حينئذ كان ينبغي لك أن تدعى أنك شرحت وأوضحت •
وأما الآن فقد جهلت واقتضحت •

الفصل الثاني

معنى الاتحاد

من حكاية كلامه أيضا

قال : « فان سأل سائل عن معنى الاتحاد • قلنا : نقول بذلك ،
تقليداً للأنجيل ، والنبیین ، ورسول رب العالمین ، فیما نقلوا من ذلك ،
وأعلموناہ عن الله • وفيما نص لنا عنهم تصدیق الأخبار الذى
لا تكاذب فیها •

فان قلت : وكيف يجوز أن يتوحد القديم بالحادث ، والخالق
بالمخلوق ؟ قلنا : على تقليد الكتاب وعلى الجائز فى العقول • وذلك
أنا لا نقول : ان القديم فى الجوهر صار حادثا ولا الحادث فى الجوهر
صار قديما • ولكننا نقول : صار الحادث لها ، ولا نقول : صار الاله
حادثا • كما نقول : صارت الفحمة نارا • ولا نقول : صارت النار فحمة •

فان قلت : فما علة هذا الاتحاد ؟ قيل لك : الارادة • وسألك هذا ،
كسائل يسأل فقال : لم خلق الله العالم ؟ فمن الجواب له أن يقال له :
أراد ذلك • فان قلت : أفهذا الاتحاد قديم أو حادث ؟ قيل لك : قديم
وحادث • فان قلت : فكيف يكون قديما وحادثا ؟ قيل لك : قديم بالقوة ،
حادث بالفعل ، وكل عنده حاضر ، لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان ،
ولا يعد الأشياء بالأعداد ، وكل عنده حاضر مقيم » ا. ه •

الجواب عنه : هذا كلام تمجده الأسماع ، وتنفرد عنه الطبائع ،
سأل فيه قائله عن حقيقة الاتحاد ومعناه ، فأجابه بالدليل عليه ، وما جرى
مجراه • ومن حق الانفصال أن يكون مطابقا للسؤال • فكان يلزمك
لما سئلت عن معنى الاتحاد ، أن تجيب بحده وحقيقته • ثم بعد ذلك
تستدل على صحته ووجوده • ان صح ذلك ، وأمكن الاستدلال هنالك •

أما قولك في جواب من سألك عن الاتحاد وحقيقته « نقول بذلك تقليداً للإنجيل ، والنبیین ، ورسول رب العالمین » فكلام غير متين ، ولا يصدر مثله عن عقل رصين .

لتعلم يا هذا : أن الأنبياء عليهم السلام صادقون مصدقون ، والصادق ما يخبر بصحة ما يعلم بالعقول فساد ، واستحالته . فان الصادق لا يناقض قوله دليل العقل ، ولا يعارضه بل يصدقه ، ويشهد بصحته ، فلو فرضنا شخصا جاء بأمر معجز فيما يرى . وادعى أنه أرسله الله لنا ليخبرنا : أن الثلاثة واحد من حيث هي ثلاثة ، وأن الواحد ثلاثة من حيث انه واحد . وفهم ذلك منه بنص لا يقبل التأويل ، للبادر العقلاء الى تكذيبه ، ولعلموا أن ما أظهره على جهة المعجزة انما هي حيلة ومخرقة . لأن المعجزة انما هي دليل الصدق ، ولا يقلب دليل الصدق دليل الكذب .

وكذلك لو قال : ان الضدين يجتمعان بعد مراعاة شروط التضاد . وكذلك لو أخبر أن الله تعالى يقلب جوهرها عرضا ، ولونا ، وطعما الى غير ذلك من أنواع الحالات . ومن هذا القبيل : هو ما ادعيت من الاتحاد . وسيتبين أن شاء الله .

وبعد هذا . فلو فرضنا نبيا علمنا صدقه على القطع تكلم بشيء من هذا فيكون ذلك الكلام لا يدل على ذلك المعنى دلالة قاطعة بل دلالة محتملة أو ظاهرة ، فسيبيلنا أن نتأول ان وجدنا وجها للتأويل ، أو نتوقف على تأويله ان لم نجد له محملا في التأويل . مع أن للعقل يعلم استحالة الظاهر ، ويكمل معرفة باطنه الى الله تعالى ، فان الشرائع وان لم تأت بما يخالف العقول ، فقد تأتى مما تقصر العقول عن دركه . وفرق بين يعلمه العقلاء : بين العلم بالاستحالة ، وبين عدم العلم بالاستحالة . فان عدم العلم بالاستحالة ، لا يلزم منه نفى الجواز ، ولا اثباته ، ولا نفى الوجوب ، ولا اثباته . وهذا مما لا خفاء به عند العقلاء .

وأما قولك : « وعلى الجائز في العقول » فينبغي لنا أن نسألك هنا أسئلة تبين أنك بما ادعيت جهول . فنقول لك : ما حد العقل أولا ؟ وما حد الجائز العقلي ؟ وما حقيقته ؟ وكم أقسامه ؟ وما حد الواجب

العقلى ؟ وكم أقسامه ؟ وما حد المحال العقلى ؟ وكم أقسامه ؟ فإذا فرغت من جواب هذه المسائل • سألتك : هل أحكام العقل تنحصر فى هذه الثلاثة ، أم تزيد عليها ، أم تنقص عنها ؟ ولعمري ما ينبغي أن تتكلم مع من لا يعرفها ، وأعلم على القطع والثبات أنك لا تعرفها ، ولا قرأت على من يفهمها • والا فالجواب وان لم تجب ، والا فيظهر أنك من دينك على شك وارتياب ، ثم نقول : كيف يتجاسر عاقل أن يقول : ان علم الله تعالى الذى هو صفته ، ولازم له وقديم أزلى : حل فى جسد انسان حادث بعد أن لم يكن حالا فيه • ومع أنه حل فيه : فهو لم يفارق الله تعالى ، ولولا الله تعالى سلبكم عقولكم وابتلاككم بظلمة التقليد الذى أفضى بكم الى مكابرة العقول ، وانكار البداية ، لما وجد مثل هذا المذهب مستقرا فى قلب مجنون ، فأجرى فى قلب غافل • ولكن لله تعالى سر فى ابعاد بعض العباد « ومن يضل الله فما له من هاد » (١) •

وأما قولك : « انا لا نقول ان القديم فى الجوهر صار حادثا ، ولا الحادث فى الجوهر صار قديما • ولكننا نقول : صار الحادث الها » فهذا القول منك يدل على أنك تقول بحلول الحادث فى الجوهر واتحاده به • ولم يقل بهذا قط أحد من المخلوقات • وهذا أشنع وأقبح وأمحل ، من اتحاد القديم بالحادث وحلوله فيه • وهذا الذى ذكرت أنه يلزمك يدل عليه قولك « ولا الحادث فى الجوهر صار قديما » فنفيت عن الحادث القدم ، وأبقيت عليه الحلول فى الجواهر • وهذا بين بنفسه من كلامك • ثم هذا الذى فررت منه يلزمك • وذلك أنا نقول : هذا القديم الحال ، لا يخلو أن يكون حالا فى ناسوت المسيح ، قبل خلق المسيح ، أو لم يكن ؟ فان كان حالا فيه قبل خلقه كان محالا وباطلا بالضرورة • فانه قبل خلقه معدوم ، والموجود لا يحل فى المعدوم • وان كان حلوله فى ناسوته بعد خلقه ، فقبل خلقه لم يكن حالا • فقد حدث له حلول • وقد صار حالا بعد أن لم يكن حالا • ويلزم على هذا أن تقوم الحوادث بالقديم وهو محال • فانه يؤدي الى حدوثه على ما يعرفه أرباب النظر •

وأما قولك : « صار الحادث الها » فكلام تشتمز منه النفوس ،

«ويشهد لقائله بالويل والعكوس • وكيف لا يستحي العاقل من مثل هذا الكلام ، الذى والله هو عار ، على الأنام ؟ وكيف يتصور أن يعقل : الالهية لمحدث مخلوق ، يحزن تارة ، ويفرح أخرى ، ويجوع تارة ، ويشبع أخرى ، ويتبول ويتغوط ، وتظفر به أعداؤه • ويعذبونه بالضرب والاهانة ، والشوك والصلب ، والقتل بزعمكم • وهو مع ذلك يقول : « **اعبدوا الله ربى وربكم** » (١) ويقول لكم : « اذا صليتم • فقولوا : يا أبانا السماوى ، تقدر اسمك ، وقرب ملكك » (٢) ويقول : « ان الله وحده ، ولا اله الا هو » (٣) ويقول لابليس : « انما أمرت أن تعبد السيد الهك وحده » (٤) ويقول حين قرب رفعه ، وأعلمه الله به : « سيلقى ابن الانسان ما كتب له » (٥) يعنى نفسه ، ثم تقدم ، وسجد على الأرض ، ودعى أن يزاح عنه ما هو فيه وقال : « يا أبتاه انك قادر على جميع الأشياء ، فرج عنى هذه الكأس » (٦) وقال فى انجيل لوقا : « يا أبتاه ان كانت هذه الكأس ، لا تقدر تجاوزنى حتى أثربها • فلتكن ارادتك » (٧) •

(١) « **اعبدوا الله ربى وربكم** » (المائدة : ١١٧) ومن معناها فى انجيل يوحنا : « قال لها يسوع لا تلمسينى ، لأنى لم أصعد بعد الى أبى • ولكن اذهبنى الى اخوتى • وقولى لهم : انى أصعد الى أبى وأبيكم ، والهى والهكم » (يوحنا ٢٠ : ١٧) •

(٢) النص : « متى صليتم فقولوا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك » (لوقا ١١ : ٢ ، ومتى ٦ : ٩ - ١٠) •

(٣) يشير الى ما فى الاصحاح الثانى عشر من انجيل مرقس وسبق أن ذكرته فى التعليق على صدر الكتاب •

(٤) يشير الى ما فى الاصحاح الرابع من انجيل متى وسبق أن ذكرته فى التعليق على صدر الكتاب •

(٥) النص : « ان ابن الانسان ماض ، كما هو مكتوب عنه » (متى ٢٦ : ٢٤) •

(٦) نص الآية : « وكان يصلى قائلاً : يا أبتاه • ان أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا ، بل كما تريد أنت » (متى ٢٦ : ٣٩) وفى رواية مرقس : « وكان يصلى لكى تعبر عنه الساعة ان أمكن • وقال : يا أبا الآب ، كل شئ مستطاع لك • فأجز عنى هذه الكأس ، ولكن ليكن لا كما أريد ، بل ما تريد أنت » (مرقس ١٤ : ٣٥ - ٣٦) •

(٧) النص : « يا أبتاه ان شئت أن تجيز عنى هذه الكأس • ولكن لتكن لا ارادتى بل ارادتك » (لوقا ٢٢ : ٤٢) •

ومن اطلع على أناجيلكم علم على القطع أن عيسى عليه السلام يرى مما تدعونه به ، وتنسبونه اليه ، وستلقونه بين يدي الله في الوقت الذي يقول الله تبارك وتعالى : « يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس ، اتخذوني وأمي الهين من دون الله » (١) فينتبرأ من ذلك القول • فيقول : « سبحانه • ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، أن كنت قلت فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك • انك أنت علام الغيوب • ما قلت لهم الا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد » (٢) •

وقد جاءنا على لسان من دلت المعجزة بصدقه • أن الله تعالى اذا حشر الخلائق في صعيد واحد — يعنى يوم القيامة • فيقال للنصارى : « ما كنتم تعبدون » ؟ فيقولون : « كنا نعبد المسيح ابن الله » فيقول لهم : « كذبتكم • ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد » ثم يقال لهم : « ألا تردون » ؟ فيحشرون الى جهنم ، كأنها سراب يحطم بعضها بعضا •

فالله • الله • أدرك بقية نفسك قبل حلول رمسك ، واستعمل سديد عقلك ، ولا تعول على تقليد فاسد نقلك ، واتبع الدين القويم ، دين الأب ابراهيم ، فما كان « يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » (٣) •

فالله يعلم أنى أنظر اليك ، والى كافة خلق الله بعين الرحمة ، وأسأله هداية من ضل من هذه الأمة • وأتأسف على الأباطيل التى ينتحلون • فانا لله ، وانا اليه راجعون ، وسيأتى ان شاء الله تعالى فى النبوات كلام على حقائق الملل ، وتبين الهداة والضالين من ذوى النحل ، ولا حول ولا قوة الا بالله •

وأما قولك : « كما نقول صارت الفحمة نارا ، ولا نقول صارت النار فحمة » فتمثيل ليس بمستقيم ، ولا جار على منهج قويم • وذلك

(٢) المائدة : ١١٦ ، ١١٧

(١) المائدة : ١١٦

(٣) آل عمران : ٦٧

أن الفحمة مهما صارت نارا ، فقد حدثت النارية ، وانعدمت الفحمة ،
وليس هذا مساويا لقولك : صار الحادث لها . فان الشيء الذي صار
به الحادث انها عندكم هو قديم ، فكيف تشبّهه بالنارية الطارئة ، وهي
حادثه ، وان ساويت بينهما لزمك أن يكون الحال في الناسوت حادثا ،
أو النارية قديمة ، فترتفع الفحمة ، وهو محال بالضرورة .

وأما قولك : « فان قلت : فما علة هذا الاتحاد ؟ قيل لك :
الارادة » فهذا قول فاسد . فان الارادة ، انما يصح تعلقها بالجائزات ،
ولا يصح تعلقها بالمحالات . والاتحاد محال فلا تتعلق به الارادة .
على ما نقرره ان شاء الله ، اذا نقلنا مذاهب (أفستكم) في هذا المعنى ،
وتكلمنا معهم عليها .

وأما قولك في جواب سائلك عن الاتحاد « هل حادث أو قديم » ؟
حيث قلت : « انه قديم وحادث » فقول لم يقل به مؤمن ولا ناكث .
فان الجمع بين القدم والحدوث مما يعلم فساد به ضرورة العقل .
فان معنى القديم الذي لا أول لوجوده ، والحادث هو الذي لوجوده
أول . والجمع بين نفى الأولية ، وإثبات الأولية محال .

وأما قولك : « قديم بالقوة ، حادث بالفعل » فكلام ليس له
أصل . اذ لا يعقل العقلاء في القدم قوة ولا فعلا . فان القدم من
أسماء السلوب . والقوة والفعل فانما يتواردان عند القائلين بهما على
الصفات الوجوديات ، وعلى عدمها مع امكان وجودها . ثم انا نسألك
عن حد القوة وحقيقتها ؟ وما الفرق بينها وبين الامكان ؟ وهل هي
موجودة ؟ وعن حد الفعل . وما حقيقتها ؟

فانك تكلمت بما سمعته ، وما حصلته ولا وعيته .

وأما قولك : « وكل عنده حاضر مقيم » فكلام حق ، ومقال
صدق . ان كنت أردت بحاضر أنه معلوم . وقد أخطأت بادخالك
« مقيم » في هذا المعنى . فان المقيم انما هو مأخوذ من أقام بالموضع
اذا ثبت فيه ، فان أردت هذا المعنى لزمك أن تكون المعدومات الممكنة
موجودة عنده في حال عدمها ، وذلك محال . وان أردت غيره فكان
ينبغي لك أن تبين مرادك فانك لم تتكلم به على مقتضى كلام القوم ،
الذين تعاطيت التكلم بلسانهم .

ثم قولك : « لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان » ذكرته موهما أنك تستدل به على أنه تعالى عالم بجميع الأمور ، محيط بالكل ، ولا يدل ذلك على ما أردته ، والا فكونه قابلا للزمان أو غير قابل للزمان ، ما المناسبة بينه وبين كونه عالما بجميع المعلومات أو ببعضها • ولا بد أن يسأل عن الزمان : ما هو ؟ وهل هو موجود ، أو معدوم ؟ فان كان موجودا فهل هو جوهر أو عرض ؟ وان كان جوهرًا أو عرضا ، فهل هو في زمان ، أو ليس في زمان ؟ فان لم يكن في زمان فلتستغن الموجودات كلها عن زمان ، ويلزم عليه اثبات موجودات ليس بزمانية غير الباري تعالى وتقدس ، وذلك محال على ما تقرر • وان كان في زمان • فهل ذلك الزمان في زمان ، ويتسلسل • فلا بد لك من علم هذه المسائل ان أردت أن تلحق بالصنف العاقل • ومن أراد أن يعلم فليرحل على الرأس والقدم •

وأما قولك : « ولا يعد الأشياء بالأعداد » فيفهم منه أن المعلومات لا تتعدد عنده ، وإذا لم تتعدد المعلومات عنده ، لا تتميز جزئياتها • وإذا كان ذلك فانما يعلم الأمور على وجه كلي ، وهو ما تقوله الفلاسفة ، وأهل الشرائع ، كلهم مطبقون على أن الله تعالى يعلم جزئيات الأمور ، وان دقت على التفصيل • ومن لم يقل هذا يحكم عليه في كل ملة بالتكفير والتضليل •

فأنت يا هذا في أكثر كلامك بين أمرين : اما أن تنكر الضروريات ، أو تكفر بالشرعيات • فنسأل الله تعالى أن ينور بصائرنا ، ويسدد أحوالنا ، وأمورنا وأن لا يجعل وبالا علينا أعمالنا ، وأقوالنا • انه سميع الدعاء • قريب مجيب •



الواسطة بين الله وبين موسى

من حكاية كلام السائل

قال : « ثم نقول لمن ناظرني من باقية المسلمين : ان كتابكم يقول : ان موسى سمع الله ، وكلمه تكليما • فكيف كان ذلك ، وأنتم قد أعجزتم جميع الحاسات من ادراكه في الدنيا والآخرة ، لأنه لا مفطور ، ولا مشبه بشيء مما يتصور في الأوهام ؟ »

فان قلت : انه كلمه بذاته • فقد أوجبتم له جارحة النطق ، ووقعتم فيما أنكرتموه من الجسم • وان قلت : ان الله خلق له كلاما فقد أثبتتم كلاما مخلوقا قائما بخلقه ، جوهرًا في نفسه اذ لم يكن عرضا في الله • قال لموسى : « **أنا الله ، لا اله الا أنا ، فاعبدني** » (١) وأثبتتم أن الكلام واسطة بين الله وبين موسى • وأن موسى أقصر بالربوبية ، لقوله : « **رب أرني أنظر إليك** » (٢) وقول الصدى ، الذي هو المتكلم له : « **لا اله الا أنا ، فاعبدني** » •

فان قلت : ان الصدى لم يقل له : « أنا الله » ولكنه في مسامع موسى : « أنا الله » قلت لك : ان الصدى هو العامل في مسامع موسى ، وهو المحرك له ، وعليه رد ، وإياه أجاب •

والدليل على أنه كان في غفلة : فما كان يريد الله من إرساله الى فرعون ، حتى خلق له نارا أبصرها ، فنزع اليها ، فلما أتاها أحجب الله له فيها صدى • قال له : « **أنا الله** » و « **لا اله الا أنا • فاعبدني** » الا أن تقولوا : ان موسى قد كان يعرف ما كان يريد الله من إرساله الى فرعون دون النار ، والكلام • فيكون خبر النار والكلام لا معنى لهما ، وخبرهما لم يفد شيئا •

وهذا من القول تشنيع الكذب • واذا لم يكن بد من أن موسى لم يدرك المرسل له الا بواسطة ، اتحد له ، يسمى باسمه ، فالواسط هو العامل في موسى ، وعنه تحمل الرسالة ، حتى يأتي فرعون بمصر ، ويقول : ان الله تراءى لى بطور سيناء ، وبعثنى اليك ، لترسل معى بنى اسرائيل ، ولا تعذبهم ، مجددا الموضع الذى أقبل منه من عند الله • وكان الله بمصر ، وفى كل مكان • ولا كان يعجز موسى عن معرفة الأمر والنهى الا بكلام محدود من جسم مفطور ، خلق الله له نارا ، أبصرها ، فنزع اليها ، ثم أحجب له فيها صدى ، سمعه منها ، قام عنده مقام خالق فسماه الها « ا.ه •

الجواب عنه : أما قولك : « ثم نقول لمن نأظرنى من باقية المسلمين » فلتعلم يا هذا أنك غلطت فى نفسك ، وغفلت عن حسبك ، حيث ظننت أنك ممن يستحسن مناظرته أحد من المسلمين ، للذى أمروا به من الاعراض عن الجاهلين • وكيف • وأنت لا يمكنك النطق بكلام فصيح ، ولا تقدر على نظر صحيح • وأنى لك بمناظرتهم ، ولم تسلك شيئا من طريقتهم ؟ وكيف يمكنك النظر معهم ، وأنت لم تعرف طريقه • ولا التزمت شروطه ؟

فوحق دين الاسلام الذى هو دين ابراهيم عليه السلام لقد وددت أن تكون من عقلاء الأنام ، لتعرف قدر ما يلقي من الأسئلة عليك ، وما يكتب به من الحكم اليك • فلعل مقلب القلوب ، يستنقذك من عبادة اله مصلوب ، ويبدلك بها اخلاص العبادة لعلام الغيوب ولولا رجاء ذلك لما كان ينبغى لى أن أعطى الحكمة غير أهلها ، كما لا ينبغى أن أسمعها من هو من أهلها •

وأما قولك : « ان كتابكم يقول : ان موسى سمع الله ، وكلمه تكليما » فكيف يسوغ لك أن تجنح بما أنت منكر لأصله ، ولا تعترف بأنه كلام الله ، وأنت منكر لتصديق من جاء به ، فلا يحل لك أن تحتج لنفسك ولا لغيرك بما تعتقد أنه كذب • وأما نحن فيمكننا أن نحتج عليكم ، وعلى اليهود بالتوراة والانجيل ، لأننا نعتقد أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى ، والانجيل على عيسى ، وهما هدى قبل أن يغيرا ويبدلا ، وينسخا بغيرهما •

وأما اليوم بعد أن ثبت عندنا ما ذكرته فلا نحتج بشيء منهما على جهة انتزاع الأحكام . فان الله تعالى قد أخرجنا بالنور من الظلام ، وهدانا لما اختلفتم فيه من الحق بنبينا محمد عليه السلام . وسنبين أن شاء الله ما يدل على صدقه من المعجزات ، وواضح الدلالات .

ثم نقول : ان الله تعالى كلم موسى بكلامه الذى هو صفته وسمعه موسى بالادراك الذى خلقه الله له . وقولك : « كيف » ؟ ظلم ، وحيف . اذ سؤالك بكيف ؟ فى هذا المحل دليل على أنك جاهل بمطلبها ، فينبغى لك أن تعلم : أن صيغ المطالب كثيرة ، وهى مع كثرتها لا يتوجه شيء منها على الله تعالى ، وعلى صفاته . وذلك : أن من صيغ المطالب « ما » و « أى » و « لم » و « كيف » و « متى » و « أين » وغيرهما ، مما فى معناها ، ولا يتوجه على الله تعالى بشيء منها لاستحالة معانيها على الله تعالى ، فلا تسأل عنه بـ « ما » ولا بـ « أى » اذ لا جنس له ، ولا فصل . ولا بـ « لم » اذ لا علة له ، ولا أصل . ولا بـ « متى » اذ هو مقدر الزمان . ولا بـ « أين » اذ هو خالق المكان ، ولا بـ « هل » اذ لا نشك فى وجوده ، وهو خالقنا ، ولا بـ « كيف » اذ لا يناسب وجوده ، ولا صفاته شيئاً من أحوالنا وأوصافنا .

وجوده اثباته ، وإثباته ذاته . وعلمه كل شيء صنعه . ولا علة لصنعه . لا يتوجه لمخلوق عليه حق . ولا يعجزه خلق « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » (١) .

ثم نقول : ومما يبين لك : أنه « يصح السؤال بكيف هنا . لأن المطلب بكيف إنما هو سؤال عن حال موجود يناسب حال السائل بكيف . فإذا قلت : « كيف زيد » ؟ إنما معناه على أى حال هو من الأحوال التى تناسب أحوالنا فى حال صحة ، أو فى حال مرض ، أو فى حال علم ، أو فى حال جهل . الى غير ذلك من أحواله المناسبة لأحوالنا . فإذا قلت : كيف سمع موسى كلام الله ؟ فكأنك قلت : على أى حالة سمع موسى كلام الله من الأحوال التى نكون نحن عليها ، حين يسمع بعضنا من بعض ، ونحن والعقلاء الذين يعرفون ما يجب لله

وما يجوز ، وما يستحيل في حقه يعلمون بالبراهين القاطعة : أنه يستحيل أن يسمع موسى كلام الله على شيء من الأحوال التي يسمع عليها بعضنا من بعض على ما نبينه ان شاء الله •

فعلى هذا اذا سألنا سائل كما سألت أنت • قلنا له : السؤال عن الله تعالى وصفاته بـ « كيف » ؟ ظلم وحيف • فان الظلم وضع الشيء في غير موضعه • وقد سألت بـ « كيف » في موضع لا مدخل لها فيه • فتأدب مع الله قبل حلول عقاب الله • فان من لم يستعمل مع الله الأدب فقد استحق التعب ، وحرم الرتب • ومن لم يستتكر هذا الكلام لحق بالبهايم ، والهوام • فانه لو سألك عنين لم يذق قط لذة الجماع • وقال لك : كيف أدركت أنت لذة الجماع ؟ لكان الجواب يصعب عليك ، ولم يمكنك تفهيمه اذ لم يذق لذة الجماع • وكذلك كل من لم يسمع كلام الله كما سمعه موسى عليه السلام فهو كالعينين بالاضافة الى ادراك الكلام القديم اذ لم يسمعه ، ولا اتصف بالادراك الذى اتصف به موسى عليه السلام • وكما لا يقال : كيف يسمع الله كلام الخلق ؟ كذلك لا يقال : كيف يسمع كلامه أحد من الخلق ؟ وكما لا يقال : كيف يرى الله الخلق ؟ كذلك لا يقال : كيف يراه الخلق ؟ فان الكيفية محال على الله تعالى ، وعلى صفاته من جميع الوجوه •

ولولا خوف الاكثار ، وأنا وضعنا هذا الكتاب على الاختصار للمأت صدرك من عظمة الله تعالى ، ان كنت عاقلا ، حتى يتبين لكم : أنكم لم تعرفوا الله حق معرفته ، ولا قدرتموه حق قدره •

وأما قولك : « فان قلت : انه كلمه بذاته • فقد أوجبتم له جارحة النطق ، ووقعتم فيما أنكرتموه من الجسم » فلا يلزم من هذا كله شيء • وانما كان يلزمنا هذا : لو قلنا : ان الله تعالى كلمه بصوت وحرف يخرج من لهوات ويقطعه لسان • ونحن لا نقول بشيء من ذلك • بل نقول : ان الله تعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذات الله ، ليس بحرف ولا صوت • وهذا معقول مفهوم • فاننا نحس من أنفسنا كلاما قائما بذواتنا • فتحدث به مع أنفسنا • ليس بحرف ولا صوت وهذا مما يجده الانسان من نفسه بالضرورة • ويكون الحرف والصوت دالين على ذلك المعنى الذى فى النفس • وهذا لاستحالته فى كلام بناسبه

من بعض الوجوه لله تعالى • لكن على التقدير الذى يجوز فى حقه تعالى •
وانما ذكرنا لك أنفسنا مثالا لذلك ، على جهة التأنيس ، كما أنا نقول :
حقيقة العلم واحدة فى القديم والحادث • ونعنى بذلك انكشاف المعلوم ،
لأن العلم القديم يشبه الحادث • فافهم • وهذا كله يتبين فى موضعه •
ويعرف بدليله •

فعلى هذا الأصل الذى قررناه • نقول : الكلام الذى سمعه موسى •
عليه السلام هو كلام الله القديم القائم بذات الله ، الذى ليس بحرف •
ولا صوت • فان قلتم : كيف يسمع ما ليس بحرف ولا صوت ؟ قلنا :
الجواب عنه قد تقدم • اذ لا يصح السؤال عنه بـ « كيف » لاستحالة
شرط السؤال بها •

ثم نقول : سلمنا جدلا أنه يصح السؤال • ثم يكون الجواب عنه •
أن تقول : يسمع ما ليس بصوت ، ولا حرف ، كما يعلم موجود ليس
بجوهر ولا عرض • وكما يرى الله الخلق ، وليس بذى حدقة ولا عين ،
وكما يسمع أصواتهم وليس بذى صماخ ولا أذن ، وكما يعلم وليس
بذى قلب ، ولا دماغ • وكما يراه المؤمنون فى الدار الآخرة ، كرامة لهم ،
وليس بذى جسم ولا لون • فكما تصح هذه الأمور كلها ، وان كانت
مستبعدة بالاضافة الى أوهاما فى حق الله تعالى فكذلك يصح أن يسمع
موسى ما ليس بحرف ولا صوت •

ثم نقول : للذى لا تبقى معه حسيكة فى النفس ، ولا استبعاد
فى الوهم : ان الله تعالى خلق لموسى ادراكا لكلامه القديم ، وصل به
الى تحصيل مفهوم كلام الله تعالى ومراده منه • فسمى ذلك الادراك
سماعا ، وعبر عنه بسمع • كما أنا نجوز أن يكرم الله من شاء من
أصفياء خلقه بأن يطلعهم على بعض ما فى نفوس بعض الناس من غير
تعبير عنه بصوت ولا حرف • وذلك كما فى بعض كتبكم أن عيسى
عليه السلام أعلم بعض الحواريين عما فى نفسه • ولو عبر عن ذلك
بأن يقال : سمع عيسى كلام ذلك الرجل لكان صدقا وحقا • وهذا كله
جائز عقلا ، لا استحالة فيه •

فان قيل : كيف ينبغى لك أن تقول : أن الله تعالى متكلم بكلام •
ليس بصوت ولا حرف • وقد جاء فى التوراة : أن الله تكلم بصوت •

«لآدم وحواء • وذلك أنهما لما » طفقا يلفقان ورق التين ليسترا بهما عورتهم ، فسمعا صوت الله الرب يتمشى في الفردوس » • الى أن قال : « فدعا الرب آدم • وقال : أين أنت يا آدم ؟ وقال آدم : سمعت صوتك في الفردوس • فرأيت أني عار • فاستترت واستخفيت » (١) « وهذا يدل على أن الله تعالى صوتا ، وهو خلاف ما ذكرت • فيلزمك على هذا تكذيب التوراة • أو تقول بمقتضاها • فترجع عما قلته آنفا •

فنقول ما أمرنا به نبينا عليه السلام — عندما تحدثونا بشيء — : آمنا بالله وكتبه ورسله • وبعد ذلك نقول في التوراة بمثل ما قلناه في الانجيل ، أو قريبا منه • فجدد به عهدا ، وفيه نظرا •

ثم ان سلمنا صحتها فليس في هذا الذي ذكرته ما يدل على أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت وانما الظاهر منه أن آدم سمع حس مشي الله في الفردوس • ألا ترى قوله « فسمعا صوت الرب يتمشى في الفردوس » هذا هو الظاهر من هذا اللفظ ، وأنتم لا تقولون به ولا تحن • وان كانت اليهود ، أو أكثرها قد قالت بمقتضى ظاهره فجسمت • وأنتم ان قلتم بظاهره يلزمكم ما لزمهم • فاذن هذا اللفظ مؤول عندكم ، وعندنا ، أعنى من التشابهات التي يعلمها الراسخون في العلم ، فلما لم يستقم جعله على ظاهره ، تأولتموه وأنتم وصرفتموه عن ظاهره • وقلتم : ان هذا انما يراد به كلام الله تعالى الذي هو حرف وصوت عندكم ، وهو فعل من أفعال الله تعالى عندكم •

والى نحو من هذا صار « أغشتين » واذا تأولتم أنتم هذا اللفظ ، وأخرجتموه عن ظاهره فنحن نخرجه عن ظاهره بتأويل آخر أحسن من تأويلكم ، لا يلزم عليه شيء من المحالات التي تلزمكم وسنبينها ان شاء الله •

ولنا في ذلك تأويلان :

(أحدهما) : أن الله تعالى خلق صوتا في بعض طرق الفردوس

(١) النص : « فانفتحت أعينهما ، وعظما أنهما عريانان • فخاطا أوراق تين ، وصنعا لأنفسهما مآزر • وسمعا صوت الرب الاله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبا آدم وامرأته من وجه الرب الاله في وسط شجر الجنة • فنادى الرب الاله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال سمعت صوتك في الجنة ، فخشيت لأنى عريان ، فاختبت » (تكوين ٣ : ٧ - ١١) •

يشبه صوت الماشي ، وهو الذي يسمى بلسان العرب : الهمس ،
والخشخشة . فلما سمع آدم ذلك الصوت تنبه لخطابة الله تعالى
ولحضوره معه ، ثم أضاف الصوت الى الله تعالى لأنه هو الذي تنبه
آدم عنده لمحاورة الله ، وكأن آدم كان في غفلة لشدة حزنه وعظيم ما حل
به . وهذا كما يعترى الواحد منا اذا كان ملهوفاً بأمر هائل فانه يشتغل
بنفسه ، بل ويغفل عن حسه . ثم قد يتنبه عند سماع صوت شيء وحسن
انسان ، فيرجع عند ذلك لنفسه ويتنبه لمن معه . وعلى هذا التأويل يكون
في « يتمشى » ضمير يعود على الصوت فكأنه قال « يتمشى الصوت في
الفردوس » لا على الله .

اذ يستحيل على الله تعالى ظاهر المشي ، ومفهومه السابق منه .
وهذا تأويل حسن سائغ عند المنصف .

(والتأويل الثاني) : أن الصوت يراد به الكلام القائم بذاته ، وان
كان ليس بصوت فيجوز أن يسميه صوتاً ، لأنه يمكن أن يدل عليه
بالصوت ، كما نقول : ان موسى عليه السلام سمع كلام الله القائم
بذاته ، بمعنى أدركه وفهمه بأدراك خص به موسى ، ثم عبر موسى
عنه لنا بصوت مقطوع اذ ليس في قوتنا ادراك ما ليس بصوت .
وبقريب من ذلك : نقول نحن في القرآن .

وهذا النوع من التأويل نوع جائز ، جار في الكلام ، فانه تسمية
الشيء بما يدل عليه كما تقول « سمعت علم فلان » وانما سمعت كلامه ،
الذي دل على علمه ، والكلام ليس هو العلم . وعلى هذا التأويل يكون
في الفردوس معلقاً بـ « سمعاً » لا بـ « يتمشى » ويكون معنى يتمشى :
(يبلغ) والبلوغ عبارة : عن الادراك ، الذي به أدرك كلام الله تعالى
يعنى سمعه ، وكذلك قوله « سمعت صوتك في الفردوس » أى ، وأنا
في الفردوس .

ولو كنت تعرف لسان القوم الذين ترجمت التوراة والانجيل بلغتهم
لذكرت لك من هذا أمثلة كثيرة . وفي القليل المبصر غنية عن الكثير .
فهكذا ينبغي لك ، ولكل عاقل أن يفهم تأويل الصوت الذي وقع في التوراة .
ولعمري لا يبعد أن يتأول تأويلات أخر جاريات على السنن القويم ،
والمنهج المستقيم . وفيما ذكرناه مقنع للعاقل ، فتدبر فهمك الله ما ذكرته ،
ولا تعتقد في الله تعالى أنه متكلم بصوت محدث . فان ذلك محال .

ونحن نبين استحالاته مستعنيين بالله ، ومتوكلين عليه • فنقول :

من المتقرر الثابت عند المشرعين كلهم : أن الله تعالى متكلم ، ومن لم يعمل في ذلك على ما أخبرت به الرسل ، ولا وافق على الشرائع ، أقيمت عليه القواطع ، التي لا يردّها الا معاند ، وليس هذا موضع ذكرها • فاذا تقرر ذلك • فنقول :

اما أن يكون متكلماً بصوت ، أو بغير صوت • فان كان متكلماً بصوت فذلك الصوت اما أن يكون قائماً به ، أو قائماً بغيره ، أو لا قائماً به ، ولا قائماً بغيره •

محال أن يكون قائماً به ، فان الصوت لا يكون مفيداً حتى ينقطع بالحروف ، وتلك النقطيات لا بد أن تكون حادثة ، فيلزم عليه أن يكون محلاً للحوادث • واذا كان محلاً للحوادث لم يخل عنها • واذا لم يخل عنها كان حادثاً مثلها على ما تحقق في موضعه ، وذلك كله محال على الله تعالى • وان قام بغيره فذلك الغير يكون المتكلم به • سواء كان ذلك المحل جماداً ، أو حيواناً • فان قلنا : انه يجوز قيامه بجسم جماد • وان جاز أن يقوم الصوت بمحل ويكون الباري تبارك وتعالى متكلماً به جاز أن تقوم صفة بمحل ، وتوجب حكمها لمحل آخر فيلزم على ذلك : أن تقوم حركة بجسم ، يكون جسماً آخر متحركاً بها ، ويقوم بمحل لون • ويكون محل آخر متصفاً به وذلك كله محال بالضرورة ، ويلزم عليه : أن يكون الباري تعالى متكلماً بما يقوم بنا من كلامنا ، الى غير ذلك من المحالات • وباطل أن يقال : لا يقوم به ، ولا بغيره ، لأنه يكون قائماً بنفسه ، وخرج عن كونه صفة زائدة على النفس ، واذا بطلت هذه الثلاثة الأقسام ، وهو ما قدمنا ذكره ، ومن أراد مزيداً فليرحل • ويرتد للحق بعد أن يبحث ويسأل •

واذا ثبتت هذه القاعدة الوثيقة العظيمة الأنيقة ، التي لا يعرف قدرها ، ولا عظم خطرها الا من نور الله بنور اليقين بصيرته ، وأصلح بجزيل التوفيق سيرته ، بطل ما أملتّموه ، ولم يلزم شيء مما ألتّمتموه ، ولا تم لكم شيء مما أردتموه •

فان جملة ما تريد أن تقول في هذا الفصل : أن الله تعالى متكلم

بصوت ، وأن موسى سمع بذلك الصوت ، وهو يقول : « أنا الله ،
« لا اله الا أنا • فاعبدنى » وذلك الصوت غير الله •

ومع ذلك خاطبه موسى بقوله : « رب أرنى أنظر إليك » وقد اعترف
له موسى بالربوبية فكذلك المسيح فى قوله : « أنا الله » صادق • اذ قد
اتخذ واسطة بينه وبين خلقه ، كما اتخذ جسم النار • والكلام واسطة
بينه وبين موسى ، فينبغى لنا : أن نعترف بربوبيته ، كما اعترف
موسى بربوبية الصوت • وهذا الهذيان كله ، الذى ذكرته ، وليتك ما
أنحلته • الذى والله لا شرع يعضده ، ولا عقل يقبله ويريده • مبنى
على أن الله تعالى متكلم بصوت وقد أبطلناه ، فبطل كل ذلك •

ومع ذلك فلنتكلم على أجزاء كلامك بعد أن بينا جملة مقصودك ،
ومرامك ، حتى يتبين أنكم لستم على شىء مما ينتحل العقلاء ، بل يتبرأ منه
الفضلاء • فنقول :

أما قولك « وان قلتم : ان الله خلق له كلاما ، فقد أثبتتم كلاما مخلوقا
قائما بخلقه ، جوهرًا فى نفسه » فنقول : — بعد أن أبطلنا الصوت الذى
ترومون البناء عليه — نسلّمه لكم جدلا ، ونبين بعد ذلك : أنه لا يلزم
شىء مما ذكرته • اذ لا يلزم من تقدير صوت الله — تعالى عن ذلك —
مخلوق أن يكون الصوت قائما بنفسه ، جوهرًا فان الصوت انما
حقيقته أنه صفة لموصوف وعرض فى محل ، والعرض لا ينقلب جوهرًا •
فان قلت : فيلزمك أن يكون عرضا • قال لك المجيب : وما الذى يلزم
منه ، ان كان عرضا • فان قلت : يلزم منه أن يكون العرض هو الذى
قال لموسى : « أنا الله لا اله الا أنا • فاعبدنى » والصوت لا يتكلم ،
وانما يتكلم به • قلنا لك : جوابك أن الصوت لا يتكلم عن نفسه ، وانما
يتكلم به كما قلت أنت • ثم يلزمك أنت ان جعلته جوهرًا غير الله تعالى :
أن يكون هو الذى قال عن نفسه : « أنا الله ، لا اله الا أنا » وله اعترف
موسى بالربوبية • لا الله • وله سجد ، لا الله • واذا أنتهى انسان الى
هذه المخازى فقد كفر بموسى ، وبالله موسى نعوذ بالله من أنظار تقود
فى الدنيا الى الفضيحة والعار ، وفى الآخرة الى الخلود فى عذاب النار •

وعلى هذا الكفر الصريح يدل قولك : ان موسى أقر لها بالربوبية
تريد للواسطة واذا أقر لها بالربوبية — ولم يعرف قط من موسى عليه

السلام أنه أقر بالربوبية لالهين — فقد اعترف بربوبية الواسطة ، وأنكر ربوبية الله ، وكذلك يفعل الله بكل مسرف مرتاب ، أعاذنا الله من الاختلال المفنى بصاحبه الى الضلال ، ثم هذه المخارق يلزم منها قلب الحقائق •
 فان الصوت لا يقوم بنفسه ، ولا بخلقه • والقائل بذلك يشهد العقلاء بحمقه • فان حقيقته صفة لموصوف يستدعى وجودها محلا ، كما سائر الصفات • اذ لا يعقل قيام صفة بنفسها ، بل بغيرها • وهذا ضرورى •
 وأما قولك « فان قلت : ان الصدى لم يقل له : « أنا الله » ولكنه كان فى مسامع موسى « أنا الله » قلت لك : ان الصدى هو العامل فى مسامع موسى ، وهو المحرك له • وعليه رد ، وإياه أجاب ، فيلزمك على هذا الانفصال : أن يكون موسى رسول الصدى ، لا رسول الله ، وعليه يدل كلامك ، وعنه تحمل الرسالة ، لا عن الله • وإذا كان كذلك فقد كذبت موسى عليه السلام ، على ما يلزمكم ، حيث قال لفرعون : أنا رسول الله • فان كان بزعمك رسول الصدى • فاذا كان الصدى يقول « أنا الله » ويعترف له موسى بالربوبية ، ويأمر لموسى بتبليغ رسالته فقولوا : ان الصدى اله • وأضيفوه الى آلهتكم المتقدمة ، فيكون عددهم (خمسة) وذلك أن الأقانيم الثلاثة عندكم آلهة ، وعيسى اله رابع • والصدى اله خامس ، ومنكم طائفة تدعى أن مريم اله • فتكون الآلهة عند هذه الطائفة (ستة)

وإذا انتهى عقل انسان يقول هذه المخازى بلسانه ، ولا يشعر بها سقطت مكالمته ، ووجبت مجانبته •

ولا معنى لتطويل الكلام مع من يرتكب ذلك الهذيان ، فقد تم للشيطان فيهم أمله ، وأنجح معهم سعيه وعمله ، ومع هذا فـ
« انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى بيعتهم الله ، ثم اليه يرجعون » (١) وينبغى أن يتعدى أكثر كلام هذا السائل ما هو ظاهر الفساد • ولعلنا نصل الى ما هو المهم والمراد • من نقل مذاهب المتقدمين • أعنى (المطارق والقسيسين) (٢) اذ كلامهم يمكن أن يعقل ، أعنى ينفهم • ويتحصل • ولا بد مع ذلك من نقل كلام هذا السائل ، ليعلم الناظر فيه : أنه ليس تحت طائل • وأن المتكلم به ليس بعاقلة •

(١) الأنعام : ٣٦

(٢) درجات الكهنوت عند النصارى هكذا : شماس ثم قسيس ثم أسقف

ثم مطران ثم بطريرك ثم بابا •

تجسد الواسطة

من حكاية كلامه

قال : « فاذا لم يكن بد من الصدى ، فقد قال « أنا الله » فأسألك :
أن كنت تصدق الصدى أم تكذب ؟ فاذا لم يكن بد من تصديقه في قول
الربوبية • اذ قال : « أنا الله ، لا اله الا أنا • فاعبدنى » (١) قلنا لكم :
وكذلك صدق المسيح في قوله « أنا الله » وانا لنرى كذا : صدق
الحواريون ، ومن اتبعه من غيرهم في قوله في الربوبية ، كتصديق موسى
للكلام ، وألا يتماهى له برسالته الى أهل مصر • وقد أوجبتم أن جسم
المسيح ، وكلامه لما خطب بالربوبية مثل جسم النار ، والكلام اذا خاطب
موسى بالربوبية •

فان قلت : ان موسى لم يعبد النار ، كما تعبد النصارى المسيح •
قيل لك : ان الكلام قال له : « اعبدنى » وسجد له موسى ، وقال : « **تبت
اليك ، وأنا أول المؤمنين** » (٢) فان قال المسلم عند الاضطرار : ان النار ،
والصدى واسطة ، ولكنها خلاف المسيح وكلامه • لأن النار ليس من طبعها
الكلام • وأما المسيح فانه كان انسانا معروفا بالكلام فلا آية فيه •
قلنا لك : اذ قد أوجبتم أن الخليفة لا تدرك الخالق الا بجسم مخلوق
تتخذه وتجعله واسطة بينه وبين من خاطب من الأنبياء ، ويصير الواسطة
أنهم الها ، فقد جامعتهم على الاقرار بواسطة مخلوق بالربوبية للمسيح ،
ووقعتم فيما أنكرتم ، وليس ينفعكم ملجؤكم الى القول بأن النار والمسيح
ليس آية •

وانما أوجبتم علينا الشرك في قولنا : بواسطة • فاذن العقل والحق
لا يعيب الواسط ، فكلا الواسطين بين الله والخلق •

واذا ذهبتهم الى أن النار صادقة ، لا يتخوف عليها الكذب ، وأن المسيح يتخوف عليه الكذب ، فان موسى قد أوجز في النار والكلام • وانما قطع الشك باليقين بأية العصا ، واليد ، الذي أدخلها في جيبه • وكذلك قطع المؤمنون بربوبية المسيح شكهم باقرار الموتى عند احيائه لهم بربوبيته • وان ذهبتهم الى أن خلق النار في ذاتها أشرف • فان كل مخلوق في الدنيا هو منافع لولد آدم ، مسخرة لهم • وكفى بقولكم في قرآنكم ان الله أمر الملائكة بالسجود لآدم • وأن أبلis مسخوط عليه في الأبد ، لآبائه بالسجود له ، وقوله « **أنا خير منه خلقتني من نار ، وخلقته من طين** » (١) •

فان قلتم : كذبتهم على المسيح لأنه لم يدع مما قلتم شيئا • قلنا : انما أنكرتم علينا القول بما وجدنا في كتابنا • نحن لا نستدل بمثل هذا في الأبد ، فاضرناكم من كتابكم الى القول بمثله • فلما أبينا • قلتم : كذبتهم على المسيح • فلم تكذبونا ، وكتابنا على القول بمثل قولكم في واسطة موسى وعبادته لها ، وأنتم لما أوجبتم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة ، أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها • ثم يقول قرآنكم : « **وجاء ربك والملك صفا صفا** » (٢) •

فما تتكرون أن يكون المسيح الذي كان واسطة للوعظ ، أن يكون هذا المقبل مع الملائكة ، كما قدمه في الانجيل حيث قال : « يقعد ابن الانسان — يعنى الحجاب المتخذ من نسل آدم — في مجلس عظمته ، وتقدم جميع الأهم بين يديه ، ويميزهم كما يميز الراعى الغنم من المعز فيحمل المؤمنين عن يمينه ، والمجرمين عن شماله ، ثم يعاتبهم ، ويؤمن كل طائفة بمثل ما قدموا في دنياهم » (٣) •

واذا أوجبتم أن الله لا مفطور ولا مدرك بحاسة • فقد وجب : أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس مع اقراركم أن ربكم قال « **ترون**

(٢) الفجر : ٢٢

(١) الاعراف : ١٢

(٣) النص : « ومتى جاء ابن الانسان في مجده ، وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس على كرسي مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب ، فيميز بعضهم من بعض • كما يميز الراعى الخراف من الجداء • فيقيم الخراف عن يمينه ، والجداء عن اليسار • الخ » (متى : ٢٥ : ٣١ - ٣٣) والمراد بابن الانسان في هذا النص : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما سنتبين • وكما بينا •

ربكم ، ولا تضامون في رؤية القمر ليلة البدر » أو لم تتكروا أن يكون المسيح الذي كان واسطاً للوعظ • أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر ، وإلى الله ترجع الأمور » (١) ٥٠ هـ •

الجواب عما ذكره : اعلم يا هذا المتكلف في بغيته ، المتعسف في تأويل دينه • أنك قلت في هذا الفصل من الباطل والكفر مالا حجة له ، ولا أصل ، خالفت فيه دين النصارى المتقدمين ، ولم تعرج على مذاهب القسيسيين • بل رغبت عن ملة أئمتك للـ « مطارين » فوجب على أهل ملتك أن يعدوك في الخارجيين • ومن الجهال المبتدعين •

وذلك أنك زعمت أن الذي قال لموسى « أنا الله • لا اله إلا أنا • فاعبدنى » إنما كان الصدى ، ولم يكن الله تعالى ، وزعمت أن موسى اعترف للصدى بالربوبية وأنه هو الذى كلم موسى ، وإياه حارب ، وعنه تحمل الرسالة حتى أتى فرعون • وأن ذلك الصدى قام عند موسى مقام خالقه ، فسماه الها ، وزعمت أن موسى سجد لذلك الصدى ، وأنه هو الذى سأل موسى رؤيته ، ولذلك زعمت أن موسى قال للصدى : « **تبت إليك • وأنا أول المؤمنين** » فإذا كان هذا كله للصدى ، فلا حاجة لموسى ، ولا لأحد الى الله تعالى • فإنه لم يقل « لا اله ، إلا أنا » ، وإنما قالها الصدى • والصدى صادق بزعمك ، فقد بطلت الهية الله تعالى • وثبتت الهية الصدى •

وإذا كان كذلك فلم لا تعبدون هذا الصدى ، الذى عبده موسى ، وسجد له ، وتاب له بعد أن اعترف بربوبيته • وما بال جبقوق النبى لم يعبد هذا الصدى كما عبده موسى ولم يذكره ، ولم يعترف بربوبيته • وكذلك ما بال حزقيال لم يعبد هذا الصدى ، كما عبده موسى ، ولم يذكره • ولم يعترف بربوبيته •

وكذلك أشعياء ويحيى وعيسى وغيرهم من الأنبياء • والحواريون ما بائهم لم يعبدوا ما عبد موسى ، وسجد له واعترف بربوبيته ، وأنه لا رب سواه ، فهؤلاء الأنبياء ، والأولياء • أما أن يكونوا علموا : أنه لا اله إلا الصدى ، كما قال الصدى بزعمك ، أو جهلوا ذلك • فان كانوا

علموا فلأى شيء لم يعترفوا بذلك ، وسكتوا عنه اذ لم يصح قط عن واحد منهم أنه قال : لا اله لكم الا الصدى ، فيلزمكم أن يكون سكوتهم عن ذلك . اما عن جحد أو تلبيس . فان كانوا علموا الحق فجحدوه فذلك كفر منهم ، وهم — صلى الله عليهم أجمعين — مبرأون عن ذلك ، منزهون . ولو كان ذلك لاستحال أن يظهر عليهم من الآيات شيء مما ظهر . وان كان سكوتهم عن تلبيس . فان جاز عليهم التلبيس في مثل هذا جاز عليهم التلبيس في كل ما أخبروا به من الشرائع . اذ كل الشرائع والأحكام تحتقره ، بالإضافة الى معرفة الربوبية . وان كانوا جهلوا ذلك . فكيف علمت أنت يا أحق ما جهله الأنبياء والأولياء ؟

فان كانوا تكلموا بذلك ، وقالوا به . ففى أى سفر من أسفار التوراة هو أن موسى أخبر : أن : الله لا اله له ولا لكم الا الصدى . وأن الصدى أرسله الى فرعون ، وأنه اله . فان كان ما تدعيه حقا فائت بالتوراة فائت بها . ان كنت من الصادقين . وفى أى كتاب من كتب الأنبياء جاء مثل ذلك ؟ أمى كتاب حبقوق ؟ أو فى كتاب حزقيال ؟ أو فى كتاب أشعيا ؟ أو فى كتاب دانيال ؟ أو فى انجيل لوقا ؟ أو فى انجيل متاؤوس ؟ أو فى انجيل ماركس ؟ أو فى انجيل يوحنا ؟ أو فى مصحف الاعلان ؟ أو فى أى كتاب من رسائل الحواريين وجد مثل ذلك ؟

هل وقع شيء منه هنالك ؟ وهذه الكتب التى ترجعون اليها . وتقولون عليها ، اذا لم يوجد فيها شيء مما ذكرت ، علم من حالك أنك على الله ورسله كذبت ، وافتريت . « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين « (١) .

بل قد تواردت الرسل على الأخبار بالقواطع التى لا تجهل بأن الله اله واحد . وأنه ليس له فى ألوهيته ، شبيه ولا مضاد . واذا تبين بهذا أنك كفرت ، وأن الله ربك بسببت ، وعلى رسله كذبت . وأنك من جميع الملل خرجت . تعين على اليهود والنصارى أن يشتهروا فى أمرك ، ويأتروا فى حرقك ، أو نحرك « ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله بمن واق » (٢)

ثم نقول : هذا الصدى الذى وصفت ، وهو اله عندك — كما زعمت — أهو الله تعالى رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ؟ أم اله غيره ؟ فان كان هو الله تعالى ، فلم سميته الصدى ؟ ولم جعلته واسطا بين نفسه وبين خلقه ؟ وهل هذا الا محال ، فانه لا يتصور فى العقل واسط ، لا بين اثنين ، ويكون الواسط ثالثا •

ثم يلزمك على هذا أن تجعل ذات البارى ، الرب تعالى صوتا حادثا • فان ذلك الصدى عندكم حادث ، وهذا كله محال بضرورة العقل • وان قلت : انه غيره • فيلزم أن يكون ذلك الصدى هو المتكلم عن نفسه ، والمخبر بحقيقته • فاذا سمعه موسى يقول : « أنا الله • لا اله الا أنا » فاما أن يخبر عن نفسه ، أو عن رب العالمين • فان أخبر عن نفسه فهو كاذب ، فان الرب تعالى يكون الها آخر وان أخبر عن الرب • فلأى شيء قلت : انه اله • وأن موسى اعترف له بالربوبية ، وسجد له • بل الاله الحق رب العالمين ، والصدى ليس باله ، ولا رب •

فقولك « اعترف موسى بربوبيته ، وعبدته » باطل بالضرورة • ثم نقول : هب ان ذلك الصدى هو المتكلم عن الله ، وأنه اله • فهل يقدر الله تعالى على أن يتكلم ، ويخبر عن أرادته بغير ذلك الصدى • فان قلت : لا • فذلك تعجيز لله تعالى ، وهو القادر على كل شيء ، ويلزم عليه أيضا : أن يكون محتاجا لذلك الصدى ، وكل من كان محتاجا فهو ناقص معيب • وليس بغنى ، والله تعالى هو الغنى عن كل الموجودات ، وليس لشيء من الموجودات عنه غنى • وان كان قادرا على أن يسمع كلامه بغير واسطة فلعل موسى سمعه بغير واسطة • واذا جاز أن تسقط الواسطة انهدم كل ما رمت ببناءه ، على أننا قد كنا هدمناه أولا فى أوحى لحظة ، بأيسر نفخة • وانما أردنا أن نبين لك ، ولكل من وقف على كلامك بعض ما يلزمك ، وأنت لم تشعر بشيء من ذلك ، ولولا خشية التطويل ، لأوردت عليك من النقوض واللوازم ما يتعجب منه كل حبر نبيل •

ثم نقول : هب أنا نسلم جدلا : أن الله تعالى تكلم مع موسى بواسطة الصدى • فلم قلت ان عيسى مثل الصدى ؟ أعنى أنه واسطة ، كما أن ذلك الصدى واسطة • وما الذى دلل على ذلك ؟ ولأى شيء سويت بينهما ؟ والفرق بينهما ظاهر • وذلك أن الصدى الذى زعمت أن موسى سمعه انما سمعه موسى بعد أن احتجب له بالنار كما زعمت ، والنار جماد •

وإذا قام بالجماد صوت يفهم منه « أنا الله ، لا اله الا أنا » فيمكن أن يعقل هنا غلط مثلك ، أن المتكلم بذلك الصوت اما غير الجماد لاستحالة الالهية عن الجماد . واما حيوان ممكن أن يتوهم فيه أنه اله ، كما توهمتم أنتم في ذلك . ولا يصح ذلك في الله ، لأنه اذا قال « لا اله الا أنا » فعن نفسه يخبر ، واليه يرجع حكم خبره ، بخلاف الجماد . فكيف قست أحد الواسطين على الآخر ، وليس في معناه ، ولو أردنا تطويل الكلام لمذكرنا فروقا آخر تمنع بمقايضة النار بالبشر .

وأما قولك « ان عيسى عليه السلام قال : « أنا الله » وأن الحواريين صدقوه في ذلك » فكذب صراح ، وافك بواح . فانه لم يرووا عنه عليه السلام في ذلك أقوال بوجه صحيح ، ولا بنص صريح ، بل الذي صح منه ، ونقل بالتواتر عنه أنه كان يقول : « اعبدوا الله ، الذي لا اله الا هو » وأناجيلكم تشهد بذلك عليكم .

ثم نقول : لو ثبت أن عيسى قال ذلك اللفظ بعينه ، فمن الممكن سوغ حمله على محمل قوييم في العقول غير مخالف للمنقول ، وهو أن عيسى عليه السلام كان محبا لله تعالى مشتهرا في محبته ، ومن عادة المشغوف بشيء ، المشتهر به : أن يستحضر ذلك الشيء المشتهر فيه في قلب ، ويجعله نصب عينيه ، حتى لا يلاحظ شيئا سواه ، بل ربما ينتهي ذلك به الى أن يذهل عن نفسه ، ويغيب عن حسه . ففي مثل تلك الحالة ، يظن المشتهر بأن الشيء الذي شغف به : هو ، هو . حتى يقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وكذلك قال الآخر :

فكل شيء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه ظنه الساقى

وكذلك عيسى عليه السلام لما انكشف له من سلطان الحقيقة أمرها غاب عن نفسه ، وفنى عن حسه ، لما شاهد من جمال الربوبية ، والحضرة الالهية ، فذهل عن كل ما سوى الله . فقال « أنا الله » وهذه أمور عجيبة ، وأذواق غريبة ، لا يدركها الا من اختاره الله من خلقه ، واصطفاه بحضرته .

فـ « ليس بعشك . فادرج » .

وأما قولك لنا : « قد أوجبتم أن الخليقة لا تدرك الخالق الا بجسم مخلوق ، تتخذه وتجعله واسطة بينه وبين من خاطب من الأنبياء » فقول باطل علينا ، فاسد لدينا ، فانا قد أحلنا تلك « الواسطة » فيما تقدم بوجوه متعددة ، وقد حكمنا بتكفير من أثبت واسطا ، على نحو ما زعمت ، ولا أعلم أن أحدا من المسلمين قال شيئا من ذلك ، بل ولا من أهل الملل غيرك •

ثم نقول : هذا الواسط الذى زعمت لا يخلو أن يدرك الله تعالى ، أعنى يعرفه ويسمع كلامه أو لا يدرك ؟ فان قلتم لا يدرك فقد شهدتم على أنفسكم : أن الواسط ليس بالله اذ الاله لا بد أن يكون دراكا ، ويلزمكم على ذلك أن يكون عيسى لا يعرف الله تعالى ، ولا يسمع كلامه ، وهو محال ..

وان قلتم انه يدرك الله تعالى • فهل يدركه بواسطة ، أو بغير واسطة ؟ فان أدركه بواسطة أخرى فالكلام فى تلك الواسطة كالكلام فى الأولى ، ويلزم التسلسل • وان أدركه بغير واسطة ، فيجوز لنا نحن أن ندركه بغير واسطة • وفى هذا ابطال ما ذكرت من اثبات الواسطة الذى ذكرت أن المسلم قد اضطر اليه •

وأما قولك « انما أوجبتم علينا الشرك فى قولنا بواسطة • فاذن الحق والعقل لا يعيب الواسط » فلنعلم أنا لم نوجب عليك الشرك من حيث الواسط فقط ، بل من حيث أثبت واسطا الهيا • وذلك أنك زعمت أن الصدى قال لموسى مخبرا عن نفسه : « أنا الله ، لا اله الا أنا • فاعبدنى » واعترف له موسى بالربوبية ، وتحمل عنه الرسالة وعبده وسجد له • فهذا اثبات اله غير الله • وكذلك قلتم فى المسيح أنه قال « أنا الله » واعترف الحواريون له بالربوبية ، فهذان الهان • ثم ان الأتانيم ثلاثة آلهة ، فصارت آلهتكم خمسة ، فيا ليت شعرى هذه الآلهة الخمسة هل اشتركوا فى ايجاد الموجودات ، واختراع الكائنات ، أو انفرد بها أحدهم ؟ فان كان قد انفرد بها أحدهم فهو الاله الحق الواحد الفرد ، وان كانوا قد اشتركوا وتعاونوا على خلق المخلوقات فلا معنى للشرك الا هذا ، ويلزم على تقدير اجتماعهم وتوافقهم على الخلق : أن يكون كل واحد منهم مضطرا الى مساعدة الآخر ، وكل مضطر ناقص ، والناقص ليس بالله • وان قدرنا اختلافهم فى الخلق بحيث يريد أحدهم أن يخلق ، ويريد الآخر أن لا يخلق فيؤدى ذلك الى أن لا يخلق أحدهم

ثميناً • فلا يوجد الخلق • وقد وجد الخلق فدل ذلك على أن الاله واحد
لا شريك له • ولا اله غيره •

ثم نقول : عباد الأصنام والأوثان أشبه حالا منكم ، لانهم في
عباداتهم انما كانوا يعبدون أصنامهم ليقربوهم الى الله زلفى ، وأنتم انما
تعبدون هذه الآلهة لأنها أرباب من دون الله متقربون منها ، وهذه
جهالات بينة ، وضلالات ظاهرة ، عميت عنها بصائرکم فأفطرت عليها
قلوبكم ، وأعجب من ذلك كله قولك « العقل والحق لا يعيب الواسط »
أما من قال هذا فقد خرج عن غريزة العقل وتارة وقع في مفازة الجهل ،
فان العقل الصريح يشهد بضرورته بإبطال الواسطة • وأما الحق فهذه
كتب الأنبياء بين أيدينا وأيديكم • ففي أى كتاب منها : أن الآلهة خمسة ؟
انها تدل كلها على أن الاله واحد ، ولا ولد له ، ولا والد « وما ينبغى
للرحمن أن يتخذ ولدا • ان كل من في السموات والأرض الا آتى
الرحمن عبداً » (١) وستقدم فتعلم ، وأنت قد اضطربت في هذا الفصل ،
ولم يثبت لك فيه فرع ولا أصل ، والكثير مع من لا يعقل عمل من
لا يحصل •

وأما قولك « وأنتم لما أوجبتكم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة ،
أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها » فقد كان ينبغي لك
ألا تحتج بشيء لم يثبت عندك أصله ، ولا تصدق بنقله ، ثم لا حجة
لك في شيء مما ذكرته ، وذلك أن محاسبة الله تعالى للعباد في الدار
الآخرة مما يجب الايمان بها ، ومما قد تواردت عليه الشرائع ، اما بالتصريح
واما بالايماءات والتلويح •

وذلك يكون ولا بد ، ولأجل مجازاة العباد بأعمالهم في الدار
الآخرة : خلق الله الخلق وبسط الرزق وأرسل الرسل وأنزل الكتب
« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً • وأنكم اليانا لا ترجعون » (٢) ومحاسبة
الله للخلق تكون على وجوه جائزة في العقل وارادة في النقل ، لا تحتاج
الى شيء مما تخيلته •

منها • أن العبد يوقف في موضع الفصل والقضاء ، فيعطى كتاباً
أحصيت فيه أعماله ، ويقال له : « اقرأ كتابك • كفى بنفسك اليوم عليك

حسبياً» (١) فاذا وقف عليها ، علم أن المكتوب فيها هو أعماله • فان كان سعيدا • قال « هاؤم اقرأوا كتابيه • انى ظننت أنى ملاق حسابيه • فهو فى عيشة راضية • فى جنة عالية • قطوفها دانية » فعند ذلك يقال لهم : « كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » (٢) وان كان شقيا فيقول : « يا ليتنى لم أوت كتابيه • ولم أدر ما حسابيه • يا ليتها كانت القاضية • ما أغنى عنى ماله ، هلك عنى سلطانيه » (٣) •

فعند ذلك يقال للملائكة : « خذوه ففلوه • ثم الجحيم صلوه • ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » (٤) •

فهذا وجه من وجوه المحاسبة لا تحتاج معه الى اثبات « واسط » ويمكن أن يكون هنالك وجوه ممكنة فى المحاسبة ، ليس هذا موضع ذكرها ، ولا أنت أهل لفهمها ، لا تحتاج فى شىء منها الى ما رمت من الوساطة • فكأننى والله بك — ان مت على ما أنت عليه — يؤخذ بناصيتك وقدمك ، وتحيط بك ملائكة ربك « ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (٥) •

فتنادى فتقول : « يا عيسى ، يا سيدى ، يا الهى ، يا ولد الله » • فبيّء لك : « كذبت ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، ولست بالله ، ولم أقل لك كذلك ولا أبلغتك ذلك • وانما بلغتك أن لا اله الا هو ، وحده لا شريك له » • فكيف ترى خجلتك بين يديه ، وحيرتك اذا طلبت فى نفسك جوابا تردده عليه ؟ فذلك المقام • لا ينفعك فيه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، الا ما قدمت يداك ، من حسن ايمان ، وصالح عمل ، وسعادة قضت لك بها سابقة الأزل •

فان الملائكة والنبیین لا يشفعون الا لمن ارتضى رب العالمين •

فالله • الله • انظر فى خلاص نفسك لتجتنبى ثمار غرسك •

وأما قولك « يقول قرآنكم : « وجاء ربك والملك صفا صفا » (٦) »

(٢) الحاقة : ١٩ — ٢٤

(٤) الحاقة : ٣٠ — ٣٢

(٦) الفجر : ٢٢

(١) الاسراء : ١٤

(٣) الحاقة : ٢٥ — ٢٩

(٥) التحريم : ٦

فهلست لها ، فما شأنك وإياها ، أنت لا تعرف لسان من خطوب بها ،
ولا تعرف مضمونها • فكيف يمكنك الاستدلال بها ، والتطواف حولها ؟
وأنت عرى عن الشرط الذى به يعرف معناها ، ويفهم فحواها ، وليس
مفهومها عند من خطوب بها من العرب الفصحاء ، البلغاء على شئ مما
ذكرت ، ولا يقرب مما توهمت ، بل معناها عندهم لا تخالفه العقول ،
ولا يخرج عن أسلوب لسان العرب المنقول وانما أكره أن أشفهك
به لأنك فاقد شرطه • فان كنت ممن ينور الله بصيرته ، ويحسن سريرته ،
شرعت فى أن تتعلم ، ويجب علينا أن نفهمك حتى ان شاء الله تفهم •

وأما قولك « فى الانجيل يقعد ابن الانسان فى مجلس عظمته ،
وتقدم جميع الأمم بين يديه ، ويميزهم كما يميز الراعى الغنم » فنقول :
آمنا بالله ، وملائكته وكتبه ورسله ، ومع ذلك فنعلم على القطع
والثبات أن كل أمة تدعى يوم القيامة بآمامها ، وتتادى بمعبودها ،
وأنبيائها • فيتبع كل من كان يعبد الشمس ، الشمس ، ويتبع كل من كان
يعبد الطواغيت : الطواغيت •

وإذا كان ذلك فلا بد لعيسى أن يجمع له كلا من لزمه اتباع شرعه ،
فحينئذ يميزهم كما يميز الراعى الغنم • فمن آمن به وانتبه على النحو
الذى رسم له فهو من الفائزين ، ومن اعتقد فيه أنه اله ، أو ابن اله •
فالنار مأواه بعد أن يتبرأ عيسى من دعواه •

وأما قولك « وإذا أوجبتكم أن الله لا مفطور ، ولا مدرك بحاسة ،
فقد وجب أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس » فهذا لا يلزم منه شئ
مما ذكرت • فانا اذا قلنا : ان الله تعالى ليس مدركا بالحواس فانما نريد
به أن الله ليس مدركا بالحواس كما تدرك الأجسام والألوان فيكون
محاطا به ، فيكون ذا حدود وأقطار وذلك محال •

وإذا قلنا : ان الله تعالى يرى فى الدار الآخرة ، انما نريد به أن
الله تعالى يخلق لنا ادراكا آخر لا تناسب حاله حالة ادراك الأجسام ،
ولا الألوان • فان الادراكات مختلفة باختلاف متعلقاتها ، وذلك ادراك
خاص • له حكم نفسه ، لم يذق منه ذوقا فى هذه الدار • فانه انما يكرم
الله به أوليائه وأصفياه يوم القيامة •

وإذا أنعم الله تعالى على وليه بذلك الإدراك المعبر عنه بالرؤية ،
خلق له من اللذة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب
بشر . فان أنكرت أن يرى ما ليس بجسم ، ولا لون فلتتكر أن يعلم
موجودا ليس بجسم ولا عرض . وان زعمت أن الرؤية غير جائزة عقلا .
فقد جهلت موسى حيث سأل الله ما يستحيل عليه . فكيف جهل موسى
من وصف الله ما علمه جاهل مثلك ؟

وأما استشهادك بحديث نبينا عليه السلام على رؤية ذى الجلال
والاكرام . فأنت ممنوع منه لأعراضك عنه ، وهو من عمدنا على اثبات
رؤية الله تعالى في الدار الآخرة لكوننا عالمين بحقه ، ودليل صدقه .

ثم انك نقلت ذلك الحديث فأجحفت ، وبالمعنى أخللت ، وانما
صوابه : « انكم ترون ربكم ، ولا تضاهون في رؤيته ، الا كما تضاهون
في رؤية القمر ليلة البدر » وهذا لا حجة لك فيه . فانا نقول : ان الله
تعالى هو المرئى لا غيره بالأبصار في الدار الآخرة على ما تقدم . وأنتم
تقولون : ان المرئى الواسطة . وهذا الحديث يعرف معانيه أهله ، وهم
الذين يصدقون برسالة من هو قوله ، فلا تطمع في معرفته ، فانك لست
أهلا لدرايته .

وأما قولك « لم تتكروا أن يكون المسيح الذى كان واسطا للوعظ ،
أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم « هل ينظرون الا أن
يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة » (١) فكيف لا ننكر ذلك ولم يدل
على وقوعه دليل عقل ، ولا صحيح نقل ؟ وليس معنى الايتين في هذه
الآية الا كالمجئ في الآية المتقدمة ، وكلاهما ليس المراد به : المجئ
الذى هو نقل الأقدام . بل المجئ والايتين لهما معان آخر يعرفها
العرب المؤمنون .

وهذه الآية فيها محذوف تفسره آية أخرى . تقديره : هل ينظرون
الا أن يأتيهم أمر الله . كما قال تعالى في آية أخرى : « هل ينظرون
الا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي أمر ربك » (٢) فقد ذكر في هذه الآية
ما حذف هنالك . وهذا على المعروف في لسان العرب من حذف المضاف ،

واقامة المضاف اليه مقامه ، وكذلك الكلام على الآية الأولى . وهذا لا خفاء
به عند البصير بلسان العرب ، فانها تستعمل الحذف والاضمار والمجاز
والاختصار . ثم مالك وكتابتنا ، ولأى شئ تتشد ضالتنا . « دعها »
معها جذاؤها ، وسقاؤها . ترد الماء ، وتأكّل الشجر ، حتى يلقاها :
ربها » .

ألق السلاح فلست من أكفائنا واقعد مكانك بالحضيض الأسفل

ثم نقول : من عجيب أمر هذا السائل : أنه لا يصلح أن ينسب
لقلد . ولا ناقل . وذلك أن هذا المذهب الذي أبداه من اتخذ الله :
واسطة « صوت الصدى » انما حمّله عليه ، تقليده لكتاب « أغشتين » .

وذلك أنه أشار في « مصحف العالم الكائن » الى نحو مما ذكره
هذا السائل ، ولعله وقف عليه ، ولم يفهمه صحيحا ، ولا أورده فصيحاً ،
بل زاد عليه كلاماً فاحشاً قبيحاً . وأنا ان شاء الله تعالى أذكر كلام
« أغشتين » في الفصل الذي بعد هذا وأبين فيه أنه ليس كما فهمه
هذا السائل ، ثم أعطف على « أغشتين » بتبيين فساد مذهبه ، وأوضح
أنه غير مصيب في مطلبه ، وأحقق فيه : أن « أغشتين » مخالف لغيره من
القسيسين .

* * *

في حكاية كلام المنفتحين

لتعلم أيها الناظر في هذا الباب : أن النصارى قد كثر اختلافهم ، وعظم خبطهم وارتباكهم فلا هم يستقرون فيه على قدم ، ولا يمشون منه على طريق أمم ، فقليل منهم من نفى الاتحاد والحلول ، ولم يقل بشيء من ذلك ، وهم طائفة متقدمة يعرفون بـ (الأرؤسية) ولا يكاد مذهبهم يخالف مذهب المسلمين الا في انكارهم نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وجمهورهم على القول به واثباته .

ثم المثبتون له . منهم من قال : لا يقال فيه بـ « كيف » ؟ ولا يسأل عنه بحرف ومنهم من شرع في بيان كيفيته وتفسير ماهيته . فصارت اليعقوبية والنسطورية الى أن الكلمة خالطت جسد المسيح ومازجته كما يمازج الخمر اللبن . والى نحو هذا ذهب الروم ، وزادوا عليهم . فقالوا : اختلطت الكلمة بالمسيح فصارا شيئا واحدا .

ولقد حكى من كلام اليعقوبية : ما يدل على توقحهم ، وجراتهم على الله تعالى . وذلك أنهم قالوا : ان الله نزل فدخل في بطن مريم ، فاتخذ من لحمها جسدا فصار الله مع الجسد نفسا واحدا .

وربما أطلق بعضهم القول بأن الله اتخذ ذلك اللحم والدم فزاده في نفسه ، فصار ذلك اللحم : الله . وصار معظم اليعاقبة : الى أن الكلمة انتقلت لحما ودما .

وأما النسطورية : فقالوا ليست تلك النفس هي الله . وانما هي بعضه . وهذا هو البهتان ، الذي يعلم بطلانه بالضرورة كل انسان .

وصارت طائفة من النصارى : الى أن الكلمة حلت جسد المسيح ، كما يحل العرض محله . وصار أخلاط من النصارى : الى أن المراد

بالاتحاد : ظهور اللاهوت على الناسوت . وربما عبروا له عن ذلك
بالفيض .

ثم اختلفوا في تمثيل ذلك على ثلاثة أوجه . فمنهم : من قال مثاله
ما ينطبع في الأجسام الصقلية من الأشياء التي تقابلها . ومنهم من قال
مثاله : الطابع المنقوش اذا اتصل بشمع وما يضايه ، فيظهر نقش
الطابع عليه ، وان لم يحلله شيء من الطابع . ومنهم من قال : معنى
ظهور اللاهوت على المسيح ، كمعنى استواء الاله على العرش ، عند
الاسلاميين ، مع مصيرهم الى استحالة المماسه .

وربما يعبرون عن الاتحاد بالتدرع . كأنهم أخذوا ذلك من لفظ
الدرع يشيرون الى أن اللاهوت اتخذ ناسوت المسيح درعا .
هذه مذاهب المستهزين من طوائفهم .

وأما اختلاف آحادهم فمما لا يكاد ينضبط ، ولا يرتبط . ومن أراد
الوقوف على شيء من ذلك فليطالع كتاب « المسائل » لهم . ففيه يرى
تحييرهم وخبطهم .

ونفرد بعد هذا ان شاء الله : بابا . نذكر فيه كلام « أغشتين »
فان مذهبه في الاتحاد مخالف لمذهب من تقدم ذكره من الفرق ،
والقسيسيين .

الجواب عن كلامهم . أما من حكى عنه : نفى الاتحاد . فقد قال
بالحق . وأتى بالمراد .

وأما من أثبته ، وقال : ان الاتحاد لا يسأل عنه . ولا يكيف .
فنقول : معنى الاتحاد لا يخلو أن تعرفه أو لا تعرفه . فان لم يعرفه
فقد اعترف بجهله ، وناقض متقدم قوله ، فانه اعترف بالاتحاد ، وادعى
ثبوته للمسيح وحده ، ثم لما طوبى بثنبيته . قال : لا أعرفه . وهذا
تناقض ، وقول باطل . وأما من قال : أعرفه ، الا أنني يقصر عن ادراك
حقيقته عقلي ، ولا أقدر على العبارة عنه . وهذا كما قلتم أنتم في جوابكم
عن كيفية سماع موسى كلام الله تعالى ، حيث قلتم : انه لا يسأل عنه
بكيف ، فانه ظلم وحيف . فنقول : أما قولك : أعرفه ، الا أنه يقصر عقلي

عن ادراك حقيقته ، فمتناقض أيضا ، لأن كل معروف ، لابد أن يرتسم في العقل ، ويحصل فيه على الوجه الذى يكون معروفا منه • فاما على الجملة ، واما على التفصيل ، وما لم يرتسم في العقل ، لا جملة ولا تفصيلا ، فليس بمعلوم • وأنت اذا ادعيت أنك عالم بالاتحاد • فلا بد أن تكون عالما به ، اما على الجملة ، أو على التفصيل • وكيفما كان فلا بد لك من أن تعبر عن معلومك ، على أى وجه كان • والا فأنت جاهل بالاتحاد • ومن جهله كافر عندكم • وأما تشبيهك هذا بكيفية سماع موسى ، فليس بصحيح • لأننا مهما قيل لنا : كيف سمع موسى كلام الله فانما نسأل عن أمر لم نعلمه : علم ذوق ، وعن تفصيل ما لم نعلمه : تفصيلا • بل علمناه على الجملة ••

ولذلك أجبنا بقولنا : ان الله تعالى خلق له ادراكا سمع به كلام الله تعالى الذى هو وصفه ، الذى ليس بحرف ولا صوت ، ففهمنا الادراك على الجملة ، ولم نفهمه على التفصيل ، وأنت لم تعرف الاتحاد جملة ولا تفصيلا ، بل جهلت وادعيت ، أنك علمت •

ف « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (١) •

وأما من قال : ان الكلمة خالطت جسم المسيح ، ومازجته مازجة الخمر اللبن ، فكلام فاسد ، قائله للعقل فاقد • وذلك أن المفهوم من المخالطة والمازجة لا يتصور الا في الجواهر المتحدات • وذلك أن المخالطة انما يعبر بها عن تجاوز الجواهر ، واجتماعها بحيث يكون كل واحد من الجواهر المتمازجة يحفظ حيزه ويشغله ، ويمنع منه غيره •

ولذلك اذا أفرغت اناء ماء ، على اناء لبن مثلا ، وتمازجا كثر اللبن ، وصار لا ييسعه بعد المازجة ما كان ، والعلم ليس بجوهر ، فاستحال عليه الاختلاط ، والامتزاج بالضرورة •

فان أرادوا بالامتزاج والاختلاط أمرا آخر ، فلا بد من بيانه ، وافادة تصويره ولا يتكلم على الشئ ردا وقبولا الا بعد كونه معقولا • ولو سلمنا المازجة جدلا ، للزم عليها ، أنواع من المحالات ، منها : قيام الصفة بنفسها ، وانتقالها ، وبقاء جوهر الله تعالى عريا عنها — على قولهم — والعري عن العلم جاهل • والجهل على الله محال ، ويلزم على

ذلك : أن لا يكون العلم أزليا ، بل حادثا مخلوقا ، وأن حاله تغيرت وبعد
أن لم يكن مختلطا ممتزجا : مختلطا •

وهذان أمران حادثان ، ولا يخلو عن أحدهما • وما لا يخلو عن
الحوادث حادث • على ما يعرف في موضعه • وهذه أمور باطلة • فاللفظ
اليها باطل ، وهو الاختلاط •

وأما من قال بالحلول • فليس له محصول ، ولا معقول • لأن حقيقة
الحلول انما هي : أن يحصل جسم أو متحيز في شيء ، أو على شيء ،
فيسمى الحاصل : حالا • والمحصل فيه : يسمى محلا • وتسمى النسبة
بينهما : حلولا — وهو الذي يسميه النحوى مصدرا — هذا هو المفهوم
من حقيقة الحلول •

وقد يتوسع فيه فيقال : حل العرض في محله • ومعناه : صار
المحل متصفا به ، وصار العرض قائما به ، وموجودا فيه •

فان أردتم حقيقة الحلول كان محالا • فان العلم ليس بجسم ولا
جوهري • على ما مر •

وان أردتم الثاني فهو محال أيضا لأنه يلزم عليه مفارقة العلم
الجوهري ، وبقاؤه جاهلا • ويقوم عرض واحد بمحلين • في زمان واحد ،
ويلزم عليه انتقال الصفة من محل الى محل • وحدوثها الى أنواع من
المحالات ، لا يبيء بها عاقل ، ومنتحلها أحق جاهل •

وقد صرحوا بأنهم أرادوا بالحلول : حلول الجوهر في العرض •
وقد صرحنا نحن بما يلزمهم من المحالات على ذلك • وبيناه والحمد لله •

ثم نقول لهم بعد ذلك في قولهم بالاختلاط ، وبأنهما صارا شيئا
واحدا : لا يخلو أن حين اختلطا ، اما أن يبقى العلم موجودا بحاله ،
والجوهري موجودا بحاله ، أم ينعدم أحدهما • أو ينعدم معا •

محال • أن يبقيا موجودين بحاليهما ، مع فرض الاختلاط ، وكونهما
شيئا واحدا • فان الواحد لا يعود اثنين الا بإضافة غيره اليه • واذا
أضيف غيره اليه ، ارتفعت الوحدة بالضرورة ، على ما تقدم في التثليث •
وكذلك الاثنان لا يعودان واحدا الا اذا انعدم أحدهما ، فترتفع

الانثينية بالضرورة ، ومحال أن ينعدم ، فانه يؤدي الى عدم القديم ،
والى عدم ما هو موجود فى حالة وجوده ، فلم يبق الا أن ينعدم
أحدهما دون الآخر ، وذلك محال . فان الموجود لا يخالط المعدوم .
ولا يمازجه ، بل يبقى الواحد واحدا .

واذا بطلت هذه الأقسام المنحصرة بطل الامتزاج والاختلاط ،
ومصير الاثنين واحدا على ما قالوه .

وأما من قال : ان الكلمة انقلبت لحما ودما ، فلقد ارتكب حماقة ،
والتزم عمى ، يلزمه عليه جواز عكس مذهبه . وهو أن ينقلب اللحم
والدم علما ، والقديم حادثا ، والحادث قديما الى غير ذلك من الحالات
التي لا تصدر عن من شد : أطرافا من المعقولات ، ولولا الحق
والتقليدات ، لما وجد مثل هذه الفواقر فى كلام أحد من المخلوقات .

وأما من قال : ان الاتحاد هو ظهور وفيض ، ومثله بانطباع الصورة
فى المرآة فهذا المثال انما كان يصح ، لو كان العلم صورة محسوسة
بالبصر ، ويكون جسد المسيح صقيلا تنطبع فيه صورة المقابلات . وكل
ذلك معدوم فى مسألتنا بالضرورة . فتخيله فاسد ، وباطل بالضرورة ،
فكما لا تتمثل ذات الحياة ، والادراكات فى المرآة كذلك لا تتمثل الكلمة
فى جسد المسيح .

ثم ان جاز انطباع علم الله فى جسد البشرى ، فليتنطبع فى كل
ما يشبهه فى الجسدية ، وسيأتى لهذا مزيد بيان . وفيما تقدم ما يبين
فساده واستحالته .

وأما التمثيل بنقش الخاتم يعود منحفرا فى الشمع ، والمنحفر
فى الخاتم يعود ناتئا فى الشمع ، فذلك لا يتصور الا فى الأجسام . وان
جاز فى غير الأجسام فيلزم أن يكون كل واحد منهما ، أعنى اللاهوت
والناسوت يؤثر فى الآخر ، ويحل فيه ، فيكون الناسوت حل فى
اللاهوت . وذلك محال عند كل فريق . والأمر الثانى : أن النقش
فى الخاتم يوضع مقلوب الكلمات ، ثم تنطبع مستقيمة فى الشمع ،
ولو وضعت فى الخاتم مستقيمة لانطبع فى الشمع منعكسة . فيلزم
على مساق هذا المثال : أن تنطبع الكلمة فى الناسوت . اما بالاستقامة

أو بالعكس • فان انطبعت فيه بالاستقامة فأقنوم الكلمة في الجوهر
بالانعكاس • وان انطبعت فيه بالانعكاس فلم تبقى الكلمة في الناسوت
على حقيقتها في اللاهوت • بل هي منعكسة فلا تبقى حقيقة العلم على
ما كانت ، بل هي ليس بعلم • وهذا كله مما يلزم على آرائهم الفاسدة ،
وتحكماتهم الباردة •

وأما من لبس منهم ، بأن مثل قولهم في الاتحاد ، بقولنا في استوائه
تعالى على العرش • فذلك مما لا يقال عليه عندنا اتحاد ، ولا حلول ،
ولا فيض ، ولا انطباع • لأننا نريد بقولنا هو على العرش مستو ،
واستوى على العرش : أن العرش تحت قبضته ، ومسخر بقدرته ،
والاستواء عليه ، انما هو بمعنى الاستيلاء على ما يعرفه العرب من
كلامها • فانها تقول :

قد استوى « بشر » على العراق بغير سيف ودم مهراق

فان أرادوا هذا المعنى فهو حق وصحيح ، لكنه لا يصح في حق
عيسى وحده ، فان الله تعالى مستول على عيسى ، وعلى غيره • وأما
من أطلق منهم لفظ النزوع فيستحيل على الحقيقة ، والتوسع • وذلك
أن هذا اللفظ يشعر بأن اللاهوت اتخذ الناسوت درعا ، أو كالدرع ،
وهذا كله مستحيل على الاله تبارك وتعالى ، وعلى علمه • وكل ما تقدم
من المحالات على هذا المذهب يلزم •

وعلى الجملة فهؤلاء القوم أغبياء جاهلون ، وعن التوفيق معزولون •
فهم عن العقولات معرضون • وبها مستهزون ، لا يستحيون من
خالقهم ، ولا يتأدبون مع مالكم ورازقهم • فسبحان الله عما يقول
الجاهلون ، وتعالى عما ينسبه اليه المبطلون • بل هو الله الواحد الأحد ،
الفرد الصمد ، الذي « لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » (١) •

ولولا ضرورة الحال ، ورجاء قمع أهل الضلال ، لما استجزت
حكاية مثل هذا المقال وأنا أستغفر الله ذا العظمة والجلال • انه ذو العفو
والافضال •

ولا بد مع ما تقدم : أن نطالبهم أجمعين ، بصحة الدليل الذى جعلهم على ذلك القول الغث الهجين ، حتى نتبين تحكمتهم ، وتظهر لكل أحد ترهاتهم •

فأقول لجميعهم : ما الذى حملكم على القول بالاتحاد ، والتورط فى الضلال والالحاد ؟ فلتعلم أنهم قد اختلفت مسالكهم فى ذلك • فمنهم من قال : انما قلنا بذلك تقليداً للانجيل ، وحذراً من المخالفة والتبديل كما قال هذا السائل • ومنهم من قال : انما قلنا بالاتحاد لأن عيسى ظهرت عليه أفعال لا تنبغى الا لاله ، من احياء الموتى ، وابراء الأكمه والأبرص ، وخلق الطير من الطين ، وهذه أفعال لا يقدر عليها الا اله ، وهو قد قدر عليها ، فهو اذن اله • ومنهم من قال : انما صرنا الى ذلك لمكون عيسى لم يخلق من الماء الدافق ، الكائن عن أبوة ، ولا خرج عن شهوة آدمية ، بل خلق الله ناسوته من غير أب ليكون واسطاً بينه وبين خلقه ، وليتخذ له كلمته • وربما قال بعضهم : ألسنتم تقرأون فى كتابكم : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها الى مريم ، وروح منه » (١) ؟ وهذا عين ما أنكرتم علينا من الاتحاد • فان عيسى رسول الله ، وكلمته • فناسوته : رسول الله ، ولاهوته : كلمة الله • على ما أخبر به كتابكم •

فنقول :

ان قال بذلك تقليداً للانجيل • جوابك قد تبين ، فيما تقدم • اذ قد تقدم أن فهم الاتحاد منه باليسوع باطل • وأن الصائر الى الاتحاد بعد الموقف على ما تقدم : معاند جاهل •

وأما من استدل منهم على ذلك بما ظهر على يدي المسيح من خوارق العادات • فنقول له : لأى شيء قلت : انها تدل على ألوهيته ، ولم تقل انها تدل على ما كان يستدل هو بها من رسالته ؟ فقال : « رب أعلم أنك تعطينى كل شيء • ولكن أقول من أجل الجماعة الواقفة ، ليؤمنوا به ، وليصدقوا أنك أرسلتنى » (٢) فهو قد استدل باحياء الموتى

(١) النساء : ١٧١

(٢) النص : « أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لى • وأنا علمت أنك فى كل

على رسالته ، وأنتم تستدلون بذلك على ألوهيته ، فيلزم من هذا الاستدلال : العدول عن شرع عيسى المنقول ، ومصادمة العقول •

ثم نقول لهم : كيف ينبغي لكم أن تقولوا هذه الأفعال العجيبة تدل على أنه : لا هوت ، وأنتم تعززون في كتبكم أن عيسى كان إذا أراد أن يفعل شيئاً مما ذكر تضرع الى الله ، ورغب اليه بخضوع وتذلل حتى يقضى الله حاجته • وهذا موجود في كتبكم • كثيراً فيها •

وكفى دليلاً على نفى ما تنسبونه اليه قوله حين صلبه بزعمكم : « الهى • الهى • لم أسلمتني » (١) ؟ وقوله قبل ذلك : « يا أبتاه • ان كانت هذه الكأس ، لا تقدرتجاوزنى ، حتى أشربها • فلتكن ارادتك » وهذا كله في سجوده •

وفي هذا الموطن قال : « يا أبتاه • ان كان ممكناً فلتذهب عني هذه الكأس » (٢) •

وفي انجيل ماركوش أنه قال في هذا المقام : « سيلقى ابن الانسان ما كتب له » (٣) ثم قال بعد ذلك : « يا أبتاه • انك قادر على جميع الأشياء ، فرج عني هذه الكأس » (٤) فهذا كله يدل دلالة لا شك فيها : أنه كان يفعل ما يفعل باذن الله • اذا اراده ، وأقدره عليه •

وأنه انما كان يتفق له ذلك : بعد أن يتضرع ويرغب لله تعالى • وربما كان يسأل أموراً لا يعطيها الله له ، لما سبق في علم الله أنها لا تكون •

منها : ما تقدم • حيث سأل الله أن يدفع عنه أمر الصلب والقتل فلم يجب لذلك على زعمكم • ومنها : أن اليهود كانت تطالبه بمثل بعض

(١) النص : « الهى الهى • لماذا تركتني » ؟ (متى ٢٧ : ٤٦) •

(٢) النص : « وكان يصلى قائلاً : « يا أبتاه • ان أمكن فلتعبر عني هذه الكأس • ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت » (متى ٢٦ : ٣٩) •

(٣) النص : « ان ابن الانسان ماض كما هو مكتوب عنه » (مرقس ١٤ : ٢١) •

(٤) النص : « وقال يا أبا الآب • كل شيء مستطاع لك • فأجز عني هذه الكأس » (مرقس ١٤ : ٣٦) •

معجزات موسى بن عمران ، فلا يجيبهم بشيء — وسيأتى لهذا مزيد —
ودليل ذلك من الانجيل : أن عيسى قال لليهود : « لست أفعل من ذاتى شيئاً • لكننى أحكم بما أسمع ، لأننى لست أنفذ ارادتى ، بل ارادة الله الذى بعثنى » (١) الى ما فى كتبكم من هذا الذى قد عميتم عنه ، ولم تسمعوا حرفاً منه • فتارة ينبهكم على وجه الاستدلال ، وأخرى يصرح بالمقال ، وتارة يسأل فيعطى ويجاب ، وأخرى يسأل فلا يرد عليه جواب • وحينما يتبرأ من مشيئته ويعترف بزلته وعبوديته ، ثم هؤلاء القوم مع ذلك يقولون هو : الهنا ، ومحبينا ، وخالقنا • فهؤلاء : يكونون بكم كالأنعام • وصم كالأصنام « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » (٢) •

ثم نقول : ان كان احياء الأموات يدل على الألوهية ، فلأى شيء لا تقولون : ان « الياس » و « اليسع » كانا الهين ، وأنه حل بناسوتهما اللاهوت ؟ وشأنهما فى احياء الموتى ، لا يقدر أحد على دفعه ، ولا يخفى (٣) •

ولم لا تعتقدون ألوهية النبى « حزقيال » اذ فر قومه ، وهم ألوف حذر الوباء ، فأماتهم الله ، ثم جاءهم نبيهم • فقال لهم : لتحيوا باذن الله ، فحيوا ورجعوا الى قومهم ، سحنة الموت على وجوههم حتى ماتوا بأجالهم » (٤) • وهذا معروف عندهم ، ولا مدفع فيه •

وان أنكرتم وجود شيء من ذلك • نزلنا معكم الى ما فى الكتب القديمة ، من قصص الأنبياء وكتبهم • وهذا لازم لهؤلاء القوم ، لا ينفك عنه واحد منهم أبدا •

(١) النص : « أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً ، كما أسمع أدين ، ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى ، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى » (يوحنا ٥ : ٣٠) •

(٢) النساء : ٧٨

(٣) الياس أحيأ ابن الأرملة • انظر الاصحاح السابع عشر من سفر الملوك الأول واليسع أحيأ ميتين انظر الاصحاح الرابع من سفر الملوك الثانى والاصحاح الثالث عشر من سفر الملوك الثانى •

(٤) انظر الاصحاح السابع والثلاثين من سفر حزقيال (ذو الكفل) •

ثم من عجيب أمر هؤلاء القوم : أنهم يزعمون أن عيسى عليه السلام أيد نفرا من الحواريين بأحياء الموتى ، وجعلهم رسلا الى الأجناس ، فأحيوا الموتى بزعمهم (١) . فما الذى أوجب أن يكون المسيح فى حال ألوهيته ، قد أيد بذلك بشرا ، وجعله رسولا الى الأجناس كما زعموا ؟ وما الذى منع أن يكون الله عز وجل يؤيد بذلك بشرا ، ويجعله رسولا الى الناس ؟ فان كان المسيح من أجل أنه أحيأ ميتا : هو الله . فكل من أحيأ ميتا من الحواريين وغيرهم : هو الله . ثم كل خارق للعادة يجعلونه دليلا على ألوهيته ، فانهم يعارضون بمثل ذلك فى حق غيره من الأنبياء عليهم السلام . ويدعى ألوهيته ، فلا يجدون فصلا بينهم ، وبين من يعارضهم .

وأما من استدل على ذلك بأنه خلق من غير أب . فيلزمه أن يعترف لآدم بالألوهية (٢) ، فانه لم يخلق من نطفة أب ، بل انما خلق من تربة أرض . ثم نفخ فيه من روحه . كما فعل بعيسى ، خلقه من نفخة الملك فعلمت بلحمة مريم ، فنشأ منها ، وفيها ، فتربه بمنزلة لحمه ، ونفخه بمثابة نفخه ، وهذا مالا مخلص منه ، ولا خروج عنه ، ثم أكرمه الله تعالى بأنواع من الكرامات ، لم يكرم بها غيره . منها أنه أسجد له ملائكته ، وأعلمه بما لم يعلمهم ، حتى جعله رسولا اليهم . وكفى بهذا شرفا . الى ما هنالك من خصائصه ، ومن فضائله .

بل لو أمكن لأحد أن يقول : ان بشرا يتصور أن يكون الها لكونه من غير أب . لكان آدم أولى بذلك من حيث انه لم تشتمل عليه أضرار الرحم . فقد شارك المسيح فى كونه من غير أب ، وزاد عليه أنه من غير أم ، لم يتكون فى ظلمة الرحم ، ولم يتلطف بدم الطمث ولا خرج

(١) انظر الاصحاح العاشر من انجيل متى الآية الثامنة ، وانظر الاصحاح العاشر من انجيل لوقا .

(٢) وكذلك ملكى صادق فى الرسالة العبرانية هكذا : « لأن ملكى صادق هذا . ملك ساليم ، كاهن الله العلى ، الذى استقبل ابراهيم راجعا من كسرة الملوك وباركه ، الذى قسم له ابراهيم عشرا من كل شئ . المترجم أولا ملك البر ثم أيضا ملك ساليم ، أى ملك السلام . بلا أب ، بلا أم ، بلا نسب . لا بداءة أيام له ، ولا نهاية حياة » (عب ٧ : ١ - ٣) وانظر التكوين ١٠ .
الاصحاح الرابع عشر الآية الثامنة عشرة وما بعدها .

من مجرى البول • هذا مع الاعتراف بأن ذلك كذلك ، ولم يختلف في ذلك أحد ، أعنى في أن آدم مكون مخلوق من غير أبوين •

وقد خالفتكم اليهود لعنهم الله في كون الهكم المسيح من غير أب ، وأطلقت القول على مريم البتول المبرأة عند الله مما قالوا ، بما قد علمتم فلعنهم الله ، وغضب عليهم • فلقد كذبوا •

وانما أسمعتمكم هذا • لتعلموا أنا نعرف ما قالت اليهود لعنهم الله في عيسى وأمه عليهما السلام • وانا ننزههما عما قال فيهما البغضون لهما ، والمحبون القائلون فيهما ، فما أجمل بكم — لو شاء الله توفيقكم — أن لو قلتم فيهما الحق ، الذى ينبغى لهما : أن الله جعل عيسى وأمه آية للناس ، هو عبدا ورسولا ، وأمه صديقة مباركة •

ثم نقول للمستدل بما تقدم : يلزمك على استدلالك أن تكون حواء أم البشر الها فانها لم تخلق من أبوين ، ولا من نطفة ، وانما خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم • لم تتكون في ظلمات الرحم ، ولا نشأت بين الأقدار ، والأوصار ، وخلقها من ضلع آدم كخلقه من تراب ، ولا فرق ، و « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (١) •

وأما استدلالهم بما في كتابنا من قوله تعالى : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته • ألقاها الى مريم وروح منه » (٢) فلا حجة لهم في ذلك • لوجوه :

أحدها : أنهم لا يصدقون بكتابنا ، فلا يستدلون به على شيء •

والثانى : أنهم ان استدلوا على غرضهم بشطر هذه الآية • فان صدرها يرد عليهم استدلالهم وكذلك الآيات التى بعدها ، قال الله تعالى في كتابه العزيز الذى « لا يأتیه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (٣) مخاطبا لهم ، وردا عليهم : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق •

انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته • ألقاها الى مريم •
 وروح منه • فأمنوا بالله ، ورسله ، ولا تقولوا : ثلاثة • انتهوا •
 خيرا لكم • انما الله اله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في
 السموات ، وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلًا • لن يستتفك المسيح أن
 يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون • ومن يستتفك عن عبادته ،
 ويستكبر ، فسيحشرهم اليه جميعا • فأما الذين آمنوا وعملوا
 الصالحات ، فيوفيههم أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، وأما الذين
 استتفكوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون
 الله وليا ، ولا نصيرا » (١) •

(ونورد بعد ذلك الزامات لهم) :

الزام لهم : نقول لهم : حين صار أقنوم العلم لعيسى — كيفما
 صار — هل بقى الرب تعالى كما كان قبل ذلك ، أو اختلفت حاله •
 فان كان كما كان قبل ، فلم يصر لعيسى منه شيء • وأيضا فلو صار
 اليه بعض أقانيمه لبقى ناقص الأتانيم ، وتبطل ألوهيته فان حقيقته
 عندهم واحد ثلاثة أقانيم • وأما ان اختلفت حاله فيلزم عليه أن يصير
 من العلم الى الجهل • ومن القدم للحدوث • وهذا كله على الله تعالى
 محال • ومرتكبه في بحبوبة الضلال •

الزام آخر : نقول لهم : حين صار أقنوم العلم لعيسى • فهل بقى
 البارئ تعالى عالما بذلك الأقنوم أم بغيره أو غير عالم ؟ باطل أن
 يقال غير عالم لاستحالة الجهل عليه • وباطل أن يقال : بقى عالما
 بذلك الأقنوم • اذ لو كان ذلك للزم منه ألا يصير الى عيسى ، ويلزم
 منه أيضا أن يكون علم واحد يقوم بمحلين ، ولو صح ذلك يصح أن
 يكون الواحد منا ، موصوفا بنصف علم وذلك محال • فان العلم الواحد
 لا يتبعض ولا ينقسم • اذ العلم للواحد انما يعقل في محل واحد بمعلوم
 واحد في زمان واحد ، فيما يقبل الزمان والتعدد • وباطل أيضا أن
 يقال : انه يكون عالما بعلم آخر ، فانه يؤدي الى حدوث الأتانيم ،
 بل الى حدوثه • وذلك كله محال •

الزام آخر يظهر تناقضهم : وذلك أنه قد تقدم من مذهبهم أنهم
 قالوا في الأتانيم انها غير متباينة ، ولا مفترقة • ثم انهم قد قالوا هنا :

ان أقنوم الابن اتحد بناسوت المسيح • دون أقنوم : الآب ، وروح القدس • فمفهوم هذا : أن الابن اتحد بناسوته ، وبقي جوهر الآب وروح القدس لم يتحدا به ، وهذا تصريح بالمباينة والمفارقة • فان بعض هذه الثلاثة وجب له أمر دون صاحبيه ، فلو لم يباينهما ، ولم يكن غيرهما ، لما وجب له من الحكم ما لم يجب لهما ، ولا تناقض • فظهر من هذا تناقضهم ، وقد كنا أظهرنا اضطرابهم في هذا في باب الأقانيم •

ثم نقول تحقيقا للزام الجميع : هذه الأقانيم اما أن تكون مباينة للجوهر ، مفارقة أو لا تكون كذلك •

فان كانت مباينة لزم أن تكون زائدة عليه ، وان كانت زائدة عليه لزم أن يكون الاله متركبا من أمور — كما مر — وقد أبينتم ذلك وهو محال • ويلزمكم أيضا : اخراجها عن كونها أقانيم • ويلزمكم رفع التوحيد الى محالات كثيرة عندكم • وان كانت غير مباينة لم يصح اتحاد بعضها دون بعض ، بل لو اتحد بعضها ، لاتحد جميعها فيلزم على هذا اتحاد العلم والقدرة والارادة والوجود • وهذا بين لا خفاء به •

الزام آخر وطلبه : نقول لهم : لأى شىء قلتم ان الذى اتحد بناسوت المسيح انما هو الابن فقط ؟ ولأى شىء لم تقولوا انه اتحد به الآب وروح القدس ؟ ولو قلتم ذلك : لكان أجرى على ما أصلتم من أن الأقانيم ، لا متباينة ولا مفترقة •

فان قالوا : انما قلنا باتحاد الابن لأن عيسى انما أرسله الله ليعلم الناس شريعتهم ، ويخبرهم بالمعيات عنهم ويعظهم • وذلك كله انما يصح بالعلم •

فنقول لهم : هذا الذى ذكرتم مسلم لكم جدلا • لكن لم قلتم : انه انما اتخذه الله لهذا فقط ؟ وانما هو اتخذه لهذا ، ولأمور آخر :

منها : ليعبده ، **ومنها :** ليبرىء مرضى ، كانوا قد أعياوا الأطباء ، وأراد الله تعالى شفاءهم على يديه ، **ومنها :** أنه أراد احياء موتى على يديه •

فتحصل من هذا أمران : أحدهما : أن هذه معجزات تدل على صدقه • والثانى : أن من أبراه أفاق من مرضه ، وجذامه ، وجنونه ،

وبرصه فانتفع بذلك • وكذلك يحصل للميت الذى حىي ، وزائدا على ذلك : أن الميت آمن به فأدخله الله الجنة بإيمانه برسوله ، وهذه الأمور كلها ، لا يمكن انكار أن يكون كل واحد منها مقصودا لله تعالى • وإذا أمكن أن يكون كل واحد من هذه الأمور مقصودا ، فلم اقتصرتم على مقصود واحد مع امكان هذه المقاصد ؟ وإذا تقرر ذلك حصل منه : أن الله تعالى اتخذها لما لا يصح الا بالعلم والقدرة والارادة والحياة • فقولوا : ان هذه الأقانيم اتحدت به • وهذا لازم لا محيص عنه ، ولا جواب عليه • ثم يلزم على هذا : أن يكون كل نبي أرسله الله تعالى يتحد به العلم • فان هذا الذى استدللتم به في حق عيسى موجود في حق غيره من الرسل • اذ كل واحد منهم انما أرسل معرفا بشرع الله ، ومبلغا رسالة الله ، ومخبرا بوعد الله ووعيده ، فيلزم على هذا أن يتحد العلم بكل رسول •

الزام آخر : قد تقرر أن عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى ، ويبرئ الأكمه ، والأبرص ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طائرا • فاذا قلنا هذا • فاما أن يكون عيسى هو الذى يفعل ذلك أو غيره • فان كان غيره فليس ذلك الا الله تعالى ، وغاية عيسى أن يكون عبدا يرغب لله تعالى في قضاء حاجته • ثم ان الله تعالى يفعل ما يشاء عند تحديه بالنبوة تصديقا له في دعواه • وعيسى ينظر الى ذلك ، ويتعجب عند ذلك من فعل الله ، ولطيف صنعه • وهكذا كان حال موسى عندما أيده الله بالعصا • فقل له : « **ألقها** » « **فألقاها فاذا هي حية تسعى** » (١) فلما رآها على حال لم يعرفه منها هاله ذلك • وولى مدبرا خائفا وذلك لما شاهد من قدرة الله تعالى • فلما فزع • قال الله تعالى له : « **خذها ، ولا تخف • سنعيدها سيرتها الأولى** » (٢) •

وإذا قلنا : ان عيسى هو الذى يفعل ذلك • فاما أن يفعله بقدرة وعلم وارادة أو لا يحتاج الى شيء من ذلك • باطل أن يقال : انه لا يحتاج الى شيء من ذلك • لأن الفعل الاختيارى لا بد له من هذه الأمور بالضرورة — على ما يعرف في موضعه — فلم يبق الا أن يفعل ذلك بقدرة وعلم وارادة • وهذه الصفات هي شروط الفعل • ولا بد

وأن تكون منسوبة له ، ويكون هو موصوفا بها ، أو لا تكون منسوبة إليه ، ولا يكون هو موصوفا بها . فان لم يكن هو موصوفا بها ، ولا تنسب إليه ، فلا ينسب الفعل إليه ، وقد نسبتم الفعل إليه . فدل ذلك على أنه موصوف بها ، وتنسب إليه كلها . وإذا ثبت ذلك فليس من يسلب عنه القدرة والارادة ، ويقول : هما صفتان لله تعالى ، وليستا بصفتين لعيسى فتبرؤوا حالا ممن يسلب عنه العلم ويقول هو علم الله تعالى ، وليس علم عيسى مع أنه صفة عيسى . فيلزم عن هذا البحث : أن هذا الفعل المنسوب الى عيسى موجود عن علم وقدرة وإرادة . وأن هذه الثلاثة انما تنسب لواحد . فاما لله ، واما لعيسى ، ولا يجوز عقلا أن ننسب بعضها لله ، وبعضها لعيسى . فان هذه الثلاثة مشروط بعضها ببعض فالمحل أو الجوهر الذي يجب لأحد هذه ، يجب للباقي . وهذا مالا خفاء به عند العاقل الموفق .

الزام آخر : قد تقرر عند هؤلاء القوم : أن علم الله اتحد بعيسى ، ولا خلاف بين جمهورهم في هذا المعنى . وان اختلفت عباراتهم عنه . فعيسى عالم ، والله تعالى عالم ، بعلم واحد . فقد اتحد آقنوم العلم وتعدد المحل . فاذا ثبت ذلك لزم عليه أن يكون عيسى عالما بكل معلومات الله تعالى . ويكون الله تعالى عالما بكل معلومات عيسى . فانهما عالمان بعلم واحد . فاذا علم الله أنه هو نفسه خالق المخلوقات ينبغي لعيسى أن يعلم أنه هو نفسه خالق المخلوقات كذلك . لأن علمهما واحد . وكذلك اذا علم الله أنه هو نفسه قديما باقيا موصوفا بصفات الكمال ينبغي لعيسى أن يعلم أنه هو نفسه كذلك . واذا علم عيسى نفسه متغوطا باثلا ، ومصفوعا ومتوجا بالشوك ، ومصلوبا في خشبة ، ومسمرة يدها ورجلاه فيها . فينبغي لله تعالى أن يعلم نفسه كذلك — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — وهذا كله لازم على هذا المذهب السخيف ، الفاسد الضعيف .

الزام آخر : اتفق النصارى القائلون بالاتحاد على أن عيسى لاهوت ، وناسوت . فبما هو لاهوت يحيى الموتى ، ويبيرى المرضى ، وغير ذلك . وبما هو ناسوت يجوع يعطش ويبول ويتغوط ، ويفرح ويألم ويحزن ويلتذ . ثم يعبدون ناسوته ، ويجعلونه الها . فهم بين أمرين : اما أن يقولوا : ان جسده المتغوط البائل : اله . أو هو شطر اله . فان قالوا : ان جسده اله . فكفى شناعة وهجاء . اله بائل متغوط

مصلوب • وان قالوا : انه اله بما حل فيه من الاله ، فكان ينبغي لهم أن يقولوا : انه نصف اله ، ولا يعبدون جسمه ، ولا يسجدون لجسده • وإذا قالوا : الهنا المسيح • قالوا مكان يا الهنا : يا نصف الهنا ، أو يا ثلث الهنا • فانه اتحد به أحد الأقانيم الثلاثة • والواحد من الثلاثة : ثلث • وهذا كله جهالات ، وتواقحات منهم •

الزام آخر : وذلك أنهم اتفقوا على أن المسيح صلب وقتل بالنخز ، ورفع فوق خشبة بعد أن أهين وصفع ، ووضع على رأسه الشوك ، وسمرت يداه ، ورجلاه في الخشبة • وقد جاء كل هذا في أنجيلهم — كما زعموا — فنقول لهم : ألوقت الذي أهين وصفع ورفع على الخشبة ، وسمرت يداه ، ونخز • هل كان متحدا به اللاهوت ، أو زال عنه ؟ فان كان متحدا به اللاهوت في تلك المواطن • فلقد أدرك لاهوته من المذلة ، والاهانة والنخز ، والموت • ما أدرك ناسوته ، لاسيما • وقد التزمتم فيما تقدم أن أقنوم العلم حي • فيلزمكم على هذا أن تعبدوا الهًا ذليلا مهانا • ينخز • ويموت وكفى بهذا خزيا وفضيحة • وان قلتم : انه فارقه • فاذا جاز أن يفارقه في موطن ، جاز أن يفارقه في كل موطن • وهذا مما يآبونه • ويلزم عليه : ان فارقه أن يكون جاهلا ، وألا يكون الهًا • فتعبدون ما ليس باله •

وقد خرجنا مع هؤلاء الجهال بخالفهم ، المستهزئين بأديانهم ، الى حد الاكثار ، وفارقنا شرط الاختصار • وقد أطنبنا في هذا الفصل ، وان كان لا متمسك لصاحبه ولا أصل ، لكونهم متفقين عليه ، ومحتجين به ، ومتحومين نحوه •

ولا يظن الظان : أن هذا المذهب الذي ارتكبه هؤلاء القوم في الأقانيم والاتحاد • محتاج في ابطاله الى نظر واجتهاد • بل الحقول بأوائلها تشهد بفساده ، كما أن الحس يدرك بياض الجسم من سواده • وهؤلاء معاندون ، وللضروريات جاحدون •

ومن كان حاله كذلك ، انما يتكلم معه بضرب الأمثلة بأبين المدارك ، وتعديل الالزامات ، وتكثير المسالك ، ليتبين الافحام ، ويلقى يد الاستسلام • وقد قدمنا العذر عن ذلك كله في أول الكتاب • والى الله أرغب في الهداية للصواب ، وحسن المنقلب اليه ، والمآب •

في حكاية مذهب "اغشثين" اذهوزعيم لقسيسين

نذكر ان شاء الله تعالى في هذا الفصل كلام هذا المذكور الواقع له في « مصحف العالم الكائن » ونحكي ألفاظه من غير زيادة ولا نقصان .
الا أنى اختصر من كلامه ما لا تدعو ضرورة سياق الكلام اليه ، من غير اخلال بلفظه ولا تقصير في معناه . وربما قدمت وأخرت ، وانما خصصته بالكلام معه في فصل مفرد . لغرضين :

أحدهما : أن هذا السائل على مذهبه عول ، واياه قلد ، ومن كتابه .
نقل . الا أنه مع ذلك أخل بمفهوم كلامه ، وخالفه في سياقه ونظامه ،
فربما ترك مذهبه ، يسوء نظره ، وهو يظن أنه يمشى على أثره ،
وسيتبين ذلك .

والثاني : أن النصارى معولون على معرفته ، ومقلدون له في قومته وقاعدته ، على أنه أعرف بمسالك النظر ، وأجراًهم على مناهج العبر ، لكن نعوذ بالله من عين عوراء ، وقطنة بترء .

قال (اغشثين) : « قد أجمعت الملة على أن الله تعالى قد كلم موسى تكليماً ، واجتمعت على أن موسى سمع صوتاً يقول له : « أنا ربك » فأخبرونا : أتؤمنون بأن الصوت الذي سمعه موسى هو ذات الرب . وأن الرب في ذاته مسموع . أم تقولون : ان الرب أسمع موسى صوتاً على ما يشاء من رفع وخفض وغلظة ورقة . وأنه ابتداء الصوت متى شاء ، وقطعه متى شاء . وأنهى الى موسى من ارادته ما شاء ؟ فان قالوا : ان الصوت نفسه هو الرب . وأن الرب مدرك بالسمع ، فقد خرجوا عن مذهبهم في نفى التشبيه . وان قالوا : ان الصوت من فعل الله وأن الله خلق الصوت على ما وافقه ، وأظهر فيه من ارادته ما شاء . وأن الصوت قد كان له مبتدأ ومنتهى . وأن الله الخالق له . لا مبتدأ له . ولا منتهى . قيل لهم : فقد ثبت أن الصوت الذي سمعه كان مخلوقاً . فكيف جاز لموسى أن يقول : « سمعت الله » ؟ فان قالوا : مقام الصوت من الله ، مقام صوت الانسان من الانسان . وانا نسمع صوت انسان . فنقول :

«سمعنا فلانا ، وكذلك وجب على موسى لما سمع صوت الله أن يقول : « سمعت الله » قيل لهم : فقد أقررتم : أن الصوت من فعل الله • كما أن صوت الانسان من فعل الانسان ، ولستم تقدرّون أن تقولوا إذا سمعتم صوت رجل : سمعنا صوت المريد ، كذلك الصوت الذي ابتدأه ، وخاطب به • ولكنكم تقولون : سمعنا صوت فلان ، وسمعنا فلانا ، اذ سمعتم صوته • وكذلك من سمع صوت الله ، وجب أن يقول : سمعنا الله • لأن الله خلق الصوت ، وجعله حجابا لارادته التي أظهرها فيه • فقد ثبت أن الناس لا يسمعون الرب الا بصوت مخلوق على ما يشبهه تعارفهم ، يكون حجابا فيما بينه وبينهم •

والواجب عليهم : أن يخاطبوا الصوت باسم الذي الصوت له ، كما أن الصوت انما خاطبهم عن الله • ومثل ذلك يلزمهم في كل ما يشبه التحديد ، مما وقع في كتب الملل الثلاثة من التشبيه بالعالم ، ووصف نفسه بالعين والوجه والفم ، ولا يمكن جرده فقد رضى أن ينسب الى نفسه مثل كلامهم • وأن يخاطبهم في مثل لغتهم • فقد ثبت أنه اتخذ التشبيه حجابا بينه ، وبين خلقه » ا.ه •

ثم قال بعد ذلك كلاما — معناه — : « كما جاز أن يتخذ صوتا ، ويجعله حجابا لارادته ، حتى أظهرها فيه • كذلك يجوز أن يكون قادرا على اتخاذ أى صورة شاء ، وأن يظهر لعباده فى أى حلية وافقته ، وتلك الصورة ملك له يبدلها كيف شاء • لأننا ان قلنا انه لا يقدر أن يسمع عباده صوتا ، ولا أن يظهر لهم بصورة فقد أزلنا عنه القدرة على كل شئ » ا.ه •

ثم قال بعد ذلك : « فعلنا أن الحجاب مخلوق ، وعلمنا أن الله خالق كل شئ ، ووجب علينا انزاله من الاكرام بحيث أنزله الله المحتجب به ، لأنه متى لم تنزل كل شئ على ما أنزله عليه ، فقد عصينا ، لأننا لا نجد بدا من أن نكرم الملائكة مالا نكرم الشياطين ، ونكرم الصالحين ، مالا نكرم الفجار • وهكذا فلا بد أن يكون شئ أعز من شئ • وشئ أقرب الى الله من شئ ، حتى يكاد شئ فى العز أن يتصل بخالقه ، ويكون أعز الأشياء ، ويكاد شئ أيضا أن يكون فى الهوان بحيث لا يكون شئ تحته •

والواجب على العارف بالله : أن ينزل كل شيء بحيث أنزله الله
ويسميه بما سماه الله • فان أقر بأن الله خاطب بصوت مسموع ،
أو ظهر في صورة مرئية ، فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت ، وتلك
الصورة بما لم يخص به شيئاً من المخلوقات • وأن الواجب على من
سمع ذلك الصوت أن يقول : سمعت صوت الله • ومن رأى تلك الصورة
يقول : رأيت صورة الله • ولهذا وجب على موسى اذ سمع صوت
المقائل : « أنا ربك » أن يجاوبه باسم الرب ، ويقول بأنه ربه ، ووجب
على آدم اذ قال « يا آدم » : أن يستجيب • فيقول : هأنذا يا رب •
وكذلك في مخاطبته لجميع الأنبياء ، لأن الصوت لم يقل أنا صوت الله ،
وأنا أخاطب عن الله • وانما الله خاطب به فقال : « أنا الله » فالواجب
أن نخاطب بمثل ما خاطب به •

ومثل ذلك يجب في الصورة ، ومن ظهر له الله في صورته كما
ظهر لأتسعياء ، ولدانيال • فقد وجب عليه أن يسجد للصورة ، وأن
يخاطبها باسم الله ، لأن علمه بأن الله خص تلك الصورة بالاتخاذ
لها ، والاحتجاب بها ، ضام له الى عبادته فيها ، لأنه قد رضى أن
يرى فيها ، ويعبد بها •

وقد علمنا أن الله خالق الصوت الذي أسمعته لموسى كما علمنا :
أن الله خلق جميع الأصوات • ولكن وجب علينا الاقرار لذلك الصوت
بالربوبية ما لم يجب لغيره • لعلمنا أن الله ولى المخاطبة بذلك • وكذلك
يجب في الصورة أن يخصها من الاكرام بما خصها الله به •

ومن قال لا يجب أن يخاطب الصورة باسم الله ، ولا أن يجاوب
الصوت باسم الله فقد قال : انه لا يجوز أن يتخذ الله صورة ، ولا أن
يسمع صوتا • واذا وجب اكرام الحجاب باكرام المحتجب به ، لم يبق
علينا من الكلام شيء الا في الحجاب ، الذي اتخذه منا • وهو المسيح ،
والاستشهاد بالتوراة ، والانجيل في أمره ، الا أننا نقدم القول في ذلك
بالقياس ، لئلا نستشهد بالكتاب الا فيما كان داخل تحت الامكان » ا. ه •

ثم قاله : « هذا وان لم يوجبه القياس ايجاب الاضرار فانه
يجوزة تجويز الامكان ، لأن القياس الذي فضل به الانسان على جميع
خلقه ، وخاطبهم بمثل لغتهم ، وتشبه بهم في مخاطبتهم ، وخلق كل
(١٠ - الاعلام)

شيء لهم ، ومن أجلهم • وأوجب لهم البقاء معه في رضوانه وألا يكون دونهم أبدا • وأنه ظهر لهم بحجاب مخلوق ، فتشبه لهم بنعت محدد ، فغير ممتنع فيه ، ولا بعيد أن يكون حجابهم فيما بينه وبلغهم منه ، ومما يشبههم ، ونزوله الى مخاطبتهم في مثل لغتهم ، وهو : نزوله الى الظهور لهم في مثل صورتهم ، لأن اتخاذ الصورة مثل اتخاذ الصوت» ا.ه •

ثم قال : « شواهد الواضحة كثيرة من ذلك قول ارمياء النبي حيث يقول مناجيا الله : « يا رجاء اسرائيل ، يا مخلصه من الغم • لم ستكون في المستقبل كالغريب في الأرض • أو كالمسافر يعدل الى المبيت ؟ لم ستكون في المستقبل كرجل صالح لا يقوى أن يخلص » (١) ؟ وقول (اشعيا) النبي حيث يقول : « ان العذراء ستحمل ، وتلد ولدا ، ويدعى ولدها عجيبا مدبرا الها قويا ، والدا ، مقبل الدهر العالم ، يكثر ملكه ، ولا يكون لسلطانه انقطاعا • ولا آخر » (٢) وقوله أيضا : « من ذا يقبل خبرنا ؟ أمن ذا ظهر له ذراع الرب » ؟ ثم وصف أنه ظهر ضعيفا محتقرا • وأنه هدى بنفسه الى القتل طوعا ، ووصف خبر المسيح ظاهرا كما كان (٣) • وقول يعقوب لبنيه ، حيث يقول : « لا ينقضى

(١) النص « يا رجاء اسرائيل ، مخلصه في زمان الضيق • لماذا تكون كغريب في الأرض ، وكمسافر يميل لببيت ؟ لماذا تكون كإنسان قد تحير ؟ كجبار لا يستطيع أن يخلص » (ارمياء ١٤ : ٨ - ٩) •

(٢) النص : في موضعين من أشعيا في الاصحاح السابع والتاسع • ففي السابع « ها العذراء تحبل • وتلد ابنا • وتدعو اسمه عمانوئيل » (أشعيا ٧ : ١٤) « لأنه يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا • وتكون الرئاسة على كتفه • ويدعى اسمه عجيبا مشيرا الها قديرا • أبأ أبديا • رئيس السلام • لنمو رياسته وللسلام لا نهاية » (أشعيا ٩ : ٩ - ٧) ونص الموضع الأول نبوءة تحققت في زمان أشعيا ، ونص الموضع الثاني نبوءة عن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم سنوضحها فيما بعد •

(٣) النص : « من صدق خبرنا ، ولن استعنت ذراع الرب نبت قدامه كفرخ ، وكعرق من أرض يابسة ، لا صورة له ، ولا عجال • فننظر اليه • ولا منظر فنشتيه • محتقر ومخدول من الناس ، رجل أوجاع ، ومختبر الحزن ، وكمستر عنه وجوهنا محتقر فلم نعتد به •

الملك من سبط يهوذا ، ولا يزال منهم أمير • حتى يأتي الذي هو
مرسل ، وهو يكون رجاء الأجناس » (١) ونترجم كذلك باختصار :
« لا ينقطع الملك منهم حتى يأتي المسيح » ا. ه •

هذا ملخص كلامه ، وزيدته في عدة أبواب من كتابه المتقدم الذكر ،
من غير أن أخرج عن لفظه الا ألفاظا يسيرة يتصل بها الكلام ،
ولا تغير المعنى •

وها نحن بعون الله نجابه ، مجاوزة على طريق البحث والمناظرة •

أما قوله : « اجتمعت الثلاث ملل على أن موسى سمع صوتا يقول :
أنا ربك » فهذا قول كذب ينبيء عن غفلة أو جهل • وذلك أن الذي
اتفقت الملل عليه : انما هو أن الله كلم موسى • وأن الله تعالى متكلم •
وأما أنه متكلم بصوت ، أو سمع موسى صوتا من الله فهذا شيء اختلفت
فيه الملل ، وتباينت فيه النحل ، وأكثر أهل الملة الحنيفية يأبى ذلك ،
ويخطيء من صار الى ذلك • أعنى من صار الى أن يكون البارئ تعالى
متكلما بصوت • وأن موسى عليه السلام لم يكلمه الله بصوت وانما

= لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها • ونحن حسبنا مصابا
مضروبا من الله ومذلولا • وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا •
تأديب سلامنا عليه ، وبجبره شفيننا • كلنا كفنم • ضللنا • ملنا كل واحد
الى طريقه • والرب وضع عليه اثم جميعنا • ظلم • أما هو فتذلل ، ولم
يفتح فاه ، كشاه تساق الى الذبح وكنعجة صامته أمام جازيها فلم يفتح فاه •
من الضغطة ومن الدينونة أخذ • وفي جيله من كان يظن أنه قطع من أرض
الأحياء • انه ضرب من أجل انب شعبى • وجعل مع الأشرار قبره • ومع غنى
عند موته • على أنه لم يعمل ظلما ، ولم يكن في فمه غش •

أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن • ان جعل نفسه ذبيحة اثم ، يرى
نسلا تطول أيامه ، ومسرة الرب بيده تنجح • من تعب نفسه يرى ويشبع •
وعبدى البار بمعرفته يبرر كثيرين ، وآثامهم هو يحملها • لذلك أقسم
له بين الأعزاء • ومع العظماء بقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت نفسه
وأحصى مع أئمة ، وهو حمل الخطية كثيرين وشفع في المذنبين » (أشعيا ٥٣ : ١ - ١٢)
والتعبيرات في هذا النص : مجازية كناية عن الآلام التي
سילقها المسيح المنتظر في الدعوة وأنه ستنتج دعوته في النهاية •

(١) النص : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ،
حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعب » (تكوين ٤٩ : ١٠) •

كلمه بكلامه الذى هو وصفه الذى ليس بصوت ولا حرف على ما تقرر
بيانه فيما تقدم • فهذا الرجل الحاكي هذا القول اما أن يكون علم
اختلاف الملل فيما ذكر فيه اجماعها • أو لم يعلم ، فان كان علم فقد
كذب • واذا عرف من أحد من الناس الكذب ، فينبغى ألا يلتفت اليه ،
ولا يعول عليه •

فينبغى لكم ألا تعولوا على شئ من نقله ، لا مكان أن يكون كذب
فيه ، كما كذب فى هذا • وان كان ذلك القول منه عن جهل فهذا كثير
فى حقه من جهتين :

أحدهما : أنه أقدم على الاخبار عما لم يتحقق من غير بصيرة ،
وليس هذا فعل العلماء ، ولا الأكياس من الفضلاء ، وكفى بالمرء كذبا
واثما أن يحدث بما لم يعلم صحته •

والجهة الثانية : أنه جهل أمرا معلوما على القطع صار اليه ، وعمل
على مقتضاه : أمم ، لا يحصون كثرة منذ مضى السنين ولا محمل بمن
تعاطى نصره المذاهب ، والكلام مع أربابها • أن يجهل مثل هذا • واذا
جهل هذا فهو بما هو أخفى من هذا أجهل ، فهو بين أمرين : اما أن
يكذب متعمدا فلا يثقون بقوله • أو يجهل أمرا جليا يدرك بأدنى بحث ،
وأيسر أمر • فلا ينبغى لكم أن تقلدوه فى عمله ونظره •

وانما ذكرت هذا لتعلموا أن عمدة النصارى على هذا الرجل فى
مذاهبهم ، بقوله يحكون ، وبه يحتجون وله يقلدون ، وعليه يعولون ،
فهو وهم كرجل أعمى ، ادعى أنه بصير فاستقاده عمى ، فقادهم فسقط
فى حفرة فسقطوا لسقوطه « وأشد عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا •
أو قتله نبى ، وامام ضلالة » وانما كان كذلك لأن عليه وزرها ، ووزر
من عمل بها « فطوبى لمن مات ، وماتت معه ذنوبه » •

وأما قوله : « فان قالوا : ان الصوت نفسه هو الرب • وأن الرب
مدرك بالسمع » فقد خرجوا عن مذهبهم فى نفى التشبيه • فهذا نص
من كلام هذا الرجل : أن الصدى ليس بالرب •

وقد قال السائل الذى جاوبناه قبل هذا : « انه أقر له بالربوبية »
وظاهر قوله مناقض لقول امامه • ثم نقول لهما : قد اتفقتما على أن

الصوت مخلوق • وأن الله تعالى ليس بمخلوق ، فهذا الصوت المخلوق
أما أن يكون ربا غير الله • أو ليس رب • فإن كان ربا غير الله فيلزمكم
أن تعبدوه بعبادة خاصة غير عبادة الله ، بل هو أولى بالعبادة من ناسوت
المسيح • اذ يتعوط ويبول ويصلب على قولكم • الى غير ذلك مما عددناه •

وذلك أن الصوت لا يليق به شيء من ذلك • وذلك كله جهل • وقد
ألزمناهم على ذلك مناقضات لا محيص عنها فيما تقدم • وان كان هذا
الصدى ليس برب فيلزمكم على قولكم أن يكون موسى خاطب بالبربوية من
ليس برب • وذلك لا يليق به • وهذا على قوله ان المخاطب هو الصدى
لازم ضرورة • ثم ما أعجب أمر هؤلاء القوم ينفون تشبيه الله تعالى
بخلقه • ويجعلون نفسه قاعدة يرجعون اليها بزعمهم • ثم يلتزمون
من التشبيه في حق الله تعالى ما لم يقل به من المشبهة أحد • وذلك أنهم
قالوا : ان الله تعالى متكلم بصوت هو من قبيل أصواتنا ، وهو مخلوق
مقطع بالحروف • وهو مع ذلك مخاطب بالبربوية • وهذا هو التشبيه
الذي فروا منه ، وزيادة عليه •

ولقد أوغل في التشبيه كبيرهم « أغشتين » وان كان عن أصل
التشبيه من المعرضين • وذلك أنه جوز عقله بزعمه : أن يتخذ الباري
صورة يجهلها ، ويظهر فيها ويسجد لها • ومن رأى تلك الصورة ويقول :
رأيت صورة الله • فانه قد رأى الله ، ولا تشبيه أعظم منها ، بل المشبهة
أحسن حالا منه • وذلك أنهم — أعنى المشبهة — بنوا أمرهم على ظواهر
الشرائع فأثبتوا ما أثبتت الشرائع • وما قالت الأنبياء ، وما جاء في كتب
الله مصدقين لها ، غير منحرفين عن ظواهرها ، ثم عزلوا عقولهم فلم
ينظروا بها فبقوا على جمود التقليد ، وثبتوا على صميم الاعتقاد ،
والتوحيد • ومع ذلك فانهم يعظمون الله ، ويقولون بأن لا اله الا الله •

ومما صرح فيه بالتزام التشبيه قوله « صوت الله من فعل الله ، كماله
أن صوت الانسان من فعل الانسان » ولا معنى للتشبيه الذي نفى :
الا هذا • فهذا تناقض ظاهر ، فانه تارة نفى التشبيه ، وتارة أثبتته ثم
قوله يصرح بأن حقيقة المتكلم : من فعل الكلام • وهو خطأ • بل حقيقة
المتكلم : من قام به الكلام والدليل على ذلك أن حقيقة المتكلم تفهم
بكمالها مع فرض الغفلة والذهول عن كونه فاعلا للكلام • ولو كانت
حقيقة المتكلم من فعل الكلام لما فهمت حقيقة المتكلم حتى يفهم كونه

فاعلا للكلام على ما يعرف في موضعه ولو كانت حقيقة المتكلم من فعل
الكلام ، لكن البارى تعالى متكلما بالكلام الذى يقوم بنا • فانه فاعل
كلامنا وخالقه على ما يعرف في موضعه ، وذلك محال •

ولتعلم أيها الناظر في هذا الكتاب : أن كل ما ذكره هذا (القس)
في هذا الفصل : انما هو مبنى على أنه تعالى متكلم بحرف وصوت • وقد
أبطلنا ذلك فيما تقدم حيث قلنا : كلام البارى تبارك وتعالى ليس بصوت
ولا حرف وانما هو وصف له قائم به ليس بحرف ولا صوت كما نبهنا
عليه •

واذا بكل ذلك بطل كل ما انتحله في هذا الفصل من الهذيان •
وانما كلامنا معه بعد ذلك على طريقة المناظرة الجارية بيننا • وذلك
أن أرباب النظر ربما يسلّمون ما هو معلوم الفساد ، ليتبين تناقض
الخصم ، وتحكمه للعباد • وكذلك نفعل نحن بهذا الرجل • بحول الله
فنقول له :

لأى شىء قلت ان الله اتخذ الصوت حجابا لاظهار ارادته ،
ولبست بلفظ الحجاب ؟ ولو قلت : ان الله جعل الصوت دليلا على
ما أراد لارتفع التلبيس ، ولزال الابهام ، الذى أوهمت فانك أوهمت
بلفظ الحجاب : أن الارادة احتجبت به ، واتحدت معه ، حتى ظهرت
بواسطته ، فجعجت أنت بلفظ الحجاب ، والظهور ، وأوهمت ، وأنت
ما حصلت على فائدة ، ولا وجدت •

ومما يتبين أن هذا الذى ذكره انما هو جعجة لفظية ، ليس وراءها
معنى : أنا نبطل لفظ الحجاب بالدليل ، ولا نبقي مما توهمه شىء •
فاننا يمكننا أن نقول : ان الصوت الذى خلقه الله تعالى ، وجعله دليلا
على ارادته على قوله : انما هو بمثابة أن لو خلق خطوطا في حجر يستدل
بها المستدل على ارادته اذا قرأها ، فلا يتمكن لعقل أن يقول : ان الارادة
انحجبت بخطوط ذلك الحجر ، ولا اتحدت به • فان الارادة لا تقوم
بجماد ، وهذا بين بنفسه •

وكذلك لو كتبنا لفظ النار في ورقة لما تخيل عاقل ، بل غافل أن
ذات النار حلت في الورقة اذ لو حلت النار في الورقة لا احترقت • وكذلك

الصوت المقطع حروفا انما هو دليل على ما فى النفس من غير أن يحل ما
فى النفس فى الصوت ، ولا أن يتحد به • وإذا فهم هذا ، ارتفع كل
ما توهمه هذا المخدوع بالضرورة •

ثم نقول له : نسلم جدلا ما ذكرته من لفظ الحجاب والظهور •
لكن لم قلت « انه اذا صح أن تظهر ارادته بحجاب الصوت جاز أن
تظهر ذاته بحجاب الصورة » ؟ وما الدليل على ذلك ؟ وأى جامع بينهما ؟

فان قال : الدليل على ذلك : أن الله تعالى ، قادر على ذلك ، كما هو
قادر على حجاب صوته • فانه ان لم يكن قادرا على اظهار ذاته بصورة ،
فيكون عاجزا ، والعجز عليه محال • فهذا هو الدليل • وأما الجامع فان
الصوت : مظهر للارادة ، والصورة : مظهرة للذات •

فيقال له : أما استدلالك بأن الله قادر على كل شيء فاستدلال
فاسد • فان الأشياء التى يقدر البارئ تعالى عليها • انما هى الممكنات ،
لا المستحيلات • وهذا الذى ذكرت من ظهور الله فى صورة مستحيل
لا يكون به مقدورا • فان المستحيل لا يوصف البارئ تعالى بالقدره عليه
ولا بالعجز عنه ، لاستحالة شرط تعلق القدره • وهذا انما يعرفه من
يعرف حقيقة : حقيقة الواجب والممكن والمستحيل •

ثم انا نقبل عليهم دليلهم • ونقول : هل يقدر الله تعالى أن يظهر
نفسه من غير صورة ، أم لا ؟ فان قالوا : يقدر • قلنا لهم : لا يحتاج
الى الصورة التى فرضتم • وان قالوا : لا يقدر • قلنا لهم : فيلزمه
العجز • وبالذى ينفصلون عن هذا • به بعينه ننفل نحن عما ألزمونا •

وقد بينا فيما تقدم : أن اتخاذ البارئ سبحانه وتعالى صورة ليظهر
فيها مستحيل ، حيث أبطلنا الحلول والاتحاد ، وما فى معناه

ونزيد الآن هنا نكتة : وهى : أننا نقول : هذه الصورة التى يظهر
فيها لابد أن تكون متحيزة محدودة ، والظاهر فيها : اما أن يكون داخلا
فيها ، أو خارجا منها • أولا خارجا ، ولا داخلا • فان كان داخلا فيها
كان محدودا ، محاطا به • وهذا هو التشبيه •

فانه يلزم منه أن يكون جسما ، وهو باطل على الله تعالى ومحال .
• وان كان خارجا عنها لزم تحديده أيضا . لأنه لا يكون خارج لا محدود
متحيز . فيلزم أن يكون بجهة من الصورة واذا كان بجهة كان جسما .
وهذا تشبيه

• وأيضا . فاذا كان بجهة من الصورة التي ظهر فيها كان مفارقا لها .
• واذا كان مفارقا لها ، لم يظهر فيها . وان ظهر فأنما يظهر بنفسه ، لا
بالصورة . واذا كان لا داخلا فيها ، ولا خارجا عنها استحال عليه أن
يظهر بها أو فيها . لأن ما ليس بمتحيز ، ولا داخل ، ولا خارج . لا يظهر
في جسم متحيز ، لأنه من حيث كان ليس بداخل فيها . فقد فارقها ،
• واذا فارقها لم يكن فيها واذا لم يكن فيها لم يظهر فيها .

ولو جاز أن يظهر في كل ما ليس بداخل فيه ، ولا خارج عنه ، لجاز
أن يظهر في كل موجود واذا جاز ذلك فعله قد اتخذ الأنبياء كلهم حجابا
يظهر فيهم ، وهذا مما يأبونه ، وهو محال عندهم .

• وأيضا . فان الله تعالى عندهم لا يرى بانفراد من غير صورة ،
• ولا يظهر دونها . فكذلك يلزمهم أن يبقى على حاله ، لا يظهر واذا وجد
صورة . اذ ليس بداخل فيها ، ولا خارج عنها .

• فان الصورة لا تكسبه أمرا أوجب له ظهورا الا لم يكن له .
• وهذا بين الاستحالة . اذ يلزم على ذلك تغييره عند العاقل المنصف .

نكتة أخرى : وهي : أنا نقول : هل يجوز أن يرى البارئ تعالى ،
• يظهر من غير صورة أم لا يجوز ؟ فان جاز ذلك . فلم حتمتم اتخاذ
الصورة عليه . وقلتم : انه لا يظهر ، ولا يرى الا بصورة . وان قلتم :
• لا يرى ولا يظهر الا باتخاذ صورة . فاذا وقع بصر الناظر فاما أن يقع
على تلك الصورة أو على الله وعليهما .

فان قلتم وقع البصر على الصورة ، لا عليه . فالمرئى اذن هي
الصورة المخلوقة ، لا الخالق . وان وقع البصر على الخالق وحده ،
• لا على الصورة فهو المرئى ولا ترى الصورة . فان الصورة ليست
هي الخالق تعالى . والرائى لم ير الا الصوت . فاذن لم ير الخالق .
• وان وقع البصر عليهما لزم عليه أن يرى الرائي شيئين : الخالق والصورة .

وهو انما رأى شيئاً واحداً بالضرورة وهو الصورة لقول من يقول : انه
ظهر بالصورة •

وأيضاً فلو وقع بصر من رأى عيسى عليه السلام على ناسوته ،
ولا هوته لما احتاجوا أن يستدلوا على ألوهيته بأحياء الموتى وغير ذلك ،
ولما كان يحتاج هو أن يدل على لاهوت نفسه بشيء من المعجزات ،
وخوارق العادات اذ كان يدرك منه بالحس والعيان ذلك • والمعلوم
بالعيان لا يطلب تحصيل علمه بالدليل والبرهان •

فحصل من هذا : أن الصورة المقدرة لا يظهر فيها البارى تعالى •
وان ظهرت هى فان الرأى انما يراها وحدها • وهى الظاهرة له • وأما
البارى سبحانه وتعالى فهو بعد آيجاد هذه الصورة على ما كان عليه
قبل ايجادها لم تتبدل حاله — أعنى أنه ان كان قبل ايجاده هذه الصورة
قابلاً لأن يظهر فهو بعدها قابل لأن يظهر • وان كان ممتنعاً عليه أن
يظهر قبلها امتنع عليه ذلك بعدها ، لاستحالة التغير عليه • فانه لو تغير
لكان محدثاً •

وأما ما ادعاه من الجامع فلا نسلم أن الصوت مظهر للارادة الا
بمعنى أنه يدل عليها ، لا بمعنى الاحتجاب والظهور كما زعم • واذا لم
نسلم هذا فى الصوت فلا يصح له قياس الصورة على الصوت • ولو
سلمنا قياس الصورة على الصوت من حيث الجامع فبأى دليل يحمل
أحدهما على الآخر ؟ فان وجود الجامع لا يدل على أن حكم أحدهما حكم
الآخر • اذ لا يبعد فى المتماثلات فى بعض الصفات اختلافها فى بعض
الأحكام على ما يعرفه أهله ، ولو سلمنا وجود دليل اللاحق لكان
قياس جزء على جزء ، وذلك غير مقبول فى العقليات ، على ما يعرف فى
موضعه • وعلى ما يقال مع أهله فظهر من كلام هذا الرجل عند العقلاء :
أنه غير متمسك بدليل عقلى ، وسنبين أنه لم يستدل على صحة مذهبه
بدليل نقلى • فاذا بطل له العقول والمنقول : ثبت أنه بالتحكم والهوى
يقول • وذلك دأب كل غبى جهول •

وأما قوله « فالواجب عليهم أن يخاطبوا الصوت باسم الذى
الصوت له • وكذلك الصورة يجب أن تخاطب باسم الذى هى له »

فنقول له : قولك : واجب عليهم هذا الوجوب الذى ادعيته • أهو
عقلى أو شرعى ؟ فان قال هو عقلى وشرعى ، فلا بد من اقامة الدليل على
ذلك •

فان قال : الدليل على ذلك : النقل والعقل أما النقل فهو أن العاقل
إذا أقر بأن الله خاطب موسى بصوت مسموع ، أو ظهر فى صورة مرئية
لفقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت • وتلك الصورة بما لم يخص به
شيئاً من المخلوقات اذ تجلى هو فيها • وإذا ثبت ذلك فالعقل يشهد بأن
ذلك الصوت ، وتلك الصورة شريف • والصوت لا بد أن يعترف لشرفه ،
وينزل منزلته ، ولا أشرف من الله تعالى ، وما ظهر فيه الله تعالى فينبغى
أن يعظم بأقصى رتب التعظيم ، ويعبد بأجل العبادات ، فخرج من
هذا : أنه يجب عقلاً أن تعظم الصورة لتعظيم الحال فيها ، فتخاطب
باسم الرب ، ويعترف لها بالربوبية والألوهية •

وأما الشرع فالذى دل عليه العقل جاءت به الشرائع • ألا ترى أن
موسى خاطب الصوت باسم الربوبية ، وكذلك من رأى الصورة انما
يرى صورة الله ، والله تعالى معظم بالشرع والعقل ، فتلك الصورة ينبغى
أن تكون معظمة بالشرع والعقل • ألا ترى أن الشرائع قد أمرتنا بتعظيم
الملائكة ، واهانة الشياطين ، وليس يخفى أن العرش أعظم من السماء •
وأن المشرق أعظم من المغرب ، وأن الصالحين أعظم من الظالمين •
وهذا كله يشهد له العقل والنقل كما سبق •

هذا انهاء تقرير حجته ، واليها أشار فى كلامه ، ولا مزيد فى التقرير
عليها •

فنقول : قولك « العقل دل عليه » باطل • فان العقل لا يدل على
التزام العبادات • فان معنى العبادات التى تفعل بحكم اللزوم انها
تفعل ، والا فيعاقب الله التارك وذلك لا يتوصل العقل اليه • اذ العبادات
لا تتعين عنده ، الا بتعيين معين الذى هو الشارع الذى ينص على ما
يرضيه من العبادات ، وعلى ما لا يرضيه • وأما العقل فلا يستقل بشيء
من ذلك ، فلعن العبادات التى يعينها العقل ويلتزمها • لعل الله تعالى
لا يرضى بها • اذ يفعل الله ما يريد ولعل ما يظنه العقل عبادة هو معصية •
فان هذا الله تعالى يفعل ما يشاء • فكما يجعل من شاء نبيا ، ووليا ،

يجعل من يشاء فاسقا وخبيثا • ويمد بأسباب ذلك • ولا حجر عليه
في ذلك • ولا حكم كذلك ، يجعل ما يشاء من الأعمال طاعة ، وما يشاء
معصية ، وان لم تقل بذلك لزمك أن تجعل الله تعالى محكما عليه
مغلوبا • وذلك كله على الله تعالى محال •

وأما ما ادعيت من النقل من الأنبياء فذلك شيء لا يصح عنهم •
انهم عظموا الصوت والصورة بما عظموا به الله حتى عبدوهم — كما
تزعمون أنتم —

وقولكم : ان موسى خاطب الصوت بالربوبية زعم وقاح ، وافك
صراح • وانما المخاطب بالربوبية المتكلم بالصوت بزعمكم الذى قال عن
نفسه بالصوت « أنا الله » والذى يعقله العقلاء الذين لا يلعبون بأديانهم ،
ولا يجترؤون على ربهم والهمهم • ان الصوت موجود يتكلم به ، ولا يتكلم
هو عن نفسه • فاذا سمع العاقل قائلا ، قال بصوت مقطوع « مشيت الى
(بيت المقدس) فرأيتة » مثلا ، لا يشك عاقل في أن المخبر عن نفسه
انما هو الذى قام به الصوت ، لا الصوت • فانه لو كان الصوت هو
الذى أخبر بذلك عن نفسه لما صدق عليه ذلك • ولما صح منه الخبر ،
لأنه لا يتأتى منه المثل ، ولا الرؤية •

وكذلك • لو قال انسان مخبرا عن نفسه ، بقوله : « أكلت الخبز »
وهذا بين بالضرورة • واذا تقرر هذا فالصوت الذى سلمناه جدلا الذى
تكلم الله به على زعمهم لم يقل من نفسه شيئا مما ذكره • انما الله
هو الذى قاله مخبرا عن نفسه • وأما ما قاله موسى فانما قاله لله تعالى •
فله اعترف بالربوبية ، واليه تاب ، وله سجد ، واياه عبد ، لا للصوت •
وهذا معلوم على القطع والضرورة والمخالف في ذلك جاهل متسامح ،
أو معاند متواثق •

وقد كان تقدم من قول السائل ، الغبى الجاهل : أن موسى اعترف
للصدي بالربوبية • وأنه الذى قال عن نفسه : « أنا الله • لا اله الا أنا •
فاعبدنى » وأنه هو الذى سجد له موسى • وعن ذلك الصدى تحمل
موسى الرسالة • وأنه هو الذى كلم موسى ، واياه جاوب ، وأنه قام
عند موسى مقام خالق ، فسماه الها • وربما يظن ذلك الجاهل أن هذا

الذى قاله « أغشتين » هو الذى قاله هو • وهيهات أن بينهما ما بين الثرى والثريا •

وغاية كلام « أغشتين » وإن كان فيه من المخطئين : أن يقول : « قد علمنا أن الله تعالى خلق الصوت الذى أسمعه لموسى كما علمنا أن الله خلق جميع الأصوات • ولكن وجب علينا الاقرار لذلك الصوت بالربوبية ما لم يجب لغيره ، لعلمنا أن الله تعالى ولى المخاطبة به » • هـ •

هذا نص ما فى كتابه على هذا المعنى •

ولا يفهم منه شيء مما انتحله ذلك السائل • وقد وكلت الناظر العاقل المنصف للوقوف على كلامهما ، وتفهم معانيهما • فانى قد نصت على كلامهما فى هذا الكتاب ، وحكيته • كى يزول الارتياب • ويعلم الناظر المنصف : أن السائل ليس على شيء من الصواب • وانما نبهت هذا التنبيه ، حذرا من المغالطة والتمويه • فانى أخاف ان وبخ أحد (أقسة) المنصارى هذا السائل على هذا المذهب الذى اخترعه ، والمحال لذى ابتدعه ، أن يحتج لنفسه بأن ينسبه الى « أغشتين » ويكون فى نسبته من الكاذبين •

فمن أراد الانصاف فليطرح عن نفسه التعصب والاعتساف ، ويقف على كلامهما متدبرا ، وفيه متفكرا ، ولقد كنت أتمنى أن يكون أولئك (الأقسة) بين يدي ، حتى يسمعوا منى ، وينظروا الى • فليس كل ما فى النفس تبرزه المكاتبه ، ثم ليس الخبر كالمشافهه •

وأما قوله « واذا وجب اكرام الحجاب ، باكرام المحتجب به لم يبق علينا ، من الكلام شيء الا فى الحجاب ، الذى اتخذه منا وهو المسيح » فنقول : المفهوم من لفظ الحجاب انما هو الساتر للشيء المانع له • فانك تقول « احتجب عنى فلان » اذا استتر عنك ، ، وامتنع من لقاءك والخروج اليك ، ولا يصح هنا على مفهوم كلام هذا الرجل أن يكون الحجاب هو الساتر ، بل هو الكاشف المظهر على قوله ، وذلك أن ارادة الله وذاته قبل اتخاذ الصوت والصورة لم يكن شيء منهما ظاهرا • قلما اتخذهما ظهرت ارادته وذاته • هذا مفهوم مساق كلامه ، فتدبره •

وهذا يدل على قلة التحصيل ، وقصد التخليط والتجهيل • وإذا كان الناظر من قلة التحفظ بحيث يعبر عن المظهر بالساتر • فعلمه جهل ، ونظره قاصر •

وأما قوله في الشواهد على اتخاذ الله المسيح حجابا • فتحويله ليس وراءه تحصيل • وذلك أنه قال : « ان لم يوجب القياس ايجاب اضطرابا ، فانه يجوز تجويز الامكان » • ثم انه تكلم بأكثر ، وذكر القياس الفاسد الذي به كفر • ثم رجع حاصل كلامه الى أن قال : « لأن اتخاذ الصورة مثل اتخاذ الصوت » وهذا كله قد بينا فسادة فيما تقدم •

وأما ما ذكره من شواهد الأنبياء عليهم السلام على ما ادعاه من الهذيان والهذر والبهتان على المتعالي عن النقصان • فليس له في شيء من ذلك شاهد ، وحاشا أنبياء الله وكتبه من مذهبه الفاسد ، وغاية تلك الشواهد : أن تدل على رسالة عيسى عليه السلام ، وليست دلالتها قاطعة على ذلك • فتدبرها بفهمك ، وخذها بقياس عقلك •

وسياتى ذكر ذلك وأشباهه في « باب النبوات » بعد هذا ان شاء الله تعالى • وقد أتينا على ما أردنا ذكره في هذا الباب • والحمد لله على أننا أغفلنا كثيرا من ألفاظ « أغشتين » يمكن البحث فيها • تركناها لئلا يطول الكتاب ، ويخرج عن الضبط هذا الباب •

على أن هذا من كلامه هو اللب ، واللباب • هذا مع أن الأمل ان وافق القدر ، أن أرد على « القس أغشتين » كلامه • وأبطل من ذلك الكتاب قصده ومرامه •

وحسبنا الله • ولا حول ولا قوة الا بالله •



كمل الباب الثاني ، وبكماله كمل الجزء الأول • والحمد لله حق حمده ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وآله وسلم • يتلوه الثانى •



الأخلاق

بِمَا فِي دَيْنِ النَّصَارَى مِنَ الْفُسَادِ وَالْأَوْهَامِ
وَإِظْهَارِ مُحَاسِنِ دِينِ الْإِسْلَامِ
وَلِاثْبَاتِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

تأليف

الأبِسام الفُطْبِي

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أحمد مجازي السقا

المجلد الثاني

دار التراث العربي

البَابُ الثَّالِثُ

فِي النُّبُوءَاتِ وَذِكْرِ كَلَامِهِمْ

هذا الباب ينقسم قسمين :

أحدهما : نحكى فيه كلام السائل ، ونذكر الجواب عليه .

والثانى : نتكلم فيه على النبوات ، وعلى اثبات نبوة نبيينا محمد

عليه الصلاة والسلام ...

الفصل الأول

احتجاج أصحاب المِلَل

في حكاية كلامه

قال : « ابتداء احتجاج الثلاث ملك يعون الله •

اعلم : أن أهل الملك أجمعين متكافئون في ادعاء الايمان ، حاكمون • على كل قوم لأنفسهم بالايمان ، ولغيرهم بالكفر • قد غلبت عليهم في ذلك الغواية ، وتأديب الصبا ، ووصية الآباء والأجداد ، حتى صار ذلك طبعاً فيهم • لازماً لهم ، فكلهم قد سهل عليهم انتقاض غيرهم ، وطاب عندهم دينهم بالتهنية في دنياهم ، عن معاد آخرتهم ، وصاروا في تدبير دنياهم ومعاشهم ، على خلاف ذلك لأنك تجد أهل كل ملّة يزعمون أن غيرهم من الملل ألحف على كل طلب معاشهم ، وألطف في استجلاب أرزاقهم •

وأحسب أن العلة في ذلك : رغبتهم في التكاثر من الدنيا ، وهي التي تدخلهم الى التحاسد والمعايرة ، فيعجز كل قوم أنفسهم في طلب معاشهم • وأن الآخرة عندهم مهملة ، لبعدها عن حواسهم •

فلذلك يزعم أهل كل ملّة : أنهم أحق خيراً من غيرهم • فلذلك قلّ تناصفهم فيها ، وإن طال عصرهم • لأن كل قوم قد قلدوا سلفهم ، وطاب عندهم خبرهم في مدح دينهم ، وذم غيرهم فأسقط الرجل منهم كل حاسة ، وأمات خواطره ، وأذهب فهمه بقطع كشفه عن مصالح ما يستقبله من خبره ، واستعماله آياه ، بما هو مدبر عنه من دنياه •

ولتجدن الرجل من كل ملّة ، يروم شراء خرقة يرقع بها ثوبه • أو شركة لنعله ، فتراه يستجير ويستشير خوف السقطة ، والغلط •

ثم إذا صار الى كشف دينه ومعاده اكتفى فيه بتقليد سلفه • ثم لا يبالي بدليل من خالف ملته ، وينتقص كل خارج عن دينه •

فكل يقتحم المناظرة ، وإن لم يحسنها • ويراهم فريضة وهو
لا يفهمها ، ولم يتخذ شيئاً من العلوم والصناعات إلا الفضول • معترف
فيها للفضائل ، لا الجدال والمناظرة • وأن الجميع يدعون أمراً •
لا يقدرّون على التنافس فيه لبعده غاية وهو أنهم ليختلفون في معرفة
البارى تعالى لأنه لا يدركونه بالحواس ، فيختلفون في معرفته •
وانما يتعارف الناس فيما يدركونه بالحواس ويتصورونه في الأوهام ،
فينقمع العقل السليم في اجابة الحق اذا أدركه ، وانكشف له • فلذلك
يجادل كل قوم عن دينهم ، ويفضلون أنفسهم على غيرهم ، ويدلّك على
ذلك : أنك تجد الصقلبي ، العبد الحبشي^(١) ، يقع مرقوقاً بيد رجل من
أحد الثلاث مل • فيرده الى ملته ، ويورد عليه أخبار سلفه ، فيقبله
منه ، كتقبل الأطفال المغذيين فيه • وعلمته في ذلك : أنه يجد صدره
خالياً من الأخبار المدونة في الكتب ، فيتعلق بما أورد عليه من أخبار
من علمه • ويتمكن ذلك في صدره ، حتى يصير واحداً من أهل الملة
في ادعاء الفضل لها • وانتقاص أهل غيرها والطعن عليهم ، ولو أن
مجوسياً دخل بلدنا طارئاً ، أو تاجراً ، فكبرت عليه مجوسيته ، ووحش
لوحده ، على البقاء عليها ، عازماً على رفضها ، ثم طلب الخروج الى
أفضل الثلاث الملل المفسدة عليه مجوسيته ، لتحير ، وعمى أية أفضل
فيخرج اليها ؟ لأنه يجد كل قوم يدعون لأنفسهم الايمان ولغيرهم
الكفر ، ثم تجدهم متكافئين في ادعاء الآيات • لأن أهل كل دين يزعمون
أن بيّنة دينهم على آيات قامت ، وبراهين ظهرت • وما تجد عند أحدهم
آية من تلك الآيات التي زعموا أنها اضطرت عقل المجوسى الى الدخول
في أديانهم •

ولكن الذى كان يضمه اليه ، حسن نظره : أن يتوقف حتى يسمع
حجتهم ، ويستعمل عقله في دعواهم ، ليفهم ما احتجاجهم من نبذ
الحق ، فكان يجد في دعواهم : أن النصرانى والمسلم مكران لليهودى
بأن دينه أول • وأنبياءه حق • ثم يقول النصرانى : ان كتابى جاء من
بعد ، فنسخ طاعة دين اليهودى • ثم يقول المسلم : وكذلك جاء كتابى
بعد ، فنسخ طاعة دين النصرانى ، كما نسخ دين اليهودى • فاذا كاشف
المجوسى اليهودى عما ادعياه ، أنكرهما • وقال : لم يأت بعد كتابى

(١) كذا في الأصل • مع أن الصقلبي غير العبد الحبشي •

من الله كتاب • ثم اذا سأل النصراني عما ادعاه المسلم أنكر أيضا •
وقال : لم يأت بعد كتابي من الله كتاب •

فوجب على النصراني أن يأتي بالبينة على اليهودي من الكتب التي
أقر له بها • فان لم يكن فيها مسيحا منتظرا ، فلا حجة له عليه ، ولا
معلق له اليه • وان كان فيها مسيحا منتظرا ، يرجى صلاح الحال من
سببه ، ووافقت علاماته ، علامات الذي قد جاء وظهر • فاذا كان • فقد
اختار النصراني الرسالة الأولى ، والثانية لنفسه • وخرج اليهودي
عن رضا المعبود بجحده الرسالة الثانية ، ودفعه بسنته فيما أعقب به
في عبادته من الرسالة الثانية ، ثم يحمل المسلم البينة على النصراني
من الكتب التي أقر له بها • وجامعه عليها • فان لم يكن فيها محمد
منتظرا ، فلا حجة له عليه ، ولا مطعن له اليه •

وان كان فيها محمد منتظرا ، ثم وافقت علاماته علامات الكتب •
فقد أصاب المسلم ، ولزم النصراني الخروج عن رضا معبوده » أ • ه •

الجواب عن كلامه : يا هذا أسهيت وأطنبت ، وبجبة خردل ما أتيت •
كثير كلامك ، فكثير غلطك ، وقلت فائدته ، فظهر قصورك وسقطك ،
ومن كثير كلامه ، كثير سقطه • ومن كثير سقطه ، كانت النار أولى به ،
أعميت لجهلك بلحنه ، ولم تتقطن لتثبيجه ولحنه ، فلقد استسمنت
بذا ورم ونفخت في غير ضرم •

فأول خطابك قولك في ترجمتك هذا الفصل : « احتجاج الثلاث
مل » ثم ضمنته ذكر ملة المجوس فكان ينبغي لك أن تقول : « احتجاج
الأربع مل » فان المجوس أمة تدعى : أنها أرسل اليها رسول ، وأنزل
عليه كتاب • ثم ان مذهبهم في التثنية • وان كان باطلا ، فهو أقل
شناعة ، وأبعد عن جحد الضرورة ، وأدخل في مسلك النظر • وان كان
فاسدا من مذهبكم : فأنهم يقولون : ان الموجودات خير وشر ، ولا بد
لكل واحد من موجد • فموجد الخير : خير ، والخير لا يفعل الشر ،
لئلا يكون شريرا • وموجد الشر : شرير • لا يفعل الخير • اذ لو فعل
الخير لما فعل الشر • قالوا : فلا بد من الهين اثنين ، يفعل أحدهما
الشر ، والآخر الخير •

وهذا كلام يشبه النظر العقلي • وبعد بحث شديد يتبين فساده ،
فلهم شبهة في التمسك بمذهبهم ، ولو أورد المجوس شبهته عليكم ،

لصعب عليكم ابطالها ، لكونه يلزمكم من مذهبكم التزامات لا تنفصلون عنها .

وأنا الآن أذكر طرفا من ذلك حتى يتبين عجزكم وجهلكم هنالك :

أما مذهبكم في الأتانييم ، فغير مقبول ، ولا معقول ، كما تقدم ، وكفى به فسادا قولكم : « آلهة ثلاثة ، اله واحد » وكذلك مذهبكم في الاتحاد والحلول ، على ما مر . ومن العجب : أنكم تعتقدون مذهب المجوس ، ولا تشعرون . فانكم تنسبون الشرور والاضلال الى غير الله تعالى ، وتعييرون علينا . اذا نحن فوضنا كل الأمور الى الله تعالى . وقلنا : كل موجود في العالم ، فانما هو موجود ايجاد موجد واحد . وهو الله تعالى . وهذا . والله هو التوحيد الحق الذي ارتضاه الله لخلقه ، وكلف به أنبياءه ورسله ، وأنزل به كتبه .

فعين مذهبكم في هذه المسئلة هو مذهب المجوس ، فانكم تنسبون الشرور كلها الى الشيطان وهو عدو الله ، وهو لا يصدر عنه الا الشر . وليس الشر من ايجاد الرحمن عندكم . فانه ما يوجد الا الخير . فعلى مذهبكم هناك خالقان : أحدهما : خالق الخير ، وهو الله . والآخر : خالق الشر ، وهو الشيطان . وهذا عين المجوسية ، فصرحوا بها ، ولا تتكروها ، واجمعوا بينها وبين النصرانية . وتقلدوها ، ثم زعمت على مقتضى ترجمتك : أنك تذكر حجاج الملل الثلاث ، ولم تف بشيء من ذلك ، ولا ذكرت في كلامك هذا حجة للمسلمين عليكم ، ولا لليهود ، بل ذكرت حجة النصارى الداحضة ، وسكت عن حجة خصومهم المسلمين الظاهرة . وهذا أثر التقليد . والجمود عليه حملك ، على الاعراض عن حجة خصمك ، لعلك لا تسمع ما يؤدي الى تبكيئك ، ولطمك . ولقد كان ينبغي لك — لو كنت من النظائر والعارفين بأديانهم — أن تذكر حجج خصومك أحسن ، فتبحث عنها واحدة بعد واحدة ، حتى يتبين لك فيها الصحيح من الفاسد . ولكن مع هذا نقبل عذرك ، ونعلم جهلك . فانك واحد من عوام المسيحيين ، الذين تشبهوا بالقسيسين ، وفي مثلك ينشد :

فسد الزمان فسدت غير مسود

ومن الشقاء تفردى بالسؤدد

ولكن لا عليك ، فانما هو جنا يديك . فاني لأرجو أن يقف على هذا

الكتاب جماعة (المطارين) ويعلموا بما فيه أنك مخالف لآدابهم أجمعين ،
فيخرجوك من بين القسيسين ، ويلحقوك بالرياسين .

ثم قلت « اعلم أن أهل الملل أجمعين ، متكافئون في ادعاء الإيمان
حاکمون على كل قوم لأنفسهم بالإيمان ، ولغيرهم بالكفر » فنقول :
أما التكافؤ في الدعوى فنعم . لكن الفصل يقع بينهما من جهة الينات ،
ووقوف العقلاء على حكاية المذاهب والديانات . فان من الأديان
ما يدرك فسادہ بغير نظر ، ولا برهان ، بل بالفطرة التي خص الله بها
الانسان ، وكذلك دين النصارى ، الضلال الحيارى .

ولقد حكى أن بعض حكماء الهند — وكان من الملوك الذين يحكمون
بالسياسة الدينية ، الذين لم يتقلدوا اتباع ملة دينية — ذكرت له الملل
الثلاث . فقال : أما النصارى ، وان كان مناصبهم من أهل الملل
يجاهدونهم بحكم شرعى . فقد أدت آراؤهم الى أن لا نرى بحكم
عقولنا لهم عقولا . فاستثنى هؤلاء القوم — يريد النصارى — من
جميع العوالم فانهم قصدوا مضادة العقل ، وناصبوه العداوة ، وتحلوا
بببب الاستحالات ، مع أنهم حادوا عن المسلك الذى انتهجه غيرهم من
أهل الشرائع . وقد كان لهم فيه كفاية . ولكنهم شذوا عن جميع مناهج
العالم الشرعية الصالحة ، والعقلية الواضحة ، واعتقدوا كل شىء مستحيل
ممكنا ، فلم يعزب عنهم شىء ، وبنوا من ذلك شرعا ، لا يؤدى البتة
الى صلاح نوع ، من أنواع العالم الا أنه يصير العاقل اذا تشرع به
أخرق ، والمرشد سفيها ، والمحسن مسيئا . لأن من كان فى أصل عقيدته
التي جرى نشوؤه عليها : الاساءة الى الخالق ، والنيل منه بوصفه
بغير صفاته الحسنى ، فاخلق به أن يقصد الاساءة الى مخلوق . ولذلك
ما بلغنا عنهم مما فى خلقهم من الجهل ، وضعف العقل ، والطمع والبخل ،
ومهانة النفس ، وخساسة الهمة ، والغدر ، وقلة الحياء ، الا قليلا منهم .
فلو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم الا لعموم أضرارهم ، التي لا تحصى
وجوهها ، لكفى . وكما يجب قتل الحيوان المؤذى بطبعه . فكيف ،
وقد ثم من الموجبات ما تقدم ؟

فهذا ما بدا لهذا الحكيم فى أول نظرة من مذهبكم على أول وهلة ،
وليس بمخاصمكم ولا مناوئكم ولا بمتهم باتباع الهوى فيكم . لكن قد
تبين الصبح لذى عينين ، بحيث لا يشك فيه أحد من النقلين وسرى
ذلك واضحا أن كنت ذا بصر ، وبصيرة ، ان شاء الله تعالى .

ثم قلت : « قد غلبت عليهم في ذلك الغواية ، وتأديب الصبا »
وعوصية الآباء والأجداد ، حتى صار ذلك طبعاً فيهم » هذا الذي
ذكرته : لعمرى ، حكم الرعاع الغبر ، والغناء الغثر • وأما من أمدّه الله
بنور توفيقه ، وبين له سواء طريقه ، فقد تبين له الرشد من الغي •
والميت من الحي ، فقد أخطأت في إطلاقك هذا الحكم ، على جميع الملل ،
ولم تشعر بما لزمك من الفساد والزلل • كلا بل الذي ذكرته وصفه
أهل ملتك ، وحلية عصبتك • اذ هم أهل تقليد ، ونظرهم غير سديد •
ثم قلت : « فكلهم قد سهل عليهم انتقاص غيرهم ، وطاب عندهم دينهم »
بالتنهية في دنياهم عن معاد آخرتهم » وعدلت في هذا الحكم عن العدل
فحاق عليك اللوم والعدول • بل في الملل من لا ينتقص أحداً إلا إذا ذمه
الشرع ، وإذا رأى ذو فضيلة محققاً ، أحبه ، وشكره ، بالطبع والطوع
وذو الفضيلة يهجر في طلب الحق جميع لذاته ، ويزهد في جميع
ممتلكاته ، يبغى بذلك رضا سيده ومرضاته ، يضرب في طلب الحق
الأرض ضرباً ، فيقطعها شرقاً ، ويقطعها غرباً •

يوماً يمان اذا لاقيت ذا يمن
وان لقيت معداً ما : فعدنان
يفارق الأهل والوطن ، ويلزم الفقر والعطن ، فاذا ظفر بالبغية
لياً وفطن • أما الدنيا فلا يلتفت إليها ، وأما الآخرة فهو مقبل
بكليته عليها ، فهو في كل حال ينشد ، وأحواله تشهد :

وأبغضت فيك النخل ، والنخل يانع
وأعجبنى من حبك الصدر والضال

وأهوى لجوان ، السماوة والغضا
ولو أن صنفه : وشاة وعذال

فأنت لم تحكم بالسوية ، ولا عدلت في القضية ، حيث حكمت
باعراض كل العقلاء عن الأديان ، وبالتكاثر من الدنيا على كل البرية •
كلا • لو كان ذلك لما بقى منا أحد إلا هالك • فراجع نفسك عن هذا الإطلاق •
وتب للواحد الخلاق • واحكم على أهل ملتك بتلك الخصال والأخلاق •
فان رب العالمين ، يبقّى علينا ببركة الفضلاء والصالحين •

ثم قلت : « وأحسب أن العلة في ذلك رغبتهم في التكاثر من الدنيا »

«وهي التي تدخلهم الى التحاسد والمعايرة • فيعجز كل قوم أنفسهم
في طلب معاشهم • وأن الآخرة عندهم مهمة» •

يا هذا • لقد كثر غلطك ، حتى يعجز الناظر فيه عن احصائه ،
وعظم سقطك ، حتى لا أقدر على استقصائه •
تفرقت الأطباء على خراش فما يصيد
فما يدري خراش ما يصيد

فتارة يتتبع عليك الكلام ، وأخرى تبدل المدح باللام • فربما تريد
أن تمدح فتدزم ، وتظن أنك تحل ربطا ، وأنت ترم ، وأنت في هذا
الكلام • قد لحننت فيه في عدة مواضع • وأردت أن تقول شيئا ،
فعبرت عنه بعبارة يفهم منها بحكم وضعها خلاف ما أردت أن تقول •
وذلك بين عند من تأمله ، من أهل العقول •

وبالجملة فأنت في هذا الفصل أردت أن تنفصح وتغرب • فإذا
بك تبهم ولا تعرب • على أن كلامك في هذا الفصل قليل الجدوى ،
«وإلهي الأصل • فينبغي أن تتعدى أكثر كلامك ، وتنزه عقولا عن الأخذ
في كثير من هذيانك • فإن الأخذ في الخرافات ، والاستغال بالترهات مذل
بالعقول والمروآت •

ثم قلت بعد ذكر كلام حاكيت به فعل السفلة الطعام ، المحدثين
في رعا ع الأعوام «لأن كل قوم قلدوا سلفهم ، وطاب عندهم ، خبرهم في
مدح دينهم ، وذم غيرهم» يا هذا جهلت كل الأنام ، إذ زعمت أن
التقليد دأب كل الأقوام ، ولو أنصفت في القضية ، وعدلت بالسوية ،
لقلت : ان الناس قسمان • قسم إيمانهم : برهاني ، وقسم اعتقادهم
بتقليدي • هكذا ظهر من أمر أهل الأديان وأما من لم يتدين بدين ،
فينبغي ألا يعد في الموحدين •

وبعد هذا • ينبغي : أن تعلم أن أمور الاعتقاد والإيمان ، لم يقنع
فيها قط أحد من الفضلاء بالتقليد من غير برهان ، ولأجل هذا حرم الله
علينا الركون الى التقليد ، وذم من عول في اعتقاده على اتباع الآباء
والجدود • فقال تعالى حكاية عن المقلد : وذما له ، وموبخا له على
جهله «بل قالوا : لنا وجدنا آباءنا على أمة ، وأنا على آثارهم مهتدون •
وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا
آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون • قال : أو لو جئكم بأهدى

مما وجدتم عليه آباءكم • قالوا : انا بما أرسلتم به كافرون «(١)

فهذا ذم من الله للتقليد وأهله • وقد أمر بالنظر الصحيح ، وحض على فعله • فقال تعالى : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وما تنفى الآيات والنذر ، عن قوم لا يؤمنون »(٢) وقال تعالى : « فلينظر الانسان مم خلق » ؟(٣) وقال تعالى : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق »(٤) وقال تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها • أو آذان يسمعون بها • فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »(٥)

ومثل هذا كثير ، وكفى شرفا بهذا الدين ، ودليلا على صحته عند العقلاء العاقلين : أنه حرم التقليد ، الذي يجر الى الالباس والتجهيل والتفنيذ ، واستتهض العقول للنظر ، وأوضح لها مسالك العبر ، وأوجب عليها النظر الصحيح ، المفضي الى العلم • ومن لم يفعل ذلك من العقلاء فقد تعرض للعقاب ، وألزم ذلك كله : ليتبين عن بصيرة ، الرشد من الغي ، ويعلم من هو على الحق ممن تحكم في دينه بظلمات التقليد والرأى • وبعد هذا • فاني لا أشك في أنك لا تعرف حقيقة التقليد ، ولا أقسامه ، ولا أحكامه ، ولا في أي محل يجوز ؟ ولا في أي محل يحرم ؟ ولا من الذي يقلد ؟ ولا من المقلد ؟

فان ادعيت أنك تعرف شيئا مما هنالك ، فعجل بالجواب على ذلك • ثم قلت بعد ترديد وتطويل ، من غير افادة علم ، ولا شفاء غليل « فكل يقتحم المناظرة » وان لم يحسنها ويرأها فريضة عليه ، وهو لا يفهمها ، ولم يتخذ شيئا من العلوم والصناعات • الا الفضول • اعلم يا هذا : أن الله تعالى ، أنطقك بشرح حالك • فانك عبرت عن سوء مناظرتك ونظرت بركيك مقالك ، فجھلت حتى توهمت أنك من أهل النظر ، وأوهمت عند الرعاع أنك من أهل المناظرة والفطر • كلا • فلقد ارتقيت مرتقا صعبا ، وسلكت مسلكا وعرا ، وادعيت دعوى

(٢) يونس : ١٠١

(٤) الروم : ٨

(١) الزخرف : ٢٢ - ٢٤

(٣) الطارق : ٥

(٥) الحج : ٤٦

عريضة لتخضع بها قلبا ضعيفا ، ونفسا مريضة • ولا بد من سؤالك ، حتى يتبين حقك من محالك • فأقول لك : ما حد النظر وحقيقته ؟ وما أصوله ؟ وكم أقسامه ؟ وما أحكامه ؟ وما حقيقة المناظرة ؟ وما شروطها ؟ وكم هي ؟ وما الشيء الذي يطلب بالمناظرة ؟ وما حقيقة الدليل ؟ وكم أقسامه ؟ وكم شروطه ؟ وما وجه الدليل ؟ وما المدلول ؟ وكم أقسامه ؟ فان كنت تدعى المناظرة ، فأجبنا عن هذه الأسئلة محاوراة •

ثم قلت : « وان الجميع يدعون أمرا لا يقدرון على التناصف فيه لبعده غايته » لتعلم يا هذا • أن حكمك على الجميع بأنهم لا يقدرון على التناصف : حكم خطأ • فان العاقل المشتغل بما يعنيه ، انما يطلب الحق ليصل اليه ، ويعرف الباطل ليتجنبه • ومن كانت هذه حاله ، أنصف وتناصف • وانما يتمتع التناصف على من غلب عليه التقليد • وحمد على ما ورثه من الآباء والجدود ، وهو يصمم على أنه على الحق فيمنعه ذلك التصميم عن البحث والنظر • ثم ان تنبه لنوع نظر كان كما قال :

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولن تلين اذا قومتها : الخشب

فهذا الذي يتعذر عليه التناصف ، وتبعد عليه الغاية المطلوبة • وأما من نور الله قلبه ، وأجزل من المعقولات حظه • فالتناصف مرغوبه ، إذ الحق مطلوبه ، وفي مثل هذا ينشد :

يعيد على الكسلان ، أو ذى ملالة وأما على المشتاق فهو قريب

فان قلت : ما ذكرته أنت قليل ، وما ذكرته أنا كثير • قلت لك :

وما ضرنا أنا قليل • وجارنا عزيز

وجار الأكثرين ذليل

تعرنا • أنا قليل عديدنا

فقلت لها : ان الكرام قليل

ثم ان وجد في جميع الخلق واحد بهذه الصفة ، فقولك : فاسد • فانك حكمت على الجميع • بحكم قبيح شنيع ، وأطلقت القول ، ولم تخف فيه الزلل ، ولا العول •

ثم قلت : « ليختلفون في معرفة البارئ تعالى ، لأنه لا يدركونه بالحواس • وانما يتعارف الناس فيما يدركونه بالحواس » اعلم : أن هذا الذى ذكرت ، لا يصح أن يقال على كل العقلاء ، وانما يصح ذلك على الجهلة الأغبياء بل نقول : ان الأغبياء أهل الجهالات يختلفون في الضروريات ، وقد بينا عليكم مواضع كثيرة من اعتقادكم ، خالفتم فيها الضروريات • وناكرتم المعقولات • وأما أهل العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، فلم يختلف منهم اثنان في معرفة وجود الله تعالى • وانما تخالفوا في أى وجود وجوده ، وهذا يعرف في موضعه فلست من أهله •

وأما تمثيلك بالعبد الحبشى ، فتمثيل ، ليس وراءه تحصيل • وذلك أن العبد الحبشى اذا كان عاقلاً سليم الفطرة ، اذا سمع كلاماً ، لا يقبله عقله ، يرده • وأما اذا كان ناقص الفطرة ، مختل العقل ، فيقبل كل محال ، ولا يثبت على حال •

ثم قلت : « ولو أن مجوسياً ، دخل بلدنا فكبرت عليه (١) مجوسيته ، ثم طلب الخروج الى أفضل الثلاث الملل » أنت توهم بهذا القول : البراءة عن المجوسية ، والدعاء الى الملة النصرانية ، عساك يظن بك أنك تفحم الخصوم • أو أنك حصلت من دينك على أمر معلوم • كلا • بل لو ناظرنا مجوسى لأفحمك ، ولو وزن دينه بدينك في معيار العقل لرجحك • وقد تبين ذلك فيما تقدم •

ثم قلت : « فكان يجد — المجوسى — في دعواهم : أن النصرانى والمسلم ، مقرران لليهودى بأن دينه أول • وأنبياءه حق • ثم يقول النصرانى : ان كتابى جاء من بعد فنسخ طاعة دين اليهودى ، ثم يقول المسلم : وكذلك جاء كتابى فنسخ طاعة دين النصرانى » •

يا هذا البليد • أخطأت على المسلم ، حيث ظننت أن المسلم يسلم لليهودى دينه الذى بيده الآن ، ويعترف بأنه أول ، وليس الأمر كذلك ، بل الذى يقول به المسلم : ان الدين الذى جاء به موسى عليه السلام : هو حق • وأنه الأول بالزمان ، بالاضافة الينا ، واليكم • وأما اليهود اليوم فليسوا على دين عندنا ، وعندكم •

(١) من الممكن أن تقرأ في المخطوطة : فكسرت •

فعدنا من جهتين ، وعندكم من جهة واحدة • احدى الجهتين •
عندنا : أنهم كفروا بمحمد نبينا صلى الله عليه وسلم • وقد كان الله
تعالى أخذ عليهم العهد بالايمان به ، وبلغهم ذلك على لسان موسى
عليه السلام ، وغيره من أنبيائهم عليهم السلام على ما ننقله ان شاء
الله تعالى • وكذلك نقول في المسيح عليه السلام : انهم كفروا به بعد أن
أنكروه ، وهذه هي الجهة الأخرى • فهاتان جهتان • وأنتم انما تكفرونهم
من جهة واحدة ، وهي كفرهم بالمسيح • فقد اتفقنا نحن واياكم : على أن
اليهود في هذا الوقت ليسوا على دين ، وليسوا بمنتسبين الى شيء من
دين موسى عليه السلام • واذا كان الأمر كذلك • فكيف جازفت في
لفظك ، وقلت على المسلمين والنصارى ما لا يرضون به ، ولا يعولون
عليه ؟ وهل اطلاقك هذا الا نتيجة جهلك ، ومما يدل على نقص عقلك ؟

ثم انك ادعيت : « أن النصارى يقولون : ان كتابهم نسخ شرع
اليهود • وكيف يصح لك يا جاهل بدينه أن تقول هذا ، وعيسى عليه
السلام يقول في الانجيل ، الذي بأيديكم : « لم آت لأنقض شريعة من
قبلى • انما جئت لأتممها » ؟ (١)

فاما أنت هو الكاذب ، أو كتابك هو المحرف الباطل • وسنبين ان
شاء الله تعالى : ما أحدث في الانجيل والتوراة من المناقضة والتحريف
ما يدل على أنها ليست هي التي أنزل الله •

ومن عجيب أمرك • وأدل دليل على جهلك : أنك تدعى أن كتابك
نسخ شرع اليهود ، وأنت بجهلك ترجع اليه في أحكامك ، وهل هذا الا
تناقض ظاهر ، وجهل فاحش ؟

ثم قلت : « فاذا كاشف المجوسى اليهودى عما ادعياه أنكرهما •
وقال : لم يأت بعد كتابى من الله كتاب » يا هذا • لقد قولت اليهود ما
لا يمكنهم قوله ، ولا يسعهم جهله ، فان اليهود يعترفون بأنه قد كان
بعد موسى أنبياء كثيرون ، جاءوا بصحف ، وقرأوا على الناس كتباً
كثيرة ، هي بين أيديهم وأيديكم اليوم ، تقرؤونها وتحكمون بها • وما أنت
قد استدلت بكثير منها في كتابك هذا • على اثبات بنوة المسيح • فتلك
الكتب التي نقلت منها • اما أن تكون من الله • أو لا تكون • فان كانت

• من الله فقد أفحمت نفسك ، وأكذبتنا ، وصار كلامك ينقض أوله آخره .
• مع أن اليهود توافقتك على أن تلك الكتب والصحف من الله . وعلى السنة
• رسول الله .

على هذا جمهورهم ، وأكثرهم . وان كانت تلك الكتب ليست
من الله — ولا يساعدونك عليها — فكيف يسوغ لك الاحتجاج عليهم
بشيء ليس من كلام الله ، ولا يسلمونه ؟ فلقد مكنت من نفسك يا هذا :
اليهود والمسلمين ، وصاروا على كذبك وخطئك من الشاهدين .

فمثلك مثل الباحث بظلفه على حشفه ، والجادع مارن أنفه بكفه .
فلقد لحقت « بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ،
وهو هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١) .

وبعد هذا فلتعلم : أن الذي تنكره اليهود — لعنهم الله — من الكتب
المنسوبة الى الله تعالى : كتابك ، وكتابنا ، لا غير ، وسنقيم واضح
الأدلة ان شاء الله على من خالفنا .

ثم قلت : « ثم يحمل المسلم البيعة على النصراني من الكتب التي
أقر له بها ، وجامعه عليها . فان لم يكن فيها محمد منتظرا فلا حجة
له عليه ، ولا مطعن له اليه . وان كان فيها محمد منتظرا ، ثم وافقت
علاماته ، علامات الكتب ، فقد أصاب المسلم ، ولزم النصراني الخروج
عن رضا معبوده » .

ظاهر كلامك ، أنك أنصفت ، وأنت في اعتقادك ، عليه ما عولت .
ولقد أعلم أنك اذا أتيت ذلك عليك من كتب ، عدلت وغدرت « شئشنة
أعرفها من أخزم » واذا كان الغدر في النفوس الخبيثة طباعا .
فالثقة بكل أحد عجز . وما هي أول بركتكم .

وأنا أسأل الله العظيم ، رب العرش الكريم ، بأسمائه الحسنى ،
وصفاته العلى ، وبحق آدم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم ،
وممن بينهم من النبيين والمرسلين ، وبالملائكة المقربين ، وأهل طاعته
أجمعين . أن يلعن من لا يرجع الى الحق اذا تبين له ، وأن يعجل عليه
عقوبته في الدنيا ، تكون علامة على غضب الله عليه ، وعلى عذابه في

الآخرة ، العذاب الدائم • نسأل الله العظيم أن يفعل ذلك بعزته •
وكرمه • آمين ، آمين • والصلاة على خيرته من خلقه •

ثم ينبغي لك أن تعلم أن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم
تثبت لنا بطريق واحدة ، بل بطرق كثيرة ، فلو فرضنا • أن الأنبياء
صلوات الله عليهم لم ييشروا به ، لكانت نبوته ثابتة • ببراهين قاطعة
كثيرة بها عرف نبوته العقلاء الذين لم يقرأوا قط كتابا • ولا انتسبوا
الى شريعة •

وستوضح هذه الطرق ان شاء الله تعالى ونبينها على ما لا يبقى
معه ريب لعاقل بحول الله وقوته •



الفصل الثاني

المسيح المنتظر

في حكاية كلامه أيضا

قال : « ومن بينة النصراني على اليهودي : أن في الكتب التي أقر له بها ، وجامعه عليها : مسيح منتظر • لا يقدرون على جحده • لأن انتظاره معروف فيهم ، وظاهر عليهم • ودل على زمان مجيئه : أنهم منتظرون له منذ سببت اليهود ، وبددت الى اليوم • فاذا قد لزم اليهود بانتظاره من وقت تفريقهم في الدنيا • فقد وجب للنصارى أن يقولوا : انه قد جاء • والدليل على أنه هو : أن اليهود اختلفت من سببه فصارت فرقتين على الكفر والايمان به • فالفرقة الكافرة هم اليهود ، والفرقة المؤمنة هم النصارى ، فأمنت طائفة ، وكفرت طائفة • والكتب أجمع مع كلامهم ، يحتجون بها بعضهم على بعض يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها ، ويختلفون في تأويلها كفضلهم الى هذه المدة ، والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما : أن ننظر في الكتب ، ونستدل بها على حالة بنى اسرائيل منذ كانت على الايمان والكفر ، فانهم ان كانوا على الكفر فانه يلزمهم الذلة ، اذ الذلة والأسرة والفرقة علامة الكافرين ، وموجود في الكتب : أن الله لم يوعد بالثواب في الآخرة لبنى اسرائيل على الطاعة والايمان • وانما وعدهم في الدنيا (١) ، فوعدهم عند الطاعة والايمان بالملك والنعمة ، والنقمة من عدوهم • والتشهير لزرعهم ، وفواكههم ، وأوعدهم عند الكفر والعصيان بالتغلب عليهم ، والملك والقهرة لهم • من عدوهم • فلم يزالوا مؤيدين عند الطاعة والايمان ، ومستعبدين عند الكفر والعصيان » ١ • ه •

(١) النص في التوراة العبرانية: يحتمل الجزء في الدنيا أو في الآخرة والنص في التوراة السامرية نص في الجزء الآخر (تثنية ٢٢ : ٢٤ - ٢٦) (١٢ - الاصلاح)

فأنهم الجواب عنه : اعلم يا هذا : أنه لولا أننا نخاف أن نساعد اليهود على كفرهم وأن يحملهم ذلك على دوام الاصرار ، وزيادة العناد لنبنهناهم على مواضع في هذه الأدلة ، التي ذكرت يفسد عليك لأجل ذلك أكثرها ، ويبطل عليكم الاحتجاج بها ، ولو فعلنا ذلك لما كان مما يقدر في صحة نبوة المسيح • فانها تثبت بطرق آخر •

وانما يكون ذلك دليلا على أنك لا تحسن الاستدلال ، ولا تعرف طرق المناظرة والجدال • ولكن حاشى لله أن أعين اليهود ، أولى اللعنة والعداوة والبغضاء والأحنة على من التزم شرعة المسيح ، وركب منها المنهج الصحيح • وكيف أفعل ذلك ؟ وقد أخبرنا الله على لسان نبيه ورسوله ، بأنه كان منهم عالمون بالله ، ومصدقون بما جاءهم على لسان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، والذين أشركوا • ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : انا نصارى • ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون • وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ، مما عرفوا من الحق • يقولون : ربنا آما ، فاكذبنا مع الشاهدين • وما لنا لا نؤمن بالله ، وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » (١) •

فهؤلاء الذين عرفوا شرعة المسيح عليه السلام ، وعلموا ما عهد اليهم من نعت محمد ، خير الأنام فبادروا لتصديقه ، ولم يمكنهم العدول عن طريقه ، ولولا حرمة هؤلاء الأولياء الذين كانوا منكم ، لما بقى ستر الله عليكم • لكن كما قال تعالى : « انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار • مهبطين ، متنعى رؤوسهم ، لا يرتد اليهم طرفهم • وأفئدتهم هواء » (٢) •

ومع هذا ، فلا تخلى هذا الباب من التنبيه على نكت تدل على سوء استدلال هذا السائل خاصة بعون الله •

قلت يا هذا : « والدليل على أنه هو : أن اليهود اختلفت من سببه ، فصارت فرقتين : على الكفر والايمان به ، فالفرقة الكافرة : هم اليهود • والفرقة المؤمنة هم النصارى • فأمنت طائفة ، وكفرت طائفة »

هذا دليل ليس له للدلالة على مجيء المسيح من سبيل • بل هو عين المذهب الذى تدعونه ويبقى عليك الاستدلال عليه • وان جاز أن يكون مثل هذا دليلا صحيحا على مجيئه ، جاز أن يكن نقيضه دليلا على انتفاء مجيئه ، ولا فرق بين ما قلت ، وبين ما يقوله اليهودى اذا كل واحد منكم تكلم بدعوى ، ولم يثبتها ، ولا بد لك من اقامة دليل فاذكره • فان كلامك الأول ليس بدليل ، فان أخذت تستدل بدليل آخر ، خلاف ما ذكرت • فقد اعترفت بأن كلامك الأول ليس بدليل ، وانقطعت • وان رجعت تستدل بذلك تبين جهلك هنالك •

فانظر ما أحسن هذا الدليل • فلعمري ما للمستدل به من النظر العقلى : كثير ، ولا قليل •

ثم قلت : « والكتب أجمع مع كلامهم يحتجون بها بعضهم على بعض ، يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها ، ويختلفون فى تأويلها ، كفعلهم الى هذه المدة » •

تناقضت يا مخدوع ، ولم تشعر ، وظننت أنك تنتصر ، فاذا بك تستأسر • أفصحت هنا بأنكم يحتج بعضهم على بعض ، ويتضمن ذلك أنكم تحتجون بالتوراة عليهم • وكيف يصح لك هذا ، مع أنك قد ادعيت أنها منسوخة بكتابتكم ؟ فان قلت : ان هذا عليهم فى معرض الالزام • قيل لك : فلا تأخذ من التوراة شيئا من الأحكام • ولا تحكم منها على شيء بحلال ولا حرام •

ثم ان كلامك هذا : يفهم منه أنهم يحتجون عليكم بكتيبهم على أن المسيح لم يجرى • واذا اتفق أن يحتجوا عليكم بمثل هذا من كتبكم فقد أغحموكم •

هذا كله على ظاهر كلامك ، ولم ترو هذا المعنى • وانما أردت أن تقول : ان الجميع قد اتفقوا على ألفاظ الكتب ، واختلفوا فى تأويلها • ولم تساعدك العبارة • وهذا أكثر كلامك • تريد أن تقول شيئا ثم تعبر عنه بعبارة تدل على خلاف ما أردت ، وسبب ذلك : أنك أدخلت نفسك فى شيء لم تعرفه وتعاطيت ما لم تحسنه • فكنت بمثابة من أدخل نفسه فى سبط ، ثم جاء آخر فشد عليه وربط •

ثم قلت : « والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما : أن
فنظر في الكتب » الى أن قلت : « اذ الذلة ، والأسرة ، والفرقة . علامة
الكافرين » .

وهذا الاطلاق ، لو علمت ما يلزمك عليه ، لاستغفرت الهك منه .
لكك جهلت ، فأطلقت وحيث وجب أن تمسك أرسلت . وذلك أنه ان
صح ما ذكرت ، فلا ذلة ولا أسرة ، ولا تفرقة . أبلغ من ذلة من يصنع
في قفاه (١) ، ويجعل على رأسه شوك ، وفي يده قصبه ، ويساق للقتل ،
وعلى عنقه خشبة ، ويصلب وتسمر يداه ورجلاه وينخز ، وهو يطلب
ماء فيرفع اليه اناء خل . وهذا كله بزعمكم ، ولا رتبة في المذلة أبلغ
من هذه . فعلى قولك ، وسياق دليلك : يلزمك تكفير المصلوب ، ويحصل
لليهودي منكم ، الغرض المطلوب . فان كنت عاقلا فنقل كلامك ،
ولا يكن عارا عليك لسانك . وقد نصحتك يا فشك . وما أظنك تقبل .

وانما أردت أن تقول — فلم تطاوعك العبارة يا جهول — : الدليل
على مجيء المسيح المنتظر : أنه قد ثبت في كتب الأنبياء عليهم السلام :
أن الله قال لليهود : لا يزال ملككم قائما ، وخيركم دائما . ما دمتم
مؤمنين ، حتى تكفروا . فاذا كفرتم أزلت ملككم ، وأبدلتكم منه ذلا ،
وصغارا ، وغضبا ، ونقمة ، وعند ذلك أرسل اليكم المسيح . ولا يشك
أحد في زوال ملك اليهود وانقطاعه ، وفي نزول الذلة والمسكنة عليهم .
فلا يشك في كفرهم ، ولا يشك في مجيء المسيح ، وأنهم كفروا به .
ولو هكذا قلت . لما لزمك شيء مما ألزمت . وهذا الدليل الذي استدلت
به على اليهود . اذا سيق على الطريقة التي ذكرناها ، وصح نقله عن
الأنبياء بطريق القطع هو حجة على اليهود ، لا مخرج لهم منها ولا محيص
عنها . على أنه بقى فيه مواضع للبحث اذا انفصلت تم الدليل .
ووضح السبيل .



الفصل الثالث

المسيح عيسى ابن مريم

من حكاية كلامه أيضا

قال : « وأنا أثبت لك أن المسيح قد جاء من كلام الأنبياء • قال النبي هوشع بن بثيري عليه السلام هكذا بكلام عبراني : « كى يا ميم ربيم يا شابوا بانا اسرائيل ان ملخ وان صار » تفسيره : « ان أياما كثيرة يقيموا بنى اسرائيل دون ملك ، ودون مقدم » (١) فاذا سئل اليهودى الجاحد : ان كان لهم ملك أو مقدم ؟ فلا يكون جوابه ، الا أن يقول : ليس عندنا ملك ، ولا مقدم • فيقال لهم : اذ ليس عندكم ملك ، ولا مقدم • فاسمع ما قال يعقوب ، الذى كان له اثنتى عشر ولدا ، الذى منهم يوسف الصديق رضى الله عنهم أجمعين الى يوم الدين • قال الفاضل يعقوب بكلام عبراني : « لو يا صور شابات مى يهودا ومحو كيك ممين رعلاف عاد • كى يا بو شيلو ولوا اقاهاث عميم » وهذا تفسيره : « لا ينتقض الملك من يهودا ، وراسم من بين رجليه ، حتى يأتى المسيح ، وله تطوع الأمم » (٢)

فيقال لهم : اذ ليس لكم ملك ، ولا مقدم • فقد جاء المسيح ، كقول يعقوب النبي • اذ ليس لهم ملك •

وقال ارمياء النبي عليه السلام فى الطائفة الكافرة به ، بكلام عبراني هكذا : « ام يا عمود موثا ، وشموال لقاناي ان نقسى الها عم

(١) النص فى ترجمة ١٩٧٠ « لأن بنى اسرائيل سيقعدون أياما كثيرة بلا ملك وبلا رئيس » (هوشع ٣ : ٤) والنص العبرى كامل •

(٢) النص العبرى كامل وتفسيره من ترجمة ١٩٧٠ بمصر : « لا يزول قضيب من يهودا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون ، وله يكون خضوع شعوب » (تكوين ٤٩ : ١٠) ومعنى شيلون نبى الأمان أو السلام •

هذا سلاح معال فناناي ويا ساوها ياكى يمروا أثناء ناسا وامرتا لاهيم
هى لما باث ، لما باث اى تشانى اى لا راعاب ، لا راعاب ، وخلاقى
جاماتى بام » أ . ه .

اسمع كلام الله على لسان ارمياء النبى • تفسيره : « ان وقف الى
موسى وشموال لا نرضى عن هذه الأمة ، ارميهم من قدامى ، يخرجوا •
فان قالوا : أين يخرجوا ؟ فقتل لهم : من الموت الى الموت ، ومن الغنى
الى الغنى ، ومن الجوع الى الجوع ، ويكمل غضبى فيهم » (١) أ . ه .
فهم فى غضب الله بكفرهم بالمسيح الذى قد جاء •

ثم قال الله تعالى على لسان يعقوب النبى الفاضل بلسان سريانى
هكذا : « ألا يا عصا عاث غلطان مد أفاث يهودا ، وصفوا متانا بانوهى
عاض على ما عاث ذا ياتا ماشيجا داث لاه ملخوثا ولاه اشتماعون عاما
مايا » وهذا تفسيره كما قاله الله على لسان نبيه يعقوب : « لا ينتقض
قضييب الملك من يهودا ، وراسم من أبنائه ، حتى أن يأتى ما شيحا —
الذى هو المسيح ، الذى له الملك — وله تطوع الأمم » •

وقال الله تعالى على لسان ارمياء النبى فى انقطاع ملكهم بكلام
غبرانى هكذا : « فأضاع أدوناي يا حور أف كل مكان ان اسرائيل »
وهذا تفسيره « قطع الله بشدة غضبه : جميع دولة اسرائيل » (٢) فافهم
فقد جاء المسيح ، وانقطع ملكهم •

وقد قال الله على لسان ارمياء النبى فى اثبات شريعة المسيح ،
وايمان الحواريين قائلا بلسان عبرانى : « هنا ياميم بايم نوم يهوه
واخارتى ات بت اسرائيل • وايت بت يهودا بریت حارشاہ ، لواخبريت
اشير بریت ات ابو ثام بيوم هو تزيكى بيرم لهو عاييم مى ارس

(١) النص العبري مختصر • والترجمة العربية الكاملة للنص هكذا :
« وان وقف موسى وصموئيل أمامى ، لا تكون نفسى نحو هذا الشعب •
أطرحهم من أمامى فيخرجوا • ويكون انما قالوا لك : الى أين نخرج ؟
انك تقول لهم : هكذا قال الرب : الذين لثموت فالى الموت ، والذين للسيف
فالى السيف ، والذين للجوع فالى الجوع ، والذين للسبى فالى السبى »
(ارمياء ١٥ : ١ - ٢) •

(٢) ورد هذا المعنى فى آيات كثيرة من سفر ارمياء ، خاصة فى الاصحاح
الطاسع عشر •

مصرىم امير همه هفرو ات بریت وانبى بعلتى بم نام يهوه» (١) تفسيره : « يقول الله : وأثبت لبیت اسرائيل ويهوذا ، عهدا جديدا ليس كالعهد الذى قلت لآبائهم فى اليوم الذى أخرجتهم من أرض مصر ، من بيت العبودية » .

فبين الله بهذا الكلام ايمان الحواريين ، والتابعين لهم ، كما قال الله فى موضع آخر على لسان ارمياء النبى بلسان عبرانى ، عن ايمان الحواريين . قال : « شوبوا بانيم شوباييم نوم ادوناي » (٢) كى انوخى با علتى با خيم والا كحتى اتخيم أحاد معير وشنايم مشتبان وهاباتي اتخيم سيون » .

تفسيره : « ارجعوا يا أولاد اللجاجة فانى سدت عليكم ، وأخذكم واحدا من مدينة ، واثنين من عشيرة ، وأدخلكم الى صهيون وكذلك أخذ الحواريين ، واحدا من مدينة واثنان من عشيرة » (٣) ثم قال لضيق الآية « وناتى لآخيم روعيم كلبى » تفسيره : « ونعطيكم رعاة كلبى » .

ثم قال : « وأراع آخيم رعاء واهسكال » تفسيره : « ويرعونكم بالمعرفة والفهم » (٤) وكذلك جعل من الحواريين أئمة ، ورعاة . يعلموا الناس المعرفة والفهم . ثم قال لضيق الآية فى ألا يعمل بالعهد النبلى : « واهياكى تربوا افريتم بأريش بالبوميم هاهما نوم ادوناي » (٥) لو يمرؤا غر دارون بريث ادوناي ولو يا عالا على لآب ولديز كا وابوا ولوا

(١) نقلنا النص كاملا . وترجمته العربية هكذا : « ها أيام تأتي يقول الرب ، وأقطع مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا . ليس كالعهد الذى قطعت مع آباءهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر ، حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب » (ارمياء ٣١ : ٣١ - ٣٢) .

(٢) فى التوراة العبرانية الحديثة « يهوه » بدل « أدوناي » ويهوه : الله . وأدوناي : الله أو السيد . والنص العبرى كامل .

(٣) النص العربى من ترجمة ١٩٧٠ هكذا : « ارجعوا أيها البنون العصاة يقول الرب ، لأنى سدت عليكم ، فأخذكم واحدا من المدينة ، واثنين من العشيرة » (ارمياء ٣ : ١٤) .

(٤) نص الآية : « وأعطيكم رعاة حسب قلبى ، فيرعونكم بالمعرفة والفهم » (ارمياء ٣ : ١٥) .

(٥) فى الترجمة العبرية بدل « أدوناي » اسم « اهو » .

يفقوا ذوا ولو يا عا ساعود » تفسيره : « ويكون اذا كثرتم ، وتنمو في الأرض في تلك الأيام يقول الله : لا تقولوا أبدا بتابوت عهد الله ، ولا يصعد على قلب ، ولا يذكر به ، ولا يعتقد به ، ولا يعمل به أبدا » (١) .

فاعلم أنه أمن الحواريين والتابعين لهم من الأمم .

ثم قال سليمان الفاضل : « لم أتعلم علما وعرفت معرفة المقدسين » (٢) .

فافهم أيها الانسان ، ما هي معرفة المقدسين ، الذي لا يمكن لأحد أن يكون مقدسا ، الا أن عرفها ، وآمن بها ؟

وفي حقيقة الايمان قال : « من صعد الى السماء وهبط ؟ من قبض الأرواح في كفيه ؟ من جمع الماء في ثوب » ؟ (٣) ثم قال بكلام عبراني : « مي هاكيم كل افس اريس ماشموا وماشم بنوا » .

فافهم . فسر . وكن عاقلا مدبرا ترشد .

قال سليمان : « مي هاكيم كل افس اريس ماشموا وماشم بنوا » تفسيره : « من أقام جميع أقطار الأرض ؟ ما اسمه ؟ واسم ابنه » ؟ ثم قال لضيق الآية بالعبراني : « كل أمراث ألواه صروفا مانين هو الات سيم بو » تفسيره : « جميع كلام الله ترس ، منير هو لجميع اللواتقين به » (٤) فافهم .

ثم قال الله على لسان ارمياء النبي بكلام عبراني : « هنا ياميم بايم نوم ادوناي (٥) واكراتي ات بت اسرائيل ، وات بت يهودا يريت هارشاه . . . زيرع آذلم ، وزيرع مهيط » تفسيره : « هذا يوم ياتي

(١) ارمياء ٣ : ١٦ .

(٢) النص في ترجمة ١٩٧٠ : « لم أتعلم الحكمة ، ولم أعرف معرفة النفوس » (أمثال ٣٠ : ٣) .

(٣) في سفر الأمثال ترجمة ١٩٧٠ : « من صعد الى السموات ونزل ؟ من جمع للريح في حنطيه ؟ من صر المياه في ثوب ؟ من ثبت جميع أطراف الأرض ؟ ما اسمه ؟ وما اسم ابنه ان عرفت ؟ » (أمثال ٣٠ : ٤) .

(٤) « كل كلمة من الله نقية . ترس هو للمحتمين به » (أمثال ٣٠ : ٥) .

(٥) بدل أدوناي ، يهوه ، والنص مختصر ، وليس فيه : زيرع آدام وزيرع مهيط . أي نسل آدمي وبهيمي .

يقول الله ، ونزرع في بيت اسرائيل ، وبيت يهوذا نسل آدمي ، ونسل بهيمي» (١) .

فكان النسل الآدمي : الحواريون المؤمنون بالمسيح عند اقباله ، والتابعين لهم . وكان النسل البهيمي اليهود الجاحدين للمسيح . وكذلك الحواري يوحنا ، الذي اسمه (جوانثس) قال : « من لم يؤمن ، ولم يتمادى في تعليم المسيح فلا تله له » (٢) . فافهم ترشد .

اعلم اني كتبت لك بالعبراني ، والسرياني من شهادات الأنبياء عن الله من الكتب التي بأيديهم . وأن اليهود لا يقدرّون على انكار حرف منها اذا احتج معهم بها بالعبراني والسرياني ، كما نطقت به الأنبياء ، رضى الله عنهم في اثبات اقبال المسيح ، وايمان الحواريين ، والتابعين لهم . وفي اطراح اليهود الملاعين الجاحدين للمسيح سيدنا . فافهم » أهـ

الجواب عما ذكر : يا هذا المخدوع . ظننت السراب ماء ، والأرض سماء ، فاستسمنت ذا ورم ، ونفخت في غير ضرم . اعلم يا هذا أنه لا يقبل منك في هذا المقام الاستدلال بالظنون والأوهام . اذ المطلوب فيه تحصيل العلم القطعي ، واليقين البرهاني ، فلا يحصل لك شيء من ذلك حتى تعلم صحة ما استدلت به هناك ، ولا تعلم صحة شيء مما ادعيته دليلا قاطعا ، مفيدا للعلم الا بعد معرفتك ، أن هذه الكتب التي استدلت بها : أهي من عند الله ، وأنها بلغتك عن الله على السنة الصادقين ؟ ولا يتوصل الى معرفة شيء من ذلك الا بعد معرفتك بالنبوات وحقيقتها ، ودلائل صحتها العقلية .

ولا تتوصل الى ذلك حتى تعلم حدوث العالم ، وأنه موجود بعد عدم ، وتعلم أن له محدثا ، وأن محدثه موجود حتى عالم قادر مريد موصوف بصفات الكمال حتى يصح منه ارسال الرسل وتأييدهم بالأدلة . وكل ذلك انما يعرف بأدلة قطعية ، ولا يصح أن تعرف بأدلة سمعية ،

(١) النص العربي مختصر وتماه هكذا : « ها أيام تأتي يقول الرب ، وأقطع مع بيت اسرائيل ، ومع بيت يهوذا ، عهدا جديدا ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم . بل هو ذا هو العهد الجديد الذي قطعته مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب . أجعل شريعتي في داخلهم ، وأكتبها على قلوبهم . . . لأنني أصفح عن اثمهم ، ولا أذكر خطيتهم بعد » (ارميا ٣١ : ٣١ - ٣٤) .

(٢) رسالة يوحنا الثانية : ٩ .

فان السمع لا يثبت الا بعد ثبوت هذه الأصول ، فاذا وصلت الى هذا
المحل ، وسلمت من التعثر بأذيال الزلل •
وكم دونها من مهمه ، ومفازة وكم أرض جذب دونها ولصوص

فحينئذ يجب عليك أن تنظر فيما ألقى الصادقون اليك • فان كنت
ممن تسمع منهم كلامهم ، وتشافه بنفسك خطابهم ، فقد سقطت عنك
معرفة طرق النقل ، وشروط التحمل والحمل ، ولزمتك معرفة اللغة
التي يتكلم بها الصادقون ، فتعرف مقاطع الكلمات وكيفية النطق من
اختلاف بسكون أو حركات وتعرف فرق ما بين الحقيقة والمجاز ،
والنص والظاهر ، والمجمل والمؤول ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ،
والناسخ والمنسوخ • الى أمور كثيرة تعرف في علم الأصول • وان كنت
ممن لم يسمع من الصادقين ، فلا بد لك من أن تنتظر في الذي بلغك ذلك
الدليل على يديه ، ان كان يجوز عادة عليه : الغلط والسهو أو لا • فان
كان ممن يجوز عليه الغلط والسهو عادة ، فلا يلتفت الى خبره في هذا
المقام • وهذا النوع هو الذي يسمى عندنا أخبار الآحاد ، ولها محل
تقبل فيه بعد مراعاة شروط • ويعرف كل ذلك في موضعه •

وأما مثل هذا الذي تصدّيت له ، فلا يتوصل اليه بهذا الطريق ،
فان المطلوب هنا حصول العلم • ولا يحصل العلم بقول من يتجاوز
الخطأ والسهو عليه في خبره • وان كان مما لا يجوز عليه شيء مما
ذكرناه عادة ، فهو الذي يحصل العلم بقوله ، وهو العدد الكثير الذين
تحيل العادة عليهم الكذب • وهذا الخبر هو الذي يسمى المتواتر ،
والتواتر له شروط وأحكام تعرف في موضعه •

فاذا تقررت هذه المقدمة • فأنا أسألك سؤال منصف ، لا مصنف •
وأقسم عليك بدينك قسم متلطف ، لا متعجرف : هل توفرت لديك هذه
الشروط أم هل أكثرها عندك مطرح مسقوط ؟ فان أنصفت واعترفت
علمت أنك على العلم بها ما حصلت • فينبغي لك أن تطلب حصول العلم
من بابها ، وأن تجتهد في تحصيل أسبابه • وان ادعيت علم ذلك ، علم
أنك مغالط معاند ، جائر عن الحق وحائد •

وكفى بكلامك في كتابك هذا على كذبك شاهد ثم على قرب تفتضح
اذا خرست عن جواب ما عنه سألت • تعجل بالجواب ، ولا تتأن في
الكتاب • وان أبيت الا تماديا في غيبك ، واستمرارا على جهلك وبغيك •

أريناك اختلال هذه الشروط عندكم عيانا ، وأقمنا على فساد كتبك حجة وبرهاننا •

وذلك أنا نقول : ان من أعظم كتبكم التي ترجعون اليها ، وتعولون في أحكامكم عليها : التوراة والانجيل ، وكفى بهما شرفا وشهرة أنهما عندكم كلام الملك الجليل ، وأنتم تدعون أنكم تناقلتموهما جيلا بعد جيل • وأنا أبين ان شاء الله : أن نقلهما انما كان بطريق الآحاد ، وأن الغلط والسهو يجوز على ناقليهما ، وسأتى منهما ببطلان المراد •

أذكر ان شاء الله بعض ما وقع فيهما من التناقض والتحريف ، والقلب والتصحيف وأنبه على قبيح ما تنسبونه فيهما الى الله من القول السفساف السخيف ، وما تنتقصون به الأنبياء أولى الفضل والتشريف بحول الله تعالى وحسن عونه •

وأبدأ بالتوراة لكونها مقدمة في الرتبة والزمان ، ومعتزقا بها عند أولى الأديان • وبالله المستعان •



فصل

في بيان بعض ما طرأ في التوراة من الخلل وأنها لم تنقل متواترا فتسلم لأجله من الخطأ والزلل

فأول دليل : أنها لم تترك على ما كانت في الألواح التي كتبها الله تعالى لموسى ، ولا على ما انتسخها لهم موسى ، بل زيد فيها ، ولا بد ، ما ليس منها ، ولا كان في الألواح التي كتبها الله لموسى • ويدل على ذلك : أن في آخر السفر الخامس أن « موسى توفى في أرض موآب بازاء بيت فغور ولم يعرف انسان موضع قبره الى اليوم • وكان قد أتى على موسى اذ توفى مائة وعشرون سنة ، ولم يضعف بصره ، ولم يتشيخ وجهه • وبكى بنو اسرائيل على موسى ثلاثون يوما في عريب موآب • فلما تمت أيام حزنهم على موسى ، امتلأ يشوع بن نون من روح الحكمة ، لأن موسى كان وضع يده على رأسه في حياته • وكان بنو اسرائيل يطيعونه ، ويعملون كما أمر الرب موسى » (١) أ • هـ

ولا يشك الواقف على هذا التاريخ ، وهذه الوفاة : أنها ليست مما أنزل الله على موسى ، ولا مما كتبها موسى عن نفسه • وانما هي من اثبات من أراد أن يثبتها بعد وفاة موسى بزمان • ويدلك على ذلك قوله : « ولم يعرف انسان موضع قبره الى اليوم » (٢) يريد به : اليوم الذي كتب فيه هذا • وهذا بين عند المنصف • ومع بيانه ، فليس أحد من اليهود والنصارى فيما أعلم يقول : ان التوراة زيد فيها شيء بعد موسى ، ولا يفرق بين هذا الكلام وغيره ، بل هي كلها عندهم كلام الله ، وهذا جهل عظيم ، وخطب جسيم • فهم بين أمرين : اما أن يقولوا : ان هذا الكلام هو مما كتبه الله لموسى ، وأخبر به موسى • أو يقولوا : انه ليس مما أخبر الله به موسى ، ولم يخبر به موسى • فان قالوا : الأول • كذبهم مساق الكلام ، فان المفهوم منه على القطع : أنه كتب بعد وفاة موسى بزمان • وان قالوا : بالقول الآخر • قيل لهم : فلا شيء خلطتم

(١) هذا النص في الأصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية •

(٢) تثنية ٣٤ : ٦

كلام الله بكلام غيره ، وأجريتوها في نسق واحد ، وزدتم على كلام الله ، ولم تشعروا بذلك ، بل نسبتم كل ذلك الى أن الله أنزله ؟

واذا جاز زيادة مثل هذا ، ولم يتحرز منه ، جاز أن يكون كل حكاية فيها لا يصح نسبتها الى الله زائدة ، ولا سيما الحكايات الركيكة التي تحكى فيها عن الأنبياء التي لا يليق ذكرها بسفلة الناس ، وغالب الظن ، ولا يعلم الغيب الا الله تعالى : أن السفر الأول الذي هو سفر البدء والأنساب مما زيد على كلام الله تعالى ، ولم يشعروا بزيادته •

ومما يدل أيضا على هذا المعنى : أن كثيرا مما يجيء فيها : « وكلم الرب موسى وقال له : اقبض حساب بنى جرشون » (١) و « وكلم الرب موسى ، وقال له : كلم بنى اسرائيل » (٢) ومثل هذا كثير •

وهذا يدلك : أنه ليس مما قاله الرب جل ذكره لموسى ، ولا مما قاله موسى لهم ، أعنى لفظ « وكلم الرب موسى ، وقال له » (٣) وما أشبهه من لفظ الحكاية عنه • وانما هو شيء حكى عنه بعد انقراضه ، وأضيف الى كلام الله •

ثم لا يعرفون : من الحاكي ؟ واذا جاز مثل هذا ، ولا يشعرون به ، جاز أن يكون أكثرها مغيرا ومبدلا ، وليس من كلام الله ، ولا من كلام موسى ، ولا يشعرون به • ومن وقف عليها منتبعا لهذا المعنى • قطع بأنها زيد فيها ، ما ليس منها •

وعند انكشاف الغبار ، تتبين : أفرس تحتك ، أم حمار ؟ ماء ولا كصدي ، ومرعى ولا كالسعدان •

ولقد حفظ الله القرآن العظيم • فقال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر » (٤) ولذلك كره علماءنا رضى الله عنهم : كتب التفسير ، وأسماء السور في المصحف ، وان كانت بخط آخر ، ولون آخر • وقد اتفقوا فيما أحسب على أنه : لا يجوز كتب فواتح السور ، يعنى : أسماءها ، بخط المصحف ، وبلون مداده ، لئلا يختلط به ما ليس منه • قال الحمد لله ، الذى هدانا لهذا الدين القويم ، والمنهج المستقيم •

وأما بيان أنها ليست متواترة : فهو أن اليهود على بكرة أبيهم يعرفون ، ولا ينكرون أن التوراة انما كانت طور مدة ملك بنى اسرائيل عند الكوهان الأكبر الهارونى وحده ، وعنه تلقيت ، ولا ينكر ذلك منهم ، ولا منكم : الا مجاهر بالباطل ••

وكذلك ما يحكى من قتل بخت نصر جميع بنى اسرائيل ، واحرقه كتب التوراة ، حيث وجدت ، واتلاف ما كان بأيديهم حتى لم يترك منهم الا عددا يسيرا ، لا يحصل بخبرهم العلم • وكان قد أجلاهم الى بابل ، وهدم البيت ، أو لعله كان الباقي منهم عددا كثيرا الا أنهم لم يكونوا كلهم يحفظونها ، بل كانوا عددا يسيرا ، لا يحصل العلم بقولهم • وكان هذا كله قبل المسيح بخمس مائة سنة تقريبا •

وكذلك واقعة طيطش بن شبشان (١) ، التى كانت بعد المسيح الى أربعين سنة ، اذ فرقوا التفرقة التى هى اليوم عليها • وهذا أيضا من المعروف عند الجميع بحيث لا ينكره الا مكابر مجاهر • وهذه الأمور كلها مما تتدح فى النقل الذى يدعونه متواترا •

ثم نقول : هذه الأمور المذكورة ان وافقوا على وقوعها ، فقد اعترفوا بعدم التواتر فان من شرط خبر التواتر : أن ينقله العدد الكثير الذى تحيل العادة عليهم التواطؤ على الكذب والغلط عن عدد مثله هكذا ، ولا ينقطع •

فان رجع الخبر الى عدد لا تحيل العادة عليهم الكذب ، لم يحصل بذلك الخبر : العلم • اذ لا يكون متواترا وان لم يوافقوا على وقوع هذه الوقائع هكذا ، لم يقدرُوا على جحد أصلها ، واذا اعترفوا بأصلها ، لم يقدرُوا أن ينكروا امكان وقوع ما يعترفون بأصله ، وتجويز وقوع ذلك كتحقيق وقوع ذلك فى عدم حصول العلم بالخبر الذى يدعون أنه متواتر •

وأما بيان التحريف فيها : فهو أن اليهود تعترف بأن السبعين كوهانا ، اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفا من التوراة • وذلك قبل المسيح (٢) فى زمان القياصرة • ومن اجترأ على تبديل حرف من كتاب

(١) طيطوس بن سبسان ، وواقعه كانت سنة ٧٠ م •

(٢) انظر فى كل ما يتعلق بالتوراة كتابنا : التوراة أسفار موسى الخمسة • ومقدمتنا للتوراة السامرية •

الله وتحريفه ، فلا يوثق بالذى فى يده ، مما يدعى أنه كتاب الله ، لعدم الثقة به ، ولقلة مبالاته بالدين •

وأىضا : فلعله قد حرفه كله ، أو أكثره •

وكذلك يقرون ولا ينكرون : أن طائفة منهم يقال لهم : السامرية • حرفوا التوراة ، تحريفا بينا كثيرا • والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف •

وكذلك النصارى أيضا يدعون على اليهود : أنهم حرفوا فى التوراة : التاريخ • ويزعمون أنهم نقصوا من تاريخ آدم صلى الله عليه وسلم : ألف سنة ، ونحو المائتين •

وهذه احتمالات توجب على العاقل : التوقف ، فلا يدعى حصول العلم بنقل التوراة مع انقداح هذه الممكتات ، الا مجاهر متعسف •

فان قيل : كيف يصح أن يقال هذا • وقد كان الأنبياء بعد موسى عليه السلام يحكمون بالتوراة ويرجعون اليها واحدا بعد واحد • الى زمن يحيى وعيسى •

ثم بعد ذلك تناقلها النصارى ، كما تناقلها اليهود ، خلفا عن سلف الى اليوم • وان جاز تطرق التحريف الى ما هذا سبيله ، فليلزم عليه : أن يحكم الأنبياء بالباطل •

ويلزم عليه أيضا : أن يقرؤا على الباطل غيرهم • وهذا كله باطل على الأنبياء ، ويلزم عليه أيضا : أن لا يحصل العلم بخبر متواتر ، ولا يوثق بكتاب يدعى أنه جاء عن نبي ؟

فنقول — وبالله التوفيق — :

انا لم نعين لوقوع التحريف فيها زمانا (١) ، ولا عينا من حرف منها شيئا ، ولا من ألحق بها شيئا ، فيحتمل أن يقع التحريف فيها قبلهم أو بعدهم • وانما أبدينا تلك الاحتمالات ليعلم أن الذى فى نفوسكم من الثقة بها : انما هو اعتقاد جزم • وليس بعلم •

ومما يدل على قبول تلك الاحتمالات وأنها قاذحة فى دعوى العلم

(١) عينا زمن التحريف فى بابل سنة ٥٨٦ ق • م والحرف لها : عزرا •

بسلامتها : أنها لم تقر على ما تلقيت من موسى ، بل زيد فيها ما لم يتلق عن موسى . مثل الذي حكيناه من ذكر وفلته ، وهزن بنى إسرائيل ، وحكاية قول « كلم الله موسى » وهذا يعلم منه على القطع : أن الله لم يقله لموسى ، ولا موسى قاله عن نفسه . يعلم ذلك من وقف عليه ، وتتبعه بضرورة مساق الكلام ، ولا بد .

فالذى زاد ذلك ، لعله الذى وقع الخلل من جهته .

وأما ما ذكرتم من حكم الأنبياء بها ، فليس فيه حجة لا مكان أن تنازعوا فى قولكم : كانوا يحكمون بها ، بل لعلهم كانوا يحكمون بما كان الله يعلمهم بما يوافق شريعة موسى ، ولا يخالفها .

ولو سلمنا أنهم كانوا يحكمون بها . فنقول : كل شئ حكم به الأنبياء من التوراة فليس بمحرف ، وأما ما لم يحكموا به منها ، فلعله الذى حرف ، مثل الأخبار التى حكيناها ، ونحكيها ان شاء الله تعالى .

فان قيل : فيلزم منه : أن يقر الأنبياء على الخطأ ، ويتحدثوا بالكذب . فانهم كانوا يتحدثون بها . قلنا : ليس بكاذب من حكى شيئاً يعتقد صحته ، لا يتعلق به حكم الله تعالى . وان كان ذلك الخبر فى نفسه مخالفاً لما فى الوجود . فانه انما يحكى عن اعتقاده ، وهو حق . وانما الكاذب الذى يخبر عن الشئ بخلاف ما هو عليه من العلم بذلك . وهذا حد الكذب عندنا ، وحقيقته .

وهذا . انما يجوز فى حكاية الأخبار التى لا يتعلق بها حكم . وأما ما تعلق به حكم منها فلا يجوز ذلك . اذ الأنبياء معصومون فيما يبلغونه من الأحكام عن الله تعالى . وانما قلنا هذا ، حذرا من أن ننسب الى الله تعالى ما لا يليق بجلاله أن ينزله فى كتابه ، ولا أن يناجى به صفوة أحبابه من الفواشئ والفجور التى حكوها فى التوراة وادعوا أنه فيها مسطور ، مع أنه ليس فى ذكرها فائدة ، بل هى بكل ضلالة عائدة .

وكذلك تنزه موسى والأنبياء بعده صلوات الله عليهم عن ذلك الكلام المغث الركيك ، الذى لو حكى مثله عن بعض السفلة لأنف منه ، واستحى منه ، ولما كان ينبغي لعامل أن يلتفت ويصغى اليه ، ولكان يجب عليه أن يعرض عنه وينكره اذا سمعه . هذا اذا كان محكيا عن

السفلة فكيف اذا حكاه الله عن نفسه • أو عن خيرته من خلقه • الذين برأهم الله عن الكبائر والنقائص التى تناقض نبوتهم ، فهم أكرم الخلق عليه ، وأحظاهم لديه •

وأیضا • فان الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها ، وما بطن ، والغيبة والبهتان والاحن ثم يتعامل بها مع أكرم الخلق عليه : فى نفوسهم ، وذرائعهم ، وبناتهم ، وينسبها اليهم ، ويشيعها • أبد الآبدین عليهم • هذا مما لا يليق بجلال الله تعالى ، والقائل بوقوع هذا مستهزىء مفتر على الله •

وسننقل عن بعض ما حكوا فى التوراة من هذه القبائح اثر هذا ان شاء الله تعالى •

ثم نقول : لو سلمنا أنها لم تحرف فى زمان الأنبياء ، لأمكن أن نقول : فلعله حرف بعدهم وذلك بعد وقعة (طيطس) حيث أفناهم ، والذين تنصروا منهم عدد يسير لا تقوم الحجة بقولهم •

وان قلنا : انهم كانوا عددا كثيرا فلم يكن كل واحد منهم ممن يحفظها ولا يضبطها •

ثم نقول للنصارى : ان أنكرتم أن يكون شيء من التوراة حرف • غلاى شيء تقولون : ان اليهود حرفوا فى التوراة فى نسب آدم • ونقصوا منه • واذا جاز ذلك فى نسب آدم ، جاز فى غيره ، وهذا بين • وأما قولهم : يلزم أن لا نقبل خبر متواتر ، ولا يوثق بكتاب نبى ، فلا يلزم شيء من ذلك • فان الخبر اذا تطرقت اليه أمثال تلك الاحتمالات فلا يوثق بنقله ، ولا يعول عليه ، لامكان تلك الآفات •

أو لعل أشرافكم تتخلب نحو كتابنا • فيقولون : فكتابكم لا يلتفت اليه ، ولا يعول عليه • فنقول : هيات انما قلنا : كل كتاب تطرق اليه شيء من تلك الاحتمالات • وكتابنا منزّه عن أمثال تلك الآفات • فان الله تعالى تولى حفظه ، وأجزل من كل صيانة حظه ، فصانه • بنظمه الذى لا يقدر الجن والانس على آية منه ، فلا يختلط به كلام متكلم ، ولا يقبل وهم متوهم • اذ ليس من جنس كلام البشر ، وهو محدود الآى والسور ، ثم صانه بأن يسره للحفظ والاستظهار ، فيستوى فى نقله (١٣ - الاعلام)

الكبار والصغار ، لا يختص بحفظه أحد ، والوالد إذ نقص منه حرفاً واحداً ، أو غير حركة منه ، رده وأصلحها عليه الولد .

ومع هذا فحروفه وكلماته وآياته وسوره في الدواوين معددة ، وأشكال كتبه ، حروفه فيها مقيدة . ومع هذا • فنقل الأمم التي لا تحصى عن الأمم التي لا تحصى ، حتى يصل ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم المصطفى مع قرب العهد والتشهير في صيانتة والجد ، واستعمال القانون النحوي ، وتثقيف اللسان العربي • فيهما كمل الله له الصون • وحصل له بهما على فهمه أكبر العون • قلله الحمد على ما أولى ، والشكر له على نعمه التي لا تحصى ، فأين اللؤلؤ من الخزف ، والياقوت من الصدف •

وبعد هذا •• فالآن • حان أن نذكر بعض ما وقع في التوراة مما تطرق اليها التهم •

من ذلك • ما ذكرناه فيها في المصحف الأول منها :

« ورأى الله أن قد كثر فساد الآدميين في الأرض ، فندم على خلقهم • وقال : سأذهب الآدمي الذي خلقت على الأرض والخشاش ، ووطيور السماء ، لأنني نادمت على خلقتها جدا » (١) •

وهذا في حق الله تعالى محال • إذ الندم انما يلحق من لا يعلم مصير المندوم عليه ، ومآله • واعتقاد هذا في حق الله كفر • إذ ينبىء عن أن الله تعالى جاهل ، وأنه متغير ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً • ولفظ « الندم » (٢) هنا نص ، لا يقبل التأويل ، فهو كذب وباطل قطعاً •

ومن ذلك • ما ظهر في الوجود خلافه • وذلك أنهم حكوا فيها : أن بنى اسرائيل يسكنون تلك الأرض الى الانقراض (٣) ، ثم لم يلبثوا أن رأيناهم أخرجوا منها رأى العين •

فقد ظهر أن ذلك باطل وكذب •

ومن ذلك أيضاً • أنه حكى فيها : أن الله تعالى كالانسان ، شخص

(١) التكوين ٦ : ٦ - ٧

(٢) في ترجمة ١٩٧٠ « فحزن الرب » بدل « فندم » •• •

(٣) يشير الى وعد الله لابراهيم عن فلسطين « لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد » (تكوين ١٣ : ١٥) واليهود خرجوا من فلسطين •

ذو جوارح^(١) ، وهذا على الله بالضرورة محال • ولا للتأويل في هذا*
اللفظ مجال • ثم أنى هذا من قوله : « ليس كمثله شيء ، وهو السميع
البصير »^(٢) •

ومن ذلك أيضا • أن الله تعالى حين أمر بنى إسرائيل الى التوجه-
الى الشام ، وعدهم أن يتوجه معهم وأمرهم أن يعملوا قبة على صفة-
كذا • ينزل فيها في سيره معهم •

ثم ان موسى قال له : يارب • ان هذه الأمة القاسية رقابها ، لا
تمضى اليك الى الشام ، حتى تمضى معها كما وعدتها • فقال الله :
نعم • اعملوا لى القبة • فعمل موسى القبة ، وسماها : قبة العهد •
ونزل الله من عرشه ، وسار معهم في داخل القبة ينزل بنزولهم ، ويرحل
برحيلهم • هذا نص التوراة^(٣) •

ومما يذكرونه من بقية هذا ، وليس في التوراة : أنهم حين جمعوا
المال لعمل هذه القبة أجزوا الاتفاق على يد موسى عليه السلام •
فلما كمل عملها ، ادعوا عليه : أنه قد نقصهم من المال ألف رطل •
وسبع مائة رطل وخمسة وسبعون رطلا • وقالوا لموسى تهكما به :
أين نقص هذا المال وانما جرى الاتفاق على يديك ؟ فسمعوا صوتا من
السماء يقول لهم : ان هذا العدد دخل في رؤوس الأعمدة ، وفي التفتشية ،
فحينئذ كفوا عنه^(٤) ، فهؤلاء لم يعرفوا الله حق معرفته ، ولا قدروه حق
قدره « فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون »^(٥) •

ومن ذلك أيضا • أنهم ذكروا فيها : أن الله قال لهم : أن يضربوا
القرن في عسكرهم قليلا قليلا ، حتى يلقوا عدوهم ، فحينئذ يضربونه
بأشد ما يقدرون عليه ليسمعهم الله فيؤيدهم على عدوهم^(٦) ، فكانه
سبحانه وتعالى لا يسمع الا الأصوات العالية • فأين هذا من وصف الله
تعالى نفسه في كتابه على لسان نبيه ورسوله حيث قال : « وان تجهر

(١) أمثلة هذا في التوراة كثير وللإهود تأويل في تلك الأمثلة نقلناه
عنهم في كتابنا : الله وصفاته في اليهودية والنصرانية والاسلام •

(٢) الشورى : ١١ (٣) خروج ٢٥ الى الآخر •

(٤) هذا الخبر ليس في التوراة • (٥) البقرة : ٧٩

(٦) الاصحاب العاشر من سفر العدد •

«بالقول • فانه يعلم السر وأخفى • الله لا اله الا هو ، له الأسماء الحسنی» (١) •

وفيه من هذا النوع كثير ، لو ذهبت أنقله لطال الكتاب ، ولخرجنا من مقصود الباب •

وينبغي أن نذكر الآن ما جاء فيها مما ينزه عنه الأنبياء عليهم السلام :

من ذلك •• ما حكوا في السفر الأول عن لوط أنه طلع من صاغار ، فسكن الجبل هو وابنتاه معه ، فجلس في مغار هو وابنتاه ، فقالت الكبرى للصغرى : قد شاخ أبونا ، وليس على الأرض رجل يدخل علينا ، نسقى أبانا الخمر ، ونضطجع معه في مضطجعه ، ففعلتا وحملتا منه بولدين : موآب ، وعمون (٢) •

هذا لوط من رسل الله الأكرمين ، أوقعه الله في فاحشة ، كما يوقع الأذلين ، ثم خلد ذكرها في الآخرين • وهل هذا الا عين الاهانة • «وأي نسبة بين هذا وبين النبوة والكرامة ؟

وكذلك أيضا • حكوا فيها : أن اسحق لما شاخ ، وعمى بصره ، دعا بعبسو ابنه الأكبر ليبارك عليه ، وليدعوا له بالنبوة ، فتحييل يعقوب عليه • فقال له اسحق أبوه : من أنت ؟ فقال له : برك عيسو • «فقال له : ادن مني حتى أجسك • فدنا منه ، وقد كان وضع على رأسه شعرا بمكيدة أمه ، فقال له : الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو ، فبارك عليه ، ودعا له بالنبوة ، وبشره بها ، وهو على غلط فيه ، ثم بعد ذلك جاء عيسو وقال له : باركني أيضا يا أبى • فقال له : دخل أخوك بمكر ، فقبل بركاتك • فقال عيسو ، بعد بكاء وحزن : أما تركت من البركات شيئا ؟ أبركة واحدة لك يا أبتى ؟ (٣) •

فما أعظم هذه الآية ، التي تشبه حديث خرافة •

ومن ذلك ما ذكروه فيها أيضا : أن يعقوب بينما هو يصلح خيمته

(١) طه : ٧ ، ٨ •

(٢) التكوين ١٩ : ٣٠ - ٣٨

(٣) التكوين الاصحاح السابع والعشرون •

وييسطها ، مثنى ابنه رأوبين وهو أكبر أولاده فضاجع سرية أبيه (١) :
بلهة • ولما علم بذلك يعقوب • قال لابنه رأوبين : « فضل العز •
فائرا كالماء • فلذلك لم أفضلك بالسهم الزائد حيث امتهنت فراشي » (٢)

وتفسير هذا : أن سنة الميراث كانت عندهم : أن يرث الولد الأكبر
سهمين (٣) • وسائر الولد سهم واحد ، فعاتب يعقوب ابنه رأوبين
على فعله بسريته بأن لم يفضل به بالميراث على أنه كان أكبر ولده •

وفي بعض التراجم : أن يعقوب قال : « يا رأوبين • أنت بكرى
وقوتى ، ورأس حرأتى ، وعونى ، طائفة الحمولة ، وطائفة العز والمنعة ،
عديت مثل الماء ، فلا تمكث ، اذ صعدت الى مضطجع أبيك • حقا
لقد نجست مضطجعى ، وتناولته » •

ومن ذلك • ما ذكره فيها أيضا : أن يهوذا بن يعقوب زنى بكنته
ثامار امرأة ولديه ولقد كانا هلكا عنها واحدا بعد واحد فردها يهوذا
الى بيت أبيها ووعدا بتزويج ولده الثالث المسمى بشيلا اذا كبر • ثم
انها قعدت ليهوذا فى طريق غنمه ، وتستترت جهدها فظنها بغيا ،
فعدل اليها ، ودعاها الى نفسه ، فسألته أجرا ، فوعدها بجدى من
غنمه ، فطلبت منه رهنا • فأعطاها محامته ومنديله وعصاه وواقعها بزعمهم
فحملت منه • ثم ان يهوذا أرسل بالجدى ليطلب رهنه ، فلم توجد
المرأة فجاء بنفسه الى أهل القرية ، وقال لهم : أين قحباكم المتبلطة
على الطريق ؟ فقالوا : ما كان منا على الطريق قحبا • ثم قيل له بعد
حين : ان كنتك ثامار حبلى • فقال : تحرق بالنار (٤) • فأخرجت لتحرق
بالنار • فقالت : انما أنا حامل منه ، وهذه رهنه بيدي ، حين زنى بى ،
ليفكها بجدى من غنمه ، فعرف ذلك يهوذا ، وقال : هى أصدق منى •

وفي بقية هذا الخبر خرافة : وذلك أن ثامار • لما جاءها المخاض
كان فى بطنها توأمان ، فتناولت القابلة خيط عن ، فربطته على يده •
وقالت : هذا يخرج بديا • فلما مد يده خرج أخوه • فقالت : لقد
انحزمت فيك ثلثة عظيمة (٥) •

(٢) تكوين ٤٩ : ٣ - ٤

(١) تكوين ٣٥ : ٢١ - ٢٢

(٤) لاويين ٢١ : ٩

(٣) تثنية ٢١ : ١٧

(٥) قصة زنى يهوذا بثامار فى الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر

التكوين •

وحكى فيها أيضا : أن دينة بنت يعقوب خرجت لبعض شأنها فنظر اليها شخيم بن حمورا الزناتى^(١) ، فعشقتها واحتملها ، فواقعها ، وافتضاها . ثم ان شخيم قال لأبيه حمورا : اخطب لى هذه الجارية لتكون لى امرأة . فبلغ ذلك يعقوب ، وأنهم قد نجسوا دينة ابنته فصمت يعقوب ، وأطرق حتى أتاه بنوه . فلما بلغهم ذلك اغتموا ، وساءهم ذلك واشتد عليهم ذلك جدا ، لأنهم ارتكبوا النجاسة فى اسرائيل ، ثم ان بنى يعقوب عاقدوا شخيم ، وحمورا أباه ، وقومه : أنهم اذا اختنتوا أنكحوه أختهم دينة . فانهم قالوا لشخيم : لا نقدر أن نزوج أختنا من رجل له غرلة . ولكن اذا اختنتتم زوجناكم أختنا وبناتنا ، ونترزوج بناتكم .

ففعل القوم ذلك . فلما اشتدت بهم أوجاعهم تناول شمعون ولاوى . كل واحد منهما حربا ، ودخلا على القرية بغتة ، فقتلا كل ذكر فيها^(٢) .

ومثل هذا كثير مما يخرج استقصاؤه الى التطويل .

وكذلك حكوا فيها أيضا من وعيد الله لبنى اسرائيل بالفاحشة والقبيح ، ما لا يقبله ذو عقل صحيح .

مثل ما حكوا أن موسى قال لبنى اسرائيل فى الوصية التى وصاهم بها حيث قال لهم : « ان كفرت بربك ، وحدت عن سبيله ، وعبدت الآلهة الأجنبية يضربك الرب بقرحه مصر ، وبالبواسير والجرب والحكة ، حتى لا تستطيع الشفاء . تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها »^(٣) .

وهذا الكلام تضمن : أن الله تعالى توعده بنى اسرائيل ، من عبد غير الله منهم بثلاثة أنواع من الفواحش ، لا ينبغى لذوى المروءات أن يتلفظوا بها ، ولو أسقطوا مروءتهم فتلفظوا بها ، لما كان ينبغى لهم أن يتوعدوا بها ، ولا أن ينفذوا ذلك الوعيد لفحشه ، ثم انهم ينزهم على هذا أحد ثلاث أمور : أحدها : أن يكون هذا الكلام باطلا أو كذبا على الله تعالى عن ذلك — أو يكون بنى اسرائيل كل من أشرك منهم

(١) فى ترجمة ١٩٧٠ « شكيم بن حمور الحوى » .

(٢) هذه القصة فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين .

(٣) النص فى الاصحاح الثامن والعشرين من التثنية .

وعبد غير الله أن يبتلى بهذه الأدواء الثلاثة ، وأن يكونوا بنى زنى •
ولا يقدرّون على أن ينكروا : أنهم قد أشركوا بالله ، وأنهم عبدوا
الأوثان بعد موسى • فيلزم من ذلك — أن لم يكن ذلك الكلام محرّفاً —
أن يكونوا كلهم بنى زنى ، وقرحانيين ، وموصوفين بالفاحشة الكبرى •

وحكوا في سفر (١) صموئيل الثانى : أن داوود عليه السلام اطلع
من قصره ، فرأى امرأة من نساء المؤمنين تغتسل فى دارها فعشقها ،
وبعث فيها ، فحبسها أياما حتى حبلى — تعالى الله أن يجرى ذلك
على رسله — ثم ردها ، وكان زوجها يسمى أوريا ، غائبا فى العسكر ،
ولما علمت المرأة بالحمل أرسلت به الى داوود فبعث داوود الى
يوآب بن صوريا ، قائده على العسكر يأمره أن يبعث اليه بأوريا زوج
المرأة فجاء فصنع له طعاما وخمرا حتى سكر ، وأمره بالانصراف الى
أهله ليواقعها فينسب الحمل اليه ، ففهم الأمر أوريا وتخابث ، فلم يمش
الى أهله • وقال : حاشى لله أن يكون الملك هنا دون أهله ، وأمضى أنا
الى أهلى • فلما يئس داوود منه ، رده الى العسكر ، وكتب الى القائد أن
يصدر به فى القتال مستقتلا له • فقفل أوريا ، وقتل معه من المؤمنين :
سبعة آلاف ، وفزع القائد من داوود لقتل العدد العظيم من المؤمنين •
وقال للرسول : اذا أنت أخبرت الملك داوود بقتل الناس ورأيتة قد
غضب • قل له سريعا : ان أوريا قتل فيهم • ففعل الرسول ، وسكن
داوود من بعد الغضب ، وسر بموت أوريا ، وهانت عليه من أجل موته
دماء المؤمنين •

فاعتبر • هذه الفواحش المنكرة ، وهذه الصفات المذمومة
المستفدرة • هل تليق بأولى الديانات ؟ فكيف بمعدن النبوات ؟ وهل
يحمد ذكرها عند ذوى المروءات ؟ فكيف عند الحى الكريم اله المخلوقات ؟
تبا لهم ، ولصدقهم • وخسرا براحة وجذعا وعقرا • فوالله لقد افترؤا
على رسل الله ، وكذبوا على كتب الله « افترء على الله ، قد ضلوا
وما كانوا مهتدين » (٢) •

(١) عبارة المخطوطة : سفر ملاخيم • وفى ترجمة الكاثوليك اسمه سفر
الملوك الثانى • وقصة زنى داوود التى ذكرها المؤلف فى الاصحاح الحادى
عشر •

(٢) الأنعام : ١٤٠

وكتبوا في هذا المصحف^(١) : أن أمنون بن داوود عشق أخته تامار بنت داوود ، وتمارض فعاده أبوه ، فتمنى عليه طعاما تطعمه تامار أخته ، فبعث بها داوود اليه ، فلما قربت اليه الطعام وضع يده فيها ، وافتضاها . فخرجت باكية فلقبها أخوها الآخر ، شقيقها أبسالوم ، فأخبرته ، فهون عليها . ثم بعد أيام وثب على أمنون فقتله من أجل ذلك .

وكتبوا في هذا المصحف^(٢) : أن أبسالوم بن داوود . نافق على أبيه ، وأخرجه عن قصره ودخل على نسائه ، فوطئن كلهن على أعين بنى اسرائيل استبلاغا في الانتقام من أبيه .

ومن أفصح ما كتبوا في هذا المصحف^(٣) عن سليمان بن داوود : أنه ختم عمره بعبادة الأصنام والسحر ، وسييت نساؤه دينه . كذبوا . « قاتلهم الله ، أنى يؤفكون »^(٤) اذ بالأباطل والفواحش يتقولون ويتخرصون . فلقد صدق الله العظيم ورسوله الكريم حيث قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه الحكيم : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا »^(٥) فغضب الله عليهم وعلى من يصدقهم الى يوم الدين ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

فهذه الحكايات المخيمة ، والأقوال غير المستقيمة : تضمنت الاخبار عن لوط بأنه زنى بابنتيه وأنهما حملتا منه من الزنى . وأن نبوة يعقوب انما حصلت له بأن خدع اسحق ومكر به . وانما كانت لعيسو . وأن داوود زنى بامرأة مؤمنة ، زوجة مؤمن . وأن داوود تحيل على زوجها حتى قتل ، وقتل لقتله جماعة من المؤمنين ، فسر بذلك . وأن رأوبين زنى بسرية أبيه يعقوب ، وكذلك يهوذا زنى بكنته تامار ، وولدت له من الزنى توأمين . وأن ابنة يعقوب زنى بها شخيم بن حمورا . وأن

(١) الاصحاح الثالث عشر من سفر صموئيل الثاني .

(٢) الاصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الثاني .

(٣) سفر الملوك الاول الاصحاح الحادى عشر - واسمه سفر الملوك

الثالث في ترجمة الكاثوليك (الآباء اليسوعيين)

(٥) البقرة : ١٠٢

(٤) التوبة : ٣٠

أولاد يعقوب بعد أن آمنوه وعقدوا معه ، غدروا به • وقتلوه وأباه ،
وأهل القرية • وأن آمنون بن داوود زنى بأخته تالمار بنت داوود •
وأن أخاها أبسالوم قتله غيلة وغدرا • وأن أبسالوم زنى بنساء داوود
أبيه ، وأن سليمان ارتد عن نبوته ، وعبد الأصنام •

فان ثبت هذا الذى ذكروه فى كتبهم — تعالى الله والأنبياء عن
قولهم — فهذا الشعب الذى ذكروا فيه هذه الفواحش ، ليس هو شعب
النبي اسحق • بل هو شعب : غدر ونفاق وزنى وكفر • وكيف يصح
أن تكون هذه الأفعال القبيحة أفعال أهل نبوة صحيحة ؟ بل كل ذلك
ناقض للنبوات ، لا سيما مع دعاء ابراهيم واسحق لذريتهما بالبر ،
والبركات • فان كان هذا شعبهما الذى دعوا له بالبر ، والبركة •
فدعاؤهما غير مسموع ، وقولهما مردود مدفوع •

ثم هذه الحكايات اللوخيمة ، الفاحشة غير المستقيمة فى التوراة •
لها أمور آخر تعارضها • بل وأدلة العقل تناقضها •

من ذلك : ما حكى فيها من مدح لوط على لسان ابراهيم ، وشهادته
له بالبر • وذلك أن الله تعالى لما أعلم ابراهيم بأنه يريد أن يهلك
سدوم وعمورا • وهما مسكن قوم لوط • قال : « يا رب أهلك الأبرار
مع الفجار » ؟^(١) يعنى بالأبرار : لوطا وبنتيه • فسماهم : أبرارا •
وشهد له بذلك بين يدي الله تعالى • وكيف يصح أن يكون ابنتا لوط
من الأبرار ، ويوقعان أنفسهما فى أن يزنى بهما أبوهما نبي الله ؟ ثم لم
يعصمه الله تعالى من مثل هذه الرذيلة • ثم ان الله شهد عنه هذه
الفضيحة التى يتحدث بها على مد الدهر ، مع أنه لم يسمع قط من
المتشرعين من أجاز نكاح البنات • وهل هذا من ناقله وناسبه الى الله ،
الا جرأة وتواضع على الله •

وكذلك ما كتبوه فيها من الحكايات التى ذكرناها فى ذرية اسحق ،
يعارضه ما حكوا فيها عن الله أنه قال لابراهيم ، فى غير موضع ما منها :
« لأباركك بركة تامة ، ولأكثر نسلك ، ويتبارك بنسلك جميع الشعوب
لأنك أطعنتى »^(٢) •

(١) تكوين الاصحاح الثامن عشر : ٢٣

(٢) تكوين ٢٢ : ١٧ - ١٨

وكذلك قال الله لاسحق بعد موت ابراهيم : « أنا معك أكون ، وأباركك • لأنني أعطيتك ونسلك ، جميع هذه الممتلكات ، ويتبارك بنسلك جميع الشعوب » (١) •

وكذلك قال اسحق ليعقوب حيث مكر به يعقوب بزعمهم قاتلهم الله • قال : « به يؤتيك الله من ظل السماء ، وخصب الأرض ، تعبدك الأمم ، وتسجد لك الشعوب • كن رئيسا لاختوتك • تسجد لك بنو أمك • مباركوك مباركون ، ولا عنوك ملعونون » (٢) •

تأمل بعقلك هذه المخازي البادية ، وما نسبوا في كتبهم الى أكرم الخلق من المناكر الفاشية •

فاذا أنت أمعنت النظر ، واشتدت منك العبر • علمت أن هذه الحكايات بواطل • وأن ملحقها في التوراة وناسبها الى الله متزندق جاهل • وانما ألحقها عدو للأديان • أراد أن يقول في صفوة الله : البهتان ، فحصل له مراده ، حيث أفسد على المتنصرين الايمان •

ثم نقول للنصارى بعد ذلك : العجب منكم ، ومن جهلكم حيث صدقتم بوقوع هذه الفواحش من الأنبياء ، واعترفتم مع ذلك بنبوتهم • ثم لم تجوزوا على الحواريين وقوع الغلط منهم فيما حكوا لكم ان صحت الحكايات عنهم من اتحاد العلم باللحمة ، فان العقل يدل بضرورته على أن ظاهر ذلك فاسد محال • فهلا عليكم تأولتم ذلك ، أو قلتم : انه يجوز عليهم الغلط ، ولا يدل ذلك على نقضهم كما قلتم في الأنبياء الذين حكيت عنهم تلك الفواحش ، ولو فعلتم ذلك لكان الأولى عند العقلاء •



فصل في بيان أن الانجيل ليس بمتواتر وبيان بعض ما وقع فيه من الخلل

فنقول وبالله التوفيق :

ان هذا الكتاب الذى بيد النصارى اليوم الذى يسمونه بالانجيل •
ليس هو الانجيل الذى قال الله فيه على لسان رسوله صلى الله عليه
وسلم : « وأنزل التوراة والانجيل • من قبل هدى للناس » (١) •

وانما قلنا هذا فى الانجيل ، دون التوراة ، لأن التوراة قد ثبت
عندنا وعندهم أن الله تعالى كتبها فى الألواح لموسى عليه السلام • وتدعى
اليهود أن موسى عليه السلام نسخ لهم التوراة من تلك الألواح •
فحصل من هذا : أن التوراة بلغت بجملتها عن موسى عليه السلام •
ثم انه حدث فيها من التغيير بعده ما قدمنا ذكره •

وأما هذا الكتاب الذى يدعى النصارى أنه الانجيل : فقد توافق
هؤلاء النصارى على أنه انما تلقى عن اثنين من الحواريين وهما :
متاؤوش (٢) ويوحنا • وعن اثنين من تلاميذ الحواريين وهما : ماركس
بولوقا • وأن عيسى عليه السلام لم يشافهم بكتاب مكتوب عن الله كما
فعل موسى • ولكن لما رفع الله عيسى عليه السلام اليه • تفرق
الحواريون فى البلاد والأقاليم ، كما أمرهم عيسى فكان منهم من كتب
بعض سيرة عيسى ، وبعض معجزاته ، وبعض أحواله ، حسب ما تذكر •
وما يسر الله عليه فيه • فربما توارد الأربعة على شىء واحد فحدثوا به ،
وربما انفرد بعضهم بزيادة معنى • وكذلك كثيرا ما يوجد بينهم من
اختلاف مساق وتناقض بين قولين وزيادة ونقصان ، وسترى بعض
هذلك ان شاء الله تعالى • فعلى هذا لا يسمى الانجيل كتاب الله المنزل
حقيقة • فان حقيقة الكتاب المنزل بحكم العرف انما هو : عبارة عن
جملة من كلام الله المبلغة على لسان رسول من رسله يحكيها ذلك الرسول
عن الله تعالى •

(١) آل عمران : ٣ ، ٤ •

(٢) متاؤوش هو : متى فى التراجم الحديثة • وماركس هو : مرقس •

وليس شيء من هذا موجودا في الانجيل فان سماه مسم كتابا منزلا ، ولم يرد هذا المعنى فلا بد من أن نسأله عن المعنى الذى يريده بذلك الاطلاق . فلا شك أنه يقول : انما سميته كتابا منزلا ، لأن عيسى جاء من عند الله ، وبلغنا شرع الله . وفى ذلك الكتاب وصف سيرته ، وحكايات وأخبار عن الله . فكيف لا يقال عليه : هو كتاب الله ، ومنزل من الله . فنقول له : نسميه هذا كتاب الله بالمجاز ، أو بالحقيقة ؟ فان قال : بالحقيقة . فكلامه باطل . فان حقيقة كتاب الله المنزل ، هو ما قدمناه . وان قال : بالمجاز . قنعنا بهذا . ثم ألزمناه عليه : أن يكون كل كتاب يحكى عن نبى من أنبياء الله . فان ألفه أى مؤلف كان كتاب الله ، ولا فرق .

واذ انتهينا الى هذا ، فقد حصل غرضنا . وهو : أن هذا الانجيل الذى بأيديهم ليس منزلا . ولا يقال عليه : كتاب الله المنزل ، كما يقال على التوراة والانجيل ، والقرآن . وذلك ما كنا نبغى .

فقد حصل من هذا الكلام : أنه ليس منزلا من الله حقيقة ، وأن نقله ليس متواترا فانه راجع الى الأربعة الذين ذكرناهم . والعادة تجوز عليهم الغلط ، والسهو ، والكذب . فان قالوا : هم معصومون فيما نقلوه عن عيسى عليه السلام . قلنا : ما دليل عصمتهم ؟ فان قالوا : دليل عصمتهم أنهم كانوا أنبياء ، ودليل نبوتهم : ما ظهر على أيديهم من خوارق العادات . وشهادة عيسى عليه السلام لهم حيث قال لهم : « كل ما سألتموه ، اذا حسن ايمانكم ستجابون »^(١) وقال لهم : « ستوقفون على الملوك . ويسألونكم ، فلا تفكروا فيما تقولون . فانكم ستهدون ذلك الوقت ، لما تقولونه ، ولستم تنطقون أنتم . لكن روح القدس ينطق على ألسنتكم »^(٢) وقد جاء عن عيسى عليه السلام أنه دعا الاثنى عشر حواريا ، وأعطاهم من القدرة والسلطان . ما يتقون به جميع الجن . ويبرءون به الأسقام^(٣) . وكذلك قال لبطرس : « ما عقدته أنت في الأرض ، فمعهود في السماء ، وما حللته في الأرض

(١) متى الاصحاح السابع عشر والحادى والعشرين .

(٢) الاصحاح العاشر من انجيل متى .

(٣) الاصحاح العاشر من انجيل متى .

فمحلول في السماء» (١) وأما خوارق العادات • فقد كانوا يحيون الموتى ، ويبرءون المرضى ، كما كان يفعل عيسى عليه السلام وذلك معروف من حالهم (٢) •

قلنا : ما ذكرتموه عن عيسى عليه السلام من الشهادة • فلا يصح لكم الاستدلال بشيء مما ذكرتموه • لوجوه :

أحدها : أنكم أسندتم ذلك الى الانجيل ، واستدلتم على صدقهم بما جاء عنهم فيه ، وما جاء عنهم فيه ، لا يثبت حتى تثبت عصمتهم ، فلا يثبت بما ذكرتموه ، لا الانجيل ، ولا عصمتهم •

الوجه الثاني : أنا لو سلمنا ذلك لكم • لما كان فيما ذكرتموه حجة ، لأنه ليس شيء منها ينص على أنهم معصومون فيما أخبروا به على الاطلاق ، وغاية ما ذكرتموه : أن يدل على أنهم يعانون ويؤيدون مما يبلغون عن عيسى في بعض الأوقات ، أو في بعض الأخبار والاحوال •

والوجه الثالث : أن ما ذكروه معارض بما نقلوه أيضا • وذلك أنهم نقلوا في الانجيل أنه قال للحواريين : « يا نسل التشكيك والكفر • الى متى أكون معكم ؟ والى متى أحتملكم ؟ » (٣) وأما ما قال لبطرس فهو أيضا معارض بما حكيتكم عنه أنه قال له : « تأخر يا شيطان • فانك جاهل بمرضات الله » (٤) •

وأما ما ادعوه من معجزاتهم فلم ينقل منها شيء على التواتر • وانما هي أخبار آحاد غير صحيحة • ولو سلمنا أنها صحت لما دللت على صدقهم في كل الأحوال • وعلى أنهم أنبياء • فان القوم لم يدعوا النبوة لأنفسهم ، وانما ادعوا التبليغ عن عيسى عليه السلام • فظهر من هذا البحث : أن الانجيل المدعى لم ينقل تواترا ، ولم يقيم دليل على عصمة ناقله • فاذن يجوز الغلط والسهو على ناقله ، فلا يحصل العلم بشيء منه • بل ولا غلبة الظن • فلا يلتفت اليه • ولا يعول في الاحتجاج عليهم •

(١) الاصحاح السادس عشر من انجيل متى •

(٢) لوقا : الاصحاح التاسع •

(٣) الاصحاح التاسع من انجيل لوقا •

(٤) الاصحاح السادس عشر من انجيل متى •

وهذا كاف في رده ، وبيان قبول تحريفه ، وعدم الثقة بمضمونه •
ولكننا مع ذلك نعلم منه الى مواضع يتبين فيها تهافت نقلته ووقوع
الغلط في نقله بحول الله تعالى •

فأول ذلك : أنهم ذكروا في أول ورقة من انجيل يوحنا حيث ذكر
المسيح ، فقال : « : ولد (١) المسيح الذي هو بادىء الأشياء وعلتها الأولى
علة جميع الأشياء ، وكل زمان • ورأس كل نظام ، وأولية جميع المراتب »
ثم قال بعد ذلك في معرض مدحه : « المكوم في لحمه ، المعلق في
الخشبة » •

كيف يجترىء عاقل : أن يتحدث بمثل هذا العار ؟ أو كيف تصح
منسبة هذا التناقض البين الى أحد من الأخيار ؟

وذكروا فيه أيضا : أن عيسى عليه السلام قال : « أنا الباب •
فمن دخل على يسلم • ويجد مرعى أبدا » ثم عرض بمن قبله من الأنبياء
فجعلهم لصوصا وسراقا • فقال « آمين ، آمين • أقول لكم : انى باب
الضأن ، والقادمون عليكم كانوا لصوصا وسراقا ، ولا يقبل اللص
الا ليسرق شيئا ويقتل • وأنا قدمت لتحيا ، وتزدادوا خيرا » (٢) •

وفي الانجيل أيضا أنه قال : « ان كنت أشهد لنفسى فشهادتى غير
مقبولة ، ولكن غيرى يشهد » (٣) ثم في موضع آخر من الانجيل أنه
قال : « ان كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق • لأنى أعلم من حيث جئت •
والى أين أذهب » (٤) •

فكيف تكون شهادته حقا وباطلا ، ومقبولة وغير مقبولة ؟ وكيف
يجمع بين هذين في كتاب ينسب الى الله ؟

وفي الانجيل أيضا : أنه حين استشعر بوثوب يهوذا عليه • قال :
« قد جزعت نفسى الآن • قماذا أقول يا أبتاه ؟ فسلمنى في هذا
الوقت » (٥) وأنه حين رفع في الخشبة صاح صياحا عظيما وقال :

(١) يشير الى بدء انجيل يوحنا : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان
عند الله وكان الكلمة الله • • • • » •

(٢) الاصحاح العاشر من يوحنا • (٣) يوحنا ٥ : ٣١ •

(٤) يوحنا ٨ : ٢٤ • (٥) متى ٢٦ : ٣٨ •

« آلى • آلى • لم عد بتاى » ؟ وترجمته : « الهى • الهى • لم أسلمتني » (١) ؟

ثم فى أول ورقة منه : « انما أسلم نفسه لتظهر قدرته بسلطانه على الموت ، وظفرته على جميع الآلام والمهن التى تستبجها أوهام الآدميين » (٢) •

فكيف يصيح ويجزع مما تظهر به قدرته وقهرته ؟ وهل سمع قط أسخف من هذا القول ؟ أو أظهر تناقضا منه ؟

ثم فى موضع آخر منه : أنه قال قبل ذلك : « من أحب أن يقفوا أترى ، فليذهب نفسه » (٣) فحرض على اتلاف النفوس • فكيف يجزع مما يحرض عليه قبل ؟ أم كيف يكون الها ويجزع نفسه ؟ أم كيف يكون « ابن الله » ؟ ثم يدعو أن يخلصه فى ذلك الوقت فلم يستجب له ؟

ومن أظهر دليل على وقوع الغلط فيه : أن فى انجيل متاؤوش الحوارى حين ذكر نسب عيسى عليه السلام حيث نزل خطيب مريم أبا لعيسى • فقال : « ابن يوسف بن يعقوب بن مثن بن أليعازر بن أليود ابن أخيم » (٤) وعد الى ابراهيم الخليل تسعة وثلاثين أبا ، ثم فى انجيل لوقا يقول : « يوسف بن هالى بن مثنات بن لاوى بن ملكى • بن ينا » (٥) وعد الى ابراهيم نيفا وخمسين أبا •

فياليت نعرى • كيف يجوز مثل هذا على الله ؟ أو كيف ينقل هذا فى كتاب معلوم عن الله ؟ وقد أراد بعض أساقفتهم أن يرفع هذا الخرق المتسع بأن قال : أحد النسبين طبعى ، نسب التوليد ، والآخر نسب شرعى ، نسب الولاء والكفالة • والتناقض باق عليه بعد اختراع هذا الهذيان •

(١) « ايلى • ايلى • لما شبقنتنى أى الهى الهى لماذا تركتني ؟ »

(متى ٢٧ : ٤٦) •

(٢) الآية بالمعنى فى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا والاصحاح الثانى من

سفر أعمال الرسل •

(٣) الاصحاح العاشر من انجيل متى •

(٤) الاصحاح الأول من انجيل متى •

(٥) الاصحاح الثالث من انجيل لوقا •

ثم انظر هذه الشناعة التي ارتكبوها • حيث نسبوا عيسى عليه السلام الى رجل زعموا أنه خطب أمه مريم وأى نسبة تثبت بينهما ، بيان أراد أن يتزوج انسان أمه ؟ ثم انهم يبلغون نسب يوسف الى آدم • ثم يقولون : الى الله •

فهلا عليهم يستغنون عن ذكر نسب من لا ينتسب في عيسى ، ويقولون في عيسى : ما يقولون في آدم ؟ لولا الجهل والتحكم •

وفي الانجيل عنه : أنه كان يوما قد نهاهم عن التجارة في بيت المقدس • وأن اليهود قالت له حينئذ : « أى علامة تظهر لنا ؟ قال : تهتمون هذا البيت وأبنيه لكم في ثلاثة أيام ، فقالت اليهود : بيت بنى في ستة وأربعين سنة تبنيه أنت في ثلاثة أيام » (١) ؟

ثم في موضع آخر منه : أنه لما ظفرت به اليهود — بظنكم — وحمل الى بلاط قيصر ، واستوعيت عليه بيعة • أن شاهدي زور ، جاء اليه • وقالوا : سمعنا هذا يقول : أنا قادر على بنيان البيت في ثلاثة (٢) •

وهذه شهادة موافقة لما قال عيسى لليهود • فهذا الشاهد قال عليه الحق لما يقتضيه كلامه • ومن شهد بما سمع • كيف يقال عليه : شاهد الزور ؟ أو كيف يسميه الله شاهد زور ؟ ومن أعجب الأشياء : أن اليهود لا تعرف شيئا من هذا • ولا سمعت أن أسلافها جرى بينهم وبين عيسى هذا المجلس ولا سوى ذلك مما تصفون من خرافات كتبكم •

وفي الانجيل أيضا للوقا : أن عيسى قال لرجلين من تلاميذه : « اذهبا الى الحصن الذى يقابلكما ، فاذا دخلتماه فستجدان فلوا مربوطا ثم يركبه أحد • فحلاه واقبلا به الى » (٣) وفي الانجيل لمتاؤوش (٤) يصف هذا الخبر بعينه ، ويذكر أنها كانت « حمارة » فحسبك بهذا خلا وتناقضا •

(١) الاصحاح الثانى من انجيل يوحنا •

(٢) الاصحاح السادس والعشرون من انجيل متى •

(٣) الاصحاح التاسع عشر من انجيل لوقا •

(٤) الاصحاح الحادى والعشرون من انجيل متى •

وفي الانجيل أيضا للوقا^(١) : يخبر عن المرأة التي صبت الطيب على رجلي المسيح ، وشق ذلك على التلاميذ ، وقالوا لها : هلا تصدقت به ؟ وفي الانجيل لمتاؤوش^(٢) : أنها انما صبت الطيب على رأس المسيح . فما أبعد اليقين عن خبر فيه مثل هذا الاختلاف المبين .

وفي الانجيل^(٣) أيضا : أن أم ابني زبدى جاءت الى عيسى ، ومعه ابناها . فقال : ما تريدان ؟ فقالت : أريد أن تجلس ولداي أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، اذا جلست في ملكك . فقال : تجهلين السؤال . أيصبران على الكأس التي أشرب بها ؟ فقالا : نصبر . فقال : ستشربان بكأسى ، وليس الى تجليساكما عن يميني ، ولا عن شمالي ، الا لمن وهب ذلك .

فقد أخبر هنا : أنه لا يقدر على تجليساكما عن يمينه ، ولا عن شماله .

وفي أول ورقة^(٤) مه : أنه بادیء الأشياء وعلتها ، وعلة كل زمان . فكيف يصح أن يكون بادیء الأشياء كلها وعلتها ، ولا يقدر أن يجلسهما عن يمينه ، ولا عن يساره . ثم يتبرأ عن ذلك بقوله : « الا لمن وهب ذلك لي » ولا مزيد في التناقض والفساد على هذا .

وفي الانجيل أيضا أنه قال : « لا تحسبوا أنى قدمت لأصلح بين أهل الأرض . لم آت لصلاحهم ، لكن لألقى المحاربة بينهم . انما قدمت لأفرق بين المرء وابنه والمرأة وابنتها ، حتى يصيروا أعداء المرء أهل بيته »^(٥) .

وفيه أيضا عنه : « انما قدمت لتحيوا وتزدادوا خيرا ، وأصلح بين الناس »^(٦) وأنه قال : « من لطم خدك اليمنى ، فانصب اليسرى »^(٧) ولا مزيد في التناقض والفساد على هذا .

(١) الاصحاح السابع من انجيل لوقا .

(٢) الاصحاح السادس والعشرون من انجيل متى .

(٣) الاصحاح الحادى والعشرون من انجيل متى .

(٤) يشير الى انجيل يوحنا الاصحاح الاول .

(٥) متى ١٠ : ٣٤ - ٣٦

(٦) متى ٥ : ٣٩

(٧) متى ٢٠ : ٢٨

وفي الانجيل أيضا أنه قال : « لم آت لأنقض شريعة من قبلى ،
انما جئت لأتمم » (١) وكلاما من معناه • ثم فيه بعد أحرف قليلة :
كلام آخر ينقض فيه شريعة من قبله وذلك أنه قال : « انما علمتم أنه
قيل للقديما : لا تقتلوا • ومن قتل فقد استوجب النفى من الجماعة »
ثم قال بعد ذلك : « أما علمتم أنه قيل للقديما : من فارق امرأته فليكتبه
لها كتاب طلاق • وأنا أقول لكم : من فارق امرأته منكم • فقد جعل لها
سبيلا الى الزنى • ومن زوج مطلقة فهو فاسق » ثم قال : « أما بلغكم
أنه قيل للقديما : العين بالعين ، والسن بالسن • وأنا أقول لكم :
لا تكافئوا أحدا بسيئة ولكن من لطم خدك اليمنى ، فانصب له اليسرى •
ومن أراد مغالبتك وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداءك » (٢) •

كيف يصح أن يقول : « لم آت لأنقض شريعة من قبلى » ثم
ينقضها حكما حكما ؟ ثم قوله « جئت ممتما » لا يصح أيضا • فان شريعة
موسى كانت تامة كاملة • والتام لا يتمم ، والكامل لا يكمل • فهذا
تناقض وفساد •

وعيسى عليه السلام منزله مبرا عن كل تناقض وفساد • وليس
هذا ولا شيء منه من قبله ، بل هو منزله عن ذلك كله •

وفي الانجيل أيضا لمتاؤوش : أن المسيح قال لبطرس : « طوبى
لك يا شمعون بن الحمامة • وأنا أقول انك الحجر ، وعلى هذا الحجر
أبنتى بيتى • فكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السماء ،
وما عقدته على الأرض يكون معقوداً في السماء » (٣) ثم بعد أحرف
يسيرة قال بعينه : « اذهب يا شيطان ، ولا تعارض ، فانك جاهل
بكونى » (٤) •

فكيف يكون شيطان جاهل بطبعه صاحب السماء ؟ وهذا غاية
التناقض •

وفي الانجيل أيضا لمتاؤوش : أن عيسى قال : « لم تلد النساء

(٢) متى ٥ : الى ٤١

(٤) متى ١٦ : ٢٣

(١) متى ٥ : ١٧

(٣) متى ١٦ : ١٨ - ١٩

مثل يحيى « (١) ثم في انجيل يوحنا أن يحيى بعثت إليه اليهود من يكتشف لهم أمره فسألوه : « من هو ؟ أهو المسيح ؟ قال : لا • قالوا : أنتراك الياس (٢) ؟ قال : لا • قالوا : أنت نبى ؟ (١) قال : لا • قالوا : أخبرنا من أنت ؟ قال : أنا صوت مناد ، فى المفاز » •

فنفى عن نفسه كونه « نبيا » ولا يجوز لنبى أن ينكر نبوته ،
فانه يكون كاذبا والنبى الصادق لا يكذب •

فليزهم أحد أمرين : أما أن يكون يحيى ليس بنبى ، وهو باطل
أو يكون انجيلهم محرفا وهو حق •

ولو تتبع ما فيه من هذا القبيل لاحتاج ذلك الى التكرير والتطويل •
وبموضع واحد من هذه المواضع يحصل : أن كتابهم قابل للتحريف
والتغيير • فكيف بالتزديد والتكثير ؟

فقد حصل من هذا البحث الصحيح :

أن التوراة والانجيل لا تحصل ائثقة بهما ، فلا يصح الاستدلال
بهما لكونهما غير متواترين وقابلين للتغيير •

وقد دللنا على بعض ما وقع فيهما من ذلك • واذا جاز مثل ذلك
فى هذين الكتابين مع كونهما أشهر ما عندهم ، وأعظم عمدتهم ومستند
ديانتهم • فما ظنك بغير دينك من سائر كتبهم التى يستدلون بها
مما ليس مشهورا مثلها ، ولا منسوبا الى الله نسبتها ؟

(١) متى ١١ : ١١

(٢) الياس فى التراجم الحديثة : ايلياء •

(٣) المؤلف قرأ النص « أنت نبى » والصحيح كما فى جميع التراجم
« أنت النبى ؟ » لأنهم يسألون عن نبى معهود تحدث عنه موسى فى الاصحاح
الثامن عشر من سفر التثنية فنفى يحيى أنه النبى المسئول عنه ، لا أنه ينفى
نبوته كما فهم المؤلف • وهذا النبى المسئول عنه هو محمد صلى الله عليه
وسلم وهذا النص فى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا •

فعلى هذا • هما أولى بعدم التواتر ، وبقبول التحريف فيهما •
غذا ادعوا تواتر شيء من ذلك فليُنظر • هل كملت فيه شروط التواتر
أم لا ؟ فان كملت قبلنا وآمنا • وان لم تكمل توقفنا وطالبناهم بالطريق
الموصل الى العلم •

فاذا ثبتت هذه المقدمة • قلنا بعدها للمستدل على اثبات نبوة
عيسى بالأدلة المتقدمة : لا تظن أننا نرد نبوة عيسى ، أو أنا نشك فيها •
حاشي لله • بل نحن أحق وأولى بعيسى ابن مريم منكم • فانكم قلتم
فيه ما لا ينبغي له ، ونسبتموه الى ما يتبرأ هو منه • بل أنتم لعمري
والله أبعد منه ، وأبغض اليه ممن أنكر نبوته • وكفر به • فان من
أنكر نبوته ، وكفر به • لم يشرك بالله كما فعلتم أنتم حيث جعلتموه
الها آخر ، ولم يعرض بعيسى عليه السلام للموقف المخجل الذي
يسأله الله فيه عن غلوكم فيه وعبادتكم له • حيث يقول الله له :

« يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي : الهين من
دون الله » ؟ فيقول خجلاً ، فزعا ، متبرأ من قبيح ما نسبتموه اليه :
« سبحانك • ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد
علمته » (١) •

وأما نحن • فانما نقول فيه ، ما قاله الله على لسان رسوله
المصطفى : « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل
وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام » (٢) وما قاله الله أيضا فيه على
لسان أشعيا حيث بشر به ، وأخبر بقدومه : « هذا غلامى المصطفى
وحبييى الذى ارتضت به نفسى » (٣) •

وما قاله هو عن نفسه حين تكلم فى مهده : « انى عبد الله آتانى
الكتاب ، وجعلنى نبيا • وجعلنى مباركا أين ما كنت • وأوصانى بالصلاة
والزكاة ما دمت حيا » (٤) •

فنحن نعرفه حق معرفته ، ونؤمن بنبوته وشريعته ، ونحيل عليه
الالهية ، اذ ليست من صفته « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم

(٢) المائدة : ٧٥

(١) المائدة : ١١٦

(٣) الاصحاح الثانى والأربعين من سفر أشعيا •

(٤) مريم : ٣٠ ، ٣١

والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين ، بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» (١) .

ثم انا نعرف ما ذكرناه من وصفه بأدلة كثيرة قاطعة ، وبراهين صادقة تخضع لها رقاب الجاحدين ، وتستضىء بنورها بصائر المبصرين .

واذا كان كذلك . فما استدلت به أنت على نبوة عيسى من كلام النبيين ان صح فهو زيادة في أنواع الأدلة ، لا في نفس اليقين . فلذلك لا نباحتك فيها ، ولا نبالى بك . أتجهلها أم تدريها ؟ على أنا لو ناقشناك في تلك الأدلة لأظهرنا لك فيها الفساد والعلة . ولكن ما لا يخالف غرضنا ولا يقتضيه . فما بالناس نطول أنفسنا فيه .

* * *

هاجر أم اسماعيل الذبيح

من حكاية كلامه أيضا

قال : « وأنت أيها الانسان ، تجدوا في كتابكم ، في آل عمران :
« وأنزل التوراة والانجيل • من قبل هدى للناس » (١) •

فأنت مقر بالتوراة والانجيل ، فاثبتوا دينكم من التوراة ، كما
اثبتنا نحن ديننا من كتب الأنبياء • واعلم أنه لا نقبل لكم من كتبكم
شيئا • فان قلت : من كتابك شيئا • قلت لك : كما قال رسولك :
(البينة لمن ادعى ، واليمين على من أنكر) • فوجب عليك أن تثبت
دينك من التوراة والانجيل التي أنت مقر بهم ، وأنت مدعى : أن
كتابكم من الله فاثبتوه من التوراة بالعبراني ، ومن الانجيل بالعجمي ،
كما أنتم مقرون •

وقولكم : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » (٢) •
فانى أطلبك من الكتب التي جاءت به الرسل ، كما قلتم • فانت بما
ادعيت ، والا « يميني » لأنى أنكر لك ، ولا نقبل لك من النبوات والروايات
المرويات عن مسلم في كتابه الذي قال : « حدثنا سفيان عن الزهري ،
عن قتادة ، عن عائشة ، قالت : جاءت امرأة رفاعة الى الرسول • فقالت
له : كنت لرفاعة ، فطلقني ، فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، فتبسم
الرسول ضاحكا • وقال : (أتريدان أن ترجعي الى رفاعة ؟ لا • حتى
تذوقى عسيلته ، ويذوق عبد الرحمن بن الزبير عسيلتك) • وفي رواية
أخرى عن عائشة قالت : « طلق رجل امرأة ثلاثة فتزوجها رجل ، ثم
طلقها قبل أن يدخل بها ، وأراد زوجها الأول أن يتزوجها • فسئل
الرسول عن ذلك • قال : (لا • حتى يذوق الآخر من عسيلتها ما ذاق
الأول) •

فافهم • فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم • لأن المسيح يقول :
« لا ينبغي لرجل طلاق زوجته الا أن تزنى • وان زنت فلا يحل له
مراجعتها • ومن طلق امرأته فقد جعل لها سبيلا الى الزنى ، أعنى
من طلقها دون سبب • ومن زوج مطلقة فهو فاسق بها » (١) •

وأنتم تقولوا : لا يحل لزوجها مراجعتها الا أن تزنى • بدل أن
تنهوا عن الزنى تأمروا بالزنى • وهو عندكم فريضة التماس •
وأنا أريد قطع ذنب التيس ، وأن نجعله في ذقنه ، ليلوح استه
لمعة صرصر الشمال ، وحمارة قيظ هجير الجنوب •

وهذا جواب كلامك ، انتصافا منك ، كما يقول قرآنك • ومن انتصف
من بعد ظلمه فلا جناح عليه (٢) • فافهم •

ثم قلت في شعرك :

أراد النصارى ينصرون محالهم •••

فانصر أنت محالك • لأنك قلت بالسفه ، والظعن في ديننا •
وقلت الكذب على مسيحننا • كيف قلت ما لم تعلم ؟ وكيف تجرأت أن
تتكلم ؟ واعلم أنك ان أرسلت بعد هذا بالشتم فانى أبعث الى كل بلد
كتابا بنص شريعتكم ، وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل التى لا تقدر
على انكارها •

فافهم • لأنك قلت في المسيح : غث وأوطار ، وأنت سبيت الحاكم
عليك وعلى جميع الأمم يوم القيامة • لكن سوف تلقاه حاكما ليس يطلب
عليك بيعة • فان أرسلت بعد هذا بالشتم ، فانى أعرفك بشجرتك ما هى ؟
حتى تعلم من أنت ؟ واعلم أنى لم أريد في الأول شتم أحد • لكن
لما بعث الى أول كتاب بالسفه والسب • رددت له الجواب بأمة هاجر ،
ولم نقل فيها عشر ما قال الله فيها في التوراة • وعن ابنها فاسمع قول
الله عنها ، وعن ابنها :

(١) انجيل متى الاصحاح الخامس والاصحاح التاسع عشر •

(٢) يشير الى قوله تعالى : « ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم

من سبيل » (الشورى : ٤١) •

« رأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدت لابراهيم ، وهو يلعب • فقالت لابراهيم : ارمى هذه الأمة ، وابنها ، اذ ليس يرث هذه الأمة وابنها ، مع ابني اسحق • فصعب على ابراهيم ما قالت له عن ابنه • فقال الله لابراهيم : لا يصعب عليك بكلام سارة عن الصبى ، وعن أمتك • وجميع ما تقول لك سارة اسمع من قولها • فقال ابراهيم : هذا كلام الله الى قائلا : لا يرثك هذا •

ان الذى يخرج من صلبك هو يرثك •

ثم قال الله لابراهيم : باسحق يتسمى نسلك « (١) » •

فافهم ترشد • واعلم • كيف قطع الله ورث اسماعيل وأمه فى قوله : « لا يرثك هذا » ثم قال عن اسحق : « الذى يخرج من صلبك » وكيف قال الله لابراهيم : « باسحق يتسمى نسلك » ولم يقل : « باسماعيل يتسمى نسلك » •

فأخذ ابراهيم خبزاً ، وجرة ماء ، وجعل على أكتاف الأمة ، وجعل اسماعيل على عنقها بالليل ، وأخرجها بولدها عن العمران • فتناسلت منه الأمة ، الذى قال فيها قرآنكم : « أشد كفرا ونفاقا » (٢) •

فافهم • والسلام على من اتبع الهدى ، وآمن بشرية المسيح • حقيقة الايمان ، ورحمة الله وبركاته •... كمل كلامه •

الجواب عما ذكر : اعلم يا هذا المخدوع ، المصروف عن المعارف ، المنوع • الشاهد عليه جهله ، بأنه ليس بتابع ، ولا متبوع : انا نؤمن بالله وكتبه ، ولا نفرق بين أحد من رسله • فنؤمن بالتوراة والانجيل ، اللذين أنزلهما على رسوليّه ، الملك الجليل • ولكن قبل أن يعتريهما التغيير والتبديل • وقد نبهنا على أن الكتاب الذى بأيديكم المسمى : بالانجيل عندكم ، لا يقال عليه : منزل بالحقيقة ، كما تقدم من تلك الطريقة • ثم انا نسلم جدلاً صحة ما تدعونه من تلك النبوة ، ونبين صحة نبوة نبينا منها عن كتب •

(١) تكوين الأصحاح الحادى والعشرون • والقسيس ذكر النص الى اسحق ولم يذكر بقية النص عن اسماعيل وهو « وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك » (تك ٢١ : ١٣) •

(٢) الأشد كفرا ونفاقا هم الأعراب (التوبة ٩٧) •

فأما قولك « واعلم أنا لا نقبل من كتبكم شيئاً » فليس ذلك بأول عنادكم ، فكم لكم منها • وكم « شئسنة أعرفها في أخزم » •

لكنكم • لستم عند العقلاء أهلاً لقبول حق ، ولا لرد باطل • فليس ردكم بأولى من قبولكم • وهكذا فعل الرعاع الغثر ، الغناء الغبر • يقبلون بغير دليل ، ويردون بغير حجة ، ولا سبيل •

والا فما الدليل الذى أوجب عندكم • ألا تقبلوا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع وضوح معجزاته ، وعدالة بيناته • على ما نبينه ان شاء الله تعالى ؟

فظهر من هذا أن ردكم لديننا ليس بدليل • وانما هو لأجل اتباع قول كل جهول دخيل • يحكم على عقله هواه ، ويطيح معه حيثما رماه •

ولأجل ذلك صار دينكم ضحكة العقلاء ، مشتملا على كل مقالة شنعاء • ومن كان هذا منهج سبيله ، فرده لغير معنى ، بمثابة قبوله •

ولقد كان ينبغي لك ، لو كنت على سنن النظار ، أهل البحث عن الحق والاعتبار أن تحكى ديننا ، وتستدل بزعمك على فساده ، كما قد فعلنا نحن بدينكم • اذ بينا تناقضه ، وعدم سداذه • على أنه قد تبين الصبح لذى عينين • ووضحت الشمس لسليم الحاسنين •

ما ضر شمس الضحى في الجو مشرقة
ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ثم قلت متواقفاً في قولك ، مستهزئاً برسول ربك « فان قلت من كتابك شيئاً قلت لك كما قال رسولك : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » أما قولك « رسولك » فنعم هو رسول إلينا واليك ، فأما وكفرت ، وصدقنا وكذبت « وسيطلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » (١) • فنحن نقول : « رضينا بالله ربا • وبمحمد رسول الله : رسولا • وبالإسلام ديناً » وأما أنت • فان مت مصراً على تكذيبك فليدخلنك الله النار ، وليدخلنك في دار البوار ، فلا تنتفع بشفاعة ملك مقرب ، ولا بنبي مختار • وأما طلبك البينة على صدقه ، فكفاك شهادة

الأنبياء العارفين بحقه ، المخبر عنه بلزوم تصديقه وصدقه ، وسنيين ذلك بأبلغ بيان • وأوضحه بأوضح برهان •

وعلى سبيل الاستعجال يكفيك بينة عدله ما وقع في صحف النبي دانيال حيث وصف الكذابين ، وقال : « لا تمتد دعوتهم ، ولا يتم قربانهم • وأقسم الرب بساعده أن لا يظهر الباطل • ولا تقوم لدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة » (١) •

وهذا دين محمد رسولنا صلى الله عليه وسلم قائم منذ ستمائة سنة ونيف • فكيف ترى هذه البينة المصححة ؟ أمعدلة عندك أم مجرحة ؟

وكذلك في صحف النبي حقيق ، وهو الشاهد المعظم الموثوق • قال : « جاء الله من التيمين ، وتقدس من جبال فاران ، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد (٢) ، وتقديسه ، وملك الأرض بهيئته » • وقال أيضا : « تضىء له الأرض ، وستنزع في قسيك اغراقا ، وترتوى السهام بأمرك • يا محمد » (٣) •

فهذا النبي الصادق المصدق قد أفصح بنعته ، وصرح باسم بلده ، وشهد بصدقه ومن كان الأنبياء شهوده ، فقد استحق مكذبه عذاب النار وخلوده • فلعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من تبين له الحق ، ثم صار عنه من المعرضين ، وسنعد في النبوات فصلا مفردا ، ونأتى فيه بالعجائب حتى يتبين فيه توافق كل طاعن عائب •

وأما قولك « وأنت تدعى أن كتابكم من الله » فان كنت تنكر ذلك فادع عصابتك البلغاء من نصارى نجران ، المتكلمين بلغة القرآن ، ليعارض بسورة من مثله • فان فعلوا ذلك دحضت حجته ، وانقطع عظيم قوله • لكنهم لما سمعوا منه القرآن تحققوا على القطع : أنه ليس يقدر عليه أحد من الانس والجان • وعلموا أنه كلام الملك الديان • فآمنوا وصدقوا لما عرفوا وحققوا ، فحصلوا على فضل الملتين ، وآتاهم الله أجرهم مرتين •

(١) ليس في سفر دانيال بل في الزبور بما معناه •

(٢) « وامتلأت الأرض من تسييحه » في ترجمة ١٩٧٠

(٣) بدل يا محمد : مسيحك في ترجمة ١٩٧٠ (انظر تقديمنا لهذا الكتاب)

وأما قولك « فاثبتوه من التوراة بالعبرانى ، ومن الانجيل بالعجمى » فلتعلم أنا لولا كره منا أن نتكلم برضانة العجم لكان ذلك علينا أيسر شئ يلتزم • ولكننا ان شاء الله تعالى نذكر كلام الأنبياء من كتبكم كما قد ترجمها المترجمون من أهل ملتكم مثل « يرونم » و « حفص ابن البر » وغيرهما من المترجمين ، الذين تثقون بقولهم ، وتقولون على نقلهم ، ولست أفعل مثل ما أنت فعلت ، ولا أصنع شيئاً مما صنعت حيث نقلت كلام الأنبياء بالعبرانى والعجمى ، ثم انك شرعت فى ترجمته ، وفى تفسيره من غير أن تنسب التفسير الى أحد المترجمين العالمين بالمعانى ، وباللغات ، ومواقع الألفاظ • وأما أنت فلست بموثوق بنقلك ، ولا مصدق فى قولك لجهلك بالشروط التى يحتاج اليها المترجمون • وإذا ادعيت أنك لست جاهلاً • فما حد الترجمة ؟ وحقيقتها ؟ وما شروطها ؟ وكما أقسامها ؟ وما المحل الذى تجوز فيه من الذى لا تجوز ؟ وبهذا السؤال يظهر جهلك وتبادلك وحصرك وتوددك •

ثم قلت « فائت بما ادعيت ، والا يمينى لأنى أنكر » ها أنا قد أقمت البيّنات العدول الذين ليس لقائل فى عدالتهم ما يقول • ولقد أعلم مع ذلك أنك تبادر باليمين ، وتباهت المسلمين • اذ قد تقول بالكذب والزور ، على رب العالمين ، ثم ذكرت على جهة الاستهزاء والتفقيص والازدراء والتخريص ، حديث امرأة رفاعة لتقبّح بذلك ديننا ، وتنسب اليه شناعة ، وأنت مع ذلك لم تعرف معناه ، ولا فهمت فحواه •

ثم قلت بعد أن أخللت بمساقه ، ولم تقمه على ساقه : « فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم • لأن المسيح يقول : « لا ينبغي لرجل طلاق زوجته الا أن تزنى » فلتعلم أن هذا كلام جاهل بأحكام الأنبياء ، ظان أن أحكام الشرع صفات لأعيان الأشياء • ثم تستمد من انكار الناسخ والنسوخ ، وكلام كل جاهل مردود مفسوخ •

فنقول لهذا المنكر الجاهل ، الذى ليس بمتشرع ولا عاقل : منعك طلاق الرجل زوجته ورده اياها بعد طلاقها • لا يخلو اما أن يكون منعاً من جهة العقل أو من جهة الشرع • فاذا ادعيت أنه من جهة العقل كانت دعواك باطلة بالضرورة • فان صور هذه المسائل ووجودها معلوم بالضرورة ، فاذا بطل أن يكون امتناعها من جهة العقل فيجوز أن توجد واذا جاز أن توجد فكيف ينبغي لمن ينتسب الى العقل أن ينكر

خبوة من قامت الأدلة القاطعة على صدقه من حيث أنه حكم بشيء
يصحح في العقل أن يوجد •

ثم من العجب العجاب الذي يستعظمه أولو الألباب : أنكم التزمتم
في شرعكم بما يشهد العقل الأول بفساده مثل قولكم في الأقانيم :
« انها آلهة ثلاثة • اله واحد » وقلتم في الاتحاد والحلول ما يعلم
بفساده بضرورة العقول ، ثم لم ينفركم ذلك عن اتباع شرعكم • بل
يقول من يميز استحالة ذلك القول منكم : هذا مما ليس يدرك بالعقول ،
بل يتبع فيه الكتاب المنقول • ثم بعد التزام هذه المحالات والمدافعة
عنها بالترهات والخرافات تتكرون علينا فعل شيء تجوزه العقول ، ولم
تقصر اليه الا بعد ثبوت الشرع المنقول الذي دل على صحته البرهان
«المعقول • فأنتم من الجهل والزلل ، كما جرى من كلام النبوة مجرى
المثل : « يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في
عينه » (١) وانما كان ذلك كله للمعنى الذي نبه الشاعر عليه هنالك :

عيون الرضا ، عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدى المساويا

فلو وفقتم لطريق الانصاف ، لتركتم طريق التعصب والاعتساف •
ولو كنتم تطلبون الحق بدليله ، لأوشك أن يرشدكم الى سبيله ، ولكن
من حرم التوفيق استدبر الطريق ، ونكل عن التحقيق •

وان ادعيت أن ذلك ممنوع من جهة الشرع • فنقول لك : اما أن
يكون ممنوعا من جهة الشرائع كلها ، أو من بعضها • فان قلت : انه
ممنوع من جهة الشرائع كلها • كان ذلك باطلا • اذ الشرائع في ذلك
مختلفة • فان المعلوم من شرع التوراة في ذلك خلاف شرعكم • وكفى
«دليلا على أن التوراة تخالفكم في ذلك أول الكلام الذي حكيت عن
المسيح أنه قال : « أما علمتم أنه قيل للقديس من طلق امرأته فليكتب
لها كتاب طلاق • وأنا أقول من طلق امرأته • فقد جعل لها سبيلا
الى الزنا » فهذا تصريح بين ما أنكرته علينا ، وتنقصت به شرعنا •
وكما جاز أن يخالف عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة ، ولا يدل
ذلك على كذبه ، ولا على فساد شرعه كذلك يجوز أن يخالف شرعنا

شرع عيسى وموسى فى بعض الأحكام ، ولا يدل ذلك على فسادہ •
كل واحد منهم انما يبلغ حكم الله ، وليس مخترعا حكما من قبله •
ثم قد تختلف الأحكام والأوضاع بحسب ما يريدہ الله تعالى ، وبحسب ما يعلمہ من اختلاف الأحوال ، والمصالح •

والأصل فى ذلك : أن الله تعالى لا حبر عليه فى أفعاله • ولا راد لشيء من أحكامه ، فيحل لعباده ما شاء ، ويحرم عليهم ما شاء •
« لا يسئل عما يفعل ، وهم يسئلون » (١) • وهذا بين بنفسه ، لا يجله
الا من كان عديم حسه (٢) •

ثم قلت « وأنتم تقولون لا يحل لزوجها مراجعتها الا أن تزنى بدل أن تنهوا عن الزنى تأمروا بالزنا » اسكت • فض الله فاك • فما أكذبك وما أجفاك • تتقول علينا بما لا نقول • وتتصرف فى شرائع الأنبياء تصرف متوآقح جهول ، كما فعل أشياعكم من قبل •

اسمع يا لكع ، على أنك لا تحسن أن تسمع • اعلم أن هذا الذى ظننته بجهلك زنا ليس بزنا • لأن الزنا حقيقته : ايلاج فرج فى فرج محرم شرعا ، مشتهى طبعا • وهذه الحقيقة معدومة فى الذى توهمت أنه زنا • فان قلت : ان كانت هذه الحقيقة معدومة عندكم ، فليست معدومة عندنا • فان هذا الايلاج محرم عندنا ، فهو زنا • قلنا لك : ان كان قد ثبت تحريم ذلك عندكم فقد ثبت تحليله عندنا • فان الله تعالى يحل لعبيده ما يشاء ويحرم عليهم ما يشاء •

وهذا كما أحل الله لموسى من الطلاق ما حرمة على عيسى (٣) • ثم كيف يمكن لعاقل أن ينكر مثل ذلك وقد ثبت أنه أحلت فى بعض الشرائع فروج ، وحرمت فى شرع آخر • فقد ثبت : أن البطن الأول من أولاد آدم أحلت لهم نكاح الأخوات ، ثم حرمت على من بعدهم من الشرائع • وقد جاء فى التوراة أن يعقوب نكح أختين : « راحيل » و « ليئة » وجمع بينهما ، وحرمهما على غيره • والجمع بينهما فى

(١) الأنبياء : ٢٣

(٢) لم يظن المؤلف الى أن كلام المسيح للارشاد وليس للالزام بجليل انه قال فى نهاية الحديث : « من استطاع أن يقبل فليقبل » (متى : ١٩) •
(٣) بحسب المكتوب والا فان دين عيسى هو دين موسى لأنه ما جاء للنسخ بل للإصلاح •

النكاح محرم عندكم وقد فعل الله ذلك في أحكام آخر على ما يعرف من أحوال الشرائع واختلافها في بعض الأحكام وانما يتحقق هذا المعنى على اليقين من يعلم أن حقيقة الحكم الشرعى هى : خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الاقتضاء أو التخيير • فعلى هذا لا معنى للحكم الا قول الشارع : افعلوا • أو : لا تفعلوا • أو : ان شئتم فافعلوا • وان شئتم فاتركوا • على ما يعرف في موضعه •

ثم هذا الذى عبته علينا — أيها الجهول — له معنى صحيح فى العقول ، جار على منهاج المصالح المعقول • وذلك أن الله تعالى انما شرع الطلاق ليتخلص الرجل من نكد المرأة وأسوها ، رفقا بنا ، ورحمة منه علينا • فقد تكون غلا قملا ، تضر بالرجل ضررا حقا ، لا يمكن أن يطلع عليه أحد ، فلا تجبر على ازالته ، لكونه لا يتحقق من جهتها ، فجعل للرجل أنه متى شاء أن يتخلص منها ، ومن ضررها فعل •

وأيضا • فلكون النساء فى الغالب ناقصات عقل • فلو علمت أن الرجل لم يجعل له سبيل الى مفارقتها ، لما كانت تحترمه ، وبادرت الى ضرره • فأراد الشارع أن يجعل للرجل سببا يحترم لأجله وهو الطلاق • فان المرأة اذا علمت أنها ان بالغت فى ضرر زوجها • طلقها امتنعت من ضرره فى الأكثر •

فان عورضنا وقيل لنا : فيلزم على ذلك : أن تطلق المرأة نفسها متى شئت ، فان الرجل قد يضر بها ضررا لا يطلع عليه أحد • فان راعيت وجود الضرر ، وتوقعه فى حق الزوج فلم لم تراعه فى حق الزوجة كذلك ؟ فنقول : انما لم تراعه فى حق المرأة ، لأننا لو جعلنا للمرأة أن تطلق نفسها متى شئت ، لما استقرت امرأة عند زوجها فى غالب الأمر • لأنهن ناقصات عقل ، فلا يؤمن عليهن غلبة شهواتهن على عقولهن (١) •

وان فتح هذا الباب طرأ منه من الضرر ما لا ينسد ، ولا يتدارك • ففسد هذا الباب فى حق النساء لهذه الحكمة ، وفتح فى حق الرجال ليزول عن أعناقهم غل الضرر والنقمة • والله أعلم •

(١) قد جعل الله للنساء الخلع • وبعض الفقهاء يرى أن المرأة تطلق الرجل اذا اشترطت العصمة بيدها وقت العقد عليها •

وأما ما عابه أيضا : من أن المطلقة ثلاثا لا تحل الا بعد زوج
فذاك أيضا له معنى معقول مناسب • وذلك أن الطلاق — وإن كان الله
قد أباحه لنا — فهو من قبيل المكروه من غير سبب ، من حيث التقاطع
والتدابير المنهى عنهما • ولأجل هذا قال نبينا عليه السلام : (أبغض
الحلال الى الله الطلاق) فأطلق عليه لفظ « البغض » مشعرا بالكراهة ،
وأطلق لفظ « الحلال » مشعرا بجوازه • فحصل لنا من مفهومه : أنه
يجوز على كراهة •

فإذا تقرر أنه مكروه من الوجه الذى ذكرناه ، فينبغى ألا يفعل •
ثم إن فعل — ولا بد منه — فلا يكثر منه • ثم إن كثر منه فلا يزداد
على المرتين • فإن تعداهما ، عوقب بأنه لا تحل له الا بعد زوج فكانت
الحكمة فى ذلك : أن الزوج اذا علم أنه اذا أكثر من هذا المكروه الذى
هو الطلاق عوقب بتفويت زوجته عليه ، وتملكها غيره ، امتنع من تكثير
المكروه الذى هو الطلاق ، ثم لا يظن الجاهل بنا : أننا نجبر الزوج
الثانى على طلاقها ، حتى يرجع اليها الأول ، حاشى الله • وإنما الزوج
الثانى يملك منها ما يملكه الأول ، فإن شاء طلقها ، وإن شاء أمسكها •

ثم إن طلقها اعتدت منه ، وجاز للأول أن يتزوجها تزويجا مستأنفا
إن شاء ، ولا يجوز عندنا أن يتزوجها الثانى ليحللها للزوج الأول •
فإن فعل كان نكاحه فاسدا ، وهو الذى نسميه المحلل ، وهو الذى قال
فيه النبى صلى الله عليه وسلم : (لعن الله المحلل ، والمحلل له) •

فإن سماه مسم « تيسا » فعلى جهة الذم لفعله •

فإذا تقرر هذا المعنى ، الذى لا يمنعه العقل ، ولا تنافيه مكارم
الأخلاق ، بل هو على منهاجها وعلى سنتها • فكيف ينبغى لعاقل منصف
غير متوافتح ، ولا متعسف أن يتقول علينا : انا نقول : لا يحل لزوجها
مراجعتها الا أن تزنى ، ولو كنت يا هذا من أهل العقل الذين تبرأوا
عن السفه والجهل ، لما كنت تشبه نكاحا على وفق شريعة صحيحة •
بحسب دلالة أدلتها القاطعة مع أن هذا النكاح ، وقع بولى ومهر
وشهود واعلان : بنكاح الزنا الذى ليس فيه ولى ، ولا مهر ، ولا
شهود ، ولا اعلان • وإنما يقع الزنا مخالفا للشرائع ، عريا عن الشهود
والولى ، مستورا • فهذا تشبيه • يدل على عناد وتمويه •

ثم قلت « بدل أن تنهوا عن الزنا تأمروا به ، وهو عندكم فريضة التيس » هذا التشنيع باطل ، وقول غبي جاهل ، وتهويل ليس وراءه حاصل . وقول الزور والأباطل ، قصد به قائله ، استئلال العوام ، وليكره لهم دين الاسلام « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون » (١) ولقد صدق الله عبده ، وأنجز وعده ، « ومن أوفى بمعهده من الله » (٢) .

اعلم يا هذا المغترى الكذاب ، والمشنع المرتاب : أن العقلاء لا يرضون بما فعلت ، ولا يأتون بمثل ما به أتيت . وذلك أنك جهلت شرعنا ، وكذبت عليه ، وعميت عليك مقاصده فنسبت الزور والفحش اليه . وانما كان ينبغي لك — لو كتت على سنن العقلاء ، أهل السياسة الفضلاء — أن تبحث عن أدلة صحة هذه الشريعة ، وعن صدق الذى جاء به . فان كانت أدلتها صحيحة وجب عليك أن تقبلها جملة ولا ترد منها شئ ، وتكون واحدا ، ممن التزمها ، وان لم تظهر لك صحة أدلتها فنناظر أهلها فى تلك الأدلة ، ولا تتعدها الى غيرها وباحثهم فيها مشافهة . فان المخبر ليس كالمعامين ، فلو لم يقدرُوا على أن يحتجوا لدينهم ولا أن يقيموا دليلا على صحة شرعهم وجب عليك رد تلك الشريعة من أولها . وهذا دأب الموفقين ، لا الكذابين المشنعين .

ثم قلت « وأنا أريد قطع ذنب التيس ، وأن نجعله فى ذقنه ليلوح استه ، لمعة صرصر الشمال ، وحمارة قيظ هجير الجنوب » .

يا هذا التيس . وأى ذنب سائر للتيس ؟ أتظن أنك تتفصح وتستعير ، وأنت لا فى العير ، ولا فى النفير ؟ وكيف تظن السلامة من الحلق والبؤس ، بمن يجهل كيفية أذنان التيوس ؟ أم كيف يبالى بتفصحه وجعاجعه ؟ وهل هو فى ذلك الا بمنزلة من جهل عدد أصابعه ؟ ولولا أن شرعنا منع من السباب ، ولا يليق ذلك بأولى المروءات والآداب ، لأقذعتك سبا . ولأوجعتك عتبا . ومع هذا :

* نجا بك لومك منجى الذباب

حمته مقاديره أن ينالا

* لا أسبئكم • فلسستم بسبى

ان سبى من الرجال : الكريم

ثم قلت « وهذا جواب كلامك ، انتصافا منك ، كما يقول قرآنك •
« ومن انتصف من بعد ظلمه ، فلا جناح عليه » •

يا هذا شأنك يحار فيه التحرير ، وجهلك يتعجب منك الصغير ،
والكبير • كيف لا • وكلامك هذا يشهد عليك بجهلك بانجيلك ، وبمخالفتك
حكمه ، وشرع رسولك • كيف يحل لك في شرعك ، أن تنتصف ممن ظلمك ،
وتشتتم من شتمك • وانجيلك يقول لك : « لا تكافئوا أحدا بسيئة ، ولكن
من لطم خدك اليمنى ، فانصب له اليسرى • ومن أراد مغالبتك ،
وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداك » ؟ (١) فهذا انجيلك يشهد عليك
بأنك لست على شرعه ، بل رددت حكمه • وعملت على رفضه •

واذا كان شأنك هذا مع كتابك • فكيف يرتجى فلاحك ، من ليس
من أحبابك ؟ ثم العجب العجيب • تركت كتابك ، والعمل به ، ثم أخذت
تعمل بكتاب لا تصدق بأصله • فهذا يعلم من حالك أنك لست تريد
أن تتبع الحق ، ولا أن تبحث عنه • ولكنك اتبعت هواك فأضلك • وأطعت
الشیطان فأزلك • ثم من أدل دليل على جهلك ومغالطتك : أنك أوهمت
أنك تعرف القرآن ، وأنك تحتج علينا به • ثم ذكرت ما ليس بقرآن
حيث قلت : « ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه » وهذا ليس
بقرآن • وان كان يشهد بمعناه القرآن •

وليس القرآن عندنا بمجرد معناه فقط • بل بلفظه المخصوص ،
ومعناه وأسلوبه الذى أعجز الأولين والآخرين ، فعلى هذا المعنى ان
«ترجم بلسان آخر ، أو عبر عن معناه بغير لفظه وأسلوبه خرج عن
كونه قرآنا • فافهم ، وما أدراك تحسن •

ثم قلت « فانصر أنت محالك ، لأنك قلت بالسفسه والطعن فى
ديننا ، وقلت الكذب على مسيحتنا » •

انظر هذا الكلام الفصيح • الجهالة على قائله تلوح • فلقد عدم
هذا الكلام : الانتظام والارتباط فوجب له لأجل ذلك الالغاء والاسقاط •

وأما ما ذكرت من تسفيه دينك ، والطعن عليه • فذلك واجب على العقلاء •
اذ قد تبين بدليل العقل الذى لا يشك فيه : أنكم قد تمذهبتم بكل
مقالة شنعاء • وقد بينا ذلك فيما تقدم •

ثم ان الطعن على دينكم ليس طعنا على دين المسيح • فانكم
لم تتدينوا بدينه ، ولا عرفتم حقيقة يقينه • بل تخرستم عليه بالأباطيل •
وقبلتم عليه قول كل متواضع جاهل • فما لكم ولالانتساب للمسيح •
وهو مبرأ عن كل قبيح ، بل هو ساخط عليكم ، وبراء الى الله منكم •
وقد بينا ذلك فيما تقدم ، وسيأتى ان شاء الله تعالى بمزيد يبطل قولكم
فيه ويهدم •

وأما ما نسبت الينا من الكذب على المسيح ، والسب له • فذلك
والله شيء لا نفعله ، ولا يرضى بذلك متدين ولا عاقل • وكيف يجوز
هذا علينا ونحن نكفر من سبه ، أو سب أمه عليهما الصلاة والسلام •
وهذا عندنا أصل من أصول عقائدنا ؟ وذلك أن الله تعالى أخذ علينا
من الميثاق : أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل ، ولا نفرق بين أحد منهم •
وهو عندنا من أكرم الرسل • فكيف نسبه أو نكذب عليه ؟ وفى فعل ذلك
خروج عن دين الاسلام ، وتمسك بفعل الجاهل الطغام • بل أنتم
الذين كذبتم عليه ، ونسبتم ما تحيله العقول اليه • وهو يتبرأ من
ذلك • ويتصل مما افتريتم عليه هنالك • ثم أضفتم مع ذلك من العيب
والتقصيص على الله تعالى ما يعلم على الضرورة والقطع أنه محال •
فنحن وإياك على المثل السائر : « رمتمى بدائها ، وانسلت » •

ثم قلت « واعلم أنك ان أرسلت بعد هذا بالشتم • فانى أبعث
الى كل بلد كتابا بنص شريعتكم وبكل ما نعرف من الأقاويل التى
لا تقدرُونَ على انكارها » •

لولا أن السب منهى عنه على الاطلاق ، وليس من مكارم الأخلاق ،
لاكثر من سبك ، ولأوغلت فى لومك وعتبك ، ولو كان ذلك لما كذبت •
ولا افتريت • وانما كنت أفعل ذلك لأظهر بذلك باطل تمويهك ، ومغالطة
تهويلك • ومن أين لك أن تعرف ديننا ؟ وأى طريق يوصلك اليه ؟
وبأى لسان تتمكن منه ؟ وبأى فهم تتوصل الى معناه ؟

ها أنت لا تعرف دينك ، الذى نشأت عليه • فكيف بك أن تعرف
ما لم تفهم منه حرفا ، ولا سمعته على وجهه • اللهم الا أن تقولت •

يما ليس لك به علم ، كما قد فعلت في فريضة « التياس » فلا يعذب
أحمق مخرق ما يقول •

وأما ان ذكر شريعتنا من يعرفها ، فالعقول السليمة تقبلها بنفس
ما تسمعها ، لشدة ارتباطها وحسن نظامها ، وليست كشرية من يعتقد
الها آخر مع الله ، ويعتقد في الله ما يستحيل عليه وينسب الى الأنبياء
ما يتبرأون منه ، ويحكمون بأهواء جهالهم في دين الله • وسنعتقد اثر
هذا ان شاء الله بابا نبين فيه : جملا من أحكامهم ، وفيها يتبين أنكم
لا تستندون فيها الى مستند • وأنكم اخترعتم فيها من الجهالات ما لم
يقبل به أحد •

ثم قلت « لأنك قلت في المسيح غث وأوطار ، وأنتك سبيت الحاكم
عليك ، وعلى جميع الأمم يوم القيامة ، لكن سوف تلقاه حاكما ، ليس
يطلب عليك بيعة » •

وكم من عائب قولنا صحيحا

وأفنته : من الفهم السقيم

لتعلم يا هذا • أنى وقفت على الكتاب ، الذي جابوك بعض
أصحابنا ، وتأملت هذا الموضع الذي لم تفهمه ، فعلمت أن الخطأ من
قبل فهمك ، لا من قبل الكاتب • وذلك أن لفظ ما كتب به اليك في هذا
الموضع : « شجرتنا نبوية ، فروعها قرشية ، ثمرتها هاشمية ، شجرتك
غشاء ، وأوضار « اجنتت من فوق الأرض ، ما لها من قرار » (١)
••••• هذا نصه •

وكان ينبغي لك أن تفهمه لو كنت منصفا • فان هذا الكلام انما
جرى مجرى المثل • وانما أراد بشجرتنا نبوية : أن أصل اعتقادنا :
أن محمدا نبى ورسول ، ليس باله ، وأصل اعتقادكم أنتم : أن عيسى
اله ، وليس بنبي • وهذا قول باطل ، واعتقاد فاسد • ولذلك عبر عن
أصل هذا الاعتقاد بالشجرة • ثم قال : انها غشاء وأوضار • فالمسبوب
الذموم ، انما هو اعتقادكم في عيسى ، لا عيسى • حاشى وكلا • فهكذا
ينبغي أن تفهم الكلام ، ولا تبادر لأجل الجهل باللام • فالملوم على
كل حال هو الجاهل • الذى ليس يفهم ، ولا عاقل • وحين وقفت على

كلامك هذا • هممت أن لا أكاتبك ، لكونك قليل الانصاف كثير الجهل والانحراف •

ولقد أعرف أنك اذا وقفت على كتابي هذا : لا تفهمه • ومع ذلك فتبادر الى رده ، مكابرة ومجاهرة • وتتناوله بالرد والقبیح ، وبكل قول ليس بصحيح • وقد حكمت بيني وبينك العقلاء المتدينين للفضلاء ، الذين يعترفون بالحق حيث كان ، ولا يعرجون في قبوله على انسان •

وأما قولك « الحاكم عليك ، وعلى جميع الأمم » فقول ليس بصحيح ، ولا أمم • وانما الحاكم على كل الأمم ، وكل المخلوقات الذي أوجدها بعد أن لم تكن ، ثم يعيدها ، كأن لم تكن ثم يعيدها • كأنها ما برحت « قل فمن يملك من الله شيئاً • ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ، ومن في الأرض جميعا ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما » (١) • الآية •

وأما قولك : « ستلقاه حاكما ، ليس يطلب عليك بيعة » فقد نسبتموه الى الجور • فانه اذا لم تقم بيعة على المحكوم عليه عندنا وعندكم ، ونفذ الحاكم الحكم نسب الى الجور • فاذا قامت البيعة زال عنه توهم الجور • وظهر معيار العدل • وعند سماع هذا يتحقق معنى المثل المعروف « عدو عاقل ، خير من صديق جاهل » •

فان العدو العاقل يذعه عنك عقله ، والصديق الجاهل يريد نفعا فيضرك • وأنت بجهلك أردت أن تعظم المسيح ، فنقصته ، وأن تمدحه بخدمته ، فعل السفية الأحمق الجاهل •

وأنا أقول : ستلقونه بين يدي الله تعالى • فان اعترفتكم بقولكم فيه ، جوزيتم على ذلك بجزاء سترونه عيانا • وان أنكرتم قولكم فيه • يقول الله لجوارحكم : انطقى • فتشهد عليكم بأقوالكم وأفعالكم • فهكذا يظهر العدل ، ويعلم كل مكلف أنه محاسب بما عمل من خير أو شر ومجزى عليه •

ومما يدل على أن الله تعالى انما يأخذ بالبينات يوم القيامة : أنه قد ثبت على لسان من دلت المعجزة على صدقه : أن الله وكل بنا

كراما كاتبين ، يكتبون ما نفعل ، فهم الشهود العدول الذين ليس لطاعن عليهم ما يقول • وستقدم • فتعلم •

ثم العجب من جرأتك أنك سببت خليل ربك حيث قلت « رشح الجلد المدبوغ في قصرية هاجر » (١) هذا لابراهيم ذم صريح ، صدر من جاهل وقبيح • هنا يرد عليك قولك : كيف قلت ما لا تعلم ؟ وكيف تجرمت في خليل الرحمن أن تتكلم ؟ وستلقاه • يناضل عنه الله •

ثم من ركيك الاستعارة : أن الذى ذممت به اسماعيل • يلزم منه ذم اسحق ، والذى ذممت به هاجر ، يلزم منه ذم سارة • فان الجلد الذى رشح في قصرية هاجر ، هو الذى رشح في قصرية سارة • وأصل النطفة التى كان منها اسماعيل ، هو بعينه الذى كانت منه نطفة اسحق • وهذا كله ذم لابراهيم ولعن • فقد حاق بك ، وبمن قال بقولك « لعنة الله » التى قال فيها لابراهيم في التوراة « وألعن لاعنيك » (٢) ثم أعجب من ذلك كله اعتذارك عن قبيح ما أتيت ، حيث قلت : « لما بعث الى أولا كتاب بالسفه والسب رددت له الجواب بأمة هاجر » •

فكأنك قلت : لما سببتنى أنت ، أسبب أنا هاجر ، التى اذا سبت ، تعدى سبها الى سيدها ابراهيم • ثم انك صرحت بسبب ابراهيم ، فلزمك على ذلك : سب اسحق ، وأمه سارة فأنت في هذه الفعلة بمنزلة من سبه رجل في وجهه ، فأخذ المسبوب ينكل الساب بأن يسب أباً نفسه ، أعنى نفس المسبوب • وهذا ما لا يرضى به عاقل ، ولا متدين • جاهل •

ثم قلت بعد ذلك عهدا لغدرك القبيح ما قلت هنالك « ولم تقل فيها عشر ما قال الله في التوراة ، وعن ابنها » وهذا القول منك يوهم أن الله تعالى ذمها وابنها في التوراة ، وهذا على الله ، وعلى كتابه : كذب صراح وكفر براح ، ثم ذكرت بعض قصه هاجر مع ابراهيم ، ولم تسقها بكمالها لئلا تفتضح وتظهر كذبك وخزيك •

(١) قوله هذا : لم يذكر في صدر الفصل •

(٢) التكوين ١٢ : ٣

وها أنا أذكر قصة هاجر مع سارة كما حكاهما كتاب التوراة حتى يتبين للواقف على هذا الكتاب : أن الله تعالى أثنى على هاجر وابنها ومدها وما ذمها ، بل أخبر بنبوتها أو صديقتها ونبوة ابنها اسماعيل بحول الله •

قال في التوراة (١) : « ان سارة امرأة ابراهيم لم تكن تلد له • وكانت له أمة مصرية يقال اسمها هاجر فقالت سارة لابراهيم : ان الرب قد حرمنى الولد ، فادخل على أمتى ، وابن بها ، لعلى أرزق بولد منها ، فسمع ابراهيم قول سارة وأطاعها • فانطلقت سارة امرأة ابراهيم يهاجر أمتها المصرية وذلك بعدما سكن ابراهيم أرض كنعان عشر سنين ، فأدخلتها على ابراهيم زوجها فدخل ابراهيم على هاجر فحبلت ، فلما برأت أنها قد حبلت ، استسفت وزرت بسيدها ، وهانت في عينها فقالت سارة : يا ابراهيم : أنت صاحب ظلامتى • أنا وضعت أمتى في حضنك ، فلما حملت هنت عليها ، يحكم الرب بينى وبينك • فقال ابراهيم لسارة امرأته : هذه أمتك فى يدك فاصنعى فيها ما أحببت ، وحسن فى عينيك ، وسرك ، ووافقك •

فأهانته سارة سيدتها ، فهربت منها ، فلقىها ملاك الرب على عين ماء ، فى البرية ، فى طريق جرار ، فقال لها يا هاجر أمة سارة : من أين أقبلت ؟ وأين تريدان ؟ فقالت : أنا هاربة من سارة سيدتى • فقال لها ملاك الرب : انطلقى الى سيدتك ، وتعبدى لها • ثم قال لها ملاك الرب عن قول الرب : أنا مكثر زرعك ومنميه حتى لا يحصوا من كثرتهم • ثم قال لك الرب : انك حبلى ، وستلدين ابنا ، وتدعين اسمه اسماعيل ، لأن الرب قد عرف ذلك وخضوعك ويكون ابنك هذا وحشيا من الناس • يده على كل • ويد كل به • وسيحل على جميع حدود اخوته • فدعت اسم الرب الذى كلمها • فقالت : أنت الله ذو الوحي والرؤيا » أ • هـ

هذا ذكر الله لهاجر وابنها فى السفر الأول فى التوراة فى الاصحاح السادس عشر (٢) منها وذكرها أيضا فى الاصحاح الحادى والعشرين (٣) •

(١) أول الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين •

(٢) المخطوطة : التاسع •

(٣) فى المخطوطة : الثالث عشر •

وقالت التوراة : « أبصرت سارة ابن هاجر المصرية المولود لابراهيم يستهزئ . فقالت لابراهيم : أخرج هذه الأمة وابنها . لأن هذا ابن الأمة لا يرث مع ابني اسحق ، فشق هذا الأمر على ابراهيم لمكان ابنه . فقال الله لابراهيم : لا تشقن لحال الصبي وأمتك . أطع سارة في جميع ما تقول لك . لأن نسلك انما يذكر باسمحق . وابن الأمة أجعله أباً لشعب كثير . لأنه ذريتك . فغدا ابراهيم باكرا . فأخذ خبزاً وادوية فأعطاهها هاجر وحملها الصبي والطعام . وأرسلها ، فانطلقت وتاهت في بركة بير شبع ، ونفذ الماء من الأدوات ، فألقت الصبي تحت شجرة من شجر الشيوخ ، وانطلقت فجلست قبالة ، تباعدت عنه كرمية سهم . لأنها قالت : لا أعين موت الصبي ، فجلست ازاه ، ورفعت صوتها وبكت . فسمع الرب صوت الصبي . فدعا ملاك الرب من السماء هاجر ، وقال لها : مالك يا هاجر . لا تخافي . لأن الرب قد سمع صوت الصبي حيث هو . قومي ، فاحملي الصبي وشدي به يديك . لأنني أجعله رئيساً لشعب عظيم . فأجلى الله عن بصرها ، فرأت بير ماء . فانطلقت فمالت الادوة ، وأسقت الغلام . فكان الله مع الغلام ، فشب الغلام ، وسكن بركة فاران » أ . هـ

فأخبرنا يا أيها الكاذب على كتاب الله ، المفترى على رسل الله : من أين استجزت سب الأنبياء والكذب على الله ، ذى الآلاء ؟

أفى انجيلك قرأته ؟ أم عن الحواريين بلغته ؟ حاشا . وكلا . بل بتواضحك اختلقته . ثم من أعظم مباهتتك ، وأفحش جرأتك ، ومغالطتك أنك أوهمت بقولك ، ولم تقل فيها ، تعنى فى هاجر عشر . ما قال الله فيها فى التوراة ، وفى ابنها . تشعر بأن الله ذمها وابنها فى التوراة ، فى عدة مواضع .

وهذه التوراة قد تلوتها عليك ، وأنهيتها اليك . فاذا بالتوراة تخبر بأن هاجر نبية^(١) ، أو صديقة مباركة ، أوحى الله اليها ، وكلمها وبشرها بنبوة ولدها اسماعيل . بل قد مدح الله اسماعيل وأخبر عنه بما لم يخبر به عن اسحق حيث قال فيه : « يده على كل . ويد كل به » وسيحل على جميع حدود اخوته .

(١) لانبوة فى النساء . والاصح : أنها صديقة .

وهذا الكلام يبشر ، بل يفصح ويخبر بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فان اسماعيل لم يقل الله تعالى فيه « يده على كل يد ، ويود كل به ، وسيحل على جميع حدود اخوته » الا لأجل حفيده محمد صلى الله عليه وسلم . فان الله تعالى قد بعثه بدعوة جميع الخلق الى الله : بنى اسرائيل ، ومن دونهم ، ومن فوقهم . فكل من بلغته دعوته . وجب عليه الدخول في دينه .

ثم ان الله تعالى قد أظهره على الدين كله ، ولو كره الكافرون . وهذا كله وفاء بوعده الله تعالى ، لنبيه ابراهيم حيث قال في التوراة : « وقد استجبت لك في اسماعيل ، وباركته . وكثرت ، وأنميتة جدا جدا ، يولد له اثني عشر عظيما ، وأجعله رئيسا عظيما ، بشعب عظيم » . فانظر . أيها العاقل . كيف قال الله في اسماعيل : « يده على كل يد ، ويود كل به . وسيحل على جميع حدود اخوته » ولم يقل مثل هذا في اسحق . وانما قال فيه : « يكون رئيسا على شعوب كثيرة ، وملك الشعوب من نسله » وبين الكلامين فرق ظاهر عند العاقل ، الفهم النصف ، وكذلك قال في اسماعيل : « باركته ، وكثرت ، وأنميتة ، جدا جدا ، ولم يقل مثل هذا القول في اسحق . وان كان قد قال فيه : « أباركه ، وأثبت عهدي له » وهذا الذي وعد الله به اسحق ، وعد به اسماعيل ، وزاد زيادة عظيمة ، يعرفها من مساق كلام التوراة : من كان عارفا بمجاري كلام الله تعالى فيها . وكان مع ذلك عاقلا منصفا .

وسننبه على سر ، تحت قوله « جدا جدا » في القسم الثاني من هذا الباب .

فأما هاجر ، فقد جاء في التوراة في حقها ، ما لم يجيء في حق سارة . وذلك أن ملاك الرب كلمها عن الله ، وأبلغها أمره : مرتين . أو أكثر ، فاذن هي نبيه ، أو صديقة . وفي أى موضع من التوراة جاء أن سارة نبيه ، وأن الله أرسل اليها ملكا ليبلغها أمره ونهيه ، كما فعل بهاجر ؟

ولا شك أن من آتاه الله النبوة هو أفضل ممن لم يؤته اياها . ولا يظن الجاهل : أن هذا الكلام غض من منصب سارة رضى الله عنها ، بل هي صديقة مباركة . وكل له مقام معلوم . والحق أحق أن يتبع .

ثم الذى يفضى منه العجب : أنكم تعتقدون النبوة لمريم عليها السلام ، وليس لنبوتها فى التوراة ، ولا فى الانجيل ذكر ، يدل على نبوتها ، ولا فى كتب الأنبياء المتقدمين على زمان المسيح • ثم تتكرون نبوة هاجر وتذمونها ، مع أنه قد جاءت نبوتها ومدحها فى التوراة صريحا • وهذا كله مما يدل على جهلكم ، وقلة توفيقكم ، وأنكم تتحكمون فى الشرائع الالهية بأوهامكم •

وأما قولك : « واعلم كيف قطع الله ورث اسماعيل وأمه فى قوله : « لا يرثك هذا » اسكت يا جهول • فلست تعرف ما تقول • فما كان أجمل بك أن لو سترت عارك ، ولم تبد عوارك • كيف تتحكم بما لا تعرف ، ولا تفهم ؟ ها أنت قد حرقت لفظ التوراة وغيرته ، وليس كما ذكرته • « كذبتك من أم الحويرث قبلها » •

وانما لفظ التوراة : أن سارة قالت لابراهيم « أخرج هذه الأمة وابنها ، لأن هذا ابن الأمة ، لا يرث مع ابنى اسحق ، فشق هذا الأمر على ابراهيم لمكان ابنه » فأين هذا من النص الذى ذكرت ؟ فيظهر لى أنك له اختلقت •

وهذا الذى ذكره الله فى التوراة بزعمكم انما هو حكاية عن قول سارة ، وليس حكاية عن الله • ولو سلمنا أنه حكاية عن الله ، لما كان فيه دليل على ما زعمت ، وهو : أن الله تعالى لم يجعل النبوة فى نسل اسماعيل ، وأن الله قطعها عنه • بل مفهومه وظاهره : أن الذى منعه الله لاسماعيل انما هو ميراث فى ابراهيم ، وهو حظ فى ماله ، وأعطاء اسحق • وهذا السر نجيب ، يعز من يتنبه لأمثاله ، ولو كنت له محلا ، وأهلا ، لذكرناه لك ، فلسنا ممن يعلق الدر فى أعناق الخنازير (١) • وكذلك فى كون اسماعيل مخلوقا من نطفة ابراهيم فى رحم هاجر مع كونها أمة • وقد كان الله تعالى قادرا على أن يخلقه فى رحم حرة •

وكذلك لأى معنى أخرجت هاجر على تلك الحال حتى استقرت هاجر مع اسماعيل بمكة ؟ وهذه كلها أسرار معلومة عند من نور الله بصيرته ، وحسن سريره ، وأصلح عقيدته ونيته • فان كنت تريد

(١) يقول عيسى عليه السلام : « لا تطرحوا دركم قدام الخنازير ، ثلثا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم » (متى ٧ : ٦) •

«كأن تنظف بأمثال هذه الأسرار ، فعجل الى الله الفرار ، ولا تلهيك الدعة والقرار ، والا فأنت أسوأ حالا من اثور والحصار . ومع ذلك فأجل الله آت . وكل ما هو آت قريب . » **وسيعظم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» (١)** .

وأما قولك حاكيا عن الله : أنه قال لابراهيم « باسحق يتسمى نسلك » ولم يقل باسماعيل يتسمى ، فلم يقل في التوراة « يتسمى » وانما قال « يذكر » (٢) ثم قطعت الكلام عنا ، وسكت عما بعده . ولو ذكرته لتبين أنك مبطل في كلامك . وذلك أنه ذكر بعد هذا الكلام « وابن الأمة فانى أجعله أباً لشعب كثير ، لأنه ذريتك » وقد تقدم ما قال الله فيه ، وأنه مفضل على اسحق . وان كانت أمه : أمة . وانما قال الله لابراهيم « لأن نسلك انما يذكر باسحق » بقرب زمان الأنبياء المنتسبين اليه ، ولكثرة عددهم . والله أعلم .

ثم لو سلمنا أنه جاء في التوراة « يتسمى » كما ذكرت . لكن معنى ذلك : أن الله يسمى ذرية اسحق باسم ابنه يعقوب ، الذى سماه الله اسرائيل . ثم غلب عرف الاستعمال على ذرية اسحق ، فقل عليه « بنو اسرائيل » وغاية ما فى هذا : اعلام الله تعالى بأنهم يسمون باسمه ، أو باسم ولده . وهذا أمر قريب ، وخطب يسير . وانما كان يكون لك فى هذا متمسك لغرضك الفاسد . لو قال : النبوة فى ولد اسحق ، وليست فى ولد اسماعيل . ولم يقل هكذا . وانما قال : ما قد أسمعتك ، والذى به أخبرتك .

لقد أسمعت لو ناديت حيا

ولكن لا حياة لمن تنادى

وأما قولك : « فتمسكت منه الأمة الذى قال فيها قرآنكم » **أشد كفرا ونفاقا» (٣)** .

يا هذا . قد أعجبت فى جهلك ، وسخفت فى قولك ، حيث تركت ما قالت التوراة فى نسله ، وعظيم حرمة وطوله ، وذكرت ما يدل على

(١) الشعراء : ٢٢٧

(٢) فى ترجمة ١٩٧٠ « باسحق يدعى لك نسل . وابن الجارية أيضا

سماجطه أمة لأنه نسلك » (تكوين ٢١ : ١٢ - ١٣) .

(٣) التوبة : ٩٧

جهلك ، وكثرة تواقحك ، وقلة فضلك • ولأى شىء لم تذكر فى نسله •
ما قال الله فيه فى كتاب التوراة حيث قال فيه وفى نسله : « باركته »
وكثرته ، وأنميته ، جدا جدا ، يولد له اثنى عشر عظيما ، وأجعله
رئيسا عظيما لشعب عظيم » فأنت يا جاهل قد صغرت ما عظم الله ،
وذممت ما مدح الله ، فحاق عليك لذلك غضب الله • فبادر لانقاذ نفسك
قبل حلول رمسك وندمك على ما فرط لك فى أمسك • فها أنا قد نصحتك •
ورسولنا يقول لك (قد أبلغتك) •

ثم الذين قال فيهم قرآنا : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا » (١) انما
أراد بهم قوما معينين ، وطائفة مخصوصين من أعراب البادية ، أهل
جفاء وغلظة ، ردوا الحق بعد ظهوره ، وعاندوه حين وضوحه ، كما فعل
أشياكم من قبل •

ثم لا تظن أن قول الله تعالى : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا »
أنه أراد « منكم » لأنكم أشد الناس كفرا وأعظم العقلاء عنادا • وقد
بيننا ذلك فيما تقدم وانما أراد الله لهذا المعنى — وهو أعلم — : أن
أعراب البادية أشد كفرا ممن كفر من عرب الحاضرة ، فلا تدخلون
أنتم معهم تحت « أفعل » الا كما يقال « العسل أحلى من الخل » •
ثم ان جاز ذم شعب أو قبيلة ، لأن بعضهم كفر أو فسق • فأشد
الناس كفرا ونفاقا : بنو اسرائيل ، لكونهم عبدوا العجل والأصنام
على ما هو المعروف من أحوالهم • فالكافرون من أجدادكم على الحقيقة
أشد الكافرين كفرا ، وأسوأهم طريقة •

وأما قولك : « والسلام على من اتبع الهدى وآمن بشريعة المسيح »
حقيقة الايمان : نحن — والحمد لله — أهل الهداية والهدى ، المؤمنين
بشريعة المسيح المصطفى ، المحققون أنكم لستم على شىء منها ، بل
على الضلالة والردى • وقد بينا ذلك فيما تقدم بالبراهين القاطعة •
وبعد هذا • نعقبها بالدلالات الصادقة ، بحول الله وقوته • وقد
نجز ما أردنا تتبعه على هذا السائل الجاهل بدينه الغافل • ولو ذكرنا
كل ما فيه من الفساد لخرج الكلام عن الضبط •
وبعد الفراغ منه • نتكلم على ما وعدنا به من الكلام فى النبوات •
ونذكر ما فيها من البحوث بعون الله وتوفيقه •

في النبوت وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

المقدمة الأولى

غرض هذه المقدمة : أن نبين فيها معنى النبوة والرسالة ، والمعجزة وشروطها ، ووجه دلالتها • فنقول : لفظ « النبي » و « النبوة » وما تصرف منه ، راجع الى « النبأ » وهو : « الخبر » • تقول « نبأت » و « أنبأت » بمعنى « أخبرت » و « خبرت » وهذا مع لفظ « نبي » • بين •

وكذلك هو مع تسهيله على أصح الأقوال • فانه قد يكون أصل شيء من الألفاظ : الهمز • ثم يخفف الاسم منه ، كما قالوا : « خابية » وهو من « خبأت » هذا أصح ما قيل في اشتقاق هذا اللفظ • فاذا تقرر هذا ، فنبيء • على أصل الوضع وزنه « فعيل » وفعل يأتى في الكلام بمعنيين : أحدهما : فعيل بمعنى فاعل ، كما قيل : رحيم ، بمعنى راحم ، وسميع بمعنى سامع • والثاني : فعيل بمعنى مفعول ، كما قيل : رحيم ، بمعنى مرجوم ، وخصيب بمعنى مخصوب فعلى هذا يصح في « نبي » أن يكون بمعنى « مخبر » وبمعنى « مخبر » (١) •

فعلى أصل الاشتقاق ، ووضع العرب : كل من أخبر بشيء ، أو أخبر بشيء فهو « نبي » •

وعلى المعارف بين المشرعين : انما يطلقون اسم النبي على من كان مخبرا عن الله • فاما أن يكلمه الله مشافهة ، واما بواسطة ملاك •

هذا هو عرف المشرعين في النبوة • والى هذا يرجع معناها • فالنبيء عند عقلاء أهل الشرائع : انما هو « حيوان ناطق مائت ، كامل في نوعه ، مخبر عن الله تعالى بحكم أو مشافهة ، اما بواسطة ملك • أو ما تنزل منزلته » •

(١) الأولى بكسر الباء ، والثانية بفتحها •

فقولنا « حيوان ناطق » أردنا به أن انسانا باق على أصل إنسانيته ، لا يمتاز عن غيره من نوع الانسان بوصف حقيقى . وان أمتاز بأوصاف عرضية عن غيره كالعلوم الخاصة بهم ، وصفات الكمال التى خصهم الله بها . فذلك لا يخرجهم عن كونه انسانا . ولأجل هذا المعنى كانت الرسل تقول لقومها « ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » (١) وكذلك قال الصادق المصدوق : « انما أنا بشر مثلكم ، يوحى الى » (٢) فجعل الفصل بينه وبين نوعه : ما خص به من الوحي .

وقولنا « مائت » تنبيه على مآله ، لئلا يغفلوا فى بعضهم جاهلون ، كما فعلت النصارى فينسبونهم الى ما لا يليق بمن يموت .

وقولنا « كامل » أعنى بذلك : أن الأنبياء مجبولون على أتم صفات نوع الانسان . وذلك معلوم من أوصافهم . وان كانوا متفاوتين فى ذلك .

وقولنا « مخبر عن الله » هذا القيد ، هو خاصته التى تفصله عن غيره من نوعه . فان لم يكن كذلك لم يقل عليه : انه نبي .

وقولنا « اما مشافهة ، واما بواسطة ملاك » تحرز ممن يبلغه خبر الله تعالى على السنة رسله . فانه ليس بنبي ، ولا يقال عليه بحكم العرف : انه نبي . ولو جاز ذلك ، لجاز أن يقال « نبي » على كل متشرع ، سمع من رسوله خبرا عن الله . وهذا لم يقاه أحد .

وقولنا « أو ما تنزل منزلته » نريد به : أن الأنبياء ، قد يتلقون الوحي على وجوه . منها : أن يكلمه الله مشافهة . ومنها : أن يرسل اليه ملكا ، يخبره عن الله . ومنها : أنه يلقي اليه الوحي فى النوم . ومنها : أن الله تعالى يقذف فى روعه ، ويلهمه الهاما ، حتى لا يشك أن الأمر كذلك ، ويقطع به .

فإذا تقرر أن حقيقة النبوة ما ذكرناه ، وأن فضله الخاص به : هو ما تحصل له من الاخبار عن الله فذلك الخبر : أن أمر النبي بتبليغه للغيره ، فذلك النبىء ، هو الذى يقال عليه : رسول . والرسالة : هو الكلام المبلغ عن الله . فلاجل هذا يصح أن يقال : كله رسول نبي . وليس كله نبي رسولا .

اذ الرسالة نبوة وزيادة • وهذا بين بنفسه • فاذا تقرر ذلك •
فهذا البشرى ، الذى يدعى : أن الله أرسله إلينا ، لا بد أن يكون
صادقا • وذلك لا نعرفه بغير دليل ، فلا بد من دليل •

والدليل المتحدى به : هو المعجزات • ولا بد من النظر فى حقيقتها ،
وفى شروطها ، وفى وجه دلالتها •

فأما المعجزة : فلفظ مأخوذ من الاعجاز • وذلك أنك تقول :
عجز فلان عن كذا • عجزا • اذا لم يقدر عليه ، ولم يقم به • وأعجزته
اعجازا اذا جعلته يعجز ، وتقول : أعجزنى الشئ اذا فاتك ، ولم تقدر
عليه •

وكلها راجعة الى أن العاجز عن الشئ هو الذى لا يتمكن من
الشئ ، ولا يقدر عليه ، ثم فى تسمية هذه الأدلة التى تدل على صدق
الأنبياء : معجزات : تجوز • وذلك أن المعجز على التحقيق : انما هو
خالق العجز ، وهذه الأسباب التى يقع العجز عندها تسمى : معجزة •
بالتوسع • وذلك من تسمية الشئ باسم غيره اذا جاوزه ، أو كان
منه بسبب •

هذا شرح لفظ المعجزة •

فأما حقيقتها : فهو أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى مع عدم
المعارضة •

انما قلنا « أمر » ولم نقل « فعل » ليشتمل بذلك على الفعل
الخارق للعادة ، والمنع من الفعل المعتاد • فلو قال « نبى » : آتيت أنه
لا يقدر أحد أن يتكلم اليوم ، فكان ذلك • لكان ذلك دليلا على صدقه ،
ويكون ذلك معجزة له مع أنه ليس اثيانا بفعل عرفى • وانما هو منع من
فعل معتاد • وانما قلنا « مقرون بالتحدى » لئلا يتخذ الكاذب معجزة
من تقدمه ، حجة لنفسه ، ولتتميز عن الكرامة ، وما فى معناها • وانما
قلنا « مع عدم المعارضة » لتتميز عن السحر والشعوذة •

واذا حققت النظر فيما ذكرناه فى حد المعجزة علمت شروطها •
لكن ينبغى لك أن تعرف : أن المعجزة لا تكون دليلا الا فى حق من علم
وجود البارئ تعالى • وأنه قادر عالم مريد موصوف بصفات الكمال ،
حتى يتأتى منه الارسال ، والتصديق والتكليف ، واذا لم يعرف الناظر

هذه الأمور بأدلة عقلية لم يعرف المعجزة ، ولم يفده العلم بالتصديق
الطنبى .

وأما وجه دلالتها : فهو أن المشاهد للمعجزة المتحدى بها إذا
علمها ، وعلم شروطها علم على الضرورة : أن الله تعالى قصد بذلك المعجز :
تصديق المدعى ، ويتبين هذا بمثال . وذلك أنه : لو فرضنا (١) ملكا
عظيما ، اجتمع له أهل مملكته في مجلسه وأهل المملكة مصغون لما
يأمرهم به ، ذلك الملك .

فقام رجل من بين يديه ، وقال : انى رسول هذا الملك اليكم .
وقد أمرنى أن أبلغكم أمره ونهيه . وأنا صادق في قولى بهذا . ثم يقول :
يا أيها الملك : أن كنت صادقا فيما أقوله عنك فخالف عادتك . وقم
عن سريرك قياما ، تخالف به المعتاد من فعلك ، فإذا فعل الملك ذلك عند
تحدى المدعى . فإن أهل المجلس يضطرون الى العلم بأن الملك قصد
بذلك الفعل تصديقه ، ولا يحتريهم في ذلك ريب ، ولا توقف ، فتتزلت
أذن تلك الأفعال بتلك الشروط منزلة قوله « صدقت أنا أرسلتك » وهذا
يبين بنفسه عند كل موفق منصف ، معلوم على القطع .

فإذا تقرر ذلك . فمهما ادعى شخص الرسالة ، واستدل عليها
بمثل ما ذكرناه ، كان محقا في دعواه ، صادقا في قوله ، لا يجوز لعاقل
أن يتخلف عن متابعتها ، سواء ادعى عموم رسالته ، أو خصوصها ،
ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قد ادعى عموم رسالته ، واستدل
على صدقه بالمعجزات على الشروط التى ذكرناها . فهو صادق ، ولا
يجوز لعاقل بلوغه أمره ، أن يتخلف عن متابعتها ، وتصديقه .

وسنذكر ان شاء الله بعض ما أمكن ذكره من معجزاته ، فانه
صلى الله عليه وسلم قد أيد بمعجزات كثيرة ، حتى إذا جمعت وتتبعت
علم منها : أن الله تعالى ، قد جمع له أكثر معجزات الأنبياء قبله
وخصه بمعجزات لم يشاركه فيها غيره منهم ، وستقف ان شاء الله
على أكثر ذلك .

فهذه المقدمة الأولى .



(١) هذا قد اقتبس منه المؤلف من كتاب « العقيدة النظامية » للجوينى
عبد الملك امام الحرمين .

المقدمة الثانية

وأما المقدمة الثانية :

فالمغرض منها : أن تثبت فينا : أن عيسى عليه السلام ظهرت المعجزات على يديه ، وتحدى بها الخلق ليؤمنوا أنه رسول الله • لا ليؤمنوا بأنه : اله • وأن النصرى غير عالمين بمعجزات عيسى عليه السلام • إذ لم تتوافر عندهم • فنقول — وبالله التوفيق — :

إن النصرى غايتهم أن يسندوا معجزات عيسى عليه السلام ، لما في أيديهم من الانجيل ، وهو لم يتواتر نقله ، ولا أمن التحريف ، والغلط فيه ، على ما تقرر قبل • وإذا كان هذا ، فكل ما في أيديهم من الأخبار عنه في الانجيل لا تغيد العلم القطعى • وغاية ذلك : أن تغيد غلبة ظن • والظن في الاعتقاد : بمنزلة الشك ، بل هو شك • فاذن هم من معجزات عيسى في شك ، وهم لا يشعرون بذلك الافك •

ومما يدل على أنهم من كتابهم وشرعهم على غير علم : ما استفاض في كتب التواريخ (١) عندنا وعندهم • وذلك أن عيسى عليه السلام لما بعثه الله تعالى ، دعا بنى اسرائيل للايمان ، فأجابته من شاء الله منهم ، فلما رفعه الله تعالى استحلّى الناس كلامه بعد ذلك حتى يبلغ عدد بنى اسرائيل : سبع مائة رجل ، فكانوا يجاهدون في بنى اسرائيل ويدعون الى الايمان ، فقام « بولس اليهودى » وكان هو الملك في بنى اسرائيل فحشد عليهم الأجناد ، وخرج عليهم ، وقاتلهم ، فهزمهم وأخرجهم من بلاد الشام ، حتى انتهى فلمهم ، الى الدروب • فأعجزوه • فقال « بولس » الملك لجنوده : ان كلام هؤلاء لمستحلى • وقد قدموا على عدوكم ، وسيرجعونهم في ملتهم ، فيكثرون علينا ، فيخرجون علينا ، ويخرجوننا من بلاد الشام • ولكنى أرى لكم رأيا • قالوا : وما هو ؟ قال : تعاهدونى على كل شىء ، كان خيرا ، أو شرا • ففعلوا • فترك ملكه ، ثم لبس لباسهم ، وخرج اليهم ليضلهم ، حتى

(١) سيذكر المؤلف من سفر أعمال الرسل باختصار • وسيذكر عبارات

التي هي في بعض معانيها في رسائل بولس والبعض حكاية حال •

انتهى الى عسكرهم ، فأخذوه • وقالوا : الحمد لله الذى أخزأك ، وأمنك منك • فقال لهم : اجمعوا رؤوسكم ، فانه لم يبلغ منى حمقى أن أتیکم الا ومعى برهان • فأبلغوه رؤوسهم •

فقالوا : مالك • فقال : انى لقينى المسيح منصرفى عنكم ، فأخذ سمعى ، وبصرى ، وعقلى • فلم أسمع ، ولم أبصر ، ولم أعقل ، ثم كشف عنى • فأعطيت الله عهدا : أن أدخل فى أمرکم • فأنتيت لأقيم فيکم ، وأعلمکم التوراة وأحكامها ، فصدقوه • فأمرهم أن يبنوا له بيتا ، ويفرشوه رمادا ، ليعبد الله فيه بزعمه ، ويعلمهم التوراة •

ففعّلوا ، وعلمهم ما شاء الله ، ثم أغلق الباب دونه ، فأطافوا به • وقالوا : نخشى أن يكون رأى شيئا يكرهه • ثم فتحه بعد يوم • فقالوا : أرايت شيئا تكرهه ؟ قال : لا • ولكنى رأيت رأيا ، وأعرضه عليكم • فان كان صوابا فخذوه ، وان كان خطأ • فردونى عنه • قالوا : هات • قال : هل رأيتم سارحة تسرح الا من عند ربها ، وتخرج الا من حيث تؤمر به ؟ قالوا : لا • قال : فانى رأيت الصبح والليل والشمس والقمر والبروج ، انما تجىء من ها هنا • وما أوجب ذلك الا وهو أحق الوجوه أن يصل اليه • قالوا : صدقت • فردهم عن قبلتهم •

ثم أغلق الباب بعد ذلك بيومين ، ففزعوا أشرم من الأول • وأطافوا به ، ففتحه • فقالوا : أرايت شيئا تكرهه ؟ قال : لا • ولكنى رأيت رأيا • قالوا : هات • قال : ألستم تزعمون : أن الرجل اذا أهدى الى الرجل الهدية ، وأكرمه بالكرامة ، فردها • شق ذلك عليه ، وأن الله تعالى : سخر لكم ما فى الأرض ، وجعل ما فى السماء لكم كرامة • فالله أحق • أن لا ترد عليه كرامته •

فما بال بعض الأشياء حلال ، وبعضها حرام • ما بين البقة الى الفيل : حلال • قالوا : صدقت •

ثم أغلق بعد ذلك ثلاثا • ففزعوا أمثل من الثانية ، فلما فتح لهم • قال لهم : انى رأيت رأيا • قالوا : هات • قال : لنخرج كل من فى البيت الا « يعقوب » و « نسطور » و « ملكون » و « المؤمن » •

ففعّلوا • فقال : هل علمتم أحدا من الانس خلق من الطين خلقت • فجعله ، فصار نفسا ؟ قالوا : لا • قال : فهل علمتم أن أحدا من الانس

أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ؟ قالوا : لا • قال : هل علمتم أن أحدا من الانس ينبيء الناس بما يأكلون ، وما يدخرون في بيوتهم ؟ قالوا : لا • قال : « فاني أزعم أن الله تعالى تجلى لنا ، ثم احتجب »^(١) فقال بعضهم : صدقت ، وقال بعضهم : لا • ولكنه ثلاثة : والد ، وولد • وروح القدس • وقال بعضهم : الله وولده • وقال بعضهم : هو الله تجسم^(٢) لنا •

فافترقوا على أربع فرق • فأما يعقوب : فأخذ بقول « بولس » : ان الله هو المسيح • وأنه كان ثم تجسم • وبه أخذت شيعته • وهم اليعقوبية^(٣) • وأما نسطور^(٤) فقال : المسيح ابن الله على جهة الرحمة ، وبه أخذت شيعته ، وهم النسطورية ، الا أن شيعته لم تعتقد أنه سمى ابنا على جهة الرحمة ، بل على ما تقدم • وأما ملكون : فقال : ان الله ثلاثة • وبه أخذت شيعته • وهم : الملكية^(٥) • الذين قالوا : ان الله ثلاثة أقانيم • فقام المؤمن^(٦) : وقال لهم : عليكم لعنة الله • والله ما حاول هذا الا افسادكم ، ونحن أصحاب المسيح قبله • وقد رأينا عيسى وسمعنا منه ، ونقلنا عنه • والله ما حاول هذا الا ضلالتكم وفسادكم •

فقال بولس للذين اتبعوه : قوموا بنا نقاتل هذا المؤمن ونقتله هو وأصحابه ، والا أفسد عليكم دينكم • فخرج المؤمن الى قومه • وقال : أليس تعلمون أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكذا قال لكم ؟ قالوا : بلى • قال : فان هذا الملعون ، قد أضل هؤلاء القوم • فركبوا في أثرهم •

فقاتلوه • فهزم المؤمن وأصحابه • وكان أقلهم تبعا • فخرج مع قومه الى الشام ، فأسرته اليهود فأخبروهم الخبر • وقالوا : انما

-
- (١) في الاصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الى تيموثاوس :
« وبالإجماع عظيم هو سر التقوى : الله ظهر في الجسد » •
(٢) رأى هذا البعض هو رأى البعض الذين قالوا : صدقت •
(٣) هم في عصرنا هذا يسمون « الأرثوذكس » •
(٤) نسطور قال : عيسى انسان والله •
(٥) هم في عصرنا هذا يسمون « الكاثوليك » •
(٦) يقصد بالمؤمن : الذين ثبتوا على الحق •

خرجنا اليكم لنؤمن في بلادكم ، ومالنا في الدنيا من حاجة • اقما نلزم
الكهوف والصوامع ونسيح في الأرض • فخلوا عنهم •

ثم ان قوما من أولئك الذين كفروا ، فعلوا مثل ما فعل قوم المؤمن ،
اتخذوا الصوامع ، وساحوا ، وأظهروا البدعة ، فهو قول الله عز وجل :
« ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله • فما
رعوها حق رعايتها » (١) يعنى التوحيد (٢) • اختلفوا فيه ، الا فرقة
« المؤمن » وفيهم نزلت : « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا
ظاهرين » (٣) بالجهة ، وظهور محمد صلى الله عليه وسلم •

وكان هرب المؤمنين منهم الى جزيرة العرب ، فأدرك النبی صلى
الله عليه وسلم منهم : ثلاثون راهبا • فأمنوا به ، وصدقوه ، وتوفاهم
الله على الاسلام •

كان هذا — والله أعلم — بعد المسيح بأربعين سنة ، أو نحوها •
ثم لم يزل أمر « المؤمن » وأصحابه حقيقا ، وغيرهم من الفرق مختلفون ،
ويتهارجون ، ولم يستقر لهم قدم الى مدة « قسطنطين » قيصر •
الملك ابن « هيلانة » وذلك بعد رفع المسيح بمائتين وثلاثة وثلاثين
سنة (٤) •

وذلك أنه كثر عدوه ، وكاد ملكه يذهب باختلاف رعاياه عليه ،
وضعفهم ، وكسلهم عن نصرته • فرام حطهم على شريعة ينظم بها
سلوكهم ، ويؤلف بها متفرقهم ، فاستشار من لديه من أهل النظر فوقع
اختيارهم على أن يتعبد القوم بطلب دم ليكون ذلك أقوى لارتباطهم
معه ، وأؤكد لجدهم في نصره ، فوجدوا اليهود يزعمون أن في بعض
تواريخهم خبرا عن رجل منهم هم أن ينسخ حكم التوراة • وينفرد
بالتأويل فيها • فعمدوا اليه وهو في نفر من اتبعه ، وظفروا بواحد

(١) الحديد : ٢٧

(٢) يعنى — والله أعلم — ابتداعهم الرهبانية ، وهى غير مقصوص عليها
في التوراة التى جاء المسيح مصدقا لها •

(٣) الصف : ١٤

(٤) هذا يعنى أن رفع المسيح كان في سنة ثمانين من الميلاد لأن قسطنطين
اعترف بالنصرانية سنة ثلثمائة وثلاثة عشر من الميلاد وكان مجمع نيقية
سنة خمس وعشرين وثلثمائة من الميلاد •

منهم»، وشهد لديهم رجل واحد : أنه ذلك المطلوب ، فصلبوه ، وما عندهم تحقيق ، لكونه ذلك المطلوب بعينه ، الا فقدهم اياه من حينئذ .

فعند ذلك عمد « قسطنطين » الى من ينسب الى دين المسيح ، فوجدهم ، قد اختلفت آراؤهم ومزجت أديانهم ، فاستخرج ما بقى من رسم الشريعة المنسوبة للمسيح وجمع عليها وزراءه ، فأثبت ما شاء منها ، وتحكم فيها باختياره ، حسب ما رآه موافقا له بالصلوبية لتعيد قومه بطلب دم ، والقول بترك الختان ، لأنه شأن قومه . ثم أكد ذلك وشده بمنامة اختلقها وادعى أنه أوحى اليه فيها .

وذلك أول شيء أظهره من هذا الأمر ، فجمع أنصاره ، ورعاياه من الروم . وذلك على رأس سبع سنين من مدة ملكه . وقال لهم : انه كان يرى في منامه آتيا أتاه . فقال له : بهذا « الرسم » (١) تغلب ، وعرض عليه هيئة « الصليب » فأعظمت ذلك العامة ، وانفعلت لما سمعت منه ، ثم بعث الى امرأة في ذلك الزمان يقال لها « الأنه » كاهنة ، وكانت ذات جأش وقوة ، فشهدت له أنها رأت مثل ما رأى . فقوى تصديق العامة لذلك .

وفي هذا كله ، لا يعلمون لذلك الرسم تأويلا . ولا كان « قسطنطين » كشف لهم شيئا من أمره . فخرج بهم الى عدوه ، ووعظ قومه ، وهول عليهم أمر الرسم . فحصل له كل ما أراد من جد القوم واجتهادهم معه . فلما عادوا الى أوطانهم بعد الظفر بعدوهم . سألوه عن تأويل ذلك « الرسم » وألحوا عليه فيه . فقال لهم : قد أوحى الى في نومي ، أنه كأن الله تبارك وتعالى هبط من السماء الى الأرض فصلبته اليهود . فها لهم ذلك كثيرا ، مع ما حصل عندهم من تصديقه ، وعظم عليهم الخطب فيه ، فانقادوا الى « قسطنطين » انقيادا حسنا ، وصح له منهم ما أراد ، وشرع لهم هذه الشرائع التي بأيديهم اليوم ، أو أكثرها (٢) .

(١) في المخطوطة : الرسم بالشين المعجمة بدل السين المهملة وفي كثير من الكتب الرسم بالسين .

(٢) قد ذكرنا في تحقيقنا لكتاب « منظومة الامام الابوصيري في الرد على النصارى واليهود » : السبب الحقيقي لتحريف النصرانية وهو : أن أهل الروم كانوا يحتلون بلاد اليهود . وكان اليهود يزعمون لهم أن نبيا منهم =

وقد ظهر لجماعة من أهل العلم بأحوال الأمم وبنوازل الأزمان :
أن هذا الشخص الذى تعظمه النصارى ، وتصفه بالالهية ، لم يكن
له وجود فى العالم . ولكن « قسطنطين » ابتدع ذلك كله واتفق مع
نفر من اليهود من أحبارهم . على أن يبذل لهم من متاع الدنيا
ما شاءوا ، ويشهدون له عند قومه بأن ذلك الشخص كان عند اليهود
فصلبته . ففعلوا . وكتبوا من أخباره شيئا . فتلقت ذلك النصارى
وقبلوه ودانوا به . ولعله أكثر الانجيل الذى بأيديهم اليوم .

ولتعلم . أن هذه الأخبار التى ذكرناها . لا يمكنهم انكار جملتها ،
وان أنكروا بعض تفاصيلها لكون هذه القصص معروفة على الجملة
عندهم . فانهم لا يقدرون على جحد محاربة « بولس » اليهودى
واجلاؤهم من الشام . ودخول « بولس » فى دينهم . وكذلك ملك
« قسطنطين » مما لا ينكرون اشتهاره لكتبهم . ثم لو قدرنا : أن هذه
الوقائع لم تعلم صحتها ، ولا كذبها ، فشرعهم قابل لأمثالها فان معظم
معتنهم فى أمور دياناتهم انما هو الانجيل ، ونقله غير متواتر لا سيما .
والأحداث عندهم فى أكثر الأحيان بضمائم (١) يدعونها ، يجعلونها
أصولا يعملون عليها ، وبمحافل يجتمعون فيها ، فيتحكمون بآرائهم ،

= سيظهر ، ومع ظهوره سيخضعون للروم ولن يمسوهم بأذى . ولما
ظهر عيسى عليه السلام وضح لليهود ولأهل الروم أن النبى الذى سيظهر
سيكون من العرب بنى اسماعيل . وأنه سيحارب أهل الروم وسيطردهم
من فلسطين ، فاغتاظ اليهود منه لأنه تحدث على غير مرادهم فى النبى المنتظر ،
واغتاظ الروم منه لأنه أخبرهم بقرب زوال مملكتهم . فلذلك تحالف اليهود
والروم على القضاء على المسيح عيسى وأتباعه . فاضطهدهم الروم اضطهادا
شديدا . ونفت علماء اليهود سمومهم فى المسيح وأمه . واقتبسوا عقائد
الرومان وعاداتهم ، وضللوا بالعقائد والعادات فى شأن المسيح وأمه ، فجعلوا
مملكة الروم أحزابا وشيعا ، ولما اختل نظامهم ، وتعب النصارى من الاضطهاد ،
وظهر فى نفوس الناس ميل الى المسألة ، ورضى النصارى بالمصالحة مع
الروم ، ورضى الروم بالمصالحة مع النصارى ، اتفق الطرفان على صوغ
العقائد النصرانية على مثال عقائد الروم ، وعلى أن لا يقول النصارى أن
النبى المنتظر سوف يأتى من العرب ويقضى على مملكة الروم ، ومن أجل
ذلك طبق النصارى كل نبوءات التوراة عن النبى المنتظر على المسيح عيسى
عليه السلام ، وجعلوه خاتم النبيين .

(١) اقرأ كتاب : المستفسار .

ولا يستندون لشيء من كتبهم ، ولا لشيء من كلام أنبيائهم • وان شئت أن ترى هذا عيانا • فانظر كتب اجتماعاتهم ومحافلهم ، فانهم ينحشدون لمواضع مخصوصة في أحيان مخصوصة ، ويخترعون فيها أحكاما ، وأمورا ، لا مستند لهم ، ولا أصل الا التحريم على المأكّل ، والتحكم في العامة بفارغ الأقاويل • وسنبين ذلك اذا ذكرنا جملا من أحكامهم • واذا كان هذا مبنى شريعتهم ، فكيف يوثق بشيء من ترهاتهم ؟

فاذا تقرر ذلك فلتعلم أن اتخاذهم المسيح : الها • انما سببه ، ما سبق ذكره ، ولا يقدرّون على أن ينسبوا شيئا من ذلك الى عيسى عليه السلام • بل قد نقلوا عنه في انجيلهم : ما يدل دلالة قاطعة من حيث اللفظ على أنه انما ادعى النبوة ، وعليها استدل بمعجزاته • وفي دعواه النبوة كذبتة اليهود •

ونحن الآن نسرد بعض ما وقع في انجيلهم من دعواه الرسالة بحول الله سبحانه •

من ذلك : ما جاء في الانجيل عنه أنه قال حين خرج من السامرة ، ولحق بجلجال (١) : « انه لم يكرم أحدا من الأنبياء في وطنه » (٢) •

وفي انجيل لوقا : « أنه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه ، فكيف تقبلونني ؟ » (٣) وهذا نص لا يقبل التأويل في أنه انما ادعى النبوة المعلومة •

وفي انجيل ماركس أن رجلا أقبل الى المسيح • وقال له : « أيها المعلم الصالح : أى خير أعمل لأتال الحياة الدائمة ؟ فقال له المسيح : لم قلت لى صالحا ؟ انما الصالح : الله وحده وقد عرفت الشروط • وذلك : ألا تسرق ولا تزنى ، ولا تشهد بالزور ، ولا تخون • وأكرم أباك وأمك » (٤) •

(١) في التراجم الحديثة : ولحق بالجليل •

(٢) الاصحاح الرابع من انجيل يوحنا - الآية ٤٤

(٣) انجيل لوقا ٤ : ٢٤

(٤) انجيل مرقس الاصحاح العاشر - الآية السابعة عشر وما بعدها •

وفي انجيل يوحنا أن اليهود لما أرادت القبض عليه ، وعلم بذلك رفع بصره الى السماء وقال : « قد دنا الوقت يا الهى ، فشرفى لى ، واجعل لى سبيلا الى أن أهلك كل من ملكتنى : الحياة الباقية • وانما الحياة الباقية : أن يؤمنوا بك الهى واحدا • وبالمسيح الذى بعث • فقد عظمك على أهل الأرض ، واحتملت ما أمرتنى به ، فشرفى لى » (١) •

وفي انجيل متى أنه قال لتلاميذه : « لا تنسبوا أباكم على الأرض • فان أباكم الذى فى السماء وحده ، ولا تدعوا معلمين ، فان معلمكم : المسيح وحده » (٢) •

فقوله « لا تنسبوا أباكم على الأرض » أى : لا تقولوا : انه على الأرض ، ولكنه فى السماء ، ثم أنزل نفسه حيث أنزله الله تعالى فقال : « ولا تدعوا معلمين • فان معلمكم المسيح وحده » (٣) • فها هو قد سمى نفسه : معلما فى الأرض • وشهد أن الهم فى السماء واحد ، ونهاهم أن ينسبوه لالهية •

وفي انجيل لوقا أنه حين أحيا الميت بباب مدينة « نايين » حين أسفق لأمه ، لشدّة حزنها عليه • قالوا : « ان هذا النبى لعظيم ، وان الله قد تفقد أمته » (٤) ولم يقولوا : ان هذا اله عظيم •

وفي انجيل يوحنا أن عيسى قال لليهود : « لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئا • لكنى أحكم بما أسمع ، لأنى لست أنفذ أراذلى ، بله ارادة الذى بعثنى » (٥) •

وفي انجيله أيضا أنه « أعلن صوته فى البيت ، وقال لليهود : قد عرفتمونى موضعى ، فلم آت من ذاتى ، ولكن بعثنى الحق ، وأنتم تجهلون • فلن قلت : انى أجهله كنت كاذبا مثلكم • وأنا أعلم أنى منه ، وهو بعثنى » (٦) •

(١) الاصحاح السابع عشر من انجيل يوحنا - الآية الاولى وما بعدها •

(٢) متى ٢٣ : ٩ - ١٠ ونص العبارة : « لا تدعوا لكم أبا على الأرض •

لان أباكم واحد الذى فى السموات • • • الخ » •

(٣) اقرأ تعدينا لهذا الكتاب • (٤) انجيل لوقا الاصحاح السابع •

(٦) الاصحاح الثامن من انجيل يوحنا

(٥) انجيل يوحنا ٥ : ٣٠

فانظر • كيف أخبر عن نفسه ، أنه معلوم عند اليهود • وأخبر عن الله : أن اليهود لا تعرفه وقال : « انه لم يأت من ذاته ، ولكن الله بعثه » وهكذا كانت دعوة من قبله من الأنبياء عليهم السلام • وحاشاهم أن ينتسبوا الى ما ينفرد به ذو الجلال والاكرام •

وفي الانجيل أيضا أنه قال لليهود بعد خطاب طويل مذكور في الانجيل ، حين قالوا له : « انما أبونا ابراهيم • فقال : ان كنتم بنى ابراهيم فاقفوا أثره ، ولا تريدوا قتلنى •

على أنى رجل أديت اليكم الحق ، الذى سمعه من الله • غير أنكم تتقفون أثر آبائكم • قالوا : لسنا أولاد زنا • انما نحن أبناء الله • فقال : لو كان الله أباكم لحفظتمونى ، لأنى رسول • منه خرجت مقبلا ، ولم أقبل من ذاتى • وهو بعثنى لكنكم لا تقبلون وصيتى وتعجزون عن سماع كلامى • انما أنتم أبناء الشيطان ، وتريدون اتمام شهواته » (١) الى كلام كثير •

وفيه أيضا : أنه كان يمشى يوما فأحاطت به اليهود • وقللوا : « الى متى تخفى أمرك ؟ ان كنت المسيح المنتظر فأعلمنا بذلك » (٢) • ولم تقل له : ان كنت لها ، لأنه لم تعلم من دعواه ذلك • ولا اختلاف عند اليهود : أن الذى ينتظرونه انما هو انسان نبى ، ليس بانسان اله كما ترعمون •

وفي الانجيل أيضا عنه : أن اليهود أرادوا القبض عليه ، فبعثوا لذلك الأعوان • وأن الأعوان رجعوا الى قوادهم • فقالوا لهم : « لم لم تأخذوه ؟ قالوا : ما سمعنا آدميا أنصف منه • فقالت اليهود : وأنتم أيضا مخدوعون • أترون : أنه آمن به أحد من القواد ، أو من رؤساء أهل الكتاب ؟ انما آمن به من الجماعة من يجهل الكتاب • فقال لهم نيقوديموس : أترون أن كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه ؟ فقالوا له : اكشف الكتب ترى أنه لا يجىء نبى من جلال » (٣) •

(١) الاصحاح الثامن من انجيل يوحنا • (٢) يوحنا ١٠ : ٢٤ •

(٣) جلال فى التراجم الحديثة : الجليل والتص فى الاصحاح السابع من انجيل يوحنا •

فما قالت اليهود ذلك الا وقد أنزل لهم نفسه منزلة « نبي » فقط ، ولو علمت من دعواه الالهية لقاتلته يومئذ •

ومثل هذا كثير في انجيلهم ، لو ذهبت أذكره لطال أمره •

وقد تقدم من كلام أشعيا أن الله تعالى قال في المسيح : « هذا غلامى المصطفى ، وحبيبى الذى ارتضت به نفسى » (١) •

ومن كلام عاموس النبى أن الله قال على لسانه : « ثلاثة ذنوب أقبل لبني اسرائيل والرابعة لا أقبلها : بيعهم الرجل الصالح » (٢) •

ولم يقل بيعهم اياى • ولا قال : بيعهم الها متساويا معى • فهذا المبيع لا يخلو اما أن يكون هو المسيح كما تزعمون • فقولوا فيه ، كما قال الله : انه رجل صالح ، ولا تقولوا : انه اله معبود • واما أن يكون المبيع غيره ، فهو الذى شبه لليهود ، فابتاعوه وصلبوه • ويلزمكم انكار صلوية المسيح ، وهو كفر عندكم • وقد كررنا هذا المعنى في هذا الكتاب مرارا لكون النصارى على اختلاف فرقهم يعتقدون له الالهية على اختلاف في كيفية ذلك • كما تقدم •

وحتى لقد ذهبت طائفة منهم الى مقالة لم يسمع قط في أكناف العالم وأطرافه من اجترأ على التفوه بها • ونحن نستغفر الله قبل حكايتها ، ونتبرأ الى الله من مذاهبهم الفاسدة ، ومن القائل بها ، وذلك أنى وقفت على رسالة بعض « الأقبسة » كان بطليطلة ، نسبته من « القوط » قال فيها : « هبط الله بذاته من السماء ، والتحم ببطن مريم » •

ثم قال : « وهو الاله التام • والانسان التام • ومن تمام رحمته على الناس : أنه رضى بهرق دمه عليهم في خشبة الصليب ، فمكن اليهود أعداءه من نفسه ، ليتم سخطه عليهم • فأخذوه وصلبوه وغار دمه في اصبعه ، لأنه لو وقع منه شيء في الأرض لبيست الا شيء وقع فيها ، فبيست في موضعه النوار •

(١) الاصحاح الثانى والأربعون من سفر أشعيا - الآية الاولى •

(٢) هذا النص ليس نبوءة عن عيسى عليه السلام •

لأنه لم يمكن في الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي : آدم ،
الذى ظلمه ، واستهان بقدره ، فلم يرد الله الانتقام منه ، لاعتلاء
منزلة « السيد » وسقوط منزلة « العبد » أراد أن ينتصف من الإنسان
الذى هو اله مثله ، فانتصف من خطيئة آدم ، بصلب عيسى المسيح
الذى هو اله ، مساومعه » •

فانظر توافق هذا القائل ، واستخفافه بحق الله تعالى وجهله ،
وتناقضه وحمقه • فوالله لو حكى مثل هذا القول السخيف عن مجنون
أو موسوس لما كان يعذر بقوله ، ولبودر بضربه ، وقتله ، حتى
لا يجترىء على مثله • ونحن نربأ بأكثر المجانين ، والموسوسين أن
ينقولوا بهذا المذهب الغث الهجين ، أو ينتحلوا ركافة هذا الدين
السقيم ، الا أن يكون مستغرقا في الوسوسة والجنون • فالحق
أنواع ، والجنون فنون •

وعند الوقوف على هذه المذاهب القبيحة ، والأوهام • يتبين
فضل دين الاسلام ، ويتحقق معنى قول النبي عليه السلام : (اذا أراد
الله انفاذ قضائه ، وقدره : سلب ذوى العقول عقولهم ، حتى ينفذه
فيهم) •

وفي مثل هذا الضرب : المثل : « اذا جاء البين ، صم الأذن ،
وعمى العين » والحمد لله الذى أعادنا من هذه الرذائل ، وتفضل علينا
بدين الحنيفية الذى خص بكل الفضائل ، التى يقبلها بفطرته الأولى
كل عاقل ، ويستحسنها كل ذكى فاضل •

فقد تحصل من هاتين المقدمتين : معنى النبوة ، وبيان شروطها •
وأن عيسى عليه السلام نبي ورسول • اذ قد كملت فيه شروط الرسالة ،
وأنه ليس باله • وأن النصرارى ليسوا عالمين بشيء من أحوال المسيح ،
ولا من معجزاته على اليقين والتفصيل •

وغايتهم أن يعلموا أمورا جمالية لكثرة تكرار هذا المعنى عليهم •
ثم تلك الأخبار التى يتحدثون بها عن المسيح ، وتكرر عليهم ،
لو كلفوا أن يسندوا شيئا منها لغير الانجيل كما ينقل متواترا لما
استطاعوا شيئا من ذلك ، ولا وجدوا اليه سبيلا •
ومما يؤيد هذا المعنى ويوضحه : أن اليهود كانوا رهطه وكفلة ،

وعندهم نشأ ، وهم يخالفونكم في كثير مما تنسبون اليه ، ولا يوافقونكم على نقلها •

من ذلك : أن اليهود تزعم أنهم حين أخذوه حبسوه في السجن أربعين يوما • وقالوا : ما كان ينبغي لنا أن نحبسه أكثر من ثلاثة أيام • إلا أنه كان يعضده أحد قواد « الروم » لأنه كان يداخله بصناعة الطب • وفي انجيلكم : أنه أخذ صبح يوم الجمعة ، وصلب في الساعة التاسعة من اليوم بعينه (١) •

وكذلك تزعم اليهود كلهم : أنه لم يظهر له معجزة ، ولا بدت لهم منه آية ، غير أنه طار يوما ، وقد هموا بأخذه ، فطار على أثره أحد منهم فعلاه في طيرانه ، وتوله ، فسقط الى الأرض بزعمهم •

ومواضع كثيرة من انجيلكم تدل على ما قالتها اليهود • من أنه لم يأت بآية •

فمن ذلك (٢) : « أن اليهود قالت له : ما آيتك التي ترينا ، ونؤمن بك • وأنت تعلم أن آباءنا قد أكلوا المن والسلوى في المفاز ؟ فقال : أن كان أطعمكم موسى خبزا بالمفاز • فأنا أطعمكم خبزا سماويا » يريد نعيم الآخرة (٣) • فلو عرفت اليهود له : معجزة ، لما قالت ذلك • ثم لم يجبههم على قولهم بمعجزة ، ولا آية •

وفي انجيلكم : « أن اليهود جاءوا يسألونه آية ، فحذفهم • وقال : ان القبيلة الفاجرة الخبيثة تطلب آية ، ولا تعطى ذلك » (٤) •

وفيه أيضا : أنهم كانوا يقولون له ، وهو على الخشبة بظنكم : « ان كنت المسيح فأنزل نفسك ، نؤمن بك » (٥) يطلبون منه بذلك آية ، فلم يفعل •

(١) مرقس الأصحاح الخامس عشر • ويوم الاستعداد في الانجيل هو يوم الجمعة • وفيه يستعدون ليوم السبت الذي لا يعملون فيه عملا •

(٢) النص في الأصحاح السادس من انجيل يوحنا •

(٣) يريد الايمان بتعاليمه لحيوا حياة طيبة •

(٤) متى ١٢ : ٣٨ - ٣٩

(٥) الأصحاح الثالث والعشرين من انجيل لوقا •

ومثل هذا كثير فيه .

ثم ان اليهود عندهم من الاختلاف في أمره ما يدل على عدم يقينهم بشيء من أخباره . فمنهم من يقول : انه كان رجلا منهم يعرفون أباه وأمه ، وينسبونه لزانية ، وحاشى لله . كذبوا . ويسمون أباه للزنية : « البندير ^(١) الرومى » وأمه « مرم الماشطة » كذبوا — لعنهم الله — ويزعمون : أن زوجها يوسف لما رأى « البندير » عندها على فراشها ، وتشعر بذلك فهجرها ، وأنكر ابنها . ومنهم من يقول : انه لم يتولد من غير أب ، وينكره ، ويقول : انما أبوه يوسف بن يهوذا ، الذى كان زوجا لمريم .

ثم ان اليهود — لعنهم الله — أطبقت على اطلاق الذم عليه ، ثم اختلفوا في سبه ، فمنهم من قال ما تقدم . ومنهم من ذكر سبا آخر ، وهو أنهم زعموا : أنه كان يوما مع معلمه « يهوشوع » بن برخيا ، وسائر التلاميذ في سفر ، فنزلوا موضعا ، وجاءت امرأة من أهله . وجعلت تبالغ في كرامتهم . فقال « يهوشوع » : ما أحسن هذه المرأة ، يريد فعلها . فقال عيسى — بزعمهم لعنهم الله — لولا عمش في عينيها . فصاح « يهوشوع » وقال له : يا ممزار — ترجمته : يا زنيم — أترنى بالنظر ؟ وغضب عليه غضبا شديدا . وعاد الى بيت المقدس ^(٢) . وحرّم باسمه ، ولعنه ، في أربع مائة قرن . قالوا : فحينئذ لحق بزعمهم ببعض قواد الروم ، وداخله بصناعة الطب ، فقوى لذلك بزعمهم على اليهود ، وهم يومئذ في ذمة قيصر « تباريوش » وجعل يخالف حكم التوراة ، ويستدرك عليها ، ويعرض عن بعضها . الى أن كان من أمره ما كان .

ومنهم من يقول : ان ذلك انما أطلق عليه لأنه كان يوما يلاعب الصبيان في صغره بالكرة . فوقع له بين جماعة من مشايخ اليهود ، فضعف الصبيان عن استخراجها من بينهم . حياء من المشايخ ، فقوى عيسى ، وتخطى رقابهم ، وأخذها . فقالوا له : ما نظنك الا زنيما ؟ فأفضيت عليه هذه الشتيمة .

وكذلك يختلف في صنعة أبيه ، الذى تقولون أنتم فيه ، خطيب

(١) باندارا الرومى في الكتب الحديثة .

(٢) بيت المقدس : أورشليم (القدس) الآن .

أمه • فمنهم من يقول : يوسف الفجار ، وبعضهم يقول : انما هو الحداد • وكذلك تختلفون أنتم في اسم أبيه ، فبعضكم يقول : يوسف بن يعقوب ، وبعضكم يقول : يوسف بن هالي • وكذلك اختلفتم أنتم في آبائه ، وفي عدده • فمنكم من يقلل ، ومنكم من يكثر • على ما تقدم • فهذا الاختلاف الكثير والاضطراب البين الشهير • يدل على : أنكم واليهود ، في شك منه ، وأنه لم يثبت عندكم خبر متواتر عنه • وانما هي ظنون كاذبة ، وأوهام راتبة ، وسننين مداخل الشك والأوهام عليهم في قولهم بصلوبيته • ونبين أن اليهود والنصارى في قولهم بصلبه كاذبون ، وأنهم « في ريبهم يترددون »^(١) بلولا أن من الله علينا بفضلها علينا وعليكم معاشر النصارى بأن بعث الى الجميع : سيد المرسلين لبقى الجميع من أمر عيسى حياري •

فنزّه الله المسيح وأمه ، على لسان نبيه ، مما قالتها اليهود فيهما من الأقوال الموحية • ونسبوه لها من الهجاء والشتيمة • وكما شهد ببراءة المسيح وأمه ، مما نسبته اليهود اليهما • كذلك شهد ببراءتهما مما نسبتموهما أنتم اليه ، وتقولتموه عليهما •

وذلك أن منكم طائفة يقولون : ان مريم اله • وقد أطبقتم على أن المسيح اله • وابن الاله • ونبينا عليه السلام يقول مخبرا عن الله سبحانه وتعالى : « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة »^(٢) •

فاذا سمع القائل قوله فيهما علم بعقله : أن ذلك القول هو الحق • وان كان ممن طالع الزبور : علم أن دعاء داوود مستجاب ، ومقاله صدق • وذلك أن في الزبور : أن الله تعالى قال لداوود : « سيولد لك : ولد • أدعى له : أبا • ويدعى لى : ابنا »^(٣) فقال :

(١) التوبة : ٤٥

(٢) المائدة : ٧٥

(٣) البشارة لداوود عليه السلام بسليمان ابنه عليه السلام وعبرة « اللهم ابعث جاعل السنة » يشير بها المؤلف الى محمد صلى الله عليه وسلم ليعلم الناس أن عيسى بشرا وليس الها • والحقيقة أن في الزبور نبوءات كثيرة عن محمد صلى الله عليه وسلم ولكن ليس في النبوءات : أن المسيح سيظهر من نسل داوود ويتهمه النصارى بالالوهية • مع العلم بأن عيسى ليس من داوود بل هو من نسل هارون عليه السلام •• انظر كتابنا : (اعجاز القرآن) وكتابنا : (أقانيم النصارى) •

« اللهم ابعث جاعل السنة ، كي يعلم الناس أنه بشر » .

فاعتبر قول داوود حين أفزعه ذلك وراعه • كيف دعا الى الله :
أن يبعث جاعل السنة ، الذي يعلم الناس : أن ذلك الولد المدعو :
انما هو بشر •

وكذلك قال المسيح على ما حكاه انجيلكم : « اللهم ابعث البارقليط ،
ليعلم الناس : أن ابن الانسان بشر » •

« والبارقليط » (١) بالرومية : هو « محمد » بالعربية •

فلما ضللتهم ، وتفوهتهم بذلك ، وراغمتم أدلة العقول ، وكلام
الأنبياء المنقول • بعث الله جاعل السنة ، وكاشف الغمة : محمدا صلى
الله عليه وسلم ، فأعلم الناس أنه بشر ، ليس بالاه • ولا ابن اله •
فقال مبغا عن الله : « وقالت النصارى المسيح ابن الله • ذلك قولهم
بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون •
اتخذوا أبحارهم وربانهم : أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم
وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما
يشركون » (٢) وقال تعالى : « وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا • ان
كل من فى السموات والأرض الا أتى الرحمن عبدا » (٣) •

ونذكر الآن هنا : خبر « النجاشى » ليكون منبهة للعاقل ، ومردعة
للجاهل •

وذلك أن الله تعالى • لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم اتبعه
جماعة ممن نور الله قلبه ، وشرح للإسلام صدره • وذلك فى أول الأمر •
فآمنوا به ، والتزموا شرعه وأحكامه • فكان كفار قريش والمخالفون
لهم فى أديانهم يؤذونهم ويعذبونهم ، يرومون بذلك ردهم عن دينهم ،
كما قد فعل بأتباع الأنبياء قبلهم ، فلما استند عليهم الأمر • شكوا ذلك
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يهاجروا الى أرض الحبشة •
ووعدهم بأن يجعل الله من أمرهم فرجا • وأخبرهم أن بها ملكا عظيما ،
لا يظلم عنده أحد • ففعلوا • فقدموا على النجاشى واسمه « أصحمة »
وكان على صميم دين النصرانية •

(١) البيرقليط هى محمد ، والبارقليط تعنى النائب عن عيسى •

(٢) التوبة : ٣٠ ، ٣١

(٣) مريم : ٩٣ ، ٩٤

فلما قدموا عليه استقر بهم المنزل ، ووجدوه خير منزل . فأقاموا هنالك دينهم ، واعتبط النجاشي بصحبته ، وهم بجواره . فلما رأى كفار قريش ، أن قد وجدوا بأرض النجاشي أمنا ودعة ، وجهوا اثنين منهم وأصحابوهما هدايا جلييلة الى النجاشي وأقسمته . وطلبوا منه ، ومن أسأفته : أن يسلمهم لهما .

فلما قدما أرض النجاشي دفعا لأقسمته هداياهم ، وطلبوا منهم أن يعينوهما على ردهم معهما ، وإسلامهم لقومهما . ثم دفعا للنجاشي هديته . وقال له : أيها الملك . قد ضوا الى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم ، وعشائريهم ، لتردهم اليهم .

فهم أعل بهم عينا . وأعلم بما عابوا عليهم . فأسلمهم اليهم ، فغضب النجاشي . ثم قال : لا . والله لا أسلمهم اليهما أبدا . ولا يكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادى واختاروني على من سواى ، لا أسلمهم حتى أدعوه . فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم .

ثم أرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءوا وقد دعا النجاشي أسأفته فنشروا مصاحفهم حوله . فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا في دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل كافة ؟

فكلمه « جعفر بن أبى طالب » فقال : أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى الضعيف ، فكنا على هذا حتى بعث الله الينا رسولا نعرفه ، ونعرف نسبه وأمانته ، وصدقه وعفافه ، فدعانا الى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات .

وأمرنا أن نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام •

وعدد عليه أمور الاسلام • فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به عن الله • فعدى علينا قومنا • وعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان • وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث • فلما قهرونا وظلمونا • خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك • ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك •

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم • فقال : اقرأه •

فقرأ عليه جعفر صدرا من « كهيعص » فبكى — والله — النجاشي ، حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته ، حتى أخضلوا لحاهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم • ثم قال النجاشي : ان هذا ، والذي جاء به موسى ، ليخرج من مشكاة واحدة •

انطلقا • فلا والله لا أسلمهم اليكما ولا أكاد •

فلما خرجا من عنده ، وقد يؤسا من مرادهما • قال أحدهما • وهو « عمرو بن العاص » : لآتينه عنهم غدا بما يهلكهم لأجله • ثم غدا عليه من الغد • فقال : أيها الملك • • انهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما • فأرسل اليهم ليسألهم • قالوا : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى اذا سألكم ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاء به نبينا ، كائنا في ذلك ما كان •

فلما دخلوا عليه • قال لهم : ما تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب : نقول فيه : الذي جاءنا به نبينا : هو عبد الله ورسوله • وروحه وكلمته • ألقاها الى مريم العذراء البتول •

قال : فضرب النجاشي بيده الى الأرض ، فأخذ منها عودا • ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود •

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال • فقال : وان نخرتم • والله • اذهبوا • فأنتم « شيوم » ترجمته « آمنون » (١) •

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام في خبر النجاشي هذا • (١٧ - الاعلام)

فهذا قول أهل العلم من قبلكم ، العارفين بشريعتكم ، وما عدا ذلك فشجرته غناء وأوصار « اجتثت من فوق الأرض ، ما لها من قرار » (١)

وسياتى ان شاء الله تعالى : قول هرقل . اثر هذا الباب ، ان شاء الله تعالى .

كمل الجزء الثانى ، والحمد لله وحده .

(انتهى الجزء الثانى من كتاب « الاعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام واظهار محاسن دين الاسلام واثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام » ويليه الجزء الثالث باذن الله . وأوله : « انواع القسم الثانى فى اثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ») .

الأخلاق

بِمَا فِي دِينِ النَّصَارَى مِنَ الْفُسَادِ وَالْأَوْهَامِ
وَإِظْهَارِ مُحَاسِنِ دِينِ الْإِسْلَامِ
وَأَثْبَاتِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

تأليف

الأبِسام الفِطْبِي

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أحمد مجازي الشقا

الجزء الثالث

دار التراث العربي

أنواع القسم الثاني

في إثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام

نقول : ان محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الاسماعيلي رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق في كل ما أخبر به عن الله تعالى ، ولا يجوز عليه شيء من الكذب •

ونستدل على ذلك : بأدلة صادقة ، وبراهين قاطعة ، أصولها أربعة :

الأول : أنواع أخبار الأنبياء قبله ، ووصفهم له في كتبهم •

الثاني : النظر في قوانين أحواله •

الثالث : الكتاب العزيز •

الرابع : ما ظهر على يديه من خوارق العادات •

فهذه أربعة أنواع •

* * *

النوع الأول

من الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

اخبار الأنبياء به قبله

وانما قدمنا هذا النوع ، وان كان غيره أولى بالتقديم ، لكون الأنبياء الخبيرين بعلماته ، متقدمين عليه في الزمان ، ولكون هذه البشائر كانت معروفة قبل مجيئه ، ولكون المسائل الذي كتبنا هذا الكتاب جوابه ، لم يطلب منا بجهله ، الا الاستدلال بما جاء في كتب الأنبياء . وليكون هذا الباب مؤنساً له ، وباعثاً على النظر فيما بعده . ولتعلم أن الاستدلال بهذا النوع ، لا ينتفع به الا من صدق بتلك الكتب . وتواترت عنده .

ومن خلى عن شيء من ذلك ، لا ينتفع بشيء منها ، ولا يستدل بها عليه . وأما ما بعد هذا النوع ، فيستدل به على كل من أنكر نبوته من سائر الفرق . فأما هذا النوع فانما هو حجة على اليهود والنصارى . لادعائهم : أن تلك الكتب تواترت عندهم .

وهذا النوع عندنا على التحقيق : انما هو داخل في باب الالزامات لهم . ليظهر عنادهم وافحامهم . ثم لتعلم أنا انما نذكر أخبار الأنبياء المبشرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم من كتبهم التي بأيديهم ، وعلى ما ترجمها مترجموهم من غير زيادة ولا نقصان .

فمن ذلك : ما جاء في التوراة : أن الله قال لموسى بن عمران : « انى أقيم لبني اسرائيل من اخوتهم نبى مثلك . أجعل كلامى على فيه . فمن عصاه انتقمتم منه » (١) .

فان قلت : ان ذلك انما هو « يشوع بن نون » (٢) قلنا : لا .

(١) الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية . الآية الخامسة عشر يوماً بعدها .

(٢) اليهود الى اليوم يقولون : هذا النبى لم يأت الى الآن واذا أتى مسيكون منهم . والنصارى يقولون : هو عيسى . والحق : أنه محمد صلى الله عليه وسلم لأن لاسماعيل بركة .

فقد قال في آخر التوراة : « لا يخلف من بنى اسرائيل نبي مثل موسى » (١) فلا محالة أن ذلك الذي بشرت به التوراة لا يكون من بنى اسرائيل • لكن من اخوة بنى اسرائيل • فلننظر • من هم اخوة بنى اسرائيل ؟ فلا محالة : أنهم العرب • أو الروم (٢) •

فأما الروم فلم يكن منهم نبي سوى أيوب ، وكان قبل موسى بزمان ، فلا يجوز أن يكون هو الذي بشرت به التوراة ، فلم يبق الا العرب • فهو اذن : محمد عليه السلام • وقد قال في التوراة حين ذكر اسماعيل جد العرب : « انه يضع فسطاطه ، في وسط بلاد اخوته » (٣) فكنى عن بنى اسرائيل : باخوة اسماعيل ، كما كنى عن العرب باخوة بنى اسرائيل ، في قوله : « اني أقيم لبنى اسرائيل من اخوتهم نبي مثلك » ويدل على ذلك أيضا قوله : « أجعل كلامي على فيه » فان هذا تصريح بالقرآن • اذ هو كلام الله الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتلقيناه من فلق فيه • ويدل أيضا على ذلك قوله : « من عصاه انتقمتم منه » (٤) اذ قد فعل الله ذلك بصناديد قريش ، وعظماء ملوك الروم وغيرهم ، فهم بين أسير وقتيل ، ومعطى الجزية على وجه الصغار ، والذلة « ولعذاب الآخرة أشق » (٥) •

ومن ذلك • ما جاء فيها أنه قال : « وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بنى اسرائيل قبل موته • فقال : « جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران • ومعه جماعة من الصالحين » (٦) •

(١) تثنية ٣٤ : ١٠

(٢) يشير بالروم الى سكان الأردن وهم نسل عيسو بن اسحاق عليه السلام • (٣) تكوين ١٦ : ١٢

(٤) ترجمتها الحالية : « ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب » (أعمال ٣ : ٢٣) وفي التوراة : « ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه » (تثنية ١٨ : ١٩)

(٦) تثنية ٣٣ : ١ - ٣

(٥) الرعد : ٣٤

فمجيئه من جبل سيناء : أن الله أنزل فيه التوراة ، وكلم عليه موسى • واشراقه من جبل ساعير : أن دين المسيح انما أشرق من جبال ساعير ، وهى جبال الروم من أدوم^(١) • واستعلانه من جبال فاران : أن الله تعالى بعث منها محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأوحى اليه فيها •

ولا اختلاف : أن فاران : « مكة » وقد قال فى التوراة : « ان الله أسكن هاجر وابنها اسماعيل فاران »^(٢) •

وفى بعض التراجم : « أقبل السيد من سيناء ، ومن شعير تراءى لنا ، وأقبل من جبال فاران ومعه آلاف من الصالحين ، ومعه كتاب فارى ، وهو ختم الأجناس • وجميع الصالحين فى قبضته ، ومن تدانى من قدميه يصب من علمه » •

ففكر على انصاف وتثبت • من الجائى المقبل من جبال فاران • مع الآلاف من الصالحين ؟ ومن جاء بالكتاب الذى ما منه سورة الا وفيها الوعيد على المخالف بالنار وعذابها وأنكالها وأغلالها ؟^(٣) •

ومن ذلك • ما جاء فيها أيضا • أن الله قال لابراهيم : « قد استجبنتك فى اسماعيل • وباركته • وكثرته • وأنميته ، جدا جدا ، يولد له اثنا عشر عظيما ، وأجعل له لشعب عظيم » ولا يشك فى أن الشعب العظيم هو محمد عليه السلام وأمته • اذ لم يكن فى ولد اسماعيل أعظم منهم •

وقد تفتن بعض النبهاء ، ممن نشأ على لسان اليهود ، وقرأ بعض كتبهم • فقال : فى التوراة موضعان^(٤) يخرج منهما اسم محمد • بالعدد على ما تستعمله اليهود فيما بينهم •

ثم ذكر ما قدمته من قول الله لابراهيم : « قد استجبنتك فى اسماعيل » •

(١) أدوم هو عيسو وجبل ساعير أيضا يجاور القدس (يشوع ١٥)

(٢) تكوين ٢١ : ٢١

(٣) تشير النبوة الى عذاب المسلمين للذين لا يسلمون من اليهود •

(٤) الأول : بماد ماد (جدا جدا) والثانى : لجوى جدول (شعب عظيم) •

فأما قوله « جدا جدا » فهو بتلك اللغة « بمأد ماد » وعدد هذه الحروف : اثنان وتسعون • وذلك أن الباء عندهم : اثنان • والميم : أربعون • والألف : واحد • والdal : أربعة • والميم الثانية : أربعون • والألف : واحد • والdal : أربعة • وكذلك الميم من محمد : أربعون • والحاء : ثمانية • والميم : أربعون • والdal : أربعة •

وأما قوله « لشعب عظيم » فهو بتلك اللغة « لغوى غدول » فاللام عندهم : ثلاثون ، والغين : ثلاثة • وهى عندهم مقام : الجيم ، اذ ليس فى لغتهم : جيم ، ولا ضاد • والواو : ستة • والياء : عشرة • والغين أيضا : ثلاثة • والdal : أربعة • والواو : ستة • واللام : ثلاثون • فمجموع هذه أيضا : اثنان وتسعون •

وهذا من رشيقي الفهم ، وملح البحث ، وغرائب العلم •

وفى التوراة أيضا : أن ملاك الرب قال لهاجر : « ستلدين ابنا ، وتدعين اسمه اسماعيل ، يده على كل • ويد كل به • وسيحل على جميع حدود اخوته » (١) •

ولا محالة أن اسماعيل ، وولده لم تكن أيديهم الا تحت يد « اسحق » لأن النبوة والملك انما كانا فى ولد اسحق ، فلما بعث الله تعالى محمدا ، جعل يد بنى اسماعيل فوق أيدي الجميع ، ورد النبوة والملك فيهم • وأنماهم • وعظمهم ، وبارك عليهم جدا •

ومن ذلك ما جاء فى الزبور الذى بأيديكم أنه قال : « سبحوا الرب تسبيحا ، حديثا • سبحوا الذى هيكله الصالحون ، ليفرح اسرائيل بخالقه ، وبنو صهيون • من أجل أن الله اصطفى لهم أمة ، وأعطاهم النصر ، وسدد الصالحين منهم بالكرامة • يسبحون الله على مضاجعهم ويكبرونه بأصوات مرتفعة • بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، لينتقم الله بهم من الأمم • الذين لا يعبدونه ، يوثقون ملوكهم بالقيود وأشرفهم بالأغلال » (٢) •

(١) تكوين ١٦ : ١١ - ١٢

(٢) الزمور المئة والتاسع والأربعون • وهو مثل الأمة الاسلامية فى التوراة الذى تشير اليه سورة الفتح • ومثل الأمة الاسلامية فى الانجيل مذكور فى الاصحاح الرابع من مرقس •

أخبرونا • يا هؤلاء الجاحدون للحق ، المعرضون عن أخبار الصديق :
من هذه الأمة التي سيوفها : سيوف ذوات شفرتين ، ينتقم الله بهم
من الأمم الذين لا يعبدونه ؟ ومن المبعوث بالسيف من الأنبياء ؟ ومن
الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في الأذان ؟ هذه أوصاف محمد
صلى الله عليه وسلم • وأوصاف أمته ، بلا ريب ، ولا رجم غيب •

وفي الزبور أيضا : ذكر صفة محمد صلى الله عليه وسلم فقال :
« ويجوز من البحر ، الى البحر ، ومن منقطع الأنهار • الى منقطع
الأنهار • وأنه يخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم • ويلحس
أعداؤه بالتراب • وتأتيه ملوك بالقرايين وتسجد له وتدين له الأمم
بالطاعة والانقياد • لأنه يخلص المضطهد البائس من الأقوى منه ،
وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرأف بالضعفاء والمساكين • وأنه
يعطي من ذهب بلاد سبأ ، ويصلى عليه في كل وقت • ويدوم أمره الى
آخر الدهر » (١) •

تأمل أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم فهي على ما ذكر • ما غادر
لها واحدا • ولم تجتمع هذه الصفات والعلامات لأحد قبله ، بل على
ما هو معروف من أحوال الأنبياء المتقدمين ، عند العلماء المنصفين
غير الجاهلين المتعصبين •

وفي الزبور أيضا : أن الله تعالى « أظهر من صهيون اكليلا
محمودا » (٢) •

فالاكليلا : ضرب مثل لرياسته ، ومحمود : هو محمد صلى الله
عليه وسلم • وقد بلغ دينه صهيون وغيره •

وفيه أيضا : « تقلد أيها الجبار سيفك ، فان ناموسك ، وشريعتك
مقرونة بيمينك ، وسهامك مسنونة ، والأمم يخرون تحتك » (٣) •

تأمل • من الجبار الآتى بشرائع يظهرها بالسيف والسهام ؟ فانك
إذا تأملت ذلك لم تجد على هذه الصفات أحدا من عهد داوود الا

(١) الزمور الثاني والسبعون •

(٢) بالمعنى في الزمور ١٣٢ : ١٨ والزمور ١٣٣

(٣) الزمور الخامس والأربعون •

النبي محمد عليه الصلاة والسلام • فهو المبشر به ، لا محالة •

وقد تقدم قول داوود : « اللهم ابعث جاعل السنة ، كي يعلم الناس أنه بشر » (١) •

فليُنظر هنالك • فإنه نص على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم •
فإنه جاعل السنة ، وهو أخبر بأن المسيح : بشر • وليس باله •

وفي الزبور (٢) ترجمة « وهب بن منبه » يقول الله تعالى لداوود عليه السلام في الزمور الخامس : « اسمع ما أقول • ومهر سليمان • فليقله للناس من بعدك : ان الأرض لى أورثها محمدا • وأمه • فهم خلافكم لم تكن صلاتهم بالطنابير ، ولا قدسونى بالأوتار • »

وهذا تصريح باسمه ، وتأبيد شريعته ، وبصفات أمته • وزبور « وهب بن منبه » هذا الذى نقلت منه ، أصح ما يوجد من كتاب الزبور • فإنه أوثق وأعلم من كل ترجمة فى سالف الدهور • ولكن النصارى مع ذلك يكذبون اذ هم جاهلون ومعاقدون •

ومن ذلك • **ما جاء فى الانجيل الذى بأيديكم :** أن المسيح قال : « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى • وسأرغب الى الآب • فى أن يبعث اليكم البرقليط • ليكون معكم الى الأبد • روح الحق الذى لا تقبله الدنيا ، لأنها لا تراه • ولا تعرفه • وأنتم تعرفونه لأنه نازل عليكم ، وعندكم لابت ، ولست أدعكم أيتاما » (٣) •

وفيه أيضا عن يوحنا : أن المسيح قال : « سينفعكم ذهابى • لأننى ان لم أذهب لم يأتكم البرقليط وان ذهبت سأبعثه اليكم • واذا قدم سيعرف الدنيا بالمأثم والعدل والحكم • فأما المأثم فتركهم الايمان بى • وأما العدل فذهابى الى الآب ، ولا ترونى بعدها • وأما الذى يحكم بى فيها • فإنه يحكم على صاحب الدنيا ، ويقهر •

(١) سبق الحديث •

(٢) بالمعنى ، وهو واضح فى الزمور السابع والثلاثين •

(٣) يوحنا ١٤ : ١٥ - ١٨

وقد بقيت لى أشياء كثيرة ، أعلمكم بها ، الا أنكم لا تعملونها
الآن . فاذا قدم الروح الصادق فهو يعرفكم بالصواب ، وليس يعلمكم
من ذاته ، الا بما يسمع ، وسيعلمكم بما يكون ، وسيعظمنى . لأنه
يصيب منى ويعلمكم » (١) .

وفيه أيضا . أن المسيح قال للحواريين : « الذى ييغضنى ييغض
أبى . فلو لم أطلع عندهم من العجائب ما لم يطلع غيرى لم يكن قبلهم
ذنب . ولكنهم الآن قد عابوا وكرهونى . ليتم ما كتب فى كتبهم ، حيث
قال انهم كرهونى بلا ذنب . فاذا أقبل البرقليط ، الذى أبعث اليكم من
عند الآب ، الروح الصادق المنبثق من الآب ، هو يؤدى الشهادة عنى ،
وأنتم تستشهدون لأنكم كنتم معى من أول الأمر . وانما أقول لكم
هذا ، لئلا يواقعكم التشكيك » (٢) .

فالبرقليط (٣) بالرومية : المنحما بالسريانية ، وهو : محمد بالعربية .
فتأمل هذه البشائر التى لا ينكرها الا معاند مجاهر . فقد
أخبر به المسيح : بالعين والاسم والأفعال « فماذا بعد الحق الا
الضلال » (٤) ؟ .

وفيه أيضا . أنه قال لليهود : « وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا .
لم نساعدكم على قتل الأنبياء . . فأتوموا كيل آبائكم ، يا شعابين بنى
الافاعى ، كيف لكم والنجاة من عذاب النار ؟ وسأبعث اليكم أنبياء
وعلماء وستقتلون منهم وتصلبون وتجلدونهم فى جماعتكم ، وتطلبونهم
من مدينة الى أخرى لتتكامل عليكم دماء المؤمنين المهرقة على الأرض
من دم هابيل الصالح . الى دم زكريا بن برخيا ، الذى قتلتموه بين
المذبح والهيكل آمين . آمين . أقول : انه سيأتى جميع ما وصفت
على هذه الأمة . يرشالم . يرشالم . التى تقتل الأنبياء ، وترجم من
بعث اليها . قد أردت أن أجمع بنيك ، جمع الدجاجة فراريها تحت
جناحيها . وكرهت أنت ذلك .

(١) يوحنا ١٦ : ٧ - ١٤

(٢) يوحنا ١٥ : ٢٣ - ٢٧ و ١٦ : ١

(٣) البرقليط - بكسر الباء - : اسم محمد - ويفتح الباء - : القاطب

عن المسيح ، ومعنى الرومية : اللغة اليونانية . (٤) يونس : ٣٢

سأقفر عليكم بيتكم • وأنا أقول لكم : لا ترونى الآن ، حتى يأتى
من تقولون له : مبارك الآتى على اسم الله» (١) •

تأمل بشارته بالنبي محمد عليه السلام ، وتوعده لهم بالانتقام
منهم على يديه •

فاذا تأملت هذا على جهة الانصاف ، لاح الحق لك • والا فمن
« كان فى هذه أعمى ، فهو فى الآخرة أعمى ، وأضل سبيلا » (٢) •

وقوله « سأبعث » فى الموضعين : تحريف • بدليل قوله فيما تقدم :
« سأرغب الى الآب فى أن يبعث اليكم البرقلىط » فقد صرح هنا :
بأن الباعث له : هو الله • لا هو • وهو الحق ، اذ قد تبين : أن المسيح
لا يفعل شيئا من ذاته ، وانما يفعل ما يريد الله تعالى ، وقد تقدم
قوله « لست أنفذ ارادتي • وانما أنفذ ارادة الرب » •

وفيه أيضا • أن المسيح قال : « ان التوراة وكتب الأنبياء يتلو
بعضها بعضا بالنبوة والوحى حتى جاء يحيى • وأما الآن • فان سئتم
فاقبلوا • فان ايل مزعم أن يأتى • فمن كانت له أذنان سامعتان ،
فليسمع » (٣) •

ايل (٤) : هو الله تعالى • ومجيئه هو : مجيء رسوله بكتابه
وأمره ، كما قال فى التوراة « جاء الله من سيناء » وما أشبه ذلك •

فان قلت : قوله « فان ايل مزعم أن يأتى » وقوله « حتى يأتى

(١) آخر الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى •

(٢) الاسراء : ٧٢ (٣) متى ١١ : ١٤ - ١٥

(٤) ظن المؤلف - ولا شك أنه ينقل عن غيره - أن عبارة الانجيل
« ايل » ، وتفسيرها الله مثل جبرائيل أى رجل الله ، واسرائيل ، أى المجاهد
مع الله ولكن الصحيح : أن الكلمة : ايلياء ويشير بايلياء الى محمد صلى الله
عليه وسلم بحساب الجمل فان ملاخى فى الاصحاح الأخير من سفره يقول على
لسان الله تعالى : « ما أنذا أرسل اليكم ايلياء النبى قبل مجيء يوم الرب »
وعيسى عليه السلام ينطق اسم محمد كما نطقه ملاخى • وايلياء بحساب
الجمل يساوى اسم أحمد فالآلف بواحد والياء بعشرة واللام بثلاثين والياء
بعشرة والآلف بواحد والهمزة بواحد فالجمع ثلاث وخمسون والآلف من
أحمد بواحد والحاء بثمانية والميم بأربعين والدال بأربعة •

من تقولون له : مبارك (١) الآتى » انما أراد من كان بعده من الأنبياء .
مثل : بارنابا ، وشمعون (٢) ، وليوقيوخس • ومناين • هؤلاء أنبياء
« أنطاكية » (٣) ومن « بيت المقدس » أغفانوس • ومن « فلسطين »
جرجيس •

فالجواب : أنه لا يصح لكم أن تعترفوا بنبوة واحد من هؤلاء ،
بل ينبغى لكم أن تكفروا بهم لأنكم ترون : أنه لا نبى بعد المسيح ،
وتسندون ذلك الى كتبكم • فاما أن تكذبوا بقولكم لا نبى بعد المسيح
أو تتكروا نبوة من ذكرتم •
ثم لو سلمنا أنهم أنبياء • فليسوا المرادين بما ذكر ، لأنهم لم
يأتوا بكتب من الله • ولا بأوامر آخر •

وغايتهم : أن يحكموا بكتب الأنبياء قبلهم •
واتيان الله فيما ذكر : انما هو عبارة عن اتيان « نبى » من
أنبيائه بكلامه ، وكتابه ، كما قال « جاء الله من سيناء ، وأشرق من
ساعير ، واستعلن من جبال فاران » وهذا واضح للمنصف (٤) •

وقد زعم بعض المعاندين الجاهلين ممن ينتمى الى دينكم : أن
المبشر به فى ذينك الموضعين (٥) : انما المراد به رجوع بعض ما مضى
من الرسل ، وعودهم الى الأرض ، والى الناس (٦) • وهذا قول باطله
صدر عن معاند جاهل اذ لم يثبت شئ من ذلك على لسان نبى فاضل ،
الا ما صح (٧) على لسان نبينا من رجوع عيسى ابن مريم صلوات الله

(١) يشير بالمبارك الى محمد صلى الله عليه وسلم كما عبر داوود فى
المزمور المئة والثامن عشر • (٢) شمعون : بطرس •

(٣) الاصحاح الثالث عشر من سفر أعمال الرسل •
(٤) لم يفظن المؤلف الى أن من عادة اليهود والنصارى تلقيب العلماء
بلقب الأنبياء وتلاميذ العلماء بلقب بنى الأنبياء وقد بينا هذا فى كتابنا :
(أقانيم النصارى) وتحقيقنا : لمنظومة الامام ابو بصيرى فى الرد على
النصارى واليهود •

(٥) يشير الى : المبارك الآتى والى ايلياء •
(٦) يقولون فى المبارك انه المسيح عيسى فى مجيئه الثانى ويقولون
فى ايلياء هو يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) جاء الى الدنيا بروح وقوة
الياس عليه السلام •
(٧) لم تصح لأنها أخبار آحاد (انظر كتاب الفتاوى للشيخ شلقوت) •

عليهم وسلامه اذ أخرج « الدجال » وقتله له • وفي انجيلكم اشارة الى هذا • وهذا عندنا مبنى على أن الله تعالى رفع المسيح اليه ، ولم يقتل • ولا مات (١) « بل رفعه الله اليه » (٢) على ما يأتى عند ذكر الصلوبيّة • وانما يموت اذا قتل الدجال عند باب « لد » وبعد أن يهلك الله « يأجوج ومأجوج » على يديه •

وفي الانجيل أيضا • أنه ضرب مثلا للدنيا (٣) فقال : « مثل الدنيا كمثل رجل اغترس كرما ، وسبخ حوله ، وجعل فيه معصرة ، وشيد فيه قصرا ، ووكل به أعوانا ، وتغرب عنه • فلما دنا أوان قطافه ، بعث عبده الى أعوانه ، الموكلين بالكرم » •

فضرب المسيح عليه السلام مثلا للأنبياء ، ثم لنفسه ، ثم قال : « سيزاح عنكم ملك الله ، وتعطاه الأمة المطيعة » •

فتأمله • ثم ذكر في المثل : « صخرة » وقال : « من سقط على هذه الصخرة سينكسر • ومن سقطت عليه يتهشم » (٤) يريد بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم • من ناوأه وحاربه أظهره الله عليه • وكذلك ، قد أزاح الله ملككم • وأزاله عنكم ، وأعطاه أمة محمد ، حيث افتتحوا عليكم بلاد الشام ، وبلاد الغرب ، وردوكم في أكثر الأرض ، أهل ذلة ، وصغار ، وأخذوا منكم الجزية بعد القتل الذريع ، والاسترقاق الشديد ، بعد أن كان ملككم راسخا ، وجبله شامخا • فهد الله بنييه قواعده ، ولينفذ به الله مواعده ، وأعظم شاهد على أن الله أزاح ملككم عنكم كما قال المسيح : ان الله تعالى أعطانا بيت المقدس ، وأظهرنا عليه • وان كرهتم • والحج اليه عندكم من أعظم شرائعكم ، وشرائع اليهود ، ثم الواحد منكم لا يصل اليه ، حتى يلحقه من الذلة والصغار ، ما لا يخفى عليكم « والله مقيم نوره ، ولو كره الكافرون » (٥)

(١) لم يقتل عيسى وانما مات ورفع بروحه درجة لا رفعة جسد •

(٢) النساء : ١٥٨

(٣) هو مثل للناس على الأرض وارسل الله الرسل للهداية ويشير بالامة المطيعة الى أمة الاسلام •

(٤) هذا المثل يسمى « مثل الكرامين الأرياء » وهو في الاصحاح الحادى

(٥) الصف : ٨

والعشرين من متى •

وفي صحف أشعيا النبي الذي بأيديكم . قال : « ستمتلىء البادية والقصور التى سكنها قي دار ، يسبحون ، ومن رؤوس الجبال ينادون . هم الذين يجعلون لله الكرامة ، وييثون تسبيحه فى البر والبحر » (١) .

وفي صحف حزقيال النبي عن الله يقول : « انى مؤيد قي دار بالملائكة » (٢) .

وقي دار : ولد اسماعيل ، بلا شك . فانظر أى بادية هذه البادية التى انتقلت من قصور الى قي دار ؟ والذين ينادون بالأذان والتلبية من رؤوس الجبال ، ويجعلون لله الكرامة بالصلاة والحج والصوم والزكاة وغير ذلك ؟ وقد ثبت أن الملائكة قاتلت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى مواطن على ما يأتى ان شاء الله تعالى .

وقال أشعيا النبي عن الله : « عبدى الذى سرت به نفسى ، أنزل عليه وحى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، يوصى الأمم بالوصايا . لا يضحك ، ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور ، ويسمع الآذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطيه غيره . أحمد يحمد الله حمدا كثيرا . يأتى من أقصى الأرض ، تفرح البرية . وسكانها يهللون الله على كل شرف ، ويكبرونه على كل رابية . لا يضعف ، ولا يغلب ، ولا يميل الى الهوى . ولا يسمع فى الأسواق صوته ، ولا يذل الصالحين ، الذين هم كالعصبة الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ، وهو ركن للمتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفىء ولا يخاصم ، حتى تثبت فى الأرض حجتى ، وينقطع العذر به ، والى ثوراته ينقاد الحق » (٣) .

فاعتبر هذا التصريح باسم محمد وصفاته . وان هذه العلامات المذكورات على لسان هذا النبي لا يصح بحال أن توجد لغيره ، ولم يكن الاله .

فان قلت : هو المسيح . قيل لك : تفهم لفظ الكلام ومساقه ، وحينئذ تحكم بأنه « محمد » قطعا . وذلك أنه قال فيه « يوصى الأمم »

(٢) حزقيال ٢٧ : ٢١

(١) أشعيا ٤٢ : ١١ - ١٣

(٣) أشعيا : الاصحاح الثانى والأربعون - والترجمة مختلفة كثيرا .

(١٨ - الاعلام)

وهذا التصريح ببعثه للناس كافة • وعيسى إنما بعث للأجناس من بنى إسرائيل خاصة بدليل قوله في الانجيل : « انى لم أبعث الى الأجناس • وانما بعثت الى الغنم الرابضة من نسل إسرائيل » (١) •

وكذلك قال للحواريين : « لا تسلكوا فى سبيل الأجناس • ولكن اختصروا بالضرورة الى الغنم الرابضة من بنى إسرائيل » (٢) •

ثم قال « أحمد يحمد الله » وهذا تصريح باسمه ، فان أسمائه كثيرة منها : محمد • وأحمد • ثم قال : « يهللون الله على كل شرف • ويكبرونه على كل رابية » وهذا اخبار بأذانهم وتبليتهم • وليس هذا لأحد غيره • ثم قال « لا يضعف ولا يغلب » وأنتم ترعمون أن المسيح غلب على نفسه ، وحمل على خشبة ، وسمرت يداها فيها ، وقتل عليها ، بعد صفع وإهانة عظيمة • ولا درجة فى الغلبة والضعف والذلة تزيد على هذا •

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد فتح الله عليه فتحا ، مبينا ، ونصره نصرا ، وأظهره على كل عدو معاند • حتى أعلى الله دينه ، وأفشى توحيده ، وعصمه من كل الشرور ، ووقاه كل مخوف • وكل محذور • ومن أدل ما فى كلامه : أن نبينا محمدا هو المراد والمبشر به قوله « لا يخاصم ، حتى تثبت فى الأرض حجتى » فان هذا تصريح بالقرآن الذى جاء به • اذ قد عجز عن الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله جميع البشر • وان كان فيهم اللد الفصحاء ، والمهرة الحكماء • فثبتت فى الأرض حجة الله • وعلم أنه من عند الله • وسيأتى بيان هذا المعنى ان شاء الله عز وجل •

وفى صحف حبقوق النبى التى بأيديكم • قال : « جاء الله من التيمن ، والقدوس من جبل فاران وامتلات الأرض من تحميد أحمد • وتقديسه ، وملا الأرض بهيبته » •

وقال أيضا : « تضى لنوره الأرض ، وستنزع فى قسيك اغراقا • وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء » (٣) •

(١) متى ١٥ : ٢٤ وهذا فى بدء دعوته وفى نهايتها قال : انطلقوا الى الامم (متى ٢٨ : ١٩) انظر أيضا سيرة ابن هشام • (٢) متى ١٠ : ٥ - ٦
(٣) هذا النص باختلاف فى الترجمة يسير فى الاصحاح الثالث من سفر حبقوق •

فيا معشر العقلاء • انظروا عناد هؤلاء الجاحدين ، وانكار هؤلاء
المباهتين ، وتوافق هؤلاء الجاهلين • كيف خالفوا هذه النصوص
القاطعة ، والبشارات الصادقة ، محكمين في ذلك أهوائهم • وهم
«يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» (١) •

وفي صحف أشعياء النبي قال : « قيل لى : قم ناظرا • فانظر •
غما ترى ، تخبر به • قلت : أرى راكبين مقبلين ، أحدهما : على حمار •
والآخر : على جمل • يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل • وأصنامها
النخرة » (٢) •

فصاحب الجمل هو : محمد صلى الله عليه وسلم • وصاحب
الحمار ، باتفاق منا ومنكم ، هو : المسيح وليس محمد بركوب الجمل
أشهر من عيسى بركوب الحمار • وإنما سقطت عبادة الأصنام ببابل
من دون الله وهدت أوثانها بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ،
لا بعيسى ولا بغيره • فما زالت ملوك بابل يعبدون الأوثان من كون ابراهيم
إلى زمان النبي صلى الله عليه وسلم وأمته (٣) •

وفي صحفه أيضا : « لتفرح أرض البادية العطشى ، ولتبتهج
البرارى والفلات لأنها ستعطى بأحمد ، محاسن لبنان ، كمثل بحسن
الدساكير والرياض » (٤) •

هذا ينص على اسمه ووصفه وبلده بحيث لا ينكره الا وقاح
مجاهر بالباطل الصراح •

وفي صحف أشعياء النبي : « أتت أيام الافتقاد • أتت أيام

(١) الأنعام : ٢٠

(٢) الأصحاح الحادى والعشرين من سفر أشعياء •

(٣) توجد مشابهة بين كتاب الاعلام للقرطبى وكتاب مقامع هامات
الصلبان ومراتع روضات الايمان للخزرجى القرطبى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ مجزئة
في كثير من النصوص خاصة في هذا الموضع • وكذلك توجد المشابهة في
منظومة الامام ابوصيرى في الرد على النصارى واليهود وكذلك في هداية
الحيارى لابن قيم الجوزية •

(٤) الأصحاح الخامس والثلاثين من سفر أشعياء •

الكمال» (١) ثم قال : « لتعلموا يا بني اسرائيل الجاهلين • أن الذى تسمونه ضالا ، هو صاحب النبوة • تفترون ذلك على كثرة ذنوبكم ، وعظم فجوركم » •

وفي الصحف المنسوبة للاثني عشر نبيا (٢) : « أن الله سيتجلى من القبلية ، وتظهر كلمة القدس من جبال فاران ، ظهورا أبديا • ويحمد الله على ذلك فى السموات والأرض ، وكلمة أحمد تملأ الأرض » •

وفي صحف حزقيال النبى التى بأيديكم يقول عن الله بعد ما ذكر معاصى بنى اسرائيل • وشبههم بكرمة غذاها • وقال : « لم تلبث تلك الكرمة أن قلعت بالسخطة ، ورمى بها على الأرض ، وأحرقت السمائم حرها • فعند ذلك غرس غرس فى البدو ، وفى الأرض المهملية ، العطشى ، وخرجت من أغصانها الفاضلة نار أكلت تلك • حتى لم يوجد فيها غصن قوى ، ولا قضيب » (٣) •

اعتبر أيها العاقل • هذا المثل على جهة الانصاف بجانبك الخطأ والزلل • فان الكرمة مثل لدين المسيح (٤) ورسالته • وذلك أن مقامه كان فى قومه زمانا يسيرا ورفع الله عن أتباع يسيرين • أحد عشر على ما زعموا ، ثم أتباعهم على شرعهم المستقيم يسيرون •

ثم بعد ذلك بنحو الأربعين سنة اعتراهم التبديل الكثير ، والتغيير العظيم ، حتى أحرقت ديار الكفر تلك الكرمة • فلما لم يبق منهم الا بقايا قليل عددهم ، وخفى موضعهم بعث الله نبيه فى أرض البدو التى هى أرض اسماعيل ومنشأه ، ووصفه لها بالعطشى تصريح بوصفها ، فأنها صحراء ، وكونها مهملة انما هو من النبوة • فانه لم يكن بها نبي من عهد اسماعيل الى عهد محمد صلى الله عليه وسلم • ثم انه شبه ما نصر به النبى عليه السلام من الحرب والرعب بالنار • التى تأتى على كل شىء • فكذلك دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أظهره الله بالحجة والسيوف على الدين كله • ولو كره المشركون •

(١) الاصحاح الثانى والأربعين من أشعياء من الآية التاسعة •

(٢) الفصل من الاصحاح الثالث من سفر حبقوق بالمعنى •

(٣) حزقيال الاصحاح التاسع عشر •

(٤) مثل لبني اسرائيل على الأرض •

وقد قدمت أن في صحف دانيال النبي ، وقد نعت الكذابين وقال :
« لا تمتد دعوتهم ولا يتم قربانهم ، وأقسم الرب بمساعدته ألا يظهر
الباطل ، ولا يقوم لدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة » (١) .

وهذا دين الاسلام الذى جاء به محمد عليه السلام له : ست مائة
سنة ، ونيف من الأعوام ، وهو باق الى آخر الأيام ، والحمد لله على
ما أولى من الفضل والانعام .

وقال دانيال النبي . وقد سأنه الملك نبوخذناصر (٢) عن رؤيا
رآها ، وطلب أن يخبر بها ، ثم بتفسيرها . فقال : « أيها الملك رأيت
صنما بارع الجمال ، أعلاه من ذهب ، ووسطه من فضة ، وأسفله من
نحاس . وساقاه من حديد ، ورجلاه من فخار . فبينما أنت تنظر اليه ،
وقد أعجبك اذ دقه الله بحجر من السماء ، فضرب رأس الصنم ،
فطحنه حتى اختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديدته وفخاره .

ثم ان الحجر : ربا . وعظم . حتى ملأ الأرض كلها . قال له
نبوخذ ناصر : صدقت فأخبرنى بتأويلها .

قال دانيال : أما الصنم . فأمم مختلفة في أول الزمان ، وفي
وسطه ، وفي آخره . فالرأس من الذهب : أنت . والفضة : ابنك من
بعدك . والنحاس : الروم . والحديد : الفرس . والفخار : أمتان
ضعيفتان تملكهما امرأتان باليمن والشام . والحجر : هو دين نبى ،
وملك أبدي في آخر الزمان ، يغلب الأمم كلها ، ثم يعظم حتى يملأ
الأرض كلها ، كما ملأها ذلك الحجر » (٣) .

قلت . ولا يصح لك يا أيها المخدوع أن تدعى : أنه المسيح ،
فانه لم يغلب الأمم كلها بل غلب بزعمكم ، فانه استضعف فأهين ،
وصلب ، ولم يبعث الى الأمم كلها عامة ، بل الى قوم بأعيانهم خاصة .
وانما محمد الذى غلب كل الأمم العرب منها والعجم على اختلاف
أصنافها ، وشتى ضروبها وأوصافها ، فجعل الكل جنسا واحدا ،

(١) انظر المزمور المئة والتاسع .

(٢) في المخطوطة : بخت نصر .

(٣) الاصحاح الثانى من سفر دانيال .

وألزمهم ديناً واحداً ، وصيرهم أمة واحدة وجعلهم على اختلاف لغاتهم يتكلمون بلغة واحدة ، أعنى اذا قرأوا القرآن • اذ لا يمكن أن ينتقل عن لسان العرب الى لسان غيرهم • فان ترجم بلسان آخر فليس ذلك هو القرآن • وانما هو تفسير القرآن •

يا أيها الجاهل ، الناكث عن الحق العادل • قد كنت ذكرت في كلامك : أن المسلم ان أقام شاهداً من كتب الأنبياء أن فيها محمداً منتظراً • فدينه حق ، ودين النصارى باطل • وقد أقمنا والحمد لله : الشواهد من كتب الأنبياء الأوائل على الذى طلبت ، على نحو ما رسمت • بل هذه الشواهد فى دلالتها على نبوة محمد أوضح وأقص مما استدلت أنت بها على نبوة المسيح •

وقد وكلت العاقل النصف للنظر فى أى الدلالات أبين وأوضح • أداللتنا ، أم دلالتكم ؟ وعند الوصول الى هذا القدر ، والوقوف على تلك الشواهد الغر • تتبين أن دين النصارى واليهود باطل وأنهم اما معاند واما جاهل •

ولقد جاء فى كتاب أشعياء النبى من نعوته وأوصافه ، وذكر مكة بلده ، وحج الناس اليها ما لا يبقى معه ريب ولا اشكال •

فمن ذلك • قال حاكيا عن الله تعالى : « سأبعث قوماً فيأتون من المشرق أفواجا ، كالصعيد كثرة ، ومثل الطيآن الذى يدوس برجليه » (١) •

ومن ذلك أنه قال : « أبشرى واهترى يا أيتها العاقر التى لم تلد • وانطقى بالتسبيح ، وافرحى أن لم تحبل • فان أهلك سيكونون أكثر من أهلى » (٢) •

هذه من الله مخاطبة لمكة ، على ما يقتضيه مساق كلامه • ثم شبهها بالعاقر من النساء ، التى لم تلد من حيث أن مكة لم يبعث منها نبى من بعد اسماعيل الا محمداً صلى الله عليه وسلم • ولا يجوز أن

(١) الاصحاح الحادى والأربعون من أشعياء •

(٢) الاصحاح الرابع والخمسون من سفر أشعياء •

يكون العاقر بيت المقدس • لأنها كانت مقر الأنبياء • وقوله « فان أهلك سيكونون أكثر من أهلي » يعنى بأهله بيت المقدس •

وفي نفس النص : أنه قال حاكيا عن الله : « قد أقسمت بنفسى كقسمى أيام الطوفان أن أغرق الأرض بالطوفان • كذلك أقسمت ألا أسخط عليك ، ولا أرفضك • فان الجبال تزول ، والقلاع تنحط ، ورحمتى عليك لا تزول » •

ثم قال فى النص نفسه : « يا مسكينة يا مضطهدة • ها أنذا بان بانجس حجارتك ، ومزينك بالجواهر ، ومكلل بالؤلؤ سقفك • وبالزبرجد أبوابك • وتبعدين من الظلم فلا تخافى ، ومن الضعف فلا تضعفى • وكل سلاح يعمله صانع لا يعمل فيك ، وكل لسان ذلق يقوم معك بالخصومة تفلجين • ويسميك الله اسما جديدا » •

وكذلك كان اسمها الكعبة فسمها الله المسجد الحرام • وكذلك قوله « بالخصومة تفلجين » انما هو اشارة الى كتاب الله الذى جاء به محمد رسول الله الذى أفحم كل خصم وأسكت •

وفى صحف أشعيا أيضا : « فقومى واشرفى • فانه قد ورى زندق ، ووقار الله عليك ••• انظرى بنيك حولك فانهم مجتمعون • يأتيك بنوك وبناتك على الأيدي ، فحينئذ تنظرين وتزهرين ويخفق قلبك ويتسع ، وكل غنم قيذار تجتمع اليك وسادت نبايوت يخدمونك ••• وتفتح أبوابك الليل والنهار فلا تغلق ، ويتخذونك قبلة ••• وتدعين بعد ذلك مدينة الرب » (١) •

فهاهو عليه السلام قد وصف مكة بأوصافها التى لا تصح أن توجد فى غيرها •

ومن أبين ذلك وأدله • قوله « وكل غنم قيذار تجتمع اليك ، وسادات نبايوت يخدمونك » وقيدار ، ونبايوت ، ولدا اسماعيل • وأغنامهم هى التى تساق الى مكة هديا ، وهم أهل مكة ، وخدام البيت • وليس بعد هذا بيان • وكذلك قوله « ويتخذونك قبلة » وهذا بشارة بالنبى عليه الصلاة والسلام • فانها لم تتخذ قبلة الا على عهده صلى الله عليه وسلم •

وقول أشعيا هذا في بعض التراجم هكذا : « ارفعى الى ما حولك بصرك فستبتهجين ، وتفرحين من أجل أنه تميل اليك ثروة البحر ، ويأتى اليك غنى الأمم ، حتى تعمرك ، قطار الابل المؤيلة تضيق أرضك عن القطارات التى تجمع اليك . وتساق اليك كباش مدين ، ويسير اليك أهل سبأ ، وتسير اليك أعلام قيدار ، ويخدمك رجال نبايوت »^(١) فاعتبر هذه الأوصاف البينة ، والأعلام المتصلة الظاهرة التى لا توجد فى بلد الا فى مكة ، ولا يصح شئ منها أن يوجد فى بيت المقدس ولا فى غيرها .

وقال أيضا عن الله^(٢) : « أعطى البادية كرامات لبنان ، وبهاء جبل الكرمل » فالبادية : مكة . ولبنان : الشام وبيت المقدس .

وقال على اثر ذلك : « وتتشق فى البادية مياه ، وسواق فى أرض الفلاة . وتكون المفيافى والأماكن العطاش ينباع . وتصير هناك محجة ، وطريق الحرم . لا تمر به أنجاس الأمم ، والجاهل لا يضل هناك ، ولا يكون به سباع ، ولا أسد . ويكون هناك ممر المخلصين » .

وقال أشعيا^(٣) أيضا عن الله : « ها أنذا مؤسس بصهيون ، وهو بيت الله حجرا مقمره فى زاوية مكة . فمن كان مؤمنا فلا يتعجل » .

وهذا اخبار منه عن الحجر المقدس الأسود ، الذى فى الركن اليمانى . وهو الحجر الذى أنزله الله من الجنة ، وكان أبيض فاسود لأجل خطايا بنى آدم . و « صهيون » الجبل بلسانهم . فهذه دلائل واضحة ، وشواهد راجحة ، لا يعدل عنها الا من حرم التوفيق ، فاستدبر الطريق ، ولا يتدبرها ويتفهم معانيها الا من رافقه التوفيق ، وساعده الفهم والتحقيق .

فهذا ما رأينا . أن نثبتته هنا من شواهد نبوته ، صلى الله عليه وسلم من الكتب المتقدمة وفيها من الشواهد ما هو أكثر من هذا . ومن وقف بفهم على ما فى تلك الكتب . قضى من عناد المخالفين العجب .

(١) الاصحاح المستون من سفر أشعيا .

(٢) الاصحاح الخامس والثلاثون من سفر أشعيا .

(٣) المعنى فى الاصحاح الثامن من سفر أشعيا . ولاحظ أن كاتب سفر

أشعيا ، وضع النصوص محتلة لأورشليم أو مكة .

النوع الثانى

الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله صلى الله عليه وسلم

فأول ذلك ما ظهر على أبيه عبد الله بن عبد المطلب •

وذلك أنه لما أراد الله خلقه ، وقرب وقته ، وahan خروج نطفته من صلب أبيه ، حمل بين عيني أبيه نور ، فكان يراه الرأى كغرة الفرس • وقد ثبت فى كتب نبوته على السنة النقلة الثقات العدول الأثبات (١) ، الذين يدينون بتحريم الكذب ، ويعتقدون وجوب الصدق ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم : أن عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله صلى الله عليه وسلم • كانت له امرأتان ، احدهما : آمنة ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم • وامرأة أخرى • فعمل يوما فى طين لبناء بيته ، فتعلقت به آثار من الطين • فمر بتلك المرأة فدعاها لنفسه ، فأبت لما كان عليه من الطين فخرج من عندها ، فاغتسل ، وغسل ما به من أثر الطين • فدعته تلك المرأة الى نفسها فأبى عليها ، ثم خرج عامدا الى آمنة ، فدخل عليها فأصابها ، فحملت بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر بامرأته تلك • فقال لها : هل لك ؟ قالت : لا • انك مررت بى ، وبين عينيك غرة مثل غرة الفرس ، فدعوتك رجاء أن يكون لى فأبيت ، ودخلت على آمنة ، فذهبت بها •

ثم لما حملت به آمنة أمه • أتيت فقيل لها : انك قد حملت بسيد هذه الأمة • فاذا وقع على الأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه محمدا •

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام •

ولقد قالت أم عثمان الثقفية : حضرت ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت البيت حين وضع قد امتلا نورا ، ورأيت

(١) انظر سيرة ابن هشام الجزء الأول ص ١٤٥ طبعة الكليات الأزهرية

بمصر سنة ١٩٧٤ م •

النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع على • وولد صلى الله عليه وسلم مختونا •

وكانت أمه تحدث : أنها لم تجد حين حملت به ، ما تجد الحوامل من ثقل وألم ، ولا غير ذلك ، ولما وضعت أمه ، وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده ، مشيراً بالسبابة كالمسبح بها •
وذكر ابن دريد : أنه ألقت عليه جفنة لئلا يراه أحد قبل جده •
فجاء جده ، والجفنة قد انفلقت عنه •

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبوه أن توفي ، وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به ، فكفله جده عبد المطلب ، وقيل لجده : لم سميت ابنك محمداً ، وليس هذا الاسم لأحد من آبائك وقومك ؟ فقال : انى لأرجو أن تحمده أهل الأرض كلهم •

وذلك أنه كان يرى في منامه ، كأن سلسلة من فضة ، خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور • وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يعتلقون بها • فقصها • فعبرت له بمولود يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء ، وأهل الأرض • فلذلك : سماه محمداً •

قال حسان بن ثابت رضى الله عنه : والله انى لغلام يفعه • ابن سبع سنين ، أو ثمان سنين ، أعقل كل ما سمعته • إذ سمعت يهودياً على أطم يثر ، يصرخ بأعلى صوته ، يقول : « يا معشر يهود » فلما اجتمعوا له ، قالوا له : « ويلك • مالك » قال : « طلع الليلة نجم أحمد » •

ثم التمس له المراضع ، فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر ، اسمها : حليلة بنت أبى ذؤيب • قالت حليلة : خرجت من بلدى مع زوجى • وابن لى فى نسوة من بنى سعد ، نلتمس الرضعاء • قالت : وفى سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً • قالت : فخرجت على أتان لى • قمرأ • معنا شارف لنا • والله ما تقيض بقطرة ، وما ننام ليلنا مع صبينا من بكائه من الجوع • وما فى ثديى ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغديه • ولكننا نرجو الغيث والفرج ، فلقد حيست^(١) الركب حتى

(١) حيست : فى سيرة ابن هشام : أذمت • وفى نسخة : أذمت •

ويروى : أذمت •

شق ذلك عليهم ضعفا ، وعجفا • حتى قدمنا مكة ، نلتمس الرضعاء •
فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد بن عبد الله فتأباه ، اذا قيل لها :
انه يتيم •

وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبى ، فكنا نقول : يتيم ،
فما عسى أن تصنع أمه وجده • فكنا نكرهه لذلك • فما بقيت امرأة
قدمت معى الا أخذت رضيعا • غيرى • فلما أجمعنا الانطلاق • قلت
لصاحبى : انى والله أكره ، أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ
رضيعا • والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلاخذه • فقال : افعلى •
عسى الله أن يجعل فيه بركة • قالت : فذهبت اليه ، فأخذته ، وما حملنى
على أخذه الا أنى لم أجد غيره •

قالت : فلما أخذته رجعت به الى رجلي ، فلما وضعت في حجرى ،
أقبل على ثدياى ، بما شاء من لبن ، فشرب ، حتى روى ، وشرب معه
أخوه حتى روى • ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك •

وقام زوجى الى شاربنا تلك • فاذا أنها لحافل ، فحلب منها
ما شرب وشريت • حتى انتهينا : ريا ، وشبعا • فبيتنا بخير ليلة •
قالت : يقول صاحبى ، حين أصبحنا : تعلمى — والله يا حليلة — لقد
أخذت نسمة مباركة • قلت : والله انى لأرجو ذلك • قالت : ثم خرجنا •
فركبت أتانى وحملته عليها معى • فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على
شئ من حمهم ، حتى أن صواحبى ليقطن لى : يا ابنة أبى ذؤيب :
ويحك • أربعى علينا • أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟
فأقول لهن : بلى ، والله • فيقلن لى : والله ان لها لسانا •

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من
أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا :
شباعا لبنا • فنحلب ، ونشرب • وما يحلب انسان قطرة ، ولا يجدها في
ضرع • حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعاتهم : ويحكم • اسرحوا
حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ، ما تبض بقطرة
لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا • فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ،
حتى مضت سنتاه ، وفصلته • وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ،
فلم يبلغ سنتيه ، حتى كان غلاما جفرا •

قالت : فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا • لما كنا نرى من برسته فكلما أمه ، وقلت لها : لو تركت بنى عندي ، حتى يغلظ • فاني أخشى عليه وباء مكة • قالت : فلم نزل بها ، حتى ردت لنا • قالت : فرجعنا به • فوالله انه بعد مقدمنا بشهر مع أخيه لقي بهم لنا خلف بيوتنا • اذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي ، قد أخذ رجلا عليهما ثياب بيض ، فأضجعا فشقا بطنه ، فهما يسوطانه — يعني : يخلطانه — قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعا وجهه • قالت : فالتزمته ، والتزمه أبوه • فقلنا له : مالك يا بنى • قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني ، وشقا بطني فالتمسنا شيئا ، لا أدرى ما هو • قالت : فرجعنا به الى خبائنا •

قالت : وقال لي أبوه : يا حليلة • لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقه بأهله • قبل أن يظهر ذلك به • قالت :

فاحتملناه • فقدمنا به على أمه • فقالت : ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ؟ قالت : فقلت : قد بلغ الله بابني ، وقضيت الذي علي ، وتخوفت الأحداث عليه • فأدبته اليك كما تحبين • قالت : ما هذا شأنك • فاصدقيني خبرك • قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها • قالت : أفترخفت عليه الشيطان ؟ قالت : قلت : نعم • قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنى لشأنا • أفلا أخبرك خبره ؟ قالت : قلت : بلى • قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور ، أضاء لي قصور « بصرى » من أرض الشام • ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حمل قط ، كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته • وانه لو اضع يديه بالأرض ، رافع رأسه الى السماء ، دعيه عنك ، وانصرفي راشدة (١) •

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب ، وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاة الله تعالى وحفظه ينبتة الله نباتا حسنا ، لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه آمنة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

مع جده عبد المطلب ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه ، اجلالا له . قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني فوالله ان له لشيئا . ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين هلك عبد المطلب (١) جده فكان مع عمه أبى طالب فكان يحنو عليه ويحفظه ، فبينما هو عنده يوما اذ قدم مكة رجل عائف من « أزد شنوءة » وكان ذلك الرجل اذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر اليهم ، ويعتاف لهم ويتفرس . وكان ماهرا في ذلك معروفا به ، مجريا عليه الاصابة في ذلك .

فأتاه أبو طالب به وهو غلام . قال : فنظر العائف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شيء . فلما فرغ قال : أين الغلام ؟ على به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه ، غييه عنه . فجعل يقول : ويلكم . ردوا على الغلام الذى رأيت آنفا . فوالله ليكون له شأن .

ثم ان أبا طالب خرج في ركب تاجرا الى الشام ، فلما تهيأ للرحيل ضبث (٢) به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له أبو طالب . وقال : والله لأخرجن به معى . ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا . وكان يحبه حبا شديدا . فخرج به معه . فلما نزل الركب « بصرى » من أرض الشام ، وبها راهب يقال له : « بحيرا » في صومعة له ، وكان اليه علم النصرانية ، ولم ينزل في تلك الصومعة منذ قط راهب يصير اليه علم النصرانية ، لأجل كتاب فيها . فيما يزعمون يتوارثونه كابرا عن كابر . فلما نزلوا ذلك العام ببصيرا . وكان كثيرا ما يهرون به . قبل ذلك ، فلا يعرض لهم ، ولا يكلمهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا قريبا من صومعته . صنع لهم طعاما كثيرا .

(١) سيرة ابن هشام الى ص ١٥٦ - ج ١

(٢) فى السيرة : صب ، وفى غير رواية أبى بحر : ضبث به ، أى لزمه

قال الشاعر :

كان فؤادى فى يد ضبثت به محاذرة أن يقضب الجبل قاضيه

وذلك عن شيء رآه في صومعته • وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من صومعته وهو في المركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم • ثم أقبلوا ، فنزلوا في ظل شجرة قريبا منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها • فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته • وقد أمر بذلك الطعام ، فصنع • ثم أرسله إليهم فقال : انى قد صنعت لكم طعاما • فقال له رجل : والله يا بحيرا • ان لك اليوم لسانا • فما كنت تصنع هذا بنا • وقد كنا نمر بك كثيرا • فما شأنك اليوم ؟

فقال له « بحيرا » : صدقت • قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف • وقد أحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم ، فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحدثه سنه في رحال القوم تحت الشجرة • فلما نظر بحيرا في القوم ، لم ير المصفة التي يعرف ، ويجد عنده • قال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي • فقالوا له : يا بحيرا • ما تخلف عنكم أحد ، ينبغي له أن يأتيك الا غلام ، وهو أحدث القوم سنا • فتخلف في رحالهم • قال : لا تفعلوا • دعوه ، فليحضر هذا الطعام معكم •

فجاء وقد احتضنه رجل من القوم ، فلما رآه بحيرا • جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا • وقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه • وانما قال له بحيرا ذلك • لأنه كان يسمع قومه يحلفون بهما • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسألنى باللات والعزى • فوالله ما أبغضت شيئا قط ، بغضهما •

فقال له بحيرا : فبالله الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه • قال له : سئل عما بدا لك • فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره • فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته • ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده • وكان مثل أثر المحجم ثم أقبل على

عنه أبى طالب • فقال : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني • قال :
ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا •

قال : فانه ابن أخى • قال : ما فعل أبوه ؟ قال : مات ، وأمه حبلى
به • قال : صدقت • فارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر عليه يهود •
فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت لبيغنه شرا • فانه كائن لابن
أخيك هذا شأن عظيم • فأسرع به الى بلاده •

فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من
تجارته • فزعموا فيما يروى الناس أن « زريرا » و « تلاما »
و « دريسا » — وهم نفر من أهل الكتاب — قد كانوا رأوا من رسول
الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رأى بحيرا في ذلك السفر الذى كان
فيه مع عمه أبى طالب فأرادوه ، فزدهم عنه بحيرا وذكرهم الله ،
وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم ان أجمعوا لما أرادوا به
سلم يخلصوا اليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما
قال • فتركوه ، وانصرفوا •

فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه
ويحوطه من أقدار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته • حتى
بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا وأكرمهم حسبا ،
وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ،
وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، تنزهها وتكرما •
حتى ما اسمه فى قومه الا الأمين • لما جمع الله فيه من الأمور
الصالحة (١) •

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ،
وعرفت أمانته ، وصدق حديثه ، وظهرت بركته ، عرضت عليه « خديجة
بنت خويلد » ما لا يخرج به مسافرا الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت
تعطى غيره من التجار • مع غلام لها يقال له « ميسرة » فقبله رسول
الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخرج فى ذلك المال ، وخرج معه
ميسرة • حتى قدما الشام • فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان • فاطلع الراهب (٢)

(١) الى ص ١٦٧ من السيرة •

(٢) يقال ان اسم هذا الراهب : نسطور •

الى ميسرة • وقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟
قال له ميسرة : هذا رجل من قريش ، من أهل الحرم • فقال له الراهب :
ما نزل تحت هذه الشجرة قط ، الا نبى •

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التى خرج بها ،
واشتري ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلا الى مكة ، ومعه ميسرة •
فكان ميسرة اذا كانت الهاجرة ، واشتد الحر ، يرى ملكين يظلاله من
الشمس ، وهو يسير على بعيره •

فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ما جاء به بأضعف ،
أو قريبا •

وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، وعن ما كان يرى من اظلال
الملكين اياه ، وكانت خديجة رضى الله عنها امرأة حازمة شريفة لبية ،
مع ما أراد الله بها من كرامتها • فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالت له : يا ابن عم • انى
قد رغبت فيك لقربائك ووسطك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق
حديثك ، ثم عرضت عليه نفسها •

وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا ،
وأكثرهن مالا • كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه •
فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لأعمامه ، فخرج
معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على « خويلد بن أسد »
فخطبها اليه ، فتزوجها •

وقد كانت خديجة بنت خويلد ، قد ذكرت لورقة بن نوفل ، وكان
ابن عمها ، وكان نصرانيا ، قد تتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ما ذكر
لها غلامها ميسرة من قول الراهب ، وما كان يرى منه • اذ كان الملكان
يظلاله • فقال ورقة : لئن كان هذا حقا يا خديجة فان محمدا لنبى
هذه الأمة • وقد عرفت أنه كان لهذه الأمة نبى ينتظر • هذا زمانه —
أو كما قال — ، فجعل ورقة يستبطن الأمر ، ويقول : حتى متى ؟ (١)

فلما تقارب زمان مبعثه كثرت أحاديث الكهان عن نبوته ، والأخبار
بذلك فبشر بقرب ظهوره جماعة من الكهان •

وأما اليهود فكانت تكون بينها وبين العرب شرور وحروب • •
هزيمًا أصابت العرب منهم • فكانت اليهود تقول : قد قرب زمان نبي
سيبعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد وارم • ثم لم يلبثوا حتى ظهر •
وعرفوه « كما يعرفون أبناءهم » •

فلما بعث • • منهم من آمن به • ومنهم من كفر به حسدا وعنادا ، كما
فعلتم أنتم •

ولقد قدم المدينة نفر من اليهود يلتمسون هجرته إليها ، وكونه
فيها • من ذلك ما يحكى عن « ابن الهيثان » حبر من أحبار يهود •
ومن كان ينتهى إليه علمهم وكان فاضلا فى دينه ، مجاب الدعوة •
من علم ذلك منه بكثرة تجربة ذلك • فقال لليهود يوما : ما ترونه
أخرجنى من الشام ، أرض الخمر والخمير الى أرض البؤس والجوع ؟
قالوا له : أنت أعلم • قال : فانى قدمت هذه البلدة أتوكف خروج
نبي قد أظل زمانه • وهذه البلدة مهاجرة • فكنت أرجو أن يبعث •
فأتبعه ، وقد أظلكم زمانه ، فلا تسبقن إليه يا معشر يهود ، فانه يبعث
بسفك الدماء ، وسبى الذرارى والنساء ، ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك
منه •

فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاصر بنى قريظة •
قال نفر من اليهود : يا بنى قريظة • • والله • انه للنبي الذى كان عهد
اليكم فيه ابن الهيثان • قالوا : ليس به • قالوا : بلى ، والله انه لهو
بصفته ، فنزلوا وأسلموا ، ومثل هذا كثير •

ومن أوضح ذلك وأبينه • قصة سلمان الفارسى ، وذلك أنه كان ،
تتصر ، وقرأ كتبكم ، وبحث عن جماعة من أهل دينكم ، أغنى الذين
كانوا متمسكين بدين المسيح ، فلم يزل يبحث عنهم واحدا بعد واحد •
ويخدمهم حتى يحضرهم الوفاة • فكان الواحد منهم اذا حضرته الوفاة •
وصاه بأن يلحق بمن هو على مثل دينه ، وحاله ، ويعينه له ، ويدله عليه •
الى أن وصل الى عمورية الى أرض الروم الى راهب نصرانى كان
هنالك •

قال سلمان : فأقمت عند خير رجل ، على هدى أصحابه وأمرهم —
يعنى الدين — كانوا دلوا عليه ، الى أن حضرته الوفاة •

فقلت له : يا فلان •• انى كنت مع فلان ، فأوصانى الى فلان •
ثم أوصانى فلان الى فلان ، ثم أوصانى فلان اليك • فالى من توصى
بى أنت ؟ وبم تأمرنى ؟

قال : أى بنى ، والله ما أعلمه ، أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا
عليه من الناس آمرك به أن تأتبه • ولكنه قد أظك زمان نبى وهو
مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب ، مهاجرة الى أرض بين
حرتين ، بينهما نخل ، به علامات ، لا تخفى • يأكل الهدية ، ولا يأكل
الصدقة ، وبين كنفه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق بتلك البلاد
فافعل •

قال : ثم مات • وغيب • ولحق سلمان بالمدينة بالأرض التى عينت
له ، فأقام هناك حتى قدم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم
مهاجرا • فبحث عن تلك العلامات ، التى رسمت له فوجدها كما رسمت
له • فأمن به واتبعه وصدقته ، وكان معه وعلى دينه الى أن توفاه الله
تعالى رضى الله عنه (١) •

ولو ذهبت الى استقصاء مثل هذا ، لطال الكتاب •

فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه
الله تعالى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا •

فكان أول ما ابتدئ به من الوحي : الرؤيا الصالحة فى النوم ،
وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح • ثم حجب الله اليه الخلوة ،
فكان ينقطع الى الكهوف والجبال ويأوى اليها •

فكان يخلو بغار حراء • وكان فى ذلك لا يمر بحجر ولا شجرة الا
يقال : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت رسول الله صلى الله عليه
وسلم حوله عن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى الا الشجر والحجارة
تتكلم •

فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء
الله أن يمكث ، ثم جاء جبريل صلى الله عليه وسلم بها جاءه من كرامة
الله ، وهو بحراء فى رمضان • ومن ذلك الوقت ظهرت آياته ، وعمت

بركاته ، وتتوكلت رسالته ومعجزاته ، واذ ذاك جمع الله له كل خصال الكمال ، وخصه بصفات الشرف والجلال . فلقد جمع الله له الكمال الظاهر والباطن بما جعل فيه من الفضائل والمحاسن .

وينبغي الآن أن يعرف الجاحد والجاهل بعض ما خص به من صفات الكمال والفضائل .

اعلم . أن الكمال البشرى ضربان : ظاهر ، وباطن . وكل واحد من هذين الضربين ضربان : ضرب يكون الانسان مجبولا عليه ، ولا اكتساب له فيه ، وضرب يكون مكتسبا للانسان يحصل له بسعيه ، وتكسبه . فقد انحصرت صفات الكمال في أربعة أقسام : كمال ظاهر ضرورى ، وكمال ظاهر مكتسب ، وكمال باطن ضرورى ، وكمال باطن مكتسب .

وقد جمع الله هذه الأربعة الأصناف للنبي محمد صلى الله عليه وسلم . ونحن نذكرها جملة ثم نشرع بعد في التفصيل ان شاء الله تعالى .

اعلم أنا . انما نذكر من صفات كماله وجلاله . المشهور بشرط الاختصار ، خوفا من التطويل والاكتثار ، ولو ذهبنا الى الاستقصاء لعجزنا عن ذلك .

فمن ذلك . كمال خلقته ، وجمال صورته ، وفصاحة لسانه ، وشرف نسبه ، وعزة قومه ، وكرم أرضه ، وقوة عقله ، وصحة فهمه . ومتين علمه ، وجميل صبره ، وعظيم حلمه ، وحسن تواضعه وعدله ، وجزيل زهده وفضله ، وعظيم جوده وكرمه ، ووثيق عهوده وذيمنه ، ورائق سمته وأدبه ، وطهارة ذاته ونسبه ، وعظيم شجاعته ونجدته ، وكثير حياته ومروءته (١) .

وجملة أمره صلى الله عليه وسلم : أنه أكمل الناس خلافا ، وأفضلهم حالا . وأعلمهم بحدود الله . وأخوفهم من الله .

فأما كمال خلقته (٢) ، وجمال صورته ، فشئ معلوم ، لم يذهب

(١) السيرة النبوية لابن هشام ص ١٦٧ - ج ١

(٢) انظر في الأوصاف الجسمية للنبي صلى الله عليه وسلم كتاب (الوفا بأحوال المصطفى) لابن الجوزى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، طبعة دار الكتب الحديثة بمصر . . الجزء الثانى . فلقد ذكر أحاديث نبوية كثيرة في صفاته الخلقية .

أحد من أعدائه الى خلاف ذلك ، ولا استطاع أن ينسب اليه نقصا ،
ولا شيئا ، في شيء من ذلك . لقد اعترف الكل : أنه كان أزهر اللون ،
أدعج العينين ، أشكل ، أهدب الأشفار ، أفلج ، أزج ، أقنى ، مدور
الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية ، تملأ صدره ، موصول ما بين اللبة
والسرة بشعر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام والعضدين ،
والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور
المتجرد ، دقيق المسربة ، مربع القد . ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير
التردد . ومع ذلك فلم يكن يماثيه أحد ينسب الى الطول الا طاله ،
رجل الشعر . اذا افتر ضاحكا عن جمان ، افتر عن مثل سنا البرق ،
وعن مثل حب الغمام . اذا تكلم رؤى كالنور يخرج من ثناياه ، أحسن
الناس عنقا ، ليس بمطهم ، ولا بمكلثم ، متماسك اللحم .

قال ناعته : ما رأيت أحدا في حلة حمراء — رجلا — أحسن منه
صلى الله عليه وسلم . كأن الشمس تجرى في وجهه . واذا ضحك
يتلألأ في الجد ، وأجمل الناس من بعيد ، وأحسنهم من قريب . من
رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

يقول ناعته : لم أر قبله ، ولا بعده مثله . طيب الرائحة والعرف .
ولقد كان صلى الله عليه وسلم يعرف برائحته ، وان لم ير . ولقد
كان يتطيب برائحته ، ويوضع في الطيب ، فينم أكثر منه (١) .
ولقد كان يضع يده على رأس الطفل رحمة له . فكانت تنم عليه
رائحة طيبه صلى الله عليه وسلم ، ولقد اشتهر وصح أنه صلى الله
عليه وسلم بعد موته ، طال مكثه في البيت قبل أن يدفن يومين ، وليلة في
المشهور ، وكان موته في شهر (أيلول) ومع ذلك فلم يتغير له ريح ،

(١) « كان على بن أبى طالب عليه السلام اذا نعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : « لم يكن بالطويل المغط ، ولا القصير المتردد ، وكان ربعة
من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ، ولا السبط . كان جعدا رجلا . ولم يكن
بالمطهم ولا المكثم ، وكان أبيض مشربا أدعج العينين ، أهدب الأشفار ،
جليل المشاش والكتد ، دقيق المسربة ، أجرد ، شثن الكفين والقدمين .
اذا مشى تطلع ، كأنما يمشى في صيب ، واذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم
النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس كفا ، وأجرا الناس صدرا ،
وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ،
من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده
مثله صلى الله عليه وسلم » (سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٥) .

ولا ظهر عليه شيء مما يظهر على الموتى حتى كانت الصحابة رضى الله عنهم • تقول له : طبت حيا وميتا •

ولقد روى أن أم سلمة قالت : وضعت يدي على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ميت • فمرت على جمع ، لا أكل ولا أتوضأ الا وجدت ريح المسك من يدي •

فان قيل : نسلم أنه كما وصفت • لكن أى فضيلة لحسن الصورة الظاهرة ؟ وأى مزية لها على غيرها ؟ اذ رب قبيح المنظر ، حسن الفعل والمخير ، ورب حسن الظاهر ، والمنظر • قبيح الفعل والمخير •

فنقول : هذا الذى ذكرت يندر ، ويقل • بل لا يبعد أن يقول قائل : لا يوجد كامل الصورة الظاهرة الا وهو كامل الصورة الباطنة • اذ كلاهما انما سببه بحسب ما أجرى الله العادة مزاج معتدل فهما شمرتا ثمرة واحد ، ولأجل هذا — والله أعلم — لم نسمع قط عن نبي من أنبياء الله تعالى • أن الله تعالى خلقه ناقص الخلقة ، أو مشوها ، اللهم الا قد طرأت على بعضهم آفات لأسباب شاءها الله تعالى • مثل أيوب وغيره • وليس الكلام فى الطارئ • وانما الكلام فى أصل الخلقة • ثم ان الحكماء والعلماء قد استدلوا بحسن الخلق على حسن الخلق • حتى أن الحكماء قالوا : اقصدوا بحوائجكم سماح الوجوه • فإنه أنجح لها • أو فإنه أحرى أن تقضى •

وأىضا : فان الجمال والحسن محبوب بالطبع ، ومرغوب فيه • والقبح منفور عنه ، ومقصود الله تعالى : أن يحب الأنبياء ، وأن لا ينفر منهم • والحسن موجب لذلك • وأىضا : فان صفة نبينا هذه هى صفة جده ابراهيم خليل الرحمن • حتى كأنه هو على ما ثبت من صفة ابراهيم فى كتب الأنبياء عليهم السلام •

وأما فصاحة لسانه • فلقد أطل من الفصاحة على كل نهاية ، وبلغ من البلاغة كل غاية ، فلقد أوتين صلى الله عليه وسلم سلامة الطبع ، وبراعة المنزع ، وعذوبة اللفظ ، وحسن الايراد ، وجزالة القول ، وصحة المعانى • مع ايجاز اللفظ ، وقلة التكلف •

أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، وبدائع الحكم • فلقد كان يخاطب كل حى من أحياء العرب بلفتهم • ولم يكن يقتصر على لغة واحدة ، مع أنه انما نشأ على لغة بنى سعد وقريش ، وكان يعرف لغات

غيرهم • حتى كانوا يتعجبون منه ويقولون : ما رأينا بالذى هو أفصح منه • وهذا معلوم عند الفصحاء العرب العرباء •
ويقف على معرفة ذلك بالذوق والمشاهدة من كان عارفا بلسان العرب ولغتهم ووقف على شيء من كلامه معهم • ومجاوبتهم •

وأما نسبه • فمعلوم لا يجهل ، ومشهود لا ينكر ، جده الأعلى ابراهيم • والأقرب عبد المطلب • كائنا عن كابر • وشريفا عن شريف • فهم بين أنبيائه فضلاء ، وبين ثرغاء حكماء • وهذا كله مسلم لا يمنع ، ومقبول لا يدفع ، فهو صلى الله عليه وسلم من خير قرون بنى آدم قرنا • فقرنا • وذلك أن الله اصطفى من ولد آدم ابراهيم • واصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل • كما قد شهدت التوراة وغيرها بذلك • واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة • واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاه صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم • فهو خيار ، من خيار ، من خيار • وكذلك الرسل صلى الله عليهم وسلم تبعث في أشرف أنساب قومها صلى الله عليهم • ذلك ليكون أميل لقلوب الخلق اليهم • والله أعلم •

وأما عزة قومه • فقد كانوا في جاهليتهم لم ينلهم سباء ، ولا ظفرت بهم أعداء ولا دخلوا في أغلب أزمانهم تحت قهر غيرهم • بل كانوا قد حازوا الشرف الباهر ، والمفاخر والمآثر • هم أوفر الناس عقولا • وأقلهم فضولا ، وأفصح الناس مقالا ، وأكرمهم فعلا • الشجعان الكرماء ، والحكماء الأدباء •

أما سفساف الأخلاق ودينها • فهم مبرأون عنها ، وأما حسناتها وعليها فهم أحرص الناس عليها ، والموصوفون بها ، وكفى دليلا على ذلك ما علم من حسن جوابهم ، وكريم عمودهم ، وعميم بذلهم وجودهم • وكل هذا من أوصافهم معروف • والغالب منهم بذلك موصوف ، وحق لقائلهم أن يقول :

لنا الشرف الذى يبطأ الثريا

مع الفجر الذى بهر العبادا

وأما أرضه • فناهيك من أرض أسس بقيتها ابراهيم الخليل ، وأمره بأن يدعو الناس اليها الملك الجليل ، وتولى عمارتها ، والمقام بها : النبى اسماعيل ، وتوارثها الأشراف جيلا بعد جيل ، وكفى بلدته شرفا ما فعل الله بملك الحبشة الذى جاء لهدمها ، فلما قرب منها ، وعزم

على هدمها ، ووجه فيله عليها أرسل الله عليهم طيرا أشباه الخطاطيف ، مع كل واحد منها ثلاثة أحجار : هجر في منقاره ، وحجران في رجليه . فرمت الطير ذلك الجيش بتلك الجهات ، فكل من أصابه من تلك الحجارة شىء هلك مكانه . وأصاب ملكهم منها حجر فهلك بعد أن تناثر لحمه ، وتساقت أنملة أنملة .

فتفرقوا في كل وجه ، وأهلكهم الله كل هلاك ، وبدد شملهم أى تبديد ، وكل هذا معروف لا ينكر ، ومشهور لا يجهل . فهذه الأرض على محلها وجذبها ، وشظف عيش أهلها : خير البلاد عند ربها ، دل على ذلك كلام الأنبياء والرسل . وما جاء من ذلك فى متقدمى الكتب . ولا يظن الجاهل : أن خير بلاد الدنيا عند الله أكثرها خصبا ، وأعظمها فاكهة وأبا . فان هذا ظن من ليس له نطق ولا فهم ، وهمته ما يجعل فى بطنه كالبهم . بل خير البلاد عند الله ما كويدت فيه المشقاتم التى توصل الى ما عند الله من الدرجات ، وكانت مع ذلك مما قدس ، وانتشرت منه الديانات .

وكل ذلك فى حق أرضه معلوم من جهة النبوات ، وسيأتى ما ذكر الله تعالى فى مكة بلده عليه السلام على لسان أشعياء عليه السلام .

وأما قوة عقله وعلمه . فلقد أوتى منهما ما لم يؤته أحد ، وأعطى منها ما لم يعطه والد ولا ولد . وكفى دليلا على ذلك : ما ظهر عليه من حسن السياسة ، واحكام أمور الرياسة ، والأخذ فى العلوم العقليات من غير اكتساب شىء مما يحتاج اليه من المقدمات ، حتى اتخذ أرباب كل علم ، كلامه فى ذلك العلم أصلا . يرجع اليه ويعول فى صناعته عليه . فتارة يكون كلامه فى بعض العلوم منشئا ممهدا ، وأخرى متمما ومؤيدا . وان أردت أن تعلم ذلك علم اليقين ، فتأمل تأمل اليقطين ، كما تضمنه من ذلك : الكتاب والسنة . فبهما كثرت الخيرات ، وعظمت المنة ، فانك تجدهما قد جمع له منهما ، علوم الأولين والآخرين ، على اختلاف علوم العالمين من الرياضات على اختلاف أوصافها ، والالهيات مع تعذرهما على أكثر الأفهام واعتياصها ، والسياسات على تشقت أوصافها .

أما الأمور المصلحية التى يعبر عنها بالقوانين الشرعية ، فيقضى العقلاء منها العجب ، فانه أطل منها على أعلى المراتب والرتب . وذلك

أن أعمال شريعته صلى الله عليه وسلم انقسمت الى أمور تعبدية مثل الصوم والصلاة والحج • وغير ذلك مما لا يدرك معانيها وحكمها الا من أمده الله بتوفيق خاص ، فنور بالمعارف باطنه ، وزين بالأعمال ظاهره • والى أمور مصلحية يدرك معانيها الجفلى والجمهور • من أهل الديانة الحنيفية •

ثم انه اعتبر أصول مصالح العالم فأوجبها ، واعتبر أصول مفساد العالم وحرّمها ، وأصول المصالح أنما هي خمسة : المحافظة على صيانة الدماء في أهبها ، والأموال على ملاكها ، والأنساب على أهلها ، والعقول على المتصفين بها ، والأديان التي بها عيش النفوس وزكاتها •

فأصول الشريعة ، وان تعددت صورها فهي راجعة الى هذه الخمسة • فاما بمرتبة واحدة ، أو بمراتب على ما يعرف في موضعه •

وأما الدماء فحققتها بأن شرع : أن من قتل يقتل ، ومن جرح يجرح ، ومن فقأ عين انسان ، فقتل عينه • وهكذا •

فاذا علم القاتل • أن يفعل به مثل ما يفعل انكف عن القتل فحصلت حياة النفوس ، وصيانة الدماء ، ولأجل ذلك قال الله تعالى : « **ولكم في القصاص حياة ، يا أولى الألباب** » (١) •

ثم سوى في القصاص بين الكبير والصغير والشريف والمشروف ، اشعاراً بأن مزايا الدنيا وفضائلها لا مبالاة بها عند الله • وأن الشرف : أنما هو بالدين والتقوى • ولأجل هذا قال الله تعالى : « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » (٢) • وقال عليه السلام : (الناس كأسنان المشط) يريد بذلك : أن الأحكام متساوية بينهم • وانهم فيما شرع سواء •

وأما الأموال • فصانها على ملاكها بأن شرع قطع يد السارق للنصاب ، وقتل المحارب ، وغرم مثل المتلف ، أو المنصوب ان كان مما له مثل • فاذا علم السارق والمحارب أنهما يعاقبان بما يناسب جنايتهما ، ارتدعا وانكفا ، فأنحفظت الأموال •

وأما العقول • فحرم استعمال ما يؤدي الى تلفها ، وذهابها ، كالخمر • وذلك أن مناط التكليف : العقل • وهو الذي به يعرف الله تعالى ، وهو الذي ينتظم مصالح الدنيا والدين • فإذا أذهب الانسان يبالخمر ، وما في معناه • فقد تعرض لاسقاط التكليف وللکفر بالله تعالى ، بل لكل المفسد • ولأجل هذا قال عليه السلام : (الخمر جماع الاثم ، وأم الخبائث والكبائر) ولأجل هذا • قال الله تعالى : **« انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون »** (١) •

ثم أكد الکف عن الخمر بأن شرع على شربه حدا • هو ضرب بالسوط ليكون ذلك أبغ في الردع والزجر •

وأما حفظ الأنساب وصيانة اختلاط المياه في الارحام • فشرع النکاح ، وحرم السفاح ، لينتسب كل ولد لوالده ، ويتميز الولي عن مضاده ، ولينضاف كل الى شيعته ، ويتحقق نسبته بقبيلته • ولأجل هذا ، قال الله تعالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »** (٢) •

ولم لم يكن ذلك لارتفع التعارف ، ولم يسمع ، ولاتسع خرق لا يرقع •

وأما المحافظة على الأديان وصيانتها • فهو المقصود الأعظم ، والمستند الأعظم ، فحرم الکفر والفسوق والعصيان ، وأوجب الطاعات والایمان • وأوجب قتل الکافر ، وتوعده بالعذاب الدائم والهوان ، ولا يخفى على من معه أدنى مسكة ، اذا تأمل بأدنى فكرة : ان الايمان

(١) المائدة : ٩٠ ، ٩١ وتحريم الخمر بأية في الاعراف وهي : **« قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم ٥٠٠ »** الخ (الاعراف : ٣٣) فالاثم محرم سواء كان صغيرا أو كبيرا في مكة لأن سورة الاعراف مكية • فلما نزل في المدينة : **« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها اثم كبير »** ٥٠٠ الخ (البقرة : ٢١٩) كان التحريم قاطعا ، لأنه اذا كان القليل محرما كان الكثير من باب أولى •

(٢) الحجرات : ١٣

بالله رأس المصالح والخيرات • والكفر رأس المقابح والهلكات • ولأجله وجوب الايمان ، وتحريم الكفران ، أرسل الله الرسل • وأنزل الكتب • ولأجل ذلك قال الله تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (١) •

فهذه الأصول الخمسة • بها يتم نظام العالم • وبأضدادها يخرب العالم • وبنظام العالم يتم نظام الأديان • وبنظام الأديان يحصل النجاة من عذاب النيران • والفوز بنعيم الجنان ، مع رضى الرحمن • فهذا بيان أنموذج من أصول السياسات الشرعيات •

وأما الرياضات • فيكفيك منها مثال واحد من الطيبات • وذلك أنه عليه السلام قال : (المعدة بيت الداء ، والحمية أصل الدواء • وأصل كل داء البرد) ولقد سمع بعض أطباء الهند هذا الكلام فقال : « لم يترك نبيكم من الطب لأحد شيئاً » أو كلاماً هذا معناه •

وتتبع ما استفيد من جهته من العلوم بحر • لا ساحل له • وليس هذا موضع استيفائه ، ومقصود هذا الكلام : أن النبي الرفيع عند الله ، العظيم القدر لديه ، كان أمياً منسوباً الى ولادة الأم • ومعنى هذه النسبة : أنه بقى على ما كان عليه ، أى لم يتعلم علماً من أحد ، ولا اكتسبه ، ولا خط كتاباً بيمينه ، وهذا معروف من حاله عند الموافق والمخالف • وربما كان اذا أراد أن يحسب شيئاً عدده بأصابعه ، فكان يقول : (انا أمة أمية ، لا نكتب ، ولا نحسب ، الشهر هكذا ، وهكذا) يشير بيديه ثلاثاً (والشهر هكذا ، وهكذا) — ويخمس باحدى أصابعه — يعنى فى الثالثة • ومع ذلك فقد أوتى جوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، وعلوم الأولين • فأخبر عن القرون الماضية ، والأمم السالفة بأخبار ، هى حق عند أرباب العلوم ، ولا ينازعه أحد منهم فيها • بل اذا سمعوها ، أذعنوا للتصديق بها ، ولم يكذبوه فى شئ منها ، وكذلك أخبر عن الأمم الآتية ، والوقائع المنتظرة ، أخباراً ، لا يتوصل اليها باكتساب • وانما ذلك باعلام العليم الوهاب ، فجاءت على نحو ما أخبر ، وما به بشر وأنذر •

وسياتى من ذلك مواضع يتبين فيها ذلك ان شاء الله تعالى •

وهذا دليل من أدلة نبوته ، لا يخفى على متأمل ، وبالله التوفيق •
 مثل نقول : انه ليس في القوة البشرية ، والجبلة الانسانية ، الوصول من
 العلوم والمعتقدات الى مثل ما وصل هو اليه • اذ قد علم أمورا ،
 لا يستقل العقل بدركها ، وأخير بها • وعند هذا يعلم : أن ذلك
 بتوفيق الهى ، ونور ربانى • ولأجل هذا ، قال الله له : « وعلمك ما لم
 تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » (١) •

وأما صبره وحلمه : فيكيفك من ذلك أنه كسرت رباعيته يوم
 « أحد » وشج في وجهه ، فشق ذلك على أصحابه • فقالوا له : لو دعوت
 الله عليهم • فقال : (انى لم أبعث لعانا • وانما بعثت رحمة) ثم قال :
 (اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون) •

فانظر • ما في هذا القول من جماع الفضل ، ودرجات الاحسان ،
 وحسن الخلق ، وكرم النفس ، وغاية الصبر والحلم • اذ لم يقصر
 على السكوت عنهم ، حتى عفى ، ثم أشفق عليهم ورحمهم ، ودعا ،
 وشفع لهم ، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة ، بقوله : « لقومى » ثم
 اعتذر عنهم لجهلهم ، فقال : « فانهم لا يعلمون » وكذلك جاء أعرابى
 جلف جاف ، وكان على النبى صلى الله عليه وسلم « برد » غليظ
 الحاشية ، فجذبه الأعرابى بردائه جبذا شديدا ، حتى أثر حاشية
 البرد في صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد ، احملنى على بعير من مال
 الله ، الذى بيدك ، فانك لا تحملنى من مالك ، ولا من مال أبىك ، فسكت
 النبى صلى الله عليه وسلم • وقال : (المسال • مال الله • وأنا عبده)
 ثم قال له : (لم فعلت بى ما فعلت) ؟ قال : كأنت لا تكافىء بالسيئة ،
 السيئة ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أمر أن يحمل له
 على بعير : شعير ، وعلى آخر : ثمر •

وكذلك قال له آخر : اعدل يا محمد • فان هذه قسمة ما أريد بها
 وجه الله • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (ويك ان لم أعدل أنا •
 فمن يعدل ؟ أيامنى الله على خزائنه ، ولا تأمنونى ؟) وكذلك سحره (٢)

(١) النساء : ١١٣

(٢) هذا خبر لم يصح ، لان القرآن لا يثبت للسحر حقيقة • لقد ذكر
 اشاعة هاروت وماروت التى افترها شياطين (علماء) اليهود في مدينة بابل
 ونفاها وبين أن الله لم ينزل شيئا على هاروت وماروت وهما لم يعلما من

« ليبيد بن الأعصم اليهودي » فأعلمه الله بسحره ، وحيث هو ، فاستخرجه الله ، فبريء • فقيل له : ألا تقتله ؟ فقال : (أما أنا فقد شفاني الله ، وأكره أن أثير على الناس شرا) •

وكذلك قدمت اليه « يهودية » ذراع شاة مسمومة ، فأكل منه النبي عليه السلام فعافاه الله في ذلك الوقت من ضرر ذلك السم فاستحضر المرأة • وقال لها : (ما الذي حملك على ذلك) ؟ قالت : أردت أن كنت كاذبا ، أرحت منك ، وإن كنت صادقا لا يضرك • فعفى عنها •

وقد قال بعض أصحابه : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط • ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى • وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله • وما ضرب خادما ، ولا امرأة •

وجيء اليه برجل • فقيل : هذا أراد أن يقتلك • فقال له صلى الله عليه وسلم : (لن ترع • لن ترع • ولو أردت ذلك لم تسلط على) • وجاءه « زيد بن سعية » يتقاضاه ديناً له عليه • فجبذ ثوبه عن منكبيه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلظ له ، فانتهره عمر • وشدد له في القول • والنبي صلى الله عليه وسلم يتبسم • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا وهو كنا الى غير هذا منك أحوج • تأمرني بحسن القضاء • وتأمره بحسن التقاضي) ثم قال : (لقد بقى من أجله ثلاث) وأمر عمر يقضيه ما له • ويزيده عشرين صاعا • فكان سبب اسلامه •

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن يأتي على حصرها ، هذا الكتاب •

وعلى الجملة : فقد تواتر صبره على أذى قريش ، وسبه • وإخراجه من بلده ، ونيل الأذى ، حتى بلغوا منه مبلغا لا يصبر عليه إلا من هو مثله • فلما أظفره الله بهم قال لهم : (ما تقولون أنى فاعل بكم) ؟ قالوا : خيرا أخ كريم ، وابن كريم • فقال : (أقول كما قال أخى

يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم
الراحمين » (١) اذهبوا • فأنتم الطلقاء •

ولقد ثبت عنه أنه لما كذبه قومه ، جاءه جبريل عليهما السلام
فقال : ان الله قد سمع قول قومك لك • وما ردوا عليك • وقد أمر ملك
الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداه ملك الجبال ، وسلم عليه •
وقال : مرني بما شئت • ان شئت أطبق عليهم الأخشبين فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : (أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد
الله ، وحده ، لا يشرك به شيئا) •

ولقد هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا • فأعتقهم •

ومثل هذا كثير •

وعند هذا يتبين أنه صلى الله عليه وسلم : أحلم الناس عند مقدرته ،
وأصبرهم على مكرهته ، وأنه امتثل أمر الله ، حيث قال له : « خذ العفو ،
وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » (٢) وحيث قال له تعالى :
« فاعف عنهم واصفح ، ان الله يحب المحسنين » (٣) •

وأما تواضعه صلى الله عليه وسلم على علو منصبه ، ورفعة رتبته •
فكان أشد الناس تواضعا ، وأبعدهم عن كبر ، وحسبك : أن الله خيرهم
بين أن يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا • فاختر أن يكون نبيا عبدا •
فقال له اسرافيل عليه السلام ، عند ذلك : فان الله قد أعطاك بما تواضعت
له : أنك سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من تتشق الأرض عنه ،
وأول شافع •

وقال أبو أمامة : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم متوكئا على عصا ، فقمنا له • فقال : (لا تقوموا ، كما تقوم
الاعاجم يعظم بعضها بعضا) وقال : (انما أنا عبد • أكل ، كما يأكل
العبد ، وأجلس كما يجلس العبد) وكان يركب الحمار ، ويردف خلفه •
ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس
بين أصحابه ، مختلطا بهم حيث ما انتهى به المجلس جلس •

وقال عليه السلام : (لا تطروني كما أطرت النصارى : ابن مريم
انما أنا عبد • فقولوا : عبد الله ورسوله) •

وجاءته امرأة ، فقالت : ان لى اليك حاجة • قال لها : (اجلسي
يا أم فلان • في أى طرق المدينة نسيت • اجلس اليك ، حتى أقضى
حاجتك) فجلس اليها ، حتى فرغت من حاجتها ، وكان يوم بنى قريظة ،
على حمار ، ومخطوم بحبل من ليف ، عليه أكاف •

• وكان يدعى الى خبز الشعير ، والاهالة السنخة ، فيجيب •

وقد حج • وكان عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم • هذا كله •
وقد أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها ، وألقت اليه أفلاذ كبدها ، فلم
يلتفت اليها ، ولا عبأ بها • وكان صلى الله عليه وسلم في بيته ، في مهنة
أهله ، يفلئ ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم
نفسه ، ويعلف ناضحه ، ويقم البيت ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم
ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق ، وكانت الأمة من اماء أهل
المدينة تأخذ بيده ، فتطلق به حيث شئت من المدينة ، حتى يقضى
حاجتها •

ودخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة ، فقال له : (هون
عليك • فاني لست بملك • انما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل
القديد) •

وقال أبو هريرة : دخلت السوق ، مع النبي صلى الله عليه وسلم ،
فاشتري سراويل • وقال للوازن : (زن ، وأرجح) وذكر قصته • فقال :
فوثب الى يد النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها • فجذب يده ، وقال :
(هذا تفعله الأعاجم بملوكها • ولست بملك انما أنا رجل منكم) ثم
أخذ السراويل • فذهبت لأحمله • فقال : (صاحب الشيء ، أحق
بشيئه أن يحمله) •

وأما عدله ، وصدقه ، صلى الله عليه وسلم ، وأمانته ، وصدق
لهجته • فكان صلى الله عليه وسلم آمن الناس ، وأعدل الناس ، وأعرف
الناس ، وأصدقهم لهجة منذ كان •

اعترف بذلك مخادوه ، وعداته • وكان يسمى قبل النبوة :
« الأمين » وذلك لما جعل الله فيه من الأخلاق الصالحة •

ومما يدل على ذلك : أن قريشاً لما بنيت الكعبة ، اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ؟ فحكموا بينهم أول داخل عليهم • فإذا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم داخلاً • فقالوا : هذا محمد • هذا الأمين ، قد رضىنا به • وذلك قبل أن يبعث •

ولقد اجتمع الأخنس بن شريق مع أبى جهل يوم بدر ، وكلاهما مخالف له ، وعدو له ، قد أجمع على قتله ، وقتاله • فقال الأخنس لأبى جهل : يا أبا الحكم ، ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا ، فأخبرنى عن محمد • أصادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط •

ولقد سأل هرقل أبا سفيان وهو على شركه ومخالفته • فقال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا • قال هرقل : قد أعلم أنه لم يكن يدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله •

وقال النضر بن الحارث لقريش وهو عدوه ومخالفه : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاء به • قلتم : إنه كذاب ، وأنه ساحر •

لا • والله • ما هو بساحر ، ولا يكذاب •

فهذا كان حاله • فاعترف أعداؤه بمناقبه ، ولا يقدرُونَ على إنكار شىء من فضائله •

من أدل دليل على عدله ، وعظيم تواضعه وفضله • أنه كان قد انتهى به الأمر الى أن تهابه الملوك ، وتفرق منه الجبابرة • ومع ذلك فإنه كان يوفى لكل ذى حق حقه ، ويعرف لذى الفضل فضله • حتى كان يقول : (انى أريد أن ألقى الله ، وليس لأحد منكم يطالبنى بمظلمة فى أهل ولا مال) ولأجل ذلك : أقاد « عكاشة بن محصن » من نفسه • وذلك أنه صلى الله عليه وسلم ضربه بقضيب فى ظهره ، غير قاصد لضربه ، فقال له عكاشة : انك قد أوجعتنى ، فأقذنى — معناه : مكنى منك حتى أضربك ، مثلما ضربتنى — ، فكشف له عن ظهره ، وناولته القضيب • وقال : (اضرب) • فأكب عكاشة على ظهره يقبله • وقال : إنما أردت أن يعنى جلدى جلدك •

والأخبار في هذا أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب .

وأما زهده صلى الله عليه وسلم . فلقد كان أزهد الناس ، وأورعهم ، وحسبك شاهدا على ذلك ما علم من حاله صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه أعرض عن الدنيا وزهرتها . ولم يلتفت الى شيء منها مع اقبالها عليه . وسياقتها اليه . وذلك أن الدنيا سيقت اليه بحذافيرها ، وتراذفت عليه فتوحها . وهو مع ذلك لا يعرج عليها ، ولا يلتفت اليها ، الى أن مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله . وهو يدعو ويقول : (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا) ويقول : (اللهم أحيينى مسكينا ، وأميتنى مسكينا ، واحشرنى فى جملة المساكين) ولقد صحت الأخبار عنه : أنه ما شبع ثلاثا تباعا ، حتى مضى لسبيله ، ولقد روى أنه ما شبع من خبز الشعير يومين متواليين ، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارا ، ولا درهما ، ولا شاة ولا بعيرا . وما ترك الا بغلته وسلاحه ، وأرضا جعلها صدقة ، وكان يقول : (ما أحب أن لى مثل أحد ذهبا . يمضى ثالثة ، وعندى منه دينارا الا شيئا أرسده لدين) ولقد قال صلى الله عليه وسلم : (عرض على ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا . قلت : لا . يا رب . بل أجوع يوما ، وأشبع يوما . فاذا جعت تضرعت اليك ودعوتك . واذا شبعت شكرتك وحمدتك) ولقد حكى عنه جماعة من أصحابه أنه كان يبيت هو وعياله الليالى المتتابة ، طاويا ، لا يجدون عشاء . وقال « أنس » خادمه : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على « خوان » ولا فى « سكرجة » ولا خبز له مرقق ، ولا رأى شاة عبيطا قط .

ودخل عليه عمر بن الخطاب فوجده مضطجعا على رمل حصير ، قد أثر فى جنبه . قال عمر : فنظرت فى بيته ، فلم أرفيه شيئا . فبكيت لما رأيته برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحاجة والفاقة . فقال : (ما شأنك يا ابن الخطاب) ؟ فقلت : يا رسول الله ذكرت « كسرى » و « قيصر » وما أعطاهما الله تعالى . فقال : (أفى شك أنت يا ابن الخطاب . أما ترضى أن تكون لهما الدنيا . ولنا الآخرة) ؟ وقالت عائشة : (لم يمتلى جوف نبي الله شبعاً قط . ولم يبيت شكوى الى أحد . وكانت الفاقة أحب اليه من الغناء . وان كان ليظلل جائعا يلتوى طول ليله من الجوع ، فلا يمنعه صيام يومه . ولو شاء سأل ربه كنوز جميع الأرض وثمارها ، ورغى عيشها .

ولقد كنت أبكى له رحمة مما أرى به ، وأمسح بيدي على بطنه
مما به من الجوع • وأقول نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما
« قوتك » ؟ فيقول : (يا عائشة : مالى وللدنيا • اخوانى من أولى
العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم ،
فقدموا على ربهم فأكرمهم ما بهم ، وأجزل ثوابهم • فأجذنى أستحيى
أن ترفهت فى معيشتى أن يقصرنى غدا دونهم ، وما شئ هو أحب الى
من اللقوق باخوانى وأخلاقى) قالت : (فما أقام بعد ذلك • الا شهرا ،
حتى توفى صلوات الله عليه) •

ولقد شكى اليه بعض أصحابه الجوع ، وكشف له عن بطنه عن
حجر • فكشف له رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه عن حجرين ،
صلى الله عليه وسلم تسليما • وهذا معلوم قطعا من أحواله ، لا يقدر على
ججده أحد من أعدائه ، ولا أوليائه •

وأما كثرة جوده وكرمه • فشئ معروف من شيمه • فلقد تواتر :
أنه كان أكرم الناس ، وأجودهم ، حتى أنه ما سئل قط شيئا • فمنعه •
إذا كان ذلك الشئ المسئول مما لا يمنع شرعا •

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبى صلى الله عليه وسلم :
« أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون فى رمضان • وكان أجود بالخير
من الريح المرسلة •

ولقد سأله رجل ، فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع ذلك الرجل
الى قومه • فقال : أسلموا • فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة •
وأعطى أناسا كثيرين : مائة ، مائة من الابل • وأعطى « صفوان »
مائة ، ثم مائة ، وأعطى « العباس » من الذهب ، ما لم يطق حمله ،
وسيق له صلى الله عليه وسلم ، تسعون ألفا ، فوضعت على حصير ،
ثم قام اليها يقسمها ، فما رد سائلا ، حتى فرغ منه •

وكان صلى الله عليه وسلم لا يرد سائلا جاءه • وربما كان السائل
لا يجد عنده شيئا • فيأخذ له بالدين ، ويعطيه السائل ، حتى يقضيه
النبى صلى الله عليه وسلم • ولقد جاءه رجل فسأله • فقال : (ما عندي
شئ ، ولكن ابتع على بدين • فاذا جاعنا شئ قضينا) فقال له عمر :
« ما كلفك الله ما لا تقدر عليه • فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم

ما قاله عمر • فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله • أنفق ، ولا تخف من ذي العرش اقلالا • فتبسم وعرف بشر ذلك القول في وجهه • وقال : (بهذا أمرت) •

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ، وان لم يحتج اليها ، ويثيب عليها بأضعافها • روى أن « معاذ بن عفراء » أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم طبقا فيه رطب ، وقثاء ، فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم ملء كفه ذهباً وحلياً • وكان صلى الله عليه وسلم ، لا يدخر شيئاً لغده ، لنفسه • وقد ثبت عنه أنه كان يقول : (ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً ، يمضى على ثلاثة ، وعندى منه ديناراً ، الا شيئاً أرصده لدين) • وما سيق له قط شيء يقسم ، ذهباً كان أو غيره الا أمر بقسمه ، ولم يبيت عنده •

وهكذا • كان المعروف من خلقه قبل مبعثه ، وكان هذا معروفاً عند قومه الذين نشأ فيهم • حتى لقد قال له « ورقة بن نوفل » وكان امراً تنصر ، وقرأ الكتب العبرانية ، وكان قد تطفن ، واستشعر بنبوته عليه السلام ، لما رأى من العلامات التى علمها من الكتب المتقدمة • فقال له : انك لتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق •

وهذا كله من أخلاقه معروف حاصل ، لا يتمازى فيه منصف عاقل •

وأما وفاؤه بالعهد • فلا يتمازى فيه الا خسيس وغد • فقد كان صلى الله عليه وسلم أحفظ الناس بعهد ، وأوفاهم بميثاق ووعد • وأحسنهم جواراً ، وأصدقهم قولاً وأخباراً • روى عن « عبد الله ابن أبى الحمساء » أنه قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع • قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية • فوعده أن آتية بها فى مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو فى مكانه • فقال : (يا فتى • لقد شققت على • أنا ها هنا • منذ ثلاث أنتظرك) وذلك للميعاد الذى كان بينهما ، وكان المعلوم من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان يعقد العهود والمواثيق بينه وبين عاداته وغيرهم • فيفى بها ، ويؤذنهم بانقضائها عند تمامها ، ولم يغدر قط فى شيء منها • ولقد كان هذا معروفاً عند أعدائه ، كما هو معروفاً عند أوليائه •

ولقد روى أن هرقل • ملك النصارى لما سأل كفار قريش عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم قال : فهل يغدر ؟ قالوا له : لا • فقال لهم : كذلك الرسل لا تغدر • وكيف يغدر صلى الله عليه وسلم ، وهو قال : (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به • يقال : هذه غدره فلان) ؟ ولقد جاءه « المغيرة بن شعبه » مسلما • وجاء معه بمال قوم من الجاهلية كان قد صحبهم ، ثم قتلهم ، وأخذ أموالهم • فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (أما الاسلام فأقبل • وأما المال فليست منه في شيء) وقال صلى الله عليه وسلم ، وقد عرض له بعض أصحابه يغدر المشركين : (دعني لهم ، ونستعين الله عليهم) •

وفي خبر « الجندى » ملك عمان ، لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام • فقال الجندى : والله لقد دلني على أن هذا نبي : أنه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر الا كان أول تارك له • وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر (١) ، ويوفى بالعهد ، وينجز الموعد • أشهد أنه نبي •

يا هذا • تأمل بعقلك • أين هذا مما يحكى اليهود والنصارى عن موسى عليه السلام في كتبهم من أن موسى عليه السلام ، لما أراد الخروج من مصر ، استعار حلى بنى اسرائيل ، ثم فر به ليلا • وعند الانتهاء الى هذا المقام • يعلم العاقل ما في كتب القوم من الأباطل والأوهام وموسى عليه السلام مبرا عن النقائص والآثام • ومن وفائه بالعهد ، وقيامه في حفظه بالحد : أنه قدم عليه وفد النجاشي فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم بنفسه • فقال له أصحابه : نحن نكفيك • فقال : (انهم كانوا لأصحابنا مكرمين • وانى أحب أن أكافئهم) وقال صلى الله عليه وسلم : (حسن العهد من الإيمان) • وحقيقة الوفاء بالعهد : تتميم ما ربط من العقد ، ومراعاة ما تقدم من الود ، ومكافأة من له يد • وقد كانت هذه الخصال اجتمعت فيه • لا ينازع في ذلك أحد • وان كان يناوئه •

وأما حسن سمته ، وتؤدته ، وكثير حياته ، ومروءته • فشئ لا يجحد ولا يجهل ، ولا يلحقه في شيء من ذلك أحد • وإن بذل غاية جده • ولم يكسل • فهو بالحقيقة كما قال الشاعر الأول :

(١) « يغلب » الأولى بفتح الياء ، والثانية بضمها •

سعى بعدهم قوم لكى يدركونهم
فلم يفلطوا ، ولم يليموا ، ولم يألوا

كان صلى الله عليه وسلم كثير الصمت والوقار ، طويل الاطراق
والاعتبار ، تكسو هيئة وقاره جلسائه • حتى اذا جلسوا بين يديه
كان على رؤوسهم الطير اعظاما له ، وهيبة منه •

مجلسه أوفر المجالس ، لا يسمع فيه ضحت الأصوات ، ولا
اختلاط اللغات ، ليس فيه مرأ ولا جدال ، ولا للهجر ، والفحش فيه
مجال • لا توبن في مجلسه الحرم ، ولا يغض فيه من الأقدار والقيم •
بل كان مجلس علم •

وأصحابه يعظمون في مجلسهم معه حرمت الله • ويتعلمون منه
أحكام الله • فتارة يعلمهم بأمور الآخرة كأنهم ينظرون اليها • وأخرى
يعلمهم أحكام شريعته ، كى يعملوا بها •

قال ابن أبى هالة : كان سكوته على أربع : على الحكم والحذر
والتقوى والتفكر • يعلم الجاهل المسترشد ويدنيه • ويترد المعاند
المتكبر ويقصيه ، يتواضع للفقراء ، ويتواضع لديه الأمراء •

كان صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها ، الرفيعة
الشريفة في قومها ، كان اذا سمع ما يستحى منه ، ظهر نور الخفر على
وجهه • ولذلك مر صلى الله عليه وسلم على رجل وهو يعتب أخاه على
الحياء • فقال صلى الله عليه وسلم : (دعه • فان الحياء من الايمان)
وقال : (الحياء خير كله ، ولا يأتى الا بخير) وقال : (استحيوا من
الله حق الحياء) وكان صلى الله عليه وسلم ضحكه تبسما • ولم ير قط
في ضحكه مقهقها ، ولا مترنما •

كان كلامه فصلا • يفهمه كل من سمعه ، وربما تكلم بالكلمة ثلاثا
حتى تفهم عنه ، وكان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه • وكان اذا
مر بقوم يسلم عليهم ثلاثا • وكان صلى الله عليه وسلم يحافظ على
مروءته ، وعلى استقامة حالته ، وتحسين هيئته ، يمشى هونا ، كأنما
ينحط من صعب • اذا مشى مشى مجتمعا ، واذا جلس جلس محتبيا ،
وقرب اليه طعام ومتكا • فقال : (لا أتكى • انما أكل كما يأكل العبد ،
وأجلس كما يجلس العبد) •

كان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ، والرائحة الحسنة ، ويستعملهما ، ويحضر عليهما • ويقول : (ان الله تعالى جميل يحب الجمال) ويأمر بالسواك ، وغسل الأبراجم والدواجب • واستعمال خصال الفطرة ، ويأخذ بذلك ويعمل به •

وكان صلى الله عليه وسلم لكثرة محافظته على جلال مروءته • اذا عطس غطا وجهه ، وخفض بها صوته •

وما عسى أن يقول القاص فيمن جمعت فيه كل الفضائل والمآثر • بل غاية الفصيح الأثر أن ينتهى الى ما قاله الشاعر :

ماذا أقول ؟ وقولى فيك ذو حصر

وقد كفيته التفصيل والجملا

ان قلت : ما زلت مرفوعا ، فأنت كذا

أو قلت زانك دى ، فهو قد فعلا

وأما شجاعته • ونجدته • فكان منها صلى الله عليه وسلم بالمكان الذى لا يجهل • وحظه منها الحظ الأوفى الأفضل • قد كان مارس الضراب ، ووقف مواقف الصعاب ، لا يبالي بكثرة العدد ، ولم يفر قط أمام أحد • وما من شجاع الا وقد أحصيت له فرة ، وان كان له بعدها كرة • الا هو صلى الله عليه وسلم ، فلم يدبر قط منهزما • ولا فارق مكرها ملتزما •

وكان « على بن أبى طالب » يقول : كنا اذا اشتد البأس ، وحميت الحرب • انتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم • فما يكون أحد أقرب الى العدو منه • ولقد رأيتنا يوم بدر نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو • ولقد كانت الصحابة تقول : ان الشجاع منا للذى يقوم بجانبه يستتر به •

وقيل لـ « أنس » أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر •

ثم قال : لقد رأيته على بغلته البيضاء ، و « أبو سفيان » آخذا بلجامها • والنبي صلى الله عليه وسلم يقول :

(أنا النبي لا كذب • أنا ابن عبد المطلب)

قيل : فما روى يومئذ أحد كان أجراً منه ، ولا أشد • وقد روى عنه : أنه نزل عن بغلته متوجها نحو العدو • وقال « العباس »

ابن عبد المطلب » : لما التقى المسلمون والكفار ، يوم « حنين » ولى المسلمون مدبرين ، فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يركض بقلته نحو الكفار •

قال العباس ، وأنا آخذ بلجامها ، أكفها ارادة ألا تسرع • وأبو سفيان آخذ بركابه ، ثم نادى بالمسلمين • وذكر الحديث •

وقال أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس • ولقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق أناس قبل الصوت ، فلتقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم الى الصوت • وقد استبرأ الخبر على فرس عري ، لأبى طلحة • وفي عنقه السيف ، وهو يقول : (لن تراعوا • لن تراعوا) وأنا وجدناه ليجرا — يعنى القوس لكثرة جرية •

وقال « ابن حصين » ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة الا كان أول ضارب • ولما رآه « أبى بن خلف » يوم أحد ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت ان نجا •

وقد كان قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر : عندى فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة ، أقتكك عليها • فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (بل أنا أقتكك ان شاء الله) فلما رآه أبى يوم أحد ، شد « أبى » فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترضه رجال من المسلمين • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (دعوه • خلوا طريقه) وتناول النبي صلى الله عليه وسلم الحربه من « الحارث ابن الصمة » فانتفض بها انتفاضة ، فتطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير ، اذا انتفض ، ثم استقبله النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم طعنه بها طعنة ، تدأدا منها على فرسه ، وقيل : بل كسر ضلعا من أضلاعه ، فخرج الى قريش يقول : قتلنى محمد • وهم يقولون : لا بأس بك • فقال : لو كان ما بى بجميع الناس لقتلهم • أليس قد قال لى : (أنا أقتكك ان شاء الله) • والله لو بصق على لقتلنى • فمات بـ « سرف » فى قفولهم الى « مكة » •

ومما يدلك على عظيم شجاعته : أنه يوم « أحد » فر عنه الناس • فاستقبل العدو فى نفر قليل من أصحابه ، فكسر « عتبة بن أبى وقاص » وباعيته اليمنى ، وجرح شفته السفلى ، وشجه فى جبهته « عبد الله

ابن شهاب الزهري « وضرب « عمرو بن قنينة » وجنته • فأدخل
حلقتي من حلق المغفر في وجنته ، وهو في ذلك كله ، لا يزول عن موضعه •
ولا يولى ظهره • ولم يزل كذلك حتى أنزل الله عليه نصره ، حين رأى
صبره •

وفي ذلك الموضع ، وفي تلك الحال ، نهض نفر من أصحابه لقتال
العدو فوافقوهم وقاوموهم ، مع كثرة عدوهم ، فانفدت مقاتل واحد
منهم • فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم خد ذلك الرجل على
قدمه ، حتى مات • وهذا يدل على غاية شجاعته ، وكثرة الجلد ،
وقلة المبالاة بالعدو • ولقد كانت غزوة « أحد » هذه التي جرى فيها
ما ذكر • من أول الشواهد على نبوته صلى الله عليه وسلم • وذلك
أنه لما التقى هو والمشركون • قال النبي صلى الله عليه وسلم لبعض
أصحابه ، وكانوا رماة : (انضحوا عنا الخيل بالنبل ، لا يأتونا من
خلفنا ، واثبتوا مكانكم ، كانت لنا • أو علينا) •

وقد كان أمر عليهم « عبد الله بن جبير » ثم إن رسول الله صلى
الله عليه وسلم التقى هو والمشركون ، فهزموا المشركين ، وولوا أديبارهم ،
حتى سقط لواءهم صريعا • فلما رأى أصحاب « عبد الله » الهزيمة •
قالوا : الهزيمة • الهزيمة • تعالوا بنا نصيب مما تصيبه الناس •
فقال لهم عبد الله : ألم يقل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(لا تبرحوا من مواضعكم) فقالوا له : قد هزم الله العدو • فلم يلتفتوا
كلامه • فزالوا عن مواضعهم • فلما زالوا عن مواضعهم عاقبهم الله •
بأن رجع العدو عليهم ، فقتل منهم من قتل ، لمخالفتهم أمر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومحض الله في تلك الغزوة : المؤمنين • ومحن
الكافرين والمنافقين •

وفي تلك الغزوة فقئت عين « قتادة بن النعمان » حتى وقعت على
وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أحسن عينيه •
وسياى ذكر هذا ، وما شاكله بعد هذا ، إن شاء الله تعالى •

وأما خوفه من الله تعالى واجتهاده في عبادته • فقد بلغ من ذلك
الى حد لم يبلغه أحد من الخليقة • وذلك أن الله تعالى كلفه من وظائف
العبادات ما لم يكلف أحدا على الحقيقة ، وهو مع ذلك لا يقصر في شيء
منها • بل كان يبذل غاية اجتهاده ، ووسعه في أدائها • فمن العبادات التي
كلفها الله له : تحمل أعباء الوحي ، ومشقة ثقله • فلقد كان ينزل عليه

الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا •
ولأجل هذا • قال الله تعالى : « **انا سنلقى عليك قولا ثقيلا** » (١)
وقال له : « **فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه** » (٢) •

وهذه مشقة لا يعرفها على التحقيق ، الا الرسل • ولأجل عظم
هذا الأمر جاءه جبريل عليه السلام ، وهو يتعبد بغار حراء • وذلك
قبل أن يوحى اليه • فقال له : « **اقرأ** » فقال : (ما أنا بقارئ) فأخذه ،
فغطه ، حتى بلغ منه الجهد • ثم أرسله • فقال : « **اقرأ** » فقال :
(ما أنا بقارئ) ففعل به مثل ذلك مرتين • فقال له في الثالثة :
« **اقرأ باسم ربك الذي خلق** » (٣) الآيات • فقرأها • ثم رجع الى
خديجة يرجف فؤاده ، فقال : (زملوني) فدثروه • فأنزل الله عليه ،
وهو على تلك الحال : « **يا أيها المدثر • قم فأنذر • وربك فكبر** » (٤)
الآيات •

ثم بعد قبول الوحي أمر بتبليغه وتبيينه للناس ، والصبر على
ما يصيبه من أذى قومه • فكان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه ودينه
على قبائل العرب ، وعلى وفودها اذا قدموا مكة لمواسم الحج ، فيعيب
آلهم ، ويسفه أحلامهم ، ويظهر خلافهم ، ويوبخهم على جهالاتهم ،
فيردون عليه قوله ، ويكذبونه ، ويسبونونه ، ويؤذونه ، بأقصى إمكانهم
من أنواع الأذى ، فيصبر على ذلك ويحتسب ما يلقاه ، على الله •
فلسان الحال ينشد ، والأنفاس خوفا من التقصير في أمر الله
تتصعد :

لا أبالي ، اذا رضيت الهى
أى أمر من الأمور دهانى
فلم يزل راضيا ، صابرا على أنواع البلاء ، حتى كان لسان حاله
يقول :

✽ عذب التعذيب عندى وحلا ✽

فأقام على ذلك بمكة ثنتى عشرة سنة ، يدعو الناس من غير قتل ،

(٢) القيامة : ١٨

(٤) المدثر : ١ - ٣

(١) المزمل : ٥

(٣) العلق : ١

ولا قتال • وذلك كله ليظهر الاسلام ، وتنتشر دعوته ، لئلا يكون لأحد حجة على الله ورسوله •

وبعد ذلك أمر بالهجرة من مكة الى المدينة ، ففارق أهله وعشيرته ، وحاله وماله وولده وبلده ، ولم يعظم عليه مفارقة شيء من ذلك في ذات الله • فترك كل ذلك الى الله فوثق أجره على الله •

فلما حل بالمدينة • افترض الله عليه القتال • فقاتل في ذات الله جميع من كفر بالله غير مقصر في ذلك ، ولا مفرط • بل جادا مجتهدا حتى أظهر الله دينه • وان رغمت أنوف الجاحدين • وفي كل ذلك الزمان ، كان يقوم بوظائف الشريعة وعباداتها ، عبادة عبادة ، فصلى حتى تورمت قدماه وانتفخت ، وصام • حتى كان القائل يقول : لا يفطر لكثرة ما كان يرى من صومه ، ووصاله • وكان يذكر الله ويعظمه ويمجده ويشكره على كل أحواله من غير تقصير ، ولا فتور ، ولا تشغله عبادة عن عبادة ، ولا عمل زمان عن عمل زمان آخر •

كان عمله دائما • وكذلك كان يقول صلى الله عليه وسلم : (خير العمل أدومه) فكان يراعى أنفاسه مع الله ، ولا يضيع شيئا مما كلفه خوفا من الله ، فكان ربما يتفكر في عظيم أمر الله وعزة سلطانه ، فيستعظم ما يعرف من هول المطلع ، فكان يقول : (والله انى لأعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية) وكان يقول : (يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولخرجتم الى الصعدات ، تجأرون الى الله ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش • لوددت أنى شجرة تعضد) ولذلك كان يقول : (انى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون • إطت السماء ، وحق لها أن تنط • ما فيها موضع أربع أصابع ، الا وملك واضع جبهته ، ساجدا لله) •

وهذا كله • يدل على كثرة معرفته بالله تعالى ، وشدة خوفه منه ، ورهبته له ، وكذلك كان يبكى ، ويسمع لخوفه صوت ، كصوت الرجل من البكاء • وكذلك صح النقل عنه : بأنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة • وكان يقول : (يا أيها الذين آمنوا توبوا ، فانى أتوب الى الله فى اليوم والليلة مائة مرة) •

وروى عن على بن أبى طالب أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ستة ؟ فقال : (المعرفة رأس مالى ، والعمل رأس

دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله مجدى ، والزهد
حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والصبر
هادى خلقى ، وقررة عينى فى الصلاة •

وفى حديث آخر : (وثمرة فؤادى فى ذكره ، وغمى لأجل أمتى ،
وشوقى الى ذى الجلال) •

ووصف خوفه يطول ، ومعرفة ذلك من حاله ، لا ينكره عليم ،
ولا جهول • اذا كان من أهل الانصاف والعقول •

وعلى الجملة : فمناقبه الشريفة لا تحصى ، وما خص به من
الأخلاق الكريمة عديد الحمى ، كيف لا ؟ وقد قال الله تعالى له :
« **وانك لعلى خلق عظيم** » (١) وما عظمه العظيم فهو عظيم • وكيف
لا يكون ذلك • وقد بعثه الله تعالى متمما لمكارم أخلاق الأولين • وقد
خصه بصفات جميع النبيين • فلو جاز أو تصور أن يعبد أحد من
البشر ، لكمال أخلاقه ، وكرم أوصافه ، وطيب أعرافه ، لكان هو • اذا
قد أعطى من ذلك ما لم يعطه أحد من البشر ، ولا دخل لهم تحت كسب
ولا قدر •

* * *

خاتمة جامعة في صفاته وشواهد صدقه وعلاماته

• وذلك أن « أبو سفيان » وكفار قريش قدموا الشام تجارا فأرسل اليهم « هرقل » وكان ملك النصارى وعظيمهم ، واليه ينتهى علمهم • فجاءوه ، ودخلوا عليه فى مجلسه ، وحوله عظماء الروم • فقال لترجمانه : قل لهم : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا • أقرب نسبا منه • فقال : ادنوه منى ، وقربوا أصحابه ، واجعلوهم عند ظهره • ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه انى سائل هذا ، عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي • فان كذب ، فكذبوه •

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا عنى كذبا لكذبت عليه ، قال أبو سفيان : فكان أول ما سألتنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب • قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله • قلت : لا • قال : فهل كان فى آبائه من ملك ؟ قلت : لا • قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم • قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون • قال : فهل يرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا • قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا • قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا • ونحن فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها ؟ — يعنى صلحا — •

قال : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة • قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم • قال : فكيف كان قتالكم اياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال • ينال منا ، وننال منه • قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : (اعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا • واتركوا ما يقول آبائكم) ويأمرنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والصلة •

فقال هرقل لترجمانه : قل له : سألتك عن نسبه • فذكرت أنه فيكم ذو نسب • وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فذكرت : أن لا • فقلت : لو كان أحد

قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يقتدى يقول قيل قبله • وسألتك : هل كان من آبائه من ملك • فذكرت : أن لا • فلو كان من آبائه من ملك • لقلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال • فذكرت : أن لا • فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله • وسألتك : أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم • فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل •

وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه • فذكرت : لا • وكذلك الايمان ، حين تخالط بشائسته القلوب • وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت : أنهم يزدون • وكذلك أمر الايمان حتى يتم • وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت : أن لا • وكذلك الرسل لا تغدر • وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم : أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف •

فان كان ما تقول حقا • فسيملك موضع قدمي هاتين • وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم • فلو أنى أعلم أنى أخلص اليه لأحببت لقاءه • ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه •

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان قد بعث به مع « دحية » الى عظيم « بصرى » فدفعه الى هرقل ، فقرأه ، فاذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم • من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم • سلام على من اتبع الهدى « أما بعد » فانى أدعوك بدعاية الاسلام • أسلم • تسلم • يؤتك الله أجرك مرتين • فان توليت فانما عليك اثم الأريسيين^(١) — يعنى المقتدين به — و« يا أهل الكتاب : تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بانا مسلمون »^(٢) •

(١) يقال ان الأريسيين هم أتباع آريوس الذى كان ينادى بتوحيد الله عز وجل فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وهو الأصح — والله أعلم — .
(٢) آل عمران : ٦٤

قال أبو سفيان : فلما قال ما قل ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثير عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا . فقلت لأصحابي ، حين أخرجنا : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة . انه ليخافه ملك بنى الأصفر . فما زلت موقنا أنه سيظهر ، حتى أدخل الله على الاسلام .

وكان ابن الناذور ، صاحب « ايلياء » (١) يحدث أن هرقل ، حين قدم ايلياء أصبح يوما خبيث النفس . فقال له بعض بطارquete : قد استنكرنا هيئتك .

قال ابن الناذور : وكان هرقل حزاء ، ينظر في النجوم . فقال لهم حين سألوه : انى رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان ، قد ظهر . فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختتن من هذه الأمة الا اليهود . فلا يهملك شأنهم . واكتب الى مدائن ملكك . فليقتلوا من فيهم من اليهود . فبينما هم على ذلك أتى هرقل برجل . أرسل به ملك غسان ، يخبر عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما استخبره هرقل . قال : اذهبوا فانظروا . أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا اليه . فحدثوه أنه مختتن . وسأله عن العرب . أيختتنون ؟ فقال : هم يختتنون . فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر .

ثم كتب هرقل الى صاحب له برومية ، وكان نظيره في العلم . وسار هرقل الى « حمص » فلم يرم حمص ، حتى أتاه كتاب من صاحبه . يوافق رأى هرقل على خروج النبی صلى الله عليه وسلم . وأنه نبى . فأذن هرقل عظماء الروم في « دسكرة » له بحمص . ثم أمر بأبوابها فغلقت . ثم اطلع . فقال : يا معشر الروم . هل لكم في الفلاح والرشد . وأن يثبت ملككم . فتبايعوا هذا النبی ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها قد غلقت . فلما رأى هرقل نفرتهم . وآيس من ايمانهم . قال : ردوهم على . وقال : انى قلت مقاتلتى آفأ . اختبر بها شدتكم على دينكم . فقد رأيت . فسجدوا له ، ورضوا عنه .

فكان هذا آخر شأن « هرقل » .

فتأمل أيها « القس » ان كنت من أهل العقل والحدس . كيف كان العلماء منكم يعرفونه بعلاماته ، ويستدلون على صحة نبوته بحسن

(١) هي الآن : مدينة القدس ، ويسميها اليهود - لعنهم الله - « اورشليم » .

أوصافه وهيئاته • وهكذا فعل جماعة من عقلاء أهل الكتاب ، وغير واحد من ذوى الألباب • مثل : عبد الله بن سلام • والفارسي سلمان ، ونصارى « الحبشة » وأساقفة « نجران » •

ولا تشك ان كنت منصفاً • أنهم كانوا أعلم بالكتب منك ، وأعرف برسول الله وعلاماتهم من عثرتك • ولعلمهم بكتب الله ، وما جاء فيها من علامات محمد رسول الله ، لما جاءهم ما عرفوا ، وحققوا : آمنوا وصدقوا • فقالوا : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » (١) •

ولجهاكم بكتب الله ، وبعلامات رسول الله لما جاءكم الحق : كفرتم به « فلعنة الله على الكافرين » (٢) •

ومن أعظم آياته ، وأوضح دلالاته : ما جرى له مع قومه • وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما جاهر قومه بتبليغ ما أمره الله من الرسالة ، وصدع بأمره ، فسفه أحلامهم ، وعاب آلهتهم • وبين لهم فساد ما هم عليه • شق ذلك عليهم ، وأجمعوا على خلافه ، وعداوته • إلا من عصم الله منهم بالاسلام • كانوا اذ ذاك قليلاً مستخفين فأرادت قريش قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقتل من معه • والوثوب عليهم • فحذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه منهم لشرفه في قومه ، وعزته فلم يقدرُوا أن يصلوا اليه بشيء مما أرادوه • فلما رأوا أنهم لا يقدرُون أن يصلوا الى ضره ، لمنع عمه له منهم • اجتمعوا ، وقالوا لأبى طالب : ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آبائنا • فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلص بيننا وبينه • فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه • فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً • وردهم رداً جميلاً •

ثم قال له : يا ابن أخى ان قومك قد جاءونى • فقالوا لى : كذا • وكذا — للذى قالوا له — فابق يا ابن أخى على ، وعلى نفسك • ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق • فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك القول منه ، ظن أنه سيسلمه اليهم ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، والقيام معه ، فقال له : (يا عم • والله لو وضعوا الشمس

في يميني ، والقمر في يساري . على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهبكي . ثم قام . فلما ولي ناداه أبو طالب عمه . وقال له : أقبل يا ابن أخي ، واذهب فقل ما أحببت . فوالله ما أسلمك لشيء أبدا .

فلما رأت قريش أن أبا طالب لا يسلمه عزمته على حرب أبي طالب وقتاله . فتهيأ أبو طالب لقتالهم ، وجمع قومه وعشيرته لذلك . ثم انهم تصالحوا فيما بينهم . وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حاله ذلك من عيب دينهم وتسفيه عقولهم وذم آلهتهم لا يرد عنه ذلك راد ، ولا يصده عما يريد صاد .

فاجتمع أشراف قريش يوما . فقالوا : ما رأينا مثل صبرنا . على ما تلقى من أمر هذا الرجل . انه قد سفه أحلامنا ، وشتم آبائنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا . لقد صرنا منه على أمر عظيم . فبينما هم يقولون ذلك اذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت . فلما مر بهم غمزوه ، ببعض القول ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال لهم : (أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح) قال : فأخذت القوم كلمته وهيئته . حتى ما منهم رجل الا ناكس رأسه . كأن على رأسه طائرا واقفا . حتى ان أشدهم عليه وطأة ليلين له بالقول . ويقول له أحسن ما يجده من الكلام ، حتى انه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا . فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم . حتى اذا كان الغد . اجتمعوا . فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه . حتى اذا أسمعكم ما تكرهون تركتموه . فبينما هم في ذلك اذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم .

فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به ، يقولون : أنت الذي نتعيب آلهتنا ، وديننا ، فيقول : (نعم ، أنا الذي أقول ذلك) فأخذوا بمجمع بردائه ، وجبذوه جبدا شديدا . وهو في ذلك يقول لهم : (أنا الذي أعيب ما أنتم عليه) لم يفزعه ما رأى منهم ، ولا هاله ذلك . بك صبرا على ما ناله ، حتى نصره الله عليهم ، وأظهر دينه على دينهم .

فتأمل أيها العاقل • ان كنت منصفًا : فرق ما بين نبينا محمد عليه السلام ، وبين ما تحكيه النصارى عن المسيح في انجيلهم • وذلك أنها تحكى فيه : أن المسيح لما استشعر بوثوب اليهود عليه • قال : « قد جزعت نفسى الآن • فماذا أقول يا أبتاه ؟ فسلمنى من هذا الوقت » (١) وأنه حين رفع في الخشبة صاح صياحا عظيما • وقال : « الى • الى • لم غريتناى ؟ وترجمته : الى • الى • لم أسلمتنى ؟ » (٢)

وهذا غاية الجزع والخور ينزه عنه عيسى • بل هو من أكاذيبهم عليه •

وكذلك ذكرت في انجيلها : أن عيسى لما أخذته اليهود ، وحملته الى قائد القسيسين قال له : « أستحلفك بالله الحى أن تصدقنا : ان كنت المسيح ابن الله ؟ فقال له المسيح : أنت قلت « (٣) وهذا كلام يدل على أنه كتم نفسه ، وسترها ضعفا وجبنا • ثم ان كفار قريش لما أكرهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغاظهم شأنه • تشاوروا في أمره • فقال لهم « عتبة بن ربيعة » : يا معشر قريش : ألا أقوم لمحمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها ثاء ، ويكف عنا ؟ وذلك لما لم يقدرُوا أن يصلوا اليه بمكره • فقالوا له : بلى • فقام اليه عتبة • فقال له : يا ابن أخى • انك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة ، والمكانة في النسب • وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفحت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم •

فاسمع منى ، أعرض عليك أمورا لعلك تقبل منا بعضها • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قل • • أسمع) فقال : يا ابن أخى • ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا • وان كنت تريد شرفا ، سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك • وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا • وان كان

(١) (متى ٢٦ : ٣٨) •

(٢) الترجمة الحديثة : « ايلى ايلى لما شبقتنى • أى الهى الهى لماذا تركتنى » (متى ٢٧ : ٤٦) وفي مرقس « الوى الوى • • • الخ • (٣) متى ٢٧ : ١٥ مرقس ١١ : ٢ - ٤ لوقا ٢٢ : ٦٧ - ٧٠ و ٢٣ : ٣٠

هذا الذى يأتيتك رؤيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه • فلما فرغ قال له النبى صلى الله عليه وسلم : (أقدر فرغت ؟) قال : نعم • قال : (فاسمع منى) قال : أفعل • فقرا : « بسم الله الرحمن الرحيم • حم • تنزيل من الرحمن الرحيم • كتاب فصلت آياته ، قرآنا عربيا لقوم يطمون • بشيرا ونذيرا ، فاعرض أكثرهم ، فهم لا يسمعون » (١) ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة ، حتى اذا بلغ « السجدة » (٢) فسجد • ثم قال : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت • فأنت وذاك) •

فقام « عتبة » الى أصحابه • فقال بعضهم لبعض : أحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط • والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، ولا بالسحر • يا معشر قريش : أطيعونى ، واجعلوها بى • خلوا بين هذا الرجل ، وبين ما هو فيه ، واعتزلوا • فوالله ليكون لقوله الذى سمعت نبأ عظيم • فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم • وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم • وكنتم أسعد الناس به •

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه • فقال : هذا رأى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم •

فانظر • ان كنت عاقلا • كيف بذلوا له أموالهم ، فلم يلتفتها ، وعرضوا عليه ملك الدنيا ، فلم يعرج عليها ، بل صدع بأمر الله ، وبلغ ما أمره به الله •

وكذلك اجتمع كفار قريش أشراقهم وساداتهم فعرضوا عليه مثل الذى عرض عليه « عتبة » وقالوا له مثل قوله • فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما بى مما تقولون شيئا • وما جئتمكم أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا التملك عليكم • ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا • وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا •

(١) فصلت : ١ - ٤

(٢) أى الى نهاية الآية ٣٨ من سورة فصلت •

فبإفخكم رسالات الله ، ونصحت لكم • فان تقبلوا منى ما جئكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم) •

والأخبار فى هذا النوع كثيرة • ومن أوضح آياته ، وأشهر علاماته :

ما أكرمه الله به بعد وفاته • وذلك أنه قد اشتهر أنه صلى الله عليه وسلم لما توفاه الله تعالى اختلف غاسلوه فى تجريده القميص • فلما اختلفوا فى ذلك ألقى الله عليهم النوم ، حتى ما منهم رجل ، الا ذقنه فى صدره ، ثم كلمهم مكلّم من ناحية البيت • لا يدرون من هو ؟ ولا يرون أحدا : أن اغسلوا النبى ، وعليه ثيابه •

وكذلك روى أن « عليا » و « الفضل » حين انتهيا فى الفصل الى أسفله ، سمعوا مناديا يقول : لا تكشفوا عورة نبيكم صلى الله عليه وسلم •

وكذلك روى فى طرق صحاح أن أهل بيته سمعوا وهو مسجى بينهم قائلا يقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • أهل البيت • ان فى الله عوضا عن كل تالف ، وخلفا من كل هالك ، وعزاء من كل مصيبة • فاصبروا واحتسبوا • ان الله مع الصابرين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل • قال : فكانوا يرون أنه « الخضر » •

وقد آن أن نمسك العنان • اذ قد حصل البيان ، على أن قرأنا أحوال نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلاماته ، مما لا يحصى لها اللسان ، ولا يحيط بأجمالها انسان •

وقد نجز القول فى النوع الثانى من أدلة نبوته • والحمد لله • ونشرع الآن فى النوع الثالث •



النوع الثالث

الاستدلال على نبوته صلى الله عليه وسلم بالكتاب العزيز

الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

تنزيل من حكيم حميد

ولقد كان ينبغي أن نقدم الاستدلال بهذا النوع ، لكونه أعظم المعجزات وأوضحها وأشهرها . لكن قدمنا النوع الأول تسكيता للنصارى واليهود ، وتأسيسا .

وقدمنا النوع الثانى بناء وتأسيسا .

فنقول أيضا : محمد بن عبد الله رسول صادق فيما يقوله عن الله . والدليل على ذلك : أنه قد جاء بالمعجزات . وكل من جاء بها فهو صادق . فمحمد اذن رسول من الله صادق . فان قيل : لم قلت : أنه قد جاء بالمعجزات ؟ قلنا : قد نقل اليينا نقلا متواترا ، بحيث لا يشك فيه : أنه جاء بالقرآن ، وبمعجزات كثيرة . فاذن هو صادق .

ونبدأ الآن بالكلام على القرآن ، وبعد الفراغ منه نشرع في الكلام على غيره من المعجزات ، ان شاء الله تعالى .

فان أنكر منكر أن يكون جاء بالقرآن . فقد تبين غناؤه ، وسقط استرشاده ، ويقال له : قد حصل العلم بذلك لكل الأمم ، واستوى في ذلك العرب والعجم ، وسبيلك ان كنت منصف : أن تعاشر المتشرعين ، وتساءلهم عن أخبار الماضين ، ، حتى يحصل لك العلم اليقين . ولن ينازع في ذلك عاقل منصف . بل اما معتوه ، أو متعسف .

فان قيل : سلمنا انه جاء بالقرآن . فلم قلت انه معجزة ؟ قلنا : لأنه قد تحدى به كافة الفصحاء البلغاء . ومدة مقامه بينهم ، فلم يقدروا على معارضة شيء منه . . فاذن هو معجزة . بيان ذلك :

أنه صلى الله عليه وسلم بعثه الله الى قوم كان معظم علمهم : الكلام الفصيح البليغ المليح . فلقد خصوا من البلاغة والحكم ، بما

لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من دراية اللسان ما لم يؤته
إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يتعجب منه أولوا الأبواب • جعل
الله لهم ذلك طبعاً ، وخلقه فيهم غريزة ووضع • فيأتون منه على
البديهة بالعجب ويدلون به الى كل سبب فيخطبون بدلها في المقامات ،
وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب • فربما مدحوا
شيئاً وضيعاً فرغ • وربما ذموا شريفاً فوضع • فيصيرون بمدحهم
الناقص : كاملاً • والنبية : خاملاً • وذلك لفصاحتهم الرائقة ،
وبلاغتهم الفائقة • فكانوا يأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويوردونه
أعذب من الماء الزلال •

فيخدعون بذلك الأبواب ، ويذللون الصعاب ، ويذهبون الاحن ،
ويهيجون الفتن ويجرعون الجبان ، ويبسطون يد الجعد البنان • فهم
يعرفون أصناف الكلام • ما كان منه نثراً ، وما كان ذا نظام • قد
عمروا بذلك أزمانهم • وجعلوا ذلك مهمتهم وشأنهم ، حتى بلغوا
منه أعلى الرتب ، وأطلوا منه على كل غاية وسبب ، لا ينازعهم في
ذلك منازع ، ولا يدافعهم عن ذلك مدافع ، فبينما هم كذلك اذ جاءهم
رسول كريم بقرآن حكيم ، فعرضه عليهم وأسمعهم آياه ، واستدل
على صدقه بذلك •

وقال لهم : ان كنتم في شك من صدقي • فائتوا بقرآن مثله ،
وعند سماعهم له ، راعهم ما سمعوا ، وعلموا أنهم دون معارضته قد
انقطعوا • فلم يقدرُوا على ذلك • ثم انه طلب منهم أن يأتوا بعشر
سور مثله فعجزوا ، ولم يقدرُوا • ثم طلب منهم أن يأتوا بسورة مثله ،
فلم يستطيعوا • وعند ذلك أخبرهم • وقال لهم : « لئن اجتمعت الانس
والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان
بعضهم لبعض ظهيراً » (١) يعنى عونا • فعند ذلك ظهر عجزهم وتبلدهم •
وان كانوا هم اللسن الفصحاء ، اللد البلغاء •

وعند ظهور عجزهم تبين حجة ، ووضحت محجته ، وهكذا حال
غير واحد من الرسل ، ألا ترى أن الله تعالى أرسل موسى بن عمران
الى قوم كان معظم علمهم وعملهم السحر • فأيده بقلب العصى حية

تسعى ، فرام السحرة معارضته ومقاومته فلم يقدرُوا من ذلك على شيء •
وعند عجزهم تبين صدقه وأنه رسول من عند الله • وكذلك عيسى عليه
السلام بعثه الله في زمان كان معظم علم أهله الطب ، فأيده بإحياء الموتى
وابراء الأكمه والأبرص • وعند عجزهم عن الاتيان بشيء من ذلك
تبيين صدقه • وأنه رسول من عند الله فعلم بهذا البرهان ، الذي لا
يتطرق اليه خلل • أن محمدا رسول الله « قد خلّت من قبله الرسل » (١)

فان قيل : « لا نسلم أنه لم يعارض ، بل لعنه عورض ، ولم
ينقل ، أو نقل فأخفى » •

والجواب من وجهين :

أحدهما : أنا نقول لليهود والنصارى : هذا السؤال ينقلب
عليكم في معجزات موسى وعيسى • اذ يمكن أن يقال : ان ساحرا من
السحرة عارض موسى عليه السلام ، وأنه أتى بعضا • فقلبيها شعبانا
أعظم من شعبان موسى ، والتقم شعبان موسى •

ويمكن أن يقال للنصارى : ان عيسى عليه السلام عورض في احياء
الموتى ، وابراء الأكمه والأبرص ، ولم ينقل اليها • أو نقل فأخفى •
وكذلك نقول لغير اليهود والنصارى من الأمم في معجزات أنبيائهم •
فبالذى ينفصلون عن معجزات أنبيائهم • به بعينه ننفل عن معجزات
نبيينا عليه السلام •

وجملة ما قيل في جواب هذا : لو عورض لنقل • اذ العادات
تقتضى ذلك • فان هذا الأمر مهم عظيم ، تكثر العناية به ، فيكثر نقله ،
لا سيما في شريعتنا • فانهم قيل لهم : اذ لم تصدقوا ، ولم تعارضوا •
فأذنوا بحرب فلما لم يؤمنوا ، ولم يعارضوا قاتلهم ، فقتلهم ، وسبى
بذراريهم • وانتقم منهم غاية الانتقام • فلو قدرُوا على المعارضة
لمعارضوا ، ولو عارضوا لنقل نقلا متواترا • فان هذا الأمر من أهم
المهمات عند العقلاء •

الوجه الثانى من الجواب : وهو الانفصال الحق ، والكلام الصدق
أن نقول : من وقف على القرآن وسمعه ، وفهم معانيه ، وكان عارفا

بأصناف كلامهم علم عجز الخلائق عن الاتيان بمثله ضرورة كما يعلم عجز الاطباء عن احياء الموتى وابرء الأكمه والأبرص بنفس العلم بهذه الأمور ، والوقوف عليها • وكذلك من شاهد قلب العصى شعبانا مبينا يتلقف ما جاءوا به من السحر والتخييلات ، حصل له العلم القطعى بأن قلب العصى شعبانا يعجز عنه الخلائق أجمعون اذ ذاك خارج عن مقدورهم •

فان قيل : « احياء الموتى ، وقلب العصى ، وما ينزل منزلتها جلى ، لا يشك فيه من شاهده ، عام • بالاضافة الى كل العقلاء ، لا يبقى معه ريب لأحدهم • بل يحصل لهم العلم القطعى بذلك • وليس كذلك ما ادعاه نبيكم من اعجاز القرآن اذ لا يحصل العلم باعجازه لكل أحد • بل انما يحصل العلم بذلك عندكم ، وعلى زعمكم للفصحاء من العرب • وأما من ليس فصيحاً أو أعجمياً ، لا يفقه لسان العرب ، فلا يحصل له العلم باعجازه • فان الأعجمى لو كلف أن يتكلم بكلمة واحدة من لسان العرب لم يقدر على ذلك • فعدم قدرته على ذلك لا يدل على صدق المتحدى به • وكذلك من ليس فصيحاً من العرب لو كلف أن يأتى بكلام فصيح لم يقدر عليه • فلا يكون ذلك معجزاً فى حقه » •

الجواب : أن نقول : سنبين ان شاء الله وجوه اعجازه ، وأنها متعددة ، وان منها ما يدركه الجفلا ، ويشترك فى معرفة اعجازه أهل الحضارة والفلا

فيكون هذا النوع كقلب العصى ، واحياء الموتى • ولو سلمنا جدلاً أنه معجز من حيث بلاغته ، وأسلوبه المخالف لأساليب كلامهم فقط • لقلنا : ان العلم باعجازه واحياء الموتى ، وقلب العصى لا يحصل لكل العقلاء على حد سواء • ولا فى زمان واحد ، بل يحصل ذلك لمن علم وجه اعجاز ذلك الشيء المعجز ، حين يعرف أنه مما ليس يدرك بجيلة بشرية ، ولا يتوصل الى ذلك بالاطلاع على خاصية •

وقد لا يبعد أن تقوم شبهة عند جاهل بصناعة الطب والسحر تمنعه من تحصيل العلم بالاعجاز • فيقول : لعل موسى اطلع من السحر على شيء لم يعلمه السحرة ، ولا اطلعت عليه • وكذلك عيسى • لعله وقع على خاصية بعض الأحجار ، أو بعض الموجودات • فكان يفعل بها ما يظهر على يديه • وهذه الشبهة انما ممكن أن تظهر للجاهل بالطب

والسحر ، وأما العالم بالطب والسحر • فلا تكون هذه شبهة في حقه ،
للعلم الذي حصل له بالذوق والممارسة • بأن الذي جاء به هذا مما
ليس يدرك بحيلة صناعية ، ولا بالوقوف على خاصية ، بل هو صنع
خالق البرية • وأنه أراد به التصديق لهذا المدعى والشهادة واليقينية •
فحصل من هذا : أن العلم باعجاز احياء الموتى ، وقلب العصي ، إنما
يحصل أولا للسحرة ، والأطباء • ولا يحصل لكثير من الجهال بالطب
والسحر الأغبياء ، فكذلك اعجاز القرآن ، ولا فرق •

حصل العلم به لمن يعلم لسان العرب بالذوق ، بضرورة الفرق
الذي بينه ، وبين لسان العرب • فعلم أنه ليس داخلا تحت مقدور
العرب • وإذا عجز عنه العرب الفصحاء واللذ البلاغ ، فغيرهم أعجز •
كما أنا نقول : إذا عجز الأطباء عن احياء الموتى ، وبراء الأكمه
والأبرص ، فغير الأطباء أولى • وإذا عجز السحرة عن قلب العصي
شعبانا فغير السحرة أعجز ، وأعجز •

وقولهم : « إنما يعجز عنه العرب ، لا العجم » معارض بأن
يقال لهم : إنما يعجز عن احياء الموتى الأطباء ، لا غيرهم • وإنما
يعجز عن قلب العصي السحرة ، لا غيرهم • فيالذي ينفصلون به ،
منفصل ، بل نزيد عليهم في الانفصال ، بوجوه ترفع الاشكال • فإنا
سنبدى وجوها في اعجاز القرآن يدركها كل انسان عجميا كان أو عربيا •
مجوسيا كان أو كتابيا • وسنبينها ان شاء الله اثر هذا •

فقد حصل من هذا الكلام كله : العلم بأن محمدا صلى الله عليه
وسلم جاء بالقرآن ، وتحدى به ، وهو معجزة ، وكل من جاء بالمعجزة
وتحدى بها فهو صادق ، فالنتيجة معلومة وهي : أن محمدا صلى الله
عليه وسلم صادق •

فإن قيل : « فبينوا لنا وجوه اعجاز القرآن • وهل هو من جنس
ما يقدر عليه البشر فصرفوا عنه • أو ليس من جنس ما يقدرون عليه » ؟

فالجواب : أن نقول : ذهب بعض علمائنا الى أن وجه اعجازه
أنما هو من جهة أن صرفوا عن الاتيان به ، وأنه من جنس مقدور
البشر • لكن لم يقدروا عليه • وهذا ان كان • فهو بليغ في الاعجاز •
وذلك أن المعجزات ضربان : ضرب خارج عن مقدور البشر ، كأنفلاق

البحر ، وانشقاق القمر ، ونبع الماء من بين الأصابع • وضرب يكون من جنس مقدور البشر الا أنهم يمنعون من فعله ، ولا يقدرّون عليه • فلو أن نبيا ادعى أنه رسول الله ، واستدل على صدقه بأن قال لقومه : آيتي • ألا تقدروا اليوم على القيام • فكان ذلك • فهذا دليل صدقه ، وهو معجزة جليلة ، أبلغ في الاعجاز من الاتيان بما ليس بمقدور ، ولا يبعد أن يكون اعجاز القرآن من هذا القبيل • فان البشر قد صرفوا عن الاتيان بمثله • بل عن الاتيان بآية طويلة من آياته • ومن تنازع في ذلك فعليه بأن يأتي بقرآن مثله ، أو بسورة من مثله ، وهذا من خصائص نبينا صلى الله عليه وسلم •

وذلك أن معجزته موجودة بعده ، وحاضرة مشاهدة في كل وقت لم تنقطع بانقطاع وجوده ، ولا ماتت بموته • بل هي موجودة مستمرة الى قيام الساعة • فكل من أبدى نكيرا في نبوته ، أو قدحا في رسالته • قلنا له : ان كنت صادقا في تكذيبك له • فعارض قرآنه ومفرله • فان لم تفعل تبين العقلاء منه أنه متوآقح مبطل •

ثم نقول : والذي ذهب اليه أكثر علمائنا : أن القرآن خارج عن مقدور البشر ، وليس من جنس مقدورهم • وأن القرآن وإن كان كلاما ، فليس بينه ، وبين كلام العرب من المناسبة والالتقاء ، الا ما كان بين الحية التي انقلبت عصى موسى عنها ، وبين حيات السحرة ، التي كانت تخيل للناظر اليها : أنها حيات تسعى •

ووجوه اعجازه كثيرة • لكننا نبدي منها أربعة ، ونقتصر عليها • لبيانها ، وظهورها :

* * *

الوجه الأول

فنقول : **إن لسان العرب مباين للسان غيرهم** ، ومتميز عنه بأمر
يعلمها العارفون بالالسنه واللغات ، ولا يشكون فيها •

ومن غلط في ذلك وأنكره • فعليه أن يتعلم لسان العرب ، والسنه
غيرهم ، حتى يحصل له الفرق بينه ، وبينها ذوقا ومشاهدة ضرورية •
وتلك الأمور التي بآين بها غيره من الالسنه : خفة اللفظ على اللسان
وعذوبته ، وسهولة المخارج والتعبير عن المعنى الدائر في الضمير بأبلغ
عبارة ، وأوضح تفسير • وكما تميز لسان العرب عن لسان غيرهم •
كذلك غير لسان العرب • فكذلك تميز لسان محمد رسول الله صلى
الله عليه وسلم بأساليب آخر • ومناهج لم تكن العرب قبله تستعملها على
خجو ما استعملها هو • حتى أن من لم يعرف كلام رسول الله صلى الله
عليه وسلم وسمعه ، وكان عربيا يفرق بينه ، وبين كلام غيره من
الفصحاء • فانه يبرز على بلاغة البلغاء ، وينف في حكمته على جميع
الحكماء •

وكذلك كانت العرب تقول له : ما رأينا بالذى هو أفصح منك •
وهذه المناهج المعروفة في كلامه انما يعرفها على التحقيق من باشر
كلامه ، وتتيحه وتفهمه ، وكان عارفا بلسان العرب ، وكما تميز كلامه
عن كلام العرب وزاد عليهم • فكذلك تميز كلام الله عن كلامه بأساليب
آخر • حتى أنه كان اذا تكلم بكلامه أدرك الفرق بينه وبين كلام الله
حين يتلوه ، ويتكلم به • حتى كان العاقل الفصيح اذا سمعه قال :
ليس هذا من كلام البشر ، ولا مما تقدررون عليه • وسنذكر ما نقل
إلينا عن فصحاءهم لما سمعوا القرآن •

فمن الوجوه الذى به مايز القرآن كلام النبى صلى الله عليه
وسلم ، وكلام العرب : **فصاحته الرائقة • وبلاغته الموفقة ، وجزالته
الفائقة** ، حتى تسمع الكلمة الواحدة منه تجمع معانى كثيرة ، مع عذوبة
أيرادها ، وجزالة مساقها ، وصحة معانيها • مثل قوله : « **خذ العفو ،
وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين** » (١) •

ولما نزلت هذه الآية قال « أبو جهل » وكان من أشد الأعداء •
على محمد خير الأنبياء : ان رب محمد لفصيح • وهذه الآية بما تضمنت
من الأحكام ، وتفسير الحلال والحرام ، والاعراض عن أهل الجهل
والاجترام ، والأمر بالتزام أخلاق الكرام • تدل دلالة قاطعة على أنها
كلام العزيز العلام • مع ما هي عليه من اللفظ الجزل الرصين ، الذي
يروع قلوب العارفين • ويثلج قلوب القارئین والسامعين •

وكذلك قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وإيتاء ذى
القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى • يعظكم لعلكم
تذكرون » (١) •

ولما سمع « المغيرة » هذه الآية • وكان من أعدائه ، الذين
يريدون اطفاء نوره ، وازهاب بهائه • قال : والله ان له لحلاوة ، وان
عليه لطلاوة ، وان أسفله لمعدق ، وان أعلاه لمثمر مورق ، وما يقول
هذا بشر • وهذه الآية قد تضمنت بحكم عمومها ، وصحة مفهومها
معانى كتب المتقدمين ، وشرائع الماضين ، وتذكرة الحاضرين ، وتخويف
المقصرين ، وترغيب المجتهدين ، مع ما هي عليه من قلة الكلمات ،
ومع عذوبة المساق والجزالات •

وكذلك قوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ،
فأولئك هم الفائزون » (٢) حكى أن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى
الله عنه ، بينما هو يوما نائم فى المسجد • اذ وقف على رأسه رجل
يتشهد بشهادة الحق • فاستخبره • فقال : انى كنت من بطارقة الروم •
وكنت ممن يحسن كلام العرب وغيرهم • فسمعت أسيرا من المسلمين
يقرأ آية من القرآن فتأملتھا ، فاذا هي قد جمع فيها ما أنزل الله
على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة • ثم قرأ عليه :
« ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه » — الآية المتقدمة — وكذلك
قوله تعالى : « وأوحينا الى أم موسى : أن أرضعيه ، فاذا خفت
عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ، ولا تحزنى ، انا رادوه اليك ، وجاعلوه
من المرسلين » (٣) •

حكى أن « الأصمعى » سمع جارية من العرب (١) . فتعجب من فصاحتها . فقالت : وهل بعد قول الله تعالى فصاحة ، حيث قال : « وأوحينا إلى أم موسى : أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزنى ، أنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين » . فانه جمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين ؟

وكذلك قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (٢) حكى أن أعرابيا لما سمعها سجد . فقيل له : لم سجدت ؟ فقال : سجدت لفصاحته ، ولا يظن الجاهل : أنا نستدل على فصاحته بكلام هؤلاء الأعراب . كلا . لو كان ذلك لكانت الحجة أضعف من السراب . بل نعلم : أنه معجز بفصاحته علم ضرورة تحصل لنا عند سماعه وقراءته . والبلغاء اذا وقفوا عليه وسمعوه ، لذلك العلم مضطرون ، بحيث لا يرتابون ولا يشكون .

كيف ؟ والعربى الفصيح اذا سمع قوله تعالى : « ولكم في القصص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » (٣) وقوله تعالى : « ولو ترى اذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب » (٤) وقوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٥) وقوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء اقلعى ، وغيبى الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » (٦) وقوله تعالى : « فكلأ أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٧) ومثل هذا كثير ، قضى من هذه البلاغة والجزالة ومئاته هذه المعانى : العجب . وعلم أن مثل هذا لا يقدر عليه أحد من العجم ، ولا من العرب .

(١) يقال : انه سمع الجارية تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله قتلنا انسانا بغير حله
مثل غزال ناعم فى دله وانتصف الليل ولم أصله

(٢) البقرة : ١٧٩

(٣) الحجر : ٩٤

(٤) فصلت : ٣٤

(٥) سبأ : ٥١

(٦) العنكبوت : ٤٠

(٧) هود : ٤٤

وما عسى أن يقال في كلام ذي الجلال • اذ هو أصدق الكتب ،
ومصدق خير الرسل ، ولو كانت البحار مدادا ، وجميع الجن والانس .
كتابا • ما بلغوا معشاره ، ولا قدروا مقداره •

قال الله تعالى العظيم ، في كتابه الكريم : « قل لو كان البحر مدادا
لكلمات ربي ، لنفد البحر ، قبل أن تنفذ كلمات ربي ، ولو جئنا بمثلهم
مددا » (١) •

فهذا هو الوجه الأول •

* * *

الوجه الثانى

من وجوه اعجاز القرآن : نظمه العجيب وأسلوبه الغريب ، الذى خالف به جميع أسلوب كلام العرب • حتى كأنه ليس بينه ، وبينه نسب ، ولا سبب • فلا هو كمنظوم كلامها ، فيكون شعرا موزونا ، ولا كمنثوره ، فيكون نثرا عريا عن الفواصل ، محروما • بل تشبه رؤوس آيه ، وفواصله ، قوافى النظم • ولا تدانيها ، وتخالف آيه ، متفرقات النثر ، وتناوينا • فصار لذلك أسلوبا خارجا عن كلامهم • ومنهاجا خارقا لعادة خطابهم • وذلك أن كلام بلغاء العرب لا يخلو :

اما أن يكون موزونا منظوما • أو غير موزون ولا منظوم • فالأول : هو الشعر • وهو أصناف وأنواع بحسب اختلاف أعاريضه • والثانى : هو النثر • والقرآن العزيز خارج عن الصنفين ، مفارق للنوعين • فارق الشعر بأنه ليس موزونا وزنه ، فتكسره لفظة زائدة ، ولا مرتبطا ربطه حتى تفسده مخالفة قافية واحدة ، فى الوقوف عليه • وأوضح شاهد ، وأقطع لشبهة كل معاند •

وها أنا أتلوا عليكم معشر النصارى بعض آياته ليتحقق المنصف صدق شهاداته •

قال الله العظيم ، فى محكم كتابه الكريم : « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا • فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت : انى أعوذ بالرحمن منك أن كنت تقيا • قال : انما أنا رسول ربك ، لاهب (١) لك غلاما زكيا • قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا • قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا متقضيا • فحملته فانتبذت به مكانا قصيا • فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا •

(١) فى الأصل (ليهب) وقراءة حفص (لاهب) •

فناداهما من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا • وهزى
إليك بجذع النخلة ، تساقط عليك رطباً جنياً • فكلى واشربى وقرى
عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى : انى نفرت للرحمن صوما
فلن أكلم اليوم انسيا • فأنت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم لقد
جئت شيئا فريا • يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك
بغيا • فأشارت اليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا • قال :
انى عبد الله أتانى الكتاب وجعنى نبيا • وجعنى مباركا أين ما كنت
وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا • وبرأ بوالدتى ، ولم يجعنى
جبارا شقيا • والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث
حيا» (١) •

ثم بعد ذلك أخذ فى أسلوب مخالف هذا • فقال تعالى :

« ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون • ما كان لله
أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له : كن فيكون •
وان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » (٢) •

هكذا • الى أن فرغ من هذا النمط ، ثم شرع فى نمط آخر ،
على ما يعرفه من وقف عليه ، وتدبره • وانما تلونا هذه الآيات على
الخصوص فى هذا المقام لما تضمنه من الأخبار عن عيسى ومريم
عليهما السلام حتى يعلم النصارى بطلان ما يقولوه عليهما من الكذب
والأوهام •

فانظر • ان كنت عاقلا منصفا • كيفية هذا النظم الشريف ،
البديع المنيف ، كيف عادل بين رؤوس الآى ، بحروف تشبه القوافى ،
وليس بها ، والتزمها ثم عدل عنها ، الى غيرها • مع أن السورة واحدة
بخلاف ما يفعل النائر ، فانه لا يلتزم قوافى ، ولا فواصل •

والقرآن العزيز ذو آيات لها فواصل ومقاطع ، ورؤوس تشبه
القوافى ، فقد عرفت أنه خالف نظم كلام العرب ، ونثرها • فهو منهاج
آخر ، وأسلوب لم تكن العرب تعرفه • ولما سمعته العرب ووعته ،
لم يتحدث قط واحد منهم : بأنه يقدر على معارضة آية منه ، بل حارت

فيه عقولهم ، وتدلته دونه أجلامهم • ولذلك قال « الوليد بن المغيرة »
للأقرش : يا معشر قریش • انه قد حضر موسم الحج ، وان وفود
العرب ستقدم عليكم • وقد سمعوا بأمر صاحبكم • ولا بد أن يسألوكم
عنه • فماذا تقولون لهم ؟ فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، لئلا تكذبكم العرب ،
إذا اختلفتم فيه • قالوا : نقول : انه كاهن • فقال لهم : والله ما هو
بكاهن • لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ، ولا سبعة •
قالوا : فنقول : انه مجنون • قال : والله ما هو بمجنون • لقد رأينا
المجنون ، وعرفناه • والله ما هو بخنقه ولا تخالجه ، ولا وسوسته •
قالوا : فنقول : انه شاعر ، قال : ما هو بشاعر • لقد عرفنا الشعر
كله ، رجزه ، وهزجه ، ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر • قالوا :
فنقول : انه ساحر • قال : ما هو بساحر • لقد رأينا السحرة وسحروهم •
فما هو بنفته ، ولا عقده • وما أنتم قائلون شيئا من هذا الا كذبتكم
العرب • وعرفت أنه باطل • قالوا : فما تقول أنت ؟ قال : والله ان
لقوله لحلاوة وان أصله لمعذق ، وان فرعه لمثمر ، وان أقرب القول
فيه أن تقولوا : انه ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء
وابنه ، وبين المرء وأخيه • يعنى : أن هذا تقبله العرب فانها لا تعرف
السحر • فعولوا على أن يقولوا : انه سحر • ففعلوا • وفى « الوليد »
أنزل الله تعالى : « ذرنى ومن خلقت وحيدا • وجعلت له مالم ممدودا •
وبنين شهودا • ومهدت له تمهيدا » (١) •

فانظر كيف عرفوا أنه ليس من جنس كلامهم ، ولا من جنس
كلام الكهنة ، ولا السحرة ، ولم يمنعهم من الايمان به ، الا ما سبق
لهم من الشقاوة والعناد والحسد والجفوة •

وكذلك قال لهم « عتبة بن ربيعة » لما سمع « حم • تنزيل من
الرحمن الرحيم » (٢) قال : والله ما سمعت مثله قط • والله ما هو بالشعر ،
ولا بالسحر ، ولا بالكهانة • فقد تقدم بكماله ، فلينظر هناك •

وكذلك قال « أنيس » أخو « أبى ذر الغفارى » وكان شاعرا مفلقا ،
يناقض الشعراء ويعارضهم • فلما سمع القرآن • قال لأخيه « أبى ذر »
لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت على أقرء

الشعر ، فلم يلتئم • وما يلتئم على لسان أحد يدعى أنه شعر •
والله أنه لصادق ، وانهم لكاذبون •

والأخبار الصحاح في هذا المعنى أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب •

فقد اتضح من هذا الوجه ، ومن الذى قبله : أن القرآن العزيز
معجز بمجموع فصاحته ونظمه • وقد تبين أنهما وجهان متغايران •

ثم هل كل واحد من هذين الوجهين معجز بانفراده • أو انما يكون
معجزا باجتماعهما ؟ هذا فيه نظر •

ولعلمائنا فيه قولان • ليس هذا موضع استيعابهما ، ولا حاجة
بنا ، في هذا الكتاب الى بيانهما • اذ قد عرف وتحقق : أنه بفصاحته
ونظمه معجز • ومن تشكك في ذلك أو أبدى فيه أمرا ، بعد الوقوف
على القرآن ، فهو منكر لما هو ضرورى • والذى يبطل عناده ، ويظهر
جسيم جهله أن يقال له : اثبت بسورة من مثله •

والله ولى التوفيق ، وهو بتنوير قلوب أوليائه حقيق •

* * *

الوجه الثالث

من وجوه اعجاز القرآن ما تضمنه من الاخبار بالغيات قبل أن يحيط أحد من البشر بعلمها ، وبوقوع كائنات قبل وجودها • وذلك أمر لا يتوصل الى العلم به ، الا من جهة الصادقين الذين يخبرون عن الله تعالى •

ونحن نذكر منها مواضع على شرط التقريب والاختصار ، تغنى عن التطويل والاكتثار •

فمن ذلك قوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام ، ان شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ، ومقصرين ، لا تخافون » (١) •

فهذه الآية من أوضح معجزاته صلى الله عليه وسلم • وذلك أن الله تعالى وعده بأن يدخله المسجد الحرام هو وقومه في حالة أمن ، ويفتح عليهم مكة على أحسن حال • فما زالوا ينتظرون ذلك حتى بلغ وقته ، وصدق وعده ، فدخلوا كما وعدهم ، وفتحوه على ما أخبرهم •

ومن ذلك قوله تعالى : « ألم • غلبت الروم • في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبون • في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ، ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم • وعد الله ، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢) •

وهذه الآية أيضا من أعظم معجزاته • وذلك أن هذه الآية لما نزلت كانت « فارس » غالبى « الروم » وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على فارس ، لكون الروم أهل كتاب ، وكانت قريش يحبون ظهور فارس على الروم ، لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ، ولا إيمان • فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه يصيح في الناس ، وفي نواحي مكة بهذه الآية • ويقرأها على مشركى

(١) الفتح : ٢٧

(٢) الروم : ١ - ٦

قريش • فقال ناس من قريش : زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين • أفلا نراهنك على ذلك ؟ فقال : بلى — وذلك قبل تحريم الرهان — فارتهن « أبو بكر » والمشركون ، وتواضعوا الرهان • وقالوا لأبى بكر : كم نجعل البضع — البضع ثلاث سنين الى تسع سنين — قسم بيننا وبينك وسطا ننتهي اليه ؟ قال : فسموا بينهم : ست سنين • فمضت الست سنين قبل أن يظهروا • فأخذ المشركون رهن أبى بكر • فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس • فعاب المسلمون على أبى بكر تسميه : ست سنين • لأن الله تعالى قال : « في بضع سنين » •

قال : وأسلم عند ذلك ناس كثير (١) • ومن ذلك قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم • وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا • يعبدوننى ، لا يشركون بى شيئا » (٢) • وقد فعل الله ذلك بمحمد وأمه • ملكهم الأرض ، واستخلفهم فيها ، وأذل لهم ملوكها • تحت سيف القهر • بعد أن كانوا أهل عز وكبر ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ومنحهم رقابهم « وعد الله • ان الله لا يخلف الميعاد » (٣) • ومن ذلك قوله تعالى : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم • والله متم نوره ، ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله • ولو كره المشركون » (٤) •

فان قيل : « كيف يصح لكم قوله : « ليظهره على الدين كله » ومعلوم أن ملك النصارى لم ينقطع في حياته ، ولا بعد موته • وهذا ملكهم قائم • فلم يظهر دينكم على دينهم • فلا معنى لقوله : « ليظهره على الدين كله » ؟

(١) وفي الآية اعجاز آخر وهو فرح المؤمنين فيما بعد بنصر الله ، وقد انتصروا على فارس والروم •
(٢) النور : ٥٥
(٣) الرعد : ٣١
(٤) الصف ٨ ، ٩ ، والمعنى لايام النبى صلى الله عليه وسلم والمستقبل من الايام الى يوم القيامة •

الجواب : أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة . والى جميع أهل الملل عامة . نصرانيهم ، ويهوديهم ، وغير ذلك . فبلغهم ما أمره الله به فكلهم . فناصبوه العداوة ، وأبدوا له صفحة الخلاف وهموا بإبطال دعوته ، واطفاء كلمته . وبذلوا في ذلك غاية جدهم ، واستفروغا أقصى جهدهم . فنصبوا لحربه ، وعزموا على قتله ، ونهبه . ومرسله يقول له : « بلغ ما أنزل اليك من ربك . وان لم تفعل فما بلغت رسالته . والله يعصمك من الناس » (١) .

فأول من حاربه : كفار قريش ، فأظفره الله بهم ، وأظهره عليهم ، ثم حاربته : يهود ، فأمكنه الله منهم ، وملكه أرضهم وديارهم . فقتل وسبا ، وأسر . فعلا عليهم وظهر . ثم حاربته النصارى فغزاهم بتبوك ، ودخل عليهم بلادهم ، وافتتح في طريقه حصونا لهم ، ولغيرهم ، وأظهره الله عليهم ، وضرب على كثير من ملوكهم الجزية .

ثم ان أصحابه بعده ، لم يزالوا على مثل حاله . يقاتلون كل من كفر بالله ، ولا يخافون لومة لائم في الله . فلقد صيروا ملوك الزوم وغيرهم : أذلة أهل صغار ، وجزية ، وذلة ، ثم لم يزل دين الاسلام ، مع مرور الأيام ينتشر بكل مكان ، ويظهر . وغيره من الأديان يقل ويصغر .

وحسبك شاهدا على ذلك فتح هذه « الجزيرة الأندلسية » (٢) .

(١) المائدة : ٦٧

(٢) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة « الأندلس » على شبه جزيرة « ايبيريا » المكونة من أسبانيا والبرتغال (ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة الأندلس . والروض المعطار ص ١) . وتطلق في الرواية العربية أيضا أسبانيا المسلمة ، التي كانت عقب الفتح تشمل كل أسبانيا ما عدا « جليقة » ، وولايات جبال « البرنية » . ولكن « الأندلس » تطلق في العصور المتأخرة ، وفي الجغرافيا الحديثة على ولايات الأندلس الواقعة في جنوب أسبانيا ، بين نهر الوادى الكبير والبحر وبين ولاية مرسية « واشبيلية » ، وما زالت « الأندلس » « Andalusia » تحتل في تقسيم أسبانيا الإدارى الحاضر نفس هذه المنطقة . والرواية العربية تعلل هذه التسمية بصور مختلفة ، فنقول مثلا أنها سميت أندلس باسم أول من سكنها من قديم الزمان ، وهم قوم من الأعاجم يقال لهم أندلوس (نفح الطيب ج ١ ص ٦٧) . ويقول ابن الأثير : ان النصارى يسمون الأندلس « اشبانية » باسم « اشبانس » أحد ملوكها ، وهذا هو اسمها عند « بطليموس » (ج ٤ ص ١٢١) . ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليقا أدق فيقول انها سميت =

على يدي جماعة من العرب قليل عددهم ، وعددهم (١) ، كثير دينهم ومددهم .
على أعداد من النصارى لا تحصى ، وجنود لا تستقصى . ولكن صدق
الله عبده ، وأنجز وعده ، وهزم الأحزاب وحده . فأمكنهم الله منكم ،
وأظهرهم عليكم ، فأجدادكم عندهم بين أسير وقتيل . وتحت صغار
الجزية ذليل ، وأصدق شاهد على ظهور دين الاسلام على دينكم ،
وجميع الأديان غلبتهم على بيت حجكم ، وموضع قرايبتكم المعظم ،
والمسجد المحرم . بيت المقدس حيث أراد الله أن يطهره من رذائلكم ،
وينزله عن جهالاتكم ، وخباثتكم . فافتتحه المسلمون . وظهر دين
الله على الدين كله ، ولو كره الكافرون .

ومن ذلك قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي
أنفسهم » (٢) .

وقوله : « في الآفاق » يريد بذلك فتح الأمصار ، وقوله :
« وفي أنفسهم » يعنى به فتح مكة . وقوله : « سنريهم » يرجع إلى
كفار قريش . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ان الله زوى

= « الأندلس » باسم « قنبدلس » ولعلها « فندلس » ومن الواضح أنه يقصد
« الفندال » أى « الوندال » (ج ٢ ص ٢٣٥ فى تاريخ القوط) . ويقدم لنا
البكرى خلاصة دقيقة لهذه التسميات الجغرافية التاريخية فيقول فى وصفه
لجزيرة الأندلس : ان اسمها القديم « اباريه » « Iberia » من وادى « ابرة » .
ثم سميت بعد ذلك « باطنة » « Baetica » من وادى بيطسى وهو نهر قرطبة .
ثم سميت « اشبانية » من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه « اشبان » .
وقيل سميت باسم « الاشبان » الذين سكنوها فى أول الزمان على جرية
النهر وما والاها . وقال قوم : ان اسمها فى الحقيقة « اشبارية » « Hisperia »
من « اشبرس » وهو الكوكب المعروف بالاحمر . وسميت بعد ذلك بالأندلس
من أسماء « الأندليس » من الذين سكنوها « والأندلس » هم « الوندال »
« Vandals » وهذا هو التعليل الذى يأخذ به « دانفيل » « Danville »
اذ يقول : ان الاشتقاق مأخوذ من كلمة « فاندالوسيا » « Vandalusia »
أى بلد « الوندال » ، (نقله « جيبون » عن كتاب ممالك أوروبا فى هامش
الفصل الحادى والخمسين) وهذا ما يقرره الفيزيرى أيضا فى معجم مخطوطاته
الاستيكوريال :

(Biblu. Arabico - Hispana Escnrialensis II) (p. 237. Casiri).

من عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، هامش ص ٥٠

(١) « عددهم » : الأولى بفتح العين ، والثانية بضمها .

(٢) فصلت : ٥٣

لى الأرض • فرأيت مشارقها ومغاربها • وان ملك أمتى ، سيبلغ ما
زوى منها) — ومعنى « زوى » : جمع —

ومن ذلك قوله تعالى : « سيهزم الجمع ، ويولون الدبر » (١) •

يريد بذلك والله أعلم : جمع كفار قريش • وكذلك فعل بهم
وذلك أنهم خرجوا الى حربه صلى الله عليه وسلم فى غير موطن ،
فهزمهم الله ، وولوا الأدبار ، وكانت عاقبتهم الخسار والبوار •

وكذلك قال تعالى فى آيات آخر : « قل للذين كفروا مستغلبون
وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » (٢) •

وفى آية أخرى : « ان يضروكم الا اذى ، وان يقتاتوكم ، يواوكم
الأدبار ، ثم لا ينصرون » (٣) •

فهذه الآية اقتضت بشارتين :

احدهما : أنهم لن يصلوا الى أصحاب النبى بضر أكثر من السب •
والثانية : أنهم يغلّبون ، ويولون الأدبار • وكذلك كان على نحو
ما أنزله ذو العزة والسلطان •

والآيات فى القرآن لهذا النوع كثيرة • ومن ذلك قوله تعالى :
« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٤) — يعنى بالذكر : القرآن
العزیز —

أخبرنا الله تعالى فى هذه الآية : أنه أنزله ، وأنه تولى حفظه •
وهذا كتاب الله محفوظ بحفظه ، لا يقدر أحد على تغيير كلمة واحدة من
لفظه على كثرة من سعى فى تغييره ، فأطفا نوره ، لا سيما « القرامطة »
فانهم كانوا قد أجمعوا كيدهم ، واستنفدوا فى تغييره وتحريفه جهدهم ،
ولم يزل كذلك دأبهم ، ودأب غيرهم ، من أعداء الدين ، وعتاة الملحدين ،
ويأبى الله الا أن تلى كلمته ، وتظهر شريعته •

وقد قدمنا أسباب حفظ القرآن • فلا معنى لاعادتها مع الأحيان •

(٢) آل عمران : ١٢

(٤) الحجر : ٩

(١) القمر : ٤٥

(٣) آل عمران : ١١١

ومن ذلك قوله تعالى : « انا كفيلاك المستهزئين ، الذين يجطلون مع الله الها آخر » (١) •

وكان هؤلاء المستهزئون ، نفرا من الكفار معروفون بأعيانهم وأسمائهم ، ينفرون الناس عنه ، ويؤذونه ، ويهزأون به ، فأنزل الله على نبيه هذه الآية يبشره باهلاكهم وهم أحياء • فكان سبب اهلاكهم من أعجب آيات النبي صلى الله عليه وسلم • وذلك أنه كان منهم : « الأسود بن عبد المطلب » رمى في وجهه النبي صلى الله عليه وسلم بورقة خضراء ، فعمرى • ومنهم « الأسود بن عبد يغوث » أشار اليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستسقى بطنه • فمات حبنا • ومنهم « الوليد بن المغيرة » أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى أثر جرح كان بأسفل كعبه ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين • وكان قد برأ فتجدد حتى قتله الله به • ومنهم « العاص بن وائل » أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى اخمص رجليه ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فرماه حماره على الأرض ، فدخلت في اخمص رجليه شوكة • فقتلته • ومنهم « الحارث بن الطلالة » أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى رأسه ، فاستحال دمه : قيحا • فقتله •

فانظر • بعقلك هذه الأمور العجيبة ، وهذه الأحوال الغريبة التي لا تلحق بالأفكار ، ويحار فيها أولى الأبصار ، بل تشهد عندها العقول : أن المقصود بها تصديق الرسول • فوالله لو لم يكن له من المعجزات الا هذه الآية • لكان فيها أعظم كفاية ولحصل من تصديقه على أبعد غاية •

وفي كتاب الله تعالى ، من هذا القبيل ما يحتاج استقصائه الى تكثير ، وتطويل وحسبك ما تضمنه من كشف أسرار المنافقين ، وفضيحة اليهود الضالين • فلقد يقضى الناظر فيها من ذلك العجب العجيب • ويتحقق أنه من عند الله من غير شك ، ولا ارتياب •

* * *

الوجه الرابع

في وجوه اعجاز القرآن : ما تضمنه من الاخبار عن الأمم السالفة ، والقرون السالفة ، والشرائع الدائرة ، والقصص الغابرة التي لا يعلم منها بعضها الا الآحاد من علماء ذلك الشأن . الذين قد انقبضت لهم في تعلم تلك العلوم : أزمان . فيورده النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن على وجهه ، ويأتى به على نصه ، فيعترف العالم بصحته ، وتصديق قصته ، مع العلم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينل ذلك بتعليم ، ولا اكتسب ذلك بواسطة معلم ولا حكيم . بل حصل له ذلك باعلام العزيز العليم .

والا . فهو أمدى ، لا يقرأ ولا يكتب ولا يتفقه ولا يحسب . ومع ذلك فقد حصلت له علوم الأولين والآخرين ، وصار كتابه وكلامه منبع علوم العالمين . فلقد كان أهل الكتاب يجتمعون اليه ، ويلحون بالأسئلة عليه . فينزل عليه بأجوبتهم القرآن . فما ينكر شيئاً من ذلك منهم انسان ، بل يعترف بذلك . ولا ينكر شيئاً مما يسمع هناك . هذا . مع شدة عداوتهم له ، وحرصهم على تكذيبه . وهو مع ذلك يحتاج عليهم بما في كتبهم ويقرعهم بما انطوت عليه مصاحفهم ، ويبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من شرائع كتبهم ، ووصايا رسلهم . وهم مع ذلك يرومون تعنيته . ويقصدون بأسئلتهم تبكيته . مثل سؤالهم عن الروح (١) ، وعن ذى القرنين (٢) ، وعن أصحاب الكهف (٣) ، وعن عيسى ابن مريم (٤) ، وعن حكم الرجم (٥) ، وعن ما حرم اسرائيل على نفسه (٦) ، وعما حرم عليهم من الأنعام ، ومن طيبات أحلت لهم ، فحرمت عليهم ببيغيتهم (٧) . وغير ذلك من أمورهم التي نزل القرآن جواباً عنها ، فلم ينكروا شيئاً منها ، حين ذكرها لهم على وجهها .

(١) يقصد الروح القدس وقد وضحنا القصد في كتابنا (أقانيم النصرى) .

(٢) ذى القرنين : هو الاسكندر الأكبر المقدوني وقد استولى على مصر وبلاد الشام سنة ٣٣٣ ق م .

(٣) أصحاب الكهف : من النصرى وكانوا في قرية « أفسوس » في عهد القيصر الرومانى ديسيوس (انظر كتابنا اعجاز القرآن) .

(٤) التاريخ الميلادى : مشكوك فيه .

(٥) التثنية ٢٤ الاصحاح الثانى والعشرون .

(٦) التكوين الاصحاح الثانى والثلاثون .

(٧) سفر اللاويين (الاحبار) .

ونحن نذكر بعض ذلك على ما يقتضيه الاختصار ، ونقتصر على ما صح من الآثار ، وتناقله الجمع الكثير من رواة الأخبار .

فمن ذلك • ما استفاض ذكره ، واشتهر نقله : أن قريشا لما أتهمهم شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم • وأكربهم أمره • بعثوا « النضر بن الحارث » وكان من شياطين قريش • و « عقبه بن أبي معيط » إلى أحبار يهود ، بالمدينة يسألهم عن أمره • فجاءوا المدينة ، من مكة • وقالوا لأحبار يهود : انا جئناكم نسألكم عن شأن هذا الرجل • فانكم أهل الكتاب ، وعندكم من العلم ما ليس عندنا ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله • فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاثة • نأمركم بهن ، فان أخبر بهن فهو نبي مرسل • وان لم يفعل فالرجل متقول • فروا فيه رأيكم •

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان أمرهم فانه قد كان لهم حديث عجيب • وسلوه عن رجل طواف في الأرض • قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان نبؤه • وسلوه عن الروح ما هو ؟ فان أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبي • وان لم يفعل فهو متقول • فأقبل النضر ، وعقبه • حتى قدما مكة على قريش ، فأعلماهم بما قالت لهم أحبار يهود ، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عما أخبرت أحبار يهود ، فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم سورة أصحاب الكهف • وأخبره فيها بقصتهم ، واختلاف الناس في عددهم ، ومدة لبثهم في كهفهم ، حتى أتى على آخر قصتهم ، وأخبرهم أيضا عن قصة ذي القرنين الى آخرها ، وعن قصة الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام • وكيف سأل موسى السبيل الى لقائه ، وذكر فيها جوابهم عن الروح •

وذلك كله مع اللفظ الوجيز الفصيح ، والكلام الجزل الصحيح ، الذي لا يملئه سامع ، ولا يطمع في معارضته طامع •

ومن ذلك قصة أهل نجران ، وكانوا نصارى سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عيسى عليه السلام فأنزل الله تعالى في القرآن : « ذلك نتاوه عليك من الآيات ، والذكر الحكيم • ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون » (١) •

ومن ذلك أن نفرا (١) من أحبار يهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالوا : يا محمد • أخبرنا عن أربع نسائك عنهن • فإن فعلت اتبعناك ، وصدقناك ، وآمنا بك • فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم بذلك عهد الله وميثاقه • لئن أخبرتكم لتصدقنني) ؟ قالوا : نعم • قال : (فاسألوا عما بدا لكم) قالوا : أخبرنا كيف يشبه أولد أمه • وإنما النطفة من الرجل ؟ فقال لهم : (أنشدكم الله ، وبأيامه عند بنى إسرائيل • هل تعلمون نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة • فأيتهما غلبت • كان لها الشبه) قالوا : اللهم نعم (٢) • قالوا : فأخبرنا عن نومك كيف هو ؟ قال : (أنشدكم بالله ، وبأيامه هل تعلمون : أن نوم الذي تزعمون أنى لست به ، تنام عينه ، وقلبه يققان) (٣) قالوا : اللهم نعم • قال : (وكذلك نومي • تنام عيني ، وقلبي يققان) قالوا : فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : (أنشدكم بالله ، وبأيامه عند بنى إسرائيل • هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل • وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه • شكرا لله ، فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها) (٤) ؟ قالوا : اللهم نعم • قالوا : أخبرنا عن الروح • قال : (أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل • هل تعلمونه خيريل ، وهو الذي يأتيني ؟) قالوا : اللهم نعم • ولكنه يا محمد لنا عدو • هو ملك إنما يأتى بالشدة ، وسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك •

فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : « قل من كان عدوا لجبريل • فإنه نزله على قلبك بانئن الله ، مصدقا لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين » (٥) •

(١) ويرد هذا الخبر في سيرة ابن هشام • وقد علقنا عليه (انظر تحقيقنا لسيرة ابن هشام طبعة دار التراث العربى بمصر سنة ١٩٧٩ م) •

(٢) العلم الحديث كذب هذا وهو الحق •

(٣) ليس هذا من أوصافه في التوراة •

(٤) حرم عرق النسا (التكوين ٣٢) •

(٥) البقرة : ٩٧

ومن ذلك أن يهوديين بالمدينة زنيا ، فأمرت أحبار يهود بهما ، فحكما فمروا بهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهما : (ما هذا ؟ .. أهكذا تجدون في كتابكم ؟) قالوا : نعم . فكذبهم . وقال : « فائتوا بالتوراة . فاتلوها . ان كنتم صادقين » (١) فجاءوا بالتوراة ، فتلوها ، فاذا فيها آية الرجم (٢) ، فوضع الذي كان يقرؤها يده عليها . وقرأ ما بعدها ، وما قبلها . فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفعها فاذا بآية الرجم ، فاعترفوا بذلك فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما . ثم قال لليهود : (ما حملكم على هذا ؟) فقالوا : كنا اذا زنى الشريف منا عندنا ، لم نقم عليه الحد . واذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد ، فعظم علينا هذا . فرأينا أن نجتمع على حد يشمل الضعيف والشريف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحمد لله الذي جعلني أول من أحيا أمر الله) — نقلته بالمعنى —

فأنزل الله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون » ، و « الظالمون » ، و « الفاسقون » (٣) الآيات .

وفي هذا المعنى ، وما قاربه نزل قوله تعالى : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب » (٤) .

والأخبار في هذا كثيرة . ليس هذا موضع استيفائها . وفيما ذكرناه كفاية ، لمن كان ذا عقل ودراية . وهذان وجهان لا يتصور أن ينكر عاقل أنهما غير داخلين تحت مقدور البشر ، بل هما خارقان للعادة . اقترنا بتحدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وعجز الخليق عن معارضتهما فهو نبي صادق فيما أخبر به عن الله ، مصدق من جهة الله . ومما أخبر به عن الله : أن الله تعالى بعثه الى الناس كافة ، يهوديهم ، ونصرانيهم ، ومجوسيهم ، فهو رسول اليهم ، والى كافة وعامة ، ومن كذبه فقد استحق العذاب الأبدى ، والعقاب النمردى « أفمن حق عليه كلمة العذاب . أفأنت تنقذ من في النار » (٥) ؟

(٢) سفر التثنية : ٢٢

(١) آل عمران : ٩٣

(٤) المائدة : ١٥

(٣) المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧

(٥) الزمر : ١٩

ولا يظن ظان : أن اعجاز القرآن انما هو من هذه الوجوه الأربعة فقط . بل وجوه اعجازه أكثر من أن يحصوها عدد ، أو يحيط بها أحد . ولو شئنا لذكرنا منها وجوها كثيرة ، لكن شرط الاختصار ، منع من الاكثار ، ومن لم ينفعه الكلام المفيد القليل ، فهو معرض كسل عن الكثير .

وعلى الجملة : فاننا نقول لمن كذب محمدا صلى الله عليه وسلم ، أو شك في رسالته : ما قال الله تعالى في كتابه محتجا على من أصر على تكذيبه : « وأن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فاتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله . ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » (١) .

* * *

النوع الرابع

في الاستدلال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

بجملة من الآيات الخارقة للعادات

نذكر في هذا النوع — ان شاء الله — جملة كثيرة من آياته الواضحة ، وبراهينه المصدقة الراجحة ، فنقول — وبالله التوفيق — :

ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أوتي من المعجزات ، وجمع له من الآيات ما لم يجمع لأحد من الأنبياء قبله ، ولم يعط أحد مثله . فكان لذلك أوضحهم دلالة ، وأعمهم رسالة . ولذلك لم يعط الله نبيا من الأنبياء معجزة الا أعطى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم مثلها ، أو أوضح منها ، أو ما يقاربها . وسترى ذلك عيانا — ان شاء الله تعالى — ولكننا ان ذهبنا نذكر ما نقل اليينا من آياته وأوضح معجزاته . طال الكتاب وفي القليل الواضح كفاية ، لذوى الألباب . فلنقتصر من ذلك على ما تناقله علماء الأمصار والعدول من نقلة الأخبار ، مما صح نقله ، واشتهر ذكره وجمله^(١) .

ونحن نذكر ذلك في فصول :

الفصل الأول : في انشقاق القمر :

آية له صلى الله عليه وسلم فنقول : نقل خلفنا عن سلفنا ، النقل الذي لا يشك فيه : أن كفار قريش سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : آية ، وهو بمنى ، فأراهم : انشقاق القمر ، فصار فرقتين ، حتى رأوا حبلين « حراء » بينهما . وقال ابن مسعود : صار فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة تحته . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اشهدوا) ، فأمن وصدق من أراد الله نجاته . وقال كفار قريش : هذا سحر مستمر . فقال أبو جهل : هذا سحر ، فابعثوا الى أهل الآفاق ، حتى ينظروا . رأوا ذلك ، أم لا ؟ فأخبر أهل مكة : أنهم رأوه منسقا .

(١) القرآن يكفي في اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » .
(العنكبوت : ٥٠ ، ٥١)

فأنزل الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر » (١) وهذا الحديث قد نقله الجرم الغفير ، والعدد الكثير . منهم من الصحابة : عبد الله بن مسعود . وأنس . وابن عباس . وابن عمر . وحذيفة . وعلى . وجبير بن مطعم . وغيرهم . رضى الله عنهم .

وقد نقل الينا في القرآن نقلا متواترا ، محصلا للعلم ، يخبر عن ذلك المعنى من الانشقاق كما تلوناه آنفا ، فصحت الآية ، وعلمت المعجزة . والحمد لله .

فان قال غبي جاهل ، أو معاند مجادل : كيف يصح هذا ؟ ولو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، اذ هو شيء ظاهر لجميعهم ، ولو ظهر اليهم انتقل عنهم ، ولكان مشهورا منقولا على التواتر .

فالجواب . أن نقول : هذا الاستبعاد الوهمي يندفع بأيسر أمر . وذلك أن هذه الآية كانت آية ليلية ، والناس على عادتهم المستمرة : الغالب عليهم النوم . ومن كان منهم منتبها . كان منهم من قد انصرف عن ذلك ببعض أشغالهم ، وكان منهم أيضا من رآه على ما حكيناه عن أهل آفاق مكة . وأيضا . فلعله انما كان ذلك في أول طلوع القمر ، ولا شك أن الناس تختلف رؤيتهم للقمر وغيره من الكواكب بحسب اختلاف ارتفاع البلاد والأقاليم وانخفاضها . فليس كل من في معمر الأرض يراه في وقت واحد . بل يختلف ذلك في حقهم . فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين . وقد يطلع على قوم لا يشاهده الآخرون . وقد يحول بين قوم وبينه سحب ، أو جبال .

ولهذا تجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، ويكون في بعضها جزئية ، وفي بعضها كلية . وفي بعضها لا يعرفها الا المشتغلون بعلم ذلك ، ولا يحس بها غيرهم . لا سيما . وهذه آية كانت بالليل ، والعادة من الناس ما تقدم من الهدوء والسكون . وايجاف الأبواب وقطع التصرف ، ولا يكاد يعرف شيئا من آيات السماء الا من رصد واهتبل .

وكثيرا ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار وشهب
ونجوم طوالع عظيم تظهر في أحيان من السماء ، ولا علم عند أحد
غيرهم منها •

وانشقاق القمر من هذا القبيل • اذ لم يكن دائما • وانما كان
يسيرا في زمن قريب ، ثم لا يبعد أن يكون الله تعالى صرف الناس في
تلك الساعة عن النظر اليه ، لتختص هذه الآية بمشاهدة أهل مكة ،
ومن جاورها من أهل آفاقها • فيكون صرف الناس عن ذلك من قبيل
خوارق العادات • وذلك أوضح في المعجزات • فقد صح ما رمناه ،
وانفصلنا عما ألزمناه • والحمد لله •

وعند الوقوف على هذه المعجزة الطاهرة ، والآية الباهرة ، تعلم
أنها أعظم من انشقاق البحر ، الذي خص الله تعالى به موسى عليه
السلام ، وان كان عظيما • اذ انشقاق البحر ، لم يكن قطعا في معظم
البحر • من احدى ضفتيه الى الأخرى • وانما كان قطع طريق من
بحر القلزم الى مفارشود • والقمر انقسم فرقتين ، وصار شطرين •

الفصل الثاني : في حبس الشمس آية له صلى الله عليه وسلم :

روى أئمتنا ، وأهل العدالة منا : أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان يوحى اليه ، ورأسه في حجر « على » فلم يصل العصر ، حتى
غربت الشمس • فلما ارتفع الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم •
قال له : (يا على • أصليت العصر ؟) قال : لا • فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : (اللهم انه كان في طاعتك ، وطاعة رسolk • فاردد) قال
الراوي : فرأيتهما غربت • ووقفت على الجبال والأرض • وذلك بالصبياء
في خيبر •

ذكر هذا الحديث « الطحاوي » من طريقين • قال « عياض » :
وهذان الطريقان • ثابتان ، رواتهما ثقة • حكاة « البكري » •

ومن هذا القبيل ما ذكره « يونس بن بكير » في زيادة المنازى ،
روايته عن ابن اسحق : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير ، التي رأى في مسراه •
قالوا له : متى تجيء ؟ فقال لهم : « يوم الأربعاء » فلما كان يوم
الأربعاء الموعود به ، أشرفت قريش ينظرون ، وقد ولّى النهار ، ولم

تجىء • فدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ، فزيد له في النهار ساعة ، وحبيست عليه الشمس •

وهذه الآية أعظم من آية « يشوع بن نون » فانكم تقولون ان « يشوع » استوقف الشمس • فوقفت ، وفي بعض كتبكم : انما استوقف ضيائها • ونبيينا عليه السلام استرجعها فرجعت ، واستزاد ساعة في النهار فزيدت « ذلك تقدير العزيز العظيم » (١) •

فان اعترض معترض على معجزة نبيينا بشيء • فان كان كتابيا عارضناه بمعجزة « يشوع » (٢) فبالذي ينفصل عن معجزة « يشوع » بمثله ننفصل عما اعترض به • وان كان طبيعيا غير متشع • انتقل الكلام معه ، الى مواضع آخر ، ليس هذا موضع ذكرها •

الفصل الثالث : نبع الماء وتكثيره ، معجزة له صلى الله عليه وسلم :

وهذا الفصل نوعان • نوع نبع له الماء ، من بين أصابعه • ونوع آخر نبع له الماء ، من غير أصابعه •

فلنبداً بالأول : فنقول : روى الجهم الغفيز ، والمعدد الكثير : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في بعض أسفاره ، وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء ، فلم يجدوه • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هل مع أحد منكم ماء ؟) فأتى بماء في اناء ، فوضع يده في ذلك الاناء ، وسمى الله • قالت الصحابة : فرأينا الماء يخرج من بين أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضأوا كلهم • قيل لأئس : كم تراهم ؟ قال : نحو من سبعين • وقد اتفق له مثل هذا مرة أخرى • وكانوا نحو من ثلاثة مائة •

وكذلك عطش الناس يوم « الحديبية » ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه • وقالوا : ليس عندنا ماء • الا ما في ركوتك • فوضع النبي صلى الله

(١) يس : ٢٨

(٢) يشوع بن نون فتى موسى - عليهما السلام - كان يحارب وطلب اقامة الشمس ووقف القمر « فدامت الشمس ووقف القمر حتى انقطم الشعب من أعدائه » (يشوع ١٠ : ١٣) •

عليه وسلم يده في الركوة • فجعل الماء يفوز من بين أصابعه كأمثال العيون • وكانوا خمس عشرة مائة • قالوا : ولو كنا مائة ألف لكفانا •

فهذه ثلاثة مواطن • وقد روى عنه نحو هذا من طرق كثيرة ، لا يتطرق لها الكذب ، ولم يردّها أحد من أهل العقل والأدب ، لكونها وقعت في جموع كثيرة ، وتتأقّلها جماعات عديدة ، يدينون تخريم الكذب ، ويروونه أقبح شبهة ، وأشنع سبب ، بل يباعدون إلى ذم الكاذب ، وأظهار فضيخته ، ولا يقرون شيئاً من الكذب بحال عند معرفته • فهذا هو النوع الأول •

وأما النوع الثاني : فهو ما تواردت به الروايات عن الأئمة الأثبات • من ذلك ما اتفق له في غزوة تبوك • وذلك أنهم وردوا عينا بتبوك ، وهي تبض بشيء من ماء ، مثل الشراك • فغرفوا من العين بأيديهم ، حتى اجتمع منه شيء قليل ، ثم غسل النبي صلى الله عليه وسلم فيه وجهه ، ويديه ، وأعادها فيها • فجرت بماء كثير • فاستقى الناس • هذا حديث « معاذ » •

وقال « ابن اسحاق » فانخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق • ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يوشك يا معاذ • ان طالت بك حياة ، أن ترى ما هاهنا ، قد ملئ جنانا) وكذلك صنع ذلك الموضع جنانا بعده صلى الله عليه وسلم • وهذا من باب الاخبار عن الغيب •

ومن ذلك ما اتفق له بالحديبية أيضا • وذلك أنهم أتوا الحديبية ، وهم أربع عشرة مائة • وبئرها لا تروى خمسين شاة •

قال « البراء » و « سلمة بن الأكوع » فنزحناها فلم نترك فيها شيئاً • ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئرها ، قبضق ودغ • وأخرج سهماً من كنانته ، فوضعه في البئر ، فجاشت العين بماء كثير • فأرووا أنفسهم وركابهم ، وهم ألف وأربع مائة •

ومن ذلك ما روى « قتادة » صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الناس شكوا إليه العطش في بعض أسفاره • فدعا بالمبيضة ، فجعلها في ضبته • ثم التقم فمها ، فآله أعلم • نفث فيها ، أم لا ؟ فشرب الناس حتى رووا ، وملأوا كل إناء معهم • وكانوا اثنين ومبشرين رجلاً •

ومن ذلك الحديث المشهور عن « عمران بن حصين » وذلك أنهم كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فأصابهم عطش شديد ، فوجه رجلين من أصحابه وأعلمهم أنهم يجدون امرأة بمكان كذا ، لمكان معين ، عينه لهم • معها بعير ، عليه مزادتا ماء • فوجداهما بالموضع الذي عين لهم على الصفة التي ذكر لهم • فجاءا بها ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ من ماء المزادتين • وقال فيهما ما شاء الله أن يقول ، ثم أعاد الماء في المزادتين ، ثم غتحمهما ، وأمر الناس ، فملاوا أسقيتهم ، حتى لم يدعوا شيئاً إلا ملأوه • قال « عمران » و « نحييل » لى : أنهما لم يزدادا إلا امتلاء ، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد ، حتى ملأ ثوبها ، ثم قال لها : (اذهبي • فإنا ما نقصناك من مائك شيئاً • ولكن الله سقانا) •

ومن ذلك حديث عمر في جيش العسرة • وذكر ما أصابهم من العطش ، حتى أن الرجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه فيشربه ، فرغب أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء • فرفع يديه فلم يرجعهما ، حتى قالت السماء • فانسكبت ، فملاوا ما معهم من آنية ، ولم يجاوز ذلك المطر العسكر •

ومن ذلك حديث « عمرو بن شعيب » : أن « أبا طالب » قال للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ردفه بذى المجاز : عطشت ، وليس عندي ماء ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فضرب بقدمه الأرض ، فخرج الماء • فقال له : « اشرب » •

والحديث في هذا النوع كثير • وفيما ذكرناه كفاية • وإذا تأمل العاقل المنصف هذا الباب • علم : أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم أوتى مثل معجزة موسى ، التي هي نبع الماء من الحجر ، كما ذكرنا في هذا النوع الثاني ، وزاد عليه نبع الماء من بين أصابعه كما ذكرناه في النوع الأول كان انفجار الماء من اللحم • أعجب من انفجاره من الحجارة • فان رام اليهودى أو النصرانى تشكيكا في شيء من معجزات نبينا محمد عليه السلام ، أو الحادا ، أو ادعى : أن هذا من قبيل السحر ، عارضناه بمثل مقالته في معجزة موسى • فبالذى ينفصل به ، بعينه ننفصل •

بل نقول : ان طرق المطرق الجاهل شيئا من هذه الأوهام والتهم ،
الى هذه المعجزات لمعجزة موسى في انشقاق الحجر ، أقبل للتهم في
حق الجاهل على ما روت اليهود •

وذلك أنهم رووا : أن الحجر الذي كان تنفجر منه الأنهار • انما
كان حجرا واحدا عمله موسى ، حيث صار ، وهذا محل تهمة للجاهل •
وأما العالم فلا يبالى بهذه الأوهام ، ولا يطرق الى العلم : التهم •
ومعجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : انما كان يتول :
(ائتوني بآناء — أى آناء كان — وبماء — أى ماء كان) كما قدمنا • ولسنا
ننكر اعجاز ما أتى به موسى ، بل نحن أولى وأحق بموسى منكم ،
وأعرف بقدره ، وبمحلته عند ربه • وانما هذا لهم على جهة اللزام ،
حتى يزعموا بصحة معجزات نبينا محمد عليه السلام •

* * *

الفصل الرابع : تكثير الطعام معجزة له ، صلى الله عليه وسلم :

من ذلك ما تضافرت به الروايات ، واشتهر عند أهل الديانات ،
ونقله العدول الثقات من حديث « أبى طلحة » أن النبی صلى الله
عليه وسلم : أطعم ثمانين ، أو سبعين ، من أقراص شعير جاء بها
« أنس » تحت ابطه • وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أمر بها ، ففتت •
وقال فيها ما شاء الله أن يقول •

وكذلك أطعم يوم الخندق : ألف رجل من صاع من شعير وعناق •
قال « جابر بن عبد الله » : فأقسم بالله • لأكلوا ، حتى تركوه ،
وانحرفوا • وان برمتنا لتغط ، كما هي • وان عجينا ليخبز • وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق في العجين ، والبرمة ، ودعا
بالبركة • وكذلك صنع « أبو أيوب الأنصاري » لرسول الله صلى الله
عليه وسلم ولأبى بكر من الطعام • زهاء ما يكفيهما • فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم : (ادع ثلاثين من أشراف الأنصار) فدعاهم •
فأكلوا ، حتى تركوه • ثم قال : (ادع ستين) فأكلوا حتى شبعوا •
ثم قال : (ادع سبعين) فأكلوا حتى تركوه • وما خرج منهم أحد ،
حتى أسلم •

قال أبو أيوب : فأكله من طعامي : مائة وثمانون رجلا •

وكذلك حديث « سمرة بن جندب » : أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بقصعة فيها لحم فتعاقبوها من غدوة ، حتى الليل . يقوم قوم ، ويقعد آخرون .

ومن ذلك حديث « عبد الرحمن بن أبي بكر » قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة . وذكر في الحديث : أنه عجن صاع من طعام ، وصنعت شاة ، فشوى سواد بطنها ، قال : وايم الله . ما من الثلاثين والمائة . الا وقد حز له حزة من سواد بطنها ، ثم جعل منها قصعتين . فأكلنا أجمعين . وفضل في القصعتين ، وحملته على البعير .

ومن ذلك الخبر المشهور في غزاة تبوك . وذلك أنهم أصابتهم مجاعة شديدة ، حتى هموا بنحر جمائلهم ، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم ما بقى من أزواد القوم ، فكان الرجل يجيء بكف ذرة ، وبكف تمر ، وبسط نطعا . حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير . فدعى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة . قال : (خذوا في أوعيتكم) فأخذوا ، حتى ما تركوا في العسكر ، وعاء الا ملأوه . فقال عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله ، لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما ، فيحجب عن الجنة) .

ومن ذلك خبره في تزويج « زينب » وذلك أنه أمر خادمه « أنسا » أن يدعو له الناس فدعاهم ، فاجتمعوا ، حتى امتلأ البيت والحجرة . وقدم اليهم تورا من حجارة فيه حيس ، أهدته له « أم سليم » فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتخلق عشرة عشرة ، وليأكل كل انسان مما يليه . قال : فأكلوا ، حتى شبعوا ، ثم خرجوا . ودخلت طائفة أخرى حتى أكلوا كلهم . وكنت — قال أنس — لم أدع انسانا الا دعوته . قال أنس : ثم قال لى : (ارفع التور) فرفعته . فما أدرى حين وضعت ، كان أكثر ، أم حين رفعت ؟

ومثل هذا نقوله في قدح لبن أهدى له .

ومن هذا حديث مزود « أبى هريرة » وذلك أن الناس أصابتهم مجاعة شديدة في بعض أسفاره . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة : (هل من شيء) ؟ قال : قلت : نعم شيء من تمر في المزود . قال : فأتى به ، فأدخل يده ، فأخرج قبضة قبضتها ، ودعا بالبركة .

ثم قال : (ادع عشرة) فدعوتهم ، فأكلوا ، حتى شبعوا . ثم لم يزل كذلك حتى أطعم الجيش كله . وقال لى : (خذ ما جئت به) فأخذت ، فأكلت منه ، وأطعمت حياته ، وحياة أبى بكر ، وعمر . الى أن قتل عثمان ، فانتهب منى ، فذهب ، وقد قيل : ان ذلك التمر انما كان بضغ عشرة تمره .

والأخبار فى هذا الباب كثيرة ، يطول الكتاب بنقلها . على أنه لا يجهل شيء منها ، بل هى عندنا معروفة منقوله مشهورة موصوفة .

وهذا النوع من المعجزات هو من قبيل ما نقلت النصارى عن عيسى عليه السلام فى الانجيل . وذلك أنهم زعموا أنه أطعم من خمس خبز ، وحويتين : خمسة آلاف رجل سوى النساء ، وهذا أيضا من قبيل ما ثبت أن موسى عليه السلام أطعم بنى اسرائيل بالمفاز : « المن والسلوى » .

فان اعترضت اليهود أو النصارى على هذا النوع من معجزات نبينا عليه السلام ، عارضناهم بذلك فى معجزات أنبيائهم ، وبالذى ينفصلون عن ذلك ، به بعينه ننفصل عن معجزات نبينا .

وعند الوقوف على هذه الفصول . تعلم أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أعطاه الله عز وجل من المعجزات مثل ما كان أعطى الأنبياء قبله ، وزاده على ذلك . وسنزيد هذا وضوحا ، حتى يتبين كون المعاند الجاحد جاهلا وقيحا .



الفصل الخامس : فى كلام الشجر ، وكثير من الجمادات ، وشهادتها له بالنبوة :

وهذا الفصل تكثر حكاياته ، وتتسع رواياته ، لكثرة عدد ما روى فى ذلك ، وصحة ما اتفق هناك . وهذا الفصل نوعان :

النوع الأول : قد وردت الأخبار ، ونقل عن الأئمة ، المدول الأخبار : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى بعض غزواته ، فدنى منه أعرابى . فقال له : (يا أعرابى أين تريد ؟) فقال : أهلى . فقال له : (هل لك فى خير منهم ؟) قال : ما هو ؟ قال : (تشهد أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له . وأن محمدا عبده ورسوله) فقال :

ومن يشهد لك على صحة ما تقول ؟ قال : (هذه الشجرة) — لشجرة
بشاطيء الوادي — (فادعها فانها تجيبك) قال : فدعوتها • فأقبلت
تخذ الأرض ، حتى وقفت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثا • فشهدت أنه
كما قال ، ثم رجعت الى مكانها •

وقد روى هذا الحديث عن « بريدة » وزاد قال : فمالت الشجرة
عن يمينها ، وشمالها ، وبين يديها ، وخلفها • فنقطعت عروقتها ، ثم
جاءت تجر عروقتها مغبرة ، حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله
عليه وسلم • فقالت : السلام عليك يا رسول الله • فقال الأعرابي :
مرها ، فلترجع الى هيئتها ، فأمرها فرجعت ، فدلّت عروقتها ، حيث
كانت واستوت • فأمن الأعرابي ، وقال : ائذن لى ، اسجد لك •
فقال له عليه السلام : (لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد ، لأمرت
المرأة أن تسجد لبعطها) قال : فائذن لى أن أقبل يديك ورجليك •
فأذن له •

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ظهرت على يديه
مثل هذه المعجزة ، مرات ، وطرقها صحاح • بل منها ما هو متواتر على
ما حكاه أهل النقل • فقد روى أنه طافت به شجرة ، ثم رجعت الى
منبتها • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انها استأذنت أن
تسلم) •

وكذلك سأل ربه ، أن يجعل له آية • فقال : انطلق الى موضع
كذا ، فان به شجرة • فادع منها غصنا • فانه يأتيك ، ففعل • فجاء
يخط الأرض ، حتى انتصب بين يديه ، فحبسه ما شاء الله أن يحبسه ،
ثم قال له : (ارجع كما كنت) فرجع •

وكذلك روى عنه من طرق صحاح : أنه خرج يوما ليقضى حاجته ،
فلم يجد بما يستتر واذا بشجرتين بشاطئ الوادي ، فانطلق رسول
الله صلى الله عليه وسلم • فأخذ بغصن من أغصانها • وقال لها :
(انقادي على باذن الله) فانقادت معه • كالبعير المذل • ثم فعل
بالأخرى مثل ذلك • وقال : (التئما على) فالتئما • فلما قضى حاجته •
قال « جابر » : فالتفت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل •
والشجرتان قد افترقتا • فقامت كل واحدة منهما على ساقها •

وكذلك روى « أسامة بن زيد » مثل هذا في النخيل . وقال فيه : قال لى : انطلق الى هذه النخلات . وقل لهن : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركن . أن تأتين لحاجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقل للحجارة مثل ذلك .

فقلت ذلك لهن . فوالذى بعثه بالحق . لقد رأيت النخلات يتقاربن ، ويجتمعن . والحجارة يتعاقدن . ويتراكمن ، حتى صرن ركاما خلفه . فلما قضى حاجته . قال لى : (قل لهن : يفترقن) فوالذى نفسى بيده . لقد رأيت النخلات والحجارة يفترقن ، حتى عدن الى مواضعهن .

وقد حكى الأئمة منهم « أبو بكر بن فورك » رضى الله عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة الطائف ليلا ، وهو يسير ، فأخذته سنة ، فاعترضته صدره ، فانفجرت له نصفين ، حتى جاز بينهما . وبقيت على ساقين الى وقتنا هذا . وهى هنالك معروفة معظمة .

النوع الثانى :

نقل خلفنا عن سلفنا نقلا فاشيا مشهورا ، بحيث لا يشك فيه : أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ، وهم يسمعون تسبيحه . وقال « أنس » أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من حمى . فسبحت فى يده ، حتى سمعنا تسبيحها ، ثم صبهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يد « أبى بكر » . فسبحت كذلك . ثم صبهنا فى أيدينا فلم تسبح .

ورواه « أبو ذر » قال : أنما سبحت فى كف « عثمان » وقد تواردت الروايات عن الثقات . عن « على » أنه قال : كنا بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج الى بعض نواحيها . فما استقبله شجرة ولا جبل الا قال : السلام عليك يا رسول الله .

وقد روى « العباس » أن النبى صلى الله عليه وسلم غطاه ، وبنيه بملحفة . ودعا لهم بالستر من النار كستره اياهم بملحفته . فأمنت أسكفة الباب ، وجوائط البيت : آمين . آمين .

وقد صحت الأخبار ، بل تواترت . أن النبى صلى الله عليه وسلم لما اتخذ منبره ، وضعه وترك الجذع الذى كان يخطب عليه . هن

الجذع حنين الابل الفاقدة أولادها ، حتى تصدع وانشق • فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكن • وفي بعض طرقه قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ان هذا بكاء لما فقد من الذكر) وفي بعض طرق هذا الحديث : أنه لم يزل يسمع له حنين في أوقات ، تحزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فزعت المنبر على ما في حديث أبي •

فأخذه أبي عنده الى أن أكلته الأرض • وعاد رفاتا •

وقد روى هذا الحديث « بريدة » وزاد فيه • فقال النبي صلى الله عليه وسلم للجذع : (ان شئت أردك الى الحائط الذى كنت فيه • فتنتب لك عروقتك ، ويكمل خلقك • ويجدد خوصك وثمرك وان شئت أغرسك فى الجنة يأكل منك ، ومن ثمرك أولياء الله) ثم أصغى له النبي صلى الله عليه وسلم يستمع له ما يقول • فقال : بلى تغرسنى فى الجنة ، فياكل منى أولياء الله • وأكون فى مكان لا أبلى فيه يسمعه من يليه • فقال له : (قد فعلت) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اختار دار البقاء على دار الفناء) •

فكان الحسن اذا حدث بهذا الحديث بكى • وقال : يا عباد الله • الخشبة تحن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوقا اليه ، فأنتم أحق بذلك ، وأن تشاققوا الى نفاقه •

وكذلك تواتر أيضا : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على جبل أحد ، مع جماعة من أصحابه فتحرك بهم الجبل • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اسكن حراء) فما عليك الا نبى ، أو صديق ، أو شهيد •

والأخبار أيضا فى هذا النوع كثيرة • وفيما ذكرناه كفاية ، بل فى الواحد من هذه الأخبار أبلغ غاية •

الفصل السادس : فى كلام ضروب من الحيوان وتسخيرهم آية
له صلى الله عليه وسلم :

وهذا الفصل أيضا نوعان •

النوع الأول :

من ذلك ما روى واشتهر عن « عمر » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في محفله من أصحابه ، إذ جاءه أعرابي • قد صاد « ضبا » فقال : ما هذا ؟ فقالوا له : هذا نبي الله صلى الله عليه وسلم • فقال : والللات والعزى ، لا آمنت بك ، حتى يؤمن بك هذا الضب ، وطرحه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (يا ضب) فأجابه بلسان عربى مبين يسمعه القوم جميعا : لبيك وسعديك • يا زين من أوفى القيامة • قال : (من تعبد ؟) قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عقابه • قال : (فمن أنا ؟) قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقتك ، وخاب من كذبك • فأسلم الأعرابي •

ومن ذلك • القصة المشهورة فى كلام « الذئب » من حديث أبى سعيد الخدرى قال : بينما راع يرعى غنمه عرض الذئب لثابة منها • فأخذها الراعى منه • فألقى الذئب • وقال للراعى : ألا تتقى الله ، حلت بينى وبين رزقى ؟ قال الراعى : العجب من ذئب يتكلم بكلام الانس • فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحرتين ، يحدث الناس بأنباء ما قد سبق • فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (قم فحدثهم) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : (صدق) •

وقد روى هذا الحديث عن غير واحد من الصحابة منهم أبو هريرة • وزاد فى هذا الحديث : فقال له الذئب : أنت أعجب • وقفت على غنمك وتركت نبيا لم يبعث الله قط نبيا أعظم منه قدرا عنده • قد فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها على أصحابه ينتظرون اقبالهم • وما بينك وبينه الا هذا الشعب ، فتصير فى جنود الله • فقال الراعى : لو كان لى من يرعى الغنم لمشيئت اليه • فقال الذئب : أنا أرهاها ، حتى ترجع • فأسلم الراعى اليه غنمه ، ومضى وذكر قصته واسلامه ووجوده النبي يقاتل • فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (عد الى غنمك تجدها • بوفرها) فوجدها كذلك • وذبح للذئب منها شاة • وكان هذا الراعى اسمه « أهبان بن أوس » •

وقد ذكر مثل هذه القصة عن « سلمة بن الأكوع » وأنها كانت مسيبة إسلامه .

ومن ذلك ما يحكى أن « أبا سفيان بن حرب » بينما هو في ملا من قريش بمكة • اذ بطبى يطرده ذئب • فدخل الطبى الحرم ، فرجع الذئب • فعجبوا من ذلك • فقال الذئب : أعجب من ذلك : محمد ابن عبد الله • بالمدينة ، يدعوكم الى الجنة ، وتدعونه الى النار • فقال أبو سفيان بن حرب : واللوات والعزى • لئن ذكرت هذا بمكة ليتركنها خلوا •

ومن ذلك ما روى عن « أم سلمة » : كان النبي صلى الله عليه وسلم في صحراء فناداته ظبية : يا رسول الله • قال : (ما حاجتك ؟) قالت : صادنى هذا الأعرابى • ولى خشفان فى ذلك الجبل • فأطلقنى • نحتى أذهب فأرضعهما وأرجع • قال : (وتفعلين ؟) قالت : نعم • فأطلقها • فذهبت ورجعت فأوثقها • وكان ذلك الأعرابى نائما •

وقال يا رسول الله : ألك حاجة ؟ قال : (تطلق هذه الظبية) فأطلقها • فخرجت تعدو فى الصحراء وتقول : أشهد أن لا اله الا الله • وأنتك رسول الله •

ومن ذلك ما روى من كلام « الحمار » الذى أصابه بخير • وقال : اسمى « يزيد بن شهاب » فسماه النبي صلى الله عليه وسلم « يعفور » وكان يوجهه الى دور أصحابه ، فيضرب عليهم الباب برأسه ، ويستدعيهم • وأنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم تردى فى بئر جزعا وحزنا • فمات •

ومن ذلك حديث « الناقة » التى شهدت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبها أنه ما سرقها ، وأنها ملكه •

النوع الثانى :

ما روى عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : أنها قالت : كان عندنا « داجن » فإذا كان عندنا النبي صلى الله عليه وسلم • قر وثبت مكانه ، فلم يجىء ، ولم يذهب • وإذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم • جاء ، وذهب •

ومن ذلك ما روى جابر بن عبد الله قال : جاء رجل فآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو على بعض حصون خيبر ، وكان في غنم يربعاها لهم — يعنى لأهل خيبر — فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بالغنم ؟ فقال : (احصب وجوها — يعنى اضربها بالرمل — فان الله سيؤدى أمانتك ، ويردها الى أهلها) ففعل • فسارت كل شاة منها حتى أتت أهلها •

ومن ذلك • حديث « أنس » أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل حائط رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر ، ورجل من الأنصار ، وفي الحائط غنم • فسجدت له • فقال أبو بكر : نحن أحق بالسجود لك منها • وذكر الحديث •

ومن حديث « أبي هريرة » : دخل النبي صلى الله عليه وسلم حائطا • فجاء بهير ، فسجد بين يديه •

ومن حديث « جابر » قال : وكان ذلك الحائط لا يدخله أحد الا ثد عليه ذلك « الجمل » فلما دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم دعاه ، فوضع مشفره في الأرض وبرك بين يديه ، فخطمه • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما بين السماء والأرض شيء • لا يعلم أنى رسول الله ، الا عاصى الجن والانس) •

ومن حديث « عبد الله بن أبي أوفى » : أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهل ذلك الجمل عن شأنه • فقالوا له : انهم أرادوا نحره •

ومن ذلك ما روى « ابن وهب » : أن « حمام مكة » أظلت النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتحها • فدعا لها بالبركة •

ومن حديث « أنس » و « زيد بن أرقم » و « المغيرة بن شعبة » أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الغار • أمر الله شجرة فنبتت تجاه النبي صلى الله عليه وسلم ، فسترته • وأمر حمامتين ، فوقفتا في فم الغار • وأن العنكبوت نسجت على بابه • فلما أتى الطالبون له ، رأوا ذلك • فقالوا : لو كان فيه أحد لم تكن الحمامات ولا العنكبوت • فانصرفوا والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع كلامهم •

والأخبار في هذا كثيرة شهيرة • وفيما ذكرناه كفاية ، لمن كان ذا عقل وديانة •

الفصل السابع : في احياء الموتى ، وكلام الصبيان والمرضع وشهادتهم له بالنبوة :

من ذلك • الخبر المشهور المعلوم المذكور عن غير واحد من الصحابة والأئمة : أن يهودية بخبير أهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « شاة » مشوية • فسمتها • فأكل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل القوم معه • فقال : (ارفعوا • فان هذه الشاة أخبرتني أنها مسمومة) ثم قال لليهودية : (ما حملك على ما صنعت ؟) قالت : ان كنت نبيا صادقا ، لم يضرك الذى صنعت • وان كنت ملكا أرحت منك • فقال : (ما كان الله ليمسكك على ذلك) فقالوا : ننقلها ؟ • قال : (لا) • فلم يزل أثر تلك الأكلة في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال في وجعه ، الذى مات منه : (ما زالت أكلة خبير تعاودنى • فالآن قطعت أبهرى) •

قال « ابن اسحق » : ان كان المسلمون ليرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات شهيدا ، مع ما أكرمه الله به من النبوة •

وروى هذا الحديث من طريق « البزار » عن « أبى سعيد الخدرى » وزاد فيه : فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم يده • وقال : (كلوا بسم الله) فأكلنا • وذكرنا اسم الله ، فلم تضر أحد منا ، الا ما ذكر من موت « بشر بن البراء » •

وفي هذا الحديث أنواع من دلالات نبوته صلى الله عليه وسلم : نطق الميت ، وذلك أن الشاة كلمته بعد أن شويت • وأنهم أكلوا السم ، ولم يضرهم ، وفي موت البراء • دليل على أن الذى أكلوه سم قاتل • وبذلك اعترفت اليهودية • وقالت : أردت قتلك • فأراد الله أن يميت أحدهم ، ليعلم أن الذى أكلوه : سم • وأن يحيى جميعهم آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم • ومن آياته في هذه القصة : تأخر موته بالسم ، دون علة لزمته منه نحو عشرين سنة • وهذه كلها أمور خارقة للعادات • فهي من أوضح الدلالات •

ومن ذلك ما روى عن « فهد بن عطية » أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بصبى قد شب ، لم يتكلم قط • فقال له : (من أنا ؟) فقال : أنت رسول الله •

ومن ذلك حديث « معقيب » قال : رأيت من النبي صلى الله عليه وسلم عجباً ، جيء بصبي يوم ولد • فقال له : (من أنا ؟) فقال : أنت رسول الله • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (صدقت • بارك الله فيك) ثم أن الغلام لم يتكلم بعدها ، حتى شب • فكان يدعى « مبارك اليمامة » وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع •

ومن حديث « الحسن » قال : أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فذكر أنه طرح « بنية » له ، في وادي كذا • فانطلق معه الى ذلك الوادي وناداه باسمها : (يا فلانة ، احبى باذن الله) فخرجت ، وهي تقول : لبيك وسعديك • فقال لها : (ان أبويك قد أسلما • فان أحببت أن أردك عليهما) فقالت : لا حاجة لى فيهما • وجدت الله خيراً منهما •

ومن ذلك حديث « أنس » أن شاباً من الأنصار ، توفي • وله أم عجوز • قال فسجناه ، وعزيناها • فقالت : مات ابني ؟ • قلنا : نعم • قالت : اللهم ان كنت تعلم أنى هاجرت اليك ، والى نبيك ، رجاء أن تعيننى على كل شدة • فلا تحملنى على هذه المصيبة • فما برح أنه كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا •

ومن حديث « عبد الله بن عبيد الله » قال : كنت فيمن دفن « ثابت بن قيس بن شماس » وكان قتل باليمامة ، فسمعناه حين أدخلناه في القبر يقول : محمد رسول الله • أبو بكر الصديق • عمر الشهيد • عثمان البر الرحيم • فنظرنا • فاذا هو ميت •

ومن حديث « النعمان بن بشير » أن « زيد بن خارجه » خر ميتاً في رقاق من أزقة المدينة فرفع وسجى • اذ سمعوه بين العشائين ، والنساء يصرخن حوله • يقول : أنصتوا • أنصتوا • فحسر عن وجهه • فقال : محمد رسول الله النبي الأمى ، وخاتم النبيين ، كان ذلك في الكتاب الأول • ثم قال : صدق • صدق •

وذكر أبا بكر ، وعمر ، وعثمان • ثم قال : السلام عليك يا رسول الله ، ورحمة الله وبركاته • ثم عاد ميتاً ، كما كان •

الفصل الثامن : في ابراء النبي صلى الله عليه وسلم المرضى ، وفوى العمامات :

من ذلك • ما اشتهر ، واستفاض من قصة : عين « قتادة »
يوم « أحد » وذلك أنه أصيب في إحدى عينيه ، حتى وقعت على
وجنتيه • فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أحسن عينيه •

ومن ذلك حديث « عثمان بن حنيف » أن أعمى قال : يا رسول
الله • ادع الله أن يكشف لى عن بصرى • فقال له : (انطلق • فتوضأ •
ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد ، نبي الرحمة •
يا محمد • انى أتوجه بك الى ربى أن يكشف عن بصرى • اللهم شفعه
في) قال : فرجع الرجل ، وقد كشف الله عن بصره •

ومن ذلك حديث « حبيب بن فديك » أن أباه ابيضت عيناه •
فكان لا يبصر بهما شيئاً • فنفت رسول الله صلى الله عليه وسلم في
عينيه فأبصر • قال : فرأيت أنه يدخل الخيط في الابرة ، وهو ابن ثمانين •

وروى أن « ملاعب الأسمنة » أصابه استسقاء ، فبعث الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده حثوة من تراب • فتفل عليها •
ثم أعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه بها •
وهو على شقاء ، فشربها ، فشفاه الله تعالى •

ومن ذلك حديث « كلثوم بن الحصين » وذلك أنه أصيب يوم أحد
في نحره ، فبصق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبرأ • وتفل
على شجرة « عبد الله بن أنيس » فلم تمد •

ومن ذلك حديث « على » يوم « خيبر » وذلك أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال وهو على خيبر : (لأعطين الراية غدا ، رجلاً
يحب الله ورسوله • ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه) ، فبات
أصحابه تلك الليلة كلهم يرجو أن يعطاها ، فلما أصبح دعا علياً • فأذا
به رمد ، فتفل في عينيه ، فبرئ لحينه ، وفتح الله على يديه الحصن •

وفي تلك الغزاة ، نفث على خربة بساق « سلمة بن الأكوع »
فبرأت •

وكذلك فعل بساق « على بن الحكم » يوم الخندق • وكانت قد

لنكسرت ، فبرأ مكانه ، ولم ينزل عن فرسه ، وأصاب عليا وجع •
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم اشفه ، أو عافه) ثم ضربه
برجله • فما اشتكى ذلك الوجع بعد •

وقطع « أبو جهل » لعنه الله يوم « بدر » يد « معوذ بن عفراء »
فجاء يحمل يده ، فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألصقها
فلمصقت •

وكذلك أصيب في ذلك اليوم « حبيب بن يساف » فنفت عليا من
ريقه فصح • وأنته امرأة من « خثعم » معها صبي به بلاء لا يعقل
ولا يتكلم • فأتى بماء فمضمض فاه ، وغسل يديه صلى الله عليه وسلم
عليه ، ثم أعطاها ذلك الماء ، وأمرها أن تسقيه إياه • ففعلت • فبرىء
الغلام ، وعقل عقلا ، يفضل كثير من الناس •

وحديث « ابن عباس » : جاءت امرأة بابن لها به جنون ، فمسح
صدره فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ، وبرأ •

وانكفأت القدر ، وهى تغلى على ذراع « محمد بن خاطب »
وهو طفل صغير ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، ودعا
له ، وتفل ، فبرأ الحينه •

وكانت في كف « شرحبيل الجهمي » سلعة ، تمنعه القبض على
السيف ، وعنان الدابة ، فشكاها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فما زال
يمسحها بكفه حتى رفع كفه • وما لها أثر •

والأخبار في هذا كثيرة • وإذا تأملت هذا الفصل ، والذي قبله •
علمت : أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد أوتى من المعجزات مثل
ما أوتى عيسى عليه السلام من احياء الموتى ، وبراء العمى ، والمجانين ،
وذوى الأسقام والآفات • كما تحكى النصارى في انجيلها • وزاد عليه
بأمر كما ذكر • وستأتى ان شاء الله تعالى •

فيلزم النصارى اذ كذبوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع
ما أقمنا عليه من الآيات ، وأثبتنا من واضح المعجزات أن يكذبوا بنبوة
عيسى عليه السلام • فان معجزاته كمعجزاته • وان كذبونا فيما نقلنا
عارضناهم فيما نقلوه ، ولم يقدرُوا أن يثبتوا نبوة عيسى عليه السلام
علينا ، ولا على غيرنا وكذلك يفعل الله بكل كاذب كفار •

الفصل التاسع : في اجابة دعائه صلى الله عليه وسلم :

اعلم يا هذا : أنه لو لم يثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الا ما ثبت في هذا الفصل لكان فيه أعظم دليل على صدق رسالته ، وصحة نبوته . فانا نعلم بما روى في هذا الباب من الآيات على القطع والاصرار : أن دعاؤه عند الله مسموع ، وأن مقامه عند الله مقام كريم مرفوع .

وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان كلما دعا الله في شيء أجابه فيه ، وظهرت بركة دعوته ، على المدعو له ، وعلى أهله وبنيه . حتى كان « حذيفة » يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعا لأحد أدركته الدعوة وولد ولده .

ونحن نذكر من ذلك طرفا على شرط الاختصار :

من ذلك حديث « أنس » الصحيح ، المشهور . قال : قالت أمي يا رسول الله ، خادمتك « أنس » ادع الله له . فقال : (اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيه) قال أنس حين حدث بهذا الحديث : فوالله ان مالى كثير ، وان ولدى ، وولد ولدى ، ليتعادون على نحو المائة اليوم . وفي رواية أخرى عنه : أنه قال : وما أعلم أحدا أصاب من رضاء العيش ما أصبت . ولقد دفنت بيدي هاتين مائة من ولدى ، لا أقول سقطا ، ولا ولد ولد .

ومن دعائه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة . قال عبد الرحمن : فلو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهباً ، وفتح الله عليه ، ومات ، فحفر الذهب من تركته بالفقوس ، حتى محلت الأيدي ، وأخذت كل زوجة من زوجاته : ثمانون ألفا . وكن أربعاً . وقيل : بل صولحت احداهن ، لأنه طلقها في مرضه على نيف وثمانين ألفا . وأوصى بخمسين ألفا . وهذا كله بعد صدقاته ، الفانسية في حياته ، وعوارفه العظيمة .

أعقق يوماً ثلاثين عبداً . ووردت له مرة غير له فيها سبع مائة بعير ، تحمل من كل شيء فتصدق بها ، وبما عليها ، وبأقتابها وأحلاسها . ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لمعاوية بالتمكين في البلاد . فقال الخلافة .

ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص بأن
يجيب الله دعوته • فما دعا على أحد ، أو لأحد الا استجيب له •

ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم حيث قال : (اللهم أعز
الاسلام بأحد الرجلين ، بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل بن هشام) •
فأجاب الله دعوته في عمر بن الخطاب •

ولذلك قال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب •
وأصاب الناس عطش شديد ، في سفر من أسفاره ، فدعا الله فجاءت
سحابة ، فسقتهم حاجتهم •
وقد تقدم مثل ذلك •

ومن ذلك حديث الاستسقاء • وذلك أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم بينما هو يوم الجمعة يخطب • اذ دخل عليه رجل • فقال :
يا رسول الله قد هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، وهلكت المواشي •
فادع الله أن يغثنا • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم أغثنا •
اللهم أغثنا • اللهم أغثنا) قال : فأنشأت سحابة مثل الترس • ثم انتشرت
قال راويه : فلا والله ما رأينا الشمس سبتا • يعني جمعة •

ثم دخل أعرابي في الجمعة المقبلة • فقال يا رسول الله : هلكت
المواشي ، وانقطعت السبل • فادع الله يمسكها عنا • فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : (اللهم على الآكام والضراب ، ومنابت الشجر)
قال : فأنجابت السحابة عن المدينة ، انجياب الثوب ، فخرجنا نمشي •
ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال للنايعة الجعدى :
(لا يفيض الله فاك) فما سقطت له سن حتى مات •

وفي رواية : كان أحسن الناس ثغرا • اذا سقطت له سن نبتت له
أخرى • وعاش عشرين ومائة •

وقال لابن عباس : (اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل) • فكان
بحر الفقه ، وترجمان القرآن • ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة
يمينه • فما اشترى شيئا الا ربح فيه • ودعا للمقداد بن الأسود بالبركة •
فكان عنده غراير من المال •

ودعا لعروة بن أبي الجعد • فقال : لقد كنت أقدم بالكياسة
— سوق لهم — فما أرجع حتى أربح أربعين ألفا •

وقال البخاري : فكان لو اشترى التراب ربح فيه • وندت له
ناقة ، فدعا ربه أن يردها عليه فجاء بها اعصار ريح حتى ردها عليه •
ودعا لأُم أبي هريرة فأسلمت ، ودعا لعلی أن يكفی ألم الحر والبرد ،
فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف • وفي الصيف ثياب الشتاء •
ولا يصيبه حر ، ولا برد • وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه •
فقال : (اللهم نور له) فسطع له نور بين عينيه • فقال : يا رب
أخاف أن يقولوا : انها مثله • فتحول الى طرف سوطه • فكان يضيء
في الليلة المظلمة • فسمى ذا النور •

ودعا على « مضر » بالقطط • فأقحطوا سبعا ، حتى أكلوا الجلود
والعظام ، حتى استعطفت « قريش » فدعا لهم فسقوا •
ودعا على « كسرى » حين مزق كتابه بأن يمزق ملكه ، فلم تبق
له باقية •

وقال لرجل رآه يأكل بشماله : (كل بيمينك) فقال : لا أستطيع •
فقال له : (لا استطعت) • فلم يرفعها الى فيه بعد •

وقال لعتبة بن أبي لهب : (اللهم سلط عليه كلبا من كلابك)
فأكله الأسد •

وحديثه المشهور مع ملا قريش • وذلك أنه صلى الله عليه وسلم
بينما هو ساجد ، بازاء الكعبة اذ ألقت قريش على ظهره فرثا ، ودما ،
وسلا جزور نحرت • فقال : (اللهم عليك بهم) ثم سماهم واحدا واحدا •
فكان من سمي : قتل يوم بدر •

ودعا على « الحكم بن أبي العاصي » وكان يختلج بوجهه •
ويغمز عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : (كذلك) فلم يزل يختلج الى أن مات •

ودعا على « غلم بن جثامة » فلفظته الأرض ، فووري • فلفظته
الأرض • ثم ووري فلفظته الأرض • مرارا • فآلقوه بين ضدين — يريد
جانبي الوادي — ورضوا عليه بالحجارة •

وباعه رجل فرسا • فججده • فقال : (اللهم ان كان كاذبا •
(٢٤) - الاعلام)

فلا تبارك له فيه) فأصبحت شاصية — يريد رافعة برجلها — يقول :
ما تت •

والأخبار في هذا الباب أكثر من أن يحاط بها •

الفصل العاشر : في ذكر جمل من بركاته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم :

من ذلك ما اشتهر وصح • أنه وقع فزع بالمدينة ، فركب « فرسا »
لأبى طلحة ، بطيئا • فلما رجع قال لأبى طلحة : (وجدنا فرسك
بحرا) — يريد كثير الجرى كالبحر — قال : فكان ذلك الفرس لا يجارى •
ونخس « جمل » جابر ، وكان قد أعيا • فنشط ، حتى كان ما يملك
زمامه •

وصنع مثل ذلك بفرس لجميل الأشجعي ، خفقها بمخفقة معه ،
وترك عليها فلم تملك رأسها نشاطا • وباع من بطنها باثني عشر ألفا •
وكانت شعرات من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم في
« قلنسوة » خالد بن الوليد فلم يشهد بها قتالا ، الا رزق النصر •
وكانت جبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسل للمرضى بعد
موته • فيستشفى بها •

وأخذ « جهجاه » قضيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكسره
فأخذته في يده أكلة ، فقطعها • ومات قبل الحول •

وسكب من فضل وضوئه في بئر قباء • فما جف ماؤها بعد •
وبزق في بئر كانت في دار « أنس » فلم يكن بالمدينة أعذب منها •
ومر على ماء ، فسأل عنه ، فقليل اسمه « بيسان » وماؤه طلع •
فقال : (بل هو نعمان ، وماؤه طيب) فطاب •

وأوتى بدلو من ماء زمزم فمج فيه ، فصارت أطيب من المسك •
وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه • وكانا يبكيان عطشا •
فرويا وسكتا •

وكانت لأم مالك « عكة » تهدي فيها للنبي صلى الله عليه وسلم
سمنا • فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعصرها ، ثم دفعها

اليها • فاذا هي مملوءة سمنا • فيأتيتها بنوها ، يسألونها الادم • وليس
عندهم شيء • فتعتمد اليها ، فتجد فيها سمنا • فكانت تقسم ادمها ،
حتى عصرتها •

وكان يتنقل في أفواه المراضع فيجزئهم ريقه الى الليل •
ومن ذلك بركة يده ، فيما لمس ، أو غرس •

غرس لسلمان ثلاث مائة ودية • وكان كاتب مواليه على ثلاث مائة
نخلة ، وعلى أربعين أوقية ، فغرسها رسول الله صلى الله عليه
وسلم بيده • الا واحدة • فأطعمت من عامها • الا تلك الواحدة •
فقلعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغرسها • فأطعمت من عامها •
وأعطاه مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه •
فوزن منها أربعين أوقية لمواليه •

وفي حديث « حنث بن عقيل » قال : سقاني رسول الله صلى
الله عليه وسلم شربة من سويق شرب أولها ، وشربت آخرها • فما
زلت أجد شبعها اذا جعت ، وريها اذا عطشت ، وبردها اذا ظمئت •

وأعطى قتادة بن النعمان ، وصلى معه العشاء الأخيرة في ليلة
مظلمة مطيرة : « عرجونا » فقال : (انطلق فانه سيضيء لك من بين
يديك عشرا ، ومن خلفك عشرا • فاذا دخلت بيتك ، فسترى سوادا ،
فاضربه ، حتى يخرج • فانه الشيطان) فانطلق فأضاء له العرجون ،
حتى دخل بيته • ووجد السواد ، فضربه حتى خرج •

ومنها دفعه لعكاشة « جذل حطب » وقال له : (اضرب به) حين
انكسر سيفه يوم بدر • فعاد في يده سيفا صارما ، طويل القامة ،
أبيض شديد المتن • فقاتل به • ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف ،
الى أن استشهد في قتال أهل الردة • وكان هذا السيف يسمى « العون »

وكذلك دفع لعبد الله بن جحش يوم أحد • وقد ذهب سيفه « عسيب
نخل » فعاد في يده سيفا •

ومن ذلك بركته في درور الشياخ الحوائل : اللبن الكثير • كقصة
شاة « أم معبد » وهى قصة مشهورة • وكذلك غنم « حليلة » مرضعته •

وقد تقدم ذكره . وكذلك قصة شاة « عبد الله بن مسعود » وكان لم ينز عليها فحل قط . وكذلك شاة « المقداد » ومن ذلك تزويده أصحابه سقاء ماء بعد أن أوكاه ، ودعا فيه . فلما حلاه . اذا به لبن طيب ، وزبده في فمه ، ومسح على رأس « عمير بن سعد » وبارك . فمات ، وهو ابن ثمانين ، فما شاب .

وقد روى مثل هذه القصص .

ومن ذلك أن « عتبة بن فرقد » كان يوجد له طيب يغلب طيب نسائه . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسح بيده بطنه ويده . وسلمت عن وجهه صلى الله عليه وسلم « عايذ بن عمرو » الدم ، يوم أحد . فدعا له . فكانت له غرة كفرة الفرس .

ومسح صلى الله عليه وسلم على رأس « قيس بن زيد الجذامي » ودعا له فهلك ابن مائة سنة ، ورأسه أبيض . وموضع كف النبي صلى الله عليه وسلم أسود . فكان يدعى الأغر ، ومسح وجه رجل آخر ، فما زال على وجهه نور ، ومسح وجه « قتادة بن ملحان » فكان لوجهه بريق ، حتى كان ينظر في وجهه ، كما ينظر في المرأة .

وموضع صلى الله عليه وسلم يده على رأس « حنظلة بن خديم » وبارك عليه ، فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه ، والشاء قد ورم ضرعها . فيوضع على موضع كف النبي صلى الله عليه وسلم ، فيذهب الورم .

ونضح في وجه « زينب بنت أم سلمة » نضحة من ماء ، فما كان يعرف في وجه امرأة من الجمال ما كان بها . ومسح على رأس صبي به عاهة — يعني قرعا — فبرأ واستوى شعره . وكذلك مسح على غير واحد من الصبيان ، المرضى والمجانين ، فبرؤوا . ولأجل هذا قال « طاووس » : لم يؤت النبي صلى الله عليه وسلم بأحد به جنون . فصك في صدره ، الا ذهب ذلك الجنون ، وأتاه رجل آدر . فأمره أن ينضحها بماء من عس ، مع فيه ، ففعل . فبرأ . ومن ذلك خبره المشهور عن « تراب » يوم حنين . وذلك أنه لما اشتد القتال بينه وبين الكفار ذلك اليوم ، أخذ غرفة من تراب ، ورمى بها وجوه الكفار . وقال : (شامت الوجوه) فما بقي منهم أحد ، الا أصاب من عينيه .

من ذلك التراب ، فهزمهم الله ، ورجعوا على أعقابهم يمسحون عن أعينهم •

ومن ذلك الخبر المشهور عن أبي هريرة : أنه كان كثير النسيان ، فأمره ببسط ثوبه ، فغرف بيده ، ثم أمره بضمه • ففعل ، فما نسي شيئاً بعد •

والأخبار في هذا كثيرة جداً تفوق الحصر •

الفصل الحادى عشر : فى ما أخبر به مما أطلعه الله من الغيب صلى الله عليه وسلم :

هذا الموضوع بحر ، لا يدرك قعره ، ولا ينزف غمره ، وهو من جملة آياته المعلومة على القطع ، الواصلة إلينا من طريق التواتر ، لكثرة الحكايات ، وانتشار الروايات ، مع اتفاقها • على أنه مطلع على كثير من الغيب • فهذا تواتر معنوى ، يحصل به العلم القطعى • وهكذا أكثر الفصول المتقدمة • والأخبار المتلقاة عنه صلى الله عليه وسلم فى هذا الموضوع قسمان : قسم وقع ، ووجد ، كما أخبر به • وقسم آخر لم يقع ، لكونه لم يبلغ وقته ، وسيقع ولا بد • ولذلك هو منتظر الوقوع • ونحن انما نذكر فى هذا الفصل ما وقع ووجد حسب ما أخبر به • اذا به تقع الحجة وعنده يظهر الاعجاز •

من ذلك حديث « حذيفة » قال : قام فىنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ، فما ترك شيئاً فى مقامه ذلك يكون الى قيام الساعة الا حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء • وانه ليكون منه الشئ فأعرفه • فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ، ثم اذا رآه عرفه • ثم قال : لا أدرى • أنسى أصحابى أم تناسوه ؟ والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة الى أن تنتفضى الدنيا ، يبلغ من معه ثلاث مائة فصاعدا الا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته •

وقال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما من طائر يحرك جناحيه فى السماء ، الا ذكر لنا منه علما •

وقد خرج أهل الصحيح في كتبهم ، واشتهر عن الأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه ، وفتح مكة ، وبيت المقدس واليمن والشام والعراق . وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة الى مكة . لا تخاف الا الله . وان المدينة لا تغزى .

وكذلك أعلم بفتح خيبر على يد « على بن أبى طالب » فى غد يومه ، وبما فتح الله على أمته من الدنيا ، ويؤتون من زهرتها ، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر . وما يحدث بينهم من الفتن والاختلاف والأهواء ، وسلوك سبيل من قتلهم ، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة . وانها ستكون لهم أنماط ، ويعدو أحدهم فى حلة ، ويروح فى أخرى ، وتوضع على يديه صحيفة ، وترفع أخرى . ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة . وانهم اذا مشوا المحيط . وجد منهم بنات فارس والروم . رد الله بأسهم بينهم . وسلط شرارهم على خيارهم .

واخباره على قتال الترك والخزر والروم وذهب كسرى وفارس حتى لا كسرى بعده ، وذهب قيصر حتى لا قيصر بعده ، واخباره عن الروم ، لا تزال ذات أقران ، حتى تقوم الساعة ، واخباره بملك بنى أمية وولاية معاوية ووصاه ، واتخاذ بنى أمية ملك الله دولا . واخباره عن خروج ولد العباس بالرايات السود ، وملكهم أضعاف ما هلكوا . وخروج المهدي (١) واخباره بما ينال أهل بيته من القتل والشدائد . واخباره عن قتل « على » وقوله : (ان أسقأها الذى يخضب هذه من هذه) يريد لحيته من رأسه . واخباره بقتل « عثمان » وهو يقرأ المصحف . وأنه سيقطر دمه على قوله تعالى « فسيفكيهم الله ، وهو السميع العليم » (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : (عسى الله أن يلبسك قميصا فان أرادوك على خلعه ، فلا تخلعه) يريد بذلك ما ولاه من الخلافة ، وما أرادوا من خلعه .

ومن ذلك خبر « حاطب بن أبى بلتعة » وذلك أنه كتب كتابا لأهل مكة ، يخبرهم فيه بغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم ، واخفاء ذلك الكتاب ، ولم يطلع عليه أحدا ودفعه الى امرأة فجعلته فى عقاصها .

(١) أخبار المهدي غير صحيحة ، وكثير من الأخبار التى ذكرها

المؤلف : آحاد .

(٢) البقرة : ١٣٧ .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (انطلقوا الى موضع كذا •
فان به طعينة عندها كتاب من حاطب الى مشركى قريش) فانطلقوا
ففتشوا ، فلم يجدوا عندها شيئاً • فقالوا لها : لتخرجن الكتاب ،
أو لنجردنك • فأخرجته من عقاصها •

واخباره لبعض زوجاته أنها ستبجحها كلاب من الحوب • وأنها
تقتل حولها قتلى كثير • فكان ذلك كله ، كما ذكر صلى الله عليه وسلم •
وقوله لعمار : (تقتلك الفئة الباغية) فقتله أصحاب معاوية • وقوله :
(يكون في ثقيف : كذاب ، ومبير) فأوهما : الحجاج والمختار •
واخباره بأن مسيلمة يعقره الله ، فكان ذلك •

ومن ذلك أن ناقته ضلت ، فلم يدر أين هي ؟ فقالت قريش :
يزعم محمداً أنه يعرف خبر السماء ، وهو لا يعرف ناقته ؟ فنزل الوحي
على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أما أنا فلا أعلم • إلا ما
أعلمنى الله به • وان الله قد أخبرنى : أنها بموضع كذا) فانطلقوا •
فوجدت حيث ذكر • قد حبستها هناك شجرة •

وقوله لفاطمة الزهراء رضى الله عنها — ابنته — : (انك أول أهل
بيتى لحوقا بنى) فكانت أول من مات من أهل بيته •
وأخبر بأهل الردة والخوارج ، وعرف بعلاماتهم • فوجد ذلك
كما أخبر •

والأخبار فى ذلك أكثر من أن تحصى ، يضطر الواقف عليها الى
العلم بنبوته صلى الله عليه وسلم •

الفصل الثانى عشر : فى عصمة الله له ممن أراد كيده :

وذلك من أبلغ آياته • صحت الروايات وثبتت الطرق : أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان يحرس ممن يريد ضره لكثرة أعدائه ،
ولطلبهم غرته • حتى نزل : «(والله يعصمك من الناس)» (١) فأخرج رسول
الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة • وقال لحارسيه : (يا أيها
الناس انصرفوا فقد عصمنى ربى) فلم يقدر أحد أن يصيب منه
مقتلاً ، مع حرصهم على ذلك •

ومن ذلك ما صح أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلا في بعض أغزواته • فقال تحت شجرة • فأتاه أعرابي فاخترط سيفه • فقال : من يمنك منى ؟ فقال : (الله) • فرعدت يد الأعرابي ، وسقط سيفه من يده ، وضرب برأسه الشجرة ، حتى سال دماغه • وقد اتفق مثل هذه القصة لعذرة بن الحارث • فأسلم ورجع الى قومه وقال : جئتم من عند خير الناس •

وقد روى أن هذه القصة كانت يوم بدر • وكذلك وقع مثل هذه القصة بذى أمر لدغشور بن الحرث • وكان ذا نجدة وجراءة • فأسلم • فلما رجع الى قومه • قالوا : أين ما كنت تقول • وقد أمكنك • فقال : انى نظرت الى رجل أبيض طويل ، دفع في صدرى ، فوقعت لظهرى ، وسقط السيف من يدي • فعرفت أنه ملك • وفيه أنزل الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم • إذ هم قوم أن ييسطوا اليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم » (١) الآية •

وكانت امرأة أبى لهب — وهى حمالة الحطب — تضع الشوك في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنما يطأ كتيبا أهيل — يريد سهلا — ولما أنزل الله عز وجل فيها ، وفى زوجها : « تبت يدا أبى لهب وتب » (٢) الى آخر السورة • أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس في المسجد ، ومعه أبو بكر ، وفى يدها « فهر » من حجارة • فلما وقفت عليهما لم تر الا أبا بكر • وأخذ الله ببصرها عن نبيه عليه السلام • فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى • والله لو وجدته ، لضربت بهذا الفهر فاه •

ومن ذلك ما حدث به « الحكم بن أبى العاصى » قال : تواعدنا على أن نقتل محمدا حتى جئناه • فلما رأيناه سمعنا صوتا خلفنا • ما ظننا أنه بقى بتهامة أحدا • فوقعنا مغشيا علينا ، حتى قضى صلاته ، ورجع الى أهله • ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى اذا رأيناه جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه •

ومن ذلك القصة المشهورة التى تؤذن بالكفاية التامة • وذلك أن قريشا اجتمعت على قتله ، وبيتوا ليدخلوا عليه بيته ، فعلم بهم •

فقال لعلى : تحول على فراشى ، ففعل • ثم خرج عليهم ، ودر التراب على رؤوسهم ، فلم يروه • حتى دخلوا البيت ، فوجدوا عليا على فراشه ، فقالوا له : أين صاحبك ؟ فقال لهم : قد خرج عليكم • وقد جعل التراب على رؤوسكم • فمد كل واحد منهم يده على رأسه ، فوجد التراب على رأسه •

وقد قيل : ان فى هذه القصة نزل قوله تعالى : « **واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك • ويمكرون • ويمكر الله • والله خير الماكرين** » (١) •

ومن ذلك ما اتفق لأبى جهل • وذلك أنه أخذ « ابل » رجل من العرب ، وتعدى عليه فيها ، فشكى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمنزل أبى جهل ، وصاح به • فخرج منتقما لونه • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رد على هذا ابله) فقال : نعم • ثم دخل مرة أخرى خائفا ، فصاح به ، فخرج فزعا ، متغيرا ذليلا • ففعل ذلك ثلاثا • ثم خرج فزعا ممتقما لونه ، فانصرف الأعرابي • وألان القول للنبي عليه السلام ، فلامته قريش على (ذلك) فقال لهم : انه عرض لى دونه « فحل » من الابل ، ما رأيت مثل هامته ، ولا أنيابه لفحل قط • وانه هم بى ليأكلنى • فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم • فقال : (ذلك جبريل • ولو دنا منه لأخذه) •

وكذلك أخذ « أبو جهل » صخرة ليطرحها على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ساجد وقريش ينظرون • فلزقت بيده ، وبيست يده ، الى عنقه ، فرجع القهقرى ، ورآه ثم سأل أن يدعو له ، ففعل • فانطلقت يده • وكذلك تواعد مرة أخرى ، مع قريش لئن رأى محمدا يصلى ، ليطأن رقبته ، فلما دخل النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة أعلموه • فأقبل نحوه ، فلما قرب منه ولى هاربا ناكضا على عقبيه • متقيا بيديه ، فسئل عن ذلك • فقال : لما دنوت منه ، أشرفت على خندق مملوء نارا كدت أهوى فيه ، وأبصرت هولا عظيما ، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض • فقال عليه السلام : (تلك الملائكة ، لو دنى لأختطفته عضوا عضوا) فأنزل الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم : « **كلا ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى** » (٢) الى آخر السورة •

ومن ذلك حديث « شيبه » أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين • فقال : اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وكان « حمزة » قد قتل أباه وعمه • فأتاه من خلفه • قال : فلما دنوت منه ، ارتفع إلى شواظ من نار ، أسرع من البرق ، فوليت هاربا وأحس بى النبي صلى الله عليه وسلم فدعاني • فوضع يده على صدرى ، وهو أبغض الخلق إلى • فما رفعها الا وهو أحب الخلق الى •

ومن ذلك حديث « فضالة بن عبيد » قال : أردت قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوت منه • قال : (أفضالة ؟) قلت : نعم • قال : (ما كنت تحدث به نفسك ؟) قلت : لا شيء • فضحك ، واستغفر لى • ووضع يده على صدرى ، فسكن قلبى • فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئا أحب الى منه •

ومن ذلك خبر « عامر بن الطفيل » و « أربد بن قيس » وذلك أنهما وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليقتلاه • فقال عامر لأربد : أنا أشغل عنك وجه محمد • فأضرب أنت • فلم يفعل « أربد » من ذلك شيئا • فلما كلمه « عامر » فى ذلك • قال له : والله ما هممت أن أضربه الا وجدتك بينى وبينه • أفأضربك ؟

ومن ذلك الخبر المشهور خبر « سراقه » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجرا للمدينة • لم يعلموا بخروجه ، فبعثت قريش فى طلبه فى كل وجه حتى جعلت لمن يأتى به جعلا : مائة ناقة •

قال سراقه : فبينما أنا جالس فى نادى قومى • اذ أقبل رجل • فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفا • انى لأراه محمدا وأصحابه • قال : فأومأت له — يعنى أن اسكت — ثم قلت : انهم بنو فلان يبتغون ضالة لهم • قال : لعله • قلت : فمكثت قليلا • ثم قمت ، فدخلت بيتى • ثم أمرت بفرسى ، فقيدت لى • الى بطن الوادى وأمرت بسلأحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى • وكنت أرجو أن أرده على قريش • وأخذ المائة ناقة • قال : فركبت فى اثره • فلما بدا لى القوم فرأيتهم ، عثر بى فرسى ، وذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه • قال : ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالاعصار • قال :

فعرفت حين رأيت ذلك : أنه قد امتنع مني • وأنه ظاهر • قال : فناديت القوم : أنا سراقه • انظروني حتى أكلكم •

فقال له أبو بكر : وما تبتغي منا ؟ قال : قلت كتابا يكون آية بيني وبينكم • فكتب له أبو بكر بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم • فأمسكه عنده ، حتى كان يوم الطائف •

والأخبار في هذا كثيرة ، والحكايات صحاح شهيرة ، لا يمكن جحدها ، ولا ينكر حصول العلم عندها ، بل كلها تدل على صحة نبوته ، وتصديق شريعته ، وأنه كما قال الله عز وجل : « وما محمد الا رسول ، قد خلت من قبله الرسل » (١) •

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب ، أو تدخل تحت عد وحساب وعند الوقوف على ما تضمنته الفصول المقدمة ، والأبواب السابقة ، يحصل العلم الضروري بصدقه في رسالته ، وبوجوب اتباع شريعته • ومنكر ذلك معاند متوابع جاحد •
« وسيطم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » (٢) وقد نجز غرضنا من هذا الباب •

فإن قال قائل من النصارى والمخالفين لنا : ما ذكرتموه من معجزات نبيكم • إنما يثبت عندكم من أخبار الآحاد • وهى وإن كانت صحاحا فلا يحصل بها العلم ، كما كنتم تقدمتم ، حيث تكلمتم مع النصارى ، حين استدلوأ على اثبات نبوة مسيحهم •

فانكم قلتم : لا نقبل في مثل هذا الموضع خبر ، من تجوز العادة عليه الكذب والغلط • وإنما نقبل فيها : خبر من لا تجوز عليهم العادة ، الكذب والغلط ، وهو الخبر المتواتر • ثم انكم قبلتم هنا أخبار من تجوز العادة عليهم الغلط والكذب ، وهى أخبار الآحاد • فقد خالفتم ما أصلتهم ، وقبلتم عين ما أنكرتهم •

قلنا في الجواب عن ذلك : اعلم أيها المعترض • أننا لم نقبل في هذا الباب الا الأخبار المتواترة التى يحصل العلم بها • لكن ينبغى أن

تعلم أن المتواتر ضربان • ضرب يتواتر لفظه ومعناه • وذلك مثل قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » (١) فإن هذا اللفظ نعلم قطعاً وبقيناً : أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم قاله ، كما تلوناه من غير زيادة ولا نقصان • إذ قد نقله عنه الجرم الغفير ، عن الجرم الغفير ، فلا يتطرق إليه وجه من وجوه الشك ، فلا يقدر أحد أن يتشكك في لفظه ، ولا في معناه ، وكثير من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم المتقدمة الذكر من هذا القبيل • فهذا هو الضرب الأول •

وأما الضرب الآخر • وهو متواتر معناه دون لفظه ، فيحصل العلم أيضاً بذلك المعنى • وذلك مثل أن تتوارد روايات كثيرة من أخبار الآحاد الصحاح على معنى واحد ، بألفاظ متغايرة ، وحكايات مختلفة • مثال ذلك : أنا نجد من أنفسنا علماً قطعياً بشجاعة « علي بن أبي طالب » رضى الله عنه • فإذا نظرنا في الخبر الذي حصل لنا العلم بشجاعته ، لم نجد خبراً واحداً متواتراً • وإنما وجدناه جملة أخبار آحاد تواردت على معنى واحد ، وهو الشجاعة • فتسمع عنه يوماً أنه فعل يوم خير كذا ، وفعل يوم حنين كذا ، ويوم صفين كذا ، ويوم الجمل كذا ، فلا تزال أخبار الآحاد تكثر حتى يضطر السامع إلى العلم بمخبرها ، ولا يقدر على تشكيك نفسه في شيء منها • وهذا مسلك في تحصيل العلم • إذا تفقده العاقل المنصف من نفسه وجده مفيداً للعلم ، ومحصل له ضرورة • ومن أكرر حصول العلم منه ، كان منكراً لما هو ضروري •

فإذا ثبت هذا • قلنا بعده : إن ما نقلناه من معجزات نبينا عليه السلام ، منها ما تواتر لفظه ومعناه كأنشقاق القمر وغيره • ومنها ما تواتر معناه ، وهو أكثر ما احتوت عليه الفصول المتقدمة • وذلك أن كل فصل منها اشتمل على معنى واحد وكثرت الأخبار عن ذلك المعنى ، حتى اضطر الواقف عليها إلى العلم بمعناها ، وذلك مثل نبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الماء القليل ، والطعام القليل ، إلى غير ذلك من الفصول فكل فصل منها قد تواتر معناه • وإن لم تتواتر آحاد ألفاظه •

ثم هذه الفصول بجملتها يحصل منها العلم القطعى ، واليقين
الضرورى : بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كانت العادات تنخرق على
يديه ، معجزة له • اذ قد تواردت جميع أخبار هذه الفصول على هذا
المعنى •

فحصل من هذا : أنا لم نستدل على اثبات نبوة نبينا محمد ، بأخبار
الآحاد • وانما استدللنا على ذلك بالأخبار المتواترة ، المحصلة للعلم
والحمد لله •

والنصارى فيما أوردوا لم يستدلوا هكذا ، ولا غدهم علم من
هذا ، وكفى أنهم فى ضلالتهم يعمهون • وفى شكهم يترددون •
عصمنا الله من الخطأ والزلل ، فى القول والعمل • بكرمه وجوده •

* * *

الفصل الثالث عشر : فى ما ظهر على أصحابه ، والتابعين لهم من الكرامات الخارقة للعادات :

اعلم • أن غرضنا فى اثبات هذا الفصل شيئان :
أحدهما : أن نبين : أن ما ظهر على أصحابه ، وعلى أهل دينه من
الكرامات ، هو آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم الآيات •
وذلك أن الله تعالى اذا أكرم واحدا منهم بأن خرق له عادة • فان
ذلك يدل : على أنه على الحق ، وأن دينه حق • اذ لو كان مبطلا فى
دينه ، متبعا لمبطل فى دعواه ، كاذب فى قوله على الله • لما أكرمه
الله • ولا أكرم من اتبع دينه •

فعلى هذا نقول : ان كل كرامة لولى • انما هى آية للنبي الذى
يتبعه ذلك الولى ، فهذا أحد الغرضين وهو أهمهما •

والغرض الثانى : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم •
وان كانوا قد أكرمهم الله بكرامات خارقة للعادات فلا يعتقد فيهم أنهم
أنبياء • كما فعلت النصارى بالحواريين • بل يعتقد فيهم : أنهم أولياء
الله ، وأصحاب رسول الله ، تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
شرعه ، وبلغوا عنه قوله ، وفعله • فبذلوا فى اظهار دين الله أنفسهم
وأموالهم ، حتى أظهر الله على كل الأديان دينهم ، وإيمانهم •

كما قال الله تعالى فيهم : « محمد رسول الله • والذين معه ، أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا • سيماهم في وجوههم من أثر السجود » (١) •

ونحن الآن نذكر بعض ما أكرمه الله تعالى به •

من ذلك : ما علمنا من أحوالهم على القطع • وذلك أنهم بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرضوا لقتال كل من خالفهم من أهل الأرض يهوديهم ونصرانيهم ، مجوسيهم ووثنيهم ، عربيهم وعجميهم ، على قلة عددهم ، ونزارة عددهم • فقارعوا الأبطال ، وسبوا الذراري والأموال ، وأسروا العتاة ، وقتلوا الرجال • وعلى هذا انقضى عصرهم •

ومع ذلك فلم يرو قط عنهم : أنهم ولوا مدبرين ، ولا رجعوا منهزمين ، بل كانوا يرجعون غالبين ، وبعدهم ظافرين ، وعليهم ظاهرين • هذا مع كثرة من كان يجتمع عليهم من عدوهم ، ومن وقف على فتوحات الشام ، علم أن دين الحق ، هو دين الاسلام • فلقد اجتمع عليهم من عدوهم بالشام ثلاث مائة ألف • ونحوها ، بل قد قال « الواقدي » : « ثمان مائة ألف من النصاري المستعربة وغيرهم • وهم زهاء ثلاثين ألف ، خيلهم ورجلهم » فقارعوهم مقارعة الكرام ، وصبروا صبر من صدق ما وعده به نبيه محمد عليه الصلاة والسلام • فأظفرهم الله عليهم ، ومنحهم رقابهم ، وأورثهم أموالهم وديارهم •

وهكذا فعل الله معهم ، غير ما مرة ، ولا يشك في أن هذا كرامة من الله لهم ، وأمر خارق للعادة في حقهم ، فإن العادة : أن من أكثر من مقارعة الشجعان ، فلا بد له من أن يصاب ، ولو في وقت من الزمان ، وما اتفق لهم — وإن كان كرامة لهم — فهو آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم • وأنه قد كان بشرهم بذلك ، وأخبرهم بكل ما طرأ لهم هنالك •

فقد ثبت أنه عليه السلام قال : (تغزو قيام من الناس • فيقال لهم : هل فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم • فيفتح لهم • ثم تغزو قيام من الناس • فيقال لهم : هل فيكم من رأى ، من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم •

فيفتح لهم • ثم تغزو قيام فيقال لهم : هل فيكم من رأى ، من رأى
من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقال : نعم • فيفتح لهم) •
وهذا منه صلى الله عليه وسلم : اخبار بنصر أصحابه ، ونصر
تابعيهم ، وتابعي تابعيهم ، ثلاثة قرون • وهذه الأعصار ، هكذا انقرضت ،
لم يزل نصر الله لهم ، وعونه معهم ، تصديقا لنبيه ، واكراما لأصحابه ،
رضى الله عنهم ، وجازاهم عنا بأفضل ما جازى أحدا عن أحد •

ومن ذلك ما ظهر على أحد منهم مما قدمنا ذكره ، حيث ذكرنا :
أن طائفة منهم أكلت السم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يضرها •
وقد ذكرنا حديث المرأة المهاجرة التي مات ابنها • فقالت : اللهم ان
كنت تعلم أنى هاجرت إليك ، وإلى نبيك ، فلا تحملنى هذه المصيبة ،
فحيى ، وأكل معهم • وكذلك ذكرنا مقالة « ثابت بن قيس بن شماس »
بعد موته • وكلام « زيد بن خزيمة » بعد موته فيما تقدم ، فلا معنى
لإعادته • فلتنظر فيما تقدم •

ومن ذلك خبر « ابن عمر » رضى الله عنه • أنه كان في بعض أسفاره ،
فلقى جماعة وقفوا على الطريق خوفا من السبع ، فطرد السبع عن
طريقهم • ثم قال : انما يسلط الله على ابن آدم ما يخافه ، ولو أنه
لم يخف غير الله لم يسلط عليه شيء •

ومن ذلك حديث « العلاء بن الحضرمي » بعثه رسول الله صلى
الله عليه وسلم في غزاة ، فحال بينهم وبين الموضع الذى يريدونه
« قطة » من البحر ، فدعا الله باسمه الأعظم ، وهشوا على الماء •

ومن ذلك أن « عباد بن بشير » أو « أسيد بن حضير » خرجا
من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأضاء لهما رأس عصا أحدهما •
كالسراج • وقد قدمنا مثل هذا •

ومن ذلك أن « سلمان » و « أبا الدرداء » كانت بينهما قصعة ،
فسبحت ، حتى سمعا تسبيحها ، وقد تظاهرت الأخبار : بأن جماعة منهم
رأوا الملائكة ، وكانت تسلم عليهم مثل « عمران بن حصين » و « أسيد
ابن حضير » والأخبار في هذا كثيرة •

وأما القابعون • فقد ظهرت لهم من الكرامات والخيرات ما لا يمكن استيفاء ذكره في هذا الكتاب •

فقد كان كثير منهم يمشى على الماء ، ويطير في الهواء ، وينظر الى الحمى فيصير جواهر ، وينظر الآخر الى الأرض بين يديه ، فيصير ذهباً ، وتطوى له الأرض ، ويتوضأ ، فيسيل الماء من بين يديه قضبان ذهب • ويدعو الله تعالى فيبصر المرضى والمجانين ، وللهناء ، الى ما لا يحصى كثرة •

وقد دون من هذا كثير ، يقضى منه العجب في كتب كرامات الأولياء • ولو لم يكن من هذا ، الا قبر « معروف الكرخي » الكائن ببغداد ، لكان فيه كفاية ، وأعظم آية • وذلك أن قبره يستشفى به ، ويدعى الله عنده ، فيشفى المريض ، وتقضى الحاجة ، حتى أن أهل بغداد ، يقولون : قبر معروف الكرخي ، ترياق مجرب •

وبعد هذا

أقول للنصارى : وليست هذه الأمور العجيبة ، والأفعال الغريبة من قبيل الحيل والنفيرجات ، التي تعظمون بها أديانكم ، وتموهون بها على عوامكم ، وتضيفونها الى هذيانكم •

فلقد حكى لنا : أنكم تمخرقون على ضعفاء العقول منكم بخرافات وترهات ، مثل ما وصف عن بعض مشاهدكم المعظمة عندكم • وذلك أنكم تزعمون أن يد الله المسيح تظهر بها في يوم واحد من السنة من وراء ستر • وهذا مشهور عندكم •

ولقد حكى لنا من يوثق بحديثه : أن رجلاً من اليهود كان قد حظى عند أحد رؤسائكم بالأندلس • بوصلة كانت بينهما • فرام الرئيس أن يخرج اليهودي عن دينه ، ويدخله في دين النصرانية • وقال له : ألا ترى هذه الأعجوبة : ظهور يد الله المسيح لنا في يوم معلوم من السنة ؟ فقال له اليهودي : يا مولاي • أنا قد رضيت من هذا الأمر بشهادتك ، ومصدقتك عليه • فابحث عنه • فان كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقاً • دخلت في دينك ، فخالط الرئيس الشك • فلما دنا ذلك اليوم ، مشى ذلك

الرئيس الى ذلك المشهد • وقرب مالا ، يهديه هنالك ، فبرز اليه الأساقفة ،
وقربوه لتقريب اليد • فلما ظهر له من وراء الستر ، وضع يده فيه ،
فصاحوا به ، وأغلظوا له القول • يقولون له : اتق الله • الآن تخسف
بك الأرض • الآن تقع عليك السماء • الآن ترسل عليك الصواعق • فقال
لهم : دعوا عنكم هذا كله • فان هذه اليد ، لا أدخل يدي عنها حتى أعلم
حقا ما تصفون عنها ، أم باطلا •

فلما رأوا الحجة فروا عنه ، ولم يبق معه الا اثنان • أسرا اليه ،
وقالا له : ما تبغى في ذلك ؟ أصبوت عن دين آبائك ؟ أتريد أن تحل ربطا ،
ربط منذ ألف سنة أو نحوها ؟ قال : لا • ولكني أحب الوقوف على سر
هذه اليد • فقالا : هي يد الأسقف ، واقف خلف هذا الستر • فقال :
أحب أن أراه • فقالا : أنت وذاك • فكشفا له عن « قس » محدود
الخددين ، واقف خلف هذا الستر ، فلما عينه الرئيس أرسل يده ،
وخرج الى عسكره • فقال له اليهودي : يا مولاي ما تأمرني به ؟ أدخل في
دينك ، وأخرج عن ديني ؟ فقال له : رأيك • خرجت منه ، أو فلا خرجت •

وكذلك وصف لنا عن صليب في بعض مشاهدكم المعظمة عندكم يمشى
اليه الناس ليتعجبوا منه ، وهو واقف بين السماء والأرض ، وان بعض
رؤسائكم سأل عن ذلك كاتباً له يهودياً ، فتفطن اليهودي الى أن ذلك
الصليب : حديد ، تمسكه أحجار المغناطيس • فبحث عنه فوجد كذلك •

وكذلك • وصف عن « الثريا » التي في كنيسة الغراب ، وحيلتها :
حيلة الصليب • وكذلك كنتم تذكرون أن هذه الكنيسة ينزل فيها نور ،
يوقد ذبال الثريا المذكورة ، في ذلك اليوم المشهود • فذكر ذلك لأحد
ملوك بنى أمية بالأندلس ، فتعجب من ذلك • وسأل عن ذلك ، فأخبره
رجل من أهل افريقية بحيلتها ، وذكر أنهم مدوا مع الحائط : قصبة حديد ،
ضيق جوفها ، وأبرزوا لها أنبوباً كسم الخياط • موضعه موزون مع
طرف الثريا •

ثم انهم ذلك اليوم يرسلون نار النفط ، في القصبة متراكما ،
حتى يخرج في غاية القوة ، الى ذبال الثريا ، الذي هو في زنة واحدة معه •
(٢٥ - الاعلام)

ووصف ذلك الافريقى مع ذلك حيلة فاحتال ذلك الأمير على الكنيسة
فلى أحد غزواته ، وقد دنا يومها ذلك • فدعى الافريقى ، وكان معه ،
فسأله كشف ذلك • فعمد الافريقى فاستخرج منه قناة من الصفر ، على
ثحو ما كان ذكر • وعمد الى سماء الثريا ، فاستخرج منه حجرا من
المغنطيس ، فسقطت • فأمر الأمير عند ذلك بمعاقبة القسيس •

وكذلك كنتم تزعمون : أن مريم نزلت من السماء ، على « دون
اذ فنتش » المطران • بجامع « طليطلة » وكست رأسه بقجيلة ، وجسمه
بثياب مزينة • وذلك فى ليلة النصف من شهر « أغشت » فتعظمون تلك
الليلة تعظيما شنيعا •

وذلك كله انما يصح عليكم ، لجهلكم بالأمور كلها ، حقها ، وباطلها •
حتى أنكم تصدقون بالباطل والترهات • وتكذبون بالحق كله ،
وباليقينيات • فردكم لغير معنى • وقبولكم لغير معنى • فلذلك لم
تعدوا من العقلاء ، ولم تضربوا بسهم النبلاء •

ولقد أورد بعض حذاقنا ، المجترئين على الكلام : على النصارى
فى كذبهم نزول مريم على « دون اذ فنتش » الزامات • نبهت النصارى ،
ولا محيص لهم عنها •

فقال لهم : أخبرونا عن نزول مريم الذى تزعمون • هل كان باذن
سيدها ، أو بغير اذنه ؟ فان قلتم : كان باذنه • فكيف يجوز عليه أن
يتمن أم ولده — بزعمكم — فى حق عبده ؟ وهلا كان يرسل عبدا من
عبيده ويصون أم ولده ؟

هذا يدل على عدم الغيرة • ولو فعل ذلك الواحد منا ، لعرض
نفسه وزوجته للتهم • ولتضاف اليه النقائص ، وينسب الى همته الخسة •

وان قلتم : كان ذلك بغير اذن منه • فكيف ينبغى أن تخونه ؟ مع
أن الله قد اصطفاه على نساء العالم ، واتخذها أم ولد — بزعمكم —
فتنزل بغير اذنه الى رجل من جنسها بكسوة ، وثياب مزينة فى كنيسة
خالية • وهذا محل خيانة •

تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وسبحانه عما ينسب إليه
الجاهلون بكرة وأصيلا • وأستغفر الله الذى لا اله الا هو الحى القيوم ،
وأسأله التوبة من حكاية هذه القبائح ، ومن رواية هذه الفضائح •

فالحمد لله ، الذى أعاد الاسلام من هذه الرذائل ، وخصه بكل
الفضائل التى يستحسنها كل عاقل ، ويتدين بها كل فاضل • ويتميز
عندها الحق من الباطل •

* * *

(انتهى الجزء الثالث من كتاب « الاعلام بما فى دين النصرى من
الفساد والأوهام ، وأظهار محاسن دين الاسلام ، وإثبات نبوة نبينا محمد
عليه الصلاة والسلام » ويليه الجزء الرابع باذن الله • وأوله : الباب الرابع :
فى بيان أن النصرى متحكمون فى أديانهم ، وأنهم لا مستند لهم فى أحكامهم ،
الا محض أغراضهم وأهوائهم) •

الأخلاق

بِمَا فِي دِينِ النَّصَارَى مِنَ الْفَسَادِ وَالْأَوْهَامِ
وَإِظْهَارِ مُحَاسِنِ دِينِ الْإِسْلَامِ
وَأَشْثَاتِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

تأليف

الامام الفطبي

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أحمد مجازي الشقفا

الجزء الرابع

دار التراث العربي

الباب الرابع

في بيان أن النصارى متحكمون في أديانهم

وأنهم لا مستند لهم في أحكامهم إلا محض أغراضهم وأهوائهم

هذا الباب يشتمل على صدر • وفئين •

الصدر : وفيه فصلان •

والفن الثاني : فيه فصلان •

الفصل الأول

ليست النصارى على شئ

اعلم أيها العاقل — وفقك الله — أن النصارى أضعف الناس عقولا ، وأقلهم فطنة وتحصيلا • فهم لذلك يعتقدون في الله المحالات ، وينكرون الضروريات ، ويستندون في أحكامهم الى الخرافات • فتارة يسندون قضاياهم الى منامة رأوها أو خرافة سمعوها ، وما وعوها ، وأخرى تحكم فيهم « متقسس » جاهل ، بمحض الجهل والهوى والأبطل • من غير أن يستدل على جواز شئ مما يريد أن يفعل من الأفاعيل ، لا بتوراة ولا بإنجيل بل قد يعرض عن نصوص الكتابين ، ويتأولهما تأويل منسلخ عن المألين ، وربما تنزل بهم عظام النوازل فيجتمعون لها في المحافل ، فيتحكمون بأهوائهم ، ويقولون فيها بأرائهم ، فيحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله « افتراء على الله • قد ضلوا ، وما كانوا مهتدين » (١) •

ونحن نبين ذلك ونستدل عليه — ان شاء الله تعالى — على طريقة الانصاف من غير اعتساف • فأما كونهم يعتقدون في الله المحالات ، وينكرون الضروريات • فقد بيناه فيما تقدم • فمن أراد أن يعرف ذلك فليعد نظرا هنالك •

وأما كونهم يستندون في أحكامهم الى الترهات والمنامات ، فيدل عليه : ما حكيناه فيما تقدم من خبر « بولس » فانه احتال عليهم ، حتى صرفهم عن دين المسيح • وقولهم من المذاهب والآراء كل قبيح • فصرفهم عن قبلتهم ، وأحل لهم ما حرم عليهم ، وفرق جماعتهم ، وشئت كلمتهم • فتم له كل مكر ، على كل غبي غمر • وقد قدمت حديثه في باب النبوات على الوفاء • وكذلك خبر « قسطنطين

ابن هيلانة « فانه لما رأى ملكه يختل ، ونظامه لا يستقيم ، ولا يتحصل باختلاف رعيته عليه ، وقلّة انقيادهم اليه • جمع وزرائه ، وشاورهم فاجتمع رأيهم أن يتعبد القوم بطلب دم ، وأن يشرع لهم شريعة ينسبها للمسيح • فكتب لهم ما بأيديهم من الانجيل أو أكثره ، وتعبدهم بالصلوبية ، وشرع لهم ترك الختان • وغير ذلك من الأحكام التي وافقته ، وجاءت على اختياره ، وأكد ذلك بمنامة رآها ، ذكر فيها أمر الصليب • فتم له مراده فيهم • وخبره معروف عندهم ، وعند غيرهم • وقد قدمت بعضه في باب النبوات أيضا •

وأما كونهم يحكمون بأرائهم وأهوائهم • فيدل على ذلك : ما أودعوه كتب محافلهم ، وما عليه الآن معظم عملهم ، ومن طالع تلك الكتب ، قضى من جهلهم وجرائتهم على الله كل عجب • فان قالوا : انما نحكم بالمصالح ، وهى عندنا أصل راجح • قلنا لهم : ان كانت المصالح عندكم أصلا تعولون عليه ، وتسندون أحكامكم اليه ، فمن الذى أصلها لكم ؟ فان كنتم أصلتموها لأنفسكم فقد تحكمتن فى الأصل والفرع ، ثم يلزمكم من هذا القول : الاستغناء عن الشرائع • وأن ما شرع الله من الأحكام فى التوراة عبث ، لا معنى له ، ولا فائدة • اذا فى النظر فى المصالح غنى عنها •

وان كان الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح • فلا بد من الاستدلال على ذلك من كلامهم • واذا لم تستدلوا على ذلك ، فدعواكم باطلة • وحجتكم داخضة •

ثم نقول لهم : هب أن الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح ، فهل شرعوا العمل بالمصالح ، كيف ما كانت المصلحة مطلقا ؟ أو عينوا لكم نوعا من المصالح ؟ فان كانوا قد عينوا ، فينبغى لكم : ألا تتعدوا ما عين لكم الأنبياء • فما بالكم تسترسلون استرسال من يحكم بهواه ، ولا يخاف الله • ولا يخشاه • وان كانوا أطلقوا لكم القول بالمصالح • وقالوا لكم : مهما ظهرت لكم مصلحة كائنة ما كانت ، فاعملوا بمقتضاها • فكان يلزم على هذا اسقاط كثير من أحكام التوراة بالمصالح والرأى • كما فعل « بولس » حيث قال لهم : « هل رأيتم سارحة تسرح من عند ربها • ولا تخرج الا من حيث تؤمر به ؟ قال : فانى رأيتم الصبح والليل والشمس والقمر والبروج انما تجىء من هاهنا — يعنى الشرق — وما أوجب ذلك

الا وهو أحق الوجوه أن يصلى اليه • قالوا له : صدقت •
فردهم عن استقبال بيت المقدس ، الى استقبال جهة الشرق •
لهذا الهذيان • ثم قال لهم بعد زمان : « رأيت رأيا • قالوا : هات •
قال لهم : أستم تزعمون أن الرجل اذا أهدى الى الرجل هدية ، وأكرمه
بالكرامة فردها شق ذلك عليه • وأن الله سخر لكم ما فى الأرض ، وجعل
ما فى السماء لكم كرامة • فانه أحق ألا ترد عليه كرامته • فما يال
بعض الأشياء حرام ، وبعضها حلال • ما بين « البقرة » الى « الفيل »
حلال • قالوا : صدقت •

وهذا محض الجراءة على الله ، والافتراء على شرائع الله ، ولم
يصر قط أحد من المتشرعين الى مثله ، ويلزم عليه : أن يكون كل من
أراد أن يشرع شرعا : شرعه ، فيكون العقلاء كلهم شارعين ، ويستغنى
عن رسل رب العالمين • وهذا غاية الكفر والضلال ، وهو لازم على
مذهب أولئك الجاهل • فقد ظهر من هذا الفصل : أنهم لا يستندون
الى شيء ، وأنهم ليسوا على شيء « ألا انهم هم الكاذبون » (١) •

* * *

الفصل لثانى

خروج النصارى على تعاليم التوراة والانجيل

أريد أن أبين فى هذا الفصل : أنهم يخالفون كتبهم ، ولا يعملون بمقتضاها • بل يتركون العمل بها ابتداء ، ويقولون : تأولناها •

وذلك أن الله تعالى حرم فى التوراة : أكل الميتة ، والدم ، والخنزير ، والنطيحة ، والموقوذة ، والمنخقة ، والقرودة ، والشحوم التى لا تختلط باللحم ، والأرانب ، والأسد ، والدب ، واللب ، والفرس ، والبغل ، والحمار ، وكل دابة ليست مشقوقة الحافر • ومن الطير : البازى ، والعقاب ، وكل طير يبغى بالمخالب ، ومن حيوان المأكلى : حوت ليس له « سفانق » •

— هذا وجدناه فى كتبهم التى نقلنا منها « سفانق » وهو تصحيف منهم • وانما هو « سفاسق » وهى الطرائق عند العرب • ومنه قيل : « سفاسق السيف » وهى طرائقه ، وفرنده • ذكره أبو عبيد فى الغريبه المصنف —

ومنع حرث الثور مع الحمار ، وحمل الخيل على الحمير ، والحمير على الخيل ، وطبخ الجدى فى لبن أمه ، وأخذ الطير فى أعشاشها بفراخها ، وأكل الجزارة الملتصقة رثتها ، وأكل الخبز المختمر فى الفصوص • ولا تقرب قربان الا بخبز فطير ، ومنع شحوم البقر ، وشحم الشاة • ومنع قربان الحمام واليمام •

فهذه المذكورات كلها محرمة بنصوص التوراة التى لا تقبل التأويل • اذ قد عملت أنبياء بنى اسرائيل على مقتضاها ، ولم يغيروا شيئاً منها • وكذلك عيسى عليه السلام لم يغيرها عن مقتضياتها ، ولا نسخها • بل أقرها بالعمل ، وأمر بمقتضاها •

وان ادعوا نسخ شيء منها ، طالبناهم بدليل النسخ ، ولا يجدون
سبيلا الى ذلك • ومع ذلك فتركوا العمل بما أمر الله به ، وارتكبوا
جانحى الله عنه •

ولقد وقفت على بعض كتبهم فى الفقه ، فذكر هذه المحرمات مؤلفة
ثم تأولها بزعمه • وأنا الآن أذكر ما ذكر فى ذلك الكتاب ، ليقضى العاقل
من تواقحهم وجهلهم : العجب العجاب • ويعلم أنهم مفترون ، ويكذبون
على رب الأرباب •

قال ذلك الجاهل بعد نكر المحرمات : « فهذه أمثلة ضربت فى
التوراة ، التى هى أم الانجيل ، وأول الكتب كلها ، ففسر المسيح سيدنا
فى الانجيل • حيث قال : « لم آت لنقض الكتاب ، بل لتمامه » فتمام
الكتاب التأويل •

فأما الميتة فى التوراة • فانما نعى بذلك : ألا تميتوا الأحياء ،
ولا تغموا الحق فى الشهادة ، ولا ترفعوا الطعام ، وتمنعوه السائل
والجائع • فأما الميتة والمنخقة ، فما فى أكلها غبطة ، لذى عقل • فمن
شاء أكل ، ومن شاء ترك • وأما الدم فيعنى به ألا يقتل أحد بريئا ،
ويهريق دمه ، وعنى بالخنزير : الزنا ، والكفر بالله • اذ المعروف من
الخنزير : الالتطاخ فى المطائق ، فنهاننا عن فعله • وأما أكله • فما فيه
منفعة ولا مضرة ، فمن شاء أكله ، ومن شاء تركه ، وعنى بالنطيحة
ألا يتناطح ملك جبار ، وفقير مسكين • وعنى بالموقودة ألا تزدري بمن هو
تحت ظلم غيرك • وعنى بالمنخقة ألا تخنق أحدا ، اذا كان لك قبله حق
فتضايقه ، وعنى بالقردة ألا تحاكي أحدا ، فتفعل كفعلها ، وعنى بالدب
واللب ألا تأكل مع غيرك بالهجم والغارة • وعنى بالأرانب ألا تفعلوا
فعل الأرانب ، فتكونوا كقوم لوط • فان الأرانب الذكور يأتى بعضها
بعضا لكثرة شهوتها •

وعنى بالبازي ، والشدائق ، والعقاب ، وكل طير يبنى بمخلبه :
ألا يقتل أحدا ، ولا يهريق دم أحد ، ولا يغلب أحدا على متاعه ، ولا تحسد
جارا فتفعل كفعلها ، وعنى بالدابة التى ليست مشقوقة الحافر : الكفرة •
الذين يعبدون الأوثان ، ويسبحون لها أيام حياتهم ، ولا يقسمون أيامهم
مشاطرة •

وعنى بالحوث الذى ليس له سفائق : الانسان المذنب الذى يتلون
فى دينه ، وعبادته ، وعنى بحرث الثور مع الحمار : الانسان الكافر •
وعنى بحمل الخيل على الحمير ، والحمير على الخيل ، ألا يتزوج الكافر
مؤمنة ولا المؤمن كافرة •

وعنى بالجدى فى لبن أمه : ألا تأخذ مال اليتيم ظلما ، وعنى
بالملتصقة الرئة : الانسان الحسود ، الحقود ، الذى يوسوس الشر
فى صدره ، طول حياته ، وعنى بالخيز المختمر : ألا ينفخنا الشيطان ،
ويهيح فينا الكبرياء • وعنى بالفطير : أن تكون أنفسنا ضامرة بلا انتفاخ •
وعنى بالحمام واليمام : المؤمنين الذين جعلوا أنفسهم لله
قربانا « ا.ه •

قال : « فهذا هو المراد بتحريم هذه الأشياء • وأما تلك المذكورات
بأعيانها ، فمن شاء أكلها ، ومن شاء تركها » ا.ه •

هذا مذهب النصارى أجمعين ، ولا يأباه أحد منهم الا الأقلين •
فينبغي لنا أن نوبخ هؤلاء الجاهلين ، ونعرض عليهم من الالزامات
المفحمة ما كانوا عنه معرضين • ونقول لهم : ما الذى حملكم على أن
حرفتم كتاب الله • وغيرتم شرع الله ، فأحللتم ما حرم عليكم من غير
دليل ، وصرتم الى تأويل ، لم تضمكم اليه ضرورة عقل ولا معارضة
قول رسول ؟ فيا للعجب ما أثقب أذهانكم ، وأصح أفهامكم اذ قد
فهمتم من كتاب رب العالمين ، ما لم يفهمه أحد من النبيين ، بل قد
زاد فهمكم على فهم موسى بن عمران ، وعيسى عليهما السلام • اذ كانا
قد عملا على تحريم ما فهمتم أنتم تحليله من الأحكام •

وعلى ذلك عملت بنو اسرائيل مدة مديدة من الأعوام الى زمان
« بولس » المفسد لدين المسيح ، الذى جاءكم بمكر خالص ، وكفر
صريح • فتلقيتم منه هذيانه ، ولم تعرفوا شأنه ، فحرفتم كتاب الله
وانحرفتم عن الدين القويم ، دين المسيح ، حين حرف الدين • الذى
لم تزوا منه أثرا ، ولا سمعتم له خبرا •

ثم نقول : يا معشر المحرفين لكتاب الله • أخبرونا • هل كان
موسى بن عمران ، وعيسى ابن مريم • ومن بينهما من أنبياء بنى اسرائيل ،
علموا من هذه الأحكام ما علمتم أنتم أم لا ؟ فان كانوا قد علموا فما بالهم

نصوا على خلاف ذلك ، وحكموا بتحريم تلك الأشياء ، فلم يرو قط عن واحد منهم : أنه أكل خنزيرا ، ولا ميتة ، ولا دما ، ولا شيئا مما ذكرنا تحريمه ، وأنتم تقولون هذا ، وتساعدون عليه • فكيف يمتنعون من أكل ما يحل لهم ، ثم يصرحون بتحريمه ؟ فعلى هذا يلزمكم أنهم كذبوا على الله ولبسوا في أحكام الله • إذا كانوا علموا تحليل تلك الأشياء ، ثم صرحوا بتحريمها ، والنهى عنها • وإن لم يعلموا شيئا مما علمتموه أنتم • فمن أين علمتموه أنتم ؟ أشافهتكم بذلك الملائكة ، أم أرسل اليكم بذلك رسل آخر ؟ أم خلق لكم بذلك علم ضرورى ؟ وكل ذلك لا تقدرُونَ على ادعائه ، فلم يبق إلا أنكم جاهلون بشرع الله • محرفون كتاب الله ، متواقحون على الله ، كاذبون عليه ، ومتهاونون برسله ، وستقفون بين يديه ، ويسألكم عما افتريتُم عليه فتحيط بكم النيران ، وتجركم على وجوهكم إليها ملائكة غلاظ شداد لا يطيقهم انسان » **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ؟ (١) •

فتنادون اذ ذاك : يا أسقفنا « بولس » انظرنا • فما منا الا متخرق عاطش • فيقال لكم : هو في أسفل سافلين ، فتصيروا إليه أجمعين • فاذا اجتمعتم معه ، لعن بعضكم بعضا ، وجحد بعضكم بعضا ، « وماواكم النار ، وما لكم من ناصرين » (٢) •

ثم نقول لهم : ان جاز أن نتأول ألفاظ الشارع ، وكلماته من غير ضرورة داعية الى ذلك ، وندفع النصوص بالتحكم ، بطلت الكتب كلها والألسنة ، ولم يقدر واحد أن يفهم منها شيئا • اذ كل لفظ يتكلم به متكلم يمكن صرفه عن بابه ، وعن موضوعه الأصلي ونصابه •

واذا أمكن ذلك لم تقدرُوا على أن تثبتوا نبوة عيسى على اليهود • بما قدمتم • فان من نص ما عندكم من كلام الأنبياء على نبوته قول يعقوب : « لا ينقطع قضيب الملك من نسل يهوذا ، حتى يأتى المسيح » (٣) فيسوغ لليهودى أن يقول : انما عنى بالملك : دينهم ، الذى ورثوه عن كتابهم وأنبيائهم • ولم يعن الملك الذى هو الامارة والولاية • وقد

(٢) العنكبوت : ٢٥

(١) الزمر : ٦٠

(٣) سفر التكوين : ٤٩ : ١٠ - وترجم حاليا كلمة المسيح

بـ « شيلون » •

يسمى الدين : الملك • وقد جاء في التوراة حيث قال الله تعالى لابراهيم :
« الملوك من صلبك يخرجون » (١) وانما أراد بذلك الأنبياء ، وأهل
الدين • ولم يرد بذلك الأمراء فقط •

وعلى هذا التأويل تحتاجكم اليهود ، ويقولون لكم : هذا ديننا
باق ، لم ينقطع • فانا نقيم التوراة وأحكامها ، فلم يأت بعد المسيح •
وهذا التأويل في هذا الموضع أسوغ مما تأولتم به أنتم أحكام التوراة •
فان أنكرتم هذا التأويل ، أنكروا تأويلكم ، وخطؤوكم ، وشهدوا
عليكم أنكم غيرتم كتاب الله ، وحرفتموه •

هذا ما جنى عليكم تأويلكم ، اذ قد شككتكم في مسيحكم • ففى
مثلكم يضرب المثل :

« يداك أوكتا ، وفوك نفخ » •

ولو شئنا لأبدينا لكم من التأويلات ، وأريناكم من المناقضات
أكثر من هذا لفعلنا • ولكن منعنا من ذلك ما قدمنا • ولا يصح أن
يقول قائل منهم : ان تحريم هذه المحرمات كلها التى تثبت في التوراة :
نسخ • بقول عيسى في الانجيل : « ليس ينجس المرء ، ما يدخل فاه •
وانما ينجسه ما يخرج من فيه » (٢) لأننا نقول : قول عيسى هذا اذا
سلم مفهومه ، نفى التجسس ، لا نفى التحريم • اذ هما حكمان متغايران
مختلفان فان الحكم بتحريم هذه المذكورات انما يرجع الى منع أكلها •
ثم يجوز أن تتناول بالأخذ والاعطاء وأنواع من التصرفات ، كما نقول
في الحمار الأهلى والبغل • فانه يحرم علينا أكله ، ويحل لنا تصريفه
في أنواع من المنافع غير الأكل • والحكم بالتجسس : انما يرجع لمنع
التناول مطلقا • أعنى يمتنع فيه الأكل والتصرف •

هذا اذا كان ذلك النجس محكوما بنجاسته مطلقا • فان حكم
بنجاسته في حال دون حال • كان ذلك • وصح أن يقال عليه أيضا :
نجس • مثال ذلك : أن محكم الشرائع بأن العذرة يحرم علينا أن
نضلى بها ، فلا يجوز أن نضلى بها ولا نحملها في تلك الحال • ويجوز
لنا أن نتناولها ونحملها في غير حال الصلاة • فقد بان الفرق ما بين

(١) سفر التكوين : ١٧ : ٦

(٢) انجيل مرقس - الاصحاح السابع - الآية الخامسة عشر •

الحكم بالتنجيس ، والحكم بالتحريم • ثم لو سلمنا أنهما اسمان للتحريم ، لما كان لتأويلكم السخيف ، معنى لطيف • قلأى معنى تأولتم ، وقلتم ما لا يصلح حمل اللفظ عليه ، ولم لم تقولوا : انه منسوخ • فهذا خطأ آخر وجه لا يبيء به الا من كان مثلكم • فانه جمع بين التأويل والنسخ • وهما متناقضان •

فان معنى التأويل : أن اللفظ المؤول معمول به على وجه ، ومعنى النسخ : أن المنسوخ مرفوع الحكم على كل وجه ، غير معمول به أصلاً •

فقد ظهر من الفصلين السابقين : أن هؤلاء القوم متحكمون بأهوائهم في دين الله ، تاركون للعمل بكتاب الله ، وسنن رسل الله « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١) « فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » (٢) •

وقد نجز غرضنا من الصدر ، فلنشرع في الفن الأول الموعود •

* * *

شعار الدين النصرائي وطقوسه

غرضنا من هذا الفن : أن نجتمع مسائل من قواعد أديانهم ، ونبين فسادها ، وأنهم ليسوا على شيء فيها ، بل تركوا فيها نصوص التوراة والانجيل ، وعملوا بخلافها من غير حجة ، ولا دليل . ولقد كان لنا فيما 'قدمنا كفاية ، أوصلتنا من فضيحتهم وخزيهم الى أقصى غاية ، لكننا أردنا أن نبين خطأهم وضلالهم في أكثر قواعد دينهم ، حتى يتضح للنّاظر : أنهم في جميع أحوالهم وأعمالهم مبطلون ، وأنهم من كل وجه مضلون .

فنقول : اعلم أنه لو تصفح جميع ما انتحلوه من أديانهم لوجد مبنيًا على ما مثل ما تقدم من هذيانهم .

لكننا نقتصر من ذلك على مسائل نباحثهم فيها . ونبين ضلالهم وتلاعبهم في دينهم . فاذا فرغنا من هذا الغرض . ذكرنا في الفن الثاني : جملة من أحكام شريعتنا ، ونقتصر من ذلك على ما عابوه علينا منها .

وانما فعلنا ذلك ، لأن هذا المسائل الذي حركنا الى تأليف هذا الكتاب : هددنا بأن قال في كتابه : « انى أبعث الى كل بلد كتابا بنص شريعتكم ، وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل ، التي لا تقدرّون على انكارها » (١) فلو بصر الله هذا الجاهل المغالط بعيوبه ، لكان سترها وكتمانها أعظم مطلوبه . لكن جهل فقال ، وحيث وجب أن يسجد بال .

فنقول : يا هذا . ألنا يقعقع بالشئان ؟ الآخذ بالحنيفية يدان ؟ كلا . والله . فليس مع الشمس سراج ، ولا شجر المرخ من المساج . وما نحن نبتدىء بالمسائل نتري ان شاء الله تعالى .

رسالة في المعمودية

أطبقت النصارى على اختلاف فرقهم على القول بالمعمودية •
وصفتها عندهم :

أن الذى يريد أن يدخل فى دينهم ، أو التائب منهم ، يتقدم
« الأقسى » منه ، فيمنعونه من اللحم والخمر أياما ، ثم يعلمونه اعتقادهم
وآيمانهم • فإذا تعلم ذلك اجتمع له القسيسون ، فتكلم بعقيدة آيمانهم ،
أمامهم ، ثم يغطسونه فى ماء ، يغمره • وقد اختلفوا • هل يغطسونه
مرة واحدة أو مرتين أو ثلاثا ؟ فإذا هو خرج من ذلك الماء ، دعى
له الأسقف بالبركة ، ووضع يده على رأسه •

هكذا كانت صفة معموديتهم قديما فى « الأندلس » • وأما اليوم
فلعلمهم قد غيروا بعض أحكامها • وربما اختلفوا فى بعض تلك الأحوال •
وهى عندهم عبادة مؤكدة ، وقاعدة مهمدة • ومن لم يقبلها عندهم
فهو كافر ، وليس له من ذنوبه غافر •

وقد كتب الأسقف « ليون » الى أساقفة « صقلية » رسالة
ذكر لهم فيها أمر المعمودية ، وفضيلتها • فقال : « المعمودية : هى
إماتة الذنوب وقتلها • وتأويل الغطسات الثلاث : مكث المسيح فى
قبره ثلاثة أيام ، والخروج عن الماء هو الخروج عن القبر » •
ومنهم من تأول فى هذه الغطسات الثلاث : أنه التثليث الذى
يعتقدون •

وهذا التعميد لم يجر له فى الثوراة ذكر ، ولم يشرعه الله قط
لموسى • لكن كتب النصارى فى الانجيل : أن يحيى عمده عيسى بوادى
الأردن ، فخرج منه روح القدس كالحمامة على الماء • وزعمت
النصارى أيضا : أن عيسى قال للحواريين : « إذا مريتم بالأجناس ،
فعمدوهم على اسم الآب والابن والروح القدس » • وزعموا أن
« بيمطر » عمده ثلاثة آلاف رجل فى يوم « نيقشتان » •

وهذه المسألة عندهم ظاهرة المستند ، قوية المعتمد • فلنهم قد
أسندوا نقلها الى الأنبياء والحواريين كما تقدم • ولكننا مع ذلك

نطالبهم فيها مطالبات تؤذن بأنهم يرجعون الى الترهات • فنقول :
سلمنا لكم جدلا ما ذكرتم من استناد المعمودية الى ما ذكرتم • لكن
لم قلتم كما فعلها يحيى والحواريون نفعلها نحن ؟ ولعل الله تعالى
خص يحيى والحواريين بعمل المعمودية ، ولم يشعرا لغيرهم • فان
ادعوا أن الله شاعرهم كما شاعر للحواريين طالبناهم بالنص من
كتبهم الذى به يجب على من دون الحواريين التعميد ، ولا يجدون
شيئا من ذلك أبدا •

ثم نقول : لعل الحواريين ، ويحيى • انما عمدوا الناس لأن ماءهم
كان مقدسا ، ودعاهم متقبلا • لكون يحيى نبيا ، والحواريون كذلك
عندكم • وأما أنتم فليستم أنبياء • وليس ماؤكم مقدسا فليستم
مثلهم ، فكان ينبغي لكم ألا تعمدوا أحدا • لكنكم وضعتم لأنفسكم
شعرا بالتوهم ، وزدتم فيه أمورا بالتحكم • ثم نقول : سلمنا جدلا :
أن المعمودية شرع لكم • فمن أين زدتم فيها العدد ، ووضع اليد على
الرأس ، والنفخ في الوجه كما فعله بعض من مضى منكم ، ولم تكفروا
من لا يستعملها ؟ ولم ينزل بشيء من ذلك سلطان ، ولا حكم بذلك
إنجيل ولا فرقان • لولا محض التلاعب بالأديان ، والتحكم في دين
الله والخذلان •

ثم نقول : هذا الماء الذى تعمدون فيه • أهو مقدس • أو غير
مقدس ؟ فان كان مقدسا فمن قدسه ؟ فان قلتم : ان الله قدسه • فمن
أين علمتم ذلك ؟ ثم ان قلتم ذلك عورضتم بنقيضه • وقيل لكم : بل نجسه
الله • وان قلتم : نحن قدسناه • قلنا : فمن أنتم حتى تقدسوا شيئا ؟
وهل يصلح أن يقدر من ليس بمقدس ، أو يطهر من ليس بمطهر ؟
بل أنتم مذنبون ، تتزايد ذنوبكم في كل وقت وحين • فكيف تقدسون
غيركم ، وأنتم لا تقدسون أنفسكم ؟ « فليت العجل يهضم نفسه » •

فحصل من هذا : أن ماءكم الذى تعمدون فيه غير مقدس • وإذا
كان كذلك فلاى شرط تشترطون في المعمودية أن تكون بالماء ؟ وهلا
عمدتم في البول فإنه ليس بنجاسة عندكم ، ولا فرق بينه وبين الماء
اذ كل واحد منهما ليس بمقدس ؟

ثم نقول : زعم النصارى أجمعهم ، وكتبوا في كتبهم : أن يحيى
عمد عيسى المسيح بوادى الأردن •

فنقول لهم : هل كان عيسى عليه السلام قبل أن يعمده يحيى مقدسا أم لم يكن ؟ فان قلتم : انه كان مقدسا فلا فائدة لفعل يحيى ، ولأى شيء لم ينزل عليه روح القدس قبل التعميد ؟ وأنتم تقولون : انه لما عمده نزل عليه الروح القدس مثل حمامة بيضاء . وان كان غير مقدس فكيف يكون من ليس بمقدس لها ، أو ابن اله ؟ وأنتم تزعمون بجهلكم على اختلاف أقوالكم ، أنه اتحد بناسوته اللاهوت ، وهو في بطن أمه . وكيف يتحد اللاهوت بمن ليس بمقدس ؟ وهل هذا كله منكم الا هذيان ، وضرب من الخذلان . تمجده القلوب والإاذان .



مسألة في غفران الأساقفة والقسيسين ذنوب المذنبين واختراعهم الكفارة للعاصين

اعلم أن هؤلاء القوم ، وضعوا لأنفسهم قوانين ، توافقوا عليها ، وارتبطوا لها ، من غير أن يشهد بصحة تلك القوانين : شاهد من تورا ، ولا من انجيل . فمن خالفها عندهم ، سموه خارجيا ، تارة ، وكافرا أخرى . والخروج عن تلك القوانين هو الذنب عندهم . ثم تلك الذنوب منقسمة الى ما لا يغفرونه ، والى ما يغفرونه . فاذا غفروا ذنب واحد منهم ، أدخلوه الكنيسة ، وقبلوا قربانه ، وإذا لم يغفروا له ، أبعدوه عن كنائسهم وطردهوه ، وهولوا عليه ، ولم يقبلوا برهانه . ولا بد للذنوب المغفور من كفارة . وتلك الكفارة ، بحسب ما يظهر لأقستهم . ويروونه موافقا لغرضهم . فتارة يوجبون عليه خدمة الكنيسة ، وتارة لا يدخلها بل يقف عندها متذلا . وربما يبقى على ذلك أعواما عديدة . وتارة يوجبون عليه مالا . اما للمكهم ، واما لهم ولكنائسهم .

ولا بد من بيان ذلك بالأمثلة على ما وجدنا في كتبهم . ولنذكر من كل مسألة مثالا لئلا يطول الكتاب . وانما أنقل ألفاظهم من كتبهم لئلا يتقول متقول علينا بالباطل ، أو يظن بنا الجهل بمذهبهم ، أو ينسبوننا الى الكذب في شيء ، مما حكيناه عنهم .

مثال القسم الاول : العابثون بالصبيان :

» العابثون بالصبيان لا يغفرون لهم بوجه ، ولا يعطونهم قربانا

أبدا • ولا عند وفاتهم • على هذا أجمع أساقفة « طليطلة » في ولاية « ايفة الملك » وقالوا : دعتنا هذه الفاحشة المنتنة أن يحكم بأجمعنا : أن كل من أتى هذه الفاحشة أن يفعل به عقاب • فان كان راكب هذه الفاحشة « أسقفا » فليعزل ، ويبعد ابعدا شديدا دائما • وان كان من غيرهم فلينكل به نكالا شديدا ، ويضرب الفاعل والمفعول : مائة سوط ، وينفيان النفي الدائم ، ولا يعطيهم أحد من « الأقسى » توبة • ومن أعطاها لهم ، وتقبل قربانهم عزل وأبعد ، ولم يعط هو أيضا : توبة ، وأغرموه خمسة أرطال ذهباً للملك « اءه •

هذا قانونهم الأول القديم ، ولا أدري ما أحدثوه الآن • اذ الاحداث عنهم في كل زمان •

ومثال الثانى : نكاح القربايات :

وذلك أن نكاحهن حرام بنص التوراة • زعموا : « فان نكح رجل قرييته الى سبع بطون • فان أصر على ذلك ، فلا يغفر له • ولا يعطى قربانا ، وان مات • وان أقلع عنها حرم القربان خمسة عشر سنة » وكلفوا أعدادا من الصلوات ، ومن العبادات ، وربما زادوا عليه خمسا ، فكملاوا له عشرين سنة • وربما بلغه بعضهم خمسا وعشرين • وذلك بحسب سنه عندهم • فاذا كان بعد ذلك قبلوا توبته ، وأعطوه القربان • وأما المرأة فقد أبوا أن يعطوها القربان الا عند وفاتها •

وأما الذى يأتى البهيمة :

فان كان له زوجة لم يعط القربان الا بعد ثلاثين سنة ، وان لم تكن له زوجة فبعد خمس وعشرين سنة •

ومثال ما يغرمون فيه الاموال :

من تزوج من غير بركة « القسيس » فانه يغرم للملك مائة دينار ، ويضرب الزوجان مائة سوط ، مائة سوط •

وقد حكموا على قاتل عبده : بحرمان القربان سنتين ، وعلى قاتل العمد غير عبد ، بحرمان القربان ، وبخضوعه عند الكنيسة الى آخر وفاته •

وأما قاتل الخطأ • فقانونهم الأول : يقضى بأن يحرم القربان سبع سنين ، والقانون الثانى : يقضى بأن يحرم خمس سنين •

وعلى الجملة : فهذه قوانينهم ، وتحكماتهم أكثر من أن تحصى • ومن أطلع على كتب فقهم ، رأى فيها غرائب وعجائب • ومقصودنا التمثيل • وقد حصل والحمد لله • فنقول :

من وقف على هذه المواضع وأمثالها لم يشك فى أن القوم يصنعون أحكاما ، ويخترعونها ، ويلتزمونها • ولسنا ننكر : أن الشرائع لو جاءت بمثل هذه الكفارات والتحكمات لقبلائها والتمزمنها •

وانما ننكر عليهم : أن يجعلوا أنفسهم شارعين ، وينزلوا أنفسهم منزلة رب العالمين • فانه انما ينبغى الحكم والتحكم له • اذ له أن يفعل ما يريد ، ويحكم ما يشاء فى العبيد • وأما الأنبياء فلا يحكمون من عند أنفسهم • وانما يبلغون أحكام الله • ثم أعجب من ذلك جرأتهم على الله ، واستهزاؤهم بكتاب الله • فان هذه الذنوب التى قدمت ذكرها ، قد شرع الله أحكامها فى التوراة نصوصا ، وبين حدودها ، فجعل فى أكثر تلك المواضع : القتل ، ولم يحكم فيها بشيء مما اخترعوه ، وليس فى انجيلهم أيضا من هذه الأحكام شيء • وعند هذا تبين : أنهم خالفوا كتب الله ، وتركوا سنة رسل الله ، وتحكموا فى ذلك بأهوائهم ، وتركوا سنن أنبيائهم فحققت عليهم لعنة الله أبد الأبد ، وغضبه الى يوم الدين •

فان قالوا : تلك الأحكام التى فى التوراة منسوخة بكتابنا ، وعلى لسان مسيحنا • قلنا لهم : « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (١) بل نقول : ان عيسى عليه السلام جاء متما لأحكام التوراة ، ولم يجيء مغيرا لأحكامها ، ولا ناقضا لها • وكذلك نقلتم فى انجيلكم أن عيسى قال : « انما جئت متما ، ولم آت لأنقض شريعة من قبل » (٢) •

وهذا خلاف ما تدعونه من النسخ ، بل يقتضى هذا بحكم ظاهره : أنه لا ينسخ شريعة من قبله ، وانما يوضحها ، ويحيى ما أميت منها • ثم لا يبعد أن يكون قد نسخ بعض أحكام التوراة ، وغاية ما يوجد

له من النسخ قوله : « وقيل^(١) : من فارق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق • وأنا أقول : من فارق امرأته منكم ، فقد جعل لها سبيلا الى الزنا • ومن تزوج مطلقة فهو فاسق » •

ثم قال : « بلغكم أنه قيل : العين بالعين ، والسن بالسن • وأنا أقول لكم : لا تكافئوا أحدا بسيئة • ولكن من لطم خدك الأيمن ، فأعطه الآخر • ومن أراد نزع قميصك فزده ردائك »^(٢) •

فمثل هذا يمكن أن يقال فيه : انه نسخ^(٣) • وإذا بحث عن كتابكم كما يجب لم يوجد فيه نص من هذا على النسخ • فمن ادعى منكم أن شيئا مما ذكر في التوراة تحريمه منسوخ ، فليأت بناسخ يشبه هذا القول • فان لم تأتوا بشيء من ذلك ، دل على أنكم متحكمون هنالك •

(مطالبة) وهي أنا نقول لهم : لأى معنى حرمتكم من نكح قريبته خمسا وعشرين سنة من القربان وحرمتوه من نكح بهيمة ثلاثين سنة ؟ ولو عكستم ذلك كان أشبه ، فان نكاح الآدمية القريبة أشنع من حيث انها محرمة ، من نكاح بهيمة لا احترام لها • وكذلكنعكس عليهم كل ما ذكروه ، حتى يتبين فساد قولهم •

ونقول لهم أيضا : لأى معنى لم تجعلوا مكان الثلاثين : ثمانية وعشرين ، أو اثنين وثلاثين ؟ ولأى معنى خصصتم هذا العدد دون غيره ؟ وعند هذا يتبين بطلان تحكمهم ، وفساد رأيهم • وكذلك نقول : لأى معنى شرعتم فى العايت : مائة سوط • ولم تشرعوه فيمن نكح قريبته ؟ مع أن التوراة قد أمرت بقتل كل واحد منهما • فكان ينبغى أن تسووا فى الحكم بينهما • فاما أن تضربوا كل واحد منهما مائة سوط ، أو لا تضربوهما • فظهر من هذا أنكم تركتم حكم التوراة ، ثم لم تعدلوا فيما تحكمتم به ، ثم من أعظم تواقحكم ، أنكم سهلتم

(١) وقيل : أى للقضاء • وكلمة « فاسق » فى النص بدلها « زان »

والنص فى انجيل متى : ٥ : ٣١ - ٣٢

(٢) انجيل متى : ٥ : ٣٨ - ٤٠

(٣) ليس هذا من قبيل النسخ • وانما المسيح يقصد النصح والارشاد •
دليل أنه أكد أكثر من مرة على عدم نسخه شريعة موسى • ومن قوله :
« على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون • فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه
فاحفظوه وانطوه » (متى : ٢٣ : ٢ - ٣) •

الفواحش على أنفسكم ، وصعبتموها على غيركم فحكمتم على « الأسقف » الذى يعبث بصبى بأن يبعد فقط ، وعلى غيرهم بأن يبعدوا ، وينكلوا ، ويجلدوا ، اذا فعلوا تلك الفاحشة ، ولو عكستم ذلك لكان أشبه . فان التغليظ على « الأقسى » مناسب لحالهم . فان المعاصى تقبح فى حقهم ، أكثر مما تقبح فى حق غيرهم . فان من كلام النبوة : « ان من أشد الناس عذابا : عالم ، لم ينفعه الله بعلمه » ومن كلام الحكماء : « حسنات الأبرار ، سيئات المقربين » ثم هذا المعنى معلوم من عادة الملوك ، فانهم يعاقبون وزراءهم والوفاقين على رؤوسهم ، ويؤاخذونهم ، على أمور لا يحسن منهم أن يؤاخذوا بها سائس الدواب . بل لكل مقام مقال . ولكل عمل رجال . وكيف لا تقبح المعاصى فى حق « الأقسى » و « الأساقفة » وهم قد نزلوا أنفسهم منزلة الأنبياء ؟ حيث شرعوا الشرائع ، وتحكموا بوضعها ، بل تنزلوا منزلة المكلف الغافر ، الذى له الخلق والأمر .

فانهم قد قالوا للمعوام : ان غفرانا لكم غفران الله . وحرماننا لكم : حرمان الله . فاذا أعطينا نحن القربان ، فقد قبله الله . واذا لم نعطه لم يقبله الله . واذا غفرنا نحن الذنب ، فقد غفره الله . فان غوكم الشيطان — وقد فعل — بأن تقولوا : ان لنا لأجل القسيسية مهزلة وحظوة ، فانتركوا العمل بشريعتكم لأجل مالكم عند الله من الفضل ، ولا تحرموا على أنفسكم شيئا من الفواحش . وقد سمعنا هذا النوع عن بعض « أقسة أرغون » فعليهم لعنة الله ، ولعنة اللاعنين . ثم نقول لهم : يا معشر الأساقفة الجاهلين ، والقسيسين المتحكمين : من أنتم حتى تكونوا شارعين ؟ أنتم عقاب رب العالمين ؟ أحصلتم على رضاه أجمعين ؟ بل ينبغى أن تتحققوا : أنكم فى العذاب خالدون ، حيث كفرتم برسالة سيد المرسلين مع ما دلت عليها من الشواهد والبراهين . فلقد صدق الله ، وهو أصدق القائلين ، حيث قال مخبرا عن الأخبار والقسيسين : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر من خلق ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما ، واليه المصير » (١) .

* * *

مسألة في الصلوية وقولهم فيها

لا خلاف عند النصارى : أن انكار صلب المسيح : كفر • ومن شك فيه فهو كافر • وأنا الآن أنكر كلامهم في « الصلوية » وفي معناها عندهم :

قالوا : « الكلمة هو الله • وهو مخلوق من طريق الجسم ، وخالق من طريق النفس ، وهو خلق جسمه ، وهو خلق أمه • وأمّه كانت من قبله ، بالناسوت • وهو كان من قبلها ، باللاهوت • وهو الاله التام ، وهو الانسان التام ، ومن تمام رحمته على الناس : أنه رضى بهرق دمه عنهم ، في خشبة الصلب • فممكن اليهود أعداءه من نفسه ، ليقيم سخطه عليهم • فأخذوه وصلبوه ، وغار دمه في اصبعه • لأنه لو وقع شيء من دمه على الأرض لبيست ، الا شيء وقع فيها فنبت في موضعه النوار •

لأنه لما لم يمكن في الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي آدم ، الذى ظلمه ، واستهان بحقه ، فلم يرد الله الانتقام منه ، لاعتلاء منزلة السيد ، وسقوط منزلة العبد • أراد أن ينتصف من الانسان الذى هو اله مثله • فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح ، الذى هو اله ، متساو معه ، فصلب ابن الله ، الذى هو الله ، في الساعة التاسعة من يوم الجمعة » ا.ه •

هذا نص كلامهم من غير زيادة ولا نقصان •

وقال « بليون • الجاثليق » في رسالته لليون الملك كبول : « أسرتنا ، لا يمكن أن تحل ، الا بأن يطلع انسان من جنسنا ، وطبيعتنا ، من لا تضبطه معصية الذنب ، على ضد آدم • ومن بدمه الطاهر ، تمحو أزلات الريق المهلك ، الذى كان حتمه الله ، وقضى به منذ البدء ، فتم ذلك الفعل عند انقضاء الزمان المحدود • وذلك ليتم الوعد الموعود » ا.ه •

مفهوم هذا الكلام : أن ذنب آدم كان في رقاب بنيه ، الى أن قتل عيسى ، وانتقم منه ، لأجل آدم ، وحينئذ عفى عن آدم وبنيه • لهذه الحكمة كانت صلوية المسيح عندهم •• يا معشر العقلاء انظروا بعين الاعتبار جهل هؤلاء الأغمار ، وجراثمتهم على العزيز

الجبار • وقولهم بالشتيمة في الأنبياء الأخيار ، فلقد ارتكبوا من الحالات ، وقالوا من الأكاذيب والترهات ما لم يقله أحد من المخلوقات • ثم لم يكتفوا بهذه العظائم ، حتى أضافوا لله ، ولأنبيائه أعظم النقائص والشتائم • فله سر في أبعاد بعض العباد « ومن يضل الله فما له من هاد » (١) •

فهؤلاء كما قال الله العظيم في كتابه الكريم : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » (٢) •

واعلم أنا لو تتبعنا تناقض هذا الكلام ، وأوردنا الالتزامات عليه لكتبنا في هذه المسألة وحدها سفرا • على أن العقلاء يعلمون فساد هذا المذهب بالضرورة عند مجرد الوقوف عليه • ولذلك لم يصر إلى نحو هذا المذهب السخيف ، والقول القبيح أحد من الأمم ، لا من العرب ولا من العجم ، لا في الحديث ولا في القدم • وإنما صار إليه هؤلاء النصراني الجاهل ، لكونهم ليسوا من العقال ، بل حظهم من العقل حظ المجانين والأطفال ، فكلامهم أشبه شيء بكلام الموسوسين ، والمختلطين المبرسمين •

ولقد كان يقتضى ما يعلم من حالهم ، الكف عن مناظرتهم وجدالهم • لكن سكوت النبيه ، ربما كان داعية لتطاول السفية • وقد تقدم هذا الاعتذار عن هذا في أول الكتاب • ولكن مع هذا لا بد للمجانين من العزائم ، وتعليق الأجراس والنمائم • فلنورد عليهم من الالتزامات ، ما يبطل تلك الترهات ، ويبين تلك الأكذوبات ، فنقول :

قد ذكرنا فيما تقدم : أن أمر الصلوية • إنما شرعها لهم « قسطنطين بن هيلانة » الملك • وهو الذى سنّها ، وكتبها لهم في الانجيل ، ليوغر صدور عامته ورعيته على اليهود ، وأنه احتال عليهم بالرواية التى اخترعها ، فتم له مراده منهم • ولم يكن عنده من أمر عيسى الا خبر جملى •

ثم اختلف لهم في شأنه أمورا تفصيلية هي محال في نفسها ، لكنها مهولة على العامة الرعاع • كقولهم في الالتحام ، وفي لاهوت المسيح :

« لم يدركه ألم الصليب والاهانة • وانما أدرك ذلك لحمته » وكاطلاق لفظ الطبيعيتين على لاهوته وناسوته • الى ما عندهم من الهذيان التي هي محال بالضرورات •

وقد قدمنا في ذلك ، ما يغنى عن اعادته •

واعلم أن النصراري يدعون : أن اليهود قتلوا المسيح عيسى يقينا • وأن اليهود يدعون : أنهم قتلوا رجلا ادعى نسخ التوراة ، بعد أن ادعى النبوة ، ولم يقيم عليها شاهدا •

ونحن ندعى : أن عيسى ابن مريم عليه السلام لم يقتله اليهود ، ولا غيرهم • بل رفعه الله اليه ، من غير قتل ، ولا موت • ونحن نبين : أن الفريقين في شك منه ، وغير عالين بشيء مما يدعونه في صلبه • فنقول :

ان مستند النصراري في قولهم بالصليب : انما هو الانجيل • وقد بينا فيما تقدم : أنه قابل للتحريف والتبديل • وقد أرينا فيه التناقض والتحريف عيانا • وأوضحنا على ذلك برهانا • مع ما قدمنا من أن نقله ليس نقلا متواترا يفيد العلم • بل انما نقله من باب أخبار الآحاد ، التي لا يحصل بها العلم • وهذا يكفي ، مع أنهم ليسوا عالين بشيء مما يتضمنه • ولو سلمنا أنه متواتر ، يحصل بنقله العلم • لقلنا : ان الأخبار التي فيه ، التي تتضمن الصليب لا تنص نصية قاطعة للشك : على أن المصلوب هو المسيح بعينه • بل هي محتملة • لأن المصلوب غيره ، ولم تتقطن النصراري بعباوتهم ، لوجوه الاحتمال • ونحن نسردهم في أناجيلهم ، ونبين ذلك ، ووجه الاحتمالات فيها ، ان شاء الله مستعينين به ، ومتوكلين عليه •

قال « متاؤوش » في انجيله :

« وقف على المسيح يهوذا ، أحد الاثني عشر • ومعه جماعة برماح وعصى • وكان معهم قواد القميسيين ، وأكابر بنى اسرائيل • وكان يهوذا قد قال لأولئك الأعوان : من قبلته ، من الجماعة ، فهو

المراد ، فاحبسوه • وفي ذلك الوقت ، دنا يهوذا الى : ياشوا (١) •
وقال : السلام عليك يا معلم • فقال له ياشوا : يا صديق لم
أقبلت هنا • فعند ذلك تعلقت الجماعة به وحبسته (٢) •
زاد « ماركس » :

« أنه لما قبضوا عليه ، تخلى عنه التلاميذ ، وهربوا • فاتبعه
شاب عريانا ، وهو ملتف في رداءه • فقبضوا عليه ، فأسلم لهم الرداء ،
ونجا عريانا » (٣) •
زاد « لوقا » :

« أن بلاط (٤) • لما أخبر أنه « جلجالي » وعلم أنه من طاعة
هيروُدس بعثه اليه » (٥) •
زاد في انجيل « يوحنا » :

أن ياشوا • تقدم لجماعة وقال لهم : « من تريدون ؟ فقالوا له :
ياشوا الناذري • فقال لهم ياشوا : أنا هو • وكان يهوذا المدل عليه
معهم ، واقفا • فلما قال لهم : أنا هو • قهقروا الى خلف ، فتساقطوا
في الأرض • ثم دنا منهم • وقال لهم : من تريدون ؟ فقالوا له :
ياشوا الناذري • فقال لهم ياشوا : قد قلت لكم : انى أنا هو •
فإن كنتم انما تريدوننى أنا • فأطلقوا سبيل هؤلاء » (٦) •
وذكر « متى » :

« أن يهوذا الدال عليه ، لما أبصر ما فعل به : ندم ، ورد الثلاثين
درهما على قواد القسيسين • وقال : أخطأت اذ سلمت دما صالحا •
فقالوا له : ما علينا • أنت ترى • فألقى الدراهم في البيت • وتوجه
الى موضع خنق فيه نفسه » (٧) •

(١) ياشوا : بدلها في التراجم الحديثة : يسوع ، ويسوع قديما :
يهوشوع •

(٢) متى : ٢٦ : ٤٧ - ٥٠ (٣) مرقس : ١٤ : ٥١

(٤) بلاط في التراجم الحديثة : بيلاطس

(٥) لوقا : ٢٣ : ٧

(٦) يوحنا : ١٨ : ٤ - ٨

(٧) متى : ٢٧ : ٤ - ٥

هذه نصوص أناجيلهم ، ومستند اعتقاداتهم ، ليس شئ منها يدل
دلالة قاطعة على أن المصلوب هو المسيح بعينه . بل إذا اعتبر العاقل
تلك الحكايات المذكورات . ولفق متلفقها ، وحقق النظر فيها . تفطن
لموضع الاشكال ، وتتبع لمثار الشك فيها والاحتمال .

ونحن نبين ذلك بعون الله فنقول : ما سودناه من أناجيلهم فيه
احتمالات :

منها : أن يهوذا كذب لليهود في قوله : « هو ذا » فان اليهود
كانت لا تعرفه ، ولم تأخذه الا بشهادته : أنه هو . ألا ترى أن يهوذا
عرفهم اياه بالعلامة .

وكذلك يدل على ذلك سؤالهم عنه . وكذلك سؤال « بلاط » عن
بلده حين أخبر أنه من « جلجال » يدل على أنه كان لا يعرفه .

فهذا كله يدل على أنهم كانوا لا يعرفونه . وانما عولوا في تعيينه
لهم على يهوذا . فاذا ثبت ذلك فيحتمل أن يكون « يهوذا » انما أشار
الى غيره . لأنه كان ندم على بيعه ، كما تقدم نصه في كتبكم .

ويدل على أنه تاب من ذلك ، وندم عليه ، وحسنت توبته . قول
عيسى له فيما زعمتم ، حين سلم عليه : « يا صديق لم أقبلت ؟ »
ولو كان مصرا على الدل عليه ، وعلى ما كان هم به . لما كان يحل
لعيسى أن يقول له : « يا صديق » فانه كان يكون كافرا . ولا يمكن
أن يقول للكافر « يا صديق » فانه كذب . لأن الكافر عدو . فيلزم
هنا أحد ثلاثة أمور :

اما أن يكون يهوذا تاب في ذلك الوقت وندم على ما فرط منه .
فعفى عنه . وتوبته لا تصح في تلك الحال ، أعنى حال الدلالة عليه ،
الا بأن يعدل عنه ، ولا يدل عليه . وكذلك فعل . والله أعلم .

أو يكون عيسى كاذبا فيما قال له ، حيث أخبر أنه صديق .
وعيسى عليه السلام منزّه عن الكذب .

أو يكون كتابكم باطلا ، ومحرّفا .
فاختاروا من هذه الثلاث واحدة . وأي شئ التزمتم منها ، فهو
مبطل لقولكم ، وفاسدة .

ويدل على حسن توبته وصدقها : أنه رمى بالدراهم ، واعترف بالخطية ، وقتل نفسه • وهذا يدل على غاية الصدق في الندم •

ومقصود هذا الكلام : أن يهوذا : ندم ، ولا بد ، على ما فرط منه • فيحتمل أن يكون دل على غيره من أصحابه • وأن ذلك الغير ، رضى بأن يقتل مكان المسيح ، فتعرض بنفسه لليهود ، فأخذوه ، ورفع عيسى مكانه الى السماء ، كما رفع « أخنوخ » النبي — وهو « ادريس » عليه السلام — وهذا كما تقولون أنتم : انه لما صلب وحىي اجتمع بأصحابه بجلجال ، ثم رفع الى السماء (١) •

فقد توافقنا على الرفع • وأنتم تقولون انه بعد الصلب والصفع والاهانة ، ونحن نجله ونكرمه عن ذلك • ونقول : انه رفع من غير صلب واهانة • بل صانه الله من أن يظفر به عدوا • وأكرمه حتى أحله مكانا عليا • ولو كنتم عقلاء لجددتم أمر الصلوبيه ، ولم تعترفوا بها ، ولقبلتم قولنا فيها • ولو فعلتم ذلك لكان أليق بكم ، وأستر لجهلكم • فانكم تريدون أن تجمعوا بين نقيضين حيث حكمتكم عليه بأمرين محالين : الهية ، وصلوبية • •

ومنها : أنه يحتمل أن يكون المسيح في الجماعة الذين أطلق الأعوان سبيلهم • وكان المتكلم معهم غيره • ممن يريد أن يبيع نفسه من الله • ويقى المسيح به •

فقال ذلك المتكلم : أنا المسيح • فحبسوه ، وخلوا سبيل غيره • فاتفقت المسيح في جملةهم • ويقوى هذا الاحتمال : أن يهوذا كان واقفا ناحية • ولم ينبه عليه ، لكونه كان نادما ، لما قد تبين • وبعد ذلك رفع •

ومنها : أن أولئك الأعوان أخذوا عليه رشوة ، فأطلقوه • وعلى هذا يدل حديث رداء الشاب • حيث قال « ماركس » : « ان الشاب أسلم اليهم : الرداء ، لما تقبضوا عليه » (٢) وإذا جاز أن يأخذ « يهوذا الاشكريوث » (٣) وهو حواريه على قتله ثلاثين درهما • جاز أن يأخذ الأعوان على إطلاقه : رداء •

(١) آخر انجيل لوقا • (٢) انجيل مرقس : ١٤ : ٥١ - ٥٢ •

(٣) ترجمتها : « يهوذا الاسخريوطى » •

ومنها : أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى رفع المسيح الى السماء ، وصور لهم شيطاناً أو غيره بصورة تشبه صورته ، فاعتقدوا أنه هو صليبه . وإلى هذا يشير سكوته ، حيث سأله فسكت ، ولم يجابهم وفي الوقت الذي تكلم لهم نزلت تلك الصورة نفسها منزلة . وهذا كله ممكن ، لا يدفعه عقل ، فان الله على كل شيء قدير . ولا يدفعه أيضا نقل .

فان كل ما نقلتموه ليس نصا قاطعا . ولا نقل نقلا متواترا ، فحصل من هذا : أنكم غير عالمين بصليبه ولا موقنين بقتله .

وأما اليهود فليسوا أيضا عالمين بشيء من ذلك إذ لا يصدقون كتابكم . وليس عندهم نقل متواتر بذلك ، على التفصيل ، وغايتهم : أن يعتقدوا على الجملة : أن رجلا كان فيما مضى غير بعض أحكام التوراة ، فشهد عليه بذلك . فقتل . وكتابكم يدل على أنهم انما قتلوا رجلا شهد لهم فيه « يهوذا الاشكريوث » أنه : المسيح ، الذي ادعى أنه « ابن الله » فحصل من هذا : أن اليهود في شك منه ، وأنكم أنتم على غير علم به . وهكذا قال كتاب الله ، الناطق على لسان رسوله الصادق : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه ، لفي شك منه ، ما لهم به من علم ، إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما » (١) .

وحين بينا أنهم في شك من الصلوية ، ينبغي أن نتتبع بالنقض كلامهم المتقدم . فنقول :

أما قولهم : « من رحمته على الناس أنه رضى بهرق دمه عنهم في خشبة الصلب » فتوافق لا يفوه به من له من الحياء أقل نصيب . يا عجا . كيف يجترى أن ينطق بهذه القبايح عاقل ؟ أم كيف يرضى لنفسه بمثل هذه المخازى فاضل ؟ وهلا كان يرحم عباده بأن يغفر لأبيهم (٢) . ولا يحتاج الى هذا كله ؟ أو ليس كان يكون غفران الذنب أهون عليه ابتداء ، وأليق بالحكمة والرحمة والرأفة من أن يعاقب من لم يجن ؟ ثم ذلك المعاقب الذي لم يجن الذنب ابنه ، بل هو عندكم

(١) النساء : ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) يقصد بأبيهم : آدم عليه السلام .

نفسه ، باعتبار ما حل فيه منه • فلم يرض من عقوبة الذنب الذى جناه آدم ، حتى عاقب نفسه • أو ابنه • فأنتم فى هذا القول الوقاح ، والافك الصراح ، بمنزلة رجل أخطأ عليه عبده ، فبقى بعد مدة غاضبا عليه ، وعلى غيره من عبيده • ناويا على معاقبتهم ، حتى ولد لنفسه ولد فعمد اليه فقتله ، بذنب العبد ، الذى كان أذنب ، ثم لم يقنع بذلك حتى ضرب نفسه ، ولأمها وأهانها ، على ما صنع عبده ، مع انه قد كان متمكنا من أن يغفر لعبده ، ولا يفعل هذا بولده ، ولا بنفسه • فأى تشف يحصل له مما فعل ؟ بل يحصل له كل ألم ونقص ، وخلل • مثل السفينة الأحرق الجاهل ، بل يزيده ذلك فى كربته ، ويدعو الى دوام حزنه وحسرتة •

ويلزمكم على ذلك : أن يكون الله تعالى لم يتب على آدم عليه السلام • الا بعد أن صلب المسيح • وبذلك تكذيب كتب الأنبياء فانها تقتضى : أن آدم بكى على خطيته ، ودعا الله تعالى حتى تاب عليه ، واجتباه • ويلزمكم أيضا عليه : أن يكون نوح وإبراهيم وموسى ، وما بينهم من النبيين عصاة بذنب آدم ، حتى صلب عيسى • وحينئذ غفر لهم •

وقد صرح بعض « أقستكم » لعنه الله : « أن آدم وجميع ولده الى زمان عيسى كانوا كلهم ثاويين فى الجحيم بخطيئة أبيهم ، حتى فداهم عيسى بهرق دمه فى الخشبة • فلما صلب نزل جهنم ، وأخرج منها جميعهم الا يهوذا الأسكريوث • »

فانظر • هل يستجرىء مجنون موسوس على أن يقول : أن نوحا وإبراهيم الخليل وموسى الكليم • ومن بينهم من النبيين مثل يعقوب واسحق وغيرهما من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، كلهم فى نار الجحيم ، والعذاب الأليم ، وفى السخط العظيم • حتى صلب الاله نفسه وابنه •

فانظر • هل سب الأنبياء بأقبح من هذه الشتائم ؟ أو هل تجرأ أحد قط أن يقول على الله ، وعلى رسله مثل هذه العظائم • فسبحان للحليم الذى يمهلكم ، والكريم الذى يرزقكم • ولكن انما يعجل من يخاف الفوت ، أو يجزع من الموت • « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمكبرين » ؟ (١) •

ثم يلزمكم عليه أيضا • نسبة الله ، الى الجور ، والى أنه يأخذ بالذنب غير فاعله ، ويعاقب على الزور غير قائله • وهذا يهون عليكم • اذ ليس للاله قدر عندكم • اذ قد صرحتم : بأن آدم ظلمه ، وأنه لا يمكن أن ينتقم ممن ظلمه ، واستهان بقدره •

فياليت شعري • لآى شيء لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاجز عن ذلك • أم لأنه لا يقدر على عقاب أحد ممن هنالك ؟ أم بحكمة أنه يعاقب غير الجانى ؟ أم لحكمة قتل ولده فى جناية عبده ؟

قاتلكم الله • ما أسخف عقولكم ، وما أرك فروعكم وأصولكم • ثم أعجب من ذلك : أنهم يقولون : « الكلمة هى : الله • والله : هو المسيح » ثم يقولون : « انه لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاصى الذى ظلمه ، وانما انتقم من اله مثله » •

فانظر • الى هذا التناقض الشنيع • كيف يعتقدونه تارة : أنه هو • فيلزم عليه أنه هو المنتقم ، والمنتقم منه ، والمعاقب ، والمعاقب (١) • وتارة يعتقدون : أن الالهانة والصلب ، لم يحل بلاهوته ، بل حل بفناسوته •

وناسوته ليس باله • فيلزم على هذا القول الآخر : أنه لم ينتقم من اله مثله • وكيف ما كان • فالتناقض لهم لازم والحال •

وهكذا يفعل الله بالجهال أهل الضلال • ثم انظر سخف جرأتهم على الكذب • وقولهم بالمحال من غير سبب • حيث قال : « فأخذوه وصلبوه • فغار دمه فى اصبعه » وهذا لم يرد منه شيء فى كتبهم ، بل هو من كذبهم واختراعهم •

ولو كان هذا حقا لكان أولى بالنقل من نقلهم : جعل الصليب على عنقه • وأنه رفع اليه : اناء خل ، ليشربه • وكتب على خشبته بالرومية والعبرانية والعجمية : « هذا ملك اليهود » (٢) فهذا ، ولا بد كذب وتوابع • فان كابروا فى ذلك على عادتهم • قلنا لهم : فأتوا بالانجيل فاطلوه ان كنتم صادقين •

ثم انظر كيف تناقض ذلك المتكلم على الفور فى قوله : « لأنه

(١) المعاقب : الاولى بكسر القاف ، والثانية بفتحها •

(٢) انجيل مرقس : ١٥ : ٢٦ •

لو وقع شيء من دمه على الأرض لبيست » ثم انه اثر ذلك قال :
 « الا شيء وقع فيها نبت منه النوار » فكيف يصح في عقل مجنون •
 فأحرى في عقل عاقل أن يتكلم بمثل هذا الهذيان أو يستحل أن يتحرك
 له بذلك لسان ؟ فانه كذب فاسد متناقض • فلعمري لو أن شيطانا يتقول
 على ألسنتهم ، وهو يريد الاضحاك بهم • ما بلغ منهم بأكثر مما بلغوا
 من أنفسهم بهذا القول السفساف ، الذي اتفق العقلاء على فساده
 واستحالاته من غير خلاف •

ولقد أحسن بعض عقلاء الشعراء في افحام هؤلاء الأغبياء •
 فقال :

عجبي للمسيح بين النصارى
 والى أى والد نسبوه
 أسلموه الى اليهود ، وقالوا :
 انهم بعد قتله • صلبوه
 فاذا كان ما تقولون حقا
 وصحيا • فأين كان أبوه ؟
 حين حل ابنه ، رهين الأعادى
 أترأهم قد رضوه ؟ أم أغضبوه ؟
 فلئن كان راضيا بأذاهم
 فأحمدوهم • لأنهم عذبوه
 واذا كان ساخطا فاتركوه
 واعبدوهم ، لأنهم غلبوه

فقد جعلتم أنفسكم ضحكة العقلاء ، حيث ارتكبتكم كل قبيحة
 شنء • وما بالنار نطول الكلام مع من تبين عارهم ومحالهم للخاص
 والعام • فقددر هؤلاء القوم عند العقلاء ، أحقر من قلامة ، في قمامة •
 وأخس من بقعة ، في حقة • ولولا أن هذيانهم ومحالهم طبق الوجود •
 لما كان ينبغي أن يتكلم معهم من العقلاء موجود • فان الكلام معهم
 مذل بالعقول ، محوج لحكاية القبايح والفضول •

وقد قدمت في صدر الكتاب ما يمهد العذر ، ويزيل العتاب • وأنا
 أستغفر الله العظيم ، الذى لا اله الا هو الحى القيوم • وأسأله التوبة
 من حكاية قبايحهم ، وأسأله جزيل الأجر ، في ابداء فضائحهم •

مسألة في تركهم الختان

لا خلاف بينهم أن عيسى عليه السلام كان مختونا . وأن الختان من أحكام التوراة . وثابت فيها . وإن أنكر ذلك متوابع جاهل . ذكرنا له نص التوراة .

قال في التوراة : « إذا حبلى امرأة ، وولدت ذكرا ، تكون نجسة سبعة أيام ، كما تكون أيام حيضتها وفي اليوم الثامن يختن الصبي ، ونكون نجسة ، تجلس مكانها ثلاثة وثلاثين يوما » (١) وهذا نص لا اشكال فيه . ثم إن النصارى بتحكمهم واستهانتهم بالشرائع : تركوا العمل بذلك من غير أصل يعتمدون عليه ، ولا نسخ . يثبت عندهم له . ومن ادعى منهم شيئا من ذلك طالبناه بنص من الانجيل ، وليس لذلك من سبيل غير التحكم بالقال والقليل .

وقد وجدت في كتبهم الفقهية : أنهم قالوا في تأويل حكم الختان ، قولاً أتوا فيه على التوراة بالباطل والبهتان . قالوا : « إنما غنى بالختان : نقاوة القلوب ، وصفاء النية ، وذهاب الغلوفة . كالذى يقول الكتاب عن اليهود : « إن رقابهم قاسية ، وقلوبهم غلفت » ولذلك علمنا أن الله استقذر غلوفة القلب ، وليس غلوفة اللحم . فما على الانسان أن يختن لحمه . إذ لا منفعة له في ذلك . فمن شاء اختتن ، ومن شاء ترك . والأحسن أن تترك الأجساد تامة ، غير ناقصة كما بها خلقنا الله عز وجل » أ . هـ

هذا نص كلامهم ، في كتبهم . فانظر أيها العاقل إن كنت منصفاً ، ما الذى ارتكبه من العظائم ، ونسبوه الى الله ورسله من الشتم .

فالولها : أنهم كذبوا على الله ، حيث قالوا : « إنما أراد الله بهذا الحكم إزالة غلوفية القلوب » ولو كان ذلك حقاً ، لبينه موسى للناس . ولما جاءهم بالختان ، ولما فعله ، ولما فعل بيحيى ، وعيسى . وسائر الأنبياء ، الذين حكموا بالتوراة ، ولم يزالوا يختتنون ، ويأمرون بالختان الى زمان المسيح . ثم إن المسيح لم ينه عنه ، ولا أمر بتركه ، فهذا على الله ورسله ، كذب صراح ، وقول وقاح .

وثانيها : أنهم سفهوا أحكام الله ، ورسل الله ، حيث قالوا : « لا منفعة في ذلك » ، مع أن الله قد حكم به وشرعه وبلغ ذلك أنبياءه ورسله ، وعلومه الناس . فكيف يجوز على الله ، وعلى أنبيائه أن يتعبدوا الناس بحكم ، لا فائدة له ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . فهذا غاية الافتراء على الله ، وعلى رسله . ثم يلزمهم على ذلك أن يكونوا عابثين في أفعالهم وأن وجود الشرائع وعدمها بمثابة واحدة ، وكذلك ارسال الرسل ، وانزال الكتب ، ولا كفر أعظم من هذا .

ثم انا نبدي فوائد الختان ، حتى يظهر كذبهم وجهلهم وتواضعهم لكل انسان . ونقول : في الختان فوائد كثيرة . منها :

أولا : أنها عبادة في بدن الانسان ، اذا فعلها أثيب ، وان تركها عوقب — على القول بوجوبه — ، ولا فائدة أعظم من هذا .

وثانيا : أنه لا يتأتى مع وجود الغلفة ، مبالغة في النظافة ، ومع زوالها يتأتى ذلك .

وثالثا : أنه الذ في الجماع ، وأسرع لمجيء شهوة الوقاع . ومع وجودها يكون أبعد للشهوة . وقد تكون الغرلة ، اذا طالت مكسلة عن الانزال .

ورابعا : أن خروج الماء الدافق من غير غلفة ، وانزعاجه أشد . فان الغلفة اذا طالت ربما نقصت من انزعاجه وفترته . واذا كان كذلك ، وخرج الماء فاترا ، قد لا يقع في المحل الذي ينعقد فيه النطفة فلا ينعقد الولد ويكون هذا كالعزل . ومقصود الشرع في الغالب : تكثير النسل .

فهذه أربع فوائد محققة ، لا يتصور انكارها . وقد لا يبعد أن يقصد الشرع جميعها أو بعضها . فاذن قد تبين : أن النصارى كذبوا على الله ، وجهلوا شرع الله .

وثالثها : أنهم تركوا حكم الله بالتوهم . بل بالهوى والتحكم . وتأولوا من غير حاجة للتأويل ، ورفعوا النص والتنزيل ، فهم أهل التحريف والتبديل . ثم العجب من كذبهم ، وظهور تناقضهم حيث حكوا عن عيسى أنه قال : « لم آت لأنقض شريعة من قبلى . وانما أتيت

لأتممها» (١) فان كان هذا القول حقاً عندهم • فلاى شىء نقضوا شريعة من قبله حرفاً حرفاً • وان كان كذباً فكفاك بذلك فساداً وخلفاً •
ورابعها: أنهم لما نقضوا حكم الله ، فضلوا بحكمهم وأهوائهم على شرع رسول الله • حيث قال : « رالأحسن أن تترك الأجسام تامة غير ناقصة » وهذه مبالغة في تسفيه موسى والنبيين ، وفي تسفيه المسيح • فانهم قد تركوا الأحسن ، وفعلوا الأسوأ ، والأفسد •
 فاعتبر أحوالهم ، فما أعجبها ، وجهالاتهم فما أغربها • مذمومون •
 وهم يتوهمون أنهم يمدحون ، ومخالفون ويظنون أنهم متبعون • ثم مع ظهور عوراتهم لكل عاقل ، يتعرضون للشريعة الصحيحة بكل جهل وباطل ويموهون بخرافات وترهات لا يلتفت إليها عاقل • يظنون أن دين الاسلام كدينهم ، المستند الى الترهات والأوهام ، التى لا يقبلها سليم الفطرة من العوام •

وسنبين أصول دين الاسلام ، ومستنداتهم في أحكامهم ، بحول الله في « الفن الثانى » من هذا الباب ان شاء الله تعالى •



مسألة في صيامهم

قال « حفص بن البر » منهم ، في بعض كتبه • وقد سألته سائلاً عن صيامهم • فقال : « أول من صام الأربعين يوماً : » موسى ابن عمران • وبعد ذلك صامها « الياس النبى » الذى رفعه الله في عصر بنى اسرائيل • ثم بعد ذلك صامها المسيح • وأما العلماء • فأكملوا ثلاثة وأربعين يوماً • وانما هى عشر أيام السنة • كما قال « بولس » الحوارى في بعض رسائله : « كما تؤدون العشرات من أموالكم • فأدوا العشرات من أبدانكم » • فهذا هو الصيام المفروض •
 اعلم يا هذا • أن هذا القس الذى هو « حفص » هو من أكيسهم وأفصحهم • على أنه ليس فى القوم رجل رشيد ولا ذو عقل سديد • وانما كان كذلك لأنه قد ضربت عليه « الجزية » ولزمه الصغار والذلة • اذ كان قد نشأ فى ذمة المسلمين ، وتعلم من علومهم ما فاق به النصراني أجمعين •

ومع ذلك فاذا أخذ يتكلم فى علوم النصارى وأحكامهم ، تلجج لسانه ، وقصر بيانه ، لأنه ينزل على آرائهم الفاسدة ، وتحكماتهم الباردة .

✽ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ ✽

نبين لك يا هذا : أن كلامه فى هذا الفصل فاسد . واحتجابه بارد . وذلك أنه ادعى : أن صوم الثلاثة والأربعين واجب . وحين أخذ يستدل على وجوبها ، استدل على وجوب الأربعين . ثم أخبر أن علماءهم زادوا من عند أنفسهم ثلاثة أيام .

فنقول لهم : وهذه الثلاثة الأيام التى ادعيتم وجوبها . هل علم موسى وعيسى ومن بينهما من الأنبياء أنها من فرض الصيام . أو لم يعلموا ؟ فان كانوا قد علموا . فلأى معنى لم يبلغوا ، ولم يبينوا ؟ ويلزم معصية الأنبياء من وجهين : من حيث أنهم لم يصوموا ما هو فرض الله . ومن حيث لم يبلغوا الشرع . وذلك محال عليهم ، وان كانوا لم يعلموا وجوب هذه الأيام الثلاثة . فمن أين علم الجاهل أمثالكم وجوبها . والأحكام انما تستند الى أقوال الأنبياء وكتبهم ؟

فلن قالوا : أوجبها « بولس » الحوارى . قلنا : ذلك هو الذى أفسد عليكم أديانكم ، وأعمى بصائركم وأذهانكم . ذلك هو الذى غير دين المسيح ، الصحيح ، الذى لم تسمعوا له بخبر ، ولا وقفتم منه على أثر — على ما تقدم — .

هو الذى صرفكم عن القبلة ، وحال لكم كل محرم كان فى الملة . ولذلك كثرت أحكامه عندكم ، وتداولتموها بينكم .

ويدلك على ذلك : أنك اذا سمعت له قولاً فى حكم . فتكاد لا تجده الا مغيراً للأحكام المتقدمة ، مخالفاً لها . فتارة يزيد ، وأخرى ينقص . وأخرى يرفع . يعرف هذا من وقف على كتبهم ، وعلى ما ينقلون عنه . ثم لو سلمنا أنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، لما كان ينبغى لكم أن تأخذوا بقوله ، وتتركوا فعل موسى ، وعيسى ، والياس ، وقولهم .

وهل فعل ذلك الا جهل ، لا ينبغى أن يصار اليه ، ولا يلتزمه احد حكماً عليه ؟ فان المبلغين عن الله ، المبينين شرع الله ، انما هم موسى ، وعيسى ، ومن تنزل منزلتهم . وباتفاق منكم أن « بولس »

ليس منزلا ، منزلة موسى ، ولا منزلة عيسى ، وغايته اذا سلم مما ذكر عنه في كتب التواريخ : أن يكون حواريا ، لم تكثر صحبته لعيسى . بل صحبه أياما قلائل بدعواه . وليست صحبته له كصحبة « متاؤوش » ولا « يوحنا » ولا أحد من الأحد عشر حواريا .

ثم لو سلمنا أنه صحبه صحبتهم ، فلمله ارتد بعد رفع عيسى كما فعله « الأثكريوث » بزعمكم .

ثم لو سلمنا أنه لم يرتد . فمن أين يلزم اتباع حكمه ؟ ولا سيما اذا غير الأحكام المتقدمة وحكم بخلافها . وليس بنبي ولا رسول . فان قلت : انه نبي . فقد قدمنا ما يكذب قولكم ، ويرد عليكم زعمكم . فقد تبين من هذا أن « حفص بن البر » على جلالة قدره عندهم : قبل ما كان ينبغي له أن يرد ، ورد ما كان ينبغي له أن يقبل . فانه رد فعل موسى وعيسى والياس . وقبل قول عامة الناس . فهو ، وهم من الأخسرين أعمالا « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١) .

ولو تتبعنا أحكام صيامهم لأظهرنا فيها كثيرا من هذيانهم . فلنأخذ من كل باب مسألة واحدة بحول الله ، وحسن عونه .



مسألة في أعيادهم المصانة

قال « حفص » :

« أما بعد .. فان الذي أردت علمه من الأعياد السبعة التي أمر القانون بصيانتها ، فهي معروفة . فأول يوم منها : اذ بشر جبريل الملك مريم باياد المسيح . واليوم الثاني : اذ ولد المسيح . والثالث : اذ ختن الى ثمانية أيام . والرابع : اذ ظهر للمجيين (٢) . وأهدوا اليه ذهباً ، ولوبانا ، ومرا . وهو يوم النجم . والخامس : يوم الفصح . اذ قام عن القبر . والسادس : اذ تخطفته السحابة ، ورقى الى السماء بمحضر الحواريين . والسابع : اذ نزل روح القدس على الحواريين . وتكلموا بجميع الألسن .

(١) الكهف : ١٠٤ (٢) « المجين » في التراجم الحديثة : المجوس .

وأما غيرها من الأيام التي استشهد فيها الشهداء ، ويصونها الناس ، ويتصدقون فيها على المساكين والضعفاء فواجب على كل ذي عقل أن يصونها . أما في مدينه ، وأما في قرية » ا . ه .

فنقول له ، ولهم : هذه الأيام المصانة عندكم . هل صيانتها واجب عندكم بالشرع ، أو ليس واجبا بالشرع ؟ فان قالوا : ليس بواجب بالشرع . قلنا لهم : فلاى معنى تعملونها ، وتلتزمون صيانتها ؟ حتى أن من كان في قرية أو في موطن لا ينبغي له أن يرتحل عنه حتى يتمها . فقد التزمت ما ليس بلازم ، وأوجبتم ما ليس بواجب . فان قالوا : هي واجبة بالشرع . قلنا لهم : بأى شرع وجبت ؟ بشرع موسى ، أو شرع عيسى ؟ فان قالوا : بشرع موسى كذبوا . وقلنا لهم : « فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » (١) ولا شك في أنهم لا يجدون شيئا منها في التوراة ولا في الانجيل . وغايتهم : أن يقولوا ما قال عالمهم « حفص » : « هذه أيام شريفة ، لأنها اتفق فيها أمور شريفة من أحوال المسيح » .

فنقول لهم : هب أنه اتفق ما تقولون . فمن أخبركم من الأنبياء أنه اذا اتفق أمر من تلك الأمور ، فافعلوا كذا ، واصنعوا ذلك اليوم عيدا ؟ وفي أى كتاب من كتبكم وجدتموه ؟ ولا شك في أنهم لا يجدون شيئا مما ادعوه فلم يبق لهم الا محض التحكم ، ثم يلزمهم على مساق هذا : أن يبحثوا عن أيام عيسى وعن عددها ، ويتخذوا تلك الأيام أعيادا . فان أيامه كلها ومحاضره كانت شريفة . اذ كانت أيامه لا تخلو عن كرامة يكرمه الله بها ، وعن بركة من بركاته ، وعن معجزة من معجزاته . فلاى معنى خصصتم تلك الأيام ، لولا محض الهوى والتحكم الباطل ؟ ثم نقول لهم : هل كان عيسى يعلم فضيلة تلك الأيام ، أو لا يعلم ؟ فان كان يعلمها فلاى معنى لم يفعل فيها ما تفعلون ؟ أو لاى معنى لم يبين شرعه فيها ، لو كان له فيها شرع ؟ وان لم يعلم فضيلتها فكيف لم يعلم هو ما علمتم أنتم ؟ ثم كيف يجهل شيئا علمتموه أنتم ، وهو عندكم قد اتحد به علم الله .

فحصل من هذا : أنها ليست فاضلة ، ولا لله فيها حكم . اذ لو كانت فاضلة ، لله فيها حكم ، لعلمها ، ولو علمها لبينها . فلما

لم يعلم ، ولم يبين علم أنه ليس لله فيها شيء مما اخترعتموه • لكنكم
تحكمتم باختراع ما جهلتم ، وشرعتم ما لم يشرع لكم نبيكم • فان
قالوا : هذه أيام اتخذناها لفعل الخير ، نتصدق فيها على مساكيننا ،
ونطعم فيها جيعانا ، وهذه أفعال خير ، وبهذه جاءت الشرائع كلها •

قلنا لهم : لا ننكر أن الشرائع جاءت باعانة المساكين • لكن لم
نخصص لها أياما بالتحكم ثم أوجبتم صيانة تلك الأيام ؟ أو لأى
شيء لم تقولوا : انه ينبغي اطعام المساكين أبدا ، وسد خلاتهم ،
متى ظهرت ؟ ولم تحتاجوا الى وضع أحكام بالتوهم • ولو كنتم
مؤمنين لسلكتكم مسلك اتباع المسيح • تفعلون ما فعل ، وتتركون
ما ترك • ولو فعلتم ذلك لكان موافقا لتعظيمه •

ولو فرضنا عبيدين أمرهما سيدهما بالاعتداء به ، وباتباع سنته ،
فأخذ الواحد منهما يقفو أثر سيده فى أفعاله ، فلا يزيد فيها ولا ينقص
منها • بل هو مواظب عليها غير خارج عنها ، ولا زائد فيها ، وهو
مع ذلك معتقد لتعظيمه محب له • وأخذ الآخر يزيد تارة فى حكم ،
وينقص تارة من حكم ، وهو مع ذلك معظم لسيده ، فلو فرضنا : أن
السيد قال للأول : ما صنعت فيما أمرتك ؟ فقال له : لم أزد على
ما رأيته تفعل ولا نقصت • لأنى خفتك • وأيضا فانى أحبك وأعظمك •
فأحبيتك ، وأحبيت فعلك الذى رأيته تفعله ، فلا شك أن العقلاء
يستحسنون هذا الفعل ، ويرون أن هذا العبد فى أعلى درجات العقل
والطاعة لسيده والمحبة له والتعظيم • وان مثل هذا ينبغي للسيد أن
يعتقه ، ويثيبه •

وأما الثانى : فاذا قال له سيده : ما فعلت فيما أمرتك ؟ فيقول :
فعلت ما رأيته تفعله ، وما أمرتنى به الا أنى زدت أفعالا لم تأمرنى
بها ، ونقصت أيضا • فانى تركت أفعالا رأيته تفعلها • فيقول له :
لأى شيء زدت ما لم أمرك به ، ونقصت مما رأيته فعلت ؟ فلا يصح
له ، أن يقول : لأنى عظمتك وأحبيتك • فان هذا لا يناسب تعظيمه ،
ولا محبته ، بل يناسب بغضه واهانته ، فلا شك أن العقلاء يحكمون •
أن مثل هذا العبد لم يطع سيده فى جميع ما أمره به ، وأنه كاذب فى
تعظيمه ومحبته ، وأنه مستوجب لنكال سيده •

وهذا المثال الأخير • هو مثالكم مع المسيح ، فانكم تدعون تعظيمه وتخالفونه في أفعاله • وتزيدون عليه في أحكامه ، فأنتم مستحقون لتوبيخه ، وعقاب مرسله ، وستجمعكم مع من شرع لكم هذه الأحكام ، فإر حامية ، تسمى الهاوية •



مسألة في قربانهم

قال حفص : « أعلم أن الذى أردت معرفته من خبر القربان هو شرحه •

أن الأنبياء ، وبنى إسرائيل كانوا يقربون القربان على ما تحكيه التوراة : العجول ، والجزر ، والخرفان • فأما « ملكى صادق » فانه أول من قرب القربان من الخبز والخمر • وكان قسيس الله في البدء • واليه أدى إبراهيم العشر' المفروضة^(١) • وقد حكى داوود النبي في الزبور خبر « ملكى صادق » اذ بشر بالمسيح سيدنا ، وأنزله منزلته ، وأحل محله ، وجعله « قسا » الى الأبد • فقال : « الرب أقسم يمينا ، وليس يندم أنت أبدا قسيس لى في خطة القسيسين على رتبة ملكى صادق »^(٢) فأما الحواريون وأتباعهم فانهم فرضوا هذا القربان الذى يقدهه الأساقفة والقساوس على المذبح من الخمر والخبز ، على ما تقدم من فعل « ملكى صادق » وكما قال المسيح في الانجيل : « من أكل لحمى ، وشرب دمي • كان فى ، وكنت فيه • وأما الخبز النازل من السماء • فمن أكلنى يحيا بى »^(٣) •

انظر • ما أعجب حال هؤلاء فى تركهم شرعية التوراة ، فى القربان ، وعدولهم عنها ، الى ما هو ضرب من الهذيان •

وذلك أن الله تعالى افترض القربان فى التوراة بالعجول والجزر والخرفان • كما ذكر • وعملت بذلك بنو إسرائيل من غير تغيير ولا تبديل الى مدة هؤلاء المعيرين لأحكام التوراة ، فغيروا وبدلوا ، وعدلوا الى الخبز والخمر من غير أن ينسخ لهم عيسى شيئا من ذلك ، ولا بدله بغيره ، لكنهم يكرهون العمل بأحكام التوراة ، فيعدلون عنها الى العمل بأهوائهم •

(٢) الزمور ١١٠ : ٤

(١) سفر التكوين : ١٤ : ١٨ - ٢٠

(٣) انجيل يوحنا : ٦ : ٥٦

مع أنهم متعبدون بأحكامها • اذ الأحكام في الانجيل قليلة جدا • ولم يتركوا لآرائهم حتى يتحكموا بأهوائهم ، ثم انهم يتحكمون بآرائهم • فان اتفق لهم شيء يتمسكون به ، كان ذلك مؤكدا لأغراضهم ، وان لم يتفق لهم ذلك استغنوا عنه ، وحكموا بأغراضهم • ويبين هذا : أنهم استثقلوا العجول والجزر والخرفان لارتفاع أثمانها ، وأنه لا يوجد فيها ما يوجد في الخمر من اللذة والطرب ، الداعين الى شربها •

ولذلك عدلوا للخمر مع خفة مؤنتها ، وقلة ثمنها • فانهم أشد الناس بخلا • فان قيل لهم : بأي شيء عدلتم عن قربان التوراة ؟ قالوا : لأن « ملكي صادق » أول من قرب الخمر ، والخبز • ولأن المسيح قال : « من أكل لحمي وشرب دمي ، كان في ، وأنا فيه » ولأن الحواريين فرضوا هذا القربان •

هذا غاية ما يحتاجون به • ولا بد من تتبع ذلك • وبيان تحكمهم وباطلهم • فنقول :

أما قولكم بفعل : « ملكي صادق » فباطل من أوجه :

أحدها : أنه لم يكن نبيا ، فان ادعيتم أنه نبي ، فلا بد من الدليل على ذلك • فهليكم اثباته ، ولو سلم ذلك : لتبقى عليكم أن تثبتوا أن شرعه : شرع لكم • ولو سلم أن شرعه شرع لكم ، لكان ينبغي أن تعلموا أن التوراة قد نسخت ذلك الشرع • اذ قد استقر : أن موسى عمل بخلافه • وكذلك الأنبياء بعده • ولو كان ذلك الحكم باقيا صحيحا لما كان ينبغي لموسى أن يعدل عنه • ولما جاءكم بغيره • فترككم التوراة التي أنتم مخاطبون بأحكامها وشرعها الى ما لم تخاطبوا به ، ولا شرع لكم : استهانة بشرع التوراة وأحكامها ، بل استخفاف بالذي أنزلها ، وبالذي أنزلت عليه فقد بطل استدلالكم بفعل « ملكي صادق » من أوجه •

وأما استدلالكم بقول عيسى ، فهذهيان • لا يلتفت اليه ، لأنه انما أراد : (من عمل بعملى ، أو تعلم من علمى ، أحببته وأحببني) وما ذكره مثل محسوس قصد به التنبية على معنى معقول • ودليل ذلك من قوله • قوله : « أنا الخبز النازل من السماء » انما أراد : أنه بمنزلة الخبز الذي يغذى به ، لأنه قد جاء بغذاء الأرواح •

ويخبزها • وهذه استعارة حسنة مستعملة • وكثيرا ما يقال في الكلام :
« العلم ، والمعاني الشريفة : خبز الأرواح ، كما أن الطعام المعروف :
خبز الأشباح » •

ولكلامه عليه السلام عامل آخر ، وتأويلات جارية غير ما ذكرتم ،
يجوزها العقل ، ولا يبعدها استعمال اللفظ • لا يخرج شيء منها إلى
الهذيان الذي صرتم إليه ، الذي أفضى بكم لجهلكم ، إلى ترك حكم ،
وترك العمل بمقتضاه • ولولا التطويل لذكرنا منها وجوها • وبهذا
اللفظ وما يشبهه ضللتكم ، حيث قلتم بالاتحاد ، ولم تفهموا منه المراد •
هكابرتم العقول ، وحرقتكم المنقول ، وحملتكم من الثنائة والقباحة
مالا يرضى به عليم ولا جهول • وقد ذكرنا إبطال ذلك فيما تقدم •

وأما استدلالهم بفعل الحواريين فذلك من فن الكذب عليهم
أجمعين ، ولو سلمنا أنه صحيح وصدق • لما كان في فعلهم حجة •
بل أن كتاب الله تعالى يخالف فعلهم ، بل الحجة كتاب الله ، ولا يرتفع
شيء من ذلك إلا إذا بين عيسى عليه السلام : أنه منسوخ ، ويبلغكم ،
ذلك عنه بنص قاطع على شروط النسخ ، على ما هو معروف عند أهله •
بل قد أوردوا في انجيلهم : أن عيسى قال للمبروص الذي شفاه :
« امض واعرض نفسك على القسيسين ، واهد قربانك الذي أمر به
موسى في عهده » (١) •

وهذا نص على أن القربان عند عيسى إنما هو الذي حكم به
موسى ، وهو العجول والجزر والخرفان ، لا كما شرعتم أنتم من الهذيان •
فقد حصل من هذا أنكم خالفتكم عيسى ، وقلتم عليه البهتان •
وأما استدلالهم بفعل القسيسين فأولئك المغيرون للدين والمحرفون
لكتاب رب العالمين •

كدينك من أم الحويرث قبلها وجارتها • أم الرباب بماسل
فقد ظهر من هذا أنهم تركوا قربان التوراة لغير شيء ، وأنهم
على غير شيء • فعليهم لعنة كل ميت وحى •



مسألة في تقديسهم دورهم وبيوتهم بالملح

قال حفص : « أما الملح الذي نقديس به الدور والبيوت . وأردت فهم ذلك . فانا وجدنا في سير « الياس » النبي ، الذي رفعه الله : أن تلميذه « اليسع » مكث بمدينة « أريحا » زمانا . فقال له أهلها : « ان عندنا عينا جارية تنفجر منها مياه كثيرة مرة ، لا نفع فيها » فأمر أن يؤتى اليه ببناء جديد . فأدخل فيه الملح ، وقديس به ماء العين (١) . فمن هذا السبب صرنا نقديس الدور والبيوت بالملح المقدس بعد ما يتلو عليه القساوس آيات من النبوة » ١٠٥ .

فنقول لهم : يا هؤلاء المتلاعبون بأديانهم ، المستمرون على هذيانهم . كيف جعلتم مثل هذا دليلا على ثبوت حكم عليكم ؟ وليس فيه دليل من وجوه كثيرة . لكننا نقتصر من ذلك على نقطة كافية وهي : أن « اليسع » لم يفعل ذلك على جهة بيان أنه : حكم . وانما فعل ذلك على جهة : اظهار الكرامة والمعجزة . فان ذلك الماء عذب وطاب ، فظهرت كرامته ومعجزاته ، كما ظهرت على « عيسى » حين مس « المبروص » وبرأ . وكذلك مس الأعميين فأبصروا . الى غير ذلك . وقد حكيتم في بعض أناجيلكم : أن أعمى سأل من « عيسى » أن يرد عليه بصره ، فأخذ قطعة من طين فجعلها في عينه . فأبصر . وهذا بمثابة ما فعل « اليسع » فكان ينبغي لكم : أن تقدسوا دوركم بالتراب والطين ، كما فعل « عيسى » وهو أولى بكم ، اذ هو مفضل عندكم على « اليسع » وغيره بزعمكم .

ومع ذلك فتركتم الاقتداء به ، واقتديتم بمن هو دونه . وذلك عكس ما كان ينبغي لكم . وهذا نتيجة جهلكم ، ومن سوء فعلكم .



مسألة في تصليبهم على وجوههم في صلاتهم

قال حفص : « انما نصلب على وجوهنا . لأننا وجدنا في كتب علمائنا السالفين . أنه لما أراد ملك « قسطنطينية » أن يغزو بعض أعدائه ، تراءى له في السماء صورة صليب من لهب ، وملك من الملائكة

(١) انظر الاصحاح الثاني من سفر الملوك الثاني من الآية التاسعة عشرة .

يخاطبه ويقول له : ان كنت تريد غلبة أعدائك ، فاجعل هذه الصورة علامة تكون قدامك . فانك غالب ظافر بها على جميع أعدائك . فأمن وفعل ، كما قال له الملك ، وهو الذى بحث وكشف عن صليب المسيح ، حتى وجده مدفونا ، وعمل من المسامير التى كانت فيه لجاما لفرسه ، وزين جبينه بصليب من ذهب . فلم يزل من حينئذ أهل ملة المسيح يستعملون هذه العلامة ، لأنها علامة السبق والظفر « ا. ه .

هذا الذى ذكره حفص هنا ، يصدق ما حكيناه عن قسطنطين فيما تقدم . فان كذبنا أحد منهم فيما ذكرناه عنه ، فليكذب أسقفه حفصا . على أن ما ذكرناه مشهور عند أهل التاريخ الذين اعتنوا بنقل أخبار الأزمان الماضية والقرون السالفة .

وبعد هذا نقول لمن استدل على أن « الصليب » مشروع لهم : من أين عرفت صدق « قسطنطين » فيما حكاه وقاله ؟ ولعله كذب . وأراد بذلك اصلاح رعيته وحالته وايغار صدور العامة على من خالفه وذلك داخل فى باب السياسات الى يسلكها من لم يتقيد بالشرعيات ، وكثيرا ما يشاهد من الملوك مثلها .

ثم لو سلمنا أنه صدق فى رؤياه . فمن أين علم أن الذى كلمه ملك ؟ فلعله شيطان قصد اضلالكم . وكذلك كان . حتى تعتقدوا الصلوية ، التى هى أعظم كل بلية ، ومحمل على العصبية ، ثم لو سلمنا أنه ملك . فلاى معنى جعلتم ذلك الصليب فى صلاتكم ، وزدتم على ما علمكم عيسى ؟

ولقد كان ينبغى لكم أن تفعلوا فى الصلاة مثل فعله ، ولا تزيدوا على ذلك . ثم يلزمكم على ذلك : لئى يقال لكم : لا يخلو ذلك الصليب أن يكون حكما من أحكام الصلاة . أو لا يكون . فان كان حكما ، ولم تنقلوه عن عيسى ، ولا أنه علمه لكم . فقد نسبتم عيسى الى أنه كتم حكم الله ، ولم يبلغه . وهذا محال على عيسى . وعلى كل رسول أرسله الله الى أمة . وان قلتم انه ليس بحكم . فلم تفعلوا فى الصلاة ما ليس بحكم شرعى ؟ وان قلتم : شرعه لنا أئمتنا ، وأساقفتنا . قلنا لكم : ومن جعل لأئمتكم أن يتحكموا فى شرع الله ، ويفتروا على الله ، وهم مذنبون عاصون ، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . ولا عطاء ولا منعا ؟

ثم نقول لهم : هذه الصلاة التى يصلب فيها على الوجه أفضل
 أم الصلاة التى لا يصلب فيها ؟ فان قالوا : الصلاة التى يصلب فيها •
 هيلزمكم على هذا أن تكون صلاتهم أفضل من صلاة المسيح • وكفى
 هذا شناعة وحماقة • وان كانت الصلاة التى لا يصلب فيها هى
 الأفضل ، فينبغى ألا تفعلوا مالا فضيلة فيه • وهذا كله يبين أن هؤلاء
 القوم لا يعولون على الأنبياء فى أحكامهم ، ولا يرجعون الى قوانينهم ،
 بل يعولون على أغراضهم وشهواتهم •
 فلقد تمكن الشيطان منهم فأضلهم ، حتى استدرجهم عن الشرائع ،
 وأزلهم •

فهذه المسائل التى ذكرناها ، هى من معظم قواعدهم ، وأصولهم •
 وإذا كان عملهم فى هذه القواعد مثل ما رأيت ، فناهيك بفروعهم •
 ولنقتصر على ما ذكرنا • اذ فيه تنبيه على ما لم نذكر • ثم ان أحوالنا
 الى مزيد ، تتبعنا كبار كتبهم بأن نتلخصها حرفا حرفا ، ونبين فسادها
 لفظا لفظا •

بقيت علينا مسألة واحدة ، وهى : بيان اعتقاداتهم فى الدار الآخرة
 وعذابها ونعيمها • وبها اختتام هذا الفن ان شاء الله تعالى •



مسألة فى قولهم فى النعيم والعذاب الأخراوين

قال صاحب كتاب « المسائل » :

« لسنا ننتظر فى المكافأة الالهية شيئا من الأرضيات الفانيات ،
 كالذى ينتظره شيعة « ملسيان » ولا تزويج العرائس كالذى يشتهي
 « جرنش » و « مركش » ولا ما ينتسب الى المأكول والمشروب ،
 كالذى يسوغه « بابيه » وجماعة • ولا ننتظر أن يكون ملك المسيح فى
 الأرض : ألف سنة ، بعد القيامة ليمتلك الصالحون معه ، متمعين
 كتعليم « قابوش » الذى خيل بقيامتين • الأولى : للصالحين ،
 والثانية : للكافرين • فقال : ان ما بين هاتين القيامتين تمسك الأحباس
 الجاهلة بالله فى زوايا الأرض فى أجسامهم ، ثم يحملهم الشيطان بعد
 تملك الصالحين فى الأرض ألف سنة ، على محاربة الصالحين المتلكين
 فيدفعهم الله عنهم بأمطار النيران • محاربا عنهم ، فيموتون ، هكذا •

مع سائرهم ، الذين ماتوا في الكفر ثم يحيون في لحم غير متغير ،
للعذابات الدائمة » ا.هـ .

قد بين هذا المتكلم ، الحاكي خبط النصارى ، واختلاف فرقها ،
في هذه المسألة : بما أغنى عن البحث عن كثير من فرقهم . على أن
فرقهم لا تنحصر ، واختلافهم لا ينضب . فان اختلافهم كاختلاف
المجانين . اذا اجتمعوا ، فكل واحد منهم يتكلم بما لا يعقل ، وما لا حاجة
له عليه ولا معمول .

لكن مذهب جماهيرهم ، ومعظمهم ، ومن ينتسب الى التدين منهم :
أن الخلق لا بد أن يجتمعوا في القيامة ، وأن عيسى محاسبهم ، فينعم
ويعذب . لكن ليس عذابا بنيران وسلاسل وأغلال . وغير ذلك
مما نعتقده نحن ، وليس نعيما أيضا بماكول ومشروب والتذاذ بنكاح .
ويشبهه — والله أعلم — مذهبهم في هذه المسألة مذهب الفلاسفة ،
حيث ينكرون العذاب المحسوس ، والنعيم ويصرفون ذلك الى الالتذاذ
الروحانى ، لكنهم لا يصرحون (١) به ، كما تصرح به الفلاسفة .
اذ لا يقدرون على تبين أغراضهم لقصورهم . ونحن نتكلم هنا مع
من ينكر ذلك من المشرعين ، فانهم قد اجتمعوا على اعادتنا كما كنا
أول مرة . اذ قد اجتمعت على ذلك الشرائع كلها . من غير اختلاف
بينها فيه .

فنقول لنكر ذلك : لا يخلو أن ما تنكره ، اما من جهة العقل ، أو من
جهة الشرع . فان قال : من جهة العقل ، قلنا له : كذبت وأخطأت .
فان العقل لا يدل على استحالة ذلك . بل يدل على جوازه . اذ ليس
في ذلك الا أن الذى خلقنا أول مرة ، ومكتنا أن نتنعم نعيما محسوسا ،
ونتنالم ألما محسوسا قادر على أن يعيدنا بعد أن يفنينا كما بدأنا .
فان الاعادة انما هي خلق ثان . ومن قدر على الخلق الأول ،
قدر على الخلق الثانى . وهذا معلوم بنفسه ، فهو اذن فعل ممكن
في نفسه ، ليس من قبيل الممتنع . والله تعالى قادر على كل ممكن ،
فيجب وصفه بالقدرة على ذلك . فان قالوا : ان كان في الجنة أكل

(١) عقيدة البحث الروحانى : يصرح بها النصارى في كتبهم (انظر
الاصحاح الخامس عشر من رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثوس) .
(٢٨ - الاعلام)

وشراب ونكاح ولباس ، فيلزم عليه أن يكون في الجنة غائط وبولاً وولادة وتمزيق الثياب وتخريقها •

وكل ذلك محال أن يكون في الجنة • قلنا : هذا جهل ، ولا يلزم شيء مما ذكرتم فيها • بل نقول : هناك أكل وشرب ، وليس هناك غائط ولا بول • وهذا غير منكر ، اذ لا يلزم في كل طعام أن يكون له فضلة ، ولو سلمنا أن تكون له فضلة لما لزم أن يكون فضلة مستقدرة ، بل قد تكون فضلات كثيرة طيبا يتطيب به ، وشرابا يشرب • مثل المسك • فانه دم حيوان ، أو رجييعه ، أو العسل فانه فضل حيوان معروف وليس شيء من ذلك مستقدرا ، بل هو مستطاب مستلذ ، ولا يبعد أن تكون فضلات الجنة هكذا ، بل هو هكذا •

وقد جاءنا على لسان الصادق : أن أهل الجنة لا يبولون • ولا يتغوطون ، انما هو عرق يجري من أجسادهم مثل المسك •

وأما الحمل فلا يلزم شيء منه ، اذ قد نجد من النساء : العواقر ، وهن اللواتي لا يلدن • فكذاك نساء أهل الجنة لا يلدن ، ولا يحضن •

وأما اللباس فلا يتمزق ولا يفنى • وفي لباس بنى إسرائيل « في المفاز » دليل على بطلان ما يخيل هذا السائل ، فالذي يبقى الثياب الى مدة قادر على أن يبقياها أبد الأبد •

وهذه أمور لا ينكرها الا كل غبي جاهل ليس له معقول حاصل • فإذا دل العقل على جوازه ، فينبغي أن يستدل على وقوع ذلك ، ووجوده بكلام الصادقين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، فنقول لمنكر ذلك شرعا :

لا يصح لك أن تستدل على انكارك بشيء من كلام الأنبياء • اذ لا تجده ، بل سنريك نصوص كلامهم على اثباته •

منها : أن من المعلوم أن آدم عليه السلام كان يأكل في الجنة ويشرب وينكح • فان قالوا : الجنة التي كان فيها آدم قبل هبوطه الى الأرض انما كانت في الأرض ، وهى جنة عدن التي قال فيها في التوراة : « وغرس الله فردوسا بعدن من قبل ، وأسكنه آدم » (١) •

وانما كانت تلك بستاننا من بساتين الدنيا • قلنا : ليس في التوراة
نص قاطع يدل على أن الجنة التي يرجع الناس إليها يوم الجزاء
ليست هي التي أسكن الله فيها آدم • بل التوراة محتملة لذلك •
وأما كتابنا فيدل على أنها هي •

ثم لو سلمنا أنها ليست هي ، لحصل لنا من ذلك دليل جواز
الأكل والشرب والنكاح في الجنة • فانه كما جاز أن آدم أكل وشرب
فيها • كذلك يجوز أن يأكل ويشرب وينكح في الجنة التي يرجعون
إليها • وهذا بين بنفسه عند المنصف •

ومنها : أن في الانجيل : أن المسيح قال لتلاميذه ليلة أكل معهم
الفصح ، وقد سقاهم كأسا من الخمر ، وقال لهم : « اني لا أشربها
معكم أبدا ، حتى تشربوها معي في الملكوت عن يمين الله » (١) وهذا
نص لا يحتمل التأويل الا مع ضعف • وفيه أيضا في قصة « العازر »
الذي كان مطروحا على باب الغنى ، والكلاب تلحس جراح قروحه •
وأن ذلك الغنى نظر اليه في الجنة متكئا على حجر ابراهيم الخليل ،
فناداه الغنى ، وهو في النار : « يا أبى ابراهيم ابعت العازر الى بشىء
من ماء • أبل به لسانى » (٢) وهذا نص آخر أبين من الأول •

وفيه أيضا أنه قال لليهود : « يا ثعابين بنى الأفاعى • كيف لكم
والنجاة من عذاب النار » (٣) •

وفيه أيضا أن الجماعة قالت للمسيح بكفر ناحوم : « متى جئت
الى هنا يا معلم ؟ فقال لهم : آمين آمين • أقول لكم : تطلبوننى ، ليس
لأنكم رأيتم عجائب بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم • فارغبوا في
طعام لا يفنى في الجنة الدائمة » (٤) •

وفيه أيضا : أنه قال لتلاميذه في وصية وصاهم بها : « لتطعمن
ولتشربن في مائدتى في ملك الله » (٥) •

(١) انجيل متى : ٢٦ : ٢٩

(٢) الاصحاح السادس عشر من انجيل لوقا •

(٣) متى ولوقا ٣ : ٧ ، والاستشهاد في غير موضعه لأنه يقصد بالعذاب :
هلاك اليهود في زمن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم •

(٤) انجيل يوحنا : الاصحاح السادس ، والاستشهاد في غير موضعه لأنه
يشير الى زمن نبي الاسلام بالجنة الدائمة (الحياة الابدية)

(٥) انجيل لوقا : ٢٢ : ٣٠ •

وفيه أيضا أنه قال لليهود : « ان كان موسى أطعمكم خبزا في المغاز ، فأنا أطعمكم خبزا سماويا » (١) يريد الجنة .

وقال أشعيا : « يا معشر العطاش توجهوا الى الماء الورد . ومن لا فضة له ، فليذهب وليأكل ويشرب ويأخذ من الخبز واللبن بغير فضة ولا ثمن » (٢) .

وهذا كثير في كتب الأنبياء بلا شك ، ولا امتراء . فان قالوا : فلأى معنى لم يصرح موسى في التوراة بذلك ، وبأخبار القيامة ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . وعلى سبيل التنبيه تحتل وجوها :
أحدها : لعنوا بنى اسرائيل وتمردهم ، ولكلال أفهامهم .

ثانيها : لبعث زمان ذلك .

ثالثها : ليعجل لهم جزاء أعمالهم . فانما كانوا يهددون ويخوفون بالعقوبات العاجلة ويوعدون باللذات العاجلة من الملك وتكثير الرزق ، وخصب البلاد الى غير ذلك .

رابعها : لأنه قد كان سبق في علم الله تعالى أنه يرسل رسولا في آخر الزمان ، ليس بعده نبي ولا رسول يبين أمور الآخرة بيانا شافيا ، وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك لقرب القيامة من زمانه ، وليحصل لنبيينا صلى الله عليه وسلم من فضيلة العلم والاعلام ما لم يحصل لأحد غيره ، ولتختص أمته بعلم ليس لأحد غيرها وهذا الوجه هو أقرب الوجوه . والله أعلم (٣) .

ويدل على ذلك قوله في التوراة حين بشر بنبيينا عليه السلام ، وذكر كثيرا من علاماته « ومعه كتاب نارى » (٤) وقد تقدم ذكر ذلك والدليل عليه أيضا : أنك لا تجد عند أمة من الأمم من أخبار القيامة ، أمور الآخرة ما عندهم (٥) .

(١) يوحنا : ٦ والاستشهاد في غير موضعه لانه يشير الى أيام نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم .

(٢) سفر أشعيا : ٥٥ : ١

(٣) في كتاب تنقيح الأبحاث لابن كهمونه : السبب .

(٤) تنبيه ٣٣ : ٢

(٥) المؤلف لم يذكر الأدلة القاطعة من توراة موسى عليه السلام على اثبات البعث . وقد ذكرناها في تقديمنا لكتاب « بقطة أولى الاعتبار فيما ورد »

فالحمد لله الذى جعل لنا كل الفضائل ، وخصنا بمحمد صلى الله عليه وسلم خير نبي وقاضل .

فقد ظهر من هذا النظر : أن ما انتحلوه من انكار النعيم ، والعذاب المحسوسين ، باطل بشهادة العقول ، وبنصوص كلام الأنبياء المنقول . وقد فرغنا من الفن الأول ، والحمد لله كثيرا .



= فى ذكر النار وأصحاب النار « للشيخ صديق حسن خان . وفى تقديمنا لكتاب « نفخ الروح والتسوية » للامام أبى حامد الغزالي - نشر مكتبة عطف بجوار ادارة الأزهر ومكتبة الحينة المنورة بسور الأزبكية - ومن الآيات التى فى تورا موسى عليه السلام - وهى محل خلاف بين التوراة السامرية والتوراة العبرانية . فهى فى السامرية صريحة فى اثبات البعث ، وفى العبرانية تحتل الجزاء فى الدنيا أو فى الآخرة - هذه الآيات :

النص عن يوم القيامة فى التوراة العبرانية :

النص : يقول الله تعالى : - كما كتبوا - « انهم أمة عديمة الراى ، ولا بصيرة فيهم ، لو عقلوا لفظوا بهذه ، وتأملوا آخرتهم . كيف يطرد واحد الفا ، ويهزم اثنان ربوة ؟ لولا أن صخرهم بأعهم ، والرب سلمهم ، لأنه ليس كصخرنا صخرهم .

ولو كان أعداؤنا القضاء . لأن من جفنة سدوم جفنتهم ، ومن كروم عمورة . غنيم غنم سم ، ولهم عاقيد مرارة ، خمرهم حمة الثعابين ، وسم الاصلال القاتل .

أليس ذلك مكتوبا عندي . مختوما عليه فى خزائنى ؟ لى النعمة والجزاء . فى وقت نزل ألتهمهم . ان يوم هلاكهم قريب ، والمهيات لهم مسرعة ، لأن الرب يدين شعبه ، وعلى عبده يشفق . حين يرى أن اليد قد مضت ولم يبق محجوز ولا مطلق . يقول : أين ألتهمهم الصخرة التى التجأوا اليها ؟ التى كانت تأكل شحم ذبائحهم وتشرب خمر سكاينهم . لتقم وتساعدكم وتكن عليكم حماية .

أنظروا الآن . أنا ، أنا هو ، وليس اله معي . أنا أميت وأحيى ، سحقت وإنى أشفى ، وليس من يدي مخلص . انى أرفع الى السماء يدي ، وأقول : حي أنا الى الأبد . اذا سننت سيفي البارق ، وأمسكت بالقضاء يدي أورد نقمة على أصدادى وأجازى مبغضى . أسكر سهاى بدم ، ويأكل سيفي لحما . بدم القتلى والسبايا ، ومن رؤوس قواد العدو .

تهللا أيها الأمم شعبه ، لأنه ينتقم بدم عبيده ، ويرد نقمة على أصداده ، ويصفح عن أرضه . عن شعبه « (الاصحاح الثانى والثلاثين من سفر التثنية : من الآية الثامنة والعشرين الى الآية الثالثة والأربعين) .

محاسن دين الاسلام

تمهيد :

الفرض من هذا الفن : أن نبين فيه عقيدة الاسلام ، وجملا من
أصول أحكامه ، ومواضع من فروع دينه . أنكرتها النصارى عليه .
وانما فعلنا ذلك لغرضين :

أهدهما : أن السائل الذي حركنا لهذا الكتاب ، هددنا . وزعم
أنه ان سب وشتم ، كتب كتابا بنص شريعتنا ووجهه للبلاد حتى يقف
الناس عليها . فأردت أن أتولى ذكر شريعتنا لئلا يتعاطى ذكرها ونقلها :
جهول . لا يحسن ما ينقل ، ولا ما يقول .

كى يقف العقلاء عليها ، وينظروا فيها . على أن شرعنا ليس
بالخفى . بل قد طبق الأرض شرقا وغربا ، وقرع من العقلاء سمعا
وقلبا ، فلم يسمع بمن مجه وطرحه غير معاند ، كبثه شرعنا وفضحه ،
فأنه جاز على المنهاج المعقول ، المستحسن ، عند أرباب العقول .

وسأبين ذلك ان شاء الله تعالى ، على أنى لم أتعرض لهذا السائل
ولا لأحد من ملتهم بالسب ، أكثر من تبين جهلهم ، وركاكة هذيانهم
وقولهم . وربما أغاظوا في بعض الأقوال لما ارتكبوا فيها من القبيح
والمحال ، فأطلقت عليهم اللعنة ، حسب ما تقتضيه البغضاء والاحنة ،
وتعويلا على ما في التوراة من لعنتهم ، وركاكة شرعتهم .

فان في التوراة : « ملعون . ملعون من يعلق بالصليب » (١) يريد

(١) تثنية ٢١ : ٢٢ - ٢٣ والامام الابوصيري، مؤلف « بردة المديح
المباركة » نظم قصيدة في الرد على النصارى واليهود قال فيها عن « ملعون من
يعلق بالصليب » ما نصه :

وعزوا الى يعقوب من اولاده	صديقة حملت به ويتولا
والى المسيح وامه وكفى بها	لعلنا يعود عليهم مكفولا
ولن تعلق بالصليب بزعمهم	ذكرا من الفعل القبيح مهولا

بذلك من اعتقد الصليب وادعاه وعظمه • وهذا نص بلعناتهم ، وموجب
لبغضتهم • وهذا ما نعلمه مع ديننا ، وواضح سبيلنا •

والفرض الثاني : أنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصراني أو
يهودي لم يسمع قط من ديننا تفصيلا ولا تصريحاً • بل انما سمع له :
سبا ، وتقبيحا • فأردت أن أسرده على الجملة ، ليتبين حسنه لمن كان
ذكي العقل ، صحيح الفطرة • فلعل ذلك يكون سبب هداه ، وجلاء عماء
« وما توفيقى الا بالله » (١) •

وفي هذا الفن فصلان : وانقسم هذا الفن الى فصلين ، لأن
شريعة الاسلام مشتملة على اعتقاد بالقلوب ، وعمل بالجوارح •
فالفصلين نذكر في أحدهما : قواعد الاعتقاد • وفي الثاني : ندافع عن
الاعتقاد وعن التشريع • فنقول :

الفصل الأول

اعتقاد المسلمين

أما اعتقاد المسلمين فهو : أن كل موجود سوى الله تعالى فهو محدث
مخلوق مخترع على معنى أنه لم يكن موجودا ، ثم صار موجودا ،
وأن له محدثا موجودا قديما ، لا يشبه شيئا من الموجودات الحادثة ،
بل يتعالى عن شبهها من كل وجه ، فليس بجسم ولا يحل في الأجسام ،
ولا جوهر ، ولا يحل في الجواهر ، ولا عرض ولا تحل في الأعراض .
وأنه اله واحد لا شريك له في فعله ، ولا نظير له في ذاته ، وطوله ،
لا ينبغي له صاحبة ، ولا الولد . ولم يكن له من خلقه كفؤا أحد .
وأنه عالم ، قادر ، مرید ، حي ، موصوف بصفات الكمال من السمع
والبصر والكلام وغير ذلك . مما يكون كاملا في حقه . وأنه منزّه عن
صفات النقض والقصور ، وأنه يفعل في ملكه ما يريد ، ويحكم في خلقه
بما يشاء ، لا يفتقر الى شيء ، واليه يفتقر كل شيء ، وبيده ملك كل
جماد وحى . لا يجب عليه لمخلوق حق ، وتجب حقوقه على الخلق ،
لا يتوجه عليه : متى ؟ ولا : أين ؟ ولا : لم ؟ ولا كيف ؟ فلا يقال :
متى وجد ؟ ولا أين وجد ؟ ولا كيف هو ؟ ولا لم فعل ؟ « لا يسئل عما
يفعل ، وهم يسئلون » (١) .

وان أرسال الرسل من أفعاله الجائزة ، وأنه قد أرسل الرسل
وأنزل الكتب ، وكلف الخلق ، وشرع لهم شرائع على السنة رسله ،
وأن رسله صادقون في قولهم ، ومؤيدون بالمعجزات من عند ربهم ،
وأنهم عبيد الله ورسله ، وأنهم بشر مثلنا ، الا أن الله تعالى فضلهم
بأن جعلهم واسطة بينه وبين خلقه ، وأطلعهم على ما شاء من غيبه ،
وأنهم بلغوا عن الله ما أمروا بتبليغه ، وأنهم كلهم صادقون مصدقون ،
لا نفرق بين أحد منهم . وأن محمدا بن عبد الله بن عبد المطلب العربي

القرشى الهاشمى رسول من الله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا • وأن الله تعالى أيدته بالمعجزات الدالة على صدقه كما فعل بالرسول من قبله •
وأن شرعه واجابته لازمان لكل من بلغته دعوته حيث كان من أقطار الارض وجهاتها ، وعلى أى دين كان من أديانها •

لا يقبل ممن كفر به يوم القيامة ما هو عليه من دين ، بل يكون مظلدا فى العذاب أبد الأبدىين ، كما أن المؤمن به ، وبكل ما جاء به مظلدا فى الجنة أبد الأبدىين •

وأن شرعه ناسخ لكل الشرائع المتقدمة على الجملة • وهادم ما قبله من الأحكام السابقة ، وأن كل ما جاء به عن الله حق : من العذاب ، والحشر ، والتشر بعد الموت ، والصراط ، والميزان ، والخصوص ، والمحاسبة ، وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم لاهل الموقف ، ولاهل الكبائر من أمته خاصة •

والجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، وأنهما محسوسان ، ليسا معنويين ، وأن خلود أهل الجنة سرمد ، وعذاب أهل النار الكافرين سرمد ، لا انقطاع لواحد منهما الى غير ذلك • مما هو مفصل فى الشريعة ، مما يعرفه اهله ، ولا يسمعهم جهله •

وهذه قواعد اعتقاد أهل الاسلام ، مجردة عن أدلتها ، ومقتضية من شواهدها • اذ ما منها قاعدة ، الا ويعضدها برهان عقلى ، لا يشك فيه عاقل ، ودليل سمعى لا ينكره فاضل • ومن أراد تعرف ذلك طلبه من مواضعه • وأما مستندات أحكامهم فهى كتاب الله ، وسنة رسول الله ، لا يعدلون لحظة عنها ، ولا يخرجون لحظة منها ، الا أن وجوه استدلالاتهم لا يحيط بها متطفل عليها لكثرتها ، ولنقاوة درجاتها •

فان كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله لا يستدل بهما ، من لا يعرف من علوم اللفظ ومفهومه وفحواه ومعقوله • ويعرف من المنطوق : النص ، والظاهر ، والمؤول والمحمل ، والعموم ، والخصوص ، والاستثناء ، والمطلق ، والمقيد ، ويعرف من المفهوم أحكامه وأقسامه ، وكذلك من الفحوى والمعقول على ما هو معروف فى علم الأصول ، الذى هو علم خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو من كرامات أهل الاسلام •

لذ ليس في ملة من الملل المتقدمة ، من التحقيق ما عندهم ، ولا اجتمع لأحد قبلهم من العلوم مثل الذى اجتمع لهم •

ذلك بأنهم آخر الأمم ، وكتابهم آخر الكتب وأفضلها ، ورسولهم آخر الرسل ، وأفضلهم ، ولسانهم أحكم اللسانة ، وأفضلها على ما يعرفه من تصفح شريعتهم • وعرف لغتهم ، ونظر إليها بعين الانصاف ، وترك طريق التعصب والاعتساف • فالحمد لله على ما أولاه ، « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق » (١) •

ومما يبين للعقل حسن شريعة الاسلام ، وجمال طريقتها • أنها مبنية على مراعاة مصالح الدنيا والآخرة ، واتمام مكارم الأخلاق الحسنة •

أما بيان مصالح الآخرة • فهو أن هذا الشرع يبين وجوها ، ولم يغفل شيئاً منها ، بل فسرهما وأوضحها غاية الوضوح لئلا يجهل شيء منها • فوعد بنعيمها وتوعد بعذابها ، بخلاف الشرائع المتقدمة ، فإنها لما كانت تتوعد على المخالفة بعقاب دنيوى ، كما فعل بنو اسرائيل غير مرة ، وتوعد بثواب دنيوى ، ولم يبين لهم شيء مما بين لنا على ما يقتضيه نسق التوراة ، اذ ليس فيها ذكر جنة ولا نار ، الا تنبيهات قليلة (٢) ، وكذلك الانجيل ليس فيه شيء من ذلك الا ما ذكرناه •

ومع ذلك فإنه تعبدنا بعبادات محضة ذوات فعال وأركان • كالصلاة والحج وغير ذلك • وكل ركن من أركانها • فالمقصود به تعظيم الله تعالى ، وخضوع له بالظاهر والباطن ، حتى تؤدى كل جارية من الجوارح حفظها من تعظيم الله تعالى ، مع ما ينضاف الى ذلك من المعانى الشريفة والأدعية الرفيعة النصيحة التى يعرف معانيها أهلها ، حسب ما فسروه فى كتبهم ، وليس كما تقولون أنتم فى صلاتكم : « يا أبانا الذى فى السماء » (٣) •

(١) الأعراف : ٤٣ (٢) متى ٦ : ٩ - ١٣ ، ولوقا ١٢ : ٢ - ٤

(٣) الآيات التى تدل على الجنة والنار فى التوراة منها : التثنية ٣٢ : ٢٤ - ٣٥ ، المزامير ٤٨ : ١٥ - ١٦ ، أشعيا ٦٥ : ١٣ - ١٥ ، دانيال ١٢ : ١٢ ، أيوب ١٩ : ٢٥ - ٢٧ ، وقول ليوب نص فى بعث الجسد مع الروح فى تراجم الكاثوليك •

فان ظاهر هذا مستبشع في العرف ، محال في العقل ، أما استبشاعه في العرف فانه يقبح بالعبد أن يخاطب سيده بلفظ الأبوة .

هذا . مع أن معنى الأبوة جائز في حقوقنا . فكيف لا يقبح إطلاقه في حق من لا تجوز الأبوة في حقه ؟ فإطلاق مثل هذا اللفظ في حق الله تعالى ينبغي ألا يجوز ولا يطلق وأما إحالته في العقل . فان ظاهر قولكم : « في السماء » يفهم منه : أن السماء محيط به ، وإن جاز ذلك ، جاز أن يكون جسما . وأنتم تأبون ذلك ، وهو محال في حقه تبارك وتعالى .

وكذلك قولكم في بقية هذا الدعاء :

« وعجل لنا خبزنا الدائم ، واغفر لنا ، كما يغفر بعضنا لبعض »
فانه لفظ مستثقل مستقبح . ومعناه : مستغث ، مسترك . ولولا خوف التطويل ، لأبدينا ما يحتمل ذلك من قبيح التأويل .

فان قلتم : هكذا علمنا عيسى في الانجيل . فقال لنا : « اذا صليتم فقولوا » قلنا : لا نسلم أن هذا مما علمه عيسى ، ولا مما جاء به ، بل هو اختراع من لا يحسن ما يقول ، وليس له الى المعارف وصول .

وقد تقدم : أن كتابكم قابل للتحريف والتصحيف . فهذا الذي ذكرنا ، ينبه على المصالح الأخروية ، وأما المصالح الدنيوية . فقد بينا أن مقصود شرعنا : حفظ الأديان والنفوس والأموال والانساب والأعراض والعقول . ولأجل ذلك شرع القتل ، والديات ، والعقوبات ، وحرم السرقة ، والخيانة ، وجميع وجوه أكل المال بالباطل ، وحرم الزنا ، وفعل اللواط . وغير ذلك من الفواحش .

وكذلك حرم الغيبة والنميمة ، والقذف ، والبهتان . والزور ، وجميع أصناف الكذب والغش والخداع والمكر ، الى غير ذلك من أنواع المفاسد .

ولأجل ذلك أيضا : حرم الخمر ، فانها تذهب العقل الذي هو مناط التكليف ، وبه يعرف البارئ تبارك وتعالى . والنسكر آفة تناقضه وتضاده ، فهذه الأمور كلها محفوظة بالحدود ، والزواج ، المشاكلة للعقوبات ، الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم اما بالكتاب ، واما بالسنة ، وليس شيء منها موضوعا بالتشهي والتحكم ، كما فعلتم أنتم .

وقد بينا ذلك ، بمستنده للشارع ، ولا نعدل عنه طرفة عين ، بل
تقف عند ما أمر ، وننتهى عما نهانا ، ويعرف ذلك على التفصيل أهله ،
ومن وقف عليه من العقلاء المنصفين •

وأما مكارم الأخلاق التى تضمنها شرعنا ، فلا تخفى على متأمل •
وذلك أن شرعنا : أمرنا بها ظاهرا وباطنا ، ونهانا عن رذائلها
وسفسافها • فمن المكارم الظاهرة : النظافة ، والطهارة ، والتنزّه عن
الأقذار والأوساخ • فمن النظافة تطهير الثياب والابدان • فانها ينبغى
أن تنزه عن الأقذار • مثل البول ، والغائط ، والمني ، والمذى ، والدم ،
والقيح ، وما شاكل ذلك •

ومن النظافة أيضا التطيب ، وتحسين الهيئة • فالطيب لا يخفى
على عاقل استعمله ، وكذلك تحسين الهيئة ، ومن تحسين الهيئة قص
الشارب ، وإعفاء اللحية • فقص الشارب لتتأتى النظافة فى الأكل ،
اذ لا تتأتى مع طوله ، اذ يدخل الشعر فى الفم ، وينقص الأكل ،
ويقصره •

هذا مع ما يلحق الشارب من قذارة المخاط ، اذا كان الشارب
كبيرا • ومع ذلك فلا يخلق عندنا كله ، ويمحق رسمه • فان ذلك مثله
وتشويهه • وكذلك اللحية اذا حطقت فينبغى أن توفر توفيرا لا يخل
بمروءة الانسان ولا يخرج عن عادة الناس ، وخير الأمور أوساطها •
وأما حلق اللحية فتشويهه ومثله ، لا ينبغى لعاقل أن يفعلها بنفسه •

والعجب من جهل النصارى بالشرائع ، وبما يستحسنه ذووا
المروءات ، فانهم يخلقون لحاهم ، ويشوهون أنفسهم ، ويوفرون
غلوftهم ، التى ينبغى أن تزال لما فى أزالتها من الفوائد على ما ذكرنا •
ومن النظافة المأمور بها : تقليم الأظفار ، ونفث الابط ، وحلق العانة ،
وغسل البراجم والمغابن بالماء • وهذا كله من شرعنا مبالغة فى النظافة ،
ومحافظة على مكارم الأخلاق ، وعلى عادة ذوى العقول والمروءات •

وأما التنزه عن الأقذار فانه حرم علينا الخبائث من الميتة والدم
ولحم الخنزير والأنجاس كلها على ما تقتضيه عادة العقلاء والمروءات •
وأمرنا بأكل الطيبات واستعمال المستحسنات ، ونهانا عن السرف
والتبذير •

ولأجل هذا نهانا عن استعمال أواني الذهب والفضة ، وعن لباس الحرير للذكور . وذلك لما فيه من التبذير والسرف .

وأیضا . فان فيه ترفها ، يناسب ترفه أهل الجنة ، ويشبهه ، ولا ينبغي أن يفعل ذلك . ولأجل ذلك قال نبينا عليه السلام : (من شرب في آنية الذهب والفضة ، لم يشرب بها في الآخرة ، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة) (١) .

وهذا كله لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء . ولأجل ذلك قال الحكماء : « الدنيا قنطرة فاعبروها ، ولا تتعمروها » فهذه نبذة من النظافة الظاهرة . وأحكامها كثيرة ، تعرف في مواضعها .

وأما النظافة الباطنية . فترجع الى التخلی عن مذموم الأخلاق ، والتخلی بمحامدها ومستحسناتها ، وهي كثيرة فلنذكر الأخلاق المذمومة التي يتنظف منها . وبعدها نذكر الأخلاق المحمودة التي ينبغي الاتصاف بها .

أما الأخلاق المذمومة فكثيرة لكن أمهاتها ما نذكره . وهي : الغضب ، والحسد ، والبخل ، ومهانة النفس ، ودناءتها ، والرعونة ، وحب الجاه ، وحب الدنيا الذي منه كل خطيئة ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، الى غير ذلك من الأخلاق المذمومة التي من اتصف بها ، كان منجس الباطن بمثابة من كان متنجس الظاهر ، فعليه تنظيفه .

الا أن نظافة النجاسة الظاهرة بالماء ، ونظافة النجاسة الباطنة بالاتصاف بالأخلاق المحمودة التي هي : التوبة من المعاصي ، وحسن الصحبة مع الخلق ، والنصيحة لهم ، والعدل في الأمور كلها ، والتواضع ، وكرم النفس ، وبغض الدنيا ، والزهد فيها ، والاخلاص ، والخوف ، والصبر ، والشكر ، والصدق ، والتوكل ، ومحبة الله تعالى ، ومحبة

الى غير ذلك من الأوصاف المحمودة ، التي من اتصف بها ، فقد تقى من أوصاف البشرية وتطهر الطهارة المعنوية .

فهذا أنموذج ، وقانون يعرف العاقل المنصف به حسن شريعتنا .
وجمال طريقتنا ، وأنها جارية على نهج العقول . ومستحسنة عند من
له محصول . ومن أراد أن يتبين مخاسن شريعتنا على التفصيل ، فلا
يصل الى ذلك الا ببحث كثير ، وتطويل .

فان وقف ، فأمعن النظر ، واستدت منه الفكر ، قضى من عجائبها
كل عجب ، وعلم على القطع والبتات أنها حق من الله ، من غير شك ولا
ريب . وأن الذى جاء بها لا يجوز عليه الغلط ، ولا الكذب .

فما نحن معشر المسلمين . قد أرصدنا شريعتنا للاستعراض .
وناديننا عليها فى سوق الاعتراض ، لئلا يعترض أحد ، أو يعارض .
هيدمغه ناقد لقوله ، وحافظ ، ولم نكل حكايتها الى غبى غافل ، عن
مقاصد شرعنا جاهل .

وقد آن أن نذكر ما اعترض به النصارى على ديننا ، وننفصل عنه
إن شاء الله تعالى . وعند ذلك يتبين صميم جهلهم ، وسوء صنيعهم
وفعلهم .



الفصل الثاني

دفاع عن الإسلام

اعلم أن النصارى يعيرون دين الاسلام ، ويقبحونه عند جهالهم وعامتهم بأمور من فروع الاسلام ، لا ينبغي لمنصف أن يعييبها ، ولا يعيب شرعا هي فيه .

وقد كنا بينا فيما تقدم : أنه لا ينبغي أن ننبد الشرائع أو نجحدها بما تجوزه العقول ، بل يتلقى ذلك المجوز عقلا ، الذي جاءت به الشرائع بالقبول ، اذا علم صدق ذلك الشرع ، بل ينبغي للعاقل : أن ينظر في دليل صدق ذلك الشرع . فان وجده دليلا صحيحا قبل منه كل ما يقول ، فانه صادق . والصادق لا يقول ما تكذبه العقول . نعم قد يقول ما يقصر العقل عن ادراكه ، وليس ذلك طعنا على قول الصادق . وانما العجز في حق العقل . فليس كل ما تأتي به الشرائع يعرف العقل جوازه قبل وقوعه ، بل قد يكون منه ما يجله .

وهذا بين عند الفهم المنصف . وقد كنا قررنا ذلك بأبلغ من هذا فيما تقدم .

فاذا تقرر ذلك . قلنا للنصارى : كان يجب عليكم أن تتظروا في الأدلة التي بها استدل هذا النبي على صدقه ، فاذا صحت ، لزمكم قبول قوله ، وان لم تصح لديكم رددتم كلية شرعه ، ولا تعترضوا ببعض ما جاء به ، مما يجوزه العقل ، على ما تقرر .

ونحن قد أثبتنا الأدلة القاطعة على صدقه ، وأنواعها . فيجب عليكم أن تقبلوا شرعه . اذ قال : أنا رسول الله الى الناس كلهم ، وأنى لليهود والنصارى . وقد ظهر صدقه في قوله . وان لم تفعلوا ، فقد وجبت عليكم اللعنة ، وحاقت بكم الطامة « وسيطيم الكفار لمن عقبى الدار » (١) .

ونحن نذكر ان شاء الله تعالى ما اعترضوا به على ديننا • ونحكي
اعترضهم كما ذكروه في كتبهم ، ونسبوه الى أساقفتهم •
قال صاحب « كتاب الحروف » بعد أن ذكر وصية عيسى التي
قال فيها : « احذروا أنبياء الكذب ، الذين يأتونكم بلباس الحملان —
يعنى سمة الأبرار ، وزى العباد — وباطنهم ذئاب خاطفة » (١) قال
بعد ذلك ممرضا بنينا ، ومستقصا لديننا ، « وقد رأينا نفاذ قوله هذا
فهم ادعى النبوة ، فأظهر سمة الحملان ، ثم عمل عمل الذئاب ، فأمر
بخلاف هذه الوصايا من العداوة للناس عامة ، والتحريض على قتل من
خالفه ، والأمر بالقصاص ، والانتقام •

ثم أمر بالاكتار من النساء ، ورخص في طلاقهن ، وأحل تزويج
المطلقات الفاجرات ، ثم ردهن الى الأزواج الأولين ، بعد طلاق ثان •
وأحل ذلك لهن من الرجل الثانى الى الأول • ثم ما وصف الله به من
الجور والقساوة والظلم • اذ زعم أنه يهدى بعضا ، ويضل بعضا •
وقال « القوطى » — الذى قدمنا ذكره — : « لا فائدة في
شريعتمكم ، لأننا نجد الأحكام الشرعية ، حكمين : الأول : التوراوى •
الذى هو « من لطمك فالطمه » •

الآخر : الانجيلى الذى هو « من لطم خدك اليمنى ، فانصب له
اليسرى » •

وأنت ترى فضل هذا ، على الأول (٢) • ثم لا تجد لهذين الحكمين
فلانا ، الا كانا داخلا فيهما « أ • ه •

هذا منتهى ما يعترض به من ينتمى الى النظر من « أقستهم »
وأن كان بعيدا عن التحقيق •

وأما عامتهم ، ومن لا مبالاة بهم : فقد تقولوا العظائم ، وجأهروا

(١) انجيل متى : ٧ : ١٥

(٢) حكم التوراة ما جاء المسيح ابن مريم لنسخه ، وقوله من لطم خدك
اليمنى فانصب له اليسرى • يشير به الى الرحمة داخل المجتمع الذى يدين
بمبادئه ، والعفو والتسامح • ولقد كان لابد من التماسك والوقوف أمام
القاضى فلا بد من تنفيذ حكم التوراة • وقد أثر عن المسيح فى انجيل لوقا :
أنه قال لتلاميذه : « من ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا » (لوقا : ٢٢ : ٣٦) •

بالتواضع والشتائم . ونحن نجيب هذين القسسين على ما قالاه ، جواباً يرفع الاشتباه ، ونرجو به التقرب من الاله . فنقول للأول :

أما استدلالك على رد نبوة نبينا بقول عيسى ، فتجهيل للعامة ، وتليبس عليهم ، فانك أدخلته في جملة أنبياء الكذب . وقد شهد الأنبياء بصدقه — كما قدمنا — بل قد شهد كتابك بصدقه ونبوته . فانه قد جاء فيه من قول عيسى ما لا يمكنك انكاره ، حيث ذكر « البرقليط » وأخبر أنه يأتي ، ووصفه بما ينبغي له — وقد قدمنا ذلك مستوفى — فهذا منك . يا هذا . جهل بكتبك ، وتكذيب لأنبيائك ورسلك . وانما الذى حذر منه عيسى وغيره من الأنبياء انما هم أنبياء الكذب كما قال ، ولم تزل الأنبياء يحذرون من الأنبياء الكذابين .

ولقد أكثر من مثل هذا التحذير : نبينا عليه السلام ، حتى قال : « يكون في آخر الزمان ثلاثون كذاباً ، كلهم يزعم أنه نبي . وأنا خاتم النبيين ، فلا رسول بعدى ، ولا نبي » وقد وجد بعضهم . ولا بد من أن يوجد الباقي ، كما قال الصادق .

وأما قولك : « ان سمة نبينا سمة الحملان ، وعمله عمل الذئب » فكذب صراح ، وافك وقاح . ونحن قد بينا سمة وعمله ومنهاجه . وقد عرف حاله القريب والبعيد ، بل سمة سمة الأنبياء ، وعمله عظمهم ، ولا فرق بينه وبينهم الا أنه أفضلهم وأكملهم . وانما قلنا ذلك لأن في صحف أشعياء أنه قال : « أنت أيام الافتقادات ، أيام الكمال » ثم قال : « لتعلموا يا بنى اسرائيل الجاهلين ، أن الذى تسمونه نصلاً ، هو صاحب النبوة ، تفترون بذلك على كثرة ذنوبكم ، وعظم فجوركم » .

وانما قلنا : انما غنى نبينا ، ولم يرد غيره . لأنه قال : « يا بنى اسرائيل » وهذا خطاب لجميعهم ، ولم تكذب جميع بنى اسرائيل بنبوة نبي ، الا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الى غير ذلك مما تقدم . وأما عيسى وغيره ، فكان منهم من آمن به وصدقه على ما هو معروف .

وأما قولك : « أمر بخلاف هذه الوصايا من العداوة للناس » . فكذب وتشنيع لا يرضى به سفلة الناس . بل قد أمر بالآلفة والاجتماع ، والتحاب في الله ، والمؤاخاة في ذاته ، والتعاون على البر والتقوى . ونهى عن التباغض والتدابير والتخاذل على ما بيناه من شرعه .

وكل ذلك من حاله وحالهم معروف بحيث لا يجهل ، ومشهور بحيث لا ينكر . نعم رحمته للمؤمنين ، وغلظته على الكافرين .

وكذلك وصفه الله في كتبه ، وعلى لسان رسله . قال الله العظيم في محكم وحيه الكريم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (١) . وكذلك كانت أحوال أصحابه قال الله تعالى : « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رهفاء بينهم » (٢) . وليس كما تقولونه أنتم عن أصحاب عيسى أنه لما تقبضت اليهود عليه فروا عنه وأنكروه ، وحلفوا على أنهم لم يعرفوه . فأسلموه وتركوه .

وقد بينا فيما تقدم : ما ذكرت الأنبياء من أوصافه . وعلى أنه لم يخلط على الكافرين ، حتى تمردوا على الله وكذبوا رسالات الله . وذلك أنه أقام بين أظهرهم عشر سنين ، أو نيفاً عليها ، يدعوهم إلى الله على سبيل الوعظ والإنذار ، والتعليم والتبليغ ، وإظهار الآيات والمعجائب مليناً لهم القول ، ومظهر لهم الاشتقاق ، وبإذلالهم النصيحة ، صابراً بنفسه على ما يلقي من أذاهم ، ومن سبهم . وهم مع ذلك يبالغون في ضرره بكل ما يمكن ، وكلما ألح عليهم بالإنذار ، زادوا في الإضرار ، حتى هموا بقتله وطرده عن بلده وأهله .

وبعد ذلك أمره الله بالانتصار ممن ظلمه ، وإخراج من أخرجه . ولذلك أنزل الله تعالى عليه : « أنن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » (٣) .

وأما قوله : « والتحريض على قتال من خالفه » فهذا لا ينبغي أن يعاب به دين . فإن الكافر بالحق لا حرمة له ، وجنائته أكبر من كل جنائية ، فعقوبته ينبغي أن تكون أكبر من كل عقوبة ، لا سيما بعد أن تقدم للكافرين بالأعذار ، وبولوج لهم في الإنذار ، ولأجل أن الكافر لا حرمة له عند الله : يعاقبه في الدار الآخرة عقوبة لا انقطاع لها . باتفاق الشرائع .

وان جاز أن يعاب شرعنا لأنه جاء بقتال الكافرين ، جاز أن يعاب شرع موسى (٤) . فإنه جاء بقتال الجبارين ، على ما لا يخفى على

(٢) الفتح : ٢٩

(٤) الأصحاح العشرون من سفر التثنية ٥

(١) التوبة : ١٢٨

(٣) الحج : ٢٩

أهد من المشرعين . فقد لزم هذا المنكر لشرعنا من حيث أنه شرع فيه القتال أن ينكر ما يدين به ويعتقده من شرع موسى بن عمران ، وينبغي له أن يسفه فعل « يشوع بن نون » حيث أذاق الجبارين أشد القتل وأعظم الهون ، ثم أعجب من ذلك جهلهم بما في كتبهم ، أو مجاهرتهم بانكارها (١) .

وذلك أنهم يجدون في كتبهم أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم ، ويجدون فيها أنه يبعث بالقتل والسيوف ، ثم ينكرون ذلك ، ويباهتون فيه . وقد ذكرنا من ذلك ما فيه كفاية . ومن ذلك ما قد جاء في كتاب « أشعياء » أنه أخبر عن هزيمة العرب ، وقتل أشرافهم . فقال لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم : « يدوسون الأمم ، كدوس البيادر ، وينزل البلاء بمشركي العرب ، وينهزمون » ثم قال : « وينهزمون بين يدي سيوف مسلولة ، وقسي متورة ، من شدة الملحمة » (٢) .

وكذلك قال « حبقوق » : « تضيء لنوره الأرض ، وستتزعق في قسبك اغراقا ، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء » (٣) وهذه نصوص على اسمه وصفته — كما تقدم — .

وقد أشار انجيلكم الى هذا فانكم تزعمون أن عيسى قال لتلاميذه : « اني كنت أرسلتكم ، وليس معكم مزود ، ولا خف ، فهل ضرركم ذلك ، أو نقصكم شيئا ؟ قالوا : لا . قال : أما الآن . فمن لم يكن له كيس فليأخذ كيسا ، ومزود فليشتر مزودا ، ومن لم يكن له سيف ، فليبع من ثيابه ، وليشتر سيفا » (٤) .

فأمرهم باشتراء السيوف ، للقتال . بعد أن كان نهاهم عن القتال (٥) . لعلمه أن محمدا يبعث بعده بالسيوف وهذا كثير ، بحيث لا يحتمل التأويل .

(١) في انجيل لوقا يقول المسيح : « حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية . هل أعزكم شيء ؟ قالوا : لا . فقال لهم : لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك . ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا » (لوقا : ٢٢ : ٣٥ - ٣٦) .

(٢) الاصحاح الحادى والعشرون من سفر أشعياء .

(٣) الاصحاح الثالث من سفر حبقوق . وبطل « محمد » : « مسيحك » .

(٤) انجيل لوقا : ٢٢ : ٣٥ - ٣٦ .

(٥) المسيح لم ينه عن القتال لأنه ما جاء لنسخ شريعة موسى .

وخير من ذلك كله : أنهم قد ذكروا في انجيلهم ، أن عيسى قال لهم : « لا تحسبوا أنى قدمت لأصلح بين أهل الأرض ، لم آت لأصلحهم ، لكن لألقى المحاربة بينهم . انما قدمت لأفارق بين المرء وابنه ، والمرأة وابنتها ، وأعداء المرء أهل بيته » (١) .

وهذا نص . بأن عيسى انما جاء بالمحاربة والقاء العداوة بين الناس . وهذا عين ما أنكروه علينا . ثم قد زاد ، وأعلى . ذلك : أنهم حكوا أنه قال : « لم آت لأصلح أهل الأرض ، لم آت لأصلحهم » وظاهر هذا : انما جاء بفساد أهل الأرض .

وهذا لا يصح أن يقوله عيسى عليه السلام ، ولا غيره من الأنبياء ، وهو من كذبهم وتحريفهم . وقد قدمنا ذلك فيما سبق . ومن العجب أنهم يقولون : أن ملة المسيح ، وشريعته لم تأت بقتال ويتمدحون بأنها لم تظهر بقتال ، وانما ظهرت بما ظهر على أيدي الحواريين من العجائب . وهم مع ذلك يعترفون بمحاربة « قسطنطين » وبمقاتلته من خالفه . وأنه الذى تلقيت عنه الشريعة الصليبية . فانه أرى في النوم صورة الصليب . وقيل له : بهذا تنصر . ففعله ، واعتقده ، وقاتله . فنصر .

وأعجب من ذلك تلبسهم بالقتال ، والاكتثار منه أبد الدهر الى اليوم ، وهم مع ذلك يدعون : أن القتال غير مشروع لهم ، ويذمون الشريعة التى جاءت به ، فهم قد ناقضت أفعالهم أقوالهم ، وشهدت على كذبهم أحوالهم . ثم نقول لقسطنطين ، ولجماعة النصارى المقاتلين :

قتالكم من خالفكم . لا يخلو اما أن يكون مشروعاً لكم ، أو غير مشروع لكم . فان كان مشروعاً لكم . فلاى معنى تخالفونا في ذلك ، وتذموا شرعنا لأجاءه ، وان لم يكن مشروعاً لكم فلاى معنى تركتم شرعكم ، وفعلتم خلافه ؟

وكيف حل لكم ذلك ؟ فأنتم بين أمرين قبيحين عليكم : اما أن تعترفوا بأن قتال الأعداء جائز حسن ، فلا تذموا شرعنا لأجله ، واما أن تعترفوا بأنه غير جائز وقبيح فيلزمكم التناقض والسفاهة والخروج عن شريعة المديح . فأنتم على المثل السائر : « أعور بأى عينيه شاء » .

فان قالوا : انما نقتصر بالقتال لأنفسنا ، ونمتنع ممن يريد به ظلمنا . قلنا : ومن شرع لكم ، أن تنتصفوا ممن ظلمكم ، أو تنتصروا لأنفسكم ؟ بل قد حكيتم في انجيلكم أنه قال لكم : « احفظوا أعداءكم واکرموا من أساء إليكم . فان لم تحفظوا الا اخوانكم ، فما أجرؤكم على ذلك » .

وهذا نص على أنه ينبغي لكم أن تستسلموا عن قاتلكم ، ولا تنتصروا ممن ظلمكم . فان لم تفعلوا ذلك فقد تركتم شرعكم ، واستهنتم بسنة نبيكم . ثم يلزمكم على ذلك : أن تعترفوا بأن شرعكم ناقص اذ قد بين لكم نبيكم ، بعض المصالح ، وترك بعضها ، وهو القتال ، الذي باستدركتموه بنظركم من حيث كان ضروريا ومحتاجا اليه ، وتعترفوا بكمال الشرع الذي جاء بالقتال ، الذي هو شرعنا .

وعند هذا يتبين فساد قولهم : ان الحكم حكمان ، لا ثالث لهما ، ويفسد عيهم علينا القصاص . وذلك أنهم يزعمون : أن حكم التوراة : يقتضى القصاص ، وحكم الانجيل : يقتضى العفو . ثم زعم ذلك الجاهل أن لا حكم ثالث . ولم يشر بثالث متوسط ، هو أكملهما وأتمهما ، وهو الحكم الفرقاني ، حيث قال الله العظيم : « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصّابرين » (١) وقال : « ولن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » (٢) وقال تعالى : « ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (٣) .

ثم العجب من هؤلاء الجاهل . كيف يذمون شريعتنا ، ويكذبونها من حيث انها تضمنت القصاص ، ويؤمنون بشريعة موسى ، وقد صرحت بالقصاص ؟ فيلزمهم على قولهم : أن يكذبوا بشريعة موسى ويذموننا من ذلك الوجه .

ثم أعجب من ذلك كله : مدحهم شريعتهم من حيث كانت مبنية على العفو والصفح ، ثم مع ذلك أبوا أن يجوزوا عفو الله تعالى عن « آدم » ، حين أكل من الشجرة ، حتى قالوا : ان جميع بني آدم

كانوا مرتين بمعصية أبيهم حتى فداهم « المسيح » بنفسه . بل لم يتصور عندهم عفو الله ، حتى انتقم من « اله » مثله . تعالى الله ، وتقدس عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

فعلى هذا نقول لهم : لا يخلو العفو من أن يكون هو الأولى مطلقا ، أو الانتقام هو الأفضل ، أو الحالة الثالثة . فان كان العفو هو الأولى ، فلم لم يعف الله تعالى عن « آدم » من غير أن يعاقبه وبنيه على ما زعمتم ؟ وان كان الانتقام هو الأولى ، فلم لم ينتقم من « آدم » وبنيه مطلقا ؟

فلم يبق على هذا الا أن الأولى : هو الحالة الثالثة ، وهو الانتقام في حال من مستحقه ، والعفو في حال أخرى عن مستحق العقاب تفضلا وتكرما ، حسب ما يريد به البارئ تعالى .

وعلى هذا المنهاج الشديد ، والأمر الرشيد جاءت شريعتنا . فهي كاملة متممة ، والحمد لله . ثم اذا كان العفو هو الأولى والأفضل . ويه جاءت شريعتكم ، فلأى معنى تتركون شريعتكم الأولى ؟

فقد اعترفتم بالسننكم ، وتناقضتم بأفعالكم . وكم لكم منها وكم . وأما اعتراضه على شرعنا بتحليل نكاح الكثير من النساء ، فذلك مالا ينبغى أن ينكره أحد من العقلاء . فانه من مجوزات العقول . وقد ورد بذلك الشرع الصادق المنقول . ثم قد ورد عن جماعة من الرسل ، وقد جاءت بذلك الكتب . ألم يجيء في التوراة أن « ابراهيم » كانت له « سارة » و « هاجر » وكذلك ورد فيها : أن يعقوب جمع بين أختين « ليئة » و « راحيل » وقد ثبت أيضا : أن سليمان كانت له مائة امرأة ، أو تسعة وتسعون . بل قد روى في الاسرائيليات : أنه كان له ثلاث مائة امرأة حرة ، وسبع مائة سريّة (١) .

فان كذبتم شرعنا لأجل أنه اشتمل على جواز نكاح نساء كثيرة . فلتكذبوا بنبوة « ابراهيم » و « يعقوب » و « سليمان » . ولا فرق بين نبينا وبين هؤلاء الأنبياء في : أن كل واحد منهم رسول الله يبلغ

حكم الله • فما لكم تنكرون ما بعثه تعترفون ، وتكذبون عين ما تصدقون •
فلعل المعتوه ، الذي لا يعرف ما به يقوه •

ثم لا ينكر عاقل حكمة الله تعالى في شرعية كثرة النساء • اذ
مقصوده بذلك : انما هو تكثير النسل ، وعمارة الدنيا بالذري ،
ليكثر الصالحون ، لما أراد الله بهم من الكرامة ، وليكثر الطالحون ،
لما أراد الله بهم من العقوبة والتعذيب ، ولتنفذ على خلقه احكامه ،
وتجرى عليهم اقداره « لا يستل عما يفعل ، وهم يستلون » (١) •

وأما اعتراضه بالطلاق ، ورد المطلقات • فقد تقدم ذكره على
أوضح المقالات ، وأضيفا في الجواب على أحسن الغايات ، فلينظره من
أراد في باب النبوات •

وأما اعتراضهم على اعتقادنا : أن الله يهدي من يشاء ، ويضل
من يشاء • فقد قدمنا فيه قولاً كافياً • ولكننا مع ذلك نؤيده ايضاحاً •
فتسول :

قد قام الدليل القاطع ، والبرهان الصادع : على أن الله تعالى
مضرد بخلق الموجودات ، ومريد لكل الحادثات ، لا يخرج عن قدرته
ممكن ، ولا يشذ عن ارادته حادث • والهدى والضلال من الحوادث ،
فاذن هما مستقدان اليه ، وموجودان بارادته ، وتحقيق هذا البرهان :
يعرف في موضعه •

ثم نقول : لا يشك عاقل أن الهدى والضلال ، وما في معناهما
أمر محدث ، وأفعال موجودة ، بعد أن لم تكن ، وكل فعل محدث ،
فلا بد له من فاعل محدث بالضرورة ، ففاعل الهدى والضلال ، وظالقهما
اما أن يكون الله سبحانه ، أو غيره • محال أن يكون غير الله لاستحالة
وجود خالقين • ويلزم منه : امتناع الخلق — كما قدمنا حين ذكرنا
دلالة التمانع — فلم يبق الا أن يكون الفاعل هو الله تعالى • اذ لا خالق
الا هو ، ولا مبدع سواه •

ثم نقول للنصارى : طلب المسيح وقته • اما أن يكون ضلالاً •
واما أن يكون هدى • ومحال أن يكون هدى ، فانكم تكفرون من فعل ذلك ،

وتضلّلونهم • ولأجل ذلك الفعل حاق الغضب ، وحاقت اللعنة على اليهود ، بزعمكم • فلم يبق الا أن يكون ضلالا •

وإذا كان كذلك فقد لزمكم أن الله فعل الضلال • فانكم قد صرحتم بأن الله انما فعل ذلك لأجل خطية « آدم » ، ولم يرد الله أن ينتقم من « آدم » ، ولا من أحد من ولده • وانما أراد أن ينتقم من « اله » مثله • فقد صرحتم ونصصتم : أن الله تعالى أراد الضلال وفعله على أقبح ما سمع ، وأشنع ما به يتحدث • ثم انا لا ندرى مما يكون التعجب أكثر ؟ ان كان من ذهاب عقولكم ، أو من جهلكم بكتبكم •

فأما نقص عقولكم فانكم تقولون أقوالا تتناقضون فيها ، ولا تشعرون ، وتلتزمون ضروبا من الحالات ، وتنتكرون أمورا جائزات — كما قدمنا آنفا ، ولم نزل نبين ذلك من أول كلمة من هذا الكتاب الى آخره — •

وأما جهلكم بكتبكم • فقد جاء في كتابكم نصا ، هذا المعنى الذى أنكرتموه علينا • وذلك أن عيسى قال حين دنا أجله : « يا أبتاه •• أنك قادر على جميع الأشياء فزح عنى هذه الكأس • ولكن لست أسألك أن تفعل مشيئتى ، بل مشيئتك » (١) وهذا نص على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يفعل ما يريد ، وأنه أراد صلب « المسيح » بزعمكم • وكان ضلالا لليهود بلا شك •

فما لكم تخبطون • وعن كتبكم تعرضون • بل أنتم عن عقولكم مصروفون ، وفى ورطة الجهل مرتبكون • وفى بحبوحة الضلال عمهون • فلقد صدق الذى قال : اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضلال • والكلام على الهدى والضلال ، والطبع والختم ، يستدعى تطويلا ، وشرحا وتفصيلا • ومن طلبه وجده إذا ساعده التحقيق ، ورافقه التوفيق •

وقد حصل غرضنا من مكالمة هؤلاء ، وإفحامهم • والحمد لله • وأما قوله ، ودعواه : انا وصفنا البارئ تعالى بالجور والقساوة والظلم ، فعلى المثل السائر : « رمئى بدائها ، وانسلت » •

أما نحن • فننزه الله تعالى عن كل ما ذكر ، ولا نقول بقوله يؤدي إلى ذلك • وكيف يصح في حقه تعالى الظلم ، والجور • وهو انما يتصرف في ملكه • وملكه (١) • وخلقه • ولا يجب عليه لأحد من خلقه حق • بل هو متفضل بكل ما يفعل ، وانما يتصور الظلم والجور ، في حق من تصرف في ملك غيره ، أو عدل عن فعل ما وجب عليه • وهذا كله في حق الله تعالى محال •

وانما يلزم وصفه بالظلم والجور والقساوة لمن قال : ان « آدم » عصاه ، ثم جعل ذنبه على جميع ولده ، ثم لم يقنع بشيء من دمائهم ، بل ولا من دمائهم كلهم ، حتى انتقم من « اله » مثله ، وأجرى دمه على خشبة الصليب • فهذا ظلم من حيث حمل الذنب من لم يفعله ، وجور من حيث قتل الها ، لأجل لقمة من شجرة ، أكلها غيره • وقساوة من حيث قتل ولده وحبيبه في عبده العاصي عندكم • ولم يعف •

نعوذ بالله من هذه القبائح • ومن التزام هذه الفضائح ، وتتبع جهالات الجاهل • بكل معقول العقال •

على أن كلام هؤلاء القوم ، لا يستحق أن يسمع ، اذ ليس لهم في العقول مطمع ، ولكثرة فساد كلامهم ، يحار التحرير الناظر في هذيانهم ، فيظل متعجبا ، وينشد متمثلا :

تفرقت الأطباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد

وأنا أكرر الاستغفار من حكايات كلامهم ، وأسأله النفع باظهار فساد مرامهم • ومع ذلك فقد أصبنا منهم غرضا • وصادفنا منهم مقتلا • ولئن زادوا ، زدنا • وان عادوا ، عدنا •

ان عادت العقرب عدنا لها وكانت النمل لها حاضرة



وينبغي أن نختم الكتاب بدعاء مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلعل الواقف على كتابي هذا ، يؤمن عند خاتمته ، وعسى الله أن يشركنا في صالح دعوته •

فلقول : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ، ما تحول بيننا ، وبين
مناصيك . ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك . ومن اليقين ما تهون به علينا
مصائب الدنيا . ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا . واجعله
الوارث منا . واجعل ثأرنا على من ظلمنا . وانصرنا على من عادانا .
ولا تجعل مصيبتنا في ديننا . ولا تجعل الدنيا أكبر همنا . ولا مبلغ
علمنا . ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » آمين . آمين .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد سيد المرسلين ،
وسلام عليه ، وعليهم في العالمين ، وعلى صحبه أجمعين ، وعلى التابعين
لهم بأحسن الى يوم الدين .

* * *

نجز الكتاب المبارك بحمد الله وعونه ، وحسن توفيقه على يد
العبد الفقير ، الى الله تعالى : على بن محمد بن عانبة . الفيومي نسباً .
والشافعي مذهباً . حامداً لله ، ومصلحاً ، ومسلماً ، على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، في سابع عشرين
شهر ربيع أول سنة تسع وسبعين وثمانى مائة .

* * *

قال في أصل النسخة : وكان الفراغ منه ضحوة سادس شهر
شعبان سنة ست وعشرين وسبع مائة بدمشق المحروسة ، والحمد لله
رب العالمين .

* * *

تم الجزء الرابع من كتاب « الاعلام بما في دين الفصاري من الفساد
والأوهام . واظهار محاسن دين الاسلام . واثبات نبوة نبينا محمد عليه
الصلاة والسلام » وبتمامه تم الكتاب كله . بعون الله . وكان الفراغ من
تحقيقه والتعليق عليه والتقديم له في يوم السبت العشرين من شهر شوال
سنة ثمان وتسعين وثلثمائة وألف من الهجرة الموافق الثالث والعشرين من
شهر سبتمبر سنة ألف وتسعمائة وثمان وسبعين من الميلاد . في مدينة القاهرة .

ملحق

في تقديمنا لهذا الكتاب تحدثنا في بحثين اثنين هما ١ - الأتانييم
٢ - والمسيا المنتظر - بفتح الميم وكسر السين وتشديد الياء مفتوحة -
ومع كتابتهما كتبت بحثاً ثالثاً عن « مبادئ النصرانية » ورأيت أن
أضعه في نهاية الكتاب كملحق لأن فهمه يتعسر على القارئ أو السامع
إلا لم يقرأ قبله الباحثين وكتاب « الاعلام » هذا ، أو كتباً فيها ما يساعد
على الفهم . « وعلى الله قصد السبيل » (١) .

د . أحمد حجازي السقا

البحث الثالث

مبادئ النصرانية

أى سفر من أسفار الكتب المقدسة عند النصرارى يمكن أن تظهر لنا منه بوضوح مبادئ النصرانية ؟

ليس غير سفر أعمال الرسل ، المسمى باللغة اليونانية : « الأبركسيس » فان هذا السفر الموضوع بعد الأناجيل الأربعة لا يحكى فقط عن نمو الجماعة النصرانية الأولى ، بل يحكى للناس جميعا : كيف اتفق بطرس وبولس ويعقوب ومن نحا نحوهم فيما ذهبوا اليه على تغيير دعوة المسيح عيسى ابن مريم — عليه السلام — الأصلية . وقبل أن نبين ما اتفقوا عليه نقول أولا : لماذا اتفقوا على ما ذهبوا اليه ؟ هل « حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١) كما فى القرآن الكريم .

انهم يعلمون علم اليقين من أ — توراة موسى عليه السلام (الأسفار الخمسة) ب — ومن أسفار الأنبياء الذين ظهروا من بعد موسى عليه السلام ، يعلمون أن نبيا سيظهر للعالم (٢) . قال عنه بطرس : « فان موسى قال للآباء : ان نبيا مثلى سيقم لكم الرب الهكم من اخوتكم . له تسمعون فى كل ما يكلمكم به . ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب » (أ ع ٣ : ٣٣ — ٣٣) وهذا النبى يعلمون : أنه ليس عيسى عليه السلام ، لأنه من بنى اسرائيل ؛ ولو كان النبى الآتى من بنى اسرائيل لقال : « من أنفسكم » ، ولأنه ليس مماثلا لموسى فى ١ — الحروب ٢ — والمعجزات ٣ — والانتصارات على الأعداء (تث ٣٤ : ١٠ — ١٢) : فان الذى لم يسمع لكلامه : لم يبده الرب من الشعب على يديه ، كما أبادهم على يد نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم .

(١) البقرة : ١٠٩

(٢) انظر الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية ، وسفر التثنية من

الأسفار الخمسة .

وهذا النبي يعلمون أنه سيكون ناسخا لشريعة موسى عليه السلام
فإن من أوصافه : « له تسمعون في كل ما يكلمكم به » لقد اتفقوا على
استبدال نبي بنبي • نبي تحدث عنه نبوءات التوراة وهو : « محمد »
صلى الله عليه وسلم بنبي لم يرد له ذكر في أى سفر وهو « عيسى »
عليه السلام • وفي سبيل ذلك لا بد من أن يتفادوا أمرين اثنين لا
ثالث لهما : الأول : النبوءات التى تحدثت عن محمد صلى الله عليه
وسلم • والثانى : الشريعة التى سيبلغها النبي المنتظر للناس عن
أمر الله عز وجل ، مناسبة للزمان الذى سيظهر فيه • فماذا قالوا لتفادى
هذين الأمرين ؟

قالوا : ان النبوءات يجب أن تطبق على عيسى عليه السلام •
وقالوا : نعمل شريعة جديدة فيها من تعاليم موسى وفيها من تعاليم
الرومانيين ، وننسبها الى عيسى عليه السلام • وكيف ينسبوننا اليه
وقد رفع الى السماء وهو لا يعلم عنها شيئا ؟ هذا اشكال اعترضهم •
ولكنهم تفادوه أيضا بزعمهم : أن عيسى عليه السلام نزل من السماء
بعد سنين من رفعه اليها وقابل « بولس » وهو منطلق الى مدينة
« دمشق » في « رؤيا » وقال له : يا بولس انطلق باذنى وأمرى بدعوتى
الى ١ — أمم ٢ — وملوك ٣ — وبني اسرائيل • وتسوا أن يبينوا
ما هى الدعوة الجديدة التى لقنها عيسى لبولس ، ما بينوا قط لأن
الظاهر من رسائل بولس أنه يدعو بدعوة من تلقاء نفسه ، ويشعر
للناس ما استحسنة من تلقاء نفسه ، وينصح تلاميذه بما يصلح المدة
والبطن • وخلاصة دعوته فى هذه العبارة : « الدعوة التى دعى فيها
كل واحد ، فليلبث فيها » (١ كور ٧ : ٢٠) أى اذا دعى اليهودى الى
النصرانية وقبل الدعوة فليعمل بحسب شريعته التى درج عليها وهى
شريعة موسى • واذا دعى اليونانى الى النصرانية وقبل الدعوة فليعمل
بحسب قوانين بلاده التى تحكم المواطنين وبحسب العادات والتقاليد
التي درج عليها • • • وهكذا • يكون اسم النصرانية كمظلة على رؤوس
الكل • والناس أحرار فى أعمالهم تحت المظلة • ثم قال على سبيل
« الاذن » : « أقول لغير المتزوجين وللراجل : انه حسن لهم اذا لبثوا
كما أنا • ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا ، لأن الزوج أصلح
من التفرق • وأما المتزوجون فإوصيهم لا أنا ، بل الرب : أن لا تفارقا
الحياة وجليا • وان فارقته فليلبث غير متزوجة أو لتصلح رجلها »

ولا يترك الرجل امرأته • وأما الباقيون فاقول لهم أنا • لا الرب :
ان كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي تترضى أن تسكن معه ، فلا
يتركها ••• الخ » (كورنثوس الأولى : ٧) •

ومن نصائحه لتيموثاوس في رسالته الأولى اليه : « لا تكن في
ما بعد شراب ماء ، بل استعمل خمرًا قليلًا من أجل معدتك وأسقامك
الكثيرة » (تيمو : ٥ : ٢٣) •

* * *

وليلحظ ما نبديه الآن وهو :

أن دعوة موسى عليه السلام في أصلها كانت لبنى اسرائيل ،
ومعاصريهم من الأمم • فان موسى طلب من فرعون الايمان بالله رب
العالمين ، وعدم العلو عليه • وموسى حث بنى اسرائيل بعد الخروج
من مصر على فتح البلاد لنشر الايمان والعمل بالشرعية وبين لهم أن
الجنة تحت ظلال السيوف • كما بين نبى الاسلام وعيسى عليهما السلام
للاتباع الصادقين • ففي القرآن الكريم يقول الله عز وجل : « ان الله
اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل
الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن »
(التوبة : ١١١)

وأن دعوة موسى — عليه السلام — حرفها « عزرا » في مدينة
« بابل » من بعد سنة ٥٨٦ ق • م ومن التحريف الذى أقره فيها :
أن تكون دعوة موسى — عليه السلام — لبنى اسرائيل من دون الناس •
ولما ظهر عيسى عليه السلام وبخ علماء بنى اسرائيل على تقصيرهم
في دعوة الأمم في قوله : « ويل لكم أيها الناموسيون • لأنكم أخذتم
مفتاح المعرفة • ما دخلتم أنتم • والداخلون منعتموهم » (لو : ١١ : ٥٢)
ثم قال لتلاميذه :

١ — انطلقوا أولا بالضرورة الى بنى اسرائيل بالدعوة •

٢ — ثم ثانيا بعد أن يعلم ويفهم جميع بنى اسرائيل انطلقوا
الى الأمم •

قال متى عن الأمر الأول والثانى : « هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم
يسوع وأوصاهم قائلا : الى طريق الأمم لا تمضوا والى مدينة

للسامريين لا تدخلوا • بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة • وفيما انتم ذاهبون اكرزوا قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ١٠ : ٥ - ٧) •

وقال متى عن الأمر الأول والثانى : ان امرأة من نساء الكنعانيين : اهل فلسطين ، طلبت من المسيح أن يشفى ابنتها من الجنون « فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرها • لأنها تصيح وراءنا • فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة • فأنت وسجدت له — أى أعطته التحية — قائلة : يا سيد : أعنى • فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين وي طرح للكلاب • فقالت : نعم يا سيد • والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها • حينئذ أجاب يسوع ، وقال لها : يا امرأة • عظيم ايمانك • ليكن لك كما تريدان ، فشفيت ابنتها من تلك الساعة » (متى ١٥ : ٢١ - ٢٨) باستثناء تشبيه الأهم بالكلاب فى هذا النص ومستبعد أن يحدث هذا التشبيه من المسيح صاحب الخلق الرفيع — فانه نص فى دعوة الأهم بعد ما يفهم الدعوة بنو اسرائيل الذين يشبهون الخراف الضالة فى فلاة من الأرض بسبب القواء علماء بنى اسرائيل فى تعليمهم •

وقال متى عن الأمر الثانى : ان المسيح بعدما رفع الى السماء ، نزل ثانية الى الأرض وكلمهم قائلا : « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم » (متى ٢٨ : ١٩) •

وانطلاق التلاميذ الى الأمم — حسب كلام المسيح نفسه — على النحو التالى :

١ — أن تؤمن الأمم بالاله الواحد ، المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص ، الذى لا يرى ولا يقدر أحد أن يراه وليس كمثله شئ • كما نص كتاب موسى عليه السلام •

٢ — أن تعمل الأمم بشريعة موسى عليه السلام •

٣ — أن يعلموا أن نبيا من العرب سيظهر لينسخ شريعة موسى • هو محمد صلى الله عليه وسلم •

٤ — وعلى الأمم اذا ظهر هذا النبى العربى أن يتركوا العمل بشريعة موسى وأن يعملوا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم •

ولكن بطرس وبولس ويعقوب وأتباعهم غيروا كلام المسيح نفسه .
وجعلوا النصرانية ديناً عالمياً لا على كلام المسيح السابق ذكره بل
على أن عيسى هو كان النبي المنتظر ، وما عرفوا أنه هو الا بعد قتله
وصلبه كما يزعمون ، وعلى أن الانجيل شريعة يجب التعبد على أحكامها .
وعلى أن عيسى خاتم النبيين ولا نبي من بعده الى يوم القيامة .

وغير خاف مما قدمنا على ذى بصيرة أنهم اتفقوا لكرهيتهم للعرب
أبناء اسماعيل عليه السلام أن يخضعوا لأحكامهم ، وأن لا يكون لهم
فضل في دولتهم ، والا لماذا تفادوا مجيء النبي الآتى منهم من قبل
مجيئه ، وطبقوا النبوءات على واحد من بنى اسرائيل ؟ لقد فكر اليهود
في عالمية الدعوة ثانيا في شكل النصرانية ليكسبوا أنصارا جددًا يقاومون
بهم العرب اذا ظهر النبي منهم وانضم حوله الاتباع من كل جنس .
ولأنهم يخزون اذا رجعوا الى الأصل ، تظاهر منهم من تظاهر بالاخلاص
للمسيح وعملوا العالمية في شخصه لأنه منهم وأتباعه بالضرورة سيكونون
اليهود « بعضهم أولياء بعض » (المائدة : ٥١) لأن الاناجيل مبنية
على كتاب التوراة وأسفار الأنبياء .

ولنبين الأمرين هنا فنقول :

أولا — النبوءات :

يحكى هذا السفر أن بطرس تلميذ عيسى عليه السلام الذى لما
نصحه بعدم دخول اورشليم خوفا عليه من اليهود « التفت وقال
لبطرس : اذهب عنى يا شيطان . أنت معثرة لى . لأنك لا تهتم بما لله ،
لكن بما للناس » (متى ١٦ : ٢٣) بطرس هذا هو أول من خطب في
النصارى وكان عدتهم يومئذ « نحو مئة وعشرين » مبينا أن نبوءات
التوراة وأسفار الأنبياء يجب أن تطبق على عيسى عليه السلام حتى
لا ينتظر الناس نبيا من بعده سواء كان آتيا من اليهود — كما يدعى
اليهود — أو كان آتيا من بنى اسماعيل كما يقول العرب وعيسى
ابن مريم نفسه (أعمال ١ : ٢٠) .

وفي الخطبة الثانية لبطرس وهى في الاصحاح الثانى من هذا
السفر يواجه اليهود بأن داود عليه السلام قال في سفر الزبور عن
النبي المنتظر : « ان الله سيضع أعداءه تحت قدميه ، ونحن نعلم أن

عيسى لم يضع أعداءه تحت قدميه فكيف نطبق هذه النبوءة عليه ؟
 قال بطرس : لنقل ان عيسى لم يمت • لنقل انه وان رفع ما يزال حيا ،
 ولسوف يرجع ليحارب أعداءه وينتصر عليهم ويضعهم تحت قدميه •
 والدليل على أنه حي : أنه لما قتل ووضع في القبر ردت إليه الروح
 وانتصر على الموت وصعد الى السموات العلى ومن كان شأنه هكذا
 فلا يستبعد منه الرجوع ثانية الى الدنيا ليدين الأحياء والأموات •
 وما يزال النصراني الى اليوم يعتقدون في نزول المسيح لينتصر على
 أعدائه ، ويزعمون أنه في غيبة والملك له سيرجع كما كان ملك داوود
 وسليمان عليهما السلام في الزمان القديم • لقد عقد مقارنة بين داوود
 وعيسى في أمرين اثنين هما ١ — الملك ٢ — والموت فقال : كان داوود
 ملكا ومات • وقبل موته تنبأ عن عيسى الذي سيكون ملكا قبل موته
 أى موت عيسى • وحيث ان عيسى مات من قبل أن يكون ملكا • اذن
 هو في « غيبة » وسيرجع حسب تنبوء داوود نفسه • ولقد كذب
 بطرس والحاكي عن بطرس بشهادة المسيح نفسه • ذلك لأن بطرس
 استدل بقول داوود عن النبي المنتظر : « قال الرب لربي : اجلس عن
 يميني حتى أضع أعدائك موطئا لقدميك » زاعما أن داوود يشير الى
 عيسى عليه السلام ، مع أن عيسى عليه السلام — كما سبق أن بينا — قال :
 ان الذي يشير اليه داوود ليس من اليهود عموما لأنه عبر عنه بسيد
 والابن لا يكون سيدا لأبيه وفي هذه الخطبة جهر بطرس بأن عيسى
 عليه السلام « ربا ومسيحا » من قبل أن يجهر بولس • ومن كلام
 بطرس في هذه الخطبة : « أيها الرجال الاخوة يسوع أن يقال لكم
 جهارا عن رئيس الآباء داوود : انه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا
 اليوم • فاذا كان نبيا وعلم أن الله حلف له بقسم : أنه من ثمرة صلبه
 يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه ، سبق قرأى وتكلم
 عن قيامة المسيح : أنه لم تترك نفسه في الهاوية ولا رأى جسده
 فسادا • فيسوع هذا أقامه الله ونحن جميعا شهود لذلك • واذا ارتفع
 بيمين الله وأخذ موعد الروح القدس من الآب ، سكب هذا الذي
 تبصرونه وتسمعون • لأن داوود لم يصعد الى السموات • وهو
 نفسه يقول : قال الرب لربي : اجلس عن يميني حتى أضع أعدائك
 موطئا لقدميك • فليعلم **جميع** بني اسرائيل : أن الله جعل يسوع
 هذا الذي صليتموه أنتم ربا ومسيحا » الخ •

وفي الخطبة الثالثة لبطرس وهي في الاصحاح الثالث من سفر الأعمال ، يطبق كلام موسى في الأسفار الخمسة عن نبي الاسلام على الله عليه وسلم على عيسى عليه السلام . يقول لليهود : « لقد قام عيسى من الأموات وغاب عن الدنيا ، وسيرجع ليملك عليكم وعلى العالم ويؤسس مملكة لن تنقرض أبدا . ولماذا لا يرجع وموسى وعد بنبي على مثاله ليس هو غير يسوع المسيح » ؟ ولقد كذب بطرس والحاكي عن بطرس فان موسى لما وعد بنبي على مثاله قال أيضا : « لن يكون مثلي في بنى اسرائيل » فكيف يكون المماثل لموسى يسوع المسيح وهو من بنى اسرائيل ؟ ومن كلام بطرس في هذه الخطبة : « والان أيها الاخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما رؤساؤكم أيضا . وأما الله فما سبق وأنبا به بأفواه جميع أنبيائه : أن يتألم المسيح قد تممه هكذا . فتوبوا وارجعوا لتمدحى خطاياكم لكي تأتى أوقات الفرج من وجه الرب ، ويوسلك — أى الله — يسوع المسيح ، المبشر به لكم قبل ، الذى ينبغي أن السماء تقبله الى أرضه رد كل شيء التى تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر . فان موسى قال للرب : ان نبيا مثلى سيقوم فحكم الرب الهكم من اخوتكم . له تسمعون فى كل ما يكلمكم به . ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب وجميع الأنبياء أيضا من صموئيل فما بعده ، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنباوا بهذه الأيام . أفتم أبناء الأنبياء والمهد الذى عاهد به الله آبائنا قائلا لابراهيم : وبمسلك تتبارك جميع قبائل الأرض » الخ .



لقد تعسف بطرس في تأويل النبوءات تعسفا ممقوتا خرج به عن الواقع الحقيقى . فمن ذا الذى يصدق أن عيسى بعد قتله دخل النار ثم خرج من النار حيا ليجلس فى السماء . ومؤرخو القرن الأول للميلاد كتبوا أن عيسى لم يقتل ولم يصلب ؟ لقد تعسف بطرس ليطبق النبوءات على عيسى ، غير مبال بالحقائق التاريخية الثابتة . وغير مبال بالأوصاف التى تدل على النبى المنتظر من نص النبوءات . وغير مبال بسياق العبارات ليربط النبوءة بما قبلها وبما بعدها من التعابير . وأيضا غير مبال بالمحكم والمتشابه في نصوص التوراة والانجيل . ولكي يمرر النصارى خطوه الممد وغلطه وتناقضه : ادعوا أنه كان من الغوام الأميين غير الدارسين وأنه ما قال بما قال الا بالمهام من الروح القدس .

غفى سفر الأعمال : « فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا ووجدوا أنهما إنسانان عديما العلم ، وعاميان تعجبوا . فعرفوهما أنهما كانا مع يسوع » (أع ٤ : ١٣) .

وفي الخطبة الرابعة لبطرس وهي في الاصحاح الرابع من سفر الأعمال يعمد الى تطبيق نبوءة قالها داوود عليه السلام عن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم ، يعمد الى تطبيقها على عيسى عليه السلام متجاهلا أن عيسى نفسه — كما روى متى — لم يطبقها على نفسه بل طبقها على نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم .

يحكى الكاتب أن بطرس شفى رجلا أعرج ، ولما استدعاه رؤساء اليهود ليسألوه : بأية قوة وبأى اسم صنعت هذا ؟ « قال لهم : يا رؤساء الشعب وشيوخ اسرائيل : ان كنا نفحص اليوم عن احسان الى انسان سقيم ، بماذا شفى هذا ؟ فليكن معلوما عند جميعكم وجميع شعب اسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصرى الذى صلبتموه أنتم ، الذى أقامه الله من الأموات . بذاك وقف هذا أمامكم صحيحا . هذا هو الحجر الذى احتقرتموه أيها البنائون الذى صار رأس الزاوية » (١) الخ

انظر . لقد قال لهم ان عيسى ابن مريم « هو الحجر » فما قصة هذا الحجر ؟

* * *

تبدأ قصته من النبي داوود عليه السلام فقد نطق نبوءة عن النبي المنتظر المماثل لموسى عليه السلام في المزمور المئة والثامن عشر بين فيها أن النبي المنتظر سيتألم من أعراض الناس عن دعوته ولكن الله لن يسلمه الى أيدي أعدائه ليقتلوه . وأن هذا النبي سيرفضه اليهود لأنه من غير جنسهم ، انه من نسل المصرية هاجر جارية ابراهيم عليه السلام ، ونسلها لا قيمة له في نظر اليهود كالحجر الذى يرفض البنائون وضعه في البناء . وأن هذا النبي سيكون مباركا من قبل الله . ومن عبارات داوود : ١ — الاحتماء بالرب خير من التوكل على انسان . الاحتماء بالرب خير من التوكل على الرؤساء . كل الأمم خاطوا بى . باسم الرب أبيدهم . خاطوا بى واكتفوني . باسم الرب أبيدهم .

(١) انظر ايضا الرسالة الاولى لبطرس : الاصحاح الثالث .

أحاطوا بى مثل النحل • انطفأوا كثار الشوك • باسم الرب أبيدهم »
٢ — « افتحوا لى أبواب البر : أدخل فيها وأحمد الرب • هذا الباب
للرب • الصديقون يدخلون فيه • أحمدهم لأنك استجبت لى ، وصرت لى
خلاصا • الحجر الذى رفضه البنائون قد صار رأس الزاوية • من
قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا » ٣ — « مبارك الآتى باسم
الرب » •

وفى انجيل متى ومرقس ولوقا نجد عيسى ابن مريم عليه السلام
يقول لعلماء بنى اسرائيل : ان هذا النبى الذى يتحدث عنه داوود سيأتى
من بعدى وسيستسلم الملك منكم والشريعة • ولما اغتاظوا منه لذلك
وأرادوا قتله خافوا من ثورة العامة عليهم لأنهم كانوا يحبون المسيح •
قال المسيح : انكم يا بنى اسرائيل كعمال فى حقل ائتمنكم صاحبكم
عليه ، ولما أرسل اليكم ليحاسبكم قتلتم المرسلين وأهنتوهم • وما
جزاء من يفعل ذلك الا أن تسحب منه الثقة الى غيره ليقوم ذلك الغير
بالعمل وأداء الحق • ولما قال ما معناه هذا قال له العلماء وقد فهموا
مغزى كلامه : « حاشا » أى لن يحصل لنا ذلك • « فنظر اليهم وقال :
لحقن ما هو هذا المكتوب : الحجر الذى رفضه البنائون هو قد صار
رأس الزاوية • كل من يسقط على ذلك الحجر يترضض ، ومن سقط هو
عليه يسحقه • فطلب رؤساء الكهنة والكتبة أن يلقوا الأيادى عليه فى
تلك الساعة ، ولكنهم خافوا الشعب • لأنهم عرفوا أنه قال المثل عليهم »
(لوقا ٢٠ ، متى ٢١ ، مرقس ١٢) •

لقد أشار بالمكتوب الى الزبور المئة والثامن عشر وطبقه حرفيا على
عيسى الاسلام صلى الله عليه وسلم وبين أنه لن يقتل كما قال داوود ،
ولأنه اذا قصد قوما بالحرب أهلكهم • واذا هم قصدوه أهلكهم • كالحجر
اللقى من ينطحه لا يؤثر فى الحجر بل يؤثر فى نفسه هو • واذا وقع
الحجر على شىء أثر فيه ، أما الحجر نفسه فلا يتأثر • ولم يكن بهذه
الصفة عيسى عليه السلام •

وفى انجيل متى ولوقا أيضا نجد المسيح يقول : سيأتى من بعدى
الذى قال عنه داوود : « مبارك الآتى باسم الرب » قال المسيح لعلماء
بنى اسرائيل : « هو ذا بيتكم — أى هيكل سليمان فى القدس — يترك
لنكم خرابا • والحق أقول لكم : انكم لا تروننى حتى يأتى وقت تقولون
فيه : مبارك الآتى باسم الرب » (لوقا ١٣ ، متى ٢٣) •

لقد تجاهل بطرس هذا كله • وزعم أن المقصود من كلام داوود عليه السلام هو عيسى عليه السلام • مخالفاً بذلك كلام عيسى نفسه • وما تدل عليه النبوة من الأوصاف •

ورجع بطرس الى النصارى الذين كانوا قد بلغوا يومئذ « نحو خمسة آلاف » ليتلو معهم نبوة أخرى من نبوءات داوود على نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم مفسرين لها تفسيراً لا تقره اللغة • هي نبوة « ابن الله » التي هي أصل أقنوم « الابن » عند النصارى • يقول داوود عليه السلام في المزمور الثانى : « لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل ، قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معا على الرب ومسيحه ... الخ » انه يبين فزع الأمم ، لا أمة واحدة • من النبى الآتى المماثل لموسى ، وأن الأمم ، لا أمة واحدة ، سيفكرون معا فى مقاومة دعوته ، وأن ملوك الأرض ، لا ملك أرض واحدة ، سيقومون متآمرين عليه لهلاكه • وانهم بمنأواً عنه يقاومون الله الذى سيرسله ومن أجل ذلك « الرب يستهزئ بهم » كما يقول داوود عليه السلام •

هذا هو معنى كلام داوود بحسب اللغة ، ولكن كاتب سفر الأعمال يروى التفسير هكذا : « أيها السيد — يخاطبون الله — أنت هو الاله الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، القائل بفم داوود فتاك : لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب بالباطل ، قامت ملوك الأرض واجتمع الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه • لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذى مسحته : هيرودس ، وبيلاطس البنطى ، مع أمم وشعوب اسرائيل » (أع ٤ : ٢٤ — ٢٦) • يريد أن يقول : أن هيرودس وبيلاطس الواليان على اليهود هما ملوك جميع الأرض • وهما رؤساء دول العالم فهل هذا صحيح ؟ ويريد أن يقول : أن شعب اسرائيل كله هو أمم العالم وشعوب العالم • فهل هذا صحيح ؟ أى تفسير أشد التواء من هذا التفسير ؟ ومع قوله هذا لم يسلم له انتصار النبى المنتظر • لأن نبوة داوود توضح أنه لن يقتل بيد أعدائه وقد صرحوا بقتل عيسى عليه السلام الذين جعلوه هدفاً للنبوءات • ولم يست له •

وفي الخطبة التي ألقاها بطرس في مدينة « قيصرية » أمام « كرنيليوس » وهي في الاصحاح العاشر من سفر الأعمال زعم أن النبي يحيى عليه السلام كان يبشر بمجىء عيسى عليه السلام ولم يكن يبشر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . قال يحيى عليه السلام : « يأتى بعدى من هو أقوى منى : الذى لست أهلا أن أنحنى وأحل سيور حذائه . أنا عمدتكم بالماء ، وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس » (مرقس ١ : ٧) ولم يكن عيسى من بعده بل كان معه . ودعا معه بنفس الدعوة التي دعا بها يوحنا المعمدان « النبي يحيى » دعوا معا بصوت واحد : « اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢ و ٤ : ١٧) زعم بطرس أمام « كرنيليوس » أن يسوع المسيح هو الذى قال عنه يوحنا : « يأتى بعدى من هو أقوى منى ... الخ » مع أن المسيح لم يكن أقوى من يوحنا ، كانا من الدعاة الفقراء ، ولم يكونا من الملوك الأغنياء . كانا من الأنبياء ، ولم يكونا من الانبياء الملوك كداوود وسليمان عليهما السلام .

« ففتح بطرس فاه . وقال : بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه ، بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده ، الكلمة التي أرسلها الى بنى اسرائيل يبشر بالسلاام بيسوع المسيح . هذا هو رب الكل . أنتم تعلمون الأمر الذى صار فى كل اليهودية مبتدئا من الجليل بعد المعمودية التي كرز بها يوحنا ، يسوع الذى من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة . الذى جال يصنع خيرا ويشفى جميع المتسلط عليهم ابليس ، لأن الله كان معه . ونحن شهود بكل ما فعل فى كورة اليهودية وفى اورشليم ، الذى أيضا قتلوه معلقين آياه على خشبة . هذا أقامه الله فى اليوم الثالث وأعطى أن يصير ظاهرا ، ليس لجميع الشعب ، بل لشهود سبق الله فانتخبهم . لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات ، وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله : ديانا للأحياء والأموات . له يشهد جميع الأنبياء : أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا » (أ ع ١٠ : ٣٤ - ٤٣) .

وقد اقتفى بولس أثر بطرس فى تطبيق النبوءات قسرا على المسيح ابن مريم عليه السلام . إذ أنه لنطلق الى بلاد العرب من

دمشق ثم رجع اليها ثم بعد ثلاث سنين صعد الى « أورشليم » ليتعرف ببطرس ، ومكث عنده خمسة عشر يوما ورأى يعقوب صديق بطرس وحوارى المسيح ورأى أيضا يوحنا وبرنابا (غلاطية ١ ، ٢) ورجع ليورد نفس الأفكار التى صرح بها بطرس ، لا يوردها في أورشليم وحدها ، بل في كل مكان تطؤه قدماه . ففى مدينة « انطاكية بيسيدية » دخل مجعما من مجامع اليهود — كما في الاصحاح الثالث عشر من سفر الأعمال — وشرح نبوءة يوحنا المعمدان كما شرحها بطرس ، وشرح أيضا نبوءة المزمور الثانى كما شرح بطرس . قال بولس : « أيها الرجال الاسرائيليون ، والذين يتقنون الله : اسمعوا . الله شعب اسرائيل هذا : اختار آباءنا ورفع الشعب في الغربية في أرض مصر . وبذراع مرتفعة أخرجهم منها . ونحو مدة أربعين سنة احتله عوائدهم في البرية ، ثم أهلك سبع أُمم في أرض كنعان وقسم لهم أرضهم بالفرعة . وبعد ذلك في نحو أربعمئة سنة وخمسين سنة أعطاهم قضاة حتى صموئيل النبى . ومن ثم طلبوا ملكا فأعطاهم الله شاول ابن قيس ، رجلا من سبط بنيامين أربعين سنة ، ثم عزله وأقام لهم داوود ملكا ، الذى شهد له أيضا اذ قال : وجدت داوود بن يسى ، رجلا حسب قلبى الذى سيصنع كل مشيئتى . من نسل هذا حسب الوعد أقام الله لاسرائيل مخلصا : يسوع . اذ سبق يوحنا فركز قبله مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب اسرائيل ولما صار يوحنا يكمل سعيه جعل يقول : من تظنون أنى أنا ؟ لست أنا اياه . لكن هو ذا يأتى بعدى الذى لست مستحقا أن أحل حذاء قدميه (١) .

أيها الرجال الاخوة بنى جنس ابراهيم ، والذين بينكم يتقنون الله : اليكم أرسلت كلمة هذا الخلاص ، لأن الساكنين في أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا .

وأقوال الأنبياء التى تقرأ كل سبت تمموها ، اذ حكموا عليه ، ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت طلبوا من بيلاطس أن يقتل ، ولما تمموا كل ما كتب عنه ، أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبره . ولكن الله أقامه من الأموات ، وظهر أياما كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل الى أورشليم ، الذين هم شهوده عند الشعب .

(١) انظر أيضا أول الاصحاح التاسع عشر من سفر الأعمال .

ونحن نبشركم بالموعود **الاول** صار لآبائنا : ان الله قد أكمل هذا لنا ، نحن أولادهم • اذ أقام يسوع كما هو مكتوب أيضا في المزمور الثاني : أنت ابني ، أنا اليوم ولدتك • الخ » •

وفي مدينة « دمشق » أيضا جهر بولس بأن يسوع المسيح هو ابن الله ، الذي تنبأ عنه داوود عليه السلام في المزمور الثاني ، وأن يسوع المسيح هو المسيا • تماما كما قال بطرس • زعم بولس أنه رأى المسيح في « رؤيا » وأن المسيح زجره ووبخه على اضطهاده لأتباعه ، وصرح له بأن ينطلق الى الأمم بالانجيل وأنه كما في الاصحاح التاسع من سفر الأعمال « جعل يركز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله ، فبهت جميع الذين كانوا يسمعون ، وقالوا : أليس هذا هو الذي أهلك في اورشليم الذين يدعون بهذا الاسم ، وقد جاء الى هنا ليسوقهم موثقين الى رؤساء الكهنة ، وأما شاول فكان يزداد قوة ، ويحير اليهود الساكنين في دمشق محققا : أن هذا هو المسيح » •



« كان تلميذ من تلاميذ المسيح اسمه « فيلبس » من القرية التي منها « بطرس » وهي « بيت صيدا » قال لصديق له : « وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس ، والأنبياء : يسوع ابن يوسف ، الذي من الناصرة » فرد عليه بقوله : « أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح ؟ ثم قال للمسيح : « يا معلم أنت ابن الله ، أنت ملك اسرائيل » (يوحنا ١ : ٤٤ - ٤٩) ففيلبس في محاولة جر رجل صديقه الى الايمان بدعوة المسيح زعم أن المسيح هو الذي تحدثت عنه الأسفار الخمسة وأسفار الأنبياء الذين ظهروا من بعد موسى • مع أن الأسفار الخمسة وأسفار الأنبياء لا تشير بكلمة واحدة الى يسوع المسيح لأنه من بنى اسرائيل ، ومستبعد من أنبياء بنى اسرائيل نسخ شريعة موسى ، فلماذا ينبه الله على مجيء نبي من بنى اسرائيل ؟ ان التنبية لازم على من يحق له نسخ شريعة موسى ، لأنها كلام الله في الأصل ولا يترك كلام الله الذي نشأت عليه أجيال الى من سيقول ان معنى كلام الله المناسب لزماننا هذا بسهولة ، لأن التصريح بنسخ شريعة ليس بالأمر الهين ، خاصة وأن الشريعة المنسوخة لليهود وأن الناسخ ليس منهم ، بل من جنس آخر هم العرب أبناء النبي اسماعيل عليه السلام • وصديقه يؤمن على

أساس أن المسيح هو ابن الله الذي أشار اليه داوود بظهر الغيب وبين في أوصافه انه سيكون رئيسا مطاعا ، أى ملكا • والمسيح لم يكن رئيسا ولا ملكا فقد قال : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ولم يقع كاتب الانجيل في هذا الخطأ وحده ، وانما وقع في خطأ آخر وهو قوله : « وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء » فان موسى تارك للناموس • وليس هو بتارك لأسفار الأنبياء • وكيف يترك كتبنا نسبت لأصحابها من بعد موتهم ، وأصحابها ظهوراً من بعده بسنين ؟

يحكى لوقا كاتب سفر أعمال الرسل — كما يزعمون فى بعض الروايات — أن فيلبس هذا كان من أهل الخطوة كالياس النبى عليه السلام ، وقد وجد وزيرا من أهل الحبشة فدعاه الى النصرانية فقبل الدعوة ، ولما رأى ماء قال لفيلبس « ماذا يضع أن أعتمد ؟ » أى أستحم بالماء لأدخل فى الدين على طهارة « فقال فيلبس : ان كنت تؤمن من كل قلبك يجوز • فأجاب وقال : أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله » فعمده فيلبس لقوله هذا (أعمال : ٨) وعلى ذلك كان فيلبس شريكا لبطرس وبولس فى تطبيق نبوءة الابن على عيسى المسيح عليه السلام •

واشترك فى تطبيق نبوءة المسيا على عيسى عليه السلام معهم يهودى من يهود « الاسكندرية » اسمه : « أبولوس » فقد جاء عنه فى الاصحاح الثامن عشر من سفر الأعمال : « انه كان باشتداد يفهم اليهود جهرا ، مبينا بالكتب : أن يسوع هو المسيح » •

أما عن نبوءة « ابن الانسان » صاحب « ملكوت السموات » ويسمى أيضا « ملكوت الله » فأشهر من طبقها على عيسى عليه السلام رغم أنه : « استفانوس » و « بولس » •

وأصل نبوءة « ابن الانسان » من التوراة من سفر النبى المعظم دانيال • كان دانيال فى مدينة « بابل » فى عهد الملك « نبوخذناصر » ورأى الملك هذا أحلاما أطارته عنه النوم ، ولما طلب من الحكماء تفسير الحلم لم يستطيعوا التعبير ، لأن الله عز وجل ما ألهم التعبير لغير النبى دانيال ، الذى سبّح الله ومجده بقوله : « ليكن اسم الله

مباركا من الأزل والى الأبد لأن له الحكمة والجبروت ، وهو يغير الأوقات والأرضة ، يعزل ملوكا وينصب ملوكا . يعطي الحكماء حكمة ويعلم العارفين فهما . هو يكشف العمائق والأسرار . يعلم ما هو في الظلمة وعنده يسكن النور » (دانيال ٢ : ٢٠ — ٢٣) وقال دانيال للملك (أ) :
رأيت في حلم « تمثالا » ١ — رأسه من ذهب جيد ٢ — صدره وذراعه من فضة ٣ — بطنه وفخذه من نحاس ٤ — ساقاه من حديد ٥ — قدماه بعضهما من حديد والبعض من خرف .

(ب) ورأيت « حجرا » هوى بقوة شديدة على « التمثال » فضرب قدميه ، فوقع على الأرض مهشما . وصار « الحجر » : « جبلا كبيرا » بعد ما حطم التمثال وهشمه . هذا هو الحلم أيها الملك . واليك تعبيره :

١ — رأس التمثال : مملكة بابل ٢ — صدر التمثال وذراعه : مملكة أخرى — هي : مملكة فارس — ٣ — بطن التمثال وفخذه : مملكة ثالثة — هي : مملكة اليونان — ٤ — ساقا التمثال : مملكة رابعة — هي : مملكة الرومان — ومملكة الرومان تكون منقسمة على ذاتها — الى شرقية وغربية . وفي أيام ملوك الرومان بعد الانقسام : « يقيم اله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملوكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتغنى كل هذه الممالك وهي تثبت الى الأبد » (دانيال ٢ : ٤٤) .
وهذا الحلم الذي رآه الملك نبوخذ ناصر رآه أيضا بعد ذلك دانيال نفسه بأيام . لكن بصورة غير الصورة التي رآها الملك . أما التعبير فغير مختلف عن تعبير رؤيا الملك . رأى دانيال في حلم الليل :
(أ) أربع رياح السماء هجمت على البحر الكبير — الأبيض المتوسط — (ب) وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة .

١ — أسد ٢ — دب ٣ — نمر ٤ — حيوان هائل وقوى وشديد جدا . ثم رأى عقب الحيوان الرابع الهائل والقوى والشديد جدا : « ابن انسان » أعطاه الله عز وجل ملكا عظيما . قال عنه دانيال ما نصه : « كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن انسان أتى وجاء الى القديم الأيام فاقربوه قدامه ، فأعطى سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض » .

ثم نطق دانيال بتعبير الحلم فقال ما نصه :
 « هؤلاء الحيوانات العظيمة التى هى أربعة هى : أربعة ملوك
 يقوهمون على الأرض • أما قديسو العلى فيأخذون المملكة ويمتلكون
 المملكة الى الأبد وإلى أبد الأبدى » (دانيال ٧ : ١٧ — ١٨) •

هذه أصل نبوءة « ابن الانسان » صاحب « ملكوت السموات »
 ولقد فسر هذه النبوءة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : ان
 « ابن الانسان » هو نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم • وأن الله
 عز وجل سيعطيه ملكا عظيما • ونسب الملك الى السموات لأنها جهة
 العلو في نظر الناس • وأن الناس سيتعبدون بشريعته — أى يخضعون
 لله عز وجل على وفق ما فيها من بينات •

لقد حكى كتاب الأناجيل — والرواية هنا لمتى — ما نصه :
 « وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلا : توبوا
 لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ٣ : ١ — ٢) « من ذلك الزمان
 ابداً يسوع يكرز ويقول : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات »
 (مت ٤ : ١٧) أى أن المعمدان ويسوع دعوا معا بصوت واحد الى
 اقتراب ملكوت السموات الذى تتبأ عنه النبی المعظم دانيال فى الاصحاح
 الثانى والسابع من سفره •

وضرب المسيح ابن مريم الأمثال الكثيرة لكيفية انتشار هذا
 الملكوت • ومن أمثله هذا المثل : « يشبه ملكوت السموات حبة خردل
 أخذها انسان وزرعها فى حقله وهى أصغر جميع البزور • ولكن متى
 نمت فهى أكبر البقول • وتصير شجرة حتى ان طيور السماء تأتى
 وتتأوى فى أغصانها » (مت ١٣ : ٣١ — ٣٢) أى أن المسلمين فى بدء
 الاسلام يكونون قلة ثم يكثررون رويدا رويدا حتى يملأوا الأرض •
 وهذا هو مثل المسلمين المذكور فى القرآن الكريم فى سورة الفتح يقول
 تعالى : « وهلم فى الانجيل كزرع أخرج شطئه ، فأزده ، فاستغلظ ،
 فاستوى على سوقه » (١) ولم يرد فى انجيل متى فقط ، بل ورد فى مرقس
 ولوقا أيضا • قال المسيح فى رواية مرقس : « بماذا نشبه ملكوت
 الله ؟ أو بأى مثل نمثله ؟ مثل حبة خردل متى زرعت فى الأرض فهى
 أصغر جميع البزور التى على الأرض • ولكن متى زرعت تطنع وتصير

أكبر جميع البقول وتصنع أغصانا كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تتأوى تحت ظلها » (مر ٤ : ٣٠ — ٣٢) وقال المسيح في رواية لوقا : « ماذا يشبه ملكوت الله ؟ وبماذا أشبهه ؟ يشبه حبة خردل أخذها انسان وألقاها في بستانه • فنمت وصارت شجرة كبيرة وتأوت طيور السماء في أغصانها » (لو ١٣ : ١٨ — ١٩) •

* * *

هذا هو أصل نبوءة « ابن الانسان » صاحب « ملكوت السموات » وهذا هو تفسير المسيح عيسى عليه السلام للنبوءة • فما تفسير النصارى لها من بعد المسيح ؟

في الاصحاح السابع من سفر الأعمال ، وقف « استفانوس » خطيبا بحيث يسمعه « بولس » وصرح بأن ابن الانسان هو يسوع المسيح ، وليس هو نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم كما صرح عيسى عليه السلام • وفي الاصحاح التاسع عشر من هذا السفر وفي مواضع كثيرة يردد بولس عبارات « استفانوس » الذي لم يشاهد المسيح بعيني رأسه مثل بولس • قال استفانوس : « ها أنا أنظر السموات مفتوحة ، وابن الانسان قائما عن يمين الله » لما حكى عنه الكاتب : « وأما هو فثخص الى السماء ، وهو ممثلي من الروح القدس ، فرأى مجد الله ويسوع قائما عن يمين الله » (أع ٧ : ٥٥ — ٥٦) وقال الكاتب عن بولس في مدينة « أفسوس » : « ثم دخل المجمع ، وكان يجاهر مدة ثلاثة أشهر محاجا ومقنعا في ما يختص بملكوت الله » (أع ١٩ : ٨) •

* * *

يوم الرب :

ولما قال بطرس وتبعه بولس بأن عيسى لم يموت ، وأنه رفع حيا الى السماء ، وأنه سيرجع الى الدنيا ليحارب أعداءه وينتصر • ويؤسس في الدنيا ملكا كملك داوود وسليمان في الزمان القديم • علم أن الزمن اذا طال ولم ينزل عيسى سيسأل الناس : متى يوم الرب ؟ أى متى اليوم الذي سيظهر فيه عيسى ليقيم الملك الدنيوى • لأنهم طبقوا بالزور نبوءات التوراة عليه • فقال في الاصحاح الثالث من رسالته الثانية : « سيأتى في آخر الأيام قوم مستهزئين ، سالكين بحسب

شهوات أنفسهم ، وقائلين : أين هو موعد مجيئه ؟ لأنه من حين رقد الآباء كل شيء باق هكذا من بدء الخليقة » ورد بقوله : « لا يخف عليكم هذا الشيء الواحد أيها الأحباء : أن يوما واحدا عند الرب كلف سنة ، وألف سنة كيوم واحد ، لا يتباطأ الرب عن وعده ، كما يحسب قوم التباطؤ ، لكنه يتأنى علينا » .

والنصارى اليوم ، طوائفهم العظمى ، على أن يوم الرب قريب . ولكن لن ينزل عيسى بالجسد والروح ، بل بالروح دون الجسد .

* * *

ثانيا - تغيير التوراة :

لاحظ أولا ما يلى :

يروى القرطبى الامام الفقيه المفسر فى تفسير قوله تعالى عن عيسى - عليه السلام - : « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » (آل عمران : ٥٠) قول عن امام من الأئمة هو : أن عيسى - عليه السلام - ما أحل لهم الا ما حرمة علماء بنى اسرائيل على الناس لا ما حرمة الله بنص فى التوراة . وهذا القول مع صوابه لم يجزم بصوابه المفسر . ولماذا لم يكن ؟ لأن العلماء نظروا الى آيات أربعة فى دعوة المسيح . الآية الأولى قول الله عن عيسى عليه السلام انه « مصدقا لما بين يدي من التوراة » وبشرى برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » (الصف : ٦) أى أن دعوته فى أمرين اثنين : الأول : أنه مصدق للتوراة غير ناسخ . والثانى : أنه لم يعط لأتباعه شريعة منفصلة عن شريعة موسى عليه السلام ، لم يعطهم الا خبرا بمجىء نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم والخبر لا ينسخ التشريع . والآية الثانية : قول الله عن عيسى عليه السلام أنه قال لقومه : « ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه » (الزخرف : ٦٣) أى أنه كان على شريعة موسى التى يختلفون فى تفسير بعض آياتها فيفسر لهم التفسير الصحيح . والآية الثالثة : « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه » (المائدة : ٤٧) وقد فهم منها البعض أن الحكم بالانجيل يعنى أنه شريعة منفصلة عن التوراة ، وفهم منها البعض - وقد أثار اليهم الزمخشري المفسر ، طيب الله ثراه - أن الحكم بالانجيل هو نفسه الحكم بالتوراة . لماذا ؟ لأنه مكتوب فى الانجيل - رغم تحريفه - أن عيسى عليه السلام قال لأتباعه :

« أتظنون أنى جئت لأبطل الشريعة والأنبياء • الحق أقول لكم :
 لعمر الله : انى لم آت لأبطلها ولكن لأحفظها » فعلى قوله هذا : اذا
 أراد النصارى أهل الانجيل أن يقيموا حكم الله فعليهم بهدى امامهم •
 وهدى امامهم معروف من قوله : « لم آت لأبطلها » اذن فليتحاكموا
 فيما بينهم على قوانينها • والآية الرابعة : قول الله تعالى عن عيسى
 عليه السلام : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض
 الذى حرم عليكم » (آل عمران : ٥٠) وهذه الآية هى موضع الاشكال
 فى الظاهر حيث فهم البعض : أن التصديق لا صلة له البتة بانجيله
 الذى أحل فيه وأن التصديق لا يتعارض مع شريعة جديدة تكون معه •

وفهمهم هذا يكون صحيحا اذا كان الله تعالى قد صرح فى أمر
 عيسى عليه السلام بأنه مع التصديق مهيم على التوراة ، ففى الحالة
 هذه يجب القول بأن عيسى عليه السلام قد أعطى — بناء عن وحى الله —
 شريعة مستقلة عن شريعة موسى عليه السلام • لأن معنى الهيمنة :
 السيطرة بقوة على الكتاب • أى يصدق على صحيحه ويصرح بباطله ،
 ويغير من تشريعاته ما هو غير صالح للناس فى زمانه • فهل الهيمنة
 على التوراة من اختصاص عيسى عليه السلام ؟ لا • ليست من اختصاصه ،
 بل من اختصاص محمد نبي الاسلام — صلى الله عليه وسلم — فانه هو
 وحده المصدق والمهيم • وحيث ذلك ثابت فان تحليل عيسى عليه السلام
 يجب أن ينظر فيه الى أى أمر غير تغيير نصوص التوراة التى تحرم
 ما يريد هو أن يحله • والا لزم التناقض فى مفهوم دعوته بين التصديق
 فقط وحل ما حرم على بنى اسرائيل • وهذا هو الذى حدا بى الى
 فحص هذا الموضوع بدقة متناهية • وقد انتهت فيه الى أنه أحل بعض
 ما حرره على الناس علماء بنى اسرائيل من تلقاء أنفسهم •

وما يزال البعض من الناس فى عصرنا هذا يعد النصرانية ديننا
 سماويا تاليا للديانة اليهودية وسابقا على الاسلام ، ويزعمون أن
 الأديان : ثلاثة أديان : اليهودية والنصرانية والاسلام • وأنا أعلم
 أن زعمهم قائم — لا على حسب واقع الناس اليوم — بل على أنهم
 عالمون بأن عيسى عليه السلام قد أضاف جديدا على شريعة موسى عليه
 السلام • ولقد علموا ذلك من الترجمة المتداولة للانجيل وفيها يقول
 متى عن عيسى عليه السلام : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس
 أو الأنبياء • ما جئت لأنقض بل لأكمل » (متى : ٥ : ١٧) يفهمون من

قوله « لأكمل » أنه أضاف جديدا . ولم يكلفوا أنفسهم أن يبحثوا عن هذا الجديد المضاف الذى أكمل به عيسى عليه السلام كتاب موسى عليه السلام . أى جديد أضافه عيسى عليه السلام ؟ وإن أصول الانجيل باللغة اليونانية فيها « بل لأصحح » وفي الترجمة التى نقلت عن برنابا « لم آت لأبطلها بل لأحفظها » وفي الخطاب الأخير يقول للجموع وللتلاميذ : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه » (متى ٢٣ : ٢ - ٣) لقد أومى فقط بحفظ شريعة موسى والعمل بها ولم يصرح بجديد عليها مضاف إليها . وأى جديد يصرح به ، وقد أحال الأتباع الى علماء بنى اسرائيل ومنهم من يؤمن به ومن لا يؤمن به ؟ فأى دليل على هذا الزعم وهذا كلام صاحب الشأن كما هو مكتوب وواضح للعالم والمتعلم ؟

ليست الأديان ثلاثة ، بل اثنين فقط لا ثالث لهما : اليهودية أولا ، والاسلام آخرا . وقد نسخ الدين الأخير الدين الأول الذى حرف من قبل ظهوره وغير وبدل بشهادة أهله . فانه فى الإصحاح الثالث والعشرين من سفر ارمياء على لسان الله تعالى : « لأن الأنبياء والكهنة تنجسوا جميعا ، بل فى بيتى وجدت شرهم يقول الرب ... وقد رأيت فى أنبياء السامرة حماقة . تنبأوا بالبلل وأضلوا شعبي اسرائيل . وفى أنبياء اورشليم رأيت ما يقشعر منه . يفسقون . ويسلكون بالكذب ويشددون أيادى فاعلى الشر ... من عند أنبياء اورشليم خرج نفاق فى كل الأرض ... أما وحى الرب فلا تذكره بعد لأنى كتمته كل انسان تكون وحى اذ قد حرفتم كلام الاله الحى رب الجنود الهنا » الخ . وأى تصريح أوضح من هذا التصريح ؟



لنتحدث بعد تلك الملاحظات فى محاولة بطرس وبولس وبمقتضى لتفسير التوراة فنقول :

يحكى هذا السفر أن بطرس الذى وصفه المسيح عليه السلام بأنه « شيطان » هو أول من دعا الى تغيير التوراة فى « الشريعة » وقد غيرها هو ومن معه من أجل الرومان أولا ، الذين أرادوا أن يدخلوهم فى النصرانية بسهولة .

لقد كان من عادة العلماء من بنى اسرائيل بعد سبى بابل أن لا يدخلوا بيت خاطيء ، وأن لا يمشوا معه ، وأن لا يتعرفوا على رجل

فيس من جنس بنى اسرائيل ، وأن لا يغاشروه ، وأن لا يدخلوا بيته ، وأن لا يأكلوا طعامه . وليست هذه العادة لأن الله نص عليها في التوراة ، بل لأنهم ابتدعوها من سبى بابل . ولذلك وبخهم المسيح وبكتهم . فقد روى « متى » أنه دخل مع تلاميذه بيت خاطيء ليدعوه الى التوبة فلما نظره العلماء « قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟ فلما سمع يسوع قال لهم : لا يحتاج الأصحاء الى طبيب ، بل المرضى . فاذهبوا وتعلموا ما هو (١) : « انى أريد رحمة لا ذبيحة » ؟ لأننى لم آت لأدعو أبرارا . بل خطاة الى التوبة » (متى ٩ : ٩ — ١٣) . وقد اقتفى بطرس أثر المسيح مع الفارق . فقد دخل المسيح وأكل حسبما قنص شريعة موسى في الأطعمة ودخل بطرس بيت « أمى » غير يهودى ، وأكل ما هو محرم في شريعة موسى من الأطعمة ، ولما سأله عن تحليله لما هو محرم لم يجب بأن المسيح أحل ما كان محرما ، وانما أجاب بأنه : « رأى السماء مفتوحة ، واناء نازلا عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ومدلاة على الأرض ، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء ، وصار اليه صوت : قم يا بطرس اذبح وكل . فقال بطرس : كلا يا رب لأننى لم أكل قط شيئا دنسا أو نجسا ، فصار اليه أيضا صوت ثانية : ما طهره الله لا تدنسه أنت . وكان هذا على ثلاث مرات ، ثم ارتفع الاناء أيضا الى السماء » (أ ع ١٠ : ١١ — ١٦) وقد واجه المجتمعين برأيه في معايشة الأممين « قال لهم : أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتى اليه . وأما أنا فقد أرانى الله أن لا أقول عن انسان ما انه دنس أو نجس » (أ ع ١٠ : ٢٨) وعلى رأيه بقوله : « بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه ، بل في كل أمة الذى يتيه ويصنع البر مقبول عنده » (أ ع ١٠ : ٣٤ — ٣٥) .

ولما رجع بطرس من عند الأمى الى « اورشليم » وقد علم لليهود أنه دخل بيت أمى وأكل عنده : خاصموه . فقص عليهم قصة « الاناء » الذى يشبه « الملاءة » فعندئذ سكثوا عن الخصام . قال

(١) أى المكتوب في التوراة : أن الله يريد الرحمة بالناس ، ولا يزيد القريبين والذباح في حد ذاتها . والنص في سفر « هوشع » هكذا : انى أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات » (هوشع ٦ : ٦) .

كاتب السفر في الاصحاح الحادى عشر : « ولما صعد بطرس الى اورشليم خاصمه الذين من أهل الختان قائلين : انك دخلت الى رجال ذوى غلفة وأكلت معهم ، فابتدأ بطرس يشرح لهم بالتتابع قائلاً : أنا كنت في مدينة يافا أصلى فرأيت في غيبة رؤيا : اناء نازلاً مثل ملاءة عظيمة مدلاة بأربعة أطراف من السماء . . . الخ » ثم يقول الكاتب : « فلما سمعوا ذلك سكثوا وكانوا يمجدون الله قائلين : أذن أعطى الله الأمم أيضاً : التوبة ، للحياة » .

أى أن بطرس بتلك الرؤيا ، رؤيا الاناء المشابه للملاءة يريد أن يقول : ان كل ما كان محرماً في التوراة أصبح حلالاً من الآن . ان من الأطعمة المحرمة في التوراة : الجمل ، والأرنب ، والوبر ، والخنزير ، والنسر ، والأنوق ، والعقاب ، والحدأة ، والباشق ، والشاهين على أجناسه ، والغراب على أجناسه ، والنعامة ، والظليف ، والسأف ، والمباز على أجناسه ، والجرار ، والكركى ، والبجع ، والقوق ، والرخم ، واللغواص ، والقلق ، والبيضاء على أجناسه ، والهدهد ، والخفاش . وكل دبيب الطير ، والميتة . وتعتبر التوراة عن عدم حله بلفظ : « انه نجس لكم » — « نجس لكم » — « نجسة لكم » في الاصحاح الرابع عشر من سفر التثنية ، وفي الاصحاح الحادى عشر من سفر اللاويين تعبر التوراة عن عدم حله بلفظ : « نجس لكم » — « انها نجسة لكم » — « لا تدنسوا أنفسكم بدبيب يدب ، ولا تتنجسوا به ، ولا تكونوا به نجسين » ويريد بطرس أن يقول : ان ما كان دنساً ، وما كان نجساً في التوراة ، أصبح طاهراً ومباحاً أكله من يومنا هذا . هذا رأى بطرس . وهو نفسه رأى بولس . فان بولس يقول : الانسان الذى يحرم طعاماً ما على نفسه ، فله هو وحده هذا الطعام حرام . ولكن ليس للناس جميعاً . ان الايمان بيسوع المسيح كاف في دخول الجنة بدون أعمال ، لأنه صلب ليكفر عن خطايا المؤمنين به . يقول لأهل غلاطية : « انه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما » (غلا ٢ : ١٦) ويقول لأهل كولوسى : « لا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت » (كو ٢ : ١٦) ويقول لأهل رومية : « انى عالم ومتيقن في الرب يسوع : أن ليس شئ نجساً بذاته الا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس » (رو ١٤ : ١٤) ويقول بولس لأتباعه : تلونوا وناققوا وداهنوا في الدعوة كما أنا أفعل . فان رأيتم انساناً يريد الدخول في النصرانية وهو يريد

(٣١١ - الاعلام)

أن يحرم على نفسه طعاما ما فلا تجبروه على أكله . يقول في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس : « كل الأشياء تحل لي ، لكن ليس كل الأشياء توافق ... كل ما يباع في الملحمة : كلوه ، غير فاحصين عن شيء من أجل الضمير . ولكن ان قال لكم أحد : هذا مذبوح لوثن فلا تأكلوا ... كونوا بلا عثرة لليهود ، ولليونانيين ، ولكنيسة الله ، كما أنا أيضا أرضي الجميع في كل شيء ، غير طالب ما يوافق نفسي ، بله الكثيرين لكي يخلصوا » (١ كو ١٠ : ٢٣) الخ .



ولقد ظل بطرس وبولس على رأيهما هذا الى أن قارقا الحياة الدنيا . ورأيهما هذا هو الذي سارت عليه النصرانية الى يومنا هذا . أما رأي يعقوب وهو تحريم : الدم والمخنوق من الأطعمة . فهو رأي لا يعتد به ، لأنه من من الناس يستسيغ في حالة الاختيار — لا في حالة الاضطرار — أن يأكل جثة ميتة ، خنقها بحبل من الناس خنق ؟ ومن من الناس يستسيغ في حالة الاختيار أن يأكل الدم ، لا في حالة الاضطرار ؟ ورأي يعقوب أيضا في تحريم المذبوح للأوثان هو نفسه رأي النصاوي كلهم لأنهم لا يعبدون أوثانا ، بله يعبدون آلهة غير مرئية ، الا المسيح الذي يزعمون أنهم رأوه لها في صورة انسان .

وخلاصة المكتوب عن رأي يعقوب في الاصحاح الخامس عشر من سفر أعمال الرسل هكذا :

١ — ذهب بولس وبرنابا لدعوة الأمم الى النصرانية فأمن « جمهور كثير من اليهود واليونانيين » وهناك قاوم نفر من اليهود دعوة « اليونانيين » لا على أنها دعوة ، بل لأنهم دخلوا في النصرانية على عاداتهم وتقاليدهم . قال المقاومون : ليدخلوا ويعملوا بالتوراة ، لأن المسيح ما جاء للنسخ بل للإصلاح . وقال المدعيان : « أن يثبتوا في الايمان » . وفي ذلك الوقت : دخل نفر من علماء بني اسرائيل من القريسيين بلاد اليونانيين « وجعلوا يعلمون الاخوة — اليونانيين — أنه ان لم تختتنوا حسب عادة موسى ، لا يمكنكم أن تخلصوا » فمن أجل ذلك رأى بولس وبرنابا وأناس آخرون معهم أن يذهبوا الى « اورشليم » للتشاور في هذا الموضوع مع حواري عيسى الأولين . ولمس التقوا بهم في « اورشليم » أخبروهم بما حدث وقالوا لهم :

ان اليونانيين لما قبلوا النصرانية على عاداتهم « قام الناس من الذين
كثتوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين ، وقالوا : انه ينبغي ان يفتنوا
ويوصوا بان يحفظوا ناموس موسى » فعدد وقف بطرس خطيبا وقال
مما قال : « لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق الضالعة ، لم يمتطع
آباؤنا ولا نحن ان نعمله » ؟ أي يريد انسقاط التكليف الشرعية عن
« الأمم » ووقف يعقوب بعده خطيبا فكان مما قال :

« ارى ان لا ينقل على الربيعين الى الله من الأمم • بل يرسل
النهم ان يمتنعوا عن نجاسات الاصنام والزنا والمخنوق والدم لان
موسى منذ اجيال قديمة له في كل مدينة من يكره به ، انه يقرأ في المخلص
كل سبت » •

واستحسن المجتمعون رأى يعقوب • فكتبوا رسالة الى الذين
آمنوا من غير اليهود في مدن : انطاكية وسورية وكنيسة • وأرسلوها مع
أربعة أشخاص هم : بولس ، وبرنابا ، ويهوذا الملقب : برسبا • وسيلا •
وهذا نص الرسالة :

« الرسل والمشايع والاخوة يهدون سلاما الى الاخوة الذين هم
الأمم في انطاكية وسورية وكنيسة •

اذ

قد سمعنا : ان أناسا خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال • مقليين
أنفسكم ، وقائلين : ان تفتنوا وتحفظوا الناموس • الذين نحن لم
نأمرهم •

رأينا • وقد صرنا بنفس واحدة : ان تختار رجلين • وترسلهما
اليكم مع حبيينا : برنابا وبولس • رجلين قد بذلا أنفسهم لأجل اسم
ربنا يسوع المسيح • فقد أرسلنا : يهوذا ، وسيلا ، وهما يخبرانكم بنفس
الأمور : شفاهما • لأنه قد رأى الروح القدس ، ونحن : ان لا نضع
عليكم ثقلا أكثر ، غير هذه الأشياء الواجبة : ان تمتنعوا عما ذبح
للأصنام ، وعن الدم ، ، والمخنوق ، والزنا • التي ان حفظتم أنفسكم
منها ، فنعما تفعلون •

كونوا معافين • أ • ه •

انتهى نص الرسالة • ولما وصلت الى أصحابها وقرأوها :

« فرحوا » كما يقول الكاتب • وبها ضاع دين عيسى الذى هو نفسه
دين موسى •

* * *

وأصحاب هذه المؤامرة لم يستطيعوا أن يجهروا بها فى « أورشليم »
وجهروا فى « أورشليم » باحترام التوراة ووجوب العمل بها •

ويعقوب نفسه الذى اقترح تلك الرسالة ، خاف على « بولس »
لما رجع الى « أورشليم » بعدما أوصل الرسالة الى أصحابها ، وقال له
مع المشايخ : « أنت ترى أيها الأخ : كم يوجد ربوة من اليهود الذين
آمنا ، وهم جميعا غيورون للناموس • وقد أخبروا عنك : أنك تعلم
جميع اليهود الذين بين الأمم : الارتداد عن موسى ، قائلا : أن
لا يختنوا أولادهم ، ولا يسلكوا حسب العوائد • فاذن ماذا يكون ؟ »

ولما خاف عليه من اليهود • اقترح عليه الاقتراح الآتى :
« افعل هذا الذى نقول لك : عندنا أربعة رجال عليهم نذر • خذ
هؤلاء ، وتطهر معهم ، وأنفق عليهم ، ليخلقوا رؤوسهم ، فيعلم الجميع :
أن ليس شئ مما أخبروا عنك ، بل تسلك أنت أيضا حافظا للناموس •
ولقد نفذ بولس هذا الاقتراح » أخذ بولس الرجال فى الغد ، وتطهر
معهم ، ودخل الهيكل مخبرا بكمال أيام التطهير ، الى أن يقرب عن كل
واحد منهم القربان •

فماذا كان من اليهود الذين رأوه فى الهيكل ؟ لما رآه اليهود الذين
من آسيا فى الهيكل أهاجوا عليه جميع الساكنين فى أورشليم
« صارخين يا أيها الرجال الاسرائيليون : أعينوا • • هذا الرجل الذى يعلم
الجميع فى كل مكان ضدا للشعب ، والناموس ، وهذا الموضع ، حتى
أدخل يونانيين أيضا الى الهيكل ، ودنس هذا الموضع المقدس » ولوقت
« هاجت المدينة كلها ، وتواخض الشعب وأمسكوا بولس ، وجروه خارج
الهيكل ، ولوقت أغلقت الأبواب ، وبينما هم يطلبون أن يقتلوه • نما
خبر الى أمير الكتبية : أن أورشليم كلها قد اضطربت • فلوقت أخذ
عسكرا وقواد مئات وركض اليهم • فلما رأوا الأمير والعسكر كهوا
عن ضرب بولس » أ • • • وانتشر بعد ذلك فى القديس عن عالمية الملة
النصرانية فنقول :

عالمية الملة النصرانية

قلنا من قبل : ان شريعة موسى عليه السلام كانت من قبل أن تتسخ بالقرآن الكريم لبنى اسرائيل وللاهم أيضا . وأنه من قبل ظهور النصرانية كان للشريعة الموسوية دعاة اليها ، ومدعوون عاملون بالدعوة في كل مكان . كما قال يعقوب حواري المسيح : « لأن موسى منذ أجياله قديمة ، له في كل مدينة ، من يكرز — أى يبشر — به . اذ يقرأ في المجامع كل سبت » (أع ١٥ : ٢١) .

وقد رأى النصارى الأولون أن ينطلقوا بالدعوة الى بنى اسرائيل والأهم كما أوصى المسيح لكن الى بنى اسرائيل أولا . وقد اختلف اليهود فيما بينهم بعد رفع المسيح الى السماء في مد دعوتهم الى الأمم ، وقد كانوا أوقفوا مد الدعوة من بعد سبى بابل الا نفرا منهم غاروا على دين الله ولم يستجيبوا لقوانين الحرمان والقطيعة التي سنّها عزرا وطبقها نحميا على واحد من أبناء « يوياداع » ابن « أليا شيب » الكاهن العظيم (نح ١٣ : ٢٨) فرأى بعضهم مد الدعوة ورأى بعضهم قصرها على بنى اسرائيل . والذين رأوا مد الدعوة الى الأمم ، كانوا مخلصين في دعوتهم وأمناء . لأنهم دعوا الى شريعة موسى التي ما نسخها المسيح ولا نقضها .

فان بولس لما فتح للأمم باب الايمان الى النصرانية على حسب تقاليدهم « انحدر قوم من اليهودية ، وجعلوا يعلمون الاخوة : أنه ان لم تختتنوا حسب عادة ناموس موسى ، لا يمكنكم أن تخلصوا » (أع ١٥ : ١) ولم يدعوا الى « الختان » فحسب . بل الى كل أحكام التوراة ، كما يقول كاتب سفر الأعمال أيضا : « ولكن قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين . وقالوا : انه ينبغي أن يختنوا ، ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى » (أع ١٥ : ٥) .

واليهود الذين رأوا قصر التوراة على بنى اسرائيل ، نظروا بعين الغداء وعين البغض الى اخوانهم الذين ساروا الى الأمم بالتوراة . بنصها دون تفسير ، أو بالنص والتفسير معا ، والى النصارى الذين لم

يسيروا الى الأمم بالتوراة كنص يحتاج الى تفسير ، بل بتفسير المسيح نفسه للنبوءات التى فيها عن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم . ولما نظروا اليهم بعين العداء وعين البغض صبوا عليهم من العذاب الأليم ما قدروا عليه ، وأوحوا الى الرومان أن يصبوا عليهم من العذاب الأليم ما يقدرون عليه . قائلين للرومان : ان أكثرهم يقولون لرعاياكم : سيظهر نبي ملك تمتد مملكته الى أقصى الأرض ، وسيزيل الدولة الرومانية من فلسطين . وقولهم هذا للرعايا يجرؤهم على القياصرة والولاة والرؤساء فلا يعطون كل ذي حق حقه من التوقير والطاعة والاحترام . واذا تجرأت الرعية على الملوك : قل العمل وساء النظام ، وظهرت الفوضى ، واضطربت المملكة . وهذا كله يعجل بفناء الدولة الرومانية ، ويمحوها من الوجود . فامتدت يد الرومان الى اليهود الأمعاء والنصارى الأتقياء بالتعذيب والقتل والنفي والتشريد مما لم يسمع بمثله من قبل ولا من بعد حتى زمانى هذا .

وأصبح في العالم وقتئذ ثلاث فئات : اليهود والنصارى والرومان . اليهود الذين يريدون لأنفسهم كيانا مستقلا الى الأبد . ولا يتم لهم ذلك إلا بانكار النبي الذي سيظهر من العرب أبناء اسماعيل عليه السلام . والنصارى الذين يريدون أن يقدموا خدمة لله باعترافهم بذلك النبي العظيم . والرومان الذين يريدون من رعاياهم : الطاعة التامة للقياصرة والولاء للدولة ، ولا يتم لهم ذلك الا بتكليم أفواه النصارى واليهود الأمعاء وقطع أيديهم عن الكتابة حتى لا يقولوا : ان النبي العربى قادم ، ليزيل الدولة .

* * *

ومن أجل مصالح الكل اجتمعوا للمصالحة ، فان النصارى من مصلحتهم أن يخف الاضطهاد عنهم . واتفقوا على ما يلى :

- ١ — طلب اليهود من النصارى أن لا يجهروا بنبي الاسلام صلى الله عليه وسلم ، وأن يقولوا : ان نبوءات التوراة وأسفار الأنبياء تدل على عيسى ابن مريم . وعيسى على جهة الخصوص هو المسيح المنتظر .
- ٢ — طلب الرومان من النصارى أن لا يجهروا بنبي الاسلام صلى الله عليه وسلم . وأن يصوغوا عقائد النصرانية على مثال عقائد الرومان . فى تعدد الآلهة . وأن يسلك الناس فى الحياة بحسب عادات أسرهم وتقاليد آبائهم وأجدادهم . واذا سأل الناس عن يوم الرب ، يوم

ظهور المسيح الذى قبلتم عنه من قبل قولوا : قرب انتهاء الدنيا وقيام القيامة .

٣ — طلب النصارى في مقابل ذلك أن يخفف الاضطهاد أولا ، ثم تعترف الدولة الرومانية رسميا بإنجيلهم .

وقد تم ذلك . وهل كان يتم ذلك في عهد النصارى الأوائل ؟ ما كان يتم ذلك لقرب عهدهم من النبوة ، وللمساعدة معجزات المسيح بأعينهم ولشماخ دعوته بأذانهم ، أما في هذا الجيل الثالث . فلن أبناء أبناء الأوائل ليسوا في القوة كما كلن الآباء والأجداد وقد وصلت اليهم مبادئ المسيح سمعا ، من مغرضين ومعتدلين ، وللبادى إذا وصلت الى النفوس متأرجحة بين الشك واليقين ، لا تحمس القلب على الدفاع عنها ، بل تدفعه الى عدم المبالاة بها حتى يفرغ لها . فمن أجل ذلك قبل أبناء الأبناء « قرار المصالحة » قائلين في أنفسهم : إن ما وعد الله به لأبد كائن ، ولنرحم نحن أنفسنا مما ابتلينا به . لكن الذين خافوا الله واليوم الآخر صرحوا بأن قرار المصالحة باطل ، وفضلوا سكنى الأعيورة والكهوف عن التكلم بالباطل ، ومنهم آريوس وأتباعه الذين أسرنا اليهم من قبل ، ومنهم الرهبان الذين أسسوا الأديرة خوفا من الظلم .



ولكى يفهم القارئون معنى أكثر وأكثر عن « قرار المصالحة » هذا . عليهم أن يقرأوا الاصحاح السابع عشر من سفر أعمال الرسل عالمين أنه لم ينتشر بصورته هذه الا في القرن الرابع . فمنه يمكنهم أن يفهموا . ولا تحيل القارئين الى غير هذا السفر من الكتب المناوئة للنصرانية المتى فصلت القول في « قرار المصالحة » تفصيلا جيدا لأنه من السهل على نصرانى أن يدفع تفاصيلهم بقوله : هذا كلام من أعدائنا لا تحتجون به علينا . ولا شك أن المكتوب فيه : فيه لبس للحق بالباطل . ولكن من الممكن استخلاص الحق من الباطل . بمضاهاة النصوص بعضها ببعض . انه من الذى يقدر أن يقول عن النص الآتى انه خال من الباطل : « وحدث بعد هذه الأمور : أن الله امتحن ابراهيم ، فقال له : يا ابراهيم . فقال : ها أنذا . فقال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه : اسحق ، واذهب الى أرض المريا ، وأصعده هناك محرقة على أجد الجيل الذى أقول لك » (تك ٢٢ : ١ — ٢) ؟ أن الباطل في كلمة « اسحق » فانه

ليس الابن الوحيد لابراهيم ، ان الابن الوحيد لابراهيم هو اسماعيل عليه السلام ، وان الباطل في كلمة « أرض المريا » فان مريا لم تعين لبنى اسرائيل مكانا مقدسا الا في زمن داوود عليه السلام . لما وضع أساس الهيكل وأكمله ابنه سليمان وعرف بهيكل سليمان .

ومن الذي لا يقدر على استخلاص الحق في « قرار المصالحة » مما سطره لوقا في ذلك الاصحاح من سفر الأعمال ؟

كان لليهود العبرانيين في مدينة « تسالونيكي » اليونانية : « مجمع » أي موضع لعبادة الله كالمسجد عندنا نحن المسلمين « فدخله بولس اليهم حسب عادته ، وكان يحاجهم ثلاثة سبوت من الكتب ، موضعا ومبينا أنه كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات . وأن هذا هو المسيح : يسوع ، الذي أنا أنادى لكم به » فماذا جرى ؟ اقتنع قوم وأبى آخرون ، والذين أبوا وامتنعوا أخذوا رجلا وقفلوا أبواب المدينة ، وتجمعوا حول البيت الذي دخله بولس لما خرج من المجمع . ثم ذهبوا الى « حكام المدينة » صارخين : ان هؤلاء الذين فتنوا المسكونة حضروا الى هنا ، « وهؤلاء كلهم يعملون ضد أحكام قيصر » ويقول الكاتب : « فأزعجوا الجمع ، وحكام المدينة اذ سمعوا هذا » .

وبحيلة طريفة هرب بولس الى مدينة « بيرية » ثم الى مدينة « أثينا » واذ وجدهم يعبدون « تمثالا » لاله مجهول . وقف في وسطهم وقال : « أيها الرجال الأثينيون . أراكم من كل وجه كأنتكم متدينون كثيرا . لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر الى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحا مكتوبا عليه : « لاله مجهول » فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادى لكم به » وقال النصارى : انه أراد بالاله المجهول الذى نادى لهم به : الله عز وجل الذى هو قد تجسد وتأنس في شخص عيسى ابن مريم كما يزعمون في قوله : « الله ظهر في الجسد » وقد مر البيان .

* * *

وانتهز بطرس وبولس ومن نحا نحوهما فرصة الجهل في تلك الأزمنة بسبب تقصير علماء بنى اسرائيل في الدعوة فاعتمدوا على الخرافات في اقناع الناس بما يريدون . وللخرافات كما هو معروف أثر عظيم في العامة ، ويقل هذا الأثر تدريجيا اذا ظهر العلماء بالحق . ونكتفى من خرافاتهم بهذا النص المكتوب في الاصحاح الثامن من سفر الأعمال :

« ثم ان ملاك الرب كلم فيلبس قائلاً : قم واذهب نحو الجنوب على الطريق المنحدرة من اورشليم الى غزة التي هي برية ، فقام وذهب . واذا رجل حبشى خصي ، وزير لكنداكة ، ملكة الحبشة ، كان على جميع خزائنها . فهذا كان قد جاء الى اورشليم ليسجد^(١) .

وكان راجعا وجالسا على مركبته ، وهو يقرأ النبي اشعيا . فقال الروح لفيلبس : تقدم ورافق هذه المركبة . فبادر اليه فيلبس وسمعه يقرأ النبي اشعيا . فقال : أعلئك تفهم ما أنت تقرأ ؟ فقال : كيف يمكنني ان لم يرشدني أحد . وطلب الى فيلبس ان يصعد ويجلس معه . وأما فصل الكتاب الذي كان يقرأه فكان هذا . مثل شاة سيق الى الذبح ، ومثل خروف صامت أمام الذي يجزه ، هكذا لم يفتح فاه . في تواضعه انتزع قضائوه ، وجيله من يخبر به ، لأن حياته تنتزع من الأرض . فأجاب الخصي فيلبس وقال : أطلب اليك . عن من يقول النبي هذا ؟ عن نفسه أم عن واحد آخر ؟ ففتح فيلبس فاه ، وابتدأ من هذا الكتاب فبشره بيسوع .

(١) في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين : « وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن ابراهيم . فقال له : يا ابراهيم فقال : هاذا . فقال : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق ، واذهب الى أرض المريا ، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك . فبكر ابراهيم صباحا ، وشد على حماره ، وأخذ اثنين من غلماناه معه واسحق ابنه وشق لحطباً لحرقه وقام وذهب الى الموضع الذي قال له الله . وفي اليوم الثالث رفع عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقال ابراهيم لغلاميه : اجلسا أنتما ههنا مع الحمار . وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ، ثم نرجع اليكما . » في أي مكان سيذهب ابراهيم ليسجد ؟ ان معنى السجود : هو التوجه الى الله بالعبادة في مكان معين ومعروف . فما هو هذا المكان ؟ هل هو جبل جرزيم في نابلس كما يزعم اليهود السامريون ؟ أم هو جبل صهيون في اورشليم كما يزعم اليهود العبرانيون ؟ ان الوزير الخصي قد جاء الى اورشليم ليسجد . فأين ذهب ابراهيم ليسجد ؟ ان ذهاب ابراهيم الى مكان للسجود يدل على أنه معروف للغلامين من قبل ، ومعروف للناس أيضاً . ولا يمكن أن يكون هذا المكان غير « مكة المكرمة » لأن ابراهيم لم يضع مكاناً للسجود في نابلس أو اورشليم . وانما صار مكان في نابلس وصار مكان في اورشليم من بعد داوود عليه السلام أي بعد ألف سنة تقريبا من ولادة ابراهيم عليه السلام . ولأن المكان معروف من قبل ذهاب ابراهيم اليه . وفي النص تحريف في وضع اسحق بجانب الابن الوحيد وفي وضع مريا بدل مكة المكرمة ، فان مريا لم تكن قبلة في ذلك الزمان . كما قلنا من قبل .

وفيما هما سائران في الطريق أقبلتا على ماء • فقال الخصى : هو ذا ماء • ماذا يمنع أن أعتمد ؟ فقال فيلبس : ان كنت تؤمن من كل قلبك يجوز • فأجاب وقال : أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله (١) • فأمر أن تقف المركبة فنزلا كلاهما الى الماء — فيلبس والخصى — فعمده ، ولما صعدا من الماء خطف روح الرب فيلبس ، فلم يبصره الخصى أيضا • وذهب في طريقه فرحا • وأما فيلبس فوجد في أشدود •

وأصبحت النصرية دينا عالميا يعد « قرار المصالحة » هذا الذي تم في عهد القيصر « قسطنطين » دينا عالميا بجبروت الرومان وقوتهم ، لا بالاقناع والبيان •

* * *

وقد قلنا من قبل :

انهم تفادوا النبوءات ، ولأن النبوءات تدل على شريعة جديدة غير شريعة موسى ستكون مع النبی المنتظر ، قالوا بشريعة للمسيح ليكون هو المشار اليه بالنبوءات في زعمهم •

ونقول أيضا : انهم يعلمون أن النبی المنتظر ستكون دعوته عالمية لجميع أمم الأرض • فهل تفادوا هذه الصفة فيه ؟ لقد جعلوا النصرية دينا عالميا بالمبادئ التي قرروها ، وما أنزل الله بها من سلطان ربما ليتفادوا هذه الصفة فيه • ولو أنها عالمية على الأصل الذي دعا اليه المسيح ، وهو العمل بالتوراة حتى يأتي النبی المنتظر فيدخلون في دينه ما صح لإنسان أن يعترض عليها بأدنى اعتراض لأنها بهذا المعنى فارضة نفسها على العالم من قبل مجيء المسيح • لكن قصدهم من العالمية هو تفادى الصفة من جهة ، وليكسبوا أنصارا يناوئون بهم أتباع النبی المنتظر اذا ظهر في حينه من جهة أخرى ، وكسب الأنصار عندهم أهم من تفادى الصفة ، فانهم لا يعجزون اذا لزم الأمر عن تحريف الكلم عن مواضعه •

* * *

لقد فهموا صفة العالمية من النبوءات هكذا :

١ — بينت التوراة أن لاسماعيل عليه السلام بركة كما لاسحاق

(١) انظر كيف استعانا بالخرافات في تطبيق نبوءات التوراة وأسفل الانبياء على المسيح عليه السلام •

عليه السلام بركة • واليهود يعلمون أن بركة اسحاق تعني ملكا ونبوة ،
واسماعيل مثله ، وأن النبوة في اسحاق لم تكن لنسله فقط ، لأن موسى
عليه السلام الذي اصطفاه الله على الناس عموما برسالاته وبكلامه
كانت دعوته لنسل اسحاق وللمصريين وغيرهم •

٢ — لما حضر يعقوب الموت قال لبنيه عن النبي المنتظر : « وله
يكون خضوع شعوب » •

٣ — لما وصف موسى النبي المنتظر بأوصاف تسعة في الاصحاح
الثامن عشر من سفر التثنية قال عنه في ترجمة اليهود : « ويكون أن
الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه » ومن هذه
الترجمة يفهم أن « الانسان » يكون من جنس اليهود فقط لأن أول
النبوة « أقيم لهم نبيا » ومن ترجمة بطرس في الاصحاح الثالث من
سفر الأعمال : « ويكون أن كل نفس ... الخ » يفهم أن « كل نفس »
من اليهود أو من غير اليهود ، وهذا هو قصد بطرس •

٤ — لما قسم موسى في الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر
التثنية بركة الله في نسل ابراهيم عليه السلام • وتحدث عن بركة من
« فاران » موضع سكى أبناء اسماعيل عليه السلام قال عقب الحديث
عنها : « انه أحب الشعب » في الترجمة العبرانية • وفي الترجمة
السطورية قال : « محب الشعوب » أي أن دعوة النبي الذي سيكون
من أبناء اسماعيل سكان فاران ستكون عالمية لجميع الشعوب • هذا
من الأسفار الخمسة • ونبوءاتها هي العمدة في الاستدلال •

لنذكر الآن من الأدلة التي اعتمد عليها بطرس وبولس في عالمية
الدعوة • ملاحظتين أنهما ناديا :

١ — بعالمية الملة النصرانية •

٢ — وبتشريعات مخالفة لتشريعات التوراة وعقائد مخالفة أيضا •
وهما بهذين الأمرين مخالفان للمسيح إبن مريم عليه السلام الذي قال
بالميلية على وفق التوراة ، وفسر نبوءات التوراة للأتباع قبل أن
يلزمهم بالانطلاق إلى الأمم •

اعتمد بطرس وبولس في النداء بعالمية الدعوة على أن الله وب
للإنسان ، وليس ربا لليهود وحدهم كما زعم اليهود من بعد سبى بابل •

• وأن الناس جميعا يهودا أو غير يهود أبناء لآدم وآدم من تراب •
 إذن الناس جميعا اخوة ، من التراب في البدء خلّقوا ، وإلى التراب
 في النهاية راجعون • إذن على أى أساس يميز الله جنسا على جنس
 وهم متساوون في المبدء والنهاية ؟ وإذا كان مبدء التمييز غير موجود
 لعدم ما يقتضيه فلماذا يصير اليهود على قصر الشريعة عليهم ، وترك
 الأمم في طغيانهم يعمهون ؟ ان الله تعالى لم يفضل اليهود على سائر
 الأجناس الا لأنه ائتمنهم على شريعة موسى التي كانت للناس هدى
 ونورا في ذلك الزمان ، فلما خانوا الأمانة بالتحريف أولا ثم بقصرها
 عليهم ثانيا نبذهم وأهملهم • وماذا يكون الحال الآن لو جارينا اليهود
 في كفرهم وعنادهم ؟ ليس الا قلة الأصدقاء وقت ظهور النبي المنتظر ،
 فيدوسنا برجليه • إذن لا بد أن نحث اليهود على عالمية الدعوة •

قال بطرس في بيت « كرنيليوس » : « بالحق أنا أجد أن الله
 لا يقبل الوجوه ، بل في كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده »
 (أع ١٠ : ٣٤ — ٣٥) •

ولما خاصمه اليهود في دعوة الأمم قال لهم : « ان كان الله
 قد أعطاهم الموهبة ، كما لنا أيضا بالسوية ، مؤمنين بالرب يسوع
 المسيح ، فمن أنا ؟ أقادر أن أمتنع الله ؟ » (أع ١١ : ١٧) •

وبعد وعظ من بولس للأمم ، طلبوا منه ثانية أن يعظهم فانتهزه
 اليهود أن لا يعظهم ، فقال لهم : « كان يجب أن تكلموا أنتم أولا بكلمة
 الله ، ولكن اذ دفعتموها عنكم ، وحكمتكم أنكم غير مستحقين للحياة
 الأبدية ، هو ذا نتوجه الى الأمم » (أع ١٣ : ٤٦) •

وفي موضع آخر يقول كاتب سفر الأعمال ان اليهود اذ كانوا
 يقاومون دعوته ، ويجدفون عليه ، « نفض ثيابه ، وقال لهم : دمكم
 على رؤوسكم • أنا برىء • من الآن أذهب الى الأمم » (أع ١٨ : ٦) •

* * *

وكان استدلال بطرس بنبوءات التوراة ونبوءة يوحنا المعمدان
 اللاتى فسرهما قسرا على المسيح ابن مريم عليه السلام • فمثلا اذا
 تحدثت نبوءة عن أن النور الذى سينزل على النبي المنتظر سيعم المسكونة
 كلها • أى دعوته عالمية ، يقول بطرس : ان ذلك النور هو نور الانجيل •

والعالمية للإنجيل على زعمه وليست للقرآن الكريم كما تدل النبوءات
بالحق .

أما استدلال بولس فهو بالنبوءات كما فعل بطرس في تفسيرها .
وهو أيضا بآيات في أسفار التوراة وأسفار الأنبياء .

* * *

فمن بطرس يحكى الكاتب في الاصحاح الثانى من سفر الأعمال :
أن كثيرا من الناس في اورشليم في عيد العنصرة الذى بعد عيد الحصاد
بخمسين يوما من جميع الأمم من مصر وليبيا وروما وبلاد العرب وغيرهم
لما حلت عليهم الروح — كما زعموا — تكلم كل انسان بلغة غير
لغته ، فتحير الجميع وارتابوا قائلين بعضهم لبعض : ما عسى أن
يكون هذا ؟ وكان آخرون يستهزئون قائلين : انهم قد امتلأوا سلافة .
وعندئذ وقف بطرس خطيبا وقال : هذا الحال قد أشارت اليه التوراة
في سفر النبى يوشع ، وهو حال منطبق على أتباع المسيح الآن فأمنوا
بدعوته . مع أن عبارات يوشع لا تؤدى الى غرضه « وقف بطرس مع
الأحد عشر ، ورفع صوته وقال لهم : أيها الرجال اليهود والساكنون
في اورشليم أجمعون :

ليكن هذا معلوما عندكم ، وأصغوا الى كلامى . لأن هؤلاء ليسوا
سكارى ، كما أنتم تظنون . لأنها الساعة الثالثة من النهار ، بل هذا
ما قيل بيوشع النبى . يقول الله : ويكون فى الأيام الأخيرة أنى أسكب
من روحى على كل بشر ، فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى
ويحلم شبوهم أحلاما ، وعلى عبيدى أيضا وامائى أسكب من روحى
فى تلك الأيام فيقتبأون ، وأعطى عجائب فى السماء من فوق وآيات
على الأرض من أسفل دما ونارا وبخار دخان . تتحول الشمس الى
ظلمة ، والقمر الى دم قبل أن يجرى يوم الرب ، العظيم الشهير ،
ويكون كل من يدعو باسم الرب يخلص » (أع ٢ : ١٤ — ٢١) .

إن هذا كله يا بطرس قبل مجىء يوم الرب . ولم يحدث
— باعترافيك — من هذا شيء قبل ظهور المسيح عليه السلام . فإن
قلت : قبل مجيئه قرب القيامة من الأموات . يجب عليك أن تثبت دليل
المجىء فى ذلك الوقت قبل ما نقول شيئا .

وعن بطرس أيضا يقول الكاتب : إن يوحنا المعمدان لما تنبأ عن

نمى من بعده ، أقوى منه — وبالتأكيد لا يشير الى عيسى ، كما بينا — قال بطرس انه يشير الى عيسى عليه السلام بقوله بطرس : « الكلمة التي أرسلتها الى بنى اسرائيل يبشر بالسلام بيسوع المسيح . هذا هو رب الكل . أنتم تعلمون الأمر الذي صار في كل اليهودية مبتدئا من الجليل ، بعد المعمودية التي كرز بها يوحنا ... » الخ (أع ١٠ : ٣٦ — ٣٨) .

* * *

هذا عن بطرس ، أما عن بولس . فقد وضع في خطبته في مدينة أنطاكية بيسيدية « ما وضعه بطرس .

» قام بولس ، وأشار بيده وقال :

أيها الرجال الاسرائيليون ، والذين يتقنون الله اسمعوا : اله شعب اسرائيل هذا اختار آبائنا ، ورفع الشعب في المغرب في أرض مصر . وبذراع مرتفعة أخرجهم منها . ونحو مدة أربعين سنة احتل عوائدهم في البرية ، ثم أهلك سبع أمم في أرض كنعان ، وقسم لهم أرضهم بالقرعة ، وبعد ذلك في نحو أربعمئة وخمسين سنة أعطاهم قضاة حتى صموئيل النبي . ومن ثم طلبوا ملكا فأعطاهم الله شاول بن قيس ، رجلا من سبط بنيامين أربعين سنة ، ثم عزله وأقام لهم داوود ملكا الذي شهد له أيضا . اذ قال : وجدت داوود بن يسي ، رجلا حسب قلبي ، الذي سيصنع كل مشيئتي . من نسل هذا حسب الوعد أقام الله لاسرائيل : مخلصا ، يسوع . اذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب اسرائيل ، ولما صار يوحنا يكمل سعيه جعل يقول : من تظنون أنني أنا ؟ لست أنا اياه . لكن هو ذا يأتي معدي الذي لست مستحقا أن أحل حذاء قدميه ... » الخ (أع ١٣ : ١٦ — ٢٥) .

لقد وجه بولس خطابه هذا ليس للى اليهود المعبر عنهم بالرجال الاسرائيليين ، بل وجه خطابه أيضا الى الأمم المعبر عنهم في الخطاب بالذين يتقنون الله . ثم استدلل على أن آخر الأنبياء من نسل داوود : نبوءة في التوراة هي : « وجدت داوود ... » الخ وأن المسيح ابن مريم جاء من نسل داوود تنميما للنبوءات ، وأنه هو الذي كان يبشر بمجيئه يوحنا المعمدان . ولقد أخطأ بولس خطأ بينا في قوله : أن آخر الأنبياء

من داوود ، فان يحيى وعيسى وهما خاتما النبيين في بنى اسرائيل لم يكونا من نسل داوود ، بل كانا من نسل هارون النبي أخى موسى — عليهم السلام — وهذا واضح من الاصحاح الأول في انجيل لوقا . فان زكريا وامراته اليصابات أم يحيى من نسل هارون ، ويقول لوقا : ان مريم قريبة لايصابات ، أى من السبط الذى هو منه ، لأن شريعة بنى اسرائيل تنص على تمييز الأسباط بزواج كل امرأة بواحد من عشيرة سبط أبيها (عدد ٣٦ : ٨) واذا ثبت أن مريم قريبة لايصابات يثبت أن مريم من هارون كما أن اليصابات من هارون .



أما عن استدلال بولس بآيات من التوراة على عالمية الدعوة فهذا ليس في سفر الأعمال ، بل في الاصحاح التاسع من رسالته الى أهل رومية ، والاصحاح العاشر . لقد صرح بقوله : « لا فرق بين اليهودى واليونانى ، لأن ربا واحدا للجميع ، غنيا لجميع الذين يدعون به » (روم ١٠ : ١٢) وأقام الأدلة هكذا :

قال بولس : « فماذا نقول ؟ ألع عند الله ظلما ؟ حاشا . لأنه يقول لموسى : « انى أرحم من أرحم ، وأتراف على من أتراف » فاذن ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى ، بل لله الذى يرحم . لأنه يقول الكتاب لفرعون : « انى لهذا بعينه أقمتك لكى أظهر فيك قوتي ، ولكى ينادى باسمى في كل الأرض » فاذن هو يرحم من يشاء ، ويقسى من يشاء . فستقول لى : لماذا يلوم بعد ؟ لأن من يقاوم مشيئته ؟ بل من أنت أيها الانسان الذى تجاوب الله ؟ ألع الجبل تقول لجابلها : لماذا صنعتنى هكذا ؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة اناء للكرامة وآخر للهوان ؟ فماذا ان كان الله ، وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهية للهلاك ؟ ولكى يبين غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد ، التى أيضا دعانا نحن اياها ليس من اليهود فقط ، بل من الأمم أيضا ، كما يقول في هوشع أيضا : « سادعو الذى ليس شعبى شعبى ، والذى لمهت محبوبه محبوبه ، ويكون في الموضع الذى قيل لهم فيه : لستم شعبى أنه هناك يدعون أبناء الله الحى » وأشعيا يصرخ من جهة اسرائيل : « وإن كان عدد بنى اسرائيل كرم البحر فالبقية مستخلص ، لأنه متمم »

أمر ، وقاض بالبر • لأن الرب يصنع أمرا مقضيا به على الأرض »
وكما سبق أشعيا فقال : « لولا أن رب الجنود أبقى لنا نسلا لصرنا
مثل سدوم ، وشابهنا عمورة » •

فماذا نقول : ان الأمم الذين لم يسعوا في أثر البر ، أدركوا البر •
البر الذى بالايمان ؟ ولكن اسرائيل وهو يسعى في أثر ناموس البر •
لم يدرك ناموس البر • لماذا ؟ لأنه فعل ذلك ليس بالايمان ، بل كأنه
بأعمال الناموس • الخ •

استدل بولس من تورا موسى التى بيد اليهود والنصارى الآن
على أن الديانة الموسوية كانت ديانة عالمية لجميع الأمم بدليلين •
الأول : قول الله لموسى عليه السلام : « أترأف على من أترأف وأرحم
من أرحم » فان « من » للعموم • وهذا النص فى الاصحاح الثالث
والثلاثين من سفر الخروج الآية التاسعة عشر • والثانى : قول الله
لفرعون على لسان موسى عليه السلام : « لأجل هذا أقمتك لكى أريك
قوتى ولكى يخبر باسمى فى كل الأرض » فان « لكى يخبر باسمى
فى كل الأرض » يدل على شيوع هذا الخبر فى العالم ليخشوا الله
العالم كله وهو الله عز وجل فيعملوا بشريعته • وهذا النص فى الاصحاح
التاسع من سفر الخروج الآية السادسة عشر • واستدل بولس أيضا
بأسفار الأنبياء • بآيات فى سفر هوشع وبآيات فى سفر أشعيا
والآيات التى استدل بها من هوشع استدل بها بالمعنى لا بنص الألفاظ
وهى : « ادع اسمه » لوعى « لأنكم لستم شعبي ، وأنا لا أكون لكم •
لكى يكون عدد بنى اسرائيل كرم البحر ، الذى لا يكال ولا يعد •
ويكون عوضا عن أن يقال لهم : لستم شعبي • يقال لهم : أبناء الله
الحى » (هو ١ : ٨ - ١٠) وآيات سفر أشعيا على العالمية هى
« لأنه وان كان شعبك يا اسرائيل كرم البحر ترجع بقية منه •
قد قضى بفناء فائض بالعدل • لأن السيد رب الجنود يصنع فناء •
وقضاء فى كل الأرض » (أش ١٠ : ٢٢ - ٢٣) وهى : « لولا أن
رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة ، لصرنا مثل سدوم ، وشابهنا
عمورة » (أش ١ : ٩) يقصد بالبقية الصغيرة نسل من غير بنى اسرائيل
على فهم بولس — وليس هذا مراد أشعيا — وواضح من الأدلة التى
ذكرها بولس قوة الاستدلال بآيات من أسفار موسى عليه السلام •
لا بأسفار الأنبياء •

والسؤال الأخير في بحثنا هذا : لماذا يعد علماء مقارنة الأديان « بولس » المؤسس الحقيقي للنصرانية لا عيسى ابن مريم عليه السلام ؟ مع أن بولس لم يزد على ما أثبتته بطرس ويعقوب ؟ هل لكثرة جهاده أكثر من رفقاته ؟ هل لكثرة رسائله التي بلغت أربعة عشرة رسالة ولبطرس رسالتان وليعقوب واحدة ؟ هل لأنه اختص بدعوة الأمم وغيره دعا بني اسرائيل لا الأمم ؟ هل لأنه فلسف المبادئ بأسلوب يقنع العوام والسذج والبسطاء من الناس ؟ هل لأنه اجتذب أنصارا أكثر من غيره لقوله : « الدعوة التي دعى فيها كل واحد ، فليثبت فيها » كما في الاصحاح السابع من رسالته الأولى الى أهل كورنثوس ؟ ليس لكثرة الجهاد وكثرة الرسائل ولا لاختصاصه بالأمم • فانهم فعلوا كما فعل — كما بينا من قبل — وانما لأنه فلسف المبادئ واجتذب أنصارا أكثر من غيره • ولا أشك في أنه مات على يهوديته ، التي حرف من أجلها دعوة المسيح عليه السلام • ولعل ما أذكره الآن يصلح دليلا على الحكم عليه :

في اليوم^(١) الثالث عشر من يناير سنة ألف وأربعمائة وتسع وثمانين من الميلاد كتب شخص يهودى اسمه « شامور » حاخام (حكيم) يهود مدينة « ارل » بفرنسا • الى المجمع اليهودى العالمى في « اسطنبول » يستشيريه حول بعض الحالات الحرجة قائلا :

ان الفرنسيين في مدن : « اكس » و « ارل » و « مرسيليا » يتهددون معابدنا • فماذا نعمل ؟

فرد « المجمع اليهودى العالمى » بما نصه :

« أيها الاخوة الأعزاء بموسى •

تلقينا كتابكم ، الذى تطلعوننا فيه ، على ما تقاسونه من الهموم والبلايا ، فكان وقع الخبر علينا شديد الوطأة • اليكم رأى الحاخامين والربانيين :

(١) ورد هذا الخبر في مجلة « الدروس اليهودية » سنة ١٨٨٠ م • وهي مجلة يمولها اليهودى الثرى « جيمس روتشيلد » — نقلا عن ص ٢٦٥ • ٢٦٦ من كتاب « الصهيونية بين تاريخين » — دار العودة — بيروت سنة ١٩٧٢ م • (٣٢ — الاعلام)

تقولون : ان ملك فرنسا يجبركم على اعتناق الديانة المسيحية فاعتنقوها ، لأنه ليس بوسعكم أن تقاوموا • لكن يجب عليكم أن تبقوا شريعة موسى ، راسخة في قلوبكم • وتقولون : انهم يأمرونكم بالتجرد من ممتلكاتكم ، فاجعلوا أولادكم تجارا ليتمكنوا رويدا رويدا من تجريد المسيحيين من أملاكهم • وتقولون : انهم يعتدون على حياتكم ، فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدموا المسيحيين حياتهم • وتقولون : انهم يهدمون معابدكم ، فاجعلوا أولادكم كهنة واكليريكيين ، ليهدموا كنائسهم • وتقولون : انهم يسومونكم تعديات أخرى كثيرة • فاجعلوا أولادكم وكلاء دعاوى وكتاب عدل ليتدخلوا دوما في القضايا الحكومية ، ويخضعوا المسيحيين لنيركم ، فتستولون على زمام السلطة العالية • وبذلك يتسنى لكم الانتقام • سيروا بموجب أمرنا هذا • فتتعلموا بالاختبار أنكم من مذلتكم وضعتكم تتوصلون الى ذروة القوة والعظمة •

٢١ كاسلو (٢) ١٤٨٩

أمير اليهود « أ . هـ »



وضح لنا أن مبادئ النصرانية : مبدأين اثنين ، ثم وضحت لنا عالمية دعوتهم • وكل ما كتبناه الزاما لهم أثبتناه من كتب النصراني أنفسهم • وقد حاولت تبسيط الأساليب عن المعاني ليفهم المتعلم كما يفهم العالم • وانى على يقين من أن الآتين من بعدى سيكونون أقوى منى على الايضاح والبيان • فقد وضعت لهم ما يتكلمون فيه • والله ولى التوفيق •

د . احمد حجازى السقا

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة - بقلم الدكتور الشيخ أحمد حجازي السقا	٢٨ - ٥
البحث الأول - أصل الأتانيم وتطورها - مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية . مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ميلادية . مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ ميلادية . مجمع أفسس الثاني سنة ٤٤٩ ميلادية . مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية	١١
البحث الثاني - المسيا المنتظر	٢٩

* * *

الجزء الأول

مقدمة المؤلف	٤٣
صدر الكتاب : فصل في حكاية كلام المسائل في خطبة كتابه	٥٤ - ٤٧

الباب الأول : في بيان مذاهبهم في الأتانيم

وابطال قولهم فيها

(٨٨ - ٥٥)

الفصل الأول - الأتانيم أسماء أفعال	٥٧
الفصل الثاني - أتانيم : القدرة والعلم والحياة	٦٣
الفصل الثالث - تحليل التثليث	٧١
الفصل الرابع - دليل التثليث	٧٧
الفصل الخامس - في بيان اختلافهم في الأتانيم	٧٩

**الباب الثانى : فى بيان مذاهبهم فى الاتحاد
والحلول وإبطال قولهم فىهما
(٨٩ — ١٥٧)**

٩١	• • • • •	الفصل الأول — اتحاد الكلمة
٩٧	• • • • •	الفصل الثانى — معنى الاتحاد
١٠٥	• • • • •	الفصل الثالث — الواسطة بين الله وبين موسى
١١٥	• • • • •	الفصل الرابع — تجسد الواسطة
١٢٧	• • • • •	الفصل الخامس — فى حكاية كلام المتقدمين
		الفصل السادس — فى حكاية مذهب « أغشتين » اذ هو زعيم
١٤٣	• • • • •	القسيسين

* * *

**الجزء الثانى
الباب الثالث : فى النبوات وذكر كلامهم
(١٦١ — ٢٥٨)**

١٦٣	• • • • •	القسم الأول : فى كلام السائل وذكر الجواب عليه
١٦٣	• • • • •	الفصل الأول : احتجاج أصحاب الملل
١٧٧	• • • • •	الفصل الثانى : المسيح المنتظر
١٨١	• • • • •	الفصل الثالث : المسيح عيسى ابن مريم
		— فصل فى بيان بعض ما طرأ فى التوراة من الخلل وأنها لم
١٨٨	• • • • •	تنقل نقلا متواترا فتسلم لأجله من الخطأ والزلل
		— فصل فى بيان أن الانجيل ليس بمقتواتر وبيان بعض
٢٠٣	• • • • •	ما وقع فيه من الخلل
٢١٥	• • • • •	الفصل الرابع : ماجر أم اسماعيل الذبيح

الموضوع	الصفحة
القسم الثاني : في النبوات واثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم	
المقدمة الأولى	٢٢٧
المقدمة الثانية	٢٤١

* * *

الجزء الثالث

أنواع القسم الثاني في اثبات نبوة نبينا محمد

عليه الصلاة والسلام

(٢٦١ — ٣٨٧)

— النوع الأول : من الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :	
اخبار الانبياء به قبله	٢٦٣
— النوع الثاني : الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله صلى الله عليه وسلم	٢٨١
خاتمة جامعة في صفاته وشواهد صدقه وعلاماته	٣١٥
— النوع الثالث : الاستدلال على نبوته صلى الله عليه وسلم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه	
تنزيل من حكيم حميد	٢٢٣
الوجه الأول : من وجوه اعجاز القرآن : مباينة لسان العرب للسان غيرهم	٣٢٩
الوجه الثاني : نظمه العجيب وأسلوبه الغريب	٣٣٣
الوجه الثالث : ما تضمنه من الاخبار بالمغيبات	٣٣٧
الوجه الرابع : ما تضمنه من الاخبار عن الامم السابقة	٣٤٣
— النوع الرابع في الاستدلال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بجملة من الآيات الخارقة للعادة	٣٤٨
الفصل الأول : في انشقاق القمر	٣٤٨
الفصل الثاني : في حبس الشمس آية له صلى الله عليه وسلم	٣٥٠

٢٥١	الفصل الثالث : نبع الماء وتكثيره
٢٥٤	الفصل الرابع : تكثير الطعام
٢٥٦	الفصل الخامس : في كلام الشجر ، وكثير من الجمادات وشهادتها له بالنبوة
٢٥٩	الفصل السادس : في كلام ضروب من الحيوان وتسخيرهم
٢٦٢	الفصل السابع : في احياء الموتى ، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة
٢٦٥	الفصل الثامن : في ابراء المرضى وفوى العامات
٢٦٧	الفصل التاسع : في اجابة دعائه صلى الله عليه وسلم
٢٧٠	الفصل العاشر : في ذكر جمل من بركاته ومعجزاته
٢٧٣	الفصل الحادى عشر : في ما أخبر به مما أطلع الله من الغيب
٢٧٥	الفصل الثانى عشر : في عصمة الله له ممن أراد كيده
٢٨١	الفصل الثالث عشر : في ما ظهر على أصحابه والتابعين لهم من الكرامات الخارقة للعادات

الجزء الرابع

الباب الرابع : في بيان أن النصارى متحكمون في أديانهم

(٣٨٩ — ٤٥٨)

٤٩٣	الفصل الاول : ليست النصارى على شئ
٤٩٦	الفصل الثانى : خروج النصارى على تعاليم التوراة والانجيل
٤٠٢	الفن الاول : شعائر الدين النصرانى وطقوسه
٤٠٣	— مسألة في المعمودية
	— مسألة في غفران الاساقفة والقسيسين ذنوب المذنبين
٤٠٥	واختراعهم الكفارة للعاصين

الصفحة	الموضوع
٤١٠	— مسألة في الصلوية وقولهم فيها
٤٢٠	— مسألة في تركهم الختان
٤٢٢	— مسألة في صيامهم
٤٢٤	— مسألة في اعيادهم المصانة
٤٢٧	— مسألة في قربانهم
٤٣٠	— مسألة في تقديسهم دورهم وبيوتهم بالمح
٤٣٠	— مسألة في تصلبهم على وجوههم في صلاتهم
٤٣٢	— مسألة في قولهم في النعيم والعذاب الآخران
٤٣٨	الفصل الثاني : محاسن دين الاسلام
٤٣٨	— الغرض من هذا الفن
٤٤٠	الفصل الاول : اعتقاد المسلمين
٤٤٧	الفصل الثاني : دفاع عن الاسلام

ملحق :

المبحث الثالث

(٤٦٠ — ٤٩٨)

٤٦٠	مبادئ النصرانية
٤٨٥	عالية الملة النصرانية
٤٩٩	محتويات الكتاب

رقم الايداع : ٣١٦٨ / ١٩٨٠

التزقيم الدولى : ١٢٠٢ - ٧٢٦٨ - ٩٧٧

طابع دار التراث العربى

ت ٩٣٦١٤٥ - القاهرة